# ربي،

# كيف عصيتك؟!

## الجزء الخامس: كيف أحُثّ نفسي على ترك المعاصي؟


مراجعة: الشيخ/ خ.

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

كتابة:

الأخ/ عبد السِتِّير

# ربي، كيف عصيتك؟!

## الجزء الخامس: كيف أَحُثّ نفسي على ترك المعاصي؟

كتابة: الأخ/ عبد السِتّير

التدقيق اللغوي: هشام عبده الروبي؛ عبد الرحمن غريب علي.

**مراجعة: الشيخ/ خ.**

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

الكتاب يجوز مشاركته أو نسخه لمنفعة المسلمين بالعلم، ولكن ليس للتربح الشخصي. إذا أراد أحد تنقيته أو تلخيصه وإعادة نشره فلا مانع عندي ولكن ليتق الله.

## فهرس الجزء الخامس

5. كيف أحُثُّ نفسي على ترك المعاصي؟ ........................................................................................... 4
التذكرة ........................................................................................................................ 4
الالتزام بتأدية الصلوات في المسجد.......................................................................................... 120
مداومة محاسبة النفس........................................................................................................ 122
الاجتهاد في إصلاح القلب ................................................................................................... 132
إعطاء كتاب الله حقه.......................................................................................................... 138
التطلع في علوم الدين......................................................................................................... 139
الإكثار من ذكر الله............................................................................................................ 143
التفكر والتأمل.................................................................................................................. 145
ترك المشبوه والمُريب مُبكرًا وسريعًا ....................................................................................... 205
الاستعاذة بالله والقضاء على وساوس واستعدادات المعصية في بوادرها ......................................... 214
عدم تجاهل الإنذارات والعقبات التي تظهر للمرء قبل المعصية ....................................................... 216
عدم تجاهل العظات التي ترد على خاطر المرء قبل أو في أثناء المعصية مع إخماد صراخ الضمير ............ 217
التخلص من متعلقات المعصية التي وُقع فيها كي لا يسهل تكرارها.................................................. 218
هجر الأماكن التي تثير رغبة المرء في معصية ما.......................................................................... 219
استيعاب من الذي أعصيه! ................................................................................................... 221
معرفة أن الله، وهو من هو، يُمهلني ويصبر علي كي أُقلع عن عصياني له وأُنيب إليه ........................... 224
معرفة أن الله، بالرغم من أنه يترقب توبتي ويُمهلني، فإنه غني عني تمامًا ........................................... 225
ستر الله علي وأنا أعصيه مع إمهاله إياي كي أتوب، أذلك دون ثمن؟................................................. 227
استيعاب أني عندما أعصي الله، فإني أجعله يغار! ......................................................................... 229
التحرج من استغلال إعذار الله لنا ............................................................................................ 234
عدم الأمن من مكر الله، ومن ثَمَّ عدم الطمأنينة من مصيري في الآخرة.............................................. 235
احذر حين تنام.................................................................................................................. 240
النظر إلى حال من هم أفضل مني في طاعة الله في الدنيا................................................................ 241
النظر إلى حال من هم أقل حظًّا مني في أمور الدنيا ...................................................................... 256
النظر إلى حال المسيئين في الآخرة.......................................................................................... 257
النظر إلى حال المُرتقين في الآخرة........................................................................................... 259
المقارنة بين الترويع والطمأنينة من الله للعبد في جميع مراحل الآخرة بحسب عمله في الدنيا، فأيهما أُحب؟.......... 260
حمل النفس على العمل الصالح للوقاية من المعاصي ...................................................................... 265
مقابلة كل واقعه لمعصية مُحَدَدة بعملٍ صالحٍ مُحَدَدٍ........................................................................ 267
تبديل الحرام بالحلال .......................................................................................................... 269
مرافقة الجماعة الصالحة ...................................................................................................... 270
التخلي عن صديق السوء مهما كان الأمر شاقًّا ومؤلمًا، ولو نزعت نفسك نزعًا ......................................... 271

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ........................................................................................ 282
الإدراك والحيطة من الصفات الفطرية لدى الإنسان التي تقوده إلى المعصية ............................................ 283
وضع في الاعتبار أن الإنسان يُكثر من التجاوزات عندما يتعلق الأمر بجمع المال............................................ 293
تحليل واستيعاب طبيعة رغبة الإنسان........................................................................................ 296
التنوع بين الخمس صفات التي تُعلي الهِمَّة ............................................................................... 299
مطابقة أحوال المرء في الآخرة على حياتنا الحاضرة ...................................................................... 316
البحث عن أكثر منظور فعَّال مع المرء ...................................................................................... 319
الزهد عن متاع الدنيا والإعراض عنها بمعرفة أنها رقيقة زائلة، واستيعاب هوان قيمتها ................................ 326
تجنب الإسراف في المباحات، أو حتى ترك بعضها أحيانًا، لتهذيب النفس وتتطبع بالورع................................ 339
قلة الكلام ........................................................................................................... 344
استمرار التواصل مع الله بالتحاور معه ...................................................................................... 353
الرأفة على النفس في فترة إحداث الإصلاح، لاجتناب اليأس الذي يؤدي إلى إحباط الهمّة وترك الإصلاح ........... 354
إذا لم يجدِ معي نفعًا المواعظ عن الوقوع في المعصية، فلأغير مواجهتي للمُشكلة بأن أسأل نفسي: ما الذي يمنعني من الإكثار من المعصية؟! ........................................................................................ 355
إذا عصيت الله، فإنك تُفرِّح عدو الله: الشيطان........................................................................ 358
الدعاء.................................................................................................................. 360
تمنَّى.................................................................................................................... 365

## 5. كيف أحُثُّ نفسي على ترك المعاصي؟

إن النفس كالطفل، يجب فهمها واستيعابها والتعامل معها بحسب الوضع، فتارة تُعامل باللّين كالعتاب والإحراج، وتارة تُعامل بالحزم كالمُعاقبة والتوبيخ، وهذا كله للتوازن بين عدم تركها تسترسل في الشهوات وبين عدم دفعها للسآمة واليأس بسبب التشديد عليها فتتمرد. إضافةً، فإن التنوع في التعامل مع النفس يكون أكثر فاعلية من حيث النتائج.

والنفس تتطلب جهدًا كثيرًا لتغيير طباعها، خاصة في ترك المعاصي، وخصوصًا أكثر إذا كان العبد اعتاد معصيةً ما بالمكوث عليها أمدًا من الزمن، ففي كثير من الأحوال يكون التدرج في التعامل معها أثمر. فإن لم تستجب، فالتكرار والإلحاح عليها يكون نافعًا آنذاك، كما يُقوِّم الأب ابنه.

وهناك عدة مسالك للوصول إلى النفس والتأثير عليها، أذكر بعضها وربما أغفل عن بعضٍ، فلعل القارئ له ما يضيفه في هذا الباب، إذ إن ما يؤثر على النفوس يتنوع مع تنوع طبيعة الأفراد. لعل إنسانٍ يهتدي بسبب استيعابه لكرم الله عليه، وآخر تكون تذَكُّره وتصوره وهو يُوضَع في القبر تحت الرمال وحده ثم يُحبس ويُترك يؤثر فيه أثرًا بالغًا. وربما آخر يكون علمه أن الشيطان قد انتصر وأخذ منه غرضه، ويشمت فيه بعد إيقاعه في المعصية، هو أكبر دافع له في الإعراض عن معصية ما، فيتجنبها عنادًا في الشيطان رغبةً في غيظه، أو لغضبه أن الشيطان استطاع أن يفرض إرادته على إرادة المرء؛ كل نفس بطبيعتها. فهناك مسلكٌ يُحدث أكبر تأثير على كل النفس، ولكن الإلمام بكل هذه المسالك أرشد وأكثر فاعلية، إذ قد يكون مسلكًا واحدًا لا يأتي بالمراد دائمًا بسبب تكرراه أو في وضع استثنائي أو أمام معصية يستعصي تركها، فيتم التعامل مع النفس بمسلكٍ آخر. التنوع بين المسالك أكفأ في الفاعلية وأفضل في النتيحة.

### التذكرة

قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ} [الأعراف 201]. التذكرة، أي تذكير ووعظ النفس بالحقائق كي تتفكر، تأثيرها يفوق ما يتوقعه المرء، وهي بلا شك أبلغ في نتائجها مع المؤمنين خاصة {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات 55]. بالتذكرة يعلو الإيمان لأن المرء يتذكر مراقبة الله، والثواب والعقاب، ومقصد الحياة، وحقيقة أمور الدنيا، فيراها على حقيقتها المُجردة، لأن التذكرة تَرُدَ الإنسان إلى واقع الحال: أنه عبدٌ لله، وسيموت فيأخذ جزاء عمله، وإنما هذه الحياة الدنيا إلا اختبار.

إضافةً، إن من قضى وقته في علوم الإسلام يُنزّل الله عليه نورًا ويزيده هدايةً، فيكون أتقى لله. وأخير قد يُقابل المرء معلومةً جديدةً لم يكن يعلمها وهو يراجع العلم فتؤثر فيه، أو أنه يراها في ضوءٍ مختلف ومن وجهة نظرٍ جديدةٍ كان هو غافلًا عنها، أو يُدرك معنى تلك الآية أو الحديث بعد أن مر بأحداث مُعيَّنةٍ في حياته فتحت عيناه، أو أحس بمعنى الوصف في الكلام فتَفَهَّم واستوعب المعنى. ومن أبرز الأمثلة على ذلك هو عندما انتقل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الرفيق الأعلى، فتلا عليهم سيدنا أبو بكرٍ الصديق عليهم آيةً في ذلك الوقت العصيب جعلتهم يقتنعون أن الرسول قد فارق الحياة حقًّا، بعدما كانت نفوسهم تُنكر حدوث ذلك.

جاء في صحيح البخاري: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ؛ فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ}. قَالَ (سيدنا عبد الله بن عباس): وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تلاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنْ النَّاسِ إلا يَتْلُوهَا. وقال سيدنا عمر: وَاللَّهِ مَا هُوَ إلا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلاهَا فَعَقِرْتُ حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلايَ وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاهَا، عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ[1] (فَعَقِرْتُ أي هلكت، وقيل هي الدهشة والحيرة؛ أَهْوَيْتُ أي خررت).

ومثال آخر للتوضيح هو قول الله عز وجل {وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ} [التوبة 118، جزء من الآية]. إن ذلك الشعور لا يُستوعب إلا إذا مر به العبد، أن تضيق على المرء الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه، فهي لا تُفهَم ولكنها تُشعَر، فلا يُمكن تعايش إحساسٍ بذروته عن طريق الوصف بالكلام مهما وُصِف بدقةٍ وتفصيلٍ، وذلك مثل الخوف والغيرة. فإعادة قراءة الآية بعد أن يمر المرء بذلك الشعور تجعله يُستوعب معناها أكثر، وتحمل له تلك الآية معنى جديدًا تمامًا فيراها تحت منظورٍ أوسع، ويتعايش معها إحساسًا وفكرًا، إذ إنه يستوعب شعور هؤلاء الثلاثة. حينئذ يترابط ذاك المرء بآية مثل تلك لأنه يشعر أنه في الحدث، وذلك بالمعايشة مع تلك الآية لأنه يرى فيها ما يعمى عنه غيره، فتُأَثِّر فيه ما لا تُأثره في غيره.

للتذكرة فَاعِلية في تخلي العبد عن المعاصي كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ} [الأعراف 201]. ولهذه الآية آراء في تفسيرها، إحداهم أن الذين اتقوا إذا خطر لهم معصية أو وقعوا فيها تذكروا عظمة الله ونعمه عليهم والحساب والعذاب. فهم

---

[1] صحيح البخاري 4097.

أعرضوا عن المعصية إن لم يرتكبوها بعد، وإن كانوا فيها أقلعوا عنها، وإن خالطوها ندموا وتابوا لأنهم أبصروا الأمور على حقيقتها، أنهم قد فُتنوا بمتاع الدنيا الزائلة والتي عصوا ربهم من أجلها.

وهذه الصفة، الإبصار بعد التذكرة، من النعم الغالية التي يُنعم الله بها على عباده المتقين، وينبغي السعي لاستحقاقها واكتسابها، فإن الله يعطيها لمن صدق في سعيه إليها. والعكس صحيح، أن من يتذكر ولم يمنعه ذلك من الإصرار على المعصية استحق سلب تلك النعمة منه، (وإن لم تُسلب منه فعليًا، فقد يترك الله له تلك النعمة كي يزداد حملًا يوم القيامة، مكرًا من الله، أي يُحرَم الاستجابة لها والاستفادة منها مع أن الصفة نفسها لم تُسلَب). ومن قيمة هذه النعمة أنها عونٌ من الله للإحالة بين العبد والمعصية، أو للإسراع بالتوبة بعد المعصية فيمحوها الله فتكون كأنما لم تحدث. إن الله يترقب توبة العبد، وفوق ذلك فإنه يُلهم العبد الصالح تذكر التوبة أيضًا، فلا يبقى للعبد إلا التلفظ بالتوبة. ويكأن الله سخر للعبد كل العوامل ويبقى عامل واحد، وهو تلفظ العبد بالاستغفار، فأي فضل وسعة هذه؟ وسأترك لكم تقييم هذه النعمة بعد الحث على تحصيلها.

وقد عرَّفنا الله بكلتا نتيجتي التذكرة في قوله {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى (9) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى} [الأعلى 9-11]. سبحان الله على دقة وصفه لصفات الناس في أماكن شتى في القرآن، مما لا يدعو مجالًا للشك أنه هو الذي خلقنا. في هاتين الآيتين يقرن الله النقيضين في اتباع الهدى. من اتّبع هواه أعرض عن الموعظة سماعًا وعملًا، ووجد الصبر على حتى سماع التذكرة شاقًّا وكريهًا إليه، وكأنها تؤذيه وتخنقه فيتجنبها. وذلك كما قال تعالى {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ} [المدثر 49-51] (مُّسْتَنفِرَةٌ أي وحشية؛ قَسْوَرَةٍ أي التي تريد صيد الحُمُر، وهو تشبيه بالحُمُر الوحشية التي تفر ممن يريد اصطيادها مثل الرُماة أو الأسد).

وطرق الإعراض بالقول شتى، فإن جاء مُذَكِّرٍ إلى شخصٍ شقي أعرض عنه، إما بتركه أو بتجاهله أو بزجره أو بالسخرية منه، أو حتى بالتعدي عليه. أما طرق الإعراض بالعمل فتشمل ترك طاعة الله بأنواعها، والإقبال على معصية الله بأنواعها، فلا ترى منه إلا قليلًا من الخير وكثيرًا من الشر.

والتعبير "وَيَتَجَنَّبُهَا" بالغ الدقة في الوصف لأن الشقي يجد صعوبة بالغة على قلبه في الإقبال على كلام الله أو ترك عصيانه لله، ونرى على الواقع هذا الحال في أنفسنا أحيانًا أو فيمن حولنا. وللأسف يظهر هذا عامةً، فترى أماكن اللهو ممتلئة والمساجد شبه خاوية، وتبكير الجمهور إلى الملاعب لحجز أماكن مميزة لمشاهدة المباراة، وتأخر عن الصفوف المتقدمة في صلاة الجمعة أو مجلس علم.

التذكرة تأتي بالتعلم من القرآن والسُنة النبوية، وقد قال الله تعالى {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [الجاثية 20]. فالحمد لله على نعمة القرآن، فإنه الوصلة التي بيننا وبين الله، ودليل الإرشاد الذي نزل منه مباشرةً، فكم هو قيّم. فهل من متمسك بالكتاب عارف قيمته بدلًا من هجره كما هو حال كثير من الناس اليوم؟ هذا الكتاب فيه الهدى وهو رحمة من الله، وفيه شرفنا، فمن تمسك به عز، ومن فرَّط فيه ذلّ وتعثّر. وبه يمتنع المرء عن معصية ربه لأنه نورٌ للبصيرة وشفاءٌ للقلوب. وبعد الاستفاضة بتلك المقدمة، نسرد بعض المواضيع التي تُساعد على إصلاح حال المرء:

تذكُّر أصل الإنسان. {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورا (1) إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان 1–3]. تلك هي حقيقتنا. من قبل أن أولَد لم أكن شيئًا، ولم يكن لي شيءٌ في هذه الدنيا. لا أحد يدري بي... لأني لم يكن لي وجودٌ بعد، لا يذكرني أحد. هأنا أُخلق من لا شيء بأمر: كن فأكون، وأُمر بمراحل التكوين، يُجعل لي سمعًا وبصرًا وفؤادًا، ثم أولَد.

أكون ضعيفًا لا أقدر على البقاء من دون من يرعاني، فسخر الله لي أبًا وأمًّا. ثم أُنشأ في سنين عديدة، يُكرمني الله ويقِيَني المخاطر ويرزقني حتى أنمو وأكون راشدًا مفكرًا. أبعد كل هذا أعرِض عن ربي وطريقه الذي حدده لي؟ هل بعد كل هذا أهجر ربي وأتعدى حدوده؟ إن فعلت هذا فما أنا؟ فالحيوان أفضل مني حينئذ، إذ إن الحيوانات تذكر الله! لمَ التكبر، ولمَ الظلم، ولمَ التنصل من إنعام الله عليَّ؟ وعلى ما الإعجاب بالنفس، وأنا أعلم أن ما هي إلا عدة عقودٍ أُخر وسأرجع أكون نَكرةً مرة أخرى لا يذكرني أحد؟ سبحان الله. حقًّا {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرا وَإِمَّا كَفُورا}، أفلا أكون عبدًا شكورًا بعد كل ما قُدِّم إليَّ؟

وقال تعالى {أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى} [القيامة 36–40]. من أعرض عن طاعة الله وأقبل على معصيته فليتذكر هذه الآيات، فهذه هي حقيقة الإنسان: ألم نكن مجرد نطفة من منيٍ يُمنى؟ وإذا رأى الإنسان نطفة لن يُلقي لها بال لأنه في ذروة قوته التي وهبها الله له، مع أنه كان مكانها من قبل.

ثم كنت علقة... فخلقني.... فسوّاني. فعلًا، إن الإنسان لشيءُ هزيل ليس له معنى أمام قدرة الله... يفعل بنا ما يشاء سبحانه، إن شاء أن يخلق أحدُنا معاقًا لكان أمرًا مفعولًا. فلمَ المعصية؟ لماذا لماذا؟ وكيف نتجرأ بعد الظروف التي مررنا بها؟ كنا لا شيء، وسنبقى لا شيء أمام الله. نحن في الأصل كما يُطلق في الطب "حيوانات منوية"! ولولا أن الله اختارنا من بين سائر قرنائنا الحيوانات

المنوية الأخرى لما وُلِدنا. كل واحد منا كان واحدًا من ملايين الحيوانات، وتم اختيار كل واحد منا من قِبَل الله لدخول البويضة الوحيدة في الأم، ويكأن تلك البويضة مخصصة له من قِبَل الله، وهذا هو أصلنا.

قدرة الله، ووقايته لنا، وتهيئ العوامل لنا، ورزقه لنا جعلنا ما نحن عليه الآن من وجود وقوة، أفبعد هذا أعصيه... بأي منطق هذا؟ أنا أدين لله إذا تفكرت "لماذا اختارني أنا؟!" فوجودي في هذه الحياة ليست مسألة عشوائيةً، فلو كانت عشوائيةً لكان من حقي أن أعيش عشوائيًا، أفعل ما أشاء من الاستمتاع بالدنيا وما فيها دون قيود. ولكن الأمر ليس كذلك، إني خُلقت بقصدٍ ولقصدٍ، وفي إطار مخطط، لغاية محددة، فإذا أدركت هذا يكون السؤال: لماذا أخرج عن المخطط؟! فمن المتعارف عليه عامةً أن الشيء الذي لا يؤدي المقصد الأساسي الذي صُنع له يُصَنَّف بأنه معلول، وينطبق ذلك المبدأ على المصنوعات أيضًا مثل المنازل، فما الفائدة من عمارة بُنيت ولكنها لا تصلح للسكن بسبب أنها بدأت تميل؟ ما فائدة سيارة عالية التقنية ولكنها لا تمشي بسبب كسر حدث في محور العجل؟

ويُذكرنا الله أيضًا {أَوَلَا يَذْكُرُ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا} [مريم 67]، فتعالى الله مما يتصف به عباده. إن الإنسان لم يكن له وجود، ولن يكون له وجود عندما يموت لأنه لن يذكُره أحد وإن بعد أمد طويل، أما بين ذلك فيتجرأ ويعصي ربه. حياة الإنسان ليست طويلة، لأن ستين أو سبعين أو حتى مائة عام ليس بشيء مقارنة بكثر مما يحيطنا، فهناك أشجار تعيش قبل ما أولد وستستمر بعد أن أموت، وربما عدى عليها أجيال كثيرة متتالية من البشر، فهذا يدل على مدى قصر عمر الإنسان. عمر الأرض –بحسب علماء الصخور– أربع ونصف بليون عام تقريبًا، وعمر الكون بالتقريب هو 12 بليون عام.... فماذا يُشكِّل عمر الإنسان بالمُقارنة؟!

والغريب أن الإنسان يعصي ربه مع أنه لم يكن شيئًا في الأصل، ثم مر بمراحل النمو من نطفة والعلقة والمضغة وتكوين الأعضاء، ثم يُولد طفلًا لا حول له ولا يستطيع النجاة دون رعاية الآخرين، فلو تُرك لمات. ثم ينمو جسده وعقله تدريجيًا، وبعد كل تلك المراحل والرعاية ما يلبث أن يعصي ربه مع بداية اعتماده على نفسه وتحصيله لبعض القوة. والمصير هو كما بدأ، فيضعف الإنسان مع الهرم حتى لا يستطيع البقاء دون رعاية، ومنهم من يبلغ أنه لا يستطيع فعل الأمور البدائية مثل الذهاب إلى الخلاء، ثم يفنى، فيرجع كما كان لا شيء إذ تأكله الأرض، ولا يُذكر عند الأحياء عاجلًا أو آجلًا لأنهم لم يتعاملوا معه شخصيًا.

لعل معرفة أصلي ومصيري يمنعني من معصية ربي. فيا أيها الإنسان، ما غرَّك بربك الكريم، الذي خلقك فسواك فعَدَلَك، في أي صورة ما شاء ركَّبك؟! أي شيء خدعك وجرَّأك على معصية الذي

أحسَنَ خَلقِكَ ونعَّمك؟! اللهم اغفر لنا طباعنا ومعاصينا، ففي المقام الأول والأخير أنت ربنا دائمًا وأبدًا، وأنت خالقنا وباعثنا، ونحن عبادك شاء من شاء منا أو أبى من أبى منا.

وبالطبع لا يمكن أن ننسى الآيات الأوليّة في النزول التي، لحكمة الله، تتكلم عن نشأة الإنسان ضمنيًّا {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى (6) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى (7) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى} [العلق 1–8]. آيات جميلة بدأت بها سورة العلق، وفيهن أول الآيات تنزيلًا على رسولنا محمد (صلى الله عليه وسلم).

والعجيب أن في تلك الآيات بيانًا لتطور الإنسان، وقد نزلت على سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو لا يستطيع أن يقرأ، حين قال له سيدنا جبريل (عليه السلام): اقرأ، وكان رد الرسول (صلى الله عليه وسلم): مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فسبحان الله الذي جعل في هذا لفتة لنا، أن الإنسان لا يزال ينشأ ويتطور ويرتقي ما دام يتنفس بتفضل الله عليه في العلم (والنِعَم عامة)، فعسى بذلك ألا يتكبر الإنسان عن طاعة ربه.

وقد جاءت الآيات تبين تطور الإنسان، أنه خُلق من علقة، ثم مر بالمراحل حتى يُولد، ومن ثمَّ يبدأ التعلم. ولا يزال الإنسان يتعلم ما لا يعرفه حتى يأتي أجله، ولا يزال يجهل أكثر مما يعلمه، ويبدأ التعلُّم بالتلقين والاستكشاف والمحاولة، ومن أنواع ذلك التعلم هو تعلم الكتابة بالقلم. ويُذكرنا الله بتلك المرحلة التي كنا في هزل وضعف حينها حتى إننا كنا لا نعلم كيف نكتب بالقلم، ولا ماذا نكتب. كنا نُخطئ، وفي ذلك بيان لضعفنا.

ثم عمَّم الله مَنَّه على الإنسان بالعلم بقوله "عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"، وهذا ما يخفق الإنسان إدراك قدره في كثير من الأحيان، بل وبعض الناس يستخِّفون بقدر تلك النعمة. وكي يُدرك المرء مدى اعتماده على تعليم الله له، حتى يستوعب مدى ضعفه، يجب أن نلاحظ أن الأشياء التي نأخذها على أنها مُسَلَّمة ليست كذلك، إنما هي هبة. وأقصد بذلك أني إذا سألت شخصًا أن يبتكر لي اسمًا جديدًا لشخصٍ لم يُسمّ به أحدٌ من قبل فسوف يرتبك ويُطوِّل، وسيجد أن الأمر أصعب مما كان يظُنه؛ ثم إذا جاء باسمٍ مبتكر لن يكون ذلك بسبب مهاراته، بل سيكون ذلك لأنه تعلم أساس تركيب الأسماء، وهو خليط ما بين الاستنباط من أسماءٍ سابقة واستخدام الأحرُف الأبجدية التي تعلمها!

ودليلي على كلامي هو قول الله تعالى {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة 31–33]. فيتبين لنا من الآيات أن حتى

أسماء الأشياء والمخلوقات لم يعلمها أحد من تلقاء نفسه، ولكن الله علمها سيدنا آدم (عليه السلام) وسأل الملائكة عن أسماء تلك الأشياء فعجزوا!

حتى سيدنا آدم (عليه السلام) لم يكن ليعلمها وكان سيعجز عن ذلك لولا أن الله نبأه بأسماء الأشياء، ثم قال له أن يُملي على الملائكة تلك الأسماء. فمن منا يرى أن سيدنا آدم (عليه السلام) له الحق في التكبر لمجرد أن الله ميزه بتعليمه الأسماء دون الملائكة، فهل ذلك يستدعي التكبر والتفاخر؟ بالطبع كلنا سنقول لا، ولكن لسان حال الإنسان في الأرض يُنطق بغير ذلك، أنه يتفاخر بنفسه ويتكبر على طاعة الله وعلى الناس لمجرد بعض العلم أو المال أو بسطة في الجسد أو سلطة تفضل بها الله على ذلك الشخص تحديدًا، مما يؤدي إلى أن الإنسان ينسى فضل ربه فيعصيه. فأين أنت يا هذا مما وهبه الله لك، هل أنت اختلقته بنفسك حقًّا، أم أنه شق من هبة الله قد أعطاك الله إياها وتظن أنك المبتكر؟ ففكر مُجددًا، إذا كانت الأسماء نعجز عن ابتكارها بسهولة، فكيف بما هو أعقد من ذلك.

ثم جاء ذكر طبع محدد في الإنسان مباشرة بعد تلك الآية، أنه إذا خُلق ثم تمَكَّن طَغى، أي حتى إذا بلغ مرحلة تقدمه واستطاع أن يقف على رجليه ويعتمد على نفسه، نسي ما جاءه من الإحسان وفضل الله عليه وتلك المراحل التي كان فيها ضعيفًا فطغى عن أوامر ربه، واستغنى عنه في ظنٍّ منه أنه يستطيع تدبير أمور نفسه بنفسه دون مساعدة من الله، وهذا يصدر إلا ممن هداه الله. فهذا طبع الإنسان، النسيان والتغافل -وربما الجحود عند البعض- بنعم الله، فالإنسان إذا كان في العُسر لا يتخيل حاله وهو في عزٍّ، وإذا كان في نعماء لفترة طويلة لا يتخيل أن يصبح في عُسر بزوال تلك النعم فيصير ضعيفًا ومُحتاجًا إلى العون، وإذا كان صحيحًا فإنه لا يتذكر مدى هوانه في فترة مرضه.

وتعقيب تلك الآية مباشرة بما سبقها من ذكر تكوين الإنسان هي إشارة على سرعة طغيان الإنسان لحظة اعتماده على نفسه، وكأنه طبعٌ أساسي عنده. ومن ذاك الطبع وجب الاحتراس، ووجب الاستعانة بالله للتغلب على تلك الصفة، حتى نكون من المؤمنين الذين من صفاتهم الإنابة والوفاء، ولا نكون غدّارين ناكرين.

تذكُّر مآل الإنسان. قال تعالى {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} [الرحمن 26]، فإن تأُملنا في هذه الآية أدركنا بعض أبعادها. أنا الآن حي والحمد لله، وعندما أفكر في أجداد أجدادي فإنهم يمرون في ذهني لحظات، ولكن عندما قرأت هذه الآية تغير منظوري. إنهم كانت لهم حياة، تعبوا وفرحوا ومرّوا بمشوار الحياة، ثم ماتوا وهم الآن في قبورهم (يُنَعَّمون أو يُعذَّبون) وينتظرون الحساب. إذًا وماذا عني؟

سيأتي يومًا لا يُفكر فيَّ أحدٌ ولا حتى أحفاد أحفادي نهائيًا إلا كما أتذكر أجداد أجدادي، بالرغم من كل ما أرى أني حققته ومررت به في حياتي، وذلك لأنهم لم يعاصروني ولم يختلطوا بي. فقد عشت، وشعرت في حياتي أني محبوب أو مميز أو مُبتلَى أو كذا أو كذا... ولكن الحقيقة يجب أن أتقبلها... أنني سأموت، وتُبلى كل آثار أعمالي المرئية والحسّية عبر الزمن، ثم أُنسى، وهذا هو الفناء الحقيقي من الدنيا.

ألست إن كنت مميزًا حقيقةً لدام تذكر الناس بي؟ وسيأتي اليوم الذي لا يعرفني أحد ولا يُهتم بقصة حياتي الخاصة بي، التي بالنسبة إليَّ أمرٌ كبير. وفي النهاية، يأتي يومٌ يفنى فيه كل فرد، شاملًا ذكراه كائنًا من كان وبالغٌ ما بلغ، لأن {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}، فتأتي اللحظة التي ليس فيها مخلوق حي على الأرض، ثم يتلوها لحظة ليس هناك مخلوق حي في الكون إلا الله!

وهذا يقودنا إلى حقيقة واحدة... أننا كلنا ما نحن إلا عباد لله، ولن يكترث أحد بقصة حياتي في الآخرة إلا خالقي (والرسول صلى الله عليه وسلم، لأني مُنَّ عليَّ أن أكون من أمته التي هو حريصٌ عليها)، وسيحاسبني الله عليها. فلا يتفضل أحد على أحد إلا من يُفضِّله الله بحسب إيمانه. فما فائدة الحياة دون طاعة الله، بل أين الحياة دون طاعة الله. عن البَرَاءِ (رضي الله عنه) قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جِنَازَةٍ، فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ فَبَكَى حَتَّى بَلَّ الثَّرَى، ثُمَّ قَالَ "يَا إِخْوَانِي لِمِثْلِ هَذَا فَأَعِدُّوا"[1].

وعلى ذلك المنهج من التفكير، فقد كان لأُمَمٍ سابقة حياة، وكانوا يتحدون آيات الله وصدق النبوة وحقيقة الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه مُرسل، فعاندوا وتكبّروا وقاوموا، وكانوا بذلك عقبة لنشر الإسلام الذي فيه النجاة للناس عامة. ونزل قول الله في أمثالهم {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ} [الأنعام 158]. فأوصى الله رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يقول لهم أن ينتظروا إحدى تلك المهالك عليهم، وأن المسلمين ينتظرون أن يأتي أمر الله على هؤلاء، وكان على المسلمين الصبر على أذاهم حتى ذلك الحين.

وبالرغم من ثقل ذلك الوضع فإنه قد مضى، وقد هلك هؤلاء وغيرهم ممن كان مثلهم ويأخذون جزاءهم، ونشأ بعدهم من كان مثلهم وهلكوا، حتى إن في هذا الزمان من نشأ مثلهم وينتظرون هلاكهم، كلهم بذلوا طاقات وأموال وهمومٍ ومكايد بالغة ومع هذا يزداد انتشار الإسلام. فأين الجديد في سُنّة الله في من قاوم الإسلام؟ فمصير المكذبين والمنافقين هلاكهم في الدنيا والآخرة، وذهاب أعمالهم هباءً، تمامًا مثل من كان قبلهم. وعلى ذلك النحو، فالوضع متشابه لمن أسلم ولكنه يُفسد في الأرض

[1] سنن ابن ماجه 4185.

بالمعاصي، فستكون عاقبته الضلال في الدنيا والعقاب في الآخرة. فالذين يجحدون بالإسلام والذين يُسرفون في المعاصي بعد إسلامهم ينتظرون عذاب الله، وذاك حالهم، فأين المكسب في وضعية انتظار بدءِ العذاب، وأين سكينة النفس مع العلم بذلك؟! فانتظار العذاب عذاب في حد ذاته، عافانا الله من أن نقع فيه، ونرجو السلامة من أن نكون من هؤلاء.

فكلٌ هالك إلا من عَمِل للآخرة، ومهما عملت وأنجزت في الدنيا، فسيزول يومًا ما لأنه يُهدم كل شيء في الآخرة ولا تبقى للأرض ملامح {كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا} [الفجر 21]. والأرض التي طُوِّرَ عليها كل شيء عبر الزمن يطمسها الله {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [إبراهيم 48]. هذا يعني أن كل عمل بن آدم يذهب هباءً إلا قيمته وصفته التي مكتوبة في كتب الأعمال، ولا يبقى من ملامح الأعمال شيء (فالقاتل يُكتب قاتلًا ولكن المقتول يعود للحياة بالبعث، والبنّاء يُكتب بَنّاءً ولا يبقى من منشآته شيء).

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ"[1]. فيجب أن يكون عملي في طاعة الله أولًا، لأن ما دون ذلك يذهب هباءً تمامًا، ثم أتبعه بعملي لإعمار الدنيا لكسب ما يُغنيني عن سؤال الناس ولإفادتهم، مع الإخلاص لله في جميع أعمالي، ونيَّة التقوِّي لطاعة الله ولأصبح مؤمنًا قويًّا. والخسارة كل الخسارة إذا قدّمت عمل الدنيا على عمل الآخرة، وتكون غايتي في حياتي هي تحصيل أمر من أمور الدنيا، مثل المال أو المنصب أو الشهرة أو غير ذلك، فتشغلني عن طاعة الله وأعمال الآخرة. قد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ"[2] (مَلْعُونَةٌ لأنها تُبعد الناس عن الله؛ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا أي ما في الدنيا مما يُشغل عن الله؛ وَمَا وَالَاهُ أي وما قاربه، مثل العمل الصالح وتجنب معصيته؛ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ أي الذي يُعلِّم أو يتعلم العلم النافع الدال على الله).

فما لي لا أترك المعاصي وقد قال الله عز وجل {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الحجر 92- 93]. فلمَ لا أبادر بطاعة الله وترك معصيته قبل أن يأتيني الموت وأفنى؟ منذ تلك اللحظة لن ينفعني أحد، ولا حتى أنا لنفسي. ويقول الله عن أهل الجنة وما حظوا به بعد أن رأوا أصحابًا لهم في النار {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ} [الصافات 60- 61]. كلٌّ يسعى وراء منفعة ونجاة نفسه فحسب ولو على حساب غيره من شدة الهول يوم القيامة، فلماذا يكون عملي لا يُرضي الله، بأن يكون رياءً أو من أجل إرضاء مخلوق وفيه ما يغضب الرب؟ يجب أن يكون كل عملي خالصًا فقط لله، فلماذا أعصي ربي إذًا؟ من أجل من أو من أجل ماذا؟ فوالله

[1] صحيح البخاري 6033.

[2] سنن الترمذي 2244، وعلى نحوه في سنن ابن ماجه 4102.

إن نفسي والناس كلهم والدنيا أصغر من أن أعصي الله فيهم. فالمعصية من أجل نفسي تكون أنانية، ومن أجل الناس تكون سفهًا.

ثم إني كان لي جد جد، وقد تُوفي (اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات وارحمهم، الأحياء منهم والأموات)، وكل من بعدهم توفوا إلا أبي أو جدي بالكثير. ثم ماذا؟ سيأتي دوري في يوم ما. ثم دور أولادي، ثم أحفادي، وهكذا. إني لا أموت وحدي، ولكن أموت أنا وأصدقائي والناس من عمري في العادة، أي أن الموت يأخذ جيلًا جيلًا وراء بعض. فهأنا الآن، قد تُوفي كل الأجيال قبلي حتى جيل جدي، ثم سيكون جيل أبي، ثم يكون جيلي أنا، ثم جيل أولادي وبعده أحفادي... كل جيل وراءه قصة ووراءه حياة كان يعيشها، ثم تنتهي. وها هو ربي موجود، باقٍ، دائم، لا يموت ولا ينام، صابر، جيل يأتي وجيل يذهب، ويصبر علينا وعلى الجيل الذي جاء للتو حتى يقضي أجله لعل وعسى أن يتوب ويرجع بعضهم إليه قبل الأجل، حتى ينتهي آخر جيل، حتى يوم القيامة. كل هذه الأجيال التي تركها وصبر عليها الله –رحمةً منه– ستقوم كي تُحاسَب، فردًا فردًا!

الله سبحانه وتعالى يقول عن أحد الكفار الذي تحدى قدرة الله {أَفَرَأَيْتَ الّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأوتَيَنّ مَالا وَوَلَدا (77) أَطّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتّخَذَ عِندَ الرّحْمَنِ عَهْدا (78) كَلاّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّا (79) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدا} [مريم 77–80]. هذه هي القدرة الحقيقية المطلقة المتناهية، أن يعطي الله ما أراده الكافر، ثم لا يغني عنه شيئًا يوم الحساب أمام الله، بل ويكون عبئًا عليه يوم القيامة، ثم فوق ذلك تأتي اللحظة أن يسلبه الله كل ما تفاخر به ويُحاسَب كما حدد الله... فردًا! هذا هو كمال القدرة والسلطان.

ويقول الله لمن ادّعى أن لله ولدًا {إِن كُلّ مَن فِي السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ إِلاّ آتِي الرّحْمَنِ عَبْدًا (93) لّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدّهُمْ عَدّا (94) وَكُلّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم 93–95]. ولو شاء الله لخلقنا وأدخلنا النار جميعًا، أو بعضنا النار وبعضنا الجنة (لأنه يعلم من سيطيعه ومن سيعصيه)، ولن يكون قد ظلمنا لأنه هو الذي خلقنا ويعلم اختياراتنا مُسبقًا! ولكنِ الله ذو رحمة واسعة بجانب قدرته المُطلقة، فتركنا نمر بمرحلة حياة الدنيا كي يقتنع كل واحدٌ منا بمصيره عندما يلقاه! وكرم الله علينا أدرك كل الأجيال، فلماذا بعد ما علمته هذا لا أتقي الله؟ قد أمهلني الله برحمته ثم أنا أستغل ذلك!!! لا أجد إجابة لما أفعله إلا أني حقًا.... طين.

تذكر أن ما بين أصل ومآل الإنسان فترة قوة مؤقتة، ولكن حتى تلك يتخللها فترات ضعف. قال تعالى {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [الروم 54]. سبحان الله، في الفترة القصيرة التي يكون فيها الإنسان مُقتدرًا،

بين ضعفه في نشأته وضعفه عند شيبته وموته، يعصي ربه. ويا ليتها حتى كانت فترة قوة صافية ليكون عذره مقبولًا أكثر بأنه نسي أنه ضعيف حقيقةً، ولكن يتخللها شوائب فترات ضعف بين المرض والظُلم من غيرهِ والإجهاد والنوم والبلاء في ماله أو أهله وغير ذلك، يُذكِّرونه بضعفه.

نجد أن الإنسان إذا مرض مثلًا، فإنه يضعف لدرجة أنه يحتاج المساعدة ممن حوله، فيستشعر ضعفه فيتواضع، ويطلب المساعدة حتى إن كان يكره أو يستصغر الذي سيطلب منه مساعدته. ولو كان المُعالج في بلاد بعيدة لذهب إليه، وإن كان العلاج غريبًا أو مُهينًا لفعله، وذلك من شدة يأسه إلى أن يبرأ من مرضه ويستعيد قوته. وجوهر القضية هو أن المريض لا يملك حيلةً ولا قوةً بتاتًا، خاصةً لو أن المرض تمكن من جسده فأصبح راقدًا، لا يستطيع طرد الجرثوم من جسده حتى يضطر إلى أن يُسَلِّم أمرهِ لله وإن أخذ بأسباب الشفاء، وأن يترك زمام الأمور لمناعة جسده التي أبدعها الله أن تعمل، لا يملك إلا أن يصبر عليها حتى تقضي هي على الجراثيم الدخيلة في جسده. فالمريض (والسليم أيضًا، ولكنه لا يتأمل هذا إلا في أثناء المرض) عاجزٌ إلى درجة أنه لا يعرف كيف يدير جسده داخليًّا، وإن عرف فلن يستطيع السيطرة والمُحافظة على النُظم المُعقَّدة، ولا حتى توجيههم في الاتجاه النافع، لاسيما أنه يحتاج أن ينام، وهذه هي حقيقة الأمر.

والظاهرة التي يجب أن نلاحظها ونواجه أنفسنا بها هي أنه إذا عُرضت على المريض، في أثناء وهن جسده وعنده حُمَّى، المعصية التي اعتاد أن يرتكبها، لأعرض عنها، وإذا أجبر نفسه على الإقبال عليها فإنه يُعاني ويكون كالمُعَذَّب. القضية ليست فقط لخشية الله، إذ إن حتى الكافر يتوقف عن العصيان عند مرضه. لماذا إذًا هذا التغير؟

وأيضًا، فإن المريض ينظر إلى حياته بتمعن وصدقٍ أكثر، يُراجع نفسه ويعترف بمظالمه، فيندم على أفعال ارتكبها وتقصيره فيما عليه فعله، وينوي إصلاح ذلك. وفوق هذا بالطبع فإنه يلجأ ويُخلص مع الله، وذلك لحاجته إلى الله معنويًّا -لتحمل ما هو فيه من عناء وللدعم لأنه لا يعلم أين مصيره-، وجسديًّا -للتعافي والتَقَوِّي مرة أخرى-. والفرق بين الرجل الصالح والفاسد هو ما الذي يفعله بعد أن يُعافيه الله، هل حقًّا يُتابع نيّته للانصلاح فيُصلح أعماله بعد استعادة قوته، أم يرجع إلى ما كان عليه قبل مرضه؟

فإذا كان حاله هكذا عند ضعفه وعجزه المؤقت بمرضٍ، فما بال حاله عندما يكون ضعفه دائمًا وعجزه أكبر مثل مرض مذمن أو خسارة عضوٍ من جسده، أو الأدهى وهو داء الموت؟ هل ينتظر مثل تلك الأوضاع حتى يعزم على التوبة وفعل الخيرات؟ هذا في الحقيقة إذًا أشبه بالإجبار على التوبة وفعل الخيرات، لأن مثل ذلك العبد ينوي التوبة والعمل الصالح عندما يُجبر على القعود عجزًا بسبب ضعفٍ أصابه، ثم يرجع إلى ما كان عليه من إعراض عن الله بعدما يرجع قويًّا، فلا خير ولا صدق في ذلك. بَصَقَ الرسول (صلى الله عليه وسلم) يومًا في كَفِّهِ فوضع عليها أُصبُعَه، ثم قال

"قَالَ اللَّهُ: ابْنَ آدَمَ، أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ! وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟"[1]. بل فما بال حال الإنسان عندما يكون أضعف مما هو فيه من مرض الموت: في القبر مُغلقٌ عليه، لا يتحرك، وقد استلمه المَلَكان؟

وحول معاني الحديث المذكور آنفًا: "وَعَدَلْتُكَ" أي الصرف إلى أي صورة شاء، حُسنًا وقبيحًا، وطويلًا وقصيرًا؛ "بُرْدَيْنِ" هو كساء يُلبس فوق الثياب أو رداء مُخطط، وهي إشارة إلى حُسن الملبس؛ "وَئِيدٌ" أي صوت من شدة الوطء على الأرض، إشارة إلى أنه يمشي مختالًا فخورًا. "فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ" أي جمعت من الدنيا ومنعتها من الفقير والمسكين بالامتناع عن الصدقة أو الزكاة؛ "بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ" أي بلوغ الروح إلى أعلى الصدر في أثناء خروجها من الجسد عند الموت.

فلو أن الإنسان أبصر ضعفه حق الإبصار، لأوشك أن يتوقف عن معصية ربه، إذ إن يقينه بضعفه يزيد من قوة إيمانه بأنه سيُغلَب فيُبعث ويُحاسب على أعماله. واليقين بالبعث والحساب يزيد من درجة إيمان المرء مُجملًا، ونعمة الإيمان من النعم التي يغفل عن قيمتها كثير من الناس. ذلك لأن من قوِي إيمانه أبصر الأمور الخفية وكأنه يراها رؤية العين، مثل نار جهنم، فيسهل عليه طاعة الله وتجنب معصيته. والنتيجة، أن عمله يكون في أعلى درجاته، وتلك هي عادته وليست طفراته.

قال لنا عبد الرحمن بن مهدي في رجلٍ مجتهدٍ: لو قيل لحماد بن سلمة: إنك تموت غدًا؛ ما قدر أن يزيد في العمل شيئًا[2]. فبما أن حال الإنسان مُتقلبٌ بين قوة وضعف، لماذا لا تنهانا فترات ضعفنا عن عصيان الله في فترات قوتنا؟ أليس المُتوقع ممن يضعف كثيرًا أنه يتعظ ويمتنع عن معصية ربه؟

**تذكُّر وتدبر المغزى من حياتنا في الدنيا.** قال تعالى ﴿الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ (4) مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت 1–6]. معرفة مقصد الحياة الدنيا يُساعد العبد على البُعد عن المعاصي، فمِن الآيات المذكورة يتبين أن القضية ليست فقط الاعتراف بأن المرء مؤمن، بل وجب إثبات ذلك عمليًّا. وذلك يكون عن طريق فعل

---

[1] مسند أحمد 17170.

[2] سير أعلام النبلاء لمحمد الذهبي 447/9.

ما أمر الله به وترك ما نهى عنه في جميع الأحوال، سواء في اليسر أم العسر، وسواء في الأمور المتعلقة بضروريات (مثل المكسب والمأكل) المرء أم بترفيهه.

إن أغلب من في الأرض يقولون إنهم يؤمنون بالله، ومع ذلك قال الله تعالى {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف 103]، ومعنى هذا أن القول ليس المؤشر الأساسي على الإيمان. فمن الناس من يقول إنه يؤمن بالله ومع ذلك يقول إن المسيح ابن مريم (عليه السلام) هو ابن الله أو إنه هو الله، فهل هذا الشخص يُعَد من المؤمنين بالله بمعنى الكلمة؟ قياسًا على ذلك، ولكن بدرجة أهون، من يقول إنه يؤمن بالله وحده ومع ذلك فإنه كثيرًا ما ينتهك حدود الله ذهابًا وإيابًا بمنتهى اللا مبالاة، ويُقصِّر في الأعمال المفروضة عليه أيضًا، فهل هذا أدرك معنى الإيمان حقيقةً؟ ومنهم من يزيد على ذلك فيُعين أعداء الإسلام على المسلمين، ويظل يُردد كلمة التوحيد، فهل هذا مؤمن، بل وهل هذا مسلمٌ وأفعاله تتسبب في دفن الإسلام؟

ولذلك فإن الله سن أن الدنيا تكون دار تمييز بين الناس في درجات إيمانهم، ومقر لتفرقة الصالح من الطالح، ويكون ذلك بأن الله يضع الناس في اختبارات متنوعة ومتكررة. فمن الناس من يعصي الله في السراء والضراء، ومن الناس من يعصي الله في السراء إذ يغتر ولكن إذا ابتُلي تضرع وأناب إلى الله، ومن الناس من لا يعصي الله في السراء ولكن يعصيه حين يُبتلى (مثل الذي يسرق أو يرتشي إذا ضاق عليه الرزق)، وهناك أفضلهم وهو من لا يعصي الله في السراء ولا الضراء، وكلٌّ له منزلته عند الله. وليس الوضع بتلك البساطة أيضًا، فمن الناس من لا يعصي الله في الضراء إذا أصابه مرةً، ولكن يعصي الله إذا تكررت الشدة، ولذلك يتنوع البلاء الذي يُرسله الله من حيث النوع والمقدار والتعدد وتردده ومُدَّته.

فالبلاء، من الناحية النوعية، في أمر كبير ليس كالصغير، مثل الذي يُبتلى في دينه والذي يُبتلى بشوكة تجرح يده؛ والبلاء، من ناحية مقداره، الشامل غير البلاء الجزئي، كالذي يفقد ماله كله والذي يفقد قليلًا من ماله. والبلاء، من ناحية تعدده، الواحد غير الابتلاءات المُركَّبة، كالذي يفقد فقط ماله والذي يفقد صحته وماله في حادث؛ والبلاء، من ناحية تردده، المنخفض غير البلاء المرتفع، كالذي يؤذيه جاره بين الحين والآخر والذي يؤذيه جاره يوميًّا. والبلاء، من ناحية مُدَّته، العابر غير الذي يمكث، كالذي يمرض بضعة أيام ثم يشفيه الله والذي يُلازمه مرضٌ مُحدد بقية حياته. وكل تلك العوامل تؤثر على قرارات المرء وقوة تحمله وصبره، ومن ثَمَّ نوعية عمله، وحينئذ يفرق بين درجات الإيمان، وهذه غاية الله من وضعنا على الأرض دهرًا من الزمن.

فاعلم أخي، أن في كل منعطف اختبارًا، وستُبتلى بطرق شتى وستظهر أمامك العقبات، فلا تَهن عن تمسكك بإيمانك سواء لشهوة من الدنيا أم لحاجة فرضها البلاء، فهل أنا وأنت سنتمسك؟ سنرى في آخر الطريق، والله المستعان.

وقال تعالى {وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [الجاثية 22]. ما كان الله ليخلق كل هذا هباءً، فكل ما حولنا حق، وبوجوده ينطق بلسان حاله: أنا دليل على وجود إلهٍ، وإجمالًا فإن كل المخلوقات تشير بطرق مختلفة إلى حقيقةٍ واحدةٍ: أن الإله الذي خلق هذا هو نفس الإله الذي خلق ذاك وذاك، أي أنه لا إله إلا إلهٌ واحدٌ، وهو الله. وبعد أن رأيت الأدلة رؤيا العين، لماذا لا أتعظ وأعمل صالحًا ليومٍ لا ريب فيه، أنا ملاقٍ فيه عملي ثم يوفَّى إلى جزاؤه بحسب نوعه؟ والله إن الحساب لحق، وإنه لشيءٌ دقيق.

ومن الذي يقول إن اختبار الدنيا سهل؟ بل هو يحتاج إلى كبد وصبر، وهكذا يكون الاختبار، ولذا وجب علينا الاجتهاد في طاعة الله والابتعاد عن المعصية. وقد جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "حُجِبَتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ وَحُجِبَتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ"[1]، ففي الحديث مصارحة لنا بالواقع، أن السبيل إلى الآخرة ممتلئ بالمشقة وما تكرهه النفس، وأن من سعى وراء شهواته فإن مصيره إلى النار، فلنعمل بناءً على ذلك الواقع المفروض علينا لحكمةٍ بدلًا من نُكرانه أو مقاومته.

ومن هذا الحديث نستنتج أمرًا آخر، هو أن النفس عادةً ما تشتهي ما يؤدي إلى النار، فمتى ما شعر الإنسان أن نفسه تهوى شيئًا فليراجع نفسه من الناحية الشرعية قبل أن يعمله، لأنه غالبًا ما سيكون في معصية الله. وقد كان من الصحابة (مثل سيدنا عمر رضي الله عنه) مَن يمتنع عن بعض ما تشتهيه نفسه من الحلال لئلا تكون نفسه هي التي لها السيادة عنده، وكي يخالفها ليروِّضها. فالالتزام بطريق الهدى مشقة دون خلاف، ولو أن الهدى يُنال دون كد لهدانا الله جميعًا، ولكن آنذاك يكون الهدف من اختبار الدنيا منقوضًا، والله أراد خلاف ذلك كما جاء في قوله {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [السجدة 13]. فصبرٌ عن متاع الدنيا وعلى طاعة الله أثمر للمرءِ في المُحصِّلة.

والخلاصة لنا موجودة في قول الله تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات 56]. هذا هو هدفنا الرئيسي في الحياة، ولذلك خُلقنا، فلا يحيد أحدنا عن ذلك المقصد، ولا يضل السبيل المؤدي إلى ذلك، ولا يزيغ بصره عن تلك الغاية، ولنحذر من استبدال (أو التشتت عن) ذلك المقصد بمقصد آخر للسعي في الدنيا، مثل قصد تحصيل المال، أو تحصيل الشهوات. والله إن الأمر لبسيط في المطلب ولكن الصعوبة تكمن في التنفيذ، ويؤكد ذلك الحديث القدسي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ، أَنْ لا تُشْرِكَ بِي فَأَبَيْتَ إِلا الشِّرْكَ"[2].

---

[1] صحيح البخاري 6006.

[2] صحيح البخاري 3087.

فمن شهد أنه لا إله إلا الله ولم يقل أو يفعل ما ينقض ذلك فقد نجى، وإنما الاستزادة من العمل الصالح يُحدد منزلة العبد من الله. ولكن ذلك أمرٌ لا يستهان به لأن العبد لن يعلم قيمة قُرب المنزلة من الله إلا عندما يرى العبد ربه، فلا يُعقل أن نُصدّق أن العبد سيرضى بأدنى منزلة في أَقيَمِ الجوائز التي رآها على الإطلاق في عمره كله.

وإنها لفُرصةٌ واحدة. يقول تعالى {حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [المؤمنون 99-100]. الحذر أن يقع المرء في معاصي الله حتى يلاقي ما لا يرجى عقباه يوم القيامة، فهي فُرصة حياةٍ واحدةٍ لكل واحد منا فليُحسن فيها. فلا ترمي أحمالًا على نفسك البرزخية، بل من الآن ارفع من الأحمال التي عليك يومئذٍ.

ويقول الذين في جهنم استغاثةً {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ} [المؤمنون 107]. هذا قول أصحاب النار يوم القيامة، في محاولة استعطافية منهم أن يخرجوا من العذاب، والله يعلم أنهم إذا رُدّوا ليعودون لما كانوا فيه. ذلك لأنهم كانوا يستهزأون بالآخرة والحساب، فلو خرجوا لازدادوا استهزاءً واستهتارًا بالحساب إذ يرون أنهم يستطيعون الخروج من العذاب بمكرهم الحِيَل. ولذلك لا يستجيب لهم الله، ولأن ذلك هو العدل، أن من جاهد نفسه دون أن يرى العذاب رأي العين يستحق الثواب، وألا يُظلم بأن يُعطَى الذين لم يجاهدوا أنفسهم فرصةً أخرى.

تذكّر وتقبّل مكانتك في الكون وسبب خلقك، تجد نفسك خاضعًا لله. قال تعالى {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمّ تُوَفّى كُلّ نَفْسٍ مّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [البقرة 281]. إن هذه الآية لثقيلة، لأنها خلاصة المواعظ والنصائح، وفي صحيح البخاري جاء عن ابن عباس (رضي الله عنه) أن هذه آخر آية نزلت على الرسول (صلى الله عليه وسلم). وسبحان الله الحكيم أنها كذلك لأنها أهلٌ أن تكون آخر آية نزلت، فهي آية شاملة. تأملوا في هذه الآية العظيمة، وثقلها في موضعين، أولهما "وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ"، أي أن نستعد ليوم نرجع فيه إلى الله، فحياتنا كلها يجب أن تُبنى على هذا الأساس، ومن لم يبنِ حياته على هذا الأساس فإنه هالكٌ وعمله في حياته هباء. و"تُرْجَعُونَ" يعني أننا مِلك له تعالى، وأنما هذه الدنيا دارٌ أذن الله لنا فيها ببعض الحرية في التصرف مؤقتًا كي يختبرنا، وبعدها نرجع إليه، وهذه الحقيقة تُغير نظرة الإنسان لحياته كليًا!

أفإن أعطانا الله -لفترة محدودة- مساحة من الحركة كرمًا منه، لنا فيها أن نتصرف بإرادتنا، أيصدر منا فيها ما لا يليق بأن نترك عبادته ونعصيه؟! فهذا تمامًا كالطفل الذي أُطلق في منتزه كي

يتسلى، فرد ذلك بالابتعاد عن والديه وقد نهوه عن ذلك، ولم يسمع كلامهما عامة في أوامرهما، وبعد كل هذا راح يصرخ عندما يتيه عنهما. قد قابل إحسانهما له بالإعراض عنهما، ووقت الرحيل لن يخلو من البكاء. ولكنه له عذر أنه طفل يفتقد إلى الرشد، فهل لنا نفس عذره ونحن كبار؟

فإذا كنت راجعًا إلى خالقك لا محالة، تبدأ الأسئلة التي تنتهي إلى إجابة موحَّدة. الأسئلة مثل "لماذا أنا هنا إذا" و"لماذا الاختبار" و"ما هي الأهداف التي يجب أن أبني عليها حياتي" و"ما معنى حياتي"، وكل الإجابات تؤدي إلى استنتاج أن هذه الحياة جزء من صورة أكبر بكثير، وهي حياة الآخرة. ولكن تُبنى صورة حياة الآخرة بأعمال المرء في الدنيا، فلا بد من العمل الصالح للاستعداد ليوم الانتقال والرجوع إلى أصل معنى المعيشة، وهي عيشة العبد لربه. فمن شذ عن عبادة الله لأن الله وهب العبد حرية التصرف فذاك لا يستحق أن يعيش في نعيم الله عندما يرجع. أما من أقر بعبودية الله، واعتنق وظيفة العبد لربه، وأخذ المكان المقصود له، ورضخ نفسه وشهواته لشرع الله، ورضي بذلك، بل وربما حتى سعد بذلك كله، فذاك الذي يحق له أن يُدنيه الله منه عندما يرجع.

استيعاب هذه الحقيقة، أننا مِلكٌ لله، يُعيننا على تقوى الله بالإعراض عما نهى عنه. يروي جمال الدين بن الجوزي (رحمه الله) حوارًا له بينه وبين نفسه: قالت النفس: لقد أمرتني بالصبر على العذاب، لأن ترك الأغراض عذاب؛ قلت: لك عن الغرض عوض، ومن كل متروك بدل، وأنت في مقام مُستَعبَد، ولا يصح للأجير أن يلبس ثياب الراحة في زمان الاستئجار، وكل زمان المُتّقي نهار صوم[1].

أما الجزء الثاني الثقيل من الآية فهو "ثُمّ تُوَفّىَ كُلّ نَفْسٍ مّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ". كل واحد منا أعلم بأسوأ أعماله، والمصيبة أننا سنوفّى ما كسبنا، وإنني لا أعلم عنكم، ولكني أرى إن وُفّي لي ما كسبت لتكونن محاسبة مُهلكة وليكونن موقفي حرجًا، فلي من الأعمال التي تُنَغّص عليَّ حياتي وتشمئز نفسي عندما أتذكرها. وكما أن كل واحدٍ منا ظُلم في هذه الدنيا من بعض الناس، فلا بد أنه ظَلَم أناسًا أيضًا، والمشكلة أنك لا تضمن كم بلغت مَظَالمك للناس، فقد تكتشف أنك ظلمت أناس وأنت نسيت أو لم تدرِ بهم فيتضح لك أن عليك مظالم أكثر مما لك. وهذا دون النظر إلى دَينُ الله علينا بالنعم التي أنعمنا بها. فأسألك أيها القارئ، إن لم تُظلم في حسابك، وتبعًا وُفّي لك سيّئ أعمالك، كيف تطمئن؟

وقال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج 73-74]. سبحان الله، ها نحن في اليوم قد يقف علينا عدة ذبابات ونُبعدهم ولا نُلقي لهم بالًا، فهل تفكرنا في هذه الإية؟ أكنت تعلم أن الذبابة عندما تقف

[1] صيد الخاطر لجمال الدين بن محمد الجوزي 189.

على طعامها تبصق أولًا، ثم تمتص هذا البصاق بعد أن يختلط بما كانت تريد أن تتغذى عليه، وهكذا تُذيب طعامها فتشربه. فما شربته من سطح جسدي لا أقدر أن أسترده أو آخذه منها، بالرغم من قوتي وضعفها. سبحان الله، هذا المخلوق الضعيف قد سلبني شيئًا من ملكي ولا أستطيع استرداده منه!

ولئن اجتمع الإنس والجن ما استطاعوا أن يخلقوا هذا الكائن الذي نراه ضعيفًا! حقًّا، ضعُف الطالب والمطلوب. والأدهش من ذلك أن العلماء مؤخرًا اكتشفوا بالميكروسكوب الإلكتروني ما هو أشد دقة من هذا، فقد وجدوا على جسد بعض النمل حشرة تعيش على النمل، تمامًا مثل البعوضة على الإنسان! فما مدى دقة أعضاء هذه الحشرة؟ وهذا صعب التخيل لأن الحشرات لها أعضاء أكثر عددًا وتعقيدًا من الكائنات أُحادية الخلايا مثل البكتيريا. سبحان الله الذي خلق مخلوقًا يتحرك ويتغذى وينمو بأعضائه كلها في مثل هذا الحجم. والتفكر في أن الله قادر على تنوع مخلوقاته مثل تلك، بل وأصغر مما لا نراه بأعيننا، إلى أشياء كبيرة مثل النجوم والمجرات التي لا نستطيع أن نراها أيضًا بالرغم من كبر حجمها إذ إنها سرحت في سعة الفضاء، يؤدي إلى التعجب والتأمل، فيُدرك الإنسان حجمه ومكانه في الكون.

وبالرغم من تصنيع مناظير هائلة، فلم يستطع الباحثون إيجاد حد لنهاية الكون في أي اتجاه! بل إن هناك مجرات لا يستطيعون رؤيتها نظرًا لأن المناظير ما زالت ضعيفة، بالرغم من قوة تكبيرها الهائل. كل هذه المساحة... والعجيب أن الكون يتوسع كل لحظة تمر، حتى في يومنا هذا، كما نبأنا الله في كتابه {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} [الذاريات 47]، وبُنِيَ على تلك الظاهرة نظرية علمية حديثة على أن الكون نشأ من انفجار هائل لكُتلة فائقة الكثافة! فالخالق الذي يقدر على جعل الكواكب والنجوم والأقمار وغيرهم يتوازنون مع بعضهم، فلا يُهلك أحدهم الآخر، هو الله.

وإن تفكرنا في حركة الكواكب، نرى أن الكون ناتج عن انفجار ذرة ذي كثافة عالية جدًّا، ليُصنع منها كل ما في الكون من كواكب ونجوم وأقمار ونيازك وغير ذلك، ومع ذلك فإنه ليس بين تلك المُكونات من الانفجار عشوائيات، بل بالعكس هناك نظام! فالشمس مثلًا، يدور حولها عدة كواكب، والشمس في الأصل تجري بسرعة كبيرة في الكون. وبذلك، فإن الكون مستمر في التوسع حتى الآن، بسبب هذا الانفجار.

وقد رأيت أحد البرامج حول هذا الموضوع وأشاروا إلى أحد المعجزات، وهي أن الانفجار عادةً ما يؤدي إلى الدمار والخراب والفوضى، ولكن هذا الانفجار أدى إلى نظام كوني دقيق! فسرعة دوران كل كوكب حول الشمس في مسار محدد، مُتَوازن بين قوة الطرد المركزي بسبب سرعة الكواكب وقوة جاذبية الشمس للكوكب، ولو حدث خلل في التوازن لسُحِب الكوكب تجاه الشمس حتى يصطدم بها، أو العكس بأن يتحرر من جاذبية الشمس فيُقذَف في الفضاء فيتيه فيه ويتجمَّد.

وليس هذا فحسب، بل إن هناك أقمارًا تدور حول الكواكب، وبعض الكواكب لها عدة أقمار! ومن المنظور الشامل، فإن الشمس تتحرك في الفضاء، ويدور حولها كواكب بسرعات مختلفة وعلى مسافات مختلفة، وكل كوكب يدور حول نفسه، والكواكب لها أقمار تدور حولها أيضًا، بل وهناك عدة مجموعات شمسية مثل هذه المجموعة التي نحن فيها بمواصفات شبيهة، وهذا النظام مستقرٌ لبلايين السنين. ثم نشأت الحياة على كوكب الأرض وسط كل هذا، الذي أصله انفجار! فقولوا لي، ألا يدل هذا النظام أن هناك أحدًا أسسه؟ أوَلَا يحتاج هذا النظام إلى من يراقبه ليحافظ عليه ويمنع الانحراف (ولو بسيطًا) لأيٍّ من محتويات هذا الكون؟ أي عظمة وقدرة هذه التي تُنظم كل هذا ونحن في غفلة؟ فحقًّا، {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [فاطر 41].

هذه بعض المعجزات فيما علمناه، وما زال هناك معجزات أكبر وأكثر بكثير من أن تستوعبهم عقولنا، بل ولا يزال هناك معجزات فيما لا نعلمه من الأساس. أما فيما خلقه الله من ملائكة ما يُبهر العقل، كما جاء عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَلَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنْ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ[1] (الأُفُقَ أي ما بين السماء والأرض؛ التَّهَاوِيلِ أي أشياء مختلفة الألوان؛ وَالدُّرِّ أي اللؤلؤ). فالتفكر في هذا التنوع من ما هو أصغر من أن نراه إلى ما هو أكبر من أن نُدركه يعطينا فكرة بسيطة عن قدرة الله تعالى وعظمته. فما نحن إلا شيءٌ لا يُذكر ضمن مخلوقات الله، إلا أن الله كرَّمنا، ومع هذا فإننا نتجرأ على معصيته ما لا يتجرأه ما هو أكبر وأشد منا من المخلوقات! فما هذا الذي نفعله؟!

ثم تأتي الآية التي تليها... {مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}، وفي آية أخرى {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر 67]. ومع أن الآية تتكلم عن الكفار والمشركين، الذين لم يعتبروا لعظمة الله وقدرته فهم ما بين كافر ومشرك به، فإن العاصي ما قَدَر الله حق قدره أيضًا ولكن بدرجة أقل. وحقًّا، ما قدرت الله حق قدره، ولو قدرته ما كنت لأعصيه ولا أغضبه من أجل شهواتي إذ أكون استوعبت ما مدى عظمة وقدرة الله وما قدّمه لي... فالأرض وما حولها وما عليها خُلق من أجلي، كي أؤمن بالله وأتفكر في الله عن طريق مخلوقاته التي عددها لنا. ولكن هذه سُنَّة الله، ألا نبلغ أن نُقدّره تعالى حق قدره؛ فنعصيه ثم نرجع منكسرين له. فلنرجع باستمرار.

يُروى لنا أنه جاء حَبْرٌ من الْأَحْبَارِ إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى

[1] مسند أحمد 3561.

عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[1] (وَالثَّرَى هو التراب النديّ).

وقد روي أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قرأ هذه الآية ذات يوم على الْمِنْبَرِ {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، وَرَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ وَيُحَرِّكُهُ: يُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ، "يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ"، فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا لَيَخِرَّنَّ بِهِ[2].

تذكر مصير الأمم التي سبقت وعصت الله، والاتعاظ بحالهم. هناك قاعدة سارية على جميع مخلوقات الله، المؤمن منهم والكافر، وهي أن من يعمل سوءًا يُعاقب عليه، إلا من تاب وتقبل الله منه. فأما بالنسبة إلى من يكفر بالله ويعصيه، فمنهم من قد أُهلكوا بطرق مختلفة عقابًا لهم {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [العنكبوت 40].

ومن يتوب منهم قبل نزول العذاب يُرفع عنهم العقاب {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس 98]. فقد آمنوا بالله بعدما رأوا أن سيدنا يونس (عليه السلام) نبأهم بنزول العذاب عليهم قريبًا لإعراضهم عن دعوته، ثم خرج من بينهم. فصدّقوه إذ يعلمون أنه لم يكذب عليهم من قبل وخرج من بينهم، مما يعني أن العذاب سيقع وهو يستعد بهجر مسكنه.

أما بالنسبة إلى المؤمنين، فإن القاعدة لا تزال سارية إلا أنهم لا يُهلَكون بالكامل (أي المحو التام)، فقد يحل بهم الأمراض والزلازل والقحط وتسليط الأمم عليهم وجعل بأسهم بينهم وغير ذلك. وهذا عقابٌ لهم ولكي يرجعوا عن عصيانهم {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم 41]، فإذا أنابوا وتابوا رفع الله عنهم الابتلاء وفتح عليهم من رزقه.

---

[1] صحيح البخاري 4437.
[2] مسند أحمد 5157.

وقد جاء في القرآن الكريم مثلًا عن مصير المؤمنين عندما عصوا الله ورسوله {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران 152] (تَحُسُّونَهُمْ أي تقتلونهم). هذه الآية تكلمت عن غزوة جبل أُحُد، عندما أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) رُماة الأسهم أن يلزموا أعلى الجبل ويقذفون العدو من فوق، لتكون لهم اليد العليا في المعركة. ولكن، عندما بدأ المسلمون بالانتصار الذي وعدهم الله به وبدأ يفر المشركون، طمع بعض الرماة في المغانم فتخلوا عن موضعهم المتميز ليجمعوا الغنائم، وبذلك عصوا أوامر الرسول (صلى الله عليه وسلم).

أدرك المشركون هذا التغير واستجمعوا أمرهم وهجموا على المسلمين، فقتلوا الكثير ونالوا من الرسول (صلى الله عليه وسلم) فأصابوه وآذوه. قد عصى بعض الرماة الأوامر بعدما بدأ يتحقق ما وعدهم الله به وما يُحبونه -وهو النصر-، ونتيجة تلك المعصية هي انقلاب حالهم، فانهزموا وتم قتل عدد منهم، وأصابهم ما أصابهم من حزن وصغار وخزي وأذًى.

فهذا المثل هو عنوان لمصير العصاة من المؤمنين، أن من يعصي الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) فإن حاله ينتكس مما يُحبه إلى ما يكرهه، ويصيبه ما يشاء الله من مصائب وابتلاءات وأمراض في الدنيا. ذلك مع ما ينتظره من حساب في الآخرة، بل والهلاك في الدنيا إن استمر على هذا الحال. والقاعدة الأعمّ التي تسري على جميع المخلوقات، ولا تستثني أو تلين لعزيزٍ، هي {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء 123]، أي أن هذه القاعدة لا تخضع لأهواء وأماني أيٍّ من أهل الكُتُب على أساس أنهم مميزون عند الله.

وهناك قاعدة، وهي أيضًا عبرة لمن يعتبر، تتفرع من هذه القاعدة العامة وتنطبق على المؤمن والكافر أيضًا: أن الأُمة التي تتبنى سبيلًا ومنهجًا غير الذي أنزله الله فإن مصيرها إلى العناء والذُل والهلاك والاندثار حتمًا. وقد جاءت واضحة في قوله تعالى {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء 115]. فقد رأينا أممًا تبنت فكر الشيوعية أو الفاشية أو العرقية أو الليبرالية أو الجمهورية أو المَلَكيَّة أو الديمقراطية أو غير ذلك، وكلهم يندثرون عبر الزمن أو حتى قد فنوا، مروا بفترة محدودة من الازدهار والشهرة العارمة ولكن كان مصيرهم إلى التدهور والتلاشي دائمًا لأن عيوبهم تبرز وتهدمهم. إنما العزة واستمرار التقدم يكمن في نظام الخلافة الذي علمنا إياه الإسلام، فلم تزل الأمة الإسلامية قوية ومُهابَة إلى أن تراخى المُسلمون عن نظام الخِلافة وتركوها.

قد ضرب الله أمثلة لأناس آثروا مناهج أخرى عن الإسلام حتى هلكوا، مثل الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واتبعوا ما تتلو الشياطين على مُلكِ سليمان، فأصبحوا من الخاسرين في الدارين. خسروا في الدنيا إذ إن السحر الذي تعلموه لم يستطيعوا إصابة به من يعتصم بالله، وخسروا في الآخرة لأنهم كفروا فليس لهم نصيب من الجنة. وكذلك قوم عاد {وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ} [هود 59-60]. ومنهم قوم ثمود {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [فصلت 17].

ومن الأمثلة هم قوم فرعون، والتي كانت أمة من الأمم المُتقدمة المُهيمنة المُزدهرة في الأرض والبالغة في الثراء. ولكن ليبحث المرء أين هم الآن، فهكذا كان مآلهم {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (96) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (103) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ} [هود 96-104]. فأي أمر سوى أمر الله لا يكون رشيدًا، ويكأنه أمر سفه.

والصرخة في زمننا الآن والمسار المشهور الذي يتم ترويجه والتحمس له هما نظام الديمقراطية والرأسمالية، فالديمقراطية تفتح الباب أن يكون إجماع البشر يعلو على حُكم الله بينما الرأسمالية تُبيح ما حرَّمه الله ما دام يُجني مالًا (مثل الربا) وتدهس الضعفاء. وهذه الأنظمة البشرية اشتهرت إلى حد أن حتى دولًا ذات أغلبية مسلمة بها فرق تدعو لتبني تلك الأنظمة، وكأنهم يقولون: دعونا نجرب كل شيء إلا الإسلام. كل الأمم التي تتبع وتتبنى مثل تلك المناهج مصيرها إلى التدهور، فتتخلي عن ذلك المنهج وتُجرِّب منهجًا آخر، وإلا لرأينا منهجًا موْضوعًا منذ قديم الأزل لا يزال ساريًا إلى يومنا هذا.

الإسلام منهج مُنزل من الخالق، فكيف لمنهج يضعه مخلوق، كائنًا من كان، أن يكون أفضل من منهج الخالق؟! فلماذا لا نُطبِّق النظام الإسلامي، الذي هو من عند الله الحكيم، والذي هو أمام أعيننا وبين أيدينا، فيه شرفنا وعِزّنا، والذي قد جرَّبناه من قبل وأثبت نجاحه، ولم يقع إلا أن المسلمين ابتعدوا عنه فسقطنا؟! وقد لخَّصَ لنا سيدنا عمر (رضي الله عنه) القضية في مقولته: إنكم كنتم أذل وأحقر الناس، فأعزكم الله تعالى برسوله، فمهما تطلبوا العز بغيره يُذلكم الله[1].

[1] المستدرك للحاكم 83/3.

وإن المرء يجب أن يُدرك أنه كان هناك أُناس مثله يمشون على الأرض قبل أن يكون له كيان، وأنه قد أخذ مكانهم الآن، وسيُحصِّلهم في القبور لأن دوره قد حان. وسيأتي مَن بعدنا فيمشون على الأرض كما نحن نمشي عليها الآن بعد أن نفنى، فالأيام دُوَل. نحن الآن كما كان حال من سبقونا على الأرض وهم الآن محبوسون في القبور، فيا تُرى ما الذي يدور ببالهم وهم يرون الناس لاهين ويعصون الله؟ الذين كانوا يعصون الله قبلنا هم الآن في القبر، وكان حالهم مثل حال العصاة الآن على الأرض: غير مُكترثين بيوم موتهم؛ وها قد ماتوا، فسبحان الله على إعادة الدورة ولكن بأُناسٍ مختلفون، فإنما هو تبديلٌ للأدوار.

وقد نبأنا تعالى {أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا (25) أَحْيَاء وَأَمْوَاتًا} [المرسلات 25-26]، أي تحمل الأحياء على سطحها والأموات في بطنها. سبحان الله الذي خلق الأرض بحيث إنها تحتوي الأحياء والأموات، فحقٌ على من يمشي عليها أن يعمل ليومٍ هو سيلحق بمن في باطنها وسيمشي على سطحها غيره. وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يُعلمنا هذا الدعاء للتسليم على أصحاب القبور "السَّلامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَلاحِقُونَ"[1]. فمن يعتبر؟

جاء في كتاب الله {أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ} [الأعراف 100]. في هذه الآية عظات بالغة وتحذير شديد يجعل المرء يتفكر، فلو تواكل العاصي على أنه لن يصيبه شيءٌ في الدنيا، هذا بالرغم من العبر في أمم سبقته بأن الله أهلكهم بسبب ذنوبهم، فما سيصيبه في الآخرة لا مفر منه.

وإن في كل زمان أمة وأفراد متمكنين في الأرض، لا يتصورون كيف يضعفون أبدًا من كثرة تمكُّنهم، ومع ذلك فإن الله يذهب بهم ويعطي قوتهم وتمكُنهم للجيل الذي بعدهم بكل يُسر. والعجيب أنه لا يتّعظ الذين يلونهم بأن يصارحوا أنفسهم أنهم ليسوا مميزين عنهم في الأساسيات، ولا يرون أنهم يمشون في نفس خُطَى الذين سبقوهم، فما الذي يمنع من أن يُفعل بهم كما فُعل بمن قبلهم؟ ولكنه الكبر الذي يمنعهم من تقّبل ذلك الواقع، ظانين أنهم أفضل من الذين مضوا أو أنهم جاءوا بجديد، والذي يدعو للانتقاد هو أن الذين سبقوهم كانوا يفكرون بنفس هذا المنطق، فما الفرق؟

وهذا يحدث، وما زال يحدث، وسيحدث في المستقبل لأن هذه سُنَّة الذين لا يمتثلون لمنهج الله. ونرى هذه الظاهرة في أبرز حالاتها فيما جاء في القرآن الكريم عن سيدنا شعيب (عليه السلام)، عندما كان يدعو قومه فقال لهم {وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (90) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ

---

[1] صحيح البخاري 1619.

وَدُودٌ} [هود 89–90]، أي لا يحملنكم خصامكم معي على أن تُكذِّبوني ولا تقبلوا الإيمان بالله فيُصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء، وما مضى كثير على هلاك قوم لوط. فما كان ردهم إلا {قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} [هود 91]. سبحان الله على تكرار التاريخ بهذه الدقة، فصدق الله وأخفق المعاندين لدرجة أنهم مشوا في خطوات أسلافهم بالضبط، وإجابتهم تدل على ذلك، فإنهم عايروا سيدنا شعيب بضعفه بينهم.

فالعبرة ثم العبرة، مع أن هذه الآية تتحدث أساسًا عن الذين لم يؤمنوا في الأصل، فإنها ليست ببعيدة عن من آمن ولكن تكبر وأكثر من المعاصي والطغيان. وقد رأينا في زمننا المعاصر الكارثة الكبيرة التي أُصيبت بها إندونيسيا ذات الأغلبية المسلمة، عندما قَلّب الله عليها الرياح والبحر. ولا يليق أن ننظر إلى هذا الحدث بنظرة حاكمة عليهم بالإخفاق، ولكن يجب أن ننظر إلى هذا الحدث كإنذارٌ لنا. إن الله لا يعجز أن يتركنا ننزلق إلى العثو في الأرض فسادًا، ثُم لا نعز عليه عندما نغتر أنه لن يصيبنا ما يصيب إخواننا الذين انتشر فيهم الفساد، فيصيبنا مثل ما أصاب الأمم السابقة.

المراد من هذا الكلام كله أن هناك أشياء مشتركة في الفكر بين كثير من المسلمين وتلك الأمم، مثل تبرير اتباع الهوى، وإعلاء قيمة اللهو والرفاهية، واستصغار الذنب، وتعظيم النفس، واستبعاد نزول العذاب؛ فهذا الفكر من بوادر طريق الهلاك. فالحذر كل الحذر، والعمل العمل، أم هل أنتظر الهلاك ثم أجد حالي أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول لي (وعنّي) يوم القيامة شيئًا مثل ما قاله سيدنا صالح (عليه السلام) لقوم ثمود بعدما هلكوا {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ} [الأعراف 79]؟

ومما قاله تعالى {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} [الإسراء 17]، فإن في ذلك لعبرة لمن يعتبر. كم من أفواج من الناس أهلكهم الله في لحظات بسبب ذنوبهم، وهانوا على الله بالرغم من جمعهم فأهلكهم ولم يُلقِ لهم بالًا. وتكررت تلك الصورة مع أقوام عدة وبأنواع مختلفة من الهلاك طبقًا لطبيعة ذنوبهم، والله أعلم بذنوبهم. وذلك مما يُنشئ الخوف في قلوب المؤمنين، أنهم إذا تراخوا عن الدين سيصبحوا هينين على الله فيهلكهم كما أهلك هؤلاء. وليس بأحد مستثنًى إن تخلى عن دينه، فهو يستحق أن يتخلى الله عنه كما تخلى العبد عن أمر الله.

قال الرسول (صلى الله عليه وسلم)، كي نعتبر ونتعظ، لما مرَّ بالْحِجْرِ (وهم قوم ثمود كما في شرح فتح الباري) "لا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ"، ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الْوَادِيَ[1] (ثُمَّ قَنَّعَ رَأْسَهُ أي غطّى رأسه وجزء من وجهه). قال ذلك كي يملأ قلوبنا بتقوى الله وخشية منه تعالى، وعظة لنا من أن يُهلكنا إن تهاوننا بما أصاب غيرنا

[1] صحيح البخاري 4067.

كأنه ببعيد عنا، فلا نطمئن أنه لن يصيبنا إذا هُنّا على الله بعدم طاعته أو بكثرة معصيته أو بالتهاون بعذابه الشديد.

وقد دل على ذلك أيضًا قول الله تعالى {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء (43) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (44) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (45) وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46) فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [إبراهيم 42-48].

ومع أن تلك الآيات تتكلم عن الذين كفروا في الأساس، فإننا سنرى ذلك أيضًا في الظَلَمة من المسلمين. والآيات تعطينا لمحة عن داهية ذلك اليوم وأهواله، بداية بأن الله يؤجل عذاب الظالمين ليومٍ وصفه بأنه تشخص فيه الأبصار (أي تفتح العيون دون أن تغمض من شدة الخوف والصدمة مما يحدث)!

ثم يُكمل الله في وصف ذلك اليوم الرهيب قائلًا للرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يُنذر الذين ظلموا من وقوعهم فيما ينبئهم الله به، فيفاجأون أنهم يجدون أنفسهم يقولون ما نَبَّأ به الله مما يُقال يومئذ. ويُقرَن بين ما قاله الله وقد تحقق وبين ما قالوه هم فلم يتحقق، للتشديد على فرق المقام "فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ". وهذا زيادة في الإذلال لهم والتوبيخ والتقريع، وإثارة لتحسُّرهم إذ يُبين لهم الله أنهم تحدوا محاسبتهم على أعمالهم، وجازفوا بمصيرهم، فليتحملوا عواقب قرارهم ومجازفتهم، فليست لهم فرصة أخرى.

ويأتي من ضمن التوبيخ لهم أنهم سكنوا في مساكن الذين ظلموا من قبلهم، ولم تكن داهيتهم أنهم فقط لم يؤمنوا، بل وفعلوا مثل من سبقوهم من شدة فجورهم واستهزائهم، اقتناعًا أنه مستبعد أن يقع بهم ما وقع بمن قبلهم في نفس الموقع، وكأنهم أفضل وأميز وأقدر ممن سبقوهم! فهم قد جمعوا بين الغرور والوقاحة بتحديهم الله، فما المصير الذي يُتوقع لهم؟

ولا يزال الله يستفيض في وصف ذلك اليوم بالوعيد والتحذير والترهيب، مع بيان بعض المصائب التي تحدث ذلك اليوم من تبديل الأرض بغير الأرض والسماوات بغير السماوات، وينصر الله رُسُله ذلك اليوم. والمخيف أيضًا هو الإشارة إلى أن تأخير عقوبة العذاب يُصاحَب بزيادته، لأن التأجيل والإمهال حِمل يُضاف بسبب أن الله مَنَّ عليه بفرصة زمنية كنعمة فلم يؤدّ حقها بالعدول عن

الظلم والتوبة، بل واستغل ذلك الإمهال الزمني بالاسترسال في الظلم والجُرأة على الله. ولا يعدل أبدًا عن الظلم إلا أن يعاين العذاب بعينيه، وهذا في الواقع تحدٍ لعظمة الله وقدرته.

فذاك الظالم عليه وزر مظلمته، وعليه وزر التفريط في المهلة المُهداة من الله ليتوب، وعليه وزر تحدي قدرة الله في مُعاقبته على مظالمه، وربما أوزار فوق ذلك، فكيف حاله آنذاك؟ وكون أن الذي أخَّرَ العذاب هو أقدر القادرين هو في حد ذاته شيء يدعو للفزع. فكيف أهنأ بمعصية وأنا أعلم أن ذلك اليوم آت لا محالة، وعليَّ دفع ثمن تلك المعصية واجتياز ذلك اليوم!

وأخيرًا في هذا الموضوع، ينبغي أن يعلم المرء أن هناك أناسًا يُعَذَّبون في هذه اللحظة التي نحن فيها الآن بسبب ذنوبهم. إنه ليُفيد المرء أن يتذكر عندما يوشك أن يرتكب معصية أو في أثناء ارتكابها، أن بينما هو منشغلٌ فيها، ففي نفس تلك اللحظة هناك من الأموات من قد بدأ بالفعل تعذيبهم عذابًا مُريعًا بسبب ذنوبهم، فهم في قبورهم يُعذَّبون {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر 46]. فما الذي يدور ببالهم وهم في عذابهم عندما يرونني وأنا منهمك في معصية الله؟ ما الذي قد يريدون قوله لي؟

تذكر المرء لحاله في أثناء المعصية. المرء عند المعصية يتغير، فلا يكون سلوكه كما يكون في وضعه العام، وهذا التغير يكون دائمًا للأدنى. لتوضيح الكلام، المرء عندما يعصي الله يرضى بالدنية في أثناء المعصية، أي أن الذي مثلًا يريد بيع بضاعته للناس ولو من دون ضوابط يتدنى إلى أن يكون غاشًا للمسلمين، بينما لا يرضى أن يُفعل هذا به. وعلى هذا النحو، ينبغي للمرء أن يُلاحظ تدنيه عندما يدخل في المعصية، حتى يُذكر نفسه بزلاته وانحطاطه عندما يرتكب المعصية، فإن هذا التذكير له أثر لا يُستهان به. وقد تكون لكل معصية نقطة تدنٍ مُخصصة، وأيضًا يكون هناك تدنٍ مُشترك بين جميع المعاصي، وبالمثال فإنه قد يقبل أن يكون غدَّارًا عندما يغتاب أحدًا، وقد يرضى أن يعيش في جُبنٍ عندما يكذب، ولكن أيًا ما كانت المعصية فهناك عوامل مشتركة في التدني مثل أنه يُقدِم على إغضاب ربه المُنعِم، فليُسجِّل كل تدنٍ من نفسه ويُذكِّرها بأكثرهم تأثيرًا عليه عندما يريد الإقبال على المعصية مرة أخرى.

فيا أخي، إذا أردت أن تعصي الله فتذكر كم تكون ضعيفًا في التوقف عند حد معين عندما تدخل في المعصية وتسحرك، تكون فاقدًا للسيطرة على نفسك. تذكَر أنك في أثناء المعصية تتراخى في الحفاظ على شرفك وهيبتك لأن المعصية تُذلك، فقد يبلغ المرء أنه يقبل الاتهام أو الازدراء أو السب أو الضرب من الناس إذ إنه على خطأ؛ يضطر إلى قبول الإهانة من الناس ويرضى بالدنية على نفسه إذ هو نفسه قد أهانها وأذلها بإقباله على عصيان الله.

**تذكر تبعات المعصية، والمقابل من المزايا لترك المعصية.** إن الإحاطة بأضرار المعصية على المرء في الدنيا وتبعاتها من عذاب في الآخرة، مع الإحاطة بما يفوت المرء من مكاسب في الدنيا والآخرة أيضًا، يكون حافزًا للمرء لهجر المعصية وتنفيرًا له منها، فينخفض مُعدل ارتكابه للمعاصي. وقد تكلمنا عن هذين الجانبين (آثار المعصية وما المُقابل لتركها) في جزئين سابقين، مما يُغني عن الاستفاضة فيهما ها هنا.

لكن يُضاف في هذا الموضع أن هناك نهجًا قد يسلكه المرء يُساعده في الإعراض عن المعصية عندما تأتي على باله، ألا وهو ربط المعصية بموقف بغيض أو فكرة مُقززة تكون غايةً في التنفير له، قد حدثت معه أو مع غيره من المعصية. مثلًا، إن الذي يشرب المُدخنات قد يتذكر موقفًا شعر فيه باحتراق في صدره عندما شربها، وظل يسعل ويتفل الخبث، ولم يستطع أن يتنفس. أو ينظر إلى عيّنة طبية من رئة امرئ شرب المدخنات لمدة طويلة، فيرى التغيرات القميئة والعفن الذي أحدثتها المُدخنات في صدره. ثم يربط المرء تلك المعصية بتلك الواقعة، فكلما تطرؤ على باله معصية التدخين يطرأ معها هذا الموقف المُزعج أو المنظر القميء؛ أصبحت المعصية مربوطة بذكرى سيئة ومُنفّرة عنده. وهذا، بإذن الله، يُعين المرء بدرجة لا يتخيلها في تجنب تلك المعصية.

مثال آخر هو لمن يُطلق بصره على المُحرمات، أي ينظر إلى ما لا يحل له من النساء، فليتخيل أن نفس ما يفعله سيُفعل في نساء أهله. المسألة المحورية والعقبة الحقيقية هنا هي: ما مدى رغبتك في ترك المعصية، فهل بلغت رغبتك وصدقك في ترك المعصية إلى أن تُضحّي ببعض مشاعرك وراحة بالك بحيث إنك تقبَل بتنغيص مشاعرك بتَذَكُّر ما تبغضه مقابل تفادي المعصية؟

وهذا مثل الرجل الذي يرغب بشدة في إنشاء شركة رائدة، فإن قويت رغبته وعزيمته فإنه يُضحّي من أوقات نومه، ومن جُهده بأن يسعى هنا وهناك يستفسر ويَبني، ويُجازف بماله بشراء الأجهزة وغيرها استثمارًا، ويتحمل التهكم والسخرية وسوء المعاملة من البعض على فكرته وفي سعيه، وهكذا؛ فقدر تضحياتك دليل على قدر رغبتك، ومن ثمَّ قدر صدقك. كمبدأ عام في الحياة: لا تكون إرادة المرء في شيء حقيقية إلا إذا عنده استعداد دفع ثمن تحقيقه.

**تذكُّر النصيحة والأخذ بها، فلا يقع فيما حُذِّر منه إلا السفيه.** قال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} [الأعراف 172]. في هذا الآية دلالة على أننا شهدنا أن الله هو ربنا قبل أن نُولد،

وقد أنسانا الله هذا الحدث كي يتم اختبارنا، ولكن بعد أن طبع الحدث على فطرتنا، فالمولود يُولَد على فطرة الإسلام أنه لا إله إلا الله.

وبما أن الله أخبرنا به فلا شك أنه وقع، وسنتذكره ثانيةً يوم البعث لِما نراه من أهوال تجعل المرء يتذكر كل صغيرة وكبيرة فعلها في الدنيا وقبل ذلك، وربما نتذكر حين يسمع المرءُ اللهَ وقت الحساب. الفكرة أنه قد حدث، ومن الواجب على كل مؤمنٍ أن يؤمن أنه شهد بذلك، فهل يعقل أن من كلَّمه الله، وشهد يقينًا أن الله ربه، يتجاهل خبرًا كهذا فيعصي ربه؟ متى أصبح التغافل عن عبادة الله والإقبال على معصيته مقبولًا عند شخصٍ قد شهد لله أنه هو ربه، وكيف! وماذا يقال عن الذي قد حذره الله من الوقوع في ذلك الخطأ بهذه الآية ومع ذلك يقع فيه؟

تذكُّر المراقبة ومآلها. قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء 1]؛ {إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ} [الطارق 4–10]. بعد أن نبأنا الله مما خُلقنا جميعًا، وهو من ضعف وهزل عن طريق مني مع بويضة، ينبئنا الله عن يوم القيامة، فجمع بين ما حدث لنا مما لا نعيه وبين ما سيحدث لنا مما لا نعيه. وهذا تأكيد على حقيقة ما سيحدث بما أن ما حدث لنا سابقًا حقيقي وأكَّدته الأبحاث العلمية.

"يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ" أي يُكشف كل ما كان يسرّه الإنسان في نفسه، فيصير مكشوفًا إلا من ستره الله. ألا أهاب يومًا يتكشف فيه كل مساوئي وما أستره في نفسي وقلبي عن الناس، مما أخطأت ومما تعمَّدت فعله؟ ومن الذي يطّلع عليه... الله! يا للمصيبة... كنت أخشى أن يطلع الناس على أفعالي ولا أحترس من رب الناس، لبئس ما أرتكبه من معاصٍ مما كان فيه خشية علم الناس به دون أن أضع في الحسبان أن الله يعلمه، وإنه لظلم عظيم.

ثم يقول تعالى "فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ"، دارت الحياة ورجع كل منا مثل ما كان حاله وهو نطفة الضعف. والويل أنه بعد انكشاف السرائر، لا مفر من الله وحسابه إلا إليه، ولا ناصر غيره. كما قال بلال بن سعد (رحمه الله): لا تنظر إلى صغر الذنب، وانظر من عصيت[1]. ما موقفي وأنا أحمل كتابي الذي فيه كل سرائري الخبيثة ويُطلب مني أن أحمله معي واذهب برجلَيَّ إلى ربي عز وجل كي يحاسبني عليه؟ هل ستحملني قدمَاي أم ستنهار؟ لا أدري.

---

[1] البداية والنهاية لإسماعيل بن كثير 146/13.

ويا أخي، إن وجدت أن نفسك بدأت تستعظم أو تغتر أو تتفاخر أو تختال، فذكِّرها من أين أتت، وما كانت (أي كيف خُلِقَت، ومن ماذا، وما كان من حالها من ضعف) لأن ذلك ما ستصير إليه ثانية. وقل لها، ما الذي سيميزها يوم القيامة من بين الأفواج الطائلة من الناس المتدافعة، فما الذي قدمته لله؟

وقال تعالى {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق 16]. إني إذا تخيلت أن هناك إنسانًا يعلم عني كل شيء دنيء فعلته، ماذا سيكون رأيه فيَّ؟ هل يرى أني شخص حسنٌ أم يرى أني شخص خبيث؟ فلماذا أفعل ما أفعله وأنا أعلم أن ما سأفعله سيضاف إلى رصيدي من الخبائث، شيئًا بشيءٍ حتى أرجع إلى ربي وأستلم كتابي مُدَّوَنًا فيه كل معصية فعلتها فأجد جبالًا، ولا يحكم ولا يحاسبني عليه شخصٌ، بل هو الله –خالق الكون– الذي يُعرض عليَّ أعمالي! وكيف سَمَحَت لي نفسى وكيف طاوعني جسدى على المعصية وأنا أعلم أن لي ربًّا يعلم ما أُخفيه من الناس، ولا مكان يسترني منه! وكيف أجد لذة في شيء أعلم أن حسابي عليها سيكون عسيرًا، ومع من... مع رب كل شيء!

ماذا سأقول له حينئذ، والله يعلم ما سأقول قبل أن أقوله ولن آتي بجديد، ويعلم إن كان كذبًا! فلا هروب، إما لي عذر حقيقي (كنت أجهل، كنت ناسيًا، أو وقعت فيه دون قصد) وإما كنت متعمدًا. كيف أُفسِّر وأُبرر معصيتي لرب العالمين في أثناء الخوض في أدق التفاصيل؟ ماذا لو سألني ما مدى سروري ومتعتي في أثناء فعل محرماته؟ كل ما أخفيته من الناس سيظهر يومئذ أمام الله، وإني كنت في الدنيا أسترها من الناس لخبثها، فكيف سيكون حالي عندما يحاسبني عليها ربي وهو يعلم أني سعيت في سترها عن الناس. اللهم سلِّم سلِّم، اللهم الطف بنا يوم الحساب، اللهم كن رؤوفًا علينا وخفف عنا الحساب، واجعله فقط عرضًا لا مناقشةً. لا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين.

وإذا تأملت في وضعي سأجد أن وضعي شبيه بالفأر في مختبر تجارب، لأن الله دائم المراقبة عليَّ، ويعلم حتى ما أُسره في نفسي ولم أتفوه به أو أعمل به، إذ قال تعالى {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} [النحل 19]. إن الله دائم المراقبة علينا ويعلم كل شيء عنا، حتى ما أسررنا من قول أو عمل، وما نُحَدِّث به أنفسنا ونتمنى أن نفعله ولكننا لن نفعله فقط لشدة قبحه أو خوفًا من الفضح.

كفى بما صدر مني علنًا من معاصٍ حِملًا، يوشك أن يهلكني يوم الحساب، والمصيبة أن ما أسررت أقبح وأسوأ. إن الإنسان ليعمل عملًا لغايته يخفيه من الناس من شدة قبحه، ولو اطّلع الناس على ذلك لكره ذلك لما يصيبه من عقاب أو يقام عليه الحد، أو في أبسط الأحوال حكموا عليه بالشخص الدنيء، فما بال كرهه أن يطّلع الله على ذلك العمل؟! ولكن الإنسان يحتاط من أن يطّلع

الناس على ذاك العمل وينسى أن الله قد اطَلع عليه، فأي جهة أحق بالخوف منها، العباد أم رب العباد؟ فأين حيائي في لحظات معصيتي لربي؟

وهناك أيضًا الآية {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [النحل 77]. هذه الآية مليئة بالرسائل الضمنية لمن تأمل فيها، ففيها جميع التحذيرات للإنسان من التهاون بالعمل، وإذا جُمعت المعلومات من هذه الآية يجد الإنسان أنه مُحاصر ومقهور إلى طاعة الله. أولًا لأن لله غيب السماوات والأرض، ويشمل ذلك ما يعمل أحدنا من عمل سواء أسره أم جهر به، فإن الله يعلمه، ولو كانت خاطرة في البال ومرت. ثانيًا، يأتي يوم الحساب بغتة يأخذنا جميعًا على غفلة ونحن غير مستعدين، فمن كانت عادته الصلاح فقد فاز، ومن كانت عادته الإفساد فقد هوى.

ثالثًا، إن الله على كل شيء قدير، وإن هذا لشيء مُشَّيب، لأن أخوف الخوف يكون من الشيء الذي يؤذي ولا تعرف طبيعته وحدوده (أي ما هو ومتى ينتهي). ومع أن معنى الجملة عامة، ولكنها إذا نظرنا إليها خاصة في مجازاة الله للعبد فهنا يكون داعي الرعب. هذا لأن الله هو الذي يحاسبنا، فإن أخطأنا فمَنِ الذي يمنع الله من أن يفعل بنا ما يشاء وهو يحاسبنا، ولو كان بزيادة عن ما نظنه (في رأينا المحدود)؟ ضف إلى ذلك أن الله هو الذي خلقنا وركَّبنا، فهو يعلم مكان كل عَصَبٍ فينا ومجراه، ويعلم أين نقاط ضعفنا التي نشعر بأقصى ألم منها، مع قدرته التامة والمُطلقة في التأثير على أي عصب وبأي درجة بمجرد قوله 'كُن'، فيحدث.

فهأنا واقف أمام ربي ليس بيني وبينه أحد أو شيء، مكشوفًا ومستسلمًا تمامًا أمام ربي إذ لا حول ولا قوة لي، ولا يمنع أو يعترض أحد على الله من فعل ما يشاؤه بي، فلا يجرؤ أحد –دون استثناء– التوسط أو التدخل ليدافع عني وعن العوار الذي في أعمالي في تلك المرحلة. وأنا حيث لا قانون ولا قواعد تحكم الوضع الذي أنا فيه إلا القوانين الذي يضعها الله، فأنا مُعرض لأي شيء مطلقًا، وممن؟ من رب كل شيء! من منظور آخر، تخيل لو أنك ارتكبت مظلمةً في حق أحد، ثم قاضاك أمام القانون، فوجدت أن الذي ظلمته هو المُكلف بالقبض عليك وهو القاضي وهو السجَّان، ما ظنك بأنه سيفعل بك؟ لا شك أنه سيزيد في العقوبة لأنه هو الذي وقع عليه الظُلم والأمر بالنسبة إليه شخصي، فسيُحرِّف القواعد والقوانين ليصفعك بأقصى عقوبة يقدر عليها ولو كانت ظالمة.

أما الله سبحانه وتعالى، فإنه نزَّه نفسه وتعالى عن الظُلم فحرَّمه على نفسه، ووعدُ الله حق أنه لن يظلم، ولكن انظر إلى المُفارقة: إن الله الذي عصيته ولم ألتزم بعهدي معه في طاعتي له أعتمد على أنه يَفي بعهده بألا يَظلمني يوم الحساب حتى يكون لي أملٌ في النجاة! أفلا أستحيي مما أصنع؟ فكيف يطمئن بالي، ولا أتكلم فقط عن فترة المحاسبة، بل واليوم وأنا في الدنيا مع معرفتي أن تلك اللحظة آتيةٌ لا محالة، وعليَّ خوضها! فكيف أركن لحياتي في هذه الدنيا والله يعلم كل شيء

عني، وحسابي قد يبدأ في أي لحظة، ولله مطلق القدرة والحرية في أن يعاقبني كيف يرى ويشاء! من أين هذا الإصرار على المعصية وأنا مغلوب على أمري؟! لا وصف لذلك إلا البجح والسفاهة.

وقال تعالى {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [هود 6]. الحمد لله الذي جعل قضية الرزق ترجع إليه وحده ولم يوكلها لأحد من ملائكته أو غير ذلك. ومع هذا، فإن الله يعطي كل عبد خلَقه حقه في الرزق ولو كان هذا العبد عاصيًا أو حتى كافرًا بالله، فإن الله يعطي كل واحد حقه ولو لم يعطِ العبد ربه حقه! الحمد لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه على أنه لا يجعل غضبه وانتقامه بقطع الرزق تمامًا على من عصاه، والحمد لله كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

وليست المسألة مقصورة فقط على أن الله يتنزه من أن يظلم عباده، بل إنه تعالى يتفضل فيصبر عليهم (شبيهًا كما تصبر الأم على ولدها حتى يعقل)، ويكرمهم حتى عندما يعصونه لعلهم يستحيون ويعودون بالتوبة. أفلا أستحيي أني أعصي ربي بالرغم من أنني مربوط برزق الله لي؟! رزق الله الذي أحتاج إليه للبقاء هو نفسه ما يُقويني على معصيته، فهل يعقل أخلاقيًّا أن أستعمله هكذا؟ أين التقوى والوفاء إذًا؟

وفوق هذا فإن الله يعلم مستقر ومستودع كل دابة، فالله يعلم أين أريد الذهاب إليه وأين أذهب فعليًّا، بل وإنه يعلم أين سينتهي بي المطاف يوميًّا من قبل أن أقصد ذاك المكان. إني تمامًا كالكتاب المفتوح بالنسبة إلى الله، يعلم داخلي وخارجي، ماضيّي ومُستقبلي، لا يخفى عليه شيء مني، ومع ذلك فإني أجد الجرأة كي أعصيه. سبحان الله، ما أصغر الإنسان، فالإنسان خالقه هو الله، والله يرزقه ويعافيه ويستره ويحفظه، والله يعلم كل شيءٍ عنه حتى الخطرة في بال عبده دون أن يعمل بها، وبالرغم من ذلك كله فإن الإنسان يضعف لدرجة أنه تغلب عليه شهواته فيعصي ربه. سبحان الله الذي رضي بنا كعباده وعنده الملائكة عبادٌ له لا يعصونه أبدًا ولا يفتُرون عن عبادته! أفلم يأنِ الوقت أن أشدد من همتي؟

ذلك وقد نبأنا الله أن نحترس من هذا {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف 80]. إذا كنت مع صاحبك ثم جلس معكما شخص غريب، فإنك لا تتكلم بحريتك كما وأنت منفردٌ مع صاحبك، ذلك لأنك لا تود إظهار نفسك كاملًا ولا أمورك الشخصية أمام هذا الشخص الغريب الذي لا تعرفه. وهذا مع إنسان غريب ليس له عليك سلطان، فما بالك بربك الذي له سلطان عليك ويعلم ما تستحيي أن تحكيه لصاحبك حتى!

كل شيءٍ يطَّلع عليه الله، السر والعلن. والمشكلة أيضًا أن أعمالنا تُكتب علينا، والعمل المسجّل أثبت وأخطر، لأن التسجيل يعني هناك مراد من ذلك، والمراد هو المحاسبة عليه واستخلاص

الحقوق منه. والذي يُكتب لا يُنسى ولا يُمحَى، حتى إن نسينا نحن وتراكمت علينا أعمالنا بما لا نحسبه، ثم تكون الصدمة حين نستلم كتاب أعمالنا يوم القيامة. فكيف لعبدٍ تُسجّل له أعماله أن يطمئن في هذه الدنيا، بل ويطمئن في أثناء المعصية؟!

ويجب أن يعي المرء أن الله يعلم أدق التفاصيل وأخفى أسرار خواطر البال والأفعال، فقد قال {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا} [الفرقان 58]. فيا ويلنا، هناك من يعلم كل ذنوبي ذنبًا ذنبًا، ويعلم دوافعي وتخطيطي لارتكابها، وكيف وأين، لأنه {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر 19]، أسرار أُواريها بسبب قُبحها لدرجة أنها تجعلني أخجل من نفسي.

وضعي شبيهٌ بالسارق الذي يضع ما جمعه مع رجلٍ ليحفظه، ولا يعلم أن ذاك الرجل هو صاحب تلك المسروقات، ومع هذا فإن السارق ينام وهو مطمئنٌ لأنه لا يُدرك ما هو آتٍ! والله إنه لا مَنجا من الله إلا إليه، ولا نجاةً دون أن يصيبنا بستره ورحمته ومغفرته في الدنيا والآخرة. أما للعاصي فأقول له: لو أنك تعلم كل ذنوب شخصٍ وأسوأ أسراره، وكنت أنت المُوَكَّل على عقابه، فكيف ستكون معه؟ ولكن كيف ستكون إن أدركت، بعد معاقبتك له، أن ذنوبه مثل ذنوبك، بل ما عُرض عليك هو عنك في الحقيقة، فما ظنك في نفسك؟ فالحمد لله الذي يعفو عن أغلب ذنوبنا ويعاقبنا فقط ببعضها (وهذا في الدنيا، أما في الآخرة فيُحاسَب المرء عليها كُلها، والله المستعان مع أنه الذي سيحاسبنا)، فهل من الخُلُق أن يستغل المرء عفو الله بالإكثار في المعاصي؟

أما إذا كنت وحدي وليس معي أحد، حتى إن كانت الدنيا حولي مُظلمةٌ تمامًا إلى حد أني لا أستطيع أن أرى نفسي وأنا أفعل المعصية، فاغتررت بستر الله، فهنا ينبغي أن أتذكر المراقبة وتبعاتها، وأن الله لا يُعجزه شيء، فالتخفي والجهر سواء عنده في الاطّلاع. وهنا يكمن فرق أساسي بين المؤمن بالقيامة وبالحساب وبين الكافر -عندما يخفون عن أعيُن الناس-، فإن المؤمن يتَّعظ فيتقي عذاب الله بأن يتفادى ما يُغضب الله، وأما الكافر فيسهُل عليه ارتكاب الفساد في الخفاء إذ لا زاجر ولا رادع له، لأنه يظن أن لا أحد يراه وأن لا عقاب سيقع عليه لما يرتكبه، {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا} [المزمل 17]. وقد أصاب القائل:

وإذا خلوتَ بريبَةٍ في ظُلمةٍ ... والنفس داعيةٌ إلى الطُغيانِ

فاستحيي من نظر الإله وقل لها ... إن الذي خَلَقَ الظلام يراني[1].

---

[1] نونية القحطاني 25.

جاء في كتاب الله {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الإنفطار 10-12]. كلنا مُدونٌ أعمالنا في كُتب تُحفظ، فيكون العمل إما لنا وإما علينا، والذي علينا لا يمر مرور العابر لأنه يُسجّل في كتاب فيصبح دائمًا مُثبتًا، وإن فنيت السماوات والأرض. فإذا أردت أن تعصي الله اعلم أن هناك ملكًا سيكتب ما ستفعله ويبقى محفوظًا كدليل عليك، فاحترس. واعلم أنك قد تُفضح بتلك الأعمال يوم القيامة، فلا تترك نفسك الدنيوية تنصب فخًّا لنفسك الأُخراوية.

والسؤال الصميمي هو: ما الأثر الملموس لتلك المراقبة؟ إجابته توجد في قول الله تعالى {وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [يونس 54]. هذا ملخص التباين بين متاع الدنيا وعذاب الآخرة، فيتبين أن عذاب الآخرة يغمر ويغلب إجمالي ما في الأرض من متاع، وذلك تحذير للعاصي إذ لا يستشعر ولا يُدرك ما ينتظره. وعرَض لنا الله في هذه الآية مُقارنةً في صيغة ما يحدث يوم القيامة، إذ يريد العاصي أن يفتدي بكل ما حصَّله ولم يُحصِّله من متاع الدنيا يوم القيامة، بل ويفتدي بجميع الناس لو استطاع، فقد خسر خسرانًا مبينًا.

وذلك لأن النجاة من عذاب الآخرة يساوي أكثر مما في جميع الأرض، فما القول في الذي يدخل جهنم وهو لم يُحصِّل كل ما في الأرض من متاع؟ هذا الظالم قد باع الغالي بالرخيص، أي باع النجاة ببعض متاع الدنيا، لأنه لم يتمكن من تحصيل كل متاع الدنيا حتى، فلا حصّل الدنيا ولا الآخرة. فاعلم أخي أنك مهما فعلت من معاصٍ فإنك لن تدرك جميع متاع الدنيا، ولكنك تكون قد استحققت سخط الله عليك وعذابه، فلمَ التهافت على شيء لن يُدرَك كُله؟

وقيمة الجنة كذلك، أكثر من متاع الدنيا كله، فمن دخل النار بسبب معاصيه فقد خسر خسارتين، خسارة أنه عُذب على شيءٍ لم يبلغ منتهاه، وخسارة أنه حُرم من الجنة لأنه لم يتخلَّ عن اليسير من الدنيا! وهذا أشبه بثمن السلعة، فإن للهروب من جهنم ثمنٌ ولدخول الجنة ثمن، ولكن جمعهما الله بعملٍ واحد، فالهالك عليه خسارتان، والناجي له مكسبان (مكسب النجاة من النار ومكسب المكافأة بالجنة). ووعد الله بألا يظلم أحدًا هو بُشرى للمتقين ولكن غَم للظالمين، إذ إن الأول يسترد حقوقه والآخر يُحمل عليه مظالمه، فلا تنسَ هذا يا أخي.

ثم يجب أن أُدرك أمرًا وأنا أتهيأ لارتكاب المعصية، وهو أن الله مطّلع على ذلك لحظة بلحظة حين أُخطط لها سرًّا، سواء بمفردي أم مع رفيق سوء إذ إن الله بيننا كما جاء {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة 7]. فحتى وأنا أُخطط سرًّا في نفسي لإتمام المعصية وكي أُخفيها من الناس فإن الله

مطّلع {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا} [النساء 108].

ولو أني استشعرت وعايشت فكرة أني سأُسأل أمام الله عن كل معصية بتفاصيلها، شاملًا الأفكار الدنيئة التي وردت على بالي، ومُقدماتها من تخطيطي لها، ربما لم أستهتر بارتكاب المعاصي. والأسئلة تكون مثل لماذا ارتكبتها، وكيف، وما المقدمات التي تهيأت بها، وماذا كنت أُفكر فيه وما الذي طرأ على بالي، وما الخطط التي رتبتها للتغلب على الموانع وما مدى مكرها، وما الذي كنت أبغيه من المعصية. كل هذه الأسئلة وجب عليَّ الاستفاضة فيها لله بكل صراحة ومن دون كتم أي تفصيلٍ مهما بلغ دقَّته، فإنما يُقال لي إن أعترف وأخوض في التفاصيل الخفية فما يكون لي اختيار إلا الاستجابة. فوالله إني لأعمل أعمالًا ما أنا بمدرك مدى ما أُحَمِّلَه على نفسي يوم القيامة، ألا أزدجر؟!

هذا وقد ورد عن أبي ذر (رضي الله عنه) أنه سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم): يا رسولَ اللهِ، فما كانت صحفُ موسى؟ قال "كانت عِبَرًا كلُّها: عجِبْتُ لِمَن أيقَن بالموتِ ثمَّ هو يفرَحُ، وعجِبْتُ لِمَن أيقَن بالنَّارِ ثمَّ هو يضحَكُ، وعجِبْتُ لِمَن أيقَن بالقدرِ ثمَّ هو ينصَبُ، عجِبْتُ لِمن رأى الدُّنيا وتقلُّبَها بأهلِها ثمَّ اطمأنَّ إليها، وعجِبْتُ لِمَن أيقَن بالحسابِ غدًا ثمَّ لا يعمَلُ"[1]. فحقًّا، عجبًا لمن أيقن المراقبة والحساب ثم لا يعمل الصالحات، بل ويفعل السيئات؛ أو الأدهى من ذلك بأن يتهرب من الأعمال الصالحة ويستبدل مكانها بالسيئة. فلنتقي الله المُطّلع علينا، المُوفِّي لنا أعمالنا {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ} [الزمر 70].

**نماذج من الأعذار التي تُقال يوم القيامة، فهل أنا أُشبههم؟** إن المرء في الدنيا قد يُزين لنفسه أعذارًا يقولها لله يوم على تقصيره، بل وكثيرًا ما قد يتباهى في نفسه أنه تميز أو تفرد بتلك الحُجة، ثم يجد أن أفواجًا من الناس يستخدمون نفس الحُجة التي أعدَّها، فيُدرك أنه هالكٌ. ونماذج شائعة من الأعذار توجد في قول الله تعالى {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الزمر 54-58].

---

[1] صحيح ابن حبان 361.

هذه الآيات تزيد من يقين المرء بالله والخشية منه، لأنه يبين لنا الحجج التي ينطق بها ابن آدم عندما يرى العذاب، ويكأن هذا الحدث قد وقع، ولكنه لم يحدث بعد بالنسبة إلينا! فهل هناك كرمٌ ونصحٌ أكثر من هذا، أن ينذرنا الله مما يضرنا فحَرَّمه علينا كي لا نفعله، ثم يعظنا من الأخطاء التي يقع فيها كثير من الناس ومما يقوله الظالمون لأنفسهم يوم القيامة، لعلنا نعتبر، فهذا من قوة حب الله في نجاتنا. وهذا الموقف شبيهٌ بموقف المُدرس الذي يحل كل المسائل النموذجية مع الطالب قبل الامتحان، والامتحان سيأتي من هذه الأسئلة بعينها أيضًا، فإذا رسب الطالب هل يكون اللوم إلا على عاتق الطالب كاملًا؟!

قد حذرنا الله من الأفخاخ التي نوقع أنفسنا فيها، أن هناك من يُفرِّط في جنب الله ليتمتع بالدنيا، ويسخر من العظة والحق أو يتجاهلهما. وهناك من يمشي في ركاب الناس ويتّبع عامتهم ويُقنع نفسه أن هذا هو طريق الصواب لا محالة، ثم وقت الحساب يلقي اللوم على الناس، وظُلمًا على الله أيضًا، متحججًا أن الله لم يهدِه وهو في ذاك الطريق. وهناك من يُسَوِفَ بالتوبة والعمل الصالح حتى يأتي أجله، فيتمنى أن تكون له فرصة ثانيةً ليحاول ألا يؤجل عمله. فسبحان الله الذي كشف لنا صورةً من صور الغيبيات المستقبلية لمواقفنا يوم القيامة، لعلنا نشد في اجتهادنا.

وهناك آيات مثل تلك الآيات التي تنبئنا بما يقوله الإنسان يوم القيامة من حُجج على تقصيره في عمله وارتكاب المنكرات، مثل {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} [سبأ 31]، {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا} [الفرقان 27-29]. وكل تلك الآيات يجب أن تزيدنا إيمانًا ويقينًا، إذ إننا نعايش تلك النماذج في الحياة مما نراه في أنفسنا -من تفريط في ذكر الله أو بعصيانه-، أو في غيرنا -من إعراض عن أحكام الدين بدرجاته-.

وبمطابقة تلك الأعذار المستقبلية مع أعذار المجرمين في واقعنا الحالي في الدنيا، نجد أن هناك تشابهًا عجيبًا بين تلك الأعذار، فسبحان الله. قد قرأت مقالة لأحد المحققين الجنائيين، سرد فيها الأعذار التي يعترف بها المجرمون عندما يتم القبض عليهم وحبسهم، أعذار هي أعمق ما يكون مما يُسِرُّونه بينهم وبين أنفسهم، ولكنها تخرج عند وقوعهم في المأزق. قال إن الحجج تتمركز حول عدد قليل من الحجج، فقائل يعترف "أنا قلت لنفسي: أنا أستحق هذا (المتاع)"، وآخر يقول "كل الناس يفعلونه"، وغيره يقول "أنا أفعل هذا من أجل عائلتي"، و"لو لم آخذ هذا فسيأخذه أحد غيري"، و"الناس يفعلون ما هو أسوأ (من هذا)"، و"سأفعلها فقط هذه المرة الوحيدة". فهل تجد نفسك تستخدم إحدى هذه الحجج يا أخي لمعصية الله؟

في لفتة جانبية عن حجة "أنا أفعل هذا من أجل عائلتي"، لعل امرئ يُبرر لنفسه أن يكسب من حرام حتى ينفق على أهله، خاصة إذا كان حاله متعسرًا وعليه متطلبات كثيرة تضغط عليه. ويزيد من سهولة خوض المرء في المال الحرام هو أن المال من أشد الفتن للمسلم، وخاصة أن الكسب من الحرام أصبح شائعًا وسهلًا ومألوفًا عند الناس مع تقدم الزمن (مثل بالربا من البنوك).

لكن، ينبغي للمرء إدراك أن الله طيب لا يرضى إلا بالطيب. لا يمكن أن يرضى الله بأن يجني عبده المال من حرام حتى يستطيع الإنفاق على أهله، مهما بلغت الضغوط، إذ إنه بلاء من الله ليختبر العبد، فلا يترك الله عبدًا يهلك من الجوع (ولكن الناس هم الذين منهم من يمنعون الطعام عن غيرهم). وعلى المرأة عون زوجها ألا يكتسب من الحرام، وذلك بعدم تحميله ما لا يطيق، فلا تظل تطلب منه دون مراعاة أحواله. بل إن استطاعات أن تحثه على عدم جني المال من الحرام وأنها ستصبر معه يكن ذلك خيرًا لهما، فقد كانت إحدى الزوجات الصالحات تقول لزوجها –وهو خارجٌ من المنزل ليتكسب– شيئًا نحو: اتق الله فينا ولا تطعمنا إلا حلالًا، فإننا نستطيع الصبر على الجوع في الدنيا، ولا نستطيع الصبر على النار في الآخرة.

رجوعًا للموضوع الأصلي، إن الآيات التي تُنبئنا بما قد نجد أنفسنا نقوله يوم القيامة بمنزلة إعانة لنا من الله، لأنهن حُججٌ شتى تنتج من خوض اختبار الحياة، لكلّ امرئ حُجته بحسب عمله، ولكن تلك الحُجج محصورة عند الله ومُتكررة، ويُبيّن لنا أنها باطلة تحذيرًا لنا. وعلى الوجه الآخر، قد نبأنا الله بما يقوله الصالحون الناجون من العذاب، ويكأن الله قد أعطانا الإجابات المتنوعة لاختبار الحياة وترك لنا الاختيار أن نكون من أصحاب أي إجابة نريد، وما بقي إلا أن يذاكر الساعي بأن يجتهد ليتهيأ أن يكون من أصحاب القائلين {قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} [الطور 26–28] .

فقولوا لي، أفمن لم يبذل مجهودًا ليُكمِل ما بقي من الطريق –بأن يذاكر الإجابات التي أُعطيت له لينجح في الاختبار– ماذا يقال عنه ويُفعل معه يوم القيامة؟ قد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) في أمر اجتهاد المرء للآخرة "مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا، وَلا مِثْلَ الْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا"[1].

**تذكُّر مراحل الآخرة بتفاصيلها:** يجب أولًا أن يُدرك المرء مدى قرب القيامة، وأن موت الإنسان هو كقيام الساعة له إذ لا ينفع عمل ما بين الموت وقيام الساعة فعليًا. وأكبر عونٍ للمُستبصر على مدى قُرب قيام الساعة عامةً هو ملاحظة كم العلامات الصُغرى التي نراها الآن. فقد رأينا انقلاب الموازين عند كثير من الناس مثل تصديق الكاذب وتخوين الأمين، ونرى ذهاب الأمانة وامتثال الناس

[1] سنن الترمذي 2526.

بالرويبضة وظهور الكاسيات العاريات. وفي بعض البلاد ذات الأغلبية الإسلامية أصبح المتمسك بسُنَّة الرسول (صلى الله عليه وسلم) يُنظر إليه كالغريب!

ومن العلامات أيضًا انتشار شُرب الخمر، والزنا، والربا، وكتم شهادة الحق، وشهادة الزور، وينتشر الجهل بشرائع الدين الإسلامي، والفُحش (التساهل في اللباس، والسب واللعن بأقبح الألفاظ)، وسوء الجِوار، وقطع الأرحام، والتهرب من دفع الزكاة، والقتل، وأناس يجمعون المال من الحلال والحرام سواء كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه سلم) "لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ، أَمِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ"[1]. وظهر أيضًا التسابق في التطاول في البنيان، وأن الأم تلد الولد ثم يُعاملها معاملة العبيد، واتباع سلوكيات اليهود والنصارى.

وهناك غير ذلك من العلامات الصغرى التي ظهرت، وقد ذكر الرسول (صلى الله عليه وسلم) كثير من تلك العلامات في حديثه "إِذَا اتُّخِذَ الْفَيْءُ دُوَلًا، وَالْأَمَانَةُ مَغْنَمًا، وَالزَّكَاةُ مَغْرَمًا، وَتُعُلِّمَ لِغَيْرِ الدِّينِ، وَأَطَاعَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ، وَعَقَّ أُمَّهُ، وَأَدْنَى صَدِيقَهُ وَأَقْصَى أَبَاهُ، وَظَهَرَتْ الْأَصْوَاتُ فِي الْمَسَاجِدِ، وَسَادَ الْقَبِيلَةَ فَاسِقُهُمْ، وَكَانَ زَعِيمُ الْقَوْمِ أَرْذَلَهُمْ، وَأُكْرِمَ الرَّجُلُ مَخَافَةَ شَرِّهِ، وَظَهَرَتْ الْقَيْنَاتُ وَالْمَعَازِفُ، وَشُرِبَتْ الْخُمُورُ، وَلَعَنَ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَوَّلَهَا، فَلْيَرْتَقِبُوا عِنْدَ ذَلِكَ رِيحًا حَمْرَاءَ وَزَلْزَلَةً وَخَسْفًا وَمَسْخًا وَقَذْفًا وَآيَاتٍ تَتَابَعُ كَنِظَامٍ بَالٍ قُطِعَ سِلْكُهُ فَتَتَابَعَ"[2].

وتوضيحًا للحديث المذكور، فإن الْفَيْءُ هو المغنم الذي يؤخذ من العدو دون قتال، إذا فروا أو استسلموا مثلًا؛ دُوَلًا أي يُتداول بين الخاصة من الناس ولا يتم توزيعه على الناس كما شرع الله، وعادة ما يستولي عليه الذين هم أغنياء في الأساس. وَالْأَمَانَةُ مَغْنَمًا: لعل المقصد هو مغنم للفاسق أن يسرق إذ ائتمنه الناس بمالهم، والله أعلم. وَتُعُلِّمَ لِغَيْرِ الدِّينِ أي يتعلم العلم الشرعي ليس لله ولا لنشر الأحكام بين المسلمين، ولكن لدنيا يصيبها كمنصب أو جاه أو مال. وَأَدْنَى صَدِيقَهُ أي قرَّب صديقه إليه للمؤانسة، وفيه إشارة إلى أن المرء يُحسن التصرف مع صديقه لتصبح علاقتهما وطيدة ومقابل ذلك يُسيء التصرف مع الأبوين؛ وَأَقْصَى أَبَاهُ أي أبعده وانقطع عنه. وَظَهَرَتْ الْأَصْوَاتُ أي ارتفعت؛ الْقَيْنَاتُ أي المُغَنِّيات؛ وَمَسْخًا أي تحويل الصورة والخِلقة إلى ما هو أقبح منها، كالقرد والخنزير؛ قَذْفًا أي قذف بالحجارة من السماء؛ وَآيَاتٍ تَتَابَعُ أي آيات أُخر تلحق؛ كَنِظَامٍ بَالٍ قُطِعَ سِلْكُهُ فَتَتَابَعَ أي مثل عَقد من خرز انقطع خيطه فوقع الخرز متتاليًا.

فالله المستعان. إذا كان انشقاق القمر، الذي هو علامة من علامات الساعة، قد سبق وحدث في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ} [القمر 1]، فماذا ننتظر والموقف خطير إلى هذا الحد؟ كل ذلك يُضاف إلى كثرة التنبيهات في كتاب الله وفي السُنَّة

[1] صحيح البخاري 1941.

[2] سنن الترمذي 2137.

الشريفة عن مدى قُرب الساعة، فقد جاء عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) في بيانٍ توضيحي "بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ" وَضَمَّ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى[1]. وهذا بيانا لما جاء في آيات مثل {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ} [الأنبياء 1-3]، {وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ} [الأنبياء 97].

وقال تعالى مُنذرًا عن قُرب القيامة أيضًا {أَزِفَتْ الْآزِفَةُ (57) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ} [النجم 57-61] (سَامِدُونَ أي لاهون معرضون). فهذه آيات بالغة في التحذير والوعيد، لأن التعبير الإلهي بقوله تعالى "أَزِفَتْ الْآزِفَةُ" بمعنى أن القيامة اقتربت. وفوق نقطة أنها أوشكت، فالتعبير يعطي انطباعًا على أنها تزحف تدريجيًّا نحونا بالرغم من قربها، فقد تقوم في أي لحظة! وذلك يجعل المرء يفيق من غفلته.

وعلى هذا النحو من الثقل والأثر على النفس، فهناك حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال فيه "كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَسَّمَّعُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ" فَقَالَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ: كَيْفَ نَقُولُ؟ قَالَ "قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا"[2]. وَصَاحِبُ الْقَرْنِ هو المَلَك المُوكَل بالنفخ في الصُّور الذي هو مثل البوق، إعلامًا بقيام الساعة؛ الْتَقَمَ الْقَرْنَ أي وضع شفتيه على الصُّور استعدادًا للنفخ فيه؛ وَحَنَى جَبْهَتَه أيُ مال رأسه مجتهدًا في الاستماع.

والحديث معناه أن المَلَك الموكل بالنفخ في القرن وضع فمه على القرن وينتظر أمر الله للنفخ فيه! ووصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) "عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا" توحي أن الاستعدادات للقيامة قد بدأت وأنهم يشرعون في اجتياز ذلك اليوم بالأعمال. وصيغة كلامه (صلى الله عليه وسلم) تعطي انطباعًا أنه ليس فقط يَعُدُو لذلك اليوم، بل كأننا بالفعل بدأنا في خوض جوانب من ذلك اليوم (إذ إن بعثته علامة من علامات اقتراب الساعة)، فأي تنبيه أبلغ من ذلك؟ وإذا قامت القيامة لا ملجأ من الله إلا إليه، ولا منجا من الله إلا إليه، ولا كاشف لها إلا هو لأن كل شيء يتم بأمره وحده وهو المهيمن على كل شيء.

والمخيف في ذلك، أني أجد حالي أحيانًا يُشبه وصف طباع الكافر في تلك الآيات -الإعراض عن العمل الصالح والغفلة واللهو-، فسبحان الله الذي يعلِّمُني أكثر مما أعرف نفسي. فإني لأتعجب أن بالرغم من مدى تأكيد الله على قُرب القيامة، فإني أتصرف أحيانًا على أساس أنها بعيدة، فألهو

[1] صحيح مسلم 5247.

[2] مسند أحمد 2853.

وأضحك كثيرًا في الدنيا، بل وأحيانًا أعصي ربي. ليتني أتعظ بحديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ، أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إلا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ"[1] (أَطَّتْ أي تُصَوِّت وتُحدث ضجيجًا)، ولكن كثيرًا ما أكون سامدًا عن حقوق الله عليَّ. فما خطبي؟!

والآخرة لها مراحل، مشقة بعد مشقة وداهية بعد داهية، إلا على من رحم الله. والآخرة دار حساب، فتذكُّر المرء أنه سيحاسب على ما يفعله قد يجعله يزدجر عن ارتكاب المعاصي (وهو طبيعة الإنسان). ولولا الإيمان بالحساب لفجر الإسنان (أي طغى) في الأرض كما قال تعالى {بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلا لا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13) بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} [القيامة 5-15] (لا وَزَرَ أي لا ملجأ). "لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ" أي يتمادى في الفجور بلا حساب، فإن لم يكن هناك حساب لفجر كل الناس، ولأصبحت العيشة على الأرض عذابًا لا تطاق، يأكل القوي فيها الضعيف، والسلطان ممن لا سلطان له، والكبير يستأسد على الصغير، ولَعَمَّ الظلم. فالحمد لله الذي جعل البعث والحساب، والثواب والعقاب، والحق له النصرة على الباطل في النهاية.

إن طبيعة الإنسان الفجور، إلا من هذَّب نفسه بالإسلام، وسيأتي اليوم الذي يُنبَّؤ الإنسان بما قدّم وأخّر، الصغير منه والكبير، فيا للطامة، أين المفر حقًّا... ولكن المنتهى والمستقر إلى الله لا محالة. لتدرك مدى مصيبة ذلك يجب أن تتخيل يا أخي أن كل واحد سيُحاسبه رب السماوات والأرض. فبشرى للمخلوقات التي لا حساب عليها مثل الأشجار، لأنهم لن يمروا بهذا الموقف العصيب.

ومهما تخيلنا فلن نقترب من معرفة الدواهي التي ستقع يوم القيامة، مما جعل الصحابة - الذين هم من خيرة الأمة الإسلامية إيمانًا وعملًا- يتمنون عدم البعث من خوفهم. قد قال أبو ذرٍ رضي الله عنه: لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ؛ وذلك عندما خاض الرسول (صلى الله عليه وسلم) في أمورٍ غيبية وأمور الآخرة بحديثه الذي ذُكر آنفًا.

والسيدة عائشة عند وفاتها (رضي الله عنها)، والتي هي زوجة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولها ما لها من مكانة، قالت: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا[2]. وعن سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال ذات مرة من شدة خوفه من الحساب على رعيته للمسلمين: أَلَا

---

[1] سنن الترمذي 2234.

[2] مسند أحمد 2366.

لَيْتَ أَنَّ أُمَّ عمر لَمْ تَلِدْهُ، يَا لَيْتَهَا كَانَتْ عَاقِرًا لَمْ تُعَالِجْ حَمْلَهَا، أَلَا مَنْ يَأْخُذُهَا بِمَا فِيهَا؟[1] (الظاهر أنه يقصد بذلك أن هل يحمل عنه أحد الخِلافة بما فيها من مزايا وأثقال، والله أعلم).

وقال سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه): لَوْ أَنِّي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَلا أَدْرِي إِلَى أَيَّتِهِمَا يُؤْمَرُ بِي، لاخْتَرْتُ أَنْ أَكُونَ رَمَادًا قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ إِلَى أَيَّتِهِمَا أَصِيرُ[2]. وقال ابن مسعود (رضي الله عنه): وَدِدْت إِذْ مِتُّ لا أُبْعَثُ[3]. فهذه بعض النماذج ممن كانوا حول الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخشيتهم من الله وما سيُفعل بهم، بالرغم من أنهم كانوا أفضل قرنٍ جاء. فسبحان الله على انقلاب الأحوال من الذين كانوا أبلغ اجتهادًا مع شدة الخوف من مصيرهم إلى من هم مسرفون في العمل مع الطمأنينة من الحساب. فاللهم سلِّم سلِّم.

هذا والغني يكون حسابه أثقل من الفقير، والحاكم أثقل من المحكوم، والسليم أثقل من المريض العاجز، والعاقل أثقل من المجنون، والآمن في داره أثقل من الخائف في بيته، وعالم الدين والقاضي أثقل من عامة الناس، وغير ذلك. ولذلك كان الصحابة يرفصون تولي الحكم إلا بأن يؤمروا بها، وبعضهم كان يعتبر أن المال الفائض نقمة لا نعمة، بسبب ثقل الحساب الذي تجلبه يوم القيامة حين يُسألون من أين اكتسبوه وفيما أنفقوه.

كل هذا وسيكون الإنسان على نفسه بصيرة، أي سأشهد على نفسي... أفلا أقلق من هذا؟! كل ما فعلت في الدنيا من قبائح وواريته عن الناس، وأمَّنت هذه الأسرار في نفسي، فيوم القيامة يكون المُفشي هو من اختزنت أسراري معه، ألا وهو نفسي. أي فضيحة تلك؟! ذاك اليوم الذي يختصم فيه العاصي مع نفسه... لا إله إلا الله سبحانه. ومهما قلت من معاذير، فإن الله يعلم ما أُخفي في صدري من المعاذير الكاذبة الفارغة، وستعترف أعضاء الجسد أيضًا إن كذبت على الله، أفليس هذا اليوم إلا... الحق؟

ومعلوم أن من شدة عصبة ذلك اليوم أن الفُجار يتخاصمون ويتجاهلون بعضهم، لأنهم يريدون الافتداء ببعض مهما كان الرابط أو القرابة التي كانت بينهم في الدنيا، ولكن قد يظن أحد أن المُتقين لا يتخاصمون يوم القيامة. ومع أن هذا صحيح في العامة، فإنها تأتي لحظات عليهم أيضًا تتلاشى أي صلة.

تروي لنا السيدة عائشة (رضي الله عنه): قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ يَذْكُرُ الْحَبِيبُ حَبِيبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ "يَا عَائِشَةُ، أَمَّا عِنْدَ ثَلاثٍ فَلا: أَمَّا عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَثْقُلَ أَوْ يَخِفَّ فَلا، وَأَمَّا عِنْدَ تَطَايُرِ

---

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني 83/1.

[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني 60/1.

[3] غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب لمحمد السفاريني 226/2.

الْكُتُبِ فَإِمَّا أَنْ يُعْطَى بِيَمِينِهِ أَوْ يُعْطَى بِشِمَالِهِ فَلا، وَحِينَ يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنْ النَّارِ فَيَنْطَوِي عَلَيْهِمْ وَيَتَغَيَّظُ عَلَيْهِمْ وَيَقُولُ ذَلِكَ الْعُنُقُ: وُكِّلْتُ بِثَلاثَةٍ وُكِّلْتُ بِثَلاثَةٍ: وُكِّلْتُ بِمَنْ ادَّعَى مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَوُكِّلْتُ بِمَنْ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ، وَوُكِّلْتُ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ؛ فَيَنْطَوِي عَلَيْهِمْ وَيَرْمِي بِهِمْ فِي غَمَرَاتٍ. وَلِجَهَنَّمَ جِسْرٌ أَدَقُّ مِنْ الشَّعْرِ وَأَحَدُّ مِنْ السَّيْفِ، عَلَيْهِ كَلاليبُ وَحَسَكٌ يَأْخُذُونَ مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالنَّاسُ عَلَيْهِ كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، وَالْمَلائِكَةُ يَقُولُونَ: رَبِّ سَلِّمْ، رَبِّ سَلِّمْ. فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُسَلَّمٌ، وَمُكَوَّرٌ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ"[1].

وفي رواية أخرى، جاء عَنِ السيدة عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أَنَّهَا ذَكَرَتْ النَّارَ فَبَكَتْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "مَا يُبْكِيكِ؟" قَالَتْ: ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَمَّا فِي ثَلاثَةِ مَوَاطِنَ فَلا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا: عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَوْ يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِينَ يُقَالُ {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ} حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ أَفِي يَمِينِهِ أَمْ فِي شِمَالِهِ أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ"[2].

الظاهر من الحديثين أن ذلك حال المتقين في أن الحبيب والحبيبة يذكرون بعضهما عامة إلا في تلك المواضع، أما الفُجار الذين كانوا عُشَّاقًا في الدنيا فلا يذكرون بعضًا بتاتًا في أي لحظة يوم القيامة، بل ويتملصون من بعض. وذلك من قول الله فيهم {وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (10) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ} [المعارج 10–12] (يُبَصَّرُونَهُمْ أي أن المجرم يرى صاحبه ولكن لا يُكلمه، ويتصرف كأنه لم يره). وحقٌ علينا في تلك اللحظات أن ننسى غيرنا، فأي يومٍ هذا؟! وما مدى شدة تلك الأهوال التي تحدث فتجعل الناس يتصرفون هكذا؟!

ويكفي لنا فزعًا من ذلك اليوم قول الله تعالى {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [النحل 111]. يومئذ تكون القاعدة المُطبَّقة هي كما أُدين أُدان، فينبغي ألا أحسب ما لي من حقوق فحسب، فإنه يؤخذ مني ما عليَّ من الديون سواء أعرفه أو لم أعِ به. فهل يعقل أن أستعد ليوم وصفه الله كذلك بمعصيته تعالى وظُلم الناس؟! أي هلاك هذا الذي أقود نفسي إليه؟

ومهما سردت واستفضت في تفاصيل أحداث الآخرة، فإنها لن تنقل حقيقة المشهد كما لو أننا نرى الأحداث عيانًا ونخوضها بأنفسنا وهي تقع يومئذ. ليس الإخبار عنها مثل معايتنا لها، برؤيا العين ومُعايشة الموقف، وهذا ما أكده لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) في أكثر من حديث، مثل "لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ. إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا

[1] مسند أحمد 23649، ضعفه الأرناؤوط بهذا اللفظ.

[2] سنن أبي داود 4128.

عَايَنَ مَا صَنَعُوا أَلْقَى الأَلْوَاحَ فَانْكَسَرَتْ"[1]. وعن عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود (رضي الله عنه) قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي نَبِيًّا مِنْ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ"[2] (وكان ذلك بعد معركة أُحُد حين شُجَّ وجهَهُ وكُسِرت رَبَاعِيَتُهُ صلى الله عليه وسلم فسال الدم على وجهه).

فهذا الحديث يدل على مدى جهلنا عن أمور الآخرة، فمع أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يتكلم عن المشركين آنذاك، وإننا لنعلم أكثر منهم بما علمنا الله إياه، ولكن لا نعلم كل شيء ولا نستوعب أهوال يوم القيامة، وإلا ما عصينا ربنا قط! وأكبر دليل على ذلك قول النبي (صلى الله عليه وسلم) "لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا"[3].

وإدراك النبي (صلى الله عليه وسلم) بجهل هؤلاء عن مصيرهم في الآخرة، إذا أصرُّوا على ما هم عليه، كان كافيًا له على أن يصبر عليهم بالرغم من أذيتهم له، بل ومع مبادرتهم لقتله. كان صبره عليهم من جهة أنه يأمل أن يهتدوا ويتمنى لهم النجاة مما يعلمه من عذاب الآخرة، وربما أيضًا وفاءً لصلة الرحم والعشرة التي بينه وبين قومه، فكان يشفق عليهم لجهلهم. وكما قال الشيخ الشعراوي (رحمه الله): ولو استحضر العاصي العقوبة على المعصية وقت عملها، ما أقدم على معصيته أبدًا[4]. وقال الإمام الحسن البصري (رحمه الله): ما أيقن عبد بالجنة والنار حق يقينهما إلا خشع ووجل، وذل واستقام، واقتصر حتى يأتيه الموت[5].

وفي تذكّر الموت، أو الاقتراب منه، محوٌ للشهوات لأنه يفرض على الإنسان التفكير بواقعية وصدق مع النفس، فلا تسعى نفسه للمعصية، ولهذا يكون من المستحب الاستكثار من ذِكر الموت. ولكن لماذا أنتظر قرابة الموت حتى أُصلح حالي؟ لماذا لا أكون مطيعًا لله غير عاصٍ، وأستوعب كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) من ظهر غيب عن خطورة الأوضاع يوم القيامة، فأعمل بناءً على ذلك؟! هل أنا ضعيف الإرادة إلى هذا الحد؟! فلنستعن بالله ونُكثر من ذكر الموت (هاذم اللذات)، على أن يعيننا الله على طاعته والابتعاد عن معصيته.

وكما يروي لنا سعد بن مالك (رضي الله عنه): دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُصَلاهُ فَرَأَى نَاسًا كَأَنَّهُمْ يَكْتَشِرُونَ، قَالَ "أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ أَكْثَرْتُمْ ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أَرَى، فَأَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْتِ عَلَى الْقَبْرِ يَوْمٌ إِلا تَكَلَّمَ فِيهِ فَيَقُولُ: أَنَا بَيْتُ الْغُرْبَةِ، وَأَنَا بَيْتُ الْوَحْدَةِ،

---

[1] مسند أحمد2320.

[2] صحيح البخاري 3218.

[3] صحيح البخاري 6004.

[4] تفسير الشعراوي 1641/3.

[5] اليقين لابن أبي الدنيا 38.

وَأَنَا بَيْتُ التُّرَابِ، وَأَنَا بَيْتُ الدُّودِ. فَإِذَا دُفِنَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ قَالَ لَهُ الْقَبْرُ: مَرْحَبًا وَأَهْلا، أَمَا إِنْ كُنْتَ لأَحَبَّ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي إِلَيَّ، فَإِذْ وُلِّيتُكَ الْيَوْمَ وَصِرْتَ إِلَيَّ فَسَتَرَى صَنِيعِيَ بِكَ؛ فَيَتَّسِعُ لَهُ مَدَّ بَصَرِهِ وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ. وَإِذَا دُفِنَ الْعَبْدُ الْفَاجِرُ أَوْ الْكَافِرُ قَالَ لَهُ الْقَبْرُ: لا مَرْحَبًا وَلا أَهْلًا، أَمَا إِنْ كُنْتَ لأَبْغَضَ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي إِلَيَّ، فَإِذْ وُلِّيتُكَ الْيَوْمَ وَصِرْتَ إِلَيَّ فَسَتَرَى صَنِيعِيَ بِكَ؛ فَيَلْتَئِمُ عَلَيْهِ حَتَّى يَلْتَقِيَ عَلَيْهِ وَتَخْتَلِفَ أَضْلاعُهُ"، ثم قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَصَابِعِهِ فَأَدْخَلَ بَعْضَهَا فِي جَوْفِ بَعْضٍ، وقَالَ "وَيُقَيِّضُ اللَّهُ لَهُ سَبْعِينَ تِنِّينًا، لَوْ أَنَّ وَاحِدًا مِنْهَا نَفَخَ فِي الأَرْضِ مَا أَنْبَتَتْ شَيْئًا مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا، فَيَنْهَشْنَهُ وَيَخْدِشْنَهُ حَتَّى يُفْضَى بِهِ إِلَى الْحِسَابِ"، ثم قال (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّمَا الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ"[1] (يَكْتَشِرُونَ أي يضحكون بشدة؛ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ أي هادم اللذات وهو الْمَوْتِ؛ وَتَخْتَلِفَ أَضْلاعُهُ أي تدخل بعضها في بعض من شدة ضمة القبر؛ فَيَنْهَشْنَهُ أي يلدغه/يلسعه).

فمع ذكر هذه المُقدمة عن عدم استطاعتنا استيعاب شدة المواقف يوم القيامة كما ينبغي، فإننا سنسترسل في بعض ما نبأنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن تلك الأحداث ونتفكر فيها. وهذا أدعى أن ندرك جُزءًا من مصيبة ذلك اليوم علينا، فنتقي الله ونفر من عصيانه.

<u>أولًا: الموت.</u> عن الْبَرَاءِ (رضي الله عنه) قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جِنَازَةٍ، فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ فَبَكَى حَتَّى بَلَّ الثَّرَى، ثُمَّ قَالَ "يَا إِخْوَانِي، لِمِثْلِ هَذَا فَأَعِدُّوا"[2] (شَفِيرِ أي الحافة؛ الثَّرَى أي التراب الرطب). إن تذكُّر الموت فيه إرجاع للمرء إلى الواقع، ويسحبه من الأوهام والأحلام والتمني، لأنه يُفرض على المرء مواجهة الحقائق وإجابة الأسئلة الكريهة على النفس بصدق (أنه يجب أن يمتنع عن متاع الدنيا، بل ويُبذل الجهد) بعدما كان يتهرب منها. ولذلك كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يحُث على الإكثار من ذكر الموت، لأنه يُكدِّر على المرء استمتاعه بلذات الدنيا، إذ إن المرء يُدرك أنها فانية وكذلك هو، ثم سيُحاسب على ما فعل فيها. فعلينا الأخذ بنصيحته (صلى الله عليه وسلم) في أن نُكثر من ذكر الموت كي نتقي الله.

فتذكر أخي هذا المشهد الصادم، مشهد الإنسان وهو يتم غسله بالأحياء. فإنه أصبح ضعيفًا إلى درجة أنه لا يقوى على تغسيل نفسه، ولا دفع يد أحد، ولا منعهم من أن ينزعوا عنه ملابسه، ولا أن ينظر إلى من حوله. قد كان مليئًا بالحركة والنشاط، فأين هما الآن وهو جثة هامدة، مسلوب القدرة وعديم الحيلة؟

---

[1] سنن الترمذي 2384.

[2] سنن ابن ماجه 4185.

قال تعالى {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجمعة 8]. هذه الآية جاءت تخاطب اليهود الذين أعرضوا عن الإقرار بالحق، ولكن المعنى يشمل كل من بَعُدَ عن الحق. وهذا ما نراه على أرض الواقع، أن الإنسان البعيد عن طاعة الله ومُسرف في المعاصي يخشى الموت أكثر من الشخص الذي يلتزم بالحدود، لأنه يخشى أن يُبعث وهو مفسد غير تائب، يخشى أن يُجازى على أعماله. إضافةً إلى هذا، فإن علاقته مع ربه سيئة فلا يريد ملاقاته على ذلك الحال.

ونرى ذلك واقعيًّا في أن المسرفين في المعاصي والفجار أبعد الناس ذكرًا للموت وتَفَكُّرًا فيه، لأن الموت يمثل عقبة في لمنهجهم في الحياة وتنغيصًا لتمتعهم بالدنيا. وهذه القضية، الموت، ليس له مكان ولا إجابة في منهجهم الذي يريدون فرضه في منظورهم للحياة، لأن هذه القضية تُبطل أساس نظرياتهم وتطبيقهم للحياة، إذ إن من يدرك أنه سيموت يعمل صالحًا، واللهفة وراء الدنيا تُجابه تَقبُّل الموت والإعداد له.

ويتجسد ذلك في أنه إذا ذُكر أمامهم الموت رأيتهم يتعوذون أو يُصرفون الكلام عنه، إذ يكرهون الكلام عنه أكثر من المؤمنين. ومن يتَّصف بمثل هذه التصرف فإنه يكون في الجانب المعاكس تمامًا ممن أثنى عليهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما سأله أنصاري: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ "أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا" قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟ قَالَ "أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ"[1] (الْأَكْيَاسُ هو جمع كيّس، وهو الشخص الحريص الفطن الذكي).

والحقيقة هي أن الموت مدركنا لا محالة، فردًا فردًا، والتعبير القُرآني لهذا الأمر المحتوم مميز، إذ إن الله أوحى أن الموت، وإن فعلنا كل ما في وسعنا لنفر منه، هو الذي سيسعى إلينا ليلاقينا آنذاك، وما بأيدينا حيلة. وبعد ذلك نُرد إلى عالِمِ الغيب والشهادة الذي لا يخفى عليه شيء مما فعلناه، أحصاه علينا وسيُنبّئنا به ويُحاسبنا عليه. قولوا لي إذًا، إذًا كان الموت ملاقينا لا محالة، فلماذا المماطلة في طاعة الله ومحاولة الاستمتاع بهذه الفترة القصيرة من الدنيا بمعصيته تعالى وتأجيل التوبة؟ مما نهرب؟ من شيء واقع لا محالة، أم من مشقة عملٍ صالحٍ ينفعنا في الآخرة، أم من تفويت متعة في الدنيا هي ستمضي سواء تم الخوض فيها أم لا؟ فالموت واقع، والمشقة مُدركة إما بمجاهدة النفس في الدنيا أو بالعذاب في الآخرة، فلمَ التأجيل وتضخيم المُعاناة؟

وحذَّرنا الله من أن نجد أنفسنا قد وقعنا في فخ شائع جدًّا بقوله {وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ} [المنافقون 10]. والفخ هو تأجيل إصلاح المرء لنفسه حتى تَشغله وتُلهيه الدنيا، ولا يفيق إلا وهو

[1] سنن ابن ماجه 4249.

يلتقط آخر أنفاسه في الدنيا. حينئذ يتذكر ما يريد فعله، وأنّى ينفعه هذا، فوجب أن نعتبر من هذه الآية، وأنه لا يجب أن يقتصر تطبيقها فقط على مبدأ الصدقة. وحقيقة الأمر أن من يقول ذلك عند موته لم يكن لينصلح أبدًا، لأنه كان يُعلِّق إحسانه بموعد موته، فإذا جاء الموت كان حقًّا لله ألا يعيده بعد أن أمهله.

وكذلك عليّ، في كلمة حق قاسية على النفس أُقر أنني إن لم أُحسن عملي وأترك المعاصي كان حقًّا لله ألا يعطيني فرصة أخرى حين يأتي أجلي. فماذا أنا فاعلٌ، وماذا أنتم فاعلون؟ اللهم، يا مُقلِّب القلوب، أعنا على طاعتك وترك معصيتك، وصرِّف قلوبنا إلى ذلك، وثبتنا على دينك، وتوفنا غير مفتونين، وذكّرنا بالتوبة وأعنَّا عليها كي نتوب، ثم تقبلها منا، فإن فعلت ذلك تكون قد أكرمتنا في إعذارنا، فإن تغافلنا عن التوبة كان حقٌ لك علينا أن تفعل بنا ما تشاء، وسنظل عبادك مهما بلغ ما صدر منا.

وقال تعالى {كَلَّا إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ} [القيامة 26–30]، فهذا الشرح المفصل حين تنفصل الروح من الجسد لعظيم. إن طبيعة الإنسان الخوف من الموت وتجنب الكلام عنه، وفي مثل هذا الموضع يصف الله لنا الموت ليردنا إلى الواقع ونواجه الحقائق، ويطرح علينا أسئلة مثل "مَنْ رَاقٍ" أي من يرقي هذا الشخص مما أصابه؟

فمن يستطيع أن يُرجع النفس إلى الجسد بعد أن أمر الله بخروجها؟ فلا يستطيع أحد فعل شيء سوى النظر إلى الشخص والروح تغادره. ويشير الله إلى نقطة خفية لمن لا يتفكر، أن مهما بلغنا من منزلة في هذا العالم، فإننا جميعًا سواء في البداية والنهاية حتمًا، فكلنا نبكي عندما نولد، وكلنا نعاني من سكرات الموت، فلمَ التكبر عن طاعة الله بين مرحلتيّ العجز؟!

لماذا أتهاون بالموت، ولماذا أهرب من تلك الفكرة؟ الهروب من التفكير في الموت سفاهة، لأني إن لم أفكر فيه فلن أستعد له بأن أُصلح عملي، وأخدع نفسي بأن أعيش في الوهم، لأن الوهم هو البعد عن الواقع والسعي وراء الأماني، ومن ثمَّ يؤدي إلى الضياع. وعدم تفكيري فيه لن يؤجل ميعاده.. بل يجعلني أتفاجأ لعدم استعدادي عندما يأتي. أم أن الشيطان اندمج معي لدرجة أني سوَّلت لنفسي أني لا أخاف من الموت ظنًّا مني أني صالح؟ فكم من شخص يرى أنه صالح وهو في الحقيقة مفسد في الأرض ولكن الشيطان زين له عمله {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ} [البقرة 11–12]. فيجب ألا ءأمن من الموت، فمن أمن مكر الله فقد هلك.

وقال تعالى {وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق 19-22]. تَحِيدُ أي تهرب؛ سَائِقٌ وَشَهِيدٌ أي من يسوق الإنسان لمكانه، والشهيد هو الشاهد على الأعمال؛ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ أي ترى بوضوح الحق والباطل بعد انكشاف الغفلة.

خشية الموت بشده يكون عَرَضًا عند المرء لعلة عنده، وهي أنه يرى أنه مقصرٌ في واجباته تجاه الله، سواء كان ذلك فعليًّا بالتقصير في العمل أم حرصًا على النجاة فيرى أن ذلك حاله مع أنه يعمل صالحًا، ولكن ينبغي مراجعة المرء لأعماله في كِلا الوضعين. والموت حق، وهي لحظة بداية الحق المطلق لنا وعلينا إذ إن الدنيا فيها مظالم تُلوث الحق.

للتوضيح، كما أن الله منحنا الحياة، فيجب أن يُصاحبها ما هو ضدها حتى يكون هناك توازن لحالنا، وهو الموت. فمن التوازن هو أن الإنسان قد يتفاخر ويتكبر ويستعظم نفسه كونه حيًّا، ولكن اقتراب أو تذكُّر الموت يكسر تلك الصفات السلبية. ومن التوازن أيضًا أن في الدنيا تسود إرادة المرء على القوانين الحاكمة (أي يستطيع خرقها)، فوجب أن يُعكس الوضع بأن تكون هناك حالة يصبح المرء مُقيَّد الإرادة وتصبح القوانين الحاكمة هي التي تفرض نفسها على المرء مُطلقًا، وذلك كي يتم تحقيق العدل؛ فهذا جانبٌ مما تعنيه جملة: الموت حق. ثم إن الدنيا ليست العدل المطلق، لأن فيها من المظالم ما لا ينتهي، ظالم ومظلوم، وإنما من لحظة الموت يكون لا ظلم بعدها (المُتوفي لا يَظلِم، وكل الناس ستُتوفى) كما قال تعالى {لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ} [غافر 17، جزء من الآية]. فالظالم يدفع ثمن ظُلمه بدقة متناهية، والمظلوم يسترد مظلمته بدقة متناهية، وهذا ما يعنيه ما قلته: الموت لحظة بداية الحق المطلق لنا وعلينا.

ووالله إن الموت لحق لنا وعلينا. حق لنا إذ إن العبد يجب أن يُدرك أنه يفنى حتى يتواضع، ويكون ذلك دافعًا له أن يستعد ليوم الحساب، فلولا إدراك الراشدين أنهم سيموتون ويُحاسبون ما اجتهدوا كما اجتهدوا، ولنا في الصحابة الأمثلة والأسوة الحسنة. وليس هناك طريقة أبلغ للإدراك من المعاينة بالرغم من مرارته، والله يَعلم كراهيتنا للموت كما دُل على ذلك في جزء من الحديث القدسي "وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"[1]. بالإضافة إلى ذلك، فإن العبد المحسن في الدنيا يتشوق أن ينتقل إلى دار الراحة ونيل مكافأته التي تعب من أجلها.

---

[1] صحيح البخاري 6021.

والموت حقٌ علينا لأن الموت حق رب العباد على العباد، كي يُبين للمخلوقات سلطانه وتكبره وجبروته وقهره لما دونه، وأنه يتعالى عن الموت الذي يصيبنا. ثم يقول تعالى يوم القيامة بعد مرور جميع المخلوقات بالموت {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر 16]. قال المفسرون إن الله يقول "لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ" فلا يُجيبه أحد، فيُعلن بنفسه "لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ"، وقال آخرون إن الخلائق هي التي تُجيب. إضافة إلى هذه النقطة، فإن العبد الظالم حق عليه الموت كي يُغلب ويُنهى طغيانه، وليُجبر على استخراج الحقوق منه، فيُعذَّب على ما قدمه من مساوئ.

عند الموت، أكون قد دخلت عالم الآخرة، عالمٌ غير الذي أعرفه، خلقه الله منظمًا حيث لا مجال أن يظلم أحدٌ أحدًا. بل بالعكس، يُرد فيه المظالم ولو كانت مثقال ذرة أو أصغر، فكل من ظَلَمَ سيُعاقب، وكل من ظُلِمَ سيُنصر على ظالمه. حتى الظالم لنفسه، يُنصر له على نفسه إما بعفوٍ من الله وإما بالعذاب. ولذلك من سيمات الظالم أنه شديد الخوف والكره للموت، لأنه الحق، وسيلقى الحق سبحانه وتعالى.

وفي قوله تعالى "وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ" أي جاء الموت وهو الحق، ويرى الإنسان أن الآخرة حقٌ في وقوعها وأن الموت هو المَعبَر إلى دار العدل. إن الظالم يخاف يوم رجوع الحقوق إلى أصحابه، وهو لا يملك إلا حسناته ليُصَّفَى الحساب منه... وإذا كان الظالم يأخذ حق الناس في الدنيا ولا يردها لهم إلا وهو كاره، فما بال حاله يوم القيامة وهو عليه رد حقوق العباد من حسناته –التي يعتمد عليها للنجاة من عذاب الله–، وعليه رد حق الله عليه (أن الله خَلَقَه ولكنه لم يُطع ربه)؟!

إن الصحابة (رضي الله عنهم) كانوا يشتاقون للقاء ربهم مع أن الموت كريهٌ للإنسان بطبعه. وفي هذا السياق يأتي الحديث للرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ". فَقَالَتْ عَائِشَةُ (أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ): إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ، قَالَ "لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ. وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ"[1]. يا للمصيبة لمن كره لقاء الله، فما ظني بما يُفعل بمن كَرِهَ اللهُ –رب العالمين– لقاءه؟! وما أظن أن يُفعل بمن نسيهُ اللهُ يوم القيامة، يوم لا ملجأ من الله إلا إليه؟

إني أخاف الموت لأني لست مستعدًا له، وأخاف أن أستلم كتابي الذي مدون فيه كل معصية، فلماذا نفسي مستعصية على ولا أتوب وأقلع عن الذنب وأصلح ما فعلته كي أكون من النفوس المطمئنة يوم الحساب؟ لماذا لا آخذ بزمام الأمور فأُسيطر على نفسي بأن تعمل صالحًا، بدلًا

[1] صحيح البخاري 6026.

من تبعيتي لها دون أن أعلم أين تُلقي بي؟ أليس علمي أني اجتهدت قدر الاستطاعة في محاولتي للنجاة، وأعي أين اتجاهي، أَقَر لنفسي من الشعور بالتبعية والتيهة لاتباعي هواي؟

إني لا أريد أن أكون من الذين يفرون من الموت، الذين يفعلون كل ما بدى لهم حتى إذا اقترب منهم الموت (أو أصاب أحدًا يعرفونه)، كأنما سُحبت الأرض من تحت أقدامهم ويصبحون أذلاء منكسرين، ويرفضون التكلم عن الموت وكأنه لن يأتيهم أبدًا! لا، بل أريد أن أكون مستعدًّا، حتى إذا جاءني الموت لا أقول: رب ارجعنى أعمل صالحًا؛ وبدلًا من هذا تكون قناعتي في نفسي أن موتي الآن إنما هو إرادة الله وحكمته فأرضى بهذا، وأُحسن الظن بربي اتباعًا لما قاله النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل موته بثلاثة أيام "لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[1].

أريد أن أكون متقبلًا لأمر الله، وذلك يتحقق بالاجتهاد في طاعته ومُلازمة التوبة، وبقوة الإيمان أني عبده –يفعل ما يشاء بي– وأكون متوكلًا عليه فيما سيفعله بي. أريد أن أبلغ مرحلة أني أموت وأنا أعلم أني ذاهب عن هذه الدنيا التي أنا غريب فيها إلى بين يدي ربي أنا، ربي الذي لا يظلم ويُجازيني لصبري على الأذى في سبيله في الدنيا، فأكون مطمئنًا بذلك. هكذا ينبغي أن يكون توجهي، وهو ما أرغب بلوغه. أفليس العمل لذلك ضروريًّا وحقًّا لنيله؟

لقد ترك المؤمن هذه الحياة للكافرين والمنافقين يتمتعون بها ويكنزون من زينتها، فحقيقة الأمر أنه لا يريد من الدنيا ما يُسعده ولكن يُغضب ربه، فلا متاع له مع معصية ربه. فإنه ليست له الدنيا، لأنه يريد الآخرة، ولا يجتمع متاع الاثنين معًا. ويجب أن نُدرك هذه الموعظة القرآنية إذا تشوق أحدنا لمتاع الدنيا {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب 28-29].

فالدنيا موجودة، ومتاعها متاح لأي شخص يريده، وكون متاعها سهل نيله ومتوفرًا فهذا يدعو للقلق والريبة من مكر الله، فأحلى الأشياء لا تأتي بلا مُلحقات أو ثمن. فإن أغرتني الدنيا، لأضع نفسي في موقف الآيات المذكورة ويكأن الله يخاطبني ويُخيّرني أنا!! فلا يمكن تحصيل متاع الدنيا مع اتباع الله ورسوله، ولو كان هذا ممكنًا لكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) أولى به وحققه، ولكنه عاش حياة الزهد وأعرض عن متاع الدنيا اللاهي عن ذكر الله. وكما يروي لنا سيدنا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): نَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً، فَقَالَ "مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وتَرَكَهَا"[2] (وِطَاءً أي فراش أو سرير).

---

[1] صحيح مسلم 5125.

[2] سنن الترمذي 2299.

"وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ". كلمة يوم الوعيد كلمة مرعبة. هذا اليوم وعدني به الله من بداية حياتي إلى يوم موتي، وحذَّرني منه، أنا ومَن قبلي ومَن بعدي. فلماذا أتصرف وكأنه لن يأتي، وكأني المسيطر على مصيري وخالدٌ في الدنيا بنعيمها؟ كيف سأكون عندما يأتي هذا اليوم الموعود؟

ثم ليُعلم أن الناس جميعًا، بالرغم من اختلافهم الشاسع في هيئاتهم وصفاتهم، يتصرفون تصرُّف رجلٍ واحدٍ عند الموت، وهو الاستسلام. أما المؤمن فيستسلم إلى البُشرى من الملائكة والراحة من مشقة الدنيا وسجنها له، وأما المُسرف في المعاصي والكافر فيستسلم إلى وطأة ما الملائكة فاعلون به، ويضع نفسه بين أيديهم ليفعلوا به ما أمرهم الله به! قد نبأنا تعالى {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأنعام 93]، ففي الآية دليل على أن الكافر يستسلم لهم جبرًا، إذ إنهم يأمرونه بإخراج روحه ويتمكنون من استخراج روحه في نهاية المطاف.

وقال تعالى {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل 28]. هذه الآية تتكلم عن الذين يموتون وهم كفار، ولكنها قد تنطبق على الذين أسرفوا في المعاصي من المسلمين دون توبة. والذي يؤيد ذلك قول الله تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمرن 135]، أي أن من ارتكب معصيةً يكون قد ظلم نفسه. أفلا أحتاط وأتعظ؟

والمخيف في هذا الموقف الرهيب –لحظة الموت– هو أن مهما بلغت ذنوب أو جحود أو كفر هذا الشخص فإنه يلقي السّلم، أي أنه يستسلم للحال إذ لا ينفع عناد ولا مقاومة معه! ويكأنه يدرك منذ تلك اللحظة أنه مُتَمَكَنٌ منه، فيستسلم رضوخًا عن قلة حيلته للوضع، وما يجد إلا أن يقول إنه ما كان يعمل من سوء! فيكون الرد الثقيل القاطع المُخرِس "بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ"، أي لا فائدة من الإنكار والتظاهر، فالله رأى كل أعمالكم ويعلم ما تُخفون. فإن أردت أن أتفادى هذا الوضع العصيب فينبغي أن يكون بالعمل والتوبة.

والجدير بالذكر هو مدى عجز الإنسان أمام مسألة الموت، سواء عن تفاديه أو مُساعدة من يصيبه الموت، فقد قال تعالى {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ (85) فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الواقعة 83-87]. عند لحظات الموت تجد كُلًّا يضعف، الذي ينتهي أجله ومَن حوله إذ لا

يستطيعون رد الروح ثانية، ومحاولة الإنعاش إنما تكون أخذًا بالأسباب، وربما تُجدي إذًا أذن الله لها، ولكن إذا جاء أمر الله بنفاذ الأجل فلا شيء يجدي. يضعف من حوله لأنه تذكرة لهم، والموت له رهبة وهيبة لأنه يدرك كل من حول المُحتضر واقع الحياة الدنيا، وأنهم سيصيرون إلى مثل ما يصير إليه هذا الشخص الذي يحتضر. هذا بالإضافة إلى الإحساس بالعجز التام في مساعدة المحتضر وبمدافعة الموت عن أنفسهم.

وهل من عظة أبلغ من أن نُذكِّر أنفسنا بموت الفجأة، فكم من شاب ممتلئ بالحيوية يموت فجأة دون أعراض إنذارية مُسبقة، ولا حتى حادث استثنائي؟ والخطورة لا تقتصر على أن أحدنا قد يموت فجأة وهو لم يتب من ذنوبه، بل إن المصيبة أن يموت موت الفجأة في أثناء الذنب، فتكون الطامة الكبرى أن خاتمته كانت خاتمة سوء، بل ويُبعث وهو يفعل تلك المعصية! فهل يأمن عاقل من مكر الله ويعتمد على معافاته في أثناء عصيانه لله؟ وبالمنطق ومن الناحية الحسابية البحتة، كلما أكثر المرء من وقته في المعاصي، ازدادت الفرصة أنه يموت في أثناء ارتكابه معصية. فما بالنا بمن أغضب الله إلى أن جلب مكرهًا، فيقبضه الله وهو على المعصية وإن كان يرتكبها بقلة!

حتى إن لم يمت أحدنا موت الفجأة، ومات المرء منا بعد العمر الطويل الذي كان يأمله انخداعًا -فليست المنفعة في طول العمر وتأخير الموت، إنما هي في جودة العمل في أثناء مدة العمر، فكم من مسلم باع دينه أمام أعداء الإسلام حتى يعيش لويحظات إضافية-، فإن حاله، بحسب أعماله، سيصير إما إلى حسن وإما إلى سوء خاتمة وانتقال. سيجد نفسه في أحد هذين الوضعين لا ثالث لهما، كما أخبرنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "الْمَيِّتُ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ؛ فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ فُلَانٌ، فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ؛ فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالَ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ؛ فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَلَا يُفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ فُلَانٌ، فَيُقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً فَإِنَّهَا لَا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ؛ فَيُرْسَلُ بِهَا مِنْ السَّمَاءِ ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ"[1] (بِرَوْحٍ أي رحمة؛ وَرَيْحَانٍ أي طِيب، وهي الرائحة الجميلة؛ يُعْرَجُ أي يُصعد).

---

[1] سنن ابن ماجه 4252.

فليكن مُجمل ما ذُكِر عظة لنا، فالموت هو هاذم اللذات الذي وصّانا الرسول (صلى الله عليه وسلم) بذكره كثيرًا حتى نستقيم ولا تُلهنا متاع الدنيا قائلًا "أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ"[1]. فاعمل يا أخي ولأعمل أنا أيضًا، فإنما هي بضع سنين حتى يلتف الناس حولي وأنا المحتضر، ثم تدفنونني وتتركونني، ثم يدفن بعضكم بعضًا، إلى أن ننقضي جميعًا ويبقى الله، فهذا حال من قبلنا يتكرر معنا.

ثانيًا: القبر. يروي لنا هَانِئ (مَوْلَى عُثْمَانَ بن عفان) قائلًا: كَانَ عُثْمَانُ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ بَكَى حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تُذْكَرُ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَلا تَبْكِي وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ "إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ"، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلّا الْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ"[2].

ومن يدخل القبر يُضَمُّ ضمَّة شديدة داخل القبر يُستَقبل بها، لا يُستثنى منها أحد مهما بلغ عمله، فها هو سيدنا سعد بن معاذ (رضي الله عنه) الذي كان له ما كان من الكرامات عند الله، ومع هذا لم يُستثنَ. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً، وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ نَاجِيًا مِنْهَا نَجَا مِنْهَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ"[3]، وقال (صلى الله عليه وسلم) عن سيدنا سعد (رضي الله عنه) "هَذَا الَّذِي تَحَرَّكَ لَهُ الْعَرْشُ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَشَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ؛ لَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ"[4].

وقد يسأل سائل، أليست الضمَّة بعد سؤال المَلَكَين: من ربك؟ الظاهر هو أن هناك ضمَّة للناس كافة عند دخول القبر، سواء قبل مجيء الملكين أو في أثناء وجودهما، وهذه غير الضمَّة التي تكون لمن ساء عمله، والله أعلم. وسواء كانت ضمة واحدة فتُفرَّج عن المؤمن ولكن تشتد على الفاجر بعد سؤال الملكين، أو أنهما ضمَّتان للفاجر –قبل وبعد أن يأتيه الملكان– ولكن واحدة للمؤمن –قبل أن يأتيه الملكان–، إلا أنه من المؤكد أن هناك ضمَّة في القبر واقعة حتى مع المؤمن.

مما جاء في القرآن عن القبر {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} [التكاثر 1–4]. فهذا حالنا، وبعد أن علمته فماذا أنا بفاعل؟ هل أُسَلِّم لطبعي وأترك الدنيا تجُرني إلى حيث ما أرادت حتى تهوي بي في حفرة من حفرها الشاغلة عندما تكتفي مني، أم أحترس من ذلك الطبع فأقاومه وأُروِّضه؟ فلأجتهد حتى لا تُنسيني الدنيا هدفي الذي جعلته نصب عيني، وهو إرضاء الله، ويجعلني طبعي أتوه عنه تعالى إلى أن يكون غريبًا بالنسبة

---

[1] سنن النسائي 1801.
[2] سنن الترمذي 2230.
[3] مسند أحمد 23148.
[4] سنن النسائي 2028.

إليَّ. وقول الله تعالى "كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ" لا شك في تحقيقه، وتصديقي لذلك يعني أن عملي ينبغي أن يكون دالًّا على إيماني بذلك.

وتلك الآية المُرَوِّعة المُنذرة التي تبدو كالوعيد من الله تعني أني لا أعلم ولا أُدرك ما سأُلاقيه قطعًا، وأن ما سأُلاقيه غاية في الشدة وبالغ في المحنة والداهية، أكثر مما أتخيله. وكلام الله هو من العليم الحكيم، فحين يُحذرني أني سأعلم ما لم أعلم مما سيجعل وجهة نظري للأمور تتغير، والحق سأراه رؤيا العين، فآنذاك لا يكفي فقط التصديق بهذا، بل وجب أخذ محمل إصلاح عملي أبلغ الجد. وإذا كانت الآية وحدها تحمل كل ذلك المعنى، فقد ضَاعَفَ الله وعيده أضعافًا في تأكيده بالتشديد "ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ"، ففيه تأكيد على أننا سنرى الدواهي، وأنه وجب علينا استمرارية مراجعة أعمالنا، مع الاجتهاد الجاد والمثابرة على إصلاحها.

وجاء في تفسير الطبري عن سيدنا ابن عباس (رضي الله عنه) أنه قال: (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) ما ينزل بكم من العذاب في القبر، (ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) في الآخرة إذا حل بكم العذاب (انتهى). وبعض ما أُذكِّر به لتوكيد مدى خطورة الوضع، فقد نبأنا الله عن درجة أهوال ما يحدث من أمور الآخرة {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [الحج 1-2]، {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا} [المزمل 17].

إضافةً إلى ذلك قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "ما في السَّماواتِ السَّبعِ موضِعُ قدمٍ ولا شبرٌ ولا كفٌّ إلَّا وفيهِ ملَكٌ قائمٌ، أوَ ملَكٌ ساجدٌ، أو ملَكٌ راكعٌ؛ فإذا كانَ يومُ القيامةِ قالوا جميعًا: ما عبَدناكَ حقَّ عبادتِكَ، إلَّا أنَّا لم نُشرِكْ بِكَ شيئًا"[1]. فما مصدر هذه الغفلة التي أنا فيها؟! فالكون يسير في اتجاه وأنا أسير في اتجاهٍ آخر!

وحتى قبل أن يدخل المرء قبره، حين يُساق إلى مدفنه، فإنه إما يُعذَّب وإما يُبَشَّر كما دل قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا وُضِعَتْ الْجِنَازَةُ فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا، يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إلا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ لَصَعِقَ"[2]. تخيل معي يا أخي موقف النفس المُفسدة، وهي تقول "يَا وَيْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا"... ما مدى الرعب التي تكون فيه تلك النفس التائهة؟ وهذا نوع من أنواع التعذيب، وهو العذاب النفسي بأن المرء يعلم أنه ذاهب إلى موضع التعذيب الذي ينتظره بينما لا يعلم ما سيُفعل به، وأنه ليس هناك أحد يحول بينها وبين ما الله فاعلٌ بها، بل إن الناس يأخذونها

[1] تحفة النبلاء لابن حجر العسقلاني 82؛ وقال: رجاله لا بأس بهم. الراوي: جابر بن عبدالله. أخرجه الطبراني 184/2 (1751)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة 1403.

[2] صحيح البخاري 1291.

إلى مكان تعذيبها –القبر–. فيجب العمل لتجنب هذا المصير، أن يصيح المرءِ للناس الذين يحملونه وهم لا يلتفتون إلى صراخه، وهو صراخ المتوسل، وكل ذلك مُحصِّلة عمله السيئ في حياته.

ولو علم كلٌّ منا ما يحدث في القبر، ما ترددنا ولا تأخرنا في إصلاح أنفسنا. والأمر فيه بعض التفصيل فيما يرويه البَرَاءِ بن عَازِب (رضي الله عنه) قائلًا: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جِنَازَةٍ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْقَبْرِ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَهُوَ يُلْحَدُ لَهُ، فَقَالَ "أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ" ثَلاثَ مِرَارٍ، ثُمَّ قَالَ "إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنْ الآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا تَنَزَّلَتْ إِلَيْهِ الْمَلائِكَةُ كَأَنَّ عَلَى وُجُوهِهِمْ الشَّمْسَ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ كَفَنٌ وَحَنُوطٌ فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، حَتَّى إِذَا خَرَجَ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إلا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ. فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ قَالُوا: رَبِّ عَبْدُكَ فُلانٌ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُوهُ فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ وَدِينِيَ الإِسْلامُ وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ وَدِينِيَ الإِسْلامُ وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ، ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الْوَجْهِ طَيِّبُ الرِّيحِ حَسَنُ الثِّيَابِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِكَرَامَةٍ مِنْ اللَّهِ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، كُنْتَ وَاللَّهِ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا؛ ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ الْجَنَّةِ وَبَابٌ مِنْ النَّارِ فَيُقَالُ: هَذَا كَانَ مَنْزِلَكَ لَوْ عَصَيْتَ اللَّهَ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ هَذَا، فَإِذَا رَأَى مَا فِي الْجَنَّةِ قَالَ: رَبِّ عَجِّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ كَيْمَا أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي، فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ. وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الآخِرَةِ نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ، فَانْتَزَعُوا رُوحَهُ كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ الْكَثِيرُ الشِّعْبِ مِنْ الصُّوفِ الْمُبْتَلِّ، وَتُنْزَعُ نَفْسُهُ مَعَ الْعُرُوقِ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إلا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ لا تَعْرُجَ رُوحُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ. فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ قَالُوا: رَبِّ فُلانُ بْنُ فُلانٍ عَبْدُكَ، قَالَ: أَرْجِعُوهُ فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. فَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: لا أَدْرِي، فَيَقُولُ: لا دَرَيْتَ وَلا تَلَوْتَ، وَيَأْتِيهِ آتٍ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِهَوَانٍ مِنْ اللَّهِ وَعَذَابٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بِالشَّرِّ، مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، كُنْتَ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، سَرِيعًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا، ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ فِي يَدِهِ مِرْزَبَةٌ، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَصِيرَ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللَّهُ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى فَيَصِيحُ

صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلا الثَّقَلَيْنِ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ النَّارِ وَيُمَهَّدُ مِنْ فُرُشِ النَّارِ"[1] (وَحَنُوطٌ هو نوع من أنواع الطِيب رائحته حسنة؛ الثَّقَلَيْنِ هما الإنس والجن).

وجاء في رواية أخرى أن هذه الضربة تكون بين أُذنيه، أي على رأسه، فأي إيلام وأي إهانة تلك؟ قال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوْ الْمُنَافِقُ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ. فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ؛ ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ"[2].

فالحمد لله أننا لا نسمع هذه الصرخة لكيلا تكون حياتنا كلها غمٌ وبؤسٌ بلا لحظة نعيم. والحمد لله الذي لطف بنا فحال بيننا وبين العلم الشامل عن أمور الآخرة، وإلا لكنا كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا نتلذذ بالمُباحات من الدنيا، ولا حتى النساء في الفُرُش، ولخرجنا إلى الصعدات نتضرع إلى الله كي يغفر لنا ويُنجينا في الآخرة. هذا بالإضافة إلى عذاب القبر بشُعَبِهِ من تجسيد العمل الفاسد في هيئة رجل له ريحة منتنة ومنظره القبيح المُفزع، وغير ذلك من ضَمَّةِ القبر حتى تختلف أضلاع المرء، وسؤال الملائكة، وعرض المُفسد على مقعده في النار كما في الآية {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر 46].

وكي نستشعر مدى بؤس الوضع، لنضع كل هذا جانبًا فلا نتكلم عن ضمة القبر، ولا سؤال الملك، ولا الضرب أو العرض على النار، أو العذاب المُخصص لفئات بعينيها (كما سيُذكر لاحقًا إن شاء الله، كالذي أكل مال اليتم وغيره)، ولنكتفي بالرجل "قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ" الذي يُمثل العمل الخبيث، ولنتجاهل أيضًا أنه قبيح الوجه والثياب، ولنمسك فقط في ريحه المنتنة. فمن منا يتحمل أن يُغلق عليه في غرفة صغيرة مع أكثر ريحة منتنة عرفها، دون مجالٍ للتهوئة؟ ألن يشعر أن روحه ستخرج منه؟ ألا يكفي ذلك عذابًا؟! فلا يكفي أن منظره يُنَغِّص على المرء كيانه ولكن فوق ذلك ريحته منتنة، ويريد أن يبتعد منه أو أن يتخلص منه ولكن لن يستطيع. فحتى إن تجنب النظر إليه من قبحه فلن يستطيع تجاهل ريحته التي تدعو للاشمئزاز والتقيؤ، وتخنقه، ألا يكفي بذلك تكديرًا للنفس؟

فأقول للمتهاون بحدود الله، والمتلهف على متعة المعصية، والمتمني على الله بغير عمل صالح، إذا كنت قد عجزت أن تصبر عن معصية الله، لنقل مائة عام -وهي أقصى فترة لحياتك-، فكيف تصبر في القبر مع هذا الرجل المنتن حتى تنقضي فترات حياة من بعدك (التي هي ربما آلاف السنين) إلى أن تقوم الساعة؟ وأقول للمعاند والمجادل والمُنكر لعذاب القبر، هذا وبالرغم من الأدلة على وقوعه حتى من القرآن (الآية 46 من سورة غافر التي ذُكرت للتو)، فلا تستطيع أن تنكر أنك

[1] مسند أحمد 17872، ضعفه الأرناؤوط بهذا اللفظ.

[2] صحيح البخاري 1252، جزء من الحديث.

ستُوضع في مكان مغلق تحت الأرض وتُغطى بالتراب. هناك حيث لا ماء ولا كهرباء ولا ضوء، الناس يوارونك بسبب هيئتك التي تؤذيهم وتُبئسهم، فتُحبس مع الحشرات ولا تستطيع الخروج، فهل تستطيع أن تنتظر في مثل تلك الغرفة إلى أن تقوم الساعة؟ أليس ذلك في حد ذاته عذابًا؟!

حتى إن لم تُعذَّب في القبر، فما الذي تريد بلوغه بنفي وجود عذاب القبر عندما لا تزال القاعدة قائمة أن من أفسد في الدنيا سيُعذَّب فيما بعد القبر أيضًا؟ أم هي فترة راحة تتطلع إليها في القبر بعد عذاب سكرات الموت وقبل عذاب البعث؟

وهناك أيضًا أنواع شتى من العذاب مُخصصة لفئات من المفسدين، كلٌّ بحسب نوعية عمله كما في (جزءٍ من) حديث النبي صلى الله عليه وسلم وهو يروي رؤية له: "فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ وَرَجُلٌ قَائِمٌ بِيَدِهِ كَلُّوبٌ، إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الْكَلُّوبَ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الآخَرِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَلْتَئِمُ شِدْقُهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالا: انْطَلِقْ؛ فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ أَوْ صَخْرَةٍ فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ فَلا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالا: انْطَلِقْ؛ فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ أَعْلاهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، فَقُلْتُ مَنْ هَذَا؟ قَالا: انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهَرِ، وَعَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالا انْطَلِقْ"[1] (كَلُّوبٌ هي حديدة معوجة الرأس؛ شِدْقِهِ هو جانب الفم؛ تَدَهْدَهَ أي تدحرج؛ التَّنُّورِ هو الفرن).

كما أن القبر قد يكون حفرة من حفر النار حتى تقوم الساعة، ويكفي تنكيلًا وتعذيبًا للعاصي أنه يُعرض عليه مقعده من النار يوميًّا حتى تقوم الساعة، وكفى بذلك وحده عذابًا للعاصي الذي ظن أنه لن يدخل النار، وأيضًا لا يدري أيعفو الله عنه أم لا. قد يعفو الله عنه عند الحساب بالرغم من استحقاقه مقعدًا في النار، ولكن بعد ماذا، بعد أن يكون قد أخرج الله منه بعضًا من حقه بمجرد عرض مقعده من النار عليه يوميًّا في القبر. ذلك ما قد نبأنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله "إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غُدْوَةً وَعَشِيًّا، إِمَّا النَّارُ وَإِمَّا الْجَنَّةُ فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى تُبْعَثَ إِلَيْهِ"[2] (غُدْوَةً وَعَشِيًّا أي أول النهار وآخره، بالنسبة إلى أهل الدنيا).

فالذي لم يستطيع أن يصبر عن المعاصي فترة حياته وهو حُرّ، حتى إن رأى أن طال عمره، فكيف يستطيع أن يصبر على التعذيب إلى يوم القيامة وهو محبوس؟! كيف وهو يُتبَادَل عليه أصناف

---

[1] صحيح البخاري 1297.

[2] صحيح البخاري 6034.

من العذاب، وفوق هذا لا يدري متى ينتهي هذا العناء؟؟ فالصبر لا محالة منه، إما في الدنيا بالصبر طوعًا على طاعة الله وعن معصيته، وإما بالصبر جبرًا على عذاب الله عند الموت وفي القبر ويوم البعث وفي النار (ولو إلى أجل غير مُخَلّد). والحكيم يختار لنفسه الاختيار الأهون. قال ابن صباوة: إنا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله تعالى أهون من الصبر على عذاب الله تعالى؛ وقال آخر: اصبروا عباد الله على عمل لا غنى بكم عن ثوابه، واصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه[1].

ثالثًا: البعث. قال الله عز وجل {إِنّ السّاعَةَ لآتِيَةٌ لاّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ} [غافر 59]. عدم الإيمان بالساعة ليس مقصورًا على أن ينكرها الشخص لفظيًا، بل إن أعماله قد تشير إلى أنه لا يؤمن بها مثل حال المُنافق. فكم من فاجر مرتكبٍ لكثير من الكبائر وطاعن في شرع الله يقول إنه مؤمن! فموعظة الله لنا في هذه الآية لا تدور حول فقط الإيمان القولي، بل تشمل الإيمان التطبيقي، بما أن الإنسان الذي لا يفعل ما أمره الله به يخشى قدوم الساعة لأنه فيها سيُحاسَب، فلو آمن بالساعة كما ينبغي لدى عمله على هذا بالسعي في فعل الصالحات. الإيمان التطبيقي هو طاعة الله في ما أمر به والبُعد عما نهى عنه.

فكيف يتواجد الإيمان الحقيقي مع الإكثار من المعاصي الصغيرة، أو مع اعتياد قلة من كبائر المعاصي؟ إن كان الإيمان وقر في قلبي وما دمت عاقلًا، فكيف لي أن أعصي ربي وأنا أصدقه في قوله إن الساعة آتية لا ريب فيها ومعها الحساب على الأعمال {إِنّ السّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىَ كُلّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىَ} [طه 15]. إذا عندما أعصي ربي... هذا يعني أن الخلل في أحد هذين الأمرين... إما عقلي وإما إيماني... أو الاثنين! اللهم اغفر لي وللمسلمين والمسلمات، واعف لنا ضعفنا وقلة حكمتنا، ووفقنا أن نعمل صالحًا.

ولنتفكر معًا في حالنا يوم القيامة. قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "تَدْنُو الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدْرِ مِيلٍ وَيُزَادُ فِي حَرِّهَا كَذَا وَكَذَا، يَغْلِي مِنْهَا الْهَوَامُّ كَمَا يَغْلِي الْقُدُورُ، يَعْرَقُونَ فِيهَا عَلَى قَدْرِ خَطَايَاهُمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى سَاقَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى وَسَطِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ"[2] (الْهَوَامُّ هي الحشرات الضارة المؤذية، وهذا تشبيه؛ الْقُدُورُ هي الأوعية الذي يوضع فيها الماء والطعام ليتم طهيه؛ يُلْجِمُهُ أي يمنعه من الكلام).

إني خُلقت معافًى في بدني، آمنًا في بيتي، معي ما أحتاجه من قوت اليوم مما يقويني، بل ومعي قوت ما بعد اليوم أيضًا بفضل الله، فإني من الذين شملهم الحديث "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي

---

[1] أدب الدنيا والدين للماوردي 79.

[2] مسند أحمد 21162.

جَسَدِهِ، آمِنًا فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا"[1] (حِيزَتْ أي الجمع والضمّ، أي أن لديه مغانم الدنيا بأسرها). هذا ومعي من أنعُمِ الله فوق ذلك، وقد عرفت الحق من الباطل، وولدت مسلمًا مع أن نسبة حدوث ذلك أقل من خمسين بالمائة للفرد، ثم لا أشكر الله كما ينبغي له. بل إنني أُقصّر في طاعته، بل تماديت أكثر من ذلك فعصيته... وأُغضبه مني، ثم أتمادى وأتمادى بأن أنسى أن أستغفره كثيرًا.

هذا حالي، ولو أني صنعت إنسانًا آليًّا يُفكر بالمنطق ويُمييز الحق من الباطل، ثم فعل معي مثل ما أفعل مع ربي.... أتَفَكَرُ ماذا أنا فاعلٌ به؟ فهذا حكم نفسي على غيري، ومن هذا المنطلق فإن حكمي بالحق على نفسي يوم القيامة أني أرى أني أستحق النار بسبب ديوني إلى الله، مع كرهي للاعتراف بهذا وكرهي للعذاب. ولكن الله ليس كمثله شيء (والحمد له أنه متعالٍ ومنزهٍ عن صفاتنا)، فهو الرحمن الذي نطمع في رحمته بالرغم من معاصينا، وهو العفو الذي نرجو أن يتجاوز عن حقوقه علينا، وهو الغني عنا وعن عبادتنا له فنأمل أن يُحاسبنا بنياتنا أكثر مما يُحاسبنا على قدر أعمالنا التي لن تبلغ إيفاء حقه علينا. ولكن كي أفوز برضا الله ورحمته وعفوه، هل يُعقل أن أتعمد عصيانه؟ وحتى إن أخطأت ووقعت في معصيته، فهل يُعقل أن أترك الاستغفار؟ والمعصية في الأصل خطأٌ، فهذا خطأٌ على خطأ. أين إذًا العمل والمجهود الذي بذلته ليرضى عني؟ بل إن مجهودي ذهب في الاتجاه المعاكس... المعصية!

وسأتحسر على تقصيري في العمل الصالح وإقبالي على ما نهى الله عنه من متاع الدنيا يومئذ، وقد أعذرني فلا حُجة لي، لأنه حذرني من ذلك اليوم بقوله {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [لقمان 33]. ذاك اليوم الذي يقول فيه الكفار {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ} [الأنعام 31]، وقد أكون من الذين يقولون هذا أيضًا إن أفرطت في معصية الله، فأجد نفسي حاملًا عبئًا ثقيلًا –وهي أوزاري التي ارتكبتها بنفسي– يوم القيامة.

الدنيا هي كلمة مشتقة من كلمة "دني"، أي الأصغر أو المنخفض، فيجب ألا نغتر بها ونعطيها أكثر من قدرها. وقيمة الدنيا قد بينها الله في كتابه الكريم في عدة مواضع، منها {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس 24]. وقال تعالى عنها أيضًا {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ

[1] سنن ابن ماجه 4131.

ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [الحديد 20].

أما الأحاديث في هذا الباب عن النبي (صلى الله عليه وسلم) فكثيرة، مثل عندما مرَّ على جدي أسَكّ ميت فقال لمن حوله "أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟"، فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ "أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟"، قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟! فَقَالَ "فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ"[1] (أَسَكُّ أي أن أُذُنيه صغيرتان أو مقطوعتان، وهذا يُعتبر عيبا فيه). وقال أيضًا (صلى الله عليه وسلم) "لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ"[2].

فلماذا نحن فيها إذا إن كانت لا تعني شيئًا لله؟ هذا لأنها اختبار لينظر الله ماذا نفعل فيها، وهي أيضًا دار ابتلاء بعد أن عصى سيدنا آدم (عليه السلام) ربه ثم تاب، فكيف نُحب ونَستَكِينُ لدار الاختبار والعقاب؟! ولكن ما ينبغي لي فعله هو كما فعله النبي (صلى الله عليه وسلم)، أن نزهد عن هذه الدنيا، وقد قال ناصحًا لعبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) "يَا عَبْدَ اللَّهِ، كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ كَأَنَّكَ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ"[3].

وكل هذه التحذيرات لأنه سيأتي يومٌ لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا، ولا ينفع سلطان ولا مال، ولا شُهرة ولا جمال، إنما العُملة المتداولة يومئذ هي الأعمال، يؤخذ منها ويُطرح عليها لقضاء الحقوق. يومئذ كلٌّ في حاله، يوم يقول الأنبياء والرسل "نفسي نفسي" إلا الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فهلّا نتبعه ونُطيعه؟ يجب أن ألتفت لحالي من الآن ولا أترك الفرصة لأحد أن يسحبني إلى معصية الله.. وإن كان أخي أو أبي أو ابني.. وإن كان صديقًا حميمًا، فإنه سيكون من أوائل من يغدر بي لينجو بنفسه. وبالطبع، يجب الاحتراس من الشيطان أيضًا.

ومما قاله الله تعالى عن الأحداث المروّعة التي تحدث {وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا} [الزلزلة 2]، فتشير الآية إلى أن الأرض لتُخرِجَ كل من فيها بأمر الله. هذا اليوم شديد وعصيب لدرجة أن الله يصوِّر الأرض أنها تُلقي ما فيها لتفر بنفسها من غضب الله وبطشه، فتُخرج مِن بطنها مَن عليه الحساب كي تخلي سبيلها ومسؤوليتها من هذا الحساب الدقيق الحاسم المخيف، بأن تتنصل من الإنس، وتتبرأ من أعمالنا على ظهرها. إذا كانت الأرض تفعل ذلك بالرغم من أنها لم تعصِ الله، فما بالي –وقد وهبني الله عقلًا– لا أهاب ذلك اليوم كما ينبغي مع أني قد عصيت الله. ودليل قلة حملي

---

[1] صحيح مسلم 5257.

[2] سنن الترمذي 2242.

[3] سنن ابن ماجه 4104.

للهمّ من ذلك اليوم هو أنه يسهل عليَّ أن ارتكب المعصية. كيف أنسى يوم كهذا وحياتي كلها ستعرض عليَّ ذاك اليوم لحظة بلحظة؟!

ثُم قال تعالى {وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ} [الزلزلة 3-6]. يقول الإنسان يومئذ عن الأرض "مَا لَهَا"، أي ما لها تتصرف بتلك الطريقة الغريبة، وهذا دليل على غفلة الإنسان يوم القيامة (قال بعض المفسرين على أن ذلك يصدر من الذين كفروا لأنهم لا يعلمون أشراط قيام الساعة). وتدل الآية أيضًا على دهشة الإنسان أيضًا وهو يؤخذ بغتةً لا يدري ما يحدث له، والواقع أن الله أوحى إلى الأرض أن تُخرج ما فيها كي يُحاسبوا.

وليس هذا فحسب، با إنها تفتن على الإنسان بما فعل لتفتدي به عن نفسها. فما ظننا بالأهوال التي تحدث ذاك اليوم، مما تجعل الأرض تبيع الإنسان بهذا الشكل! وما الأهوال الأخرى الشبيهة لهذه مما لم يُنبئنا الله بها؟! قد جاء عن أبي هريرة (رضي الله عنه): قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الآيَةَ {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} فقَالَ "أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟" قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ "فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، تَقُولُ عَمِلَ يَوْمَ كَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا"[1]. أفلا أحترس من أن أُفضح ذلك اليوم؟

وكلمة "أَشْتَاتًا" لا تدل فقط على التفرق، ولكن تعطي الانطباع أن كلهم يسعون في اتجاهات شتى بحثًا عن مفر، يتبعثرون فرارًا بالنفس من شدة الخوف. وستكون كل هذه المحاولات بلا جدوى لأن الله سيريهم أعمالهم لا محالة، وسيحاسبون عليها لا محالة. فكيف سأكون ذلك اليوم إن كانت أعمالي أغلبها ما بين ناقصة وفاسدة؟ وقد جاء في كتاب الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي، رحمه الله) لهذه الآية: عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "مَا مِنْ أَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَيَلُومُ نَفْسَهُ، فَإِنْ كَانَ مُحْسِنًا فَيَقُولُ: لِمَ لَا ازْدَدْتُ إِحْسَانًا؟ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ يَقُولُ: لِمَ لَا نَزَعْتُ عَنِ الْمَعَاصِي؟"[2].

وفي آيات أُخر عن حال الأرض في ذلك اليوم جاء {وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ} [الانشقاق 3-4]. يُنبئنا الله عز وجل عن أحداث يوم القيامة بقول "وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ"، وفي ذلك الوصف ما يدعو للتأمل. فوصف "وَأَلْقَتْ" تدل على قذف الأرض لنا يوم القيامة، مما يشير إلى أنها تريد أن تتخلص منا، وما لها ألا تفعل ذلك؟ وكلمة "وَتَخَلَّتْ" تدل على أن الأرض تتبرأ من الإنسان وتهجره، وما لها ألا تفعل ذلك أيضًا إذ إن الناس قد ارتكبوا معاصي، فذاك يوم يقول كل إنسانٍ "نفسي نفسي"، ولسان حال كل مخلوق هكذا أيضًا، حتى الأرض.

[1] سنن الترمذي 3376.

[2] تفسير القرطبي 150/20. ملحوظة: لم أتوصل إلى سند ذلك الحديث.

وهذا الاستنتاج ليس بمُنكر، إذ إن هناك واقعة شبيهة في الأحداث بما نتكلم عنه. يروي لنا سيدنا أنس بن مالك (رضي الله عنه): كَانَ مِنَّا رَجُلٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ قَدْ قَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، وَكَانَ يَكْتُبُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَانْطَلَقَ هَارِبًا حَتَّى لَحِقَ بِأَهْلِ الْكِتَابِ. فَرَفَعُوهُ [أي مكانته بينهم]، قَالُوا: هَذَا قَدْ كَانَ يَكْتُبُ لِمُحَمَّدٍ؛ فَأُعْجِبُوا بِهِ، فَمَا لَبِثَ أَنْ قَصَمَ اللَّهُ عُنُقَهُ [أي هلك بأن كُسرت رقبته] فِيهِمْ، فَحَفَرُوا لَهُ فَوَارَوْهُ [أي دفنوه]، فَأَصْبَحَتْ الْأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ [أي طرحته وألقته] عَلَى وَجْهِهَا، ثُمَّ عَادُوا فَحَفَرُوا لَهُ فَوَارَوْهُ، فَأَصْبَحَتْ الْأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَى وَجْهِهَا، ثُمَّ عَادُوا فَحَفَرُوا لَهُ فَوَارَوْهُ، فَأَصْبَحَتْ الْأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَى وَجْهِهَا، فَتَرَكُوهُ مَنْبُوذًا[1]. فهذا الشخص، بسبب قبح فعلته، كلما دُفِن قذفته الأرض خارجها.

من آيات سورة الانشقاق نستشف أن الأرض أيضًا قد تقول "نفسي نفسي" من أهوال ذلك اليوم. ولو أن الأمر كان طاعةً لله فحسب، لكفت كلمة ألقت إذ تعني أن الأرض أذعنت لأوامر الله، ولكن كلمة "تخلت" تدل على أن الأرض تخشى الله أيضًا، بما أنها لا تريد أن تكون مرتبطة بالناس فيُحاسبها الله كطرفٍ مشاركٍ في ما ارتكبوا من أعمال إذا آوتهم! فكيف بيومٍ تخشى منه الأرض، وهي لا تعصي الله، أو حتى أن تكون لها صلة بأحدٍ سيُحاسب؟! سبحان الله، ما مدى مصيبة ذلك اليوم الذي يجعل الجماد يتصرف هكذا؟ وكيف لنا أن نعصي الله وما زال ذلك اليوم أمامنا وعلينا خوضه؟!

ذاك اليوم الذي يحدث فيه الأهوال والمِحَن والشواذ الكونية، ولا يسلم منها إلا من شاء الله، فإن الله يُنزل على المؤمن الطمأنينة ويُخفف عنه ويقيه المآسي، مثلًا بعدم شعور المؤمن بذلك اليوم كآلاف السنين، ولا يُلجمه عَرَقه. ومن تلك الأهوال هي {إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ} [الانفطار 1] (انفَطَرَتْ أي انشقت)، وهذه علامة من علامات قيام الساعة، ولنا منها مقتطف عن أهوال يوم القيامة. والأحداث التي تقع يومئذ كلها تدل على مدى عظم، إلى الله، أمر محاسبة الناس، إذ إنه يُحدث أهوال كونية إعدادًا لمحاسبتنا ذلك اليوم، وانشقاق السماء إنما هي واحدةٌ من تلك الأحداث.

يومئذ يتبين لنا خطورة وجدّية مشوار حياتنا، ونرى حقيقة مغزى الحياة والممات بوضوح كرأي العين، وندرك أننا كنا نقضي كثيرًا من حياتنا في أشياء تافهة شغلتنا عن الإعداد، بل وربما الاستعداد حتى، لذلك اليوم. أما سؤالي الآن، هل يُستعَد للأهوال العظيمة في ذلك اليوم بالمعاصي؟ هل يُعَدُّ لمجاوزة المِحَن بالذنوب؟ إنما هذا كالذي يستعد للسفر عبر الصحراء بأن يحمل على دابته أشوال من الحجارة بدلًا من المأكل والمشرب، فهل سيبلغ جهته قبل أن تهلك دابته وهو معها؟

ومن أهوال ذلك اليوم وقوف المخلوقات لله، كما جاء في قوله تعالى {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر 22]، وقوله تعالى {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ

[1] صحيح مسلم 4987.

وَقَالَ صَوَابًا} [النبأ 38]. وحال الإنسان وهو واقف لله أنه مُذعن {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا} [طه 111] (وَعَنَتِ أي خضعت وذَلَّت). فتأمّل هذا المشهد يا أخي، كل بني آدم في صعيد واحد يتذللون ويخضعون لله في توقيت واحد، كلهم واقفون في صفوفٍ {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا} [الكهف 48]، وكلهم يخفضون أعينهم إلى الأرض، وكلهم صامتون إلا من يأذن له الله بالكلام وآنذاك يتكلمون بصوت منخفض {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} [طه 108]. هذا وسيدنا جبريل (عليه السلام) وسائر الملائكة أيضًا واقفون صفوفًا لا يتكلمون إلا عندما يأذن الله، خشيةً من الله. فكلٌّ خاضع بكل الجوانب يومئذ {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ} [النمل 87] (دَاخِرِينَ أي صاغرين أذلاء)، فأي قهرٍ هذا؟

قد جُمِع جميع الناس حينئذ بالرغم مما كان فيهم من اختلافات شديدة بين مسلم وكافر، غني وفقير، متكبر ومتواضع، قوي وضعيف، سلطان ومملوك، حكيم وسَفيه، أن الله هو ربُهم. فكلهم يُقرّون ويسلّمون أن لله الأمر كله فيخضعون له دون استثناءٍ واحد. والله إنه لمشهد مهيب في حد ذاته. يكون جليًّا آنذاك للناس جميعًا أنه لا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه، ويتيقن الظالم أنه في مأزق.

وارتباطًا بقول الله تعالى {يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر 16]، فمن الجائز أن عنو الوجوه يحدث في تلك اللحظات، أي أن الوجوه تخفض نظرها إذعانًا لله، ثم يُقال: لمن الملك اليوم؟ ويُحتمل العكس، أن الناس تُبعث ويُوقَفون ثم يقال: لمن الملك اليوم، فيُجاب: لله الواحد القهار (اختلف العلماء حول القائل، فمنهم من قال إن الله عز وجل يقول ذلك إذ لا يجرؤ أحد من المخلوقات نسب ذلك لنفسه، أو لأن جميع المخلوقات مُتوفون في تلك اللحظة. ومن العلماء من قال إن العباد تُجيب بذلك، إقرارًا لله بعد أن خَضع المسلمين وقهر الكافرين)، وبعدها يتم عنو جميع وجوه الناس علانيةً آنذاك، والله أعلم. فمن أجل لحظات كتلك، ولحظات أُخر قد نبأنا الله ببعضها ولم يُنبئنا بآخرين، يجب أن نعمل صالحًا ولا نعصيه لنَسلم منهن، حتى يتغمدنا الله بالطمأنينة والرحمة من عذابه.

وقال تعالى {أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ} [العاديات 9-10]. ذاك اليوم يُجازى كل مرءٍ ما عمله في الدنيا بدقة وبعدل متناهيين، وذلك لأن كل ما كان في صدور الناس من أسرار عند الله. وحُصّل هنا بمعنى أن الله أبرز وأظهر ما في النفوس من خير وشر، وليس بمعنى معرفته إذ إن الله يعلم ما في الصدور قبل حدوثه، والمراد التأكيد على تكشُّف أسرار الإنسان وأن يدرك أنه انكشف، وليس أنه كان متواريًا عن الله ثم انكشف. فما رأيي في نفسي عندما أرى

خلاصة تجميع مساوئي في كتاب شاملًا ما أسررته؟ ما مدى فزعي وحسرتي؟ ما هو إلا ما قدمته لنفسي في حياتي، أفلا أنصلح؟

فذاك يوم نبأنا الله عن حالتنا فيه {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين 6]، فلمثل ذلك اليوم وجب العمل، إذ إنه حاصل لا محالة. ثم تُجَرُّ جهنم أمام أعين الخلق، فينتفض المرء ويرتعد فؤاده خوفًا، وتبدأ ترد عليه ذكرياته عن لحظات أساء العمل فيها فيندم ويلوم نفسه {وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} [الفجر 23-24]. أتعلم الخوف يا أخي؟ فإنه يصنع بالمرء ما لا يتوقعه، ومن المؤكد أن جميعنا مررنا بلحظات خوف في الحياة. إن الخوف يجعل الجسد يفرز مواد كيميائية في الجسم تجعله منتبهًا ومتأهبًا لرد الفعل السريع، ما بين توسيع العين وإعادة توزيع الدم للأعضاء المهمة وزيادة في نشاط عامة أعضاء الجسد.

وفي أثناء تلك اللحظات ينشط العقل لدرجته القصوى لينجو من المأزق، فيستقبل المعلومة ويأخذ القرارات ويرسل الإشارات أسرع بكثير، فهو ينشط في كل جوانبه. في تلك اللحظات، كفاءة العقل تزيد أضعافًا من ناحية السرعة والفعالية كما لا يكون في العادة، وكذلك الجسد، حتى يُفاجأ الإنسان أنه قد استطاع فعل ما لم يتوقع أنه يستطيع فعله. ومن تلك التفاعلات من تنشيط العقل هو استطاعة العقل على تذكر أشياء لم يكن المرء يستطيع تذكرها في الأوقات العادية، وبسرعة فائقة، ودرجة تنشيط العقل مرتبط بدرجة الفزع.

فتخيل معي أخي وتساءل: ما درجة الخوف التي تجعل العقل ينشط حتى يتذكر كل ذنوبه؟! هذا يحدث كما ينبئنا الله عندما نرى النار، فما مدى فظاعة تلك النار؟ ما الذي نراه ونسمعه ونشعر به منها فيجعل عقولنا تنشط بهذا الشكل الفذ؟ فكم تدفع أو تجتهد لتتفادى دخولها بعد ما رأيتها؟ ففرصتنا الآن، وهي لا تزال قائمة عندنا ولكن قريبًا ستُنزع منا. حينئذ لا مرجع، وعند حدوث ذلك الموقف العصيب، عندما تُجر جهنم ونرى ما لا نتخيله نسترجع بذاكرتنا معاصينا لله بالتفاصيل التي نسيناها، ولكن أنى لنا الذكرى. لا تنفع الحسرة ولا اللوم ولا التوبة إن أردنا وعزمنا على الإصلاح آنذاك، فالمبادرة هو الحل وخيارنا الوحيد.

يقول الإنسان في تلك اللحظة "يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي"، وحينئذ لا ينفع ذلك، فأتساءل: ما الذي يمنعني الآن؟ أريد إجابة واضحة وصادقة أستطيع أن ألاقي بها ربي، أو أُعالج بها حالي السيئ الآن، ولا تكون حيلةً فقط لإخماد ضميري! لو أني تخيلت أن نفسي التي في الآخرة تُحاسب الآن، والحياة التي أعيشها الآن تُعرض عليها لحظة بلحظة كبرهان، ما ظني فيما تقوله نفسي في الآخرة لنفسي التي في الدنيا وهي تشاهدها؟ فالآن الآن العمل.

وعندما يُجهد الناس من طول ذلك اليوم ولا يستطيعون تحمله، يبحثون عن من يشفع لهم عند الله ليبدأ الحساب. قد جاء عن أبو هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أُتِيَ بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ –وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ–، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً ثُمَّ قَالَ "أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمْ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنْ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لا يُطِيقُونَ وَلا يَحْتَمِلُونَ فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلام فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟! فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنْ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ. فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاثَ كَذِبَاتٍ (فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الْحَدِيثِ[1])، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى. فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ. فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا[2]، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا

---

[1] جاء في فتح الباري بشرح صحيح البخاري: زَادَ شَيْبَانَ فِي رِوَايَته: قَوْله: إِنِّي سَقِيم، وَقَوْله: فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، وَقَوْله: لامْرَأَتِهِ أَخْبِرِيهِ أَنِّي أَخُوك، وَفِي رِوَايَة أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيد "فَيَقُول: إِنِّي كَذَبْت ثَلاث كَذَبَات، قَالَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "مَا مِنْهَا كِذْبَة إِلا مَا حَلَّ بِهَا عَنْ دِين اللَّه".

[2] جاء في فتح الباري بشرح صحيح البخاري: لَكِنْ وَقَعَ فِي رِوَايَة التِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيد "إِنِّي عُبِدْت مِنْ دُون اللَّه"، وَفِي رِوَايَة أَحْمَد وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث اِبْن عَبَّاس "إِنِّي أُتُّخِذْت إِلَهًا مِنْ دُون اللَّه"، وَفِي رِوَايَة ثَابِت عِنْد سَعِيد بْن مَنْصُور نَحْوه وَزَادَ "وَإِنْ يُغْفَر لِي الْيَوْم حَسْبِي" (انتهى). ففي الروايات الأخرى دليل على أن سيدنا عيسى ينشغل بنفسه إذ إن عليه عبء المساءلة من الله عن مصيبة أن الناس قد عبدوه من دون الله.

لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ؛ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ الأَبْوَابِ"، ثُمَّ قَالَ "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ (أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى)"[1] (الْمِصْرَاعَيْنِ هو الباب الواسع ذو الدُفتين).

ذاك يوم قال الله إنه سيفعل فيه {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء 104]، فبكل تلك البساطة يتم طمس السماء الشاسعة التي لا نعي المعيشة إلا تحتها. فلندرك أن ذاك اليوم يُحدث فيه أمورًا عظيمة ومهيبة لا نستطيع استيعابها حتى، وكل ذلك على الله يسير، فكيف لا نخشى يومًا مثل ذلك ونحن أهزل خلقًا من السماء؟ وكيف لا نخشى يومًا يغضب فيه الله غضبًا لم يغضب مثله ولن يغضب مثله وتلك هي قدرته على السماء؟

فما بال لسان حال أعمالي يشير إلى أني مطمئن أني نجوت مع أني لم ألقَ ذلك اليوم بعد. بل وربما أمشي مغرورًا في الأرض أني سأنجو، مع أني مجرد عبد من عباد الله الذين لا يحصيهم إلا الله، لا يُميزني شيء عنهم، ولم ءأخذ منه عهدًا خاصًا بي أنه سيُنَجِّيني. بل وأكثر، فقد ارتكبت من المعاصي ما لا أحصيه، والأدهى أنه قد نسيت كثيرًا منهن، ولكن، يحصيهم الله عليَّ.

ولا أتفكر في حالي في يوم يذكر الأنبياء أعمالًا خاطئة يندمون عليها بالرغم من قِلَّتِها، وربما صغرها أيضًا، ومع ذلك يرتعدون من الله في محاسبته لهم عليها فيقولون "نفسي نفسي". إن كان الأنبياء يقولون نفسي نفسي، فما بال قول الوالدين لأولادهم والأولاد لآبائهم، والزوج لزوجته؟ كل يلقي لوم المعصية على القريب والبعيد إلا من رحم ربي، يوم تأتي البنت التي كانت تمشي متكشفة فتمسك في أبيها وتقول: يا رب، إن هذا رآني ولم يمنعني؛ يا رب، إن هذا رضي لي وحثَّني على ذلك!

اللهم لا نجد إلا أن نسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم. اللهم لا ملجأ لنا منك إلا إليك، سبحانك يا رحمن يا رحيم يا عفو يا رؤوف. اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، ونعوذ بك منك، لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

---

[1] صحيح البخاري 4343.

رابعًا: المساقاة. ثم ينبئنا الله ببعض أخبار ذلك اليوم {وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [ق 21-22]. حقًّا، وأنا أرتكب المعصية أكون في غفلة من لحظة الحساب. ولكن ما فائدة المعصية، خصوصًا أن بعد ارتكابها غالبًا ما أنساها؟ فما فائدتها؟ هي متعة لحظية... ثم أنساها، ولكن لحظة الحساب يَرُدُّ الله على ذاكرتي وأتذكرها جيدًا عندما أُبصر وأُعاين أهوال الآخرة {فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى} [النازعات 34-35].... فأُدرك أن لهذه المعصية حسابها، وحسابها قد آن الآن!

وقد قال المفسرون إن كشف الغطاء يعني كشف الغفلة عن العبد، فيُبصر الحق والباطل بوضوح، وقال البعض إن ذلك يشمل العمل إذ تتمثل له أعماله كحسنات وسيئات. وأريد أن أضيف نقطة أخرى، أنه قد يدل ذلك أيضًا على تذكر الأعمال، فيراها الإنسان بوضوحٍ تامٍ بتفاصيل المعصية كأنه ارتكبها للتو، فقد تدل الآية {يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى} على أن الإنسان يتذكر أعماله عامة، وهو الكَم في وصف التذكر. وعلى الصعيد الآخر، قد تدل الآية {لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} على عمق (ودِقَّةِ) استرداد الذاكرة، فهي وصف لجودة التذكر.

آنذاك لا فائدة من إنكار المعاصي، لأن عليَّ شهداء من جسدي، والأرض التي عصيت ربي عليها تشهد عليَّ، وكتابي، والكتبة، والناس (الذين هم شهداء الله على الأرض)، وغير ذلك. السؤال سيطرأ ببالي آنذاك... هل كانت لحظة المتعة تساوي ما أنا فيه الآن؟ هذا ولو أن كتابي ليس فيه ذنب واحد، فكفى بالوقوف أمام ربي، رب العالمين، وحدي للحساب حملًا! وحتى إذا غفر لي ربي ذنبي، فكفى بعرض ذنوبي علي أمامه ومساءلتي عنها، قبل أن يغفر لي، بعذاب! وإجابة سؤالي عن إذا كانت متعة معصيتي تساوي عناء لحظة الحساب والعقاب أعلمها، لكن ما فائدة العلم دون عمل؟ حقًّا، لقد كنت متغافلًا، وقد لا يمنعني علمي بأني سأُحاسب عن ارتكاب معصية أخرى، مما يزيد القبح قبحًا. فلماذا أختار طريق المعاناة؟

وكيف يكون حال المُفسد يوم القيامة؟ قال تعالى {قَدْ خَسِرَ الّذِينَ كَذّبُواْ بِلِقَآءِ اللهِ حَتّىَ إِذَا جَآءَتْهُمُ السّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَحَسْرَتَنَا عَلَىَ مَا فَرّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىَ ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ (31) وَمَا الْحَيَاةُ الدّنْيَآ إِلاّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدّارُ الاَخِرَةُ خَيْرٌ لّلّذِينَ يَتّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [الأنعام 31-32]. هاتان الآيتان يتحدثن أساسًا عن الكفار، ولكن فيهما عظة للموحدين أيضًا حيث إن التكذيب بلقاء الله قد يكون عمليًّا لا شفهيًّا، عن طريق العمل الفاسد. حقًّا، إن الساعة تأتي بغتةً، فلنُعِدَ لها ما استطعنا بأن نتقي الله.

إني لأرى الساعة وكأنها بعيدة، فأسأل نفسي... كم من عمري الذي مضى أتذكره؟ إن من حياتي ما حققت فيه من معالم كثيرة في أمور الدنيا، وقطعت مشوارًا طويلًا منها حتى إنه ما بقي من عمري غالبًا أقل مما مضى، ولكن لا أستطيع أن أتذكر أغلبها! إذا إن كانت حياتي الماضية هكذا،

فما الفرق بين ما فات من حياتي وما سيأتي إلا الأماني؟ بمعنى آخر، إن كانت إنجازات حياتي في الدنيا لا أتذكر كثيرًا منها، وأن المعاصي أدعى للنسيان، فما الذي يجعلني أعتقد أن المعصية القادمة التي سأرتكبها ستدوم معي ذكرتها ومتعتها إلا أني أتمنى أنها تكون كذلك دون أساس على هذا؟

فما هو لي أن أتصرف فيه من الوقت هي فقط اللحظة الحالية! حقًّا، لم يبقَ شيء من ذنوبي من المتعة، ولا حتى ذكراها، إلا الحساب عليها يوم القيامة أمام الله. فما لي من المعصية إلا لحظة من المتعة تركت لي نَدَبةً إلى يوم الحساب. حينئذ يكون يوم القيامة قد أتى بغتة بسبب انغماسي في المعاصي المتسلسلة، التي تُسكِرُنِي عن الشعور بالوقت حتى أشغلتني وأنستني التوبة. إني بارتكاب المعصية أدُسّ نفسي وأُضلها وأُذلها، لا أفعل شيئًا إلا أني أكذب على نفسي باللهو المؤقت، حتى تأتي لحظة الحق فتكون بالنسبة إليَّ بغتة. حقًّا، ما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر، والدنيا تُزَيِّنُ لزوَّارها خلودًا فيها بالمتع.

وقد جاء في تفسير ابن كثير (رحمه الله) لقوله تعالى {وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ}: عن السدي قال: ليس من رجل ظالم يدخل قبره إلا جاءه رجل قبيح الوجه، أسود اللون، منتن الريح، وعليه ثياب دَنِسة، حتى يدخل معه قبره، فإذا رآه قال: ما أقبح وجهك! قال: كذلك كان عملك قبيحًا، قال: ما أنتن ريحك! قال: كذلك كان عملك منتنًا، قال ما أدنس ثيابك! قال: كذلك كان عملك دَنِسًا، قال له: من أنت؟ قال: عملك. فيكون معه في قبره، فإذا بعث يوم القيامة قال (أي عمله القبيح) له: إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات، وأنت اليوم تحملني؛ فيركب على ظهره فيسوقه حتى يدخله النار (انتهى). فقولوا لي، من منا يرضى أن يمكث في قبره مع ذلك الرجل حتى تقوم الساعة، ثم يحمله يوم القيامة على ظهره ويُساق إلى النار؟ ذلك هو العدل في الجزاء لمن كان عمله فاسدًا في الدنيا.

وللمساقاة يكون هناك إمام لكل فرد، ونرجو أن يكون إمامنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) والقرآن بإحساننا، فقد قال الله {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71) وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا} [الإسراء 71-72]. واختلف المفسرون في الإمام بين أنه كتاب الأعمال أو نبيُّهم الذي اتبعوه، وقال آخرون هو الكتاب المُتّبع (أي القرآن أو التوراة أو الإنجيل)، فيُنادى كلٌّ بإمامه، حتى يُنادى أين أتباع الشيطان. فالخزي كل الخزي لمن اتبع صنمًا أو الشيطان أو غيرهما مما فيه كفر أو شرك أو ضلال، فيجب أن نحذر من ألا نكون من أتباع الشيطان بكثرة معصية الله، فمن الذي يَود أن يجد نفسه يُجيب تلقائيًّا أو إجباريًّا عندما يُنادى: أين أتباع الشيطان؟

ومن كان في الدنيا أعمى يستحق أن يظل كذلك، لأن الجزاء من جنس العمل، فمن رأَى الحق واختار غيره يختار أن يكون أعمى، فوجب له العمى جبرًا في الآخرة. ومع أن أساس مقصد

الآية في العمى هو فيمن كَفَر، ولكن قد تشمل المسلم الذي بلغ ما يكفي من الإغفال عن الحق –ومن ثمَّ الضلال– بعمله، فالضلال درجات كما دلت الآية {فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [يونس 32]. فيا أخي، إذا رأيت الحق فلا تدفعه وقِرّ به، لأنك إن دفعته تكون قد اخترت أن تكون أعمى في تلك المسألة، ولا يُؤمَن عاقبة ذلك. فأهون لك أن تعترف أنك على معصية وتجتهد في الاستغفار والتوبة بدلًا من أن تنكرها محاولًا أن تتهرب من أن تُحسب عليك وزرًا.

<u>خامسًا: العرض الأول مع الحساب</u>. العرض الأول هو عرض أعمال العبد عليه، ثم محاسبته عليهم. وفيه يُجادل ويتعاذر أصحاب الباطل بالباطل، ويحسبون أنهم على شيء من الحق، وأنهم سيَتَمَلَّصُون من العقاب بالحلف كما كانوا يفعلون في الدنيا {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [المجادلة 18]. أما أصحاب الحق، فهم يصدقون مع الله ويُقرون بأخطائهم. فإيانا وقول الزور أو المجادلة، فإنهما الهلاك إذ إن الله سيُخرج الحق من العبد لا محالة، ولو بأن يجعل أعضاء العبد تتكلم وتشهد بالنيابة عنه.

ولعل هذه المرحلة وحدها هي التي يخوضها المؤمن فيما يختص بحسابه إجماليًا، وهي العرض دون مناقشة حسابه، فهي أساس محاسبته، إذ لا يُنكر مما يُعرَض عليه شيء، فما من داع أن يُناقشه الله. فيرأف ويترحم ويعفو الله عنه لصدقه، ثم يُدخله الجنة دون حساب عسير، أو ربما حتى دون حساب جملةً.

وهذا يؤيده الحوار الذي دار بين السيدة عائشة (رضي الله عنها) ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين قال "مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ"، فَقالت: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا}؟ فَقَالَ "لَيْسَ ذَاكِ الْحِسَابُ إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ"[1]. ولكن ينبغي أن يُعلم، بالرغم من أن المؤمن قد لا يُسأل عن كل أعماله فإنه قد يُجازى عليها، بمعنى أنها تُوزن كما أشار قول الله تعالى {وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا} [النساء 86]. فإما تجُرّه أو ترفعه بحسب طبيعتها، ولكنه قد لا يُناقش عليها، ويقبلها المؤمن كما يزنها الله.

[1] صحيح البخاري 5122.

<u>سادسًا: توزيع كتب الأعمال المتطايرة على العباد، واستلامي أنا لكتابي الخاص بي</u>. ذاك الكتاب الذي كُتب فيه كل شيء عني، الذي قال الله عنه {وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [المؤمنون 62]، فهذا الكتاب هو كتاب الأعمال. تخيل معي أخي، أن الملك الموكل بك يكتب كل تفصيلة مما تفعله! أي كل نظرة بالعين، وكلمة باللسان، وحركة باليد، وتنصيتة بالأُذن، وتعبيرًا على الوجه، يُدَوَّن، يترقب وينتظر خطوتك التالية كي يكتبها. كيف يطمئن المرء؟ كيف والمرء قد يعمد للعُزلة كي يعمل عملًا لا يريد أن يطلع عليه أحدٌ بسبب خجله من قبح ما يفعله؟

كيف عصيت ربي بالرغم من أني علمت من قبل أن أرتكب المعصية أن هناك ملكًا يترقب أعمالي ليكتبها، لا للمحاسبة عليها في الدنيا، بل لحفظها كي أُحاسب عليه في الآخرة من ربي... كيف لا تضطرب نفسي قبل المعصية وأنا أعلم أن ذلك سيحدث؟ وكيف أُقبل عليها وأستمتع بها بعد كل ذاك؟ كيف والمعصية انقضت وما بقي منها إلا حسابي عليها، ظِلّها يُلاحقني ويُنَغِّص عليَّ؟ والله إنها لتصرفات سفيهة آخرها الهلاك. ولا شك أني عندما يُعرض عليَّ كتاب أعمالي سأُصدم من كم المعاصي التي ارتكبتها، إذ أحصاه الله ونسيته، وآنذاك سأدرك مدى سوء عملي في الدنيا، وسأدعو الله بالستر في ذلك اليوم، ولكن حتى أكون منصفًا مع نفسي: هل قدمت ما يكفي من أعمالٍ صالحةٍ كي يُجيبني؟

ويُنبئنا الله في القرآن {وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجاثية 28-29]. هذا وصف للموقف الرهيب يوم القيامة... جاثية أي على رُكَبِها. كل فرد يُدعى ليستلم كتاب أعماله، الذي فيه كل صغيرةٍ وكبيرةٍ. كيف سيكون حالي وأنا أنتظر كتابي الذي فيه كل معصية ارتكبتها، قد أُخذت منها نسخة فدُوِّنَت في الكتاب؟! هل حسناتي ستُكَفِّر عن سيئاتي؟ ماذا لو لم تكفِ؟

لماذا وأنا هنا في هذه الدنيا أُزيد من عبء هذا الكتاب عليَّ يومئذ بارتكابي معاصٍ الآن؟ هل أنا لديَّ عقل حقًّا؟ إن العاقل لا يسعى لشيء فيه ضرر حاصل أو عواقب وخيمة يصل إلى الفاعل. فكيف أرتكب هذه المعاصي، وأنا أعلم أن هذا الكتاب الذي سأنتظر استلامه فيه ما يدل على شقائي أو سعادتي؟ {هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، فلا مفر حينئذ، إما مستلم بيميني أو بشمالي، بحسب أعمالي التي أفعلها الآن في الدنيا، في هذه اللحظات.

وقال تعالى {وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء 13-14]. اعلم أخي أن أعمالك مُعلَّقة في رقبتك، أي تلزمك بقرب، فاحرص فيما تختار فعله. واعلم أنك عندما تقرأ كتابك قد تشعر وكأنك تقرأ كتاب غيرك، وذلك لأن الإنسان عندما يرى ذنوبه أُحصيت سيدرك أنه نسي أغلبها وأنها تتعدى ما كان يحسبه أو يتخيله. وعندما يقرأ أسوأها يدرك مدى قبحها، لأنها ستُذكر دون مبرراتها التي

اختلقهن المرء في عقله كعذر. ذلك بالإضافة إلى أن الجانب المُبَرِّرِي من الإنسان قد يستصغر ذنوبه ويقلل من شأنها من حيث الكم أو القبح بالأعذار والمجادلة، ويُصدم عندما تعرض عليه مُجَرَّدة. أما عندما يقرأها وهي محصاة له، قد يرى أن صاحب هذا الكتاب شخص سيئ، وربما حتى يراه دنيئًا، ويؤيد هذا قول الله تعالى "اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا".

توضيحًا لهذا بمثالٍ، إن الإنسان إذا رأى سارقًا يسرق غضب وأراد أن يُطبِّق عليه الحد، ولكن إذا علم أن ذلك السارق أخوه أو صديقه الحميم قد تأخذه العاطفة والرأفة في غير موضعها بسبب علاقتهما، فيرجو (بل وقد يسعى) أن ذلك الشخص يُعفى من العقوبة. وذلك ما حدث مع سيدنا أسامة بن زيد (رضي الله عنه) عندما أهمَّ قُرَيشا شأن المرأة الْمَخْزُومِيَّةِ التي سَرَقَت فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إلا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وكان أسامة هو ابن اليتيم زيد الذي كان قد كفله الرسول صلى الله عليه وسلم، رضي الله عنهما)، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟" ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ وقَالَ "إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"[1] (وَايْمُ اللَّهِ هو قَسَمٌ بالله).

وهذه العاطفة التبريرية أدعى أن تظهر وتزيد عندما يخص الأمر المرء نفسه، فقد يحتقر مدى الخراب من ذنبه، أو يشتد تَمَلُّصِه من حدٍ لأنه سيُطبَّق على نفسه فيُبرر لها التبريرات. ولكن يوم الحساب لا عاطفة ولا تبريرات على ما ارتكبته من معاصٍ لأن المرء لم يكن مُجبرًا عليها كرهًا. فلنسعى للتقليل من ذنوبنا والاستكثار من العمل الصالح، استعدادًا ليوم يقرأ فيه كل شخصٍ كتاب أعماله كاملًا، ويحكم على نفسه بحيادية، وكأنه يصدر حكمًا على شخصٍ غريب عليه.

إن الله سبحانه تعالت قدرته إلى أنه أحكم قوانين الحساب يوم القيامة إحكامًا تامًّا، فليس هناك ثغرة يستطيع أن يهرب خلالها الإنسان أو يستغلها. بلغت قدرة الله من الإحكام والتمكن إلى مرحلة أن كل إنسان يشهد على نفسه بعد قراءة كتاب أعماله... ويكفي حكم الإنسان على نفسه لأنه لا مفر ولا انحياد عن الحق. ماذا لو كنت أنا من الذين يقرأون كتابهم ثم يحكمون على من فعل هذا أنه يستحق العذاب؟! بل هل سأستطيع أن أقرأ كتابي في المقام الأول، من شدة خوفي إذ إني أدري أعمالي؟ كيف سيكون شعوري حينئذ وقد رسبت في أهم وأكبر امتحان في حياتي، امتحان الإيمان والعمل الصالح؟ بعد قراءة الكتاب لا يمكن الكذب، وإن تجرأت وكذَّبت المكتوب فإن أعضاء جسدي ستنطق وتُكذِّبني وتشهد علي فتُفشي أسراري! حينئذ لا حجج لأن الله عليم بذات الصدور.

---

[1] صحيح البخاري 3216.

فلماذا لا أكون من الذين يعملون صالحًا ليشهدوا لأنفسهم بحسن العمل بعد قراءة كتابهم؟ ماذا سأربح في هذه الدنيا إن سلكت طريق الفساد، غير لحظات خاطفة من السعادة تليها لحظات طويلة من الشقاء؟ بما أن الله قد قال إن العمل الصالح جزاؤه الجنة والعكس كذلك، فذلك هو الحق... ويجب أن أثق في الله وأتوكل عليه أن طريق الصلاح واجتناب المعاصي هو الفلاح في الدنيا والآخرة.

وذلك الذي يجب أن أنتهجه في حياتي، وإن لم أفهم لماذا وكيف أن عملًا صالحًا سيفيدني، أو لماذا وكيف أن معصيةً ما ستضرني، ومهما كان هذا شاقًّا لأن الدنيا دار شقاء وامتحان، فأنى للمرء أن يكون مستمتعًا في امتحان؟ ولو كان طريق الأعمال الصالحة ليس شاقًّا بل سهلًا، لاتبع كل الناس طريق الرشد، ولن يكون هناك داعٍ لامتحاننا في الدنيا الذي نحن فيه الآن لأننا كلنا كنا سننجح فيه وندخل الجنة. في تلك الحالة الافتراضية، ليكونن امتحان الدنيا تضييعًا لوقتنا، ولكن تعالى الله من أن يفعل أمرًا عبثًا أو هباءً. ولكن الوضع كما وصفه الرسول (صلى الله عليه وسلم) "حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ"[1] (حفت أي أُحيطت).

وما هي الحياة الدنيا؟ إنما هي مثل مشوار بالسيارة، يغدون الإنسان من بيته (عندما يولد)، ويذهب بالسيارة هنا وهناك، ويفعل ما يشاء، وتبدو الشوارع طويلة، تذهب بعيدًا، وفيها تفريعات كثيرة يستطيع المرء أن يختار منها. ولكن الحقيقة أنه مهما طال الطريق، ومهما ذهب وتشعب إلى الأماكن، فلا بد للسائق أن يرجع بإرادته إلى المنزل عاجلًا أم آجلًا (القبر). ضع نفسك في الموقف وتفكَّر يا أخي، ماذا لو قررت أن تخرج من بيتك وتتفادى الرجوع إليه، فلا مفر من الرجوع أو اتخاذ بيت جديد. ومهما اختار السائق من طريق، كالملتوي السريع (طريق الشهوات) أو المباشر البطيء (طريق الهدى)، فالكل يرجع لمسكنه في نهاية اليوم، كلهم نفس المصير ولكن الفرق في الطريق المسلوك، هو الذي يُسجَّل على المرء بعد انتهاء المشاوير مهما أطال فيها، {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} [الانشقاق 6] (كادح أي ساعٍ ومجتهد).

ربما يرى البعض أني أُحَقِّر الدنيا تحقيرًا زائدًا، ولكن سيجد من يتذكر وينظر فيها بتأمُّلٍ أني لا أبالغ، فقد وصفها الله في كتابه أنها متاع الغرور، وقد وصفها الرسول (صلى الله عليه وسلم) بظل شجرة، وبجديٍ ميت أسك، وأنها ملعونة. إن الدنيا كقطعة الأرض التي يُجمع فيها الخرابات والنفايات، فعجبا لمن يكون مستمتعًا فيها. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله "الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ"[2].

رجوعًا إلى موضوع استلام كتاب الأعمال، فبعد أن يستلمه كل امرئ ويفتحه ويقرأه، يقول المجرمون {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا

[1] صحيح مسلم 5049.

[2] صحيح مسلم 5256.

يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف 49]، فلمثل ذلك فليعمل المرء صالحًا. حين يوضع كتاب الأعمال أمام المرء ويرى أن الكتاب لم يغفل عن صغيرةٍ ولا كبيرةٍ من الأعمال، يدرك المرء أنه لم يستوعب جدية ذلك اليوم عندما كان في الدنيا.

ما يقال لمن يرى كتاب أعماله ممتلئ بالخبائث ويعلم أن هذا عمله، وأن الله لا يظلم أحدًا؟ لا يمكن أن يقال له إلا أنه لا مفر من أن يتحمّل عواقب أعماله، وحتى هذا القول لا يفي وصف وضع ذلك الشخص حق الوصف، لأنه لا ملجأ له من الله إلا إليه. هذا وقد وحرّم الله على نفسه الظلم بألا يمنع الرزق عمن كَفَرَ به تعالى أو أساء إلى الناس، فما بال من يلقى الله يوم القيامة وقد أخذ كل حقوقه من الله ولم يفِ بحقوق الله، بل وآذى عباده؟!

أما الآن، فإن الله هو المُحاسب لعباده. وقوله "وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا" لها وجهين، وجه على المرء ووجه للمرء. الوجه الذي على المرء أنه سيأخذ جزاء ما عمله ويرد الحقوق إلى أصحابها، وهو ما يبغضه المُجرم. وأما الوجه الذي للمرء هو أن الله لن يظلمه فسيأخذ جزاء عمله الصالح كاملًا (بل وربما بزيادة) ويُرَدّ إليه حقوقه ممن ظلمه، وهو ما يُحبه المظلوم. فالناس بحسب أعمالهم إما مُحبًّا لعدل الله وإما مُبغضًا لعدل الله (الذين سادوا في الباطل والظُلم)، لأن هناك أناس سيعلون أجرهم وآخرين ينقص أجرهم بسبب ذلك. ويتعجب المرء من إعجاز الوصف لهذا الموقف في جزءِ من حديث قدسي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن الله يقول "يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ"[1].

فلم يظلم الله أحدًا حين لم يُحصِ على العبد إلا أعماله ولم يزد عليها، ولن يَظلم أحدًا بعدم القصاص له من الظالم كي يُجَنَّب الظالم من العذاب، فيجب السداد للمظلوم يوم تكون السلعة الوحيدة هي الأعمال! فالويل كل الويل للظالمين. وما بالنا في الذين يَظلمون عباد الله بالجموع، مثل الذي يتولى عليهم منصبًا في الدولة ثم يسرق أو يبطش أو يُقتِّل فيهم، عافانا الله من أن نقع في مثل تلك البؤرة من الأحمال الثقيلة.

وجاء أيضًا عن دقة الحساب {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ} [القمر 53]. هذه الآية تجعل المرء يقلق بشدة ولا يهدأ له بال، فكل ما عملت من صغير أو كبير يُكتب، وسأحاسب على أعمالي عملًا عملًا. وكما ذكرنا أن المجرمين يقولون "يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا"، فلماذا أترك عملي يفرض عليَّ أن أكون منهم وأقول مثلهم يوم القيامة؟

وهذا من دقة الحساب يومئذ، حتى إنه روي أن عندما نزلت سورة التكاثر سأل الصحابة (رضي الله عنهم) عن الآية {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ} قائلين: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ أَيِّ نَعِيمٍ نُسْأَلُ،

---

[1] صحيح مسلم 4674.

وَإِنَّمَا هُمَا الأَسْوَدَانِ -الْمَاءُ وَالتَّمْرُ-، وَسُيُوفُنَا عَلَى رِقَابِنَا وَالْعَدُوُّ حَاضِرٌ، فَعَنْ أَيِّ نَعِيمٍ نُسْأَلُ؟ قَالَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ"[1]، أي سيُسألون حتى عن تلك النعم التي نراها نحن بسيطة! ولكني للأسف كثيرًا ما أعمل بعمل من يرى أن الحساب ليس دقيقًا، الذي أنذرنا منه الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ" (أي الشاة التي ليس لها قرون من الشاة التي لها قرون)[2].

<u>سابعًا: العرض التالي، والمحاسبة على الأعمال</u>. هذه المرحلة يكون هناك حساب أيضًا لقطع المعذرة، وقيام الحجة بقراءة ما في كتاب الأعمال. إن الله قد أكثر من تذكيرنا باليوم الآخر والمُحاسبة لعلنا نُصلح أعمالنا، وبالرغم من ذلك فإنه لن يزال أغلب الناس يسيئون العمل كما سيتبين ذلك اليوم. ومن تلك المواعظ قال تعالى -في إرشاده لنا للاستعداد للحظات الحساب- {إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا} [النبأ 40]. فاعملي يا نفس ليوم ترين فيه عملك رؤيا العين مُدوَّنًا في كتاب، وأنى ينفع نقاشُك معي أو لومك لي يومئذ. يومئذ تبحثين عن عملٍ يجلب رحمة الله عليك، فأرسلي لي من الآن أعمالًا أجدها تنفع في ذلك اليوم.

وإني لا أتحسر على عملي الآن لأني لا أراه وهو محصود، ولكن يوم أراه وهو قد حُصد لي "يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ" سأُدرك كم المعاصي التي ارتكبتها، بالإضافة إلى مدى تقصيري في طاعة الله من أوقات كنت أستطيع أن أستغلها. أوقات قد قال عنها الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لَيْسَ يَتَحَسَّر أَهْلُ الْجَنَّةِ إلا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ وَلَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهَا"[3]، فما بال الأوقات التي قُضيت في معصية الله التي لا تترك الحسنات وحدها على الأقل، بل وتأكل منها.

يُنبئنا الله عن حالنا آنذاك {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ} [الحاقة 18]. يومئذ يكون المرء كالكتاب المفتوح، كل أعماله معروضةً، صغيرة وكبيرة، والخفي من العمل بَيِّنٌ كالعلني. فمن أساء عمله يكون منكشفًا ذلك اليوم ولن يَسلم، تمامًا مثل الذي يقف على أرض مستوية في وسط العدو دون درع. فلنعمل حتى يكون درعنا العمل الصالح يوم القيامة، لعله ينفع فننجو من العذاب. فكيف يطمئن المرء في الدنيا وهو يعلم أن عمله جميعه سينكشف ويُعرض لله، ثُم يُعرضه الله على العبد.

---

[1] مسند أحمد 22532.

[2] صحيح مسلم 4679.

[3] تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي 2226.

ويُنادي الله يوم القيامة ليُعلِم الجميع نظام الحساب {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [غافر 17]. ذاك اليوم مصيبة المصائب، إذ يوفى كل واحدٍ منا عمله. المؤمن التقي يخشى ذلك اليوم ويود أنه يفني ولا يُبعث من شدة يقينه بمصيبة ذلك اليوم، وكان الصحابة (رضي الله عنهم) -وهم من هم- يودون لو أنهم لا يُبعثون. وهذه إشارةً على أنهم مستعدون للفداء بما قدموه للإسلام كصدقة منهم دون مكافأة، أي يتخلون عن أجرهم في مقابل ألا يُحاسَبوا على أعمالهم!

ومثال على ذلك ما قاله سيدنا أبو بكر (رضي الله عنه) بعد أن نظر إلى طير وقف على شجرة: طُوبَى لَكَ يَا طَيْرُ، تَطِيرُ فَتَقَعُ عَلَى الشَّجَرِ، ثُمَّ تَأْكُلُ مِنَ الثَّمَرِ، ثُمَّ تَطِيرُ لَيْسَ عَلَيْكَ حِسَابٌ وَلا عَذَابٌ، يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مِثْلَكَ! وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ فَمَرَّ عَلَيَّ بَعِيرٌ فَأَخَذَنِي، فَأَدْخَلَنِي فَاهُ فَلاكَنِي، ثُمَّ ازْدَرَدَنِي، ثُمَّ أَخْرَجَنِي بَعْرًا، وَلَمْ أَكُنْ بَشَرًا[1]. وسيدنا عثمان (رضي الله عنه) قال: لَوْ أَنِّي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَلا أَدْرِي إِلَى أَيَّتِهِمَا يُؤْمَرُ بِي، لاخْتَرْتُ أَنْ أَكُونَ رَمَادًا قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ إِلَى أَيَّتِهِمَا أَصِيرُ[2].

أما العاصي، فإنه يُهوِّن من شدة ذاك اليوم، وعمله دليل على هذا، لأنه لو يراه كما ينبغي وأدرك مدى أهواله ما أقبل على المعاصي، لاسيما أنه قد يكون زين لنفسه أنه سينجو وتمنى على الله الأماني. وربما قائل يقول: هذا يوم فيه مصلحتي إذ إني ظُلمت كثيرًا وستُرد إلى حقوقي، ولكن غفل ذلك القائل ما عليه من مظالم لحق الله وحق الناس. ذلك لأن كثيرًا من الناس إذا ظُلموا وغُلبوا على أمرهم فلم يستطيعوا استرداد حقوقهم ذكّروا أنفسهم أن حقوقهم ستُرد إليهم يوم القيامة، ولكنهم لا يُذكِّرون أنفسهم بذلك عندما يكون الموقف معكوسًا ويكن لهم اليد العليا، فلا يُبالون لقرارهم في أن يظلموا من هم أضعف منهم، تمامًا مثل ما فُعل بهم من قبل من الظالم لهم.

فيجب أن نتحرى عن حقوق الناس حتى لا ندهس حقوقهم، وأن تُحسب يوم القيامة مظلومًا في الدنيا أفضل من أن يتَّضح أنك ظالم. وذلك فيما يخص حقوق العباد، وأما حقوق الله فمن المؤكد أنه ليس هناك مخلوق وفّى حق الله، ولا النبي (صلى الله عليه وسلم) إذ إنه قال إنه لن يدخل الجنة إلا برحمة الله! فقد علمنا مُسبقًا أن الحساب من بدايته فيه تقصير في حق الله، ويضاف على ذلك حق الناس على المرء، فأنى الاتكاء على ما للمرء من حقوق بينما عليه ما عليه؟

والمُرعب أكثر أنه "لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ"، أي أنه ستُقذَف عليَّ كل معصية ارتكبتها وكل تقصيرٍ في حق الله لسلبيتي. فأنى يُطمأن لذلك اليوم في أي يوم من حياتنا؟! وكفى إعياءً لنا في تلك النقطة قول الله تعالى {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا

[1] شعب الإيمان للبيهقي 485.

[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني 60/1.

وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ} [آل عمران 30]، فقد حذرنا الله من نفسه في يوم القيامة، فأنى يؤمن لذلك اليوم؟! الأمل الوحيد في النجاة ذلك اليوم هو أن يرتقي المخلوق إلى منزلة فيها يكتبه الله أنه عبد له بمعنى الكلمة (وليس بواقع الحال فحسب، لأن واقع الحال هو أن الكافر عبدٌ لله أيضًا)، فحينئذ يرأف الله بالعبد الحقيقي فيُنجيه.

ثم تبدأ لحظات الحساب العصيبة، لحظات يقف المرء مُجردًا من كل شيءٍ يستُره ظاهرًا وباطنًا، فيكون مكشوفًا أمام الله، ويكفي لنا ترويعًا قول الله تعالى {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ} [الصافات 24]. سياق هذه الآية تحكي حال المشركين يوم القيامة، أنهم يُحبسون ليُسألون عن أقوالهم وأفعالهم، ومن الذي سيسألهم، إنه الله خالق كل شيء، القهار. ولكن يُحتمل أن يكون ذلك يُقال لجميع الناس بعد النشور إذ إن الجميع سيُحاسب أمام الله فردًا فردًا، كما دلت الآية {وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم 95]. وأشارت أحاديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن محاسبة الجميع انفرادًا، مثل قوله "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلا سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلا يَرَى إلا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلا يَرَى إلا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلا يَرَى إلا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ"، وفي رواية زاد "وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ"[1] (أَشْأَمَ أي عن يساره).

وتشير الآية (سورة الصافات) إلى مدى ذلة الذين كفروا، إذ يُفعل بهم ما شاء الله أن يفعل بهم، لأن الآية تدل على أن الله يتعامل معهم بالشدة وقلة المبالاة، وهم لهذا مستسلمون لأوامر الله لا محالة، كما دلت الآية التي تأتي لاحقًا {بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} [الصافات 26]. حالهم كما في قول رسولنا (صلى الله عليه وسلم) في بعض دعائه مخاطبًا ربه "لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إلا إِلَيْكَ"[2]، وهذا كان قوله وهو في الدنيا لأنه كان يدرك قدرة الله وسلطانه. أما في الآخرة، فذلك يكون نافذًا دون خُفية على جميع الناس: المؤمن والكافر، من كان يعترف ومن كان يُنكر ذلك في الدنيا. فعلى الذين أقرّوا، تكون تلك الحقيقة رحمة بإنفاذ إيجادهم الملجأ والمنجى إلى الله، وأما الذين أنكروا فتكون وبالًا وعذابًا بإنفاذ احتياجهم لملجأ ومنجا من الله.

وذلتهم تلك هي جزاء العمل بأنهم تكبروا في الأرض، فانتقلوا من منتهى التكبر والتعاظم إلى منتهى الضعف والصَغار، والسؤال هو: ما الذي أحدثوا حتى صاروا إلى ذلك؟ إنه بأمر من الله. ولا شك أننا جميعنا مسؤولون، التقي والفاجر، لأن ذلك هو العدل، إلا القليل من الذين قال فيهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) "يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ"[3].

---

[1] صحيح مسلم 1688.

[2] صحيح البخاري 239.

[3] صحيح مسلم 317.

ولكن هذا لا يمنع أن نُسأل جميعنا الأسئلة الأساسية التي وعّانا منها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ"[1]. والواضح أن مشقة الحساب تختلف من شخص لآخر بحسب عمله، فاسعَ أخي أن تكون من الذين يدخلون الجنة دون حساب بعد فقط الأسئلة الأساسية (أي العرض)، لأن المرء إذا نُوقش الحساب هلك، وهل يُعقل أن من أكثر من المعاصي يُشمل فيمن يدخل الجنة دون حساب؟! هذا المفرط في المعاصي لم يُشَرِّف موقف أن الله سيُحاسبه، فكيف يتوقع أن يُشَرِّفه الله عند الحساب؟ حقيقة الحساب لم تحظَ عنده بعملٍ مميز، فلماذا يُميّزه الله عند الحساب؟

في تلك اللحظات تبدأ الأسئلة الصاعقة، إذ إنها صميمية ومُصارحة، والتي تكون إجاباتها واقعيةٌ وليست كما توهمناها أو سوّلت لنا أنفسنا في الدنيا. فعندما يسأل الله سؤالًا مثل {يَامَعْشَرَ الْجِنّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مّنْكُمْ يَقُصّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىَ أَنْفُسِنَا وَغَرّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىَ أَنْفُسِهِمْ أَنّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} [الأنعام 130]، ماذا أقول؟ فالإجابة ببساطة نعم أنهم قد جاءوا، ولكن حقيقة الأمر أني لم أتبع نصحهم كما ينبغي واتبعت طريق المعاصي! فقد بدأتُ إجابتي برفع أي عذر قد أكون أعددته، وبدأ حسابي وليس لي عُذر من أوله! أما إذا أردت أن أقول لله إنه خلقني بطبعٍ خطّاءٍ كعذرٍ لي فهو أعلم بمخلوقاته مني، فمن منا سيتجرأ ويقول ذلك أمام الله كمجادلةٍ مع الله؟!

سبحان الله. إن هذه الآية... تُعبّر عن قدرة الله. مع أن هذه الآية تتكلم عن المشركين خاصة... لكن فيها موعظة عامة، فلننظر بدقة في هذه الآية. هذه الآية تثير سؤالًا مهمًّا، وهو أن إذا كان الله يعلم ما سيفعله كل واحد منا وسيحاسبنا عليه، فلماذا تَرَكَنا الله كي نعيش في هذه الدنيا إلى أن نموت؟ لماذا لم يحاسبنا بعد أن خلقنا بينما يعلم من سيكفر، ومن سيكون تقيًّا، ومن سيعصيه، وغير ذلك؟ فإن الله يعلم الغيب كله، وسَجَّلَه تعالى في اللوح المحفوظ في بداية خلق الكون. ومن الأدلة على علم الله للغيب هي هذه الآية المذكورة، التي ينبئنا الله بها ما سيحدث لفئة من الناس يوم القيامة!

وكما جاء في تفسير الآيات {حم (1) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الزخرف 1-4]، قال سيدنا عطاء بي أبي رباح (رضي الله عنه) عن "أُمِّ الْكِتَابِ": إنه كتابٌ كتبه الله قبل أن يخلق السماوات وقبل أن يخلق الأرض، فيه إن فرعون من أهل النار وفيه (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ). وعن الوليد بن عبادة بن الصامت (رحمه الله وأباه) وصّاه أباه عند الموت قائلًا: يَا بُنَيَّ اتَّقِ اللَّهَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَتُؤْمِنَ

---

[1] سنن الترمذي 2340.

بِالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، فَإِنْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ؛ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ "إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ"[1].

إذًا فلماذا تركَنَا الله لنعيش فترةِ الدنيا، لماذا لم يدخل أصحاب الجنة إلى الجنة... وأصحاب النار إلى النار؟ لو تأملنا لم نجد سببًا إلا عدل وكرم ورأفة الله علينا. تركنا الله كي يُقِيم علينا الحساب ونحن مستيقنون شاهدون على أفعالنا، ومتفهمون مصيرنا بعد أن نعترف بحُكَمنا على أنفسنا بالحق، ومعترفون بعدل جزائنا! فحينئذٍ لا يقول أحد من أصحاب النار "لو كنت في الدنيا لكنت مؤمنًا (أو مطيعًا لله أو صالحًا إلخ)... قد ظلمني الله". فالعاصي يوم القيامة لا يجد حجة، ولا يستطيع أن ينكر أفعاله، قد فعل ما فعل بإرادته، وعليه دليل.

وهذا يدل على مدى عظمة الله، فإنه تركنا نعيش في الدنيا بالرغم من قدرته على محاسبتنا ومجازاتنا حين خلقنا دون إرسالنا إلى الأرض، ولن يكون قد ظلمنا لو فعل هذا لأنه يعلم مصير كل واحد منا إن تُرك ليعيش في الدنيا. فالمخلوق كله مِلكٌ للخالق يفعل به ما يشاء، فالحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه أنه هو خالقنا وتعالت صفاته عز وجل. هذه يا إخواني هي العظمة المطلقة التي لا تليق لأحد إلا الله وحده لا شريك له... القوة مع الرأفة، الكبرياء مع الرحمة، القدرة مع العفو.

ودليل آخر على أن الله أعذَرَنَا كي لا تكون لنا حُجة، لأنه بيَّنَ لنا طريق الهدى وأعطانا فرصة للتنفيذ، هو ما جاء في الآية {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء 165]. وكان الله عزيزًا حكيمًا من فعل كل هذا لنا ولن يكون قد ظلمنا، وهو غنيٌ عن أن يُثبت لنا مصيرنا.

فهذه هي الحياة الدنيا، دار متاع الغرور، دار اللعب واللهو والزينة والتفاخر بيننا والتكاثر في الأموال والأولاد. هي دارٌ لا يَسلم منها إلا من استغنى عنها، وإلا استعبدته في تحصيلها كما دل قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ"[2] (وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ هما نوعان من الألبسة). ومهما قضى العبد من حياته لتحصيل متاع الدنيا، لن يصل إلى مراده من الشبع، فلماذا المعصية في السعي وراء سراب الشبع من متاع الدنيا؟ هذا ومع إدراكي أن متاع الدنيا لا شيء مقارنةً بمتاع الجنة، ولكني لا أدرك متاع الجنة، ولذلك أنا ملهوف على متاع الدنيا الذي قد يُحجزني عن التمتع بالجنة.

---

[1] سنن الترمذي 2081.

[2] صحيح البخاري 5955.

فالمتلهف وراء الدنيا يتعس لأن الدنيا لا تعطيه نفسها دائمًا، ويُجهَد لأنه لا يتوقف من الجري لتحصيلها إذ بطبعه لا ينتهي طمعه، وبعد كل هذا لن يجمع إلا ما قد كتبه الله له في المقام الأول. بل وبعد كل هذا سيترك كل ما جمعه طوال حياته عند موته. بل وفوق ذلك كله، أن اهتمامه باقتناء الدنيا سيمنعه من اقتناء متاع الجنة، بل ويضع عليه عناء الحساب على ما حصَّله في الدنيا... إذا، هل أزال عاقل إذا تلهفت وراء الدنيا؟

ويكفيني ذكر نصيحة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مقولته "لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلام إِلَى الْجَنَّةِ فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا، فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلا دَخَلَهَا. فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ فَقَالَ: اذْهَبْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا، فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. قَالَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَى النَّارِ وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا، فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ. فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ فَقَالَ: ارْجِعْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَرَجَعَ وَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لا يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلا دَخَلَهَا"[1].

وفي أثناء المحاسبة يتبرأ كل عاصٍ من معصيته ولو بإلقاء اللوم على غيره، فيُلقِي الرجل بالذنب على صاحبه ثم يتنصل منه، ليُغرق الشاهد وينجو الفاعل! {قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (28) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (29) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ} [ق 27–30] ("مَا أَطْغَيْتُهُ" أي ما أضللته، يقصد إيحاء أنه ما أضل قرينه لأن قرينه كان معاندًا للحق في الأصل). بئس القرين الذي ينكر صاحبه يوم القيامة، يطعن صاحبه في ظهره بعدما كان ملاصقًا له على الباطل في الدنيا. إذًا لماذا يكون لي قرين سوء إن كانت علاقتنا حتمًا ستزول، بل وستصل إلى التلاوم والغدر؟ ما مدى هيبة هذا اليوم الذي يجعل قرناء السوء يختصمون بتلك الطريقة، وما مدى ويل ذلك اليوم؟ ولكن تنزل كلمة الله كالصاعقة "لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ".

إن من أحد المعجزات الدالة على ألوهية الله أنه لم يوعدنا بقيام الساعة فحسب، ولكنه نبأنا بالمستقبل عما سيقوله الناس في ذلك اليوم، وأنذرنا من اختصام قرناء السوء. فلماذا لا أتّعِظ؟ وكأن الله يومئذ يسأل العبد بلسان الحال سؤالًا خفيًا: ألم أنذرك أن هذا اليوم سيأتي لا ريب فيه لتعمل له، وأنذرتك من الأعذار التي تُقال، فها هو قد جاء، فماذا أعددت له وما حُجّتك في سيئاتك؟ ألم تتدبر قولي {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمّ تُوَفّىَ كُلّ نَفْسٍ مّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [البقرة 281]؟

---

[1] سنن النسائي 3703.

فإذا قيل لي، أنا شخصيًّا، مثل ذلك فماذا سأجيب؟؟؟ إني أبحث عن رد مُقنع لي أقوله يومئذ لربي، ولم أجده حتى الآن، فهل وجدتم أنتم ما تقولونه؟ من سيقول "ربي لم أستيقن البعث" كحجة فقد جاء بكلمة من الكفر، ومن سيقول "ربي لَم أذنب" ستشهد عليه أعضاؤه! ومن سيقول "إنما خلقتني خطَّاء فليس عليَّ اللوم أني عصيتك" فستُعرض عليه النعم التي سعى لتحصيلها أو استخدامها ولم يُوفّ حقها، فيُحاسَب عليها دون رأفة، وكفى بعدم إيفاء حق نعم الله هلاكًا إن لم يرحمنا الله. فماذا سأقول، ماذا؟ لا أجد إلا الصمت أمام الله والاعتماد على رحمته وعفوه وتجاوزه عني، فهذا هو الحق، هذا هو الحق، هذا هو الحق. ستكون هذه اللحظات العصيبة عذابًا لي لا توازن متعة هذه الذنوب في الدنيا... اللهم لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليه، فاللهم سلّم سلّم.

"مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ". يا ويلي، لا تبديل لكلامي ولا أعمالي، وما حدث كُتب عليَّ لا مفر، لأنه لا مجال لإخفاء ما كُتب عليَّ. سيُعرض سيُعرض، لا شك في ذلك، ويجب أن أستشعر وأُدرك مدى شدة هذا الموقف. كم في هذه اللحظات من مشقة! إني أحمل كتابي فيه كل مساوئي وسيُعرض على الله الحق العدل، ثم أنا الذي سأُقدّم كتابي إلى الله بنفسي ليُحاسبني! ولن يحمله أحد سواي ليعرضه بدلًا مني، فات الأوان. هأنا أنتظر نتيجة أعظم وأهول امتحان لي في الدنيا والآخرة، وورقة إجاباتي (كتاب أعمالي) الذي سأحاسب عليها في يدي لأُقدمها، وقد انتهى الوقت وحُسم العمل! كل الامتحانات في حياتي لا تساوي شيئًا يومئذ، ولن أبالي إذا نجحت فيهم أم لا، فإنها لم تكن امتحانات مصيرية بهذه الدرجة، ولكن قصة حياتي هي الامتحان الحقيقي.

والخوف كل الخوف أن الله لا يظلم بتاتًا، فلا مجال أن تتفلت نقطة أو يُغفل عن عمل عند الحساب. مثل ما أن هذه ميزة لي من جهة أن حقوقي ستُرد إليَّ، إلا أنه عبء أيضًا إذ إن الحقوق التي عليَّ سأُحاسَب عليها. وإني لا أتكلم فقط عن حقوق عباد الله عليَّ، بل أتكلم عن حقوق الله أيضًا! إن الله خلقني وتفضل عليَّ بما لا أحصيه حتى، فمستحيل أن أؤدي حق نعمه عليَّ، فإن شاء الله آخذني بحقوقه عليَّ وحينئذ أكون قد هلكت. وهذا يعني عامةً أنه لن يدخل أحد الجنة بأجر عمله، لأن العمل لن يوفّي حق فضائل الله علينا ولو عبدناه كل حياتنا. ومن يشك في هذا فليتفكر... مجرد أن الله جعل لنا كيانًا في كونه فذلك نعمة بعد أن كنا لا شيء، فكيف أوفّي تلك النعمة وحدها؟!

ولهذا قال النبي (صلى الله عليه وسلم) "لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ". فقال الصحابة (رضي الله عنهم): وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قَالَ "لا، وَلا أَنَا، إلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ، إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ" (يَتَغَمَّدَنِي أي يُصيبني أو يُدركني؛ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا أي توسطوا في العمل دون إفراط ولا تفريط واجتهدوا في ذلك؛ يَسْتَعْتِبَ أي يرجع ويتوب)[1]. وقد قال تعالى {وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا

[1] صحيح البخاري 5241.

إنّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ} [إبراهيم 34]، {وَإِن تَعُدّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَآ إِنّ اللهَ لَغَفُورٌ رّحِيمٌ} [النحل 18]. ولهذا كان حق الله أن يرسلني إلى جهنم إن لم يرضَ عني مهما بلغ عملي (لأني لم أوفِّ حق الله في نعمه عليَّ) ولن يكون قد ظلمني، فلذلك يجب ألا ءأمن من مكر الله. ولذلك يجب أن أخشى من عدل الله بمقدار أو أكثر مما أحب عدله.

إن الله رزقني بعقل وأرجل وأيدي وأعين وغير ذلك، وتلك بعض نعم الله التي يمكن لي استعمالها في طاعة الله كي أحاول إثبات امتناني له، فهل كنت أعبد الله بها طوال الوقت؟ هذه الأجزاء من جسدي مِلكُ لله، وما آتاني اللهُ هو القدرة على استعمالها والتصرف فيها... فنظريًّا، من المفترض أن أستعمل جسدي في طاعة الله دائمًا ما دمت مُوَكَّلًا على جسدي. ولكن هذا ليس الوضع، فالجسد يحتاج إلى النوم والراحة والطعام والتسرية، وإلخ، مع أن هذه الأعمال قد تنقلب إلى طاعات لله إذا صلحت النية. ولكن حتى هذا ليس هو ما يقتصر عليه حالي، فإني قد آكل أو أشرب أو أنام أو ألهو فوق الاحتياج والاعتدال فأُسرف، أو تكون نيتي هي فعلها لنفسي وليست لله، فيتوقف العداد الذي يحسب استخدامي النعمة لإيفاء حق الله.

بل يزداد الوضع سوءًا. وكأن عدم استخدام جسدي في طاعة الله أحيانًا ليس تقصيرًا كافيًا، فما بالي أستعمله في معصية الله؟ فالعصيان صفة من صفات الجبارين الذين إذا أُعطوا القدرة على شيء استغلوها لنيل أغراضهم فأفسدوا وظلموا؛ وصفة من صفات المتكبرين الذين إذا أُعطوا نعمة جحدوا أنها نعمة من الله وتباهوا بها على من دونهم؛ وصفة من صفات الخائنين الذين إذا أُعطوا نعمة استعملوها في مخالفة المُنعِم... وكلهم كانوا ظالمين. فأسأل الله أن يهدينا ويرحمنا ويرأف بنا، فإننا نقر أننا عباده بالرغم مما اقترفناه.

أفلا أتضرع إلى الله بعد ما علمته لأزيد من فرصتي في أن يتغمدني ربي برحمته؟ وكما قال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ؛ وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ"[1] (قَنَطَ أي يَئِسَ، وهو فقدان الأمل).

فيجب على أن أتزود من العمل الصالح وأترك معصيتي لله، فكيف لي وأنا قد عصيت ربي أن أعصيه زيادةً؟! حقًّا، كم أنا ضعيف، ولم يفعل ذلك بي إلا نفسي {إِنّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النّاسَ شَيْئًا وَلَكِنّ النّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُون} [يونس 44]، لأن كل من أقبل على معصية الله فهو ظالم لنفسه بأنه جلب لنفسه استحقاق عذاب الله بعد تجاهله تحذيرات الله، وما وبال ذلك إلا على نفسه.

وفي شتى مراحل الآخرة يتَحسَّر المرء على اختياراته في حياته، في القبر وبعد البعث وحين الحشر وفي أثناء المحاسبة، ومِن الذين لازَمَهم في الدنيا لأنهم حوله آنذاك ويُحشر معهم، وحتى

---

[1] صحيح مسلم 4948.

عندما يسكن النار يظل يتحسر حتى يخرج منها. قال تعالى {وَيَوْمَ يَعَضّ الظّالِمُ عَلَىَ يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتّخَذْتُ مَعَ الرّسُولِ سَبِيلًا (27) يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلًا (28) لّقَدْ أَضَلّنِي عَنِ الذّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ الشّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان 27-29]. هكذا يندم المرء على ما فوته في حياته من طاعة الله واتِّباع الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وأنّى ينفع الندم... حينئذٍ يتبرأ الظالم من صديقه الحميم الظالم.

ومن قوة التعبير القرآني كلمة "فُلاَنًا"، حيث إنها تدل على إشاعة هذا القول يوم القيامة من أناس كثيرين، مما يدل على وقوع كثير من الناس في هذا الخطأ. والخطأ هو أن يصاحب المرء أحدًا لا يعينه على طاعة الله -بل وقد يسخر منه إذا أراد ذلك-، ويعينه على المنكرات، سواء كان معه فيها أم لم يفعلها ذاك الرفيق بنفسه. ومن المعلوم أن صديق السوء قد يجعل المرء يفعل شيئًا فظيعًا لم يكن المرء ليفعله بطبيعته لأنه ينكرها، والفتنة الأكبر أن يكون المرء محاطًا بأناس يفعلون منكرًا، لأنه حتى إن أنكرها ولم يقع فيها (مع صعوبة ذلك)، فسيبلى قلبه من كثرة رؤيتها حتى تصبح مألوفةً لديه.

وهذه من أشد الفتن مع تقدم الزمن، أن تشيع المعصية حتى يصبح الملتزم بالشرائع غريبًا في وسط الناس، حتى تكون الرسالة التي تبعث في المجتمع: لا تكن ملتزمًا بالشريعة ولكن كن (ما يدَّعونه) واقعيًّا/عصريًّا/متطورًا/متحضِّرًا/كبير العقل. وهذا ما نراه في زمننا هذا عند الإعراض عن بعض المعاصي -مثل تجنب الاستماع إلى المعازف-، بل وضد بعض الأعمال الشرعية -مثل توفير اللحية-. ومع تقدم الزمن وتدهور الوضع، تزداد تلك الفتن في تنوعها وفظاعتها وإغوائها، لابتعاد أناس أكثر وبطريقة أَفَجّ عن دين الله. وذلك دل عليه قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَا يَزْدَادُ الْأَمْرُ إِلَّا شِدَّةً، وَلَا الدُّنْيَا إِلَّا إِدْبَارًا، وَلَا النَّاسُ إِلَّا شُحًّا، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ، وَلَا الْمَهْدِيُّ إِلَّا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ"[1]. يتفاقم الوضع حتى يُهاجَم فيه التقيّ، ويَرى من المعاصي حوله ما يؤثر على قلبه ونفسه حتى قد يُفتتن عن دينه، إلا من أعانه الله وثبَّته على الإيمان الراسخ.

ثم يأتي زمن قال فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي"، قَالُوا (الصحابة رضي الله عنهم): فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ "كُونُوا أَحْلَاسَ بُيُوتِكُمْ"[2] (أحلاس بيوتكم بمعنى الزموا بيوتكم). وفي رواية أُخرى جاء

[1] سنن ابن ماجه 4029.

[2] مسند أحمد 18831.

"بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا"[1].

ويجب أن نعلم أن معاصينا تُعجّل بقيام الساعة، لأن الساعة لا تُقام حتى يهجر أغلب الناس الإسلام عقيدةً وعملًا. وهذا كما دلت عدة أحاديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن مقدمات قيام الساعة، ففيهن يتَّضح هجر أناس من المسلمين لعقيدة الإسلام فيصيرون كفارًا، كما دل الحديث "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى يَعْبُدُوا الْأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي"[2]. أما عن هجر الإسلام عملًا، فيظهر في كثرة ذكر أصناف من المعاصي تشيع في المسلمين، مثلما في الحديث "وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالتَّفَاحُشُ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ، وَسُوءُ الْمُجَاوَرَةِ، وَحَتَّى يُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ وَيُخَوَّنَ الْأَمِينُ"[3].

وشمولًا في الدليل، قال (صلى الله عليه وسلم) "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتُلُوا إِمَامَكُمْ، وَتَجْتَلِدُوا بِأَسْيَافِكُمْ، وَيَرِثَ دُنْيَاكُمْ شِرَارُكُمْ"[4]. ففي الحديث دلالة أن الفساد يَعُم ويَغلب في طباع الناس، إلى درجة أن الذي يتولى الحكم يكون مُفسدًا مثلهم هو أيضًا. وذلك من قوله (صلى الله عليه وسلم) "وَيَرِثَ دُنْيَاكُمْ شِرَارُكُمْ"، أي أن شرار الناس (المُفسدين) هم الذين يمسكون مقاليد الحكم في بلاد المسلمين ويكنزون أموالها.

ومن هذه القاعدة، نستطيع أن نستنتج أن الذين يُحاربون الإسلام من المنافقين واليهود والنصارى ليقضوا عليه، ويمكرون لجعل الناس يهجرونه (سواء بقتل المسلمين، أم إغوائنا بشهوات الدنيا وإشاعة الفاحشة فينا لنتخلى عن تطبيقه، أو بزرع الشك عند المسلمين والنفور منه عند غير المسلمين)، هم في الحقيقة سفهاء إذ يُعجّلون قدوم الساعة على أنفسهم، لاسيما البشرية كلها. والواقع هو ما كائن في قول الله تعالى {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} [الشورى 18].

فلا تجد تقيًّا يستعجل قيام الساعة إذ إنه يخشى من محاسبته على تقصيره مع الله، ويخشى أهوال الساعة، ولا تجد مستعجلًا لقيام الساعة إلا كان فاجرًا. وطلب الفاجر لقيام الساعة يكون إما استهزاءً بوقوعها إذ إنه يكفر بها، أو اغترارًا بأن الله سيُعطيه أكثر مما عنده في الدنيا مُكافأة له على أعماله في الدنيا، وتلك نظرة كثير من اليهود إذ يرون أنهم شعب الله المختار وأنهم أفضل من سائر عباد الله، وأن لهم الكرامات في الآخرة، بالرغم من شناعة ما يُحدثونه من فساد في الأرض.

---

[1] صحيح مسلم 169.

[2] سنن الترمذي 2145.

[3] مسند أحمد 6226.

[4] سنن الترمذي 2096.

ورجوعًا لقضية تفشي المعاصي بفجاجة مع تقدم الزمان وتقبل الناس للفِتن، فإن كان أحدٌ يستغرب ويتساءل كيفية حدوث ذلك، فينبغي أن يُدرك كيف تمر المعاصي بمراحل حتى تصل إلى مرحلة التفشي. تفشي المعاصي تبدأ بنكران المعصية والنفور منها مع النهي عنها لمن يُحدِثُها، يليها التعود على رؤيتها فلا يَنهى المرء عنها مع نكرانها. ثم يتبلد القلب تجاه تلك المعصية ولا ينكرها، ثم التجرؤ بالتفكر في ارتكابها، ثم الوقوع فيها ولكن بقلة، ثم يزيد على ذلك فيعتاد ارتكابها، ثم يفعلها جهرًا. وهنا يكون البلاء الشديد، لأن الجهر بالمعصية مرحلة فيها تجرّؤ وفجور، وذلك لأن العاصي لا يُقصر ضرر المعصية فقط على نفسه، بل يفتن غيره. بل وربما يُفتَن ويَفتِن أكثر من ذلك فلا ينكر حرمانية تلك المعصية مجملًا، ويُعلن بذلك أمام الناس ويدعو غيره إليها، فالعجب في مدى تحوله من النهي عن معصية إلى الدعوة إليها جهرًا!

ولكن اعلم أخي أنه لا مفر من البواح بالحقيقة مُجردةً، بكل تفاصيلها الدقيقة الخبيثة، التي كنت تُسرها في باطنك وأنت تنوي على أن ترتكب المعصية، فقد قال الله تعالى {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} [النور 24-25]. فكيف نطمئن في هذه الدنيا بعد أن علمنا أنه قد تشهد علينا ألسنتنا وأيدينا وأرجلنا إن كذّبنا ما في كتاب أعمالنا؟ لماذا لا نُنزّه أنفسنا عن وضعها في هذا المأزق: إما الاعتراف بالذنب وإما إنكار ارتكابه فتشهد الجوارح علينا؟ فذاك يوم يتخاصم كل شيء كانا على معصية الله، فالجسد يشهد على الروح بأمر من الله، بل وتشهد أعضاء الجسد على بعضها بعضًا! فكيف أعصي الله بيديّ في حين إذا نظرت إليها في أثناء المعصية لتذكرت أنها قد تشهد عليَّ؟ وكيف أسعى برجليّ إلى المعصية وستنقلب عليَّ يوم القيامة بشهادتها عليَّ؟

ومراقبة النفس في أثناء المعصية سبيل من السبل التي تعين المرء على ترك المعصية، إما بجعله يُقلع عنها في أثناء ارتكابها وإما بعدم تكرارها مستقبلًا، فمراقبة النفس تقلل من متعة المعصية وتُعلي من وازع الضمير. يُضاف إلى هذا أن الرؤية الخارجية لتصرفاتك، أي كأنك تُبصر نفسك، تعطيك منظورًا أوضح وأشمل فيما تفعله مما وأنت منغمس في المعصية (وأي فعل عامةً، مثلما أنك تُحلّل ورُبما تجد حلًّا بسهولة أكثر لمشكلةٍ ما عندما تنظر إليها وكأنك لست طرفًا فيها)، فهذا شبيهٌ تمامًا كأنك تراقب غيرك يرتكب معصية، فتجعلك تُذم فعلته. بهذه الطريقة ترى نفسك وأفعالها بموضوعية أكثر، فقد ترى نفسك كما لا تحب أن تراها وأنت ترتكب المعصية، أو تستوعب مدى قبح الذي تصنعه، فيكون دافعًا لك لتركها.

ولو أني تذكرت وقت المعصية أني لا أملك يديَّ، ولا رجليَّ، ولا لساني، ولا أي شيء من جسدي أو روحي، لأنهم كلهم ملك لله، وإنما وهب لي القدرة على التحكم فيها في أثناء حياتي، فحينئذ لن أستمتع بالمعصية، ولعلي أتركها. وبعد أن يشهد الجسد على نفسه، يوفِّي الله كل واحد

حقه، فإما رحمة من الله، وإما العذاب. فلماذا أتهاون بهذا؟! إذا كان لا مفر من مواجهة الحق عاجلًا أم آجلًا، فما ضرورة معصية الله؟

ولا شك أن كل واحد منا أعد من الأعذار ما يُسكن باله لارتكاب معصية كذا ومعصية كذا، ولكن يقول الله تعالى {فَيَوْمَئِذٍ لا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} [الروم 57]. والله إنه ليوم عصيب يوم لا تُقبل معظم الأعذار، ولمن فسق لا يُستعتب حتى. فكم من الأعذار أنا أُعدها لتبرير معصية كذا ومعصية كذا يوم القيامة، والله مُطلع على سر حديث النفس وأخفى من ذلك، ومن نوقش أعماله ونياته فقد هلك لأنه يناقش العليم الحكيم الذي لا يخفى عليه ولا يُعجزه شيء. ومن حاجج الله فإنه مغلوب على أمره لأن لله الحُجَّة البالغة.

أما العتاب، فإني أخشي يومًا أكون أهون على الله من أن يُكرمني بالرد عليَّ ومعاتبتي، وتكون معاملته الوحيدة معي أنه يأمر ملائكته أن يذهبوا بي إلى النار! تلك هي أهن الإهانات وأذل الذل، حين يكون المرء قيمته عند الله أدنى من أن تساوي الرد عليه حتى، لأنه يجب أن يكون للمرء ولو بعض القيمة ليستحق الرد من الله. وإنما الأمر أساسًا اختياريٌ حتى الآن ونحن في الدنيا، من أراد العزة اختار طاعة الله وعمل وفق ذلك، ومن أراد الدنيا اختار معصية الله وعمل وفق ذلك، فلا تأتي التبعات إلا من اختيارات المرء.

ثم لننظر ولنتمعن في دقة الحساب، دقة الحساب التي قال عنها الله {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء 47]. والله إنه ليوم مهول، حين نُحاسب على مثقال حب الخردل من الأعمال. لا يسع المرء تخيل كيف سيجتاز ذلك اليوم، إلا برحمة الله أن تُصيب المرء. ومن قبل أن أُحاسب فأنا مديونٌ إلى الله بنِعَمِه عليَّ، منها الإسلام والصحة ويسر الحال والأمن، وسأُسأل عنهم يوم القيامة كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (يَعْنِي الْعَبْدَ) مِنْ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ وَنُرْوِيَكَ مِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟"[1]. ولا يسعني أن أؤدي شكر حتى فرع من هذه النعم، فلم يكفيني هذا حملًا عليَّ فزدت عليه بمعصيتي لله! ألا يكفي ما عليَّ حتى الآن حتى أزيد عليه أكثر؟ كفى بالله حسيبًا حقًّا، فكما لن تُظلم يا ابن آدم فلن تُترك ظالمًا أيضًا.

وفيما يتعلق بحقوق العباد، فإن عدل الله يغمر كل العوامل المتعلقة بالقضية، حتى إن المؤمن إذا كان قد ظلم كافرًا فإن الله يرد للكافر حقه من المؤمن من حسناته، بالرغم من أن هذا سيدخل الجنة وهذا سيدخل النار. إنه ليس عند لله عزيزٌ فيما يختص بقضاء الحقوق، وذلك لأنه لا يظلم إطلاقًا، حتى إنه ليعدل مع من كفر به! وذلك يثير الفزع إذ إن المرء يُدرك أن ما عليه من ديون

[1] سنن الترمذي 3281.

عامة (سواء مادية أم معنوية) فإنها ستُقضى منه في الآخرة لا محالة، إذ إنه لا مجال للوساطة أو المحسوبية أو الشفاعة أو التعزز بالله في هذا الأمر.

وذلك ما جاء صراحةً في الحديث القدسي عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (أَوْ قَالَ الْعِبَادُ) عُرَاةً غُرْلا بُهْمًا"، قَالَ (الصحابي): قُلْنَا: وَمَا بُهْمًا؟ قَالَ "لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، وَلا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، وَلا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةُ" قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عُرَاةً غُرْلا بُهْمًا؟ قَالَ "بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ"[1] (غُرْلًا أي غير مختونين؛ اللَّطْمَةُ هي الضربة بالكف).

وأريد أن ألفت النظر إلى أن الحديث تكلم عن حقوق أصحاب النار من الجهتين ولم يتطرق إلى حقوق أصحاب الجنة على أصحاب النار، مما يُشدد على مدى إقامة الله للعدل. والحديث يُبين إلى أي مرحلة يصل إقامة العدل، إلى حد أن الله يدافع عن حقوق أصحاب النار، شاملًا ذلك من كفر به في المقام الأول! وبما أن الكافر كفر بالله وعدله فليس له حقوق من الله لأنه تخلى عن ذلك بكفره، ومع هذا فإن الله يوفِّي للكافر به حقه كاملًا، بل ويدافع له عن حقه، وبهذا يتَّضح لنا مدى جِدّية وخطورة الموقف، فأي عدلٍ هذا؟!

وكذلك يفعل الرسول (صلى الله عليه وسلم)، يقف في جانب الذي كفر -وربما حتى استهزأ بالرسول (صلى الله عليه وسلم)-، وينصره حتى يرجع إليه حقه من المسلم الذي ظلمه؛ المسلم الذي يؤمن ويُحب ويتَّبع الرسول (صلى الله عليه وسلم)! قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2] (مُعَاهِدًا هو غير المسلم ممن عاهده المسلمين على السلام، فهو الذمي أو المستأمَن؛ انْتَقَصَهُ أي عابه). فالوضع شديد ودقيق.

فيجب أن أُدقق النظر في أفعالي ألا أظلم الناس ولو كان الشخص يكفر بالله، ولا ينبغي أن يلهيني تطلعي لتحصيل حقوقي على الناس عن حقوق الناس علي فأظلمهم أو لا أرُد إليهم حقوقهم بعد ظلمي لهم. وإياك يا أخي وظلم الناس، فإن ظُلم الناس مِن الظُلُمات يوم القيامة. أما إذا ظلمت الله (وهذا ما يصدر منا إما بالتقصير في طاعته وشُكره، وإما بالإقبال على ما نهانا عنه فانتهكنا الحدود التي وضعها لنا)، فلعله أقل عِبئًا من ظُلم الناس ما دام العبد لا يتهاون بالتقصير مع الله. هذا لأن التوبة تجعل الله يتجاوز عن تقصير العبد مع ربه، فرب العباد قد يعفو عن عبده يوم القيامة خاصة إن كان يُحسن مع الناس أو حتى الحيوان. ويتجلى ذلك في حديثٍ لرسول الله (صلى الله عليه

[1] مسند أحمد 15464.

[2] سنن أبي داود 3654.

وسلم) "غُفِرَ لِامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ، يَلْهَثُ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، فَنَزَعَتْ خُفَّهَا فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا فَنَزَعَتْ لَهُ مِنْ الْمَاءِ، فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ" (مُومِسَةٍ أي الزانية بأجر؛ رَكِيٍّ أي بئرٍ؛ فَنَزَعَتْ لَهُ مِنْ الْمَاءِ أي سحبت له من ماء البئر ثم سقته)[1]. هذا وأنه تعالى أرحم من جميع الناس معًا.

ولكن من الصعب أن تجد عبدًا يعفو عن عبدٍ يومئذٍ، فمن الذي يُفوّت حسنةً له في يوم شديد الأهوال مثل ذلك، خاصةً أن حسنةً واحدةً قد تفرق بين نجاته من النار وبين دخولها، لاسيما نيل جائزة الجنة؟ إذا كان كثير من المؤمنين يقتصون من بعضهم حتى بعدما يُدركون أنهم نجوا من النار، فما بالنا بمن لم يضمن نجاته من النار أن يترك حسنةً له عند ظالم؟! هذا كما دل حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) "يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا"[2] (المؤمنون المذكورون هنا هم الذين يعلم الله أن القصاص منهم لن يستنفد حسناتهم كلها، وإنما سيحدث تبديل في درجاتهم في الجنة؛ قَنْطَرَةٍ قيل إنها طرف الصراط الذي يلي الجنة، وقيل إنهما صراطان فهم عند الصراط الثاني المؤدي إلى الجنة؛ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ أي يعرف مكان منزله).

والاقتصاص بين المؤمنين يقع لأن الله يريد تحقيق العدل، ولينزع الغل الذي في صدور أصحاب الجنة لما أصابهم من المظالم. أما كثير من المؤمنين فيقبلوا حقوقهم لأن الحسنة ستفرق في درجاتهم في الجنة. ونستنتج أن عفو العبد عن المسلمين يومئذ يحتاج إلى ثقة مطلقة في الله وتوكلٍ تام عليه تعالى، مستندًا إلى إيمانه أن الله سيُكرمه على عفوه عن إخوانه بأفضل وأكثر مما لو اقتص منهم، ولن يستطيع فعل ذلك إلا القلة، من عندهم الإيمان الراسخ واليقين القوي والقلب الصافي. أما مأزق الظالم في الدنيا والآخرة فقد تكلم عنه أحد الحكماء قائلًا:

لا تظلمنَّ إذا ما كنتَ مقتدرًا

فالظلمُ آخرُه يأتيك بالندمِ

نامتْ عيونُك والمظلومُ منتبهٌ

يدعو عليك وعينُ اللهِ لم تنمِ[3]

---

[1] صحيح البخاري 3074.

[2] صحيح البخاري 6054.

[3] المستطرف للأبشيهي 117.

وعندما يرى المرء أعماله وهي أُحصيت له ومعروضة عليه في آنٍ واحد، يرى العلل في أعماله ما بين تقصير في تأدية حق النعم وعصيانه لله وظلم الناس. حينئذٍ يَتَّضِح للمرء مدى إخفاقه من جهة الكمّ والنوع، إذ إنه استهان بالكم وأساء تقدير مدى فساد بعض المعاصي. وكما قال تعالى {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} [الزمر 58]، فهذه الآية تنطبق على من كذَّب بالإسلام، ولكن قد تنطبق أيضًا على من صدَّق بالإسلام ولكنه أسرف في معصية الله.

عندما تتبدى سيئات المرء لنفسه يتبين له قدرها وآثارها، وعادة ما تكون أكثر مما كان يحسبه. ذلك لأن المعصية قد لا تقتصر على المرء، فقد تنتج عن معصيته مظلمة لأحد لم يكن يقصدها، أو لم يستوعب مدى فسادها، أو يراه أحد فيعمل مثل ما عمل من المعصية فيحمل وزر المُقلد أيضًا، مع أنه لم يأمره بفعلها ولم ينتفع من معصية المُقلد. قد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا؛ وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا"[1].

وجه آخر هو أن المعصية قد تُحسَب أضعافًا، مثل الذي يسرق فتُحسب عليه عشر سرقات! كيف؟ ذلك بأن يكون هناك جانب متعلق بالمعصية ولكن لم ينتبه إليه المرء، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ أَبْيَاتٍ أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ"[2].

فنصيحتي عندما يُقيِّم المرء معصيته التي ارتكبها أن يُعطيها أكثر مما يُقدرها، لأن غالبًا ما ستكون لها تبعات لا يَعِيها، فلا يتهاون المرء بالمعاصي لأن لها تَبعات تُحمَل يوم القيامة. هذا دون المستهزء بالإقلاع عن الذنب أو بالتوبة أو بالعذاب، فإن له حسابًا عند الله أشد مما يظنه.

ويكفينا زجرًا عن معصية الله أن نستحضر مثل هذا الموقف: أنت واقف أمام الله لتُحاسب على ذنب قبيح، فلم يُسجِّله الله عليك كتابة فحسب، بل شاء تعالى أن يُعرض عليك مثل مقطع مشهدي لتُسأل عن تفاصيل محددة، فترى نفسك كأنك بأعيُن غيرك. ترى نفسك وأنت تُهيئ نفسك والمكان للمعصية لحظة بلحظة، وأنت تعلم هدفك والمقصد من كل فعله تفعلها من ترتيباتك للمعصية، وتعلم ما الذي سترتكبه في أثناء العرض، تخاف وتستحيي من عرض لحظة الفعلة القبيحة التي ستعملها. تُشاهد والله بجانبك، ثم تُسأل عن شيء بعد الانتهاء، ليس عن المعصية نفسها، بل عن أمرٍ مثل: لماذا أغلقت الباب، أو واريت نفسك، أو تشاجرت مع فلانٍ حتى تُصرفه، أو فزعت عندما سمعت صوتًا... أسئلة حول المعصية ليست عن المعصية مباشرةً حتى... كيف سيكون حال أحدنا حينئذ؟

---

[1] صحيح مسلم 4831.

[2] مسند أحمد 22734.

وفي الكلام عن الحساب عامة، إنه ليُفيد المرء منا أن يُدرك ويتذكر الأسئلة التي سيُسألها من الله، وذلك حتى يُعِدُ لها بالأعمال، تمامًا مثل الطالب الذي يتمرن بالإجابة على الأسئلة الأكثر شيوعًا في الامتحانات الماضية. المبدأ العام يوم البعث هو أننا نُسأل عن أي شيء، وربما كل شيء أيضًا إذا شاء الله {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء 23]، فهو القوي القادر القاهر المُهيمن المسيطر علينا وعلى كل شيء. ولكن، بالرغم من أن الأسئلة عند المحاسبة قد يكون عددها مُهلكًا إذا شاء الله أن يسأل العبد في كل شيء، فإننا الآن سنُركز على نقاط تُسأل عنها بعينها تكون مِحورية. أول أسئلة نُسألها أمام الله ما قد جاء في حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ، وَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ"[1]، وذلك لعِظَم شأنها عند الله.

وسنُسأل عن نعم الله علينا كيف استقبلناها، فهل سخط المرء أم رضي بهن في الدنيا {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر 8]، وهل كنا نحمد الله على تلك النعم بعدما رضينا بهن؟ وبالطبع يتبع ذاك السؤال المساءلة عن كيف استخدمنا تلك النِعَم، وهذا ضمن الأسئلة الأساسية عن عمل المرء كما أشار حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ"[2].

وقال الله عز وجل {وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ (4) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (5) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ (7) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنْفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ} [الأعراف 4-9]. اللهم سلم سلم. كم من قرية أهلكها الله وهي على معصيته؟ وهذا ليس شيئًا جديدًا أن يُهلِك قومًا يستبعدون قهرهم، فقد حدث من قبل كثيرًا، والله لا يكترث لعددهم وما بلغوه من تطور لأنهم هانوا على الله بسبب عصيانهم له.

وما ذلك منا ببعيد، فهذا قد يحدث لنا إن أفرطنا في معصية الله وعدم تمكين شريعته في الأرض. فسيسألنا الله عن الرسالة التي جاء بها الرسول (صلى الله عليه وسلم)، هل بلّغ أم لا، والله يعلم بأنه قد بلّغ. فهذا سؤال تكليف وإقرار منا بالمسؤولية أن الرسالة قد بلغتنا، والتي أُضيّعها أنا بالمعاصي، فاللهم سلم سلم.

سنُسأل تبعًا عما عملنا فيها بعد أن بلغتنا، أي كيف استقبلنا الرسالة وبماذا أجبنا المرسلين {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [القصص 65]. وقد نبأنا تعالى {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ

---

[1] سنن النسائي 3926.

[2] سنن الترمذي 2340.

وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} [الزخرف 44]، والمعنى أن هذا القرآن الذي أُنزِل فيه شَرَفَكُم فتمسكوا به، وسوف تُسألون عن حقه من جهة تطبيق ما ذُكِر فيه؛ أي ما الذي فعلنا به؟ فهذا يوم الحق، والحق هو أن يدخل الجنة من كان مشغولًا بالأعمال الصالحة وإقامةً لهذا الدين، وأن يدخل النار من لم يعمل بالرسالة وكان عاصيًا لخالق الكون. فهنيئًا للحافظين على الرسالة، الملتزمين بها، وإني لأُقر أن هذا حقهم، وأني أستحق النار إن كنت ضيعتها... هذا هو العدل، وأسأل ربي أن يُعيننا ويرأف بنا.

وأسألكم سؤالًا أخيرًا متعلقًا بالحساب، كيف حالنا عندما نرى بأعيننا أن الحساب قد بدأ، وأول ثلاثة حوسبوا يحكم الله فيهم بالنار جميعًا. ذاك وأن هؤلاء الثلاثة ما بين رجلٌ قُتل وهو يُحارب مع المسلمين، ورجل تعلم القرآن، ورجلٌ أنفق ماله الغزير في مصارف الخير، قُضي فيهم أن تُسَعَّر النار بهم (أي تُستفتح جهنم بهم، قبل حتى فرعون وعاد وثمود وقوم لوط والمُشركين!)، لأنهم كانوا يُراءون بأعمالهم. قال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ ’جَرِيءٌ‘، فَقَدْ قِيلَ؛ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ ’عَالِمٌ‘ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ ’هُوَ قَارِئٌ‘، فَقَدْ قِيلَ؛ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ ’هُوَ جَوَادٌ‘، فَقَدْ قِيلَ؛ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ"[1].

ثم قبل أن يُستأنَف حساب المسلمين فإن الله يأمر أن يُخرَج بعث (أي نصيب) النار من الناس، وهو من كل ألف يكون هناك تسعمائة وتسعة وتسعون يُذهَب بهم إلى جهنم. فهل الوضع من بداية مُحاسبة المسلمين، أي من قبل أن أُحاسَب أنا شخصيًا وتُحاسَب أنت، يدعو للطمأنينة وللتفاؤل؟

<u>ثامنًا: وضع الميزان</u>. وضع الميزان يكون بعد الحساب، لأن الحساب لتقدير الأعمال، والميزان إظهار لمقاديرها مجتمعة ليكون الجزاء بحسبها، وذلك كما قاله القرطبي (رحمه الله). تجيء اللحظة الفارقة، وهي مقارنة أعمال المرء السيئة أمام الصالحة بدقة متناهية، وهذا يحتاج إلى ميزان مهول يستطيع استيعاب ثقل أوزان الأعمال البالغة في الإخلاص لله وثقل أوزان الأعمال البالغة في الفجور. هذا

---

[1] صحيح مسلم 3527.

الميزان المهول المهيب سيُبيّن المكان الذي يستحقه المرء: الجنة أم النار (أما الحكم النهائي على العبد، فهو لله مطلقًا).

قال تعالى عن الميزان {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء 47]. فالميزان يُقسِط (أي يعدل) في بيان إجمالي الأعمال، والله يُحْضِر كل عمل وإن كان غاية في الصغر (مثل الالتفات بالعين، أو الابتسام في وجه أخيك)، سواء كان لصالح العبد أم عليه لئلا يُظلم شيئًا. كل ذلك، وكفى بالله حسيبًا، فهو عالمٌ بجميع أعمالنا وغنيٌ عن الميزان في المقام الأول، فما بالنا بشدة وثقل ذلك الموقف؟

وكفى بيانًا لنا عن شدة ذاك الموقف حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) للسيدة عائشة (رضي الله عنها) عندما قالت: ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَمَّا فِي ثَلاثَةِ مَوَاطِنَ فَلا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا: عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَوْ يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِينَ يُقَالُ {هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ} حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ أَفِي يَمِينِهِ أَمْ فِي شِمَالِهِ أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ"[1]. والقول "حَتَّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَوْ يَثْقُلُ" معناه حتى يعلم العبد هل تخف الكافة التي فيها أعماله الصالحة فيستحق دخول النار، أم تثقل الكافة فيتأهل لدخول الجنة.

وهذا دل عليه قول الله {فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} [القيامة 6-8]. "فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ" إشارة إلى جهنم، إذ رمز إليها تعالى أنها أُمَّه التي يرجع ويلجأ إليها، وصفة هذه النار أن دخولها يكون بالسقوط العميق فيها. فموقف الميزان أحد الثلاث مواضع اللواتي يضيع عند المؤمن تفكيره في أي شيء غير حاله ونجاته، حتى حبيبته.

ولكن الواقع أنه لم يكفِ حديث واحد إلمامًا بشدة ذلك الموضع، فعمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى توضيح عِظَمِ الموقف لحَثّنا على الإعداد له، وذلك بخبرٍ آخر عن الميزان قائلًا "يُوضَعُ المِيزَانُ يومَ القيامةِ، فَلَوْ وُزِنَ فيهِ السَّمَاوَاتُ والأرضُ لَوَسَعَتْ، فَتقولُ الملائكةُ: يا رَبِّ لِمَنْ يزِنُ هذا؟ فيقولُ اللهُ تعالى: لِمَنْ شِئْتُ من خَلْقِي، فَتقولُ الملائكةُ: سبحانَكَ ما عَبَدْناكَ حقَّ عِبادَتِكَ"[2].

فليس هناك من كلام يُضاف عن عِظم موقف وضع الميزان بعد هذين الحديثين، فلنُعِد لذلك الموقف بأعمال ثقيلة في الميزان. وقد أرشدنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى أمثلة على تلك الأقوال والأفعال، فأفضل الأقوال وأثقلها: ذكر الله؛ فقد جاء في وصية سيدنا نوح لابنه "آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ ’لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ‘ فِي كِفَّةٍ،

[1] سنن أبي داود 4128.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني 941، جزء من الحديث.

رَجَحَتْ بِهِنَّ 'لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ'"[1]، وقال (صلى الله عليه وسلم) "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ"[2]. أما من أثقل الأفعال: حُسن الخلق كما نبأنا صلى الله عليه وسلم "مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ"[3]، والجهاد الذي لا نستطيع معادلته بعملٍ آخر بقوله صلى الله عليه وسلم "هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَفْتُرَ وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ؟"[4].

تاسعًا: عبور جسر جهنم. وما أدرانا ما الجسر؟! مواصفات الجسر الذي أنشأه الله فوق جهنم كلها صادمة ومُروِّعَة.

ويليق بهذا المقام أن أقول إن أول حقيقة ينبغي لنا مُلاحظتها عن الجسر قد يجهلها كثير من المسلمين، إن لم يكن أغلبهم. هذه الحقيقة هي أن الجسر الذي يُوضع فوق جهنم صُمِّمَ خِصوصًا لمن يشهد بلسانه أنه "لا إله إلا الله"! نعم، هو ليس للكافر، ولا للمشرك، بل وضعه الله لي ولك!

من يتعجب فليُدقق المرء وهو يقرأ هذا الحديث عندما سُئِل (صلى الله عليه وسلم): يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فقال "هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا؟" قُلْنَا: لَا؛ قَالَ "فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا"، ثم قال "يُنَادِي مُنَادٍ: لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ؛ فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ وَأَصْحَابُ الْأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ وَأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ وَغُبَّرَاتٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللَّهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ، لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ: اشْرَبُوا؛ فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ. ثُمَّ يُقَالُ لِلنَّصَارَى: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ، لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ: اشْرَبُوا؛ فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا يَحْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ؟ فَيَقُولُونَ: فَارَقْنَاهُمْ وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ الْيَوْمَ، وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي: لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا. فَيَأْتِيهِمْ الْجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا؟ فَلَا يُكَلِّمُهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ. فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ:

---

[1] مسند أحمد 6295.

[2] صحيح البخاري 6188.

[3] سنن أبي داود 4166.

[4] صحيح البخاري 2577.

السَّاقُ؛ فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ"، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْجَسْرُ؟ قَالَ "مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا 'السَّعْدَانُ'، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا، فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً فِي الْحَقِّ -قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ- مِنَ الْمُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ، وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا وَيَصُومُونَ مَعَنَا وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ؛ وَيُحَرِّمُ اللَّهُ صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا. ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ؛ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا. ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ؛ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا (قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَاقْرَءُوا {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا}). فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي؛ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتُحِشُوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ 'مَاءُ الْحَيَاةِ'، فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ، فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ. فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ اللُّؤْلُؤُ، فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمْ الْخَوَاتِيمُ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ، أَدْخَلَهُمْ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ"[1].

وشرحًا لبعض معاني الحديث: تُضَارُونَ أي يشتبه عليكم فتختلفوا فيه؛ صَحْوًا أي لا غيام في السماء؛ بَرٌّ هو الشخص المُخلِص؛ وَغُبَّرَاتٌ أي البقية، والمراد أي الذين يقولون إنهم من أهل الكتب السابقة؛ كَأَنَّهَا سَرَابٌ أي جهنم تُخيَّل لهم أنها ماء، فيذهبون ليشربوا فيقعوا فيها؛ فَارَقْنَاهُمْ وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ الْيَوْمَ أي فارقنا الكافرين والمشركين اليوم كما فارقناهم في الدنيا لاحتياجنا لله في الدنيا، واليوم نحن أشد حاجة إلى ربنا، فالمقصد هو أننا اليوم أدعى أن نُفارقهم؛ فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا أي عندما يريد أن يسجد يصبح ظهره صلبًا فلا يستطيع السجود؛ مَدْحَضَةٌ أي تنزلق مِن عليه الأقدام؛ مَزِلَّةٌ أي يُتساقط مِن عليه.

خَطَاطِيفُ هي حديدة مُعوجة لخطف شيءٍ بها؛ وَكَلَالِيبُ هي حديدة معوجة الرأس لتعليق اللحم عليها؛ وَحَسَكَةٌ هو الشوك الصلب القوي؛ مُفَلْطَحَةٌ أي لها عرض واتساع؛ عُقَيْفَاءُ أي المُعوجة بانعطاف، مثل سِنَّارة صيد الأسماك؛ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا 'السَّعْدَانُ' أي مكانٍ اسمه نجد، يكثر في نبات اسمه السعدان له شوكة عظيمة من كل الجوانب؛ كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ

[1] صحيح البخاري 6886.

هي أوصاف لسرعة مرور فئات من المسلمين على الجسر، كَالطَّرْفِ أي كلمحة البصر، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ أي كالخيل التي تجري بسرعة جيدة، وَالرِّكَابِ أي مثل ما يُركب من الدواب؛ وَمَكْدُوسٌ أي مدفوع ومطروح؛ فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً فِي الْحَقِّ -قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ- مِنْ الْمُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ أي ما من أحد أشد إلحاحًا، عند طلب بيان الحق له من الباطل أو طلب استقصاء حقه ممن اعتدى عليه، مِن إلحاح المؤمنين الناجين يومئذٍ في طلبهم من ربهم أن يُخرج إخوانهم من النار. امْتُحِشُوا أي احتراق الجلد إلى أن يظهر العظم؛ حَمِيلِ السَّيْلِ أي ما يحمله السيل من طين وما شابه.

فلننتبه لهذا الجزء من الحديث "ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ"، وكلمة 'ثُمَّ' تدل على الترتيب مع التراخي في الوقت، وقد جاءت هذه الجملة بعد ذكر أن كل الكفار والمشركين (وحتى اليهود والنصارى الذين أشركوا) يسقطون في النار، وبقي البَر والفاجر ممن أسلم. هذا يعني أن الجسر يوضع لمن كان ينتسب إلى عبادة الله وحده! وهناك مؤشرات في القرآن على أن الكفار لا يمرون على الصراط، إذ إنهم يؤمر بهم إلى النار مباشرةً بعد الحساب الثاني، مثل قوله تعالى {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ} [الحاقة 30-31]، وقوله تعالى {قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} [الزمر 72].

أما عن لماذا يكون هكذا هو الوضع مع الذين يعبدون الله وحده، فذلك لأن المقصد من الجسر هو أمران. الأول هو تمحيص المُسلم الحق عن المنافق، بحيث إن المنافق يقع مِن على الجسر لا محالة إلى جهنم بعدما يدخل هذه المرحلة مع زمرة المسلمين. فكما أظهر المنافق أنه من المسلمين فهو يُحشر معهم، حتى تأتي الشدة الفارقة فينفصل عنهم كما كان ينفصل عنهم في الدنيا عند الشدة، فالجزاء من جنس العمل. والمقصد الثاني هو تخليص للمسلم من ذنوبٍ له، فالجسر عليه أدوات عذاب كما ذُكِر، إضافةً إلى أن عبور الجسر في حد ذاته معاناة للمسلم، فتلك الابتلاءات تُكفِّر عنه ذنوبه. وهذا لا يعني أنه لا يقع مسلمٍ من الجسر، بل يقع المسلم الذي كثرت معاصيه، ثُم يُخرجه الله لاحقًا بعدما يمكث في النار ما شاء الله أن يمكث، كما دل الجزء الأخير من الحديث.

وفي القرآن ما يُشير إلى أن المسلمين يعبرون من خلال جهنم، وهو في قوله تعالى {وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا} [مريم 71-72]، أي ما منكم من أحد إلا سيَرِدُ جهنم، ثم يتم إنقاذ المتقين منها. قال بعض العلماء (منهم ابن عباس، رضي الله عنه) إن الورود هنا هو دخولها بالفعل ولكنها تكون بردًا وسلامًا على المؤمن، فلا يشعر بحرارتها ولا يسمع حسيسها. وقال آخرون إن ورود المسلم يكون بالعبور من فوقها على الجسر، فلا يزال يُعتبر أن المسلم قد وَرَدَها، وأما ورود المنافق والكافر والمشرك فهو يكون بدخول جهنم بالفعل.

ونقطة توضيحية جديرة بالذكر: أن أول من يجتاز الجسر هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأنه سيد الرُسُل، وتلحقه أُمَّتِه بما فيها من بَرٍ وفاجرٍ، ثُم كذلك مع سائر الأنبياء. فيجتاز سيدنا إبراهيم (عليه السلام) ومعه أُمَّتَه تلحقه وفيها مُنافقوها. أما من زعموا أنهم يتبعون الرُسُل ولكن كانوا يعبدون العزيز أو المسيح أو غير ذلك، فأولئك يُلقون في جهنم ولا يعبرون الجسر كما جاء في الحديث.

وجاء في جزءٍ من حديثٍ لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) واصفًا الجسر "وَلِجَهَنَّمَ جِسْرٌ أَدَقُّ مِنْ الشَّعْرِ وَأَحَدُّ مِنْ السَّيْفِ"[1] (أَدَقُّ أي أرفع من الشَعرَةِ؛ وَأَحَدُّ أي أَسَنُّ). فمن يرى الجسر فوق جهنم يطرأ عليه من أول وهلة أنه لن يجتازه أحد، وأن كل الناس سيقعون في جهنم. حتى الملائكة أنفسهم يتعجبون من الوضع كما دل حديث آخر "ويُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدِّ المُوسَى فَتقولُ الملائكةُ: مَنْ تُجِيزُ على هذا؟ فيقولُ: مَنْ شِئْتُ من خَلْقِي، فَيقولونَ: سبحانَكَ ما عَبَدْناكَ حقَّ عِبادَتِكَ"[2]، أي أن عبادتهم الدائمة له تعالى مع عدم معصيتهم له لا تفي نعمة أنه عفاهم من عبور جسر جهنم وحدها! فالجسر رفيعٌ حادٌ وفوق ذلك هو زلق، وذلك يعني أننا نكون أحوج ما نكون إلى عون الله في تلك اللحظة لأنه لا اجتياز لمن لا يُعينه الله، فهل تشعر أن صلتك بربك قوية بما تكفي حتى يُعينك؟

وجدير بالذكر أن مع دِقَّة الجسر وحِدَّته وزلقته، لا يعبر الناس عليه فردًا فردًا، بل يُدفعون عليه أفواجًا فيتدافعون، فما بالنا بالمنظر المهيب والوضع البائس؟! ودليل ذلك قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يُحْمَلُ النَّاسُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتَقَادَعُ بِهِمْ جَنَبَةُ الصِّرَاطِ تَقَادُعَ الْفَرَاشِ فِي النَّارِ، فَيُنْجِي اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ. ثُمَّ يُؤْذَنُ لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ أَنْ يَشْفَعُوا، فَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ، وَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ، وَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ (وَزَادَ عَفَّانُ مَرَّةً فَقَالَ أَيْضًا: وَيَشْفَعُونَ وَيُخْرِجُونَ) مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً مِنْ إِيمَانٍ"[3] (فَتَقَادَعُ أي يتساقطون فيها بعضهم فوق بعض).

وأعيد التذكير بأن كل هذا يحدث مع المنتسبين إلى شهادة التوحيد، فهُم الذين يمرون على الجسر، فما بالنا بما يُفعل بالمُشرك والكافر؟! ومن هؤلاء المنتسبين إلى شهادة التوحيد من هو منافق، الذي ينطفئ نوره عند لحظة عبوره للجسر، وتلك هي اللحظات التي يحدث فيها ما نبأنا تعالى به ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُواْ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُواْ وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُواْ نُورا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَاب (13) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم

---

[1] مسند أحمد 23649، ضعفه الأرناؤوط بهذا اللفظ.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني 941، جزء من الحديث.

[3] مسند أحمد 19544.

بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [الحديد 13-14]. فهؤلاء يُضرب بينهم وبين المؤمنين بصور يفصل بينهم، فينادونهم استغاثةً وطلبا للشفاعة، ولكن يكون ذلك هباءً.

ومن هؤلاء أيضًا مَن كان مسلمًا مُفسِدًا، فيَتَرَنَّح وتغرز في لحمه الخطاطيف والكلاليب والحسكة؛ منهم من يُنهش من لحمه ويُكمِل على الجسر، ومنهم من يدخل فيه الكلوب فيأخذه ويسحبه إلى جهنم، فيقع فيها بوجهه أولًا. ومنهم بالطبع (من المنزلة الأدنى إلى الأعلى) المسلم الصالح، ثم المؤمن، ثم المحسن، وهؤلاء هم الذين يجتازون الجسر بدرجات متفاوتة. ومن النماذج التي تحدث آنذاك هو حال بعض المسلمين العصاة، إذ عملهم الصالح قد مُزِجَ بأعمالٍ فاسدة، فيمشون على جسر جهنم بنور في طرف إصبع القدم، تارة ينطفئ، وتارة يأتي. فعندما يأتي، يمشون؛ وعندما ينطفئ، يقفون وينتظرون رجوعه مخافة أن ينزلقوا في جهنم.

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، في جزء من حديث له، حول أحداث يوم القيامة "ثمَّ يُؤمَرونَ فيرفَعونَ رؤوسَهُم، فيُعطَونَ نورَهُم على قدرِ أعمالِهِم، فَمِنْهُم مَن يُعطَى نورَهُ مثلَ الجبلِ بينَ يديهِ، وَمِنْهُم مَن يُعطَى نورَهُ دونَ ذلِكَ، وَمِنْهُم مَن يعُطىَ نورَهُ مثلَ النَّخلةِ بيمينِهِ، وَمِنْهُم مَن يُعطَى دونَ ذلِكَ، حتَّى يَكونَ آخرُ ذلِكَ يُعطَى نورَهُ على إبهامِ قدمِهِ، يُضيءُ مرَّةً، ويُطفئُ مرَّةً، فإذا أضاءَ قدَّمَ قدمَهُ، وإذا طفئَ قامَ، فيمرُّونَ على الصِّراطِ، والصِّراطُ كَحدِّ السَّيفِ دَحضٌ مزلَّةٌ، فَيقالُ: انجوا على قدرِ نورِكُم. فَمِنْهُم من يمرُّ كانقِضاضِ الكَوكَبِ، وَمِنْهُم من يمرُّ كالطَّرفِ، وَمِنْهُم من يمرُّ كالرِّيحِ، وَمِنْهُم من يمرُّ كشدِّ الرَّحلِ، ويرمُلُ رملًا، فيمرُّونَ على قَدرِ أعمالِهِم، حتَّى يمرَّ الَّذي نورُهُ على إبهامِ قدمِهِ يجرُّ يدًا ويُعلِّقُ يدًا، ويجرُّ رجلًا ويُعلِّقُ رجلًا، فتُصيبُ جوانبَهُ النَّارُ؛ فيخلُصونَ، فإذا خلُصوا قالوا: الحمدُ للَّهِ الَّذي نجَّانا مِنكَ بعدَ إذ رأيناكَ، فقَد أعطانا اللَّهُ ما لم يُعطِ أحدًا"[1] (كانقِضاضِ الكَوكَبِ أي سقوط الكوكب، أو النجم الذي يُرمى به الشيطان -الشهب-؛ كشدِّ الرَّحلِ أي الذي يركب دابة؛ ويرمُلُ رملًا أي الذي يمشي سريعًا).

"وإذا طفئَ قامَ" أي إذا ذهب النور ظل ثابتًا فلا يتقدم، يمكث فوق جهنم بالرغم من فظاعتها وسخونتها حتى يرجع النور، وذلك من رُعبه أن يقع فيها، فلكم أن تتخيلوا مدى المعاناة والعذاب الذي يخوضه مثل ذلك المرء. ومن المسلمين من يصل إلى مرحلة أنه يُسحَب على الصراط سحبًا كي يعبر، وهو مؤشر على طول مكوثه وشدة عنائه، يتعلق فوق جهنم على الجسر. فتلك بعض الأمثلة على كيفية استخراج الله لحقه من المسلم (إن أراد الله أن يفعل ذلك بدلًا من العفو) الذي اعتمد على أنه سينجو من جهنم بالرغم من معاصيه، قد سلَّم لتلك الفكرة على أساس أنه يؤمن بأنه لا إله إلا الله فتهاون في ارتكاب بعض المعاصي، فيُعاقَب على غروره. فلربما يدخل الجنة في نهاية المطاف، ولكن بأي ثمنٍ؟! فلا يزال قد دفع ضريبة معصيته لله.

---

[1] المستدرك للحاكم 812/5.

في التوقيت الذي يخوض الناس الجسر، يتم انهيار السماوات والأرض واستبدالهما، كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما سأله يهودي: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} فَقَالَ "هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ"[1]. وفي رواية أخرى عندما سُئل عن الآية {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}: فَأَيْنَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ "عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ"[2].

وهناك ملحوظة، بينما الرسول (صلى الله عليه وسلم) يخطب مرة على المِنبَر، قال أيضًا في الآية {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} وهو يُحرك يده، يُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ "يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ"، فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا لَيَخِرَّنَّ بِهِ[3]. فمن المحتمَل أن يكون الناس يعبرون الجسر وذلك يحدث، أي أن النار والجسر وكل وما عليها يتحرك ذهابًا ورجوعًا، بينما يسمع الناس صوت الله المُرهب وهو غضبانٌ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ؛ والله أعلم.

ويكفينا فزعًا من ذلك المشهد المهيب جملة قالها الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حديثٍ له، يتبين لنا فيها كم يكون الموقف عصيبًا ومُنَظَّمًا ودقيقًا بقوله "فَيَدْعُوهُمْ فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنْ الرُّسُلِ بِأُمَّتِهِ، وَلا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلا الرُّسُلُ، وَكَلامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ"[4]. وفي جزء من رواية أخرى جاء "تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ؛ حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ"[5]. فما الذي يحدث في ذلك اليوم حتى لا يتكلم أحدٌ من الناس إلا الرُسُل، يقفون عاجزين عن تقديم أي مساعدة لأتباعهم إلا بأن يدعو الله بالسلامة لهم؟!؟! يبدو أني في غفلة...

فحقيقة الوضع هو أن الجسر أرفع من الشعرة، وهو أَسَنُّ من السيف، وهو زَلِق، وهو طويل إذ يقطع مساحة جهنم التي مساحتها تحتاج سبعون ألف زِمام لسحبها، والظلام دامس إذ إن جهنم سوداء، والنور على قدر عمل المرء. ثُم يُضاف إلى ذلك أن المرء يحمل من سيئاته على ظهره فتُثقله وهو يعبر، والمرء يُحاول أن يُركِّز في أثناء اجتيازه ولكن الناس يتدافعون حوله، مع سماع شهيق وزفير جهنم، وسماع صريخ وعويل كثير من الناس ما بين من تنهشه الكلاليب وبين من يتساقط في

---

[1] صحيح مسلم 473، جزء من الحديث.

[2] سنن الترمذي 3164.

[3] مسند أحمد 5157.

[4] صحيح البخاري 764، جزء من الحديث.

[5] صحيح مسلم 288.

جهنم بوجهه إلى الأسفل بعد أن انزلق أو نُزِعَ مِن على الجسر. وربما كل ذلك وجهنم تتحرك بيَدِ الله ويسمع الناسُ صوت الله وهو يُمَجِّد نفسه... فحقًّا، من الذي يُجيزه الله عبر هذا الجسر؟!

إذًا، حتى إن نجى المرء من كل هذا ودخل الجنة، فما زال سيخلد في ذاكرته موقف الجسر وما عاناه في عبوره. سيزال يتذكر منظر النار، وأفواج الناس المتدافعة والمتساقطة، والخطاطيف والكلاليب. سيظل متعلقًا في أُذنيه صوت تغيُّظ جهنم، والصراخ الرهيب للناس الذين تغرز في أجسادهم الكلاليب والذين يسقطون. سيظل متعلقًا في أنفه رائحة النار، وجلود الناس المحترقة، وهبو عصارة أهل النار. وسيزال متعلقًا في ذهنه شعوره بحر جهنم، وما ناله على الجسر من أذى، والشعور الكريه ما قبل عبور الجسر أنه عليه عبور الجسر بعدما رأى المنظر المهيب من صعوبة اجتيازه وكثرة الذين يسقطون من عليه.

فلا عَجَب أن مِنَ الصحابة (رضي الله عنهم)، حتى مِن الذين بُشِّروا بالجنة، مَن لا يرغب في أن يُبعث بعد موته ليُجازى على أعماله، بالرغم مما قدَّموه لله ولرسوله (صلى الله عليه وسلم) وللإسلام وللأمة الإسلامية من أعمالٍ عظيمة لا نستطيع نحن تقديم مثلها. فهُم ما بين من ود أنه شجرة تُؤكل، أو كان طائرًا ليس عليه تكليف، أو لم تلده أمه، أو كان نسيًا منسيًّا، أو يصير رمادًا قبل أن يُقضى فيه في الآخرة؛ المُهم عنده ألا يخوض الآخرة. لا مانع عندهم أن يتخلوا عن مكافأة كل ما قدَّموه من عمل صالح مقابل أن يُعفَوا من خوض مثل تلك المواضع العصيبة، الجسر. ولكن، أنى لهم أو لأحدٍ منا ذلك، فقد قضى الله علينا أن نسير عليه، وكان أمر الله مفعولًا، فليس لنا خيرة ولا حيلة.

ويليق ختامًا لهذا الفصل، بعد كل ما تقدم ذكره عن مدى صعوبة اجتياز جسر جهنم، أن أضيف أن الله قد يُعمي أناسًا قبل عبورهم ذلك الصراط! قد سبق وتكلمنا عن هذه الآية {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَىٰ (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ} [طه 124-126]، وكيف أنها قد تحدث مع من أسرف في المعاصي ممن انتسب للإسلام. وهناك آية تشير إلى حدوث ذلك مع بعض المنتسبين للإسلام، فقد ذكر القرطبي أن الآية {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ} [يس 66] لها وجهٌ آخر من التفسير، أنها عن يوم القيامة بينما هؤلاء يبتدرون الصراط فوق جهنم ليعبروه.

فتخيل أخي، أن هناك أناسًا تُسلب منهم أبصارهم، في وقت يكون المرء فيه في أمَسّ الحاجة إلى كل حاسة من حواسه، ليتفادى أن تكون خطوته التالية تهوي به في نار جهنم. حقًّا، أنَّى يُبصِرون الصراط، وأنَّىَ يجتازون الصراط وهم على ذلك الحال؟ أنَّىَ ينجون من الوقوع في النار؟!

عاشرًا: فالنار. أبدأ مرحلة استيعابنا لجهنم بذكر سؤال سأله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لسيدنا جبريل (عليه السلام)، قائلًا "مَا لِي لَمْ أَرَ مِيكَائِيلَ ضَاحِكًا قَطُّ؟ قَالَ: مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتْ النَّارُ"[1]؛ فكفى بهذا توعيةً وتحذيرًا لنا. نُحاول استيعاب مدى سوء جهنم ونستحضرها في القلب لأن هذا يزجر عن عصيان الله، فيُروى عن الحسن البصري (رحمه الله) أنه قال: مَا أَيْقَنَ عَبْدٌ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَقَّ يَقِينِهِمَا إلا خَشَعَ وَوَجِلَ، وَذَلَّ وَاسْتَقَامَ، وَاقْتَصَرَ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ[2].

مبدئيًّا يجب أن نُدرك أن لويحظة تُقضى في جهنم لا يكافئها كل متاع الدنيا، وذلك كما جاء في جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ، هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا وَاللَّهِ يَا رَبِّ"[3]. وكي نستوعب حقيقة هذا يجب استيعاب من الذي يُنبئنا بذلك، وهو الرسول (صلى الله عليه وسلم) بوحيٍ من الله. أي أن هذا الكلام من الله، الله الذي شهادته فوق كل الشهادات وهي الشهادة الحق والدقيقة، وينبغي أن تكفينا شهادته وحدها (بل وتزيد فتكون فيَّاضة في الضمان لنا) {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت 53]. فاعلم أخي أن الله يشهد أنك وإن بلغت من متاع الدنيا ما لم يبلغه أحد، فإنه لا يُجزي عن صبغة في النار.

وقول الله تعالى عن النار {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ} [ق 30] فيه ما يرتعد منه الفؤاد. ففي الآية دلالة على أن جهنم ستمتلئ، والسؤال التابع تلقائيا هو ما أبعاد جهنم وما صفاتها؟ أولًا عن مساحتها، وهذا يتبين من حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا"[4] (زِمَامٍ أي مَمْسَك)، فهذا يشير إلى ساحتها. أما عُمقها، فيشار إليه في الحديث المروي عن سيدنا أبو هريرة (رضي الله عنه) قائلًا: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "تَدْرُونَ مَا هَذَا؟"، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ "هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا"[5] (الوجبة أي السقطة)، فيشير الحديث إلى أن الحجر يحتاج إلى سبعين عاما مُنذ إلقائه كي يصل إلى قعر جهنم.

وبعد أن تخيلنا أبعادها فيجب أن نستيقن أنها ستُملأ بعدما كانت تطلب المزيد، وذلك ما نبأنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "لا تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ {هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا

---

[1] مسند أحمد 12864، ، ضعفه الأرناؤوط ولكن حسنه الألباني.

[2] اليقين لابن أبي الدنيا، من حكم لقمان الحكيم 16/1.

[3] صحيح مسلم 5021.

[4] صحيح مسلم 5076.

[5] صحيح مسلم 5078.

قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطْ، قَطْ وَعِزَّتِكَ! وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ"[1] (قَطْ أي يكفي؛ ويُزوى أي يُجمع ويُضم)! فما بالي قد علمت أنها تُملأ وأعمل في الدنيا كأني ناجٍ، فما احتمالية حدوث ذلك من الناحية الحسابية؟

إن نسبة الناجين قد جاءت في حديثٍ قدسيٍ للرسول (صلى الله عليه وسلم) "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ {وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}"، قَالُوا (الصحابة، رضي الله عنهم): يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟! قَالَ "أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ"، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ "أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ"، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ "أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ"، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ "مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إلا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ"[2].

إني لأُسوّل لنفسي أحيانًا أني ناجٍ بالرغم من أني أعصي رب النار، وأن معاصيّ ستغفر بإذن الله بالرغم من أني شخصيًّا لم آخذ من الله عهدًا على ذلك، وإن حدث أني دخلت النار فسيكون ذلك مؤقتًا حتى أكفّر عن سيئاتي ثم أدخل الجنة، وهذا هو صميم التمني والجرأة على الله. فلنُسّلم أن كلامي هذا مضمونٌ جدلًا، فلماذا لا أضع يدي فوق نار مُشعلة لمدة عشر ثوانٍ، بل خمس ثوانٍ إن كنت أرى أن المكوث في جهنم للحظات مقبولة؟ ولكنه الكذب على النفس وخداعها وإيهامها، أن الإنسان يرى أنه سيتحمل الفترة 'الوجيزة' في جهنم التي نارها سوداء من شدة نضجها، والتي هي أشد من نار الدنيا التي نعرفها بأضعاف.

قد جاء هذا في الأحاديث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ"[3]. وقال (صلى الله عليه وسلم) في حديث آخر "نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ"، قَالُوا: وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ "فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا"[4].

هذه النار قد بلغت ما بلغ من الاشتعال والصهر إلى حد أنها تأخذ طاقةً من حَرقِ الحَجَر! قال تعالى {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}

---

[1] صحيح البخاري 6168.

[2] صحيح البخاري 3099.

[3] سنن الترمذي 2516.

[4] صحيح البخاري 3025.

[البقرة 24]. وفي أثناء أكلها للناس والحجارة يخرج منها شررة من حَمَيانها (وهي القطعة الملتهبة المضيئة التي تتطاير من نار)، ولكن شرارتها ليست كشرارة نار الدنيا، فقد قال عنها تعالى {إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ} [المرسلات 32-33]. ومعنى "كَالْقَصْرِ" أي في حجم القصر، وهو الحصن، وقيل إنه جذع الشجر العظام؛ وكلمة "جِمَالَتٌ صُفْرٌ" هو وصف للون تلك الشررة، سوداء يشوبها الصَفَارُ، وقيل إنه فيه وصف لكثرتها وتزاحمها مثل حبال السُفُن عندما تُجمع. فإن كانت تلك هي مواصفات الشرر المنبعثة من النار، فما بالنا بالنار نفسها؟

فإن كنت لا أستطيع أن أتحمل لحظة من نار الدنيا على يدي، فكيف أتحمل نار جهنم على جسدي كله ولو لكسرٍ من اللحظة؟ هذا وإني أُسَوِّلُ لنفسي أني سأتعامل أن أمكث فيها أيامًا أو حتى ساعات، قد استعظمت عملي واستصغرت معصيتي وقَصَّرت مدة عقوبتي في جهنم وتهاونت بعذابها! فقولوا لي أين العقل؟ هذا وقد خلق الله النار بحيث إن الساكن فيها يذوق حرها بشتى الطُرُق، فقد قال تعالى {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (43) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ} [الواقعة 41-44]، فالسموم هو الريح الحار، ويحموم هو الظل الناتج عن دخان جهنم. قيل حول هذه الآيات: تضمنت ذكر ما يُتبرد به في الدنيا من الكرب والحر، وهو ثلاثة: الماء، والهواء، والظل. فهواء جهنم: السموم وهو الريح الحارة الشديدة الحر [والتي تدخل مسام البدن]، وماؤها: الحميم الذي قد اشتد حره، وظلها: اليحموم وهو قطع دخانها، أجارنا الله من ذلك كله بكرمه ومَنّه[1].

ومع هذه الدرجة من الحر وتنوع مصادره، فإن المرء يجب أن يُدرك ما ختام كل هذا، وهو ما قاله تعالى {إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ} [الهمزة 9]، أي أن النار مُغلقة عليهم بإحكام. فتخيل أخي، لا يدخل فيها ضوء ولا هواء؛ الصهد التي ينتج منها يتم كتمه بداخلها، والروائح التي تنتج فيها من الحرق ومن عصارة أهل النار يتم حبسها مع أهلها، فما بالنا بالنفحة منها إذا فُتح بابٌ من أبوابها؟! ولعل أن هذا الإغلاق مُحكم لدرجة أن الهواء لا يخرج منها، فيعلو ضغط هواء السموم في جهنم ويشعر أهلها بارتفاع الضغط وما يتبعه من عذاب، وتظل ترتفع الحرارة. وبذلك تتخلل الحرارة الحجر حتى، شبيهًا بطهي الطعام بالضغط الحراري في وعاء مُغلق بغطاء مُحكَم. والداهية أن هناك أناسًا بداخلها محبوسين مع حالها ذلك، فاللهم أجرنا من النار؛ اللهم سلّم سلّم.

أما عن بعض أحوال من في النار جاء {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا} [الفرقان 12-14]. هذا وصف لجهنم وحال الذين يلقون فيها ممن كذّب بالساعة، وتلك من أهوال يوم القيامة التي سنراها، ولندعو الله أن ينجينا منها لئلا نكون ممن يصيبهم الأهوال.

---

[1] التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار لأبي الفرج رجب الحنبلي 114.

ولكن وجب علينا الأخذ بالأسباب، فالعاصي لربه كثيرًا يعاقب بدخول نفس جهنم التي وصفها الله في هذه الآيات، فهي جهنم واحدةً مع تفاوت الدركات وأصناف العذاب. يُحشر مع أولئك الذين يُذلهم الله ويقول لهم تقريعًا أن يدعو ثبورًا كثيرًا، وأنى تنفع تلك الدعوات التحسيرية والاستغاثات لأنفسهم.

وكذلك حال العاصي، فربما أصابه مثلهم لأن الله أرسل رسلًا كثيرةً، وأرسل كتبًا، وأرانا من آياته، كل ذلك وهو ينادينا أن نعبده ولا نعصيه، فمن تجاهل ذلك وجب له الجزاء من جنس العمل بأن ينادي ربه للنجاة ولا يستجيب له ربه، فيترك الله دعواته تذهب هباءً. فأي خسارة بعد تلك؟ ومن المؤكد أن من أصر على معصية الله ويرى أنه سينجو أيضًا بسبب أنه يشهد أنه لا إله إلا الله، أو أنه يُحَدِّث نفسه أنه سيتوب عندما يكبر في العمر، قد استهان بأُسس الحساب الذي وضعها الله، وتطاول على حدود الله وافترى على الله عهدًا لم يعاهده.

ذلك لأن ظنه هذا يعني أن هناك خللًا أو ثغرة أو مسلك للتحايل على نظام الحساب الذي وضعه الله، وتعالى الله أن يكون هناك ثغرة في نظام قد وضعه هو. يجب أن يستيقن المرء أنه إذا أراد الله أن يُخرج منه أو مني مثقال ذرةٍ من حبةٍ أو أصغر من حقه علينا فلن يعجز عن ذلك، ولو كان مصيرنا الجنة! ومن الأدلة على ذلك الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلا فِضَّةٍ لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إلا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ"[1]، أي أن ذلك يحدث من قبل الحساب، فالصفائح تُسَخَّن في جهنم وتُخرج ليُكوَى بها. فهذا يدل على أن ذاك العبد، بالرغم من أنه عُذب بذلك العذاب الشنيع يوم القيامة، فإنه قد يكون من أصحاب الجنة في الأصل!

وقد جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآيات عن ابن عباس (رضي الله عنه): وإنَّ الرَّجلَ ليُجَرُّ إلى النَّارِ فتَشْهَقُ إليهِ النَّارُ شُهوقَ البَغلةِ إلى الشَّعيرِ، وتَزْفَرُ زفْرَةً لا يبقَى أحدٌ إلا خافَ (انتهى). فهذا يقص علينا ما سيحدث لبعض عباد الله، فيتبين لنا أن بعضهم يُجر إلى النار حتى يسمع ويرى من جهنم ما يرتعد منه فؤاده، ويقترب منها ما شاء الله له أن يقترب منها حتى يشعر من شدتها ما يشعر.

حينئذ يدرك العبد أنه سيدخلها لا محالة، ولا مُنَجِّ منها إلا الله، فإن شاء الله دفعه إلى جهنم وإن شاء أن يُنهي ذلك ويعفو صرف العبد إلى الجنة. وهذا الموقف هو عرض العبد على جهنم، إذا قل لي يا أخي، ما مدى أهمية المعاصي لنا التي تُكلف المرء أن يُوضع في هذا الموقف الرهيب المُشيب، حتى إن العبد قد يبلغ من الرعب ما يجعل الله أن يعفو عنه لأن هذا الموقف كفَّر عن العبد

---

[1] صحيح مسلم 1647، جزء من الحديث.

سيئاته؟! هذا كله دون النظر إلى أنواع أخرى من العذاب مثل القبر والحساب والعبور على الجسر فوق جهنم وما غير ذلك، ما زال العبد قد يدخل الجنة إن أراد الله أن يمكر بالعبد قبل أن يُدخله الجنة كما مكر العبد بنظام الله في الحساب، فأنّى أتعظ؟!

وجهنم، مما قد يُفاجئ البعض، مخلوقٌ حي. فجهنم تتنفس، لها شهيق وزفير؛ فالشهيق هو أخذ النفس والزفير هو إخراجه، ولكن صوت زفير وشهيق نار جهنم يكون عميقًا وعاليًا فترتعد منهما الأفئدة ويندى منهما الجبين، وكأنها تتوعد المرء. قال تعالى {إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ} [الملك 7]؛ {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا} [الفرقان 12].

قال سيدنا كعب الأحبار (رضي الله عنه) عن زفير جهنم: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَنَزَلَتِ الْمَلائِكَةُ وَصَارَتْ صُفُوفٌ، فَيَقُولُ: يَا جِبْرَائِيلُ ائْتِنِي بِجَهَنَّمَ؛ فَيَأْتِي بِهَا جِبْرِيلُ فتُقَادُ بِسَبْعِينَ أَلْفِ زِمَامٍ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ مِنَ الْخَلائِقِ عَلَى قَدْرِ مِئَةِ عَامٍ زَفَرَتْ زَفْرَةً طَارَتْ لَهَا أَفْئِدَةُ الْخَلائِقِ، ثُمَّ زَفَرَتْ ثَانِيَةً فَلا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلا جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ تَزْفَرُ الثَّالِثَةَ فَتَبْلُغُ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَذْهَبُ الْعُقُولُ، فَيَفْزَعُ كُلُّ امْرِئٍ إِلَى عَمَلِهِ حَتَّى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ يَقُولُ: بِخُلَّتِي لا أَسْأَلُكَ إِلا نَفْسِي، وَيَقُولُ مُوسَى: بِمُنَاجَاتِي لا أَسْأَلُكَ إِلا نَفْسِي، وَإِنَّ عِيسَى لَيَقُولُ: بِمَا أَكْرَمْتَنِي لا أَسْأَلُكَ إِلا نَفْسِي، لا أَسْأَلُكَ مَرْيَمَ الَّتِي وَلَدَتْنِي[1].

ولها مشاعر وطباع، كما دل حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "اشْتَكَتْ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا؛ فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ؛ فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الْحَرِّ وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الزَّمْهَرِيرِ"[2] (الزَّمْهَرِيرِ هو شدة البرودة)، أي أن أشد يومٍ حرارةٍ في صيف الأرض وأشد يومٍ برودة في شتاء الأرض يكون بسبب نَفَسَيّ نار الآخرة. وفي وجزء من حديث آخر "تَحَاجَّتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتْ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتْ الْجَنَّةُ: مَا لِي لا يَدْخُلُنِي إِلا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟!"[3]. فهي تغضب، كما قال تعالى {تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ} [الملك 7-8]. "تَمَيَّزُ" أي تتفرق وتتقطع، فتكاد جهنم أن ينفصل بعضها عن بعض من الغضب (غيظا) عندما ترى الكفار والمشركين والعصاة، وذلك محاولةً للوصول إليهم لالتهامهم وحرصًا على تعذيبهم انتقامًا لله.

---

[1] تلبيس إبليس لابن الجوزي 171.

[2] صحيح البخاري 3020.

[3] صحيح البخاري 4472.

فجهنم ترى، وتسمع، وتتكلم! قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "تَخْرُجُ عُنُقٌ مِنْ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهَا عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ، وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ يَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَبِالْمُصَوِّرِينَ"[1]. لك أن تتخيل الوضع أيها القارئ.

فحال أهل النار يكون مُفطرًا للقلب، ولكنهم نالوه بأعمالهم، ومن بعض نماذج استغاثهم ما جاء في قول الله {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ} [الزمر 10 –11]. هذا قول الذين كفروا يوم القيامة، إذ أدركوا أن الآخرة والحساب والجزاء حق، فما كان قولهم إلا طلبًا للرحمة من الله وللنجاة بعد أن باعوا الآخرة بالدنيا عن إختيار، وحالهم يرثى له يومئذ. وإذ دلت الآية على مدى عذاب وبؤس هؤلاء خاصة، لكن لا يعني ذلك أن العصاة (وإن مكثوا لحظة في جهنم أو فقط أُدنوا منها) يستطيعون الصبر على ذلك لأنهم على علمٍ أنهم سيخرجون بشهادة "لا إله إلا الله"، إذ إنهم لا يعرفون متى سيُخرَجون.

والمنطق الحكيم يقول إن الماكث في جهنم (ولو للحظة) لا يصبر، وغالبًا ما سينادي كما ينادي هؤلاء، إذ إن الإنسان يفعل أي شيء في الشدائد عندما يكون قد غُلب على أمره. ومما يكاد يكون جميع الناس قد أدركوه هو أن الوقت شيءٌ نسبي، إذ إن المرء في وقت المتعة يشعر كأنه مر سريعا، وأما في وقت العناء فإنه يبدو كأنه أمد طويل. ولنقيس على ذلك المبدأ اللحظة التي يقضيها الإنسان في جهنم، كيف يرى طول مكثه فيها إن سُئل؟ فما الداعي أن أُنادي مثل ما ينادي هؤلاء مع أني أشهد أن لا إله إلا الله، قد قادتني معصية الله إلى مثل حال المشركين؟ وما الذي يُجبرني أن أتساوى مع المشرك في النداء من جهنم؟!

ومن أحوال أهل جهنم أنهم يقولون {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ} [غافر 49]. هذا هو واقع عذاب الله، أنه من شدة العذاب يدعو الذي يأس مِن أن يُخرَج من النار بأن يُخفِّف الله عنه العذاب ولو ليومٍ واحد، ولكن أنَّى يُستجاب له ذلك حتى. وليس ذلك فحسب، بل يُضاف على عذابهم بعد تَوسُّلِهم بأن يتم توبيخهم وتحسيرهم كما دلت الآية التالية {قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [غافر 50]. وبالنسبة إلينا، فإننا نتناسى ما بيَّنَه الرُسُل لنا، أن من يعمل سوءًا يُجزى بجهنم، وإنه لشيءٌ مريع مجرد الاقتراب من جهنم. من يجد نفسه يُهوّن من الآخرة فليضع يده فوق النار فقط لعدة ثوانٍ ليفيق إلى ما نتكلم عنها، مع العلم أنها لم تصل نار الدنيا (في أي مكان في الأرض) إلى مرحلة أنها أصبحت سوداء مثل جهنم.

---

[1] سنن الترمذي 2497.

وقد يُجادل مجادلٌ قائلًا: لماذا أجبر نفسي أن أضع يدي في نار الدنيا وفيه تشويه للجسد عمدًا، ولكن نار الآخرة لا يحدث بها تشويه دائم لأن الجسد يعود إلى ما كان عليه؛ ثم إن نار الآخرة تكون إجبارية لمن كُتبت عليه فيكون الصبر عليها أسهل إذ إن المرء يعلم أنه مُجبر على ذلك، فيتعايش ويصبر تقبلًا للوضع. وللرد على ذلك الكلام: بل أنت لماذا تُجبر نفسك عمدًا على عذاب النار في الآخرة بتفريطك في عملك وقد قال الله {مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء 147]. وأما التشويه للجسد سواء في الدنيا أم الآخرة، فإنه قد يذهب ولكن ماذا عن التشويه النفسي الذي ليس له مثيل لمن يدخل جهنم؟

يُضاف إلى هذا أن تكرار العذاب يكون أفظع من التشويه نفسه، فكم من سقيم يطلب في النهاية قطع يده أو رجله ليرتاح من إلحاح الألم منها. وأما في جهنم فأهلها يطلبون أن يُقضى عليهم نهائيًّا، إذ إن وضعهم كما وصفه الرسول (صلى الله عليه وسلم) "أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ"[1]! فوق هذا فإن تشويه الجسد ليس من هموم المُعذَّبين إذ إن العذاب يطغى على اهتمامهم بهذا، بل يتمنون ألا تتعافى أجسادهم حتى لا يشعروا بألم الحريق، ولكن الله يُعافي أبدانهم ليشعروا بالعذاب تكرارا {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء 56].

ثم إن كون وجود المرء في جهنم جبرًا لا يُهوّن من عذابها ويجعله صبورًا عليها، لأن الله يُقهر مَن في النار بالتوبيخ والتقريع والتحسير، فيزداد العذاب المعنوي. يقول لهم الله {اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور 16]. فالحقيقة هي أنه لن يستطيع الصبر فيها.

وإن مكث المرء في الحُطمة للويّحظة، فإن الحُطمة في جهنم تأكل المرء كاملًا إلى فؤاده حتى يتلاشى، ثم يعود كما كان لتُعاد عليه الكرّة {كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ} [الهمزة 4-7]. وقال بعض السلف عن الدركة التي اسمُها 'سقر' في جهنم {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ} [المدثر 26-29] أي أنها تأكل العظم واللحم والمخ ولا تذره على ذلك. فلا تزال تلك الذكرى تُطارد الذي دخل النار، ذكرى شدة عذاب جهنم وما فُعِل فيه، إن دخل الجنة.

ويكفينا ما قاله الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما بيّن العذاب الواقع من النار وتأثيرها على الجسد، فقد قال "إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِ الْمِرْجَلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا"[2] (وَشِرَاكَانِ هو من سيور

[1] صحيح مسلم 271، جزء من الحديث.

[2] صحيح مسلم 314.

النعل؛ الْمِرْجَلُ هو القِدر الذي يُطهى فيه الحساء وغيره). والحميم، وهو الماء الذي بلغ منتهى الحرارة، عندما يُصَبُّ على الرؤوس يحدث ما نبأنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الْحَمِيمَ لَيُصَبُّ عَلَى رُءُوسِهِمْ، فَيَنْفُذُ الْجُمْجُمَةَ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ، فَيَسْلُتَ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَمْرُقَ مِنْ قَدَمَيْهِ"[1] (يَخْلُصَ أي يصل؛ فَيَسْلُتَ أي فيُقطِّع؛ يَمْرُقَ أي يخرج).

فاللهم إنا نستعيذ بك من عذاب جهنم ولو من لحظة فيها، ونعوذ بك من بؤس الاقتراب منها حتى. اللهم اغفر لنا، فليس لنا إله غيرك نرجوه ونتضرع إليه، ولا يحصي ويغفر الذنوب إلا أنت، وما نحن إلا عباد لك، فنسألك بهزلنا أمام عظمتك، وبفقرنا إليك أمام غناك عنا، أن ترحمنا وتتجاوز عنا.

ثُم إنه إذا ذُكرت جهنم تبادر إلى أذهان الناس العذاب الأساسي وهو الحرق، ولكن هل يتأمل عامة الناس في باقي أنواع العذاب في جهنم؟ فلنتجنب الكلام عن عذاب النار نفسها مع أنه أشدهم، ولنتكلم عن أمر آخر وهو طعام وشراب أهل النار، فطعامهم هو الزقوم وشرابهم هو عصارة أهل النار (وهو ما يخرج من أهل النار من صديد وقيء وعرق ودماء وبول وشحم). قال تعالى {إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (43) طَعَامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ} [الدخان 43-48] (كَالْمُهْلِ أي النحاس المُذاب، فيُقطِّع أمعاءهم من حرارته؛ فَاعْتِلُوهُ أي خذوه أخذًا شديدًا، يكون بالجَر).

وجاء في موضع آخر بعد الكلام عن الجنة {أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (63) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (65) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (66) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ} [الصافات 62-68]. فأهل النار يجوعون فلا يجدون إلا ما تطرحه تلك الشجرة، ويعلمون المعاناة التي تقع لمن يأكل من تلك الثمار المليئة بالشوك، فهم مفتونون بين ألم جوعهم وألم الأكل من الشجرة، وفي النهاية يُقدمون على الأكل من الشجرة إراديًا وما يليها من عذاب. وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن شجرة الزقوم، التي هي مصدر الطعام لأهل النار، بعد أن قرأ الآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} "وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ فِي الْأَرْضِ لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعِيشَتَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ غَيْرُهُ؟"[2].

ومن يتنفس للاستنشاق أو الكلام، يجد اليحموم حوله ينتظره، وهو دخان جهنم. هذا الدخان نتاج حرق الجلود والحجارة وغير ذلك، فلا شك أن الدخان كثيف ومُظلِم وسامٌ ورائحته خانقة، فأنى للمرء أن يتكلم إلا بصعوبة بالغة؟ لا شك أنه يشعر أن روحه ستخرج من جسده مع كل نَفَسٍ يأخذه، ولكنها لا تخرج، فما بالنا بهذا العذاب والعياذ بالله؟!

---

[1] مسند أحمد 8509، ضعفه الأرناؤوط.

[2] سنن ابن ماجه 4316.

ومن يصعد ليخرج من جهنم، ليفر من وضعه البائس قبل أن يأذن الله له، يُضرب بمقمع عظيم، وهو ما يُقمَع ويُقهَر به الشخص مثل المطرقة أو ما شابه. قال تعالى {وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الحج 21-22]. وخزنة جهنم من الملائكة، أي حُرَّاسها، غلاظ الهيئة والقلوب ليتعاملوا مع أهل النار، فهم الذين يُشرفون على عذاب الله ويُنفِّذونه، منها ضرب الصاعدين بالمقامع كما ذكرنا. قد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم 6].

وفي جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، عندما جاءته رؤيا فيها ملكين ينطلقان به، جاء "فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ الْمَرْآةِ كَأَكْرَهِ مَا أَنْتَ رَاءٍ رَجُلًا مَرْآةً، وَإِذَا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ قَالَا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ"، ثم جاء في الحديث "وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكَرِيهُ الْمَرْآةِ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ"[1] (يَحُشُّهَا أي يزيدها اشتعالا). فخازن جهنم كريه المنظر، عمله هو أن يزيد من شدة النار، ويحوم حولها ليحرسها.

ثم إن هناك العذاب المعنوي فوق العذاب البدني، مثل التجاهل والتحسير والتوبيخ والتقريع والإذلال والغيظ والقهر. فالتجاهل يكون بالإعراض عن الرد عليهم، أو الرد عليهم بعد أمد طويل حتى يرسخ في أنفسهم أنهم لا أهمية لهم بين مخلوقات الله، وأنهم في أدنى منزلة إلى درجة أنهم لا يستحقون أن يُخاطَبوا. قد جاء في تفسير الطبري عن قتادة (رحمهم الله) أن أهل جهنم بعدما يمكثون فيها أمدًا ينادون ربهم {رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ}، فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين (أي قدر عمر الدنيا مرتين)، ثم يقول {اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ} [المؤمنون 108].

والتحسير يكون بتذكيرهم أنهم اختاروا الكفر والعصيان بأنفسهم، مما أفضى بهم إلى جهنم، وتلك عاقبة اختياراتهم وأفعالهم. ومثال على ذلك هو ما جاء في الآيات {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} [الزمر 71-72]. ومن طرق التحسير البالغة في التأثير هو أن يُعرَض على الشخص مكانه في الجنة الذي أُعدّ له، ولكنه أضاعه بأفعاله، وهذا كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ لِيَزْدَادَ شُكْرًا، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً"[2].

---

[1] صحيح البخاري 6525.

[2] صحيح البخاري 6084.

أما التوبيخ والتقريع فيكون بالتهكم على اختياراتهم ولومهم {ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ} [الزمر 12]، {يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ} [التوبة 35]، {وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ} [ابراهيم 44]. والإذلال يأتي من عدة مصادر وبطُرُق شتى، حتى إن أهل النار ليُهينون بعضهم كما دلت الآية {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ} [فصلت 29].

ويتم غيظهم بما عند المؤمنين من راحة ومتاع ورخاء، بل ويتم تذكيرهم أن هؤلاء المؤمنين هم الذين كانوا يُحَقِّرونهم ويستضعفونهم ويستهزئون بهم في الدنيا، قد أصبح حالهم أنهم فوق الكفار في القدر والمنزلة يوم القيامة. قال تعالى {إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} [المؤمنون 109-111].

وفي آيات أُخَر {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [المطففين 29-36]. فكان يغمز، وهي إشارة بجفن العين، بعضهم لبعض استغفالًا وسُخريةً وتهكمًا على المسلمين، خاصةً الفقراء منهم؛ ويرجعون إلى أهليهم فَكِهِينَ، أي مَرِحين مُعجَبين بأنفسهم، ويقولون إن هؤلاء المسلمين على ضلال وانحراف. والنهاية هي أن حالهم في الآخرة انقلب، إذ إن المسلمين الذين تم الاستهزاءِ بهم أصبحوا في الجنة يضحكون من الكفار الذين استهزأوا بهم وما آلوا إليه.

وعن إقهارهم، فهذا يتم من عدة أوجه مثل ما ذكرناه من التوبيخ والتجاهل والغيظ وغير ذلك، ولكنّ هناك أمرين آخرين يتم قهر معنوياتهم بهما، إحداهما السخرية منهن وهم يُعذّبون مثل القول لهم {ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [الدخان 49]. فهو كان يدَّعي العزة والكرم لنفسه في الدنيا، وربما كان الناس ينسبون له ذلك أيضًا، ولكن يُقال له في النار إن شربه من العذاب وطين الخبال هي المنزلة اللائقة بعزته وكرمه.

والأمر الآخر الذي يتم قهر معنوياتهم به هو التنكيل بهم، وذلك يتضح جليًا في قوله تعالى {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا} [الكهف 29، جزء من الآية]. فبالرغم من الألم المتناهي الذي هم فيه نتيجة للعذاب الشديد، فإنهم إذا استغاثوا منه يتم تعذيبهم أكثر لرغبتهم في التنصل من عقابهم! لا إله إلا

الله. وكأن الرسالة التي يُراد تسجيلها عندهم هي أن عليهم أن يُعذَّبوا دون أن يشتكوا أو يطلبوا شيئًا إذ إنهم استحقوا ذلك العذاب بأفعالهم، فإن تذمروا أو استغاثوا يتم معاقبتهم على استغاثتهم! فلا إله إلا الله.

هناك حديث للرسول (صلى الله عليه وسلم) يشمل عددًا من أنواع العذاب المذكورين، يُبيّن مدى شدَّتهن وبؤس حال أهل النار. قال (صلى الله عليه وسلم) "يُلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الْجُوعُ فَيَعْدِلُ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ الْعَذَابِ، فَيَسْتَغِيثُونَ فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ مِنْ ضَرِيعٍ، لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ، فَيَسْتَغِيثُونَ بِالطَّعَامِ، فَيُغَاثُونَ بِطَعَامٍ ذِي غُصَّةٍ، فَيَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُجِيزُونَ الْغَصَصَ فِي الدُّنْيَا بِالشَّرَابِ، فَيَسْتَغِيثُونَ بِالشَّرَابِ، فَيُرْفَعُ إِلَيْهِمْ الْحَمِيمُ بِكَلَالِيبِ الْحَدِيدِ، فَإِذَا دَنَتْ مِنْ وُجُوهِهِمْ شَوَتْ وُجُوهَهُمْ، فَإِذَا دَخَلَتْ بُطُونَهُمْ قَطَّعَتْ مَا فِي بُطُونِهِمْ، فَيَقُولُونَ: ادْعُوا خَزَنَةَ جَهَنَّمَ، فَيَقُولُونَ {أَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}، فَيَقُولُونَ: ادْعُوا مَالِكًا، فَيَقُولُونَ {يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ}، قَالَ فَيُجِيبُهُمْ {إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} (قَالَ الْأَعْمَشُ: نُبِّئْتُ أَنَّ بَيْنَ دُعَائِهِمْ وَبَيْنَ إِجَابَةِ مَالِكٍ إِيَّاهُمْ أَلْفَ عَامٍ)، فَيَقُولُونَ: ادْعُوا رَبَّكُمْ فَلَا أَحَدَ خَيْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ، فَيَقُولُونَ {رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ}، فَيُجِيبُهُمْ {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ}، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَئِسُوا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَأْخُذُونَ فِي الزَّفِيرِ وَالْحَسْرَةِ وَالْوَيْلِ"[1] (ضَرِيعٍ هو نبت ذو شوك من نار أَمَرّ من الصَّبر وأنتن من الجيفة؛ ذِي غُصَّةٍ أي مما يقف في الحلق؛ يُجِيزُونَ أي يُسيغون؛ الْغَصَصَ هو ما يعترض في الحلق من عظم وغيره).

وأما العذاب الخاص لكل امرئ في جهنم فيكون مماثلًا لعمل الظالم في الدنيا، فهناك من تُكوَى جِبَاهُهُم وجنوبهم وظهورهم بصحاف من الذهب أو الفضة، وهم الذين كانوا يكنزونهما ولا يُخرجون منهما الزكاة. وهناك من يُسحب في النار على وجهه، وهناك من يُكَبّل وهو يحترق كما كان يُكبّل الناس ظُلما، وهناك من يُفَصَّل له ثياب من نار على مقاسه {هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ} [الحج 19-20].

فصنف العذاب يكون من جنس العمل، ولعل هذا من الأسباب أن جهنم مُقسَّمة بسبعة أبواب {لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ} [الحجر 44]. ما أردت الوصول إليه من كل هذا هو أن ليست القضية الوحيدة في جهنم أن المرء يُحرق بأشد نار مخلوقة، إنما تتعدد وتتنوع أساليب العذاب فيها، وأي واحدة منهن تفوق قوة تَحَمُّلنا وحدها، فكيف بهن مجتمعين؟!

[1] سنن الترمذي 2511.

قد أُجمِلَ عن وضع المُعَذَّب في النار في عدة مواضع في القرآن، ومن أبرزهم قول الله تعالى {وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [إبراهيم 15-17]. جاء في تفسير ابن كثير عن "وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ" أن سيدنا ابن عباس (رضي الله عنه) قال: أنواع العذاب الذي يُعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكن لا يموت (انتهى).

وفي هذا المقام، أُحذِّر من أكثر مداخل الفساد على المرء شيوعًا، وهما الفم والفَرْج، وقد تكلمنا عنهما في مواضع متفرقة في الكتاب. وفي مدخل الفم، فمنه ما ينطقه المرء على لسانه ككلمة لا يُلقي لها بالًا تهوي به سبعين خريفًا في النار، ولكن أود التشديد في التحذير من أكبر فتنة للأمة الإسلامية، وهي المال. هذه الفتنة التي قد وقع فيها كثير من المسلمين، فيجمع المرء المال الحرام (مثلًا من الربا أو الاحتيال أو الاستيلاء) ويأكل به، فينبت جسده من الحرام. قد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مثل هذا الشخص "إِنَّهُ لَا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتْ النَّارُ أَوْلَى بِهِ"[1] (يَرْبُو أي يرتفع ويزيد؛ نَبَتَ أي ينشأ؛ سُحْتٍ أي حرامٍ يُذهِب البركة). فالحذر والانتباه من أن يدخل المال الحرام على مال المرء، فيُلوِّث ماله وتتكوَّن قطعة من جسده من حرامٍ.

ختامًا، قد قال تعالى {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ} [الزخرف 77]. تلك إحدى الاستغاثات المُفطِرة التي تكون من أصحاب النار لخازن جهنم، فمن شدة عذاب جهنم الذي لا ينقطع ولا يُخَفف، وألَمِهم الذي لا يُحتمل ولا ينتهي، وأملهم بالخروج الذي يتلاشى، فيتجاهلهم مالك جهنم أربعين عامًا، ثم يُجيبهم بغلظةٍ وعدم اكتراثٍ {إِنَّكُم مَّاكِثُونَ}. حينئذ يدركون أن السبيل المُتبقي هو الموت، فيطلبونه من يأسهم وهم يائسون من الاستجابة لمطلبهم حتى! تخيلوا مدى العذاب الذي يكون فيه المرء حتى يطلب الموت مرارًا وتكرارًا، حين أن أملهم يكون أن يُلَبَّى طلبهم بالقضاء عليهم! إنه لوضع بائس حقًّا، فهل أستطيع أن أستحمل لحظة من هذا العذاب؟

<u>أحد عشرًا: أم الجنة؟</u> جاء في جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الذين بالكاد نجوا من النار وعبروا جسر جهنم بمشقة عارمة "فَيَنْطَلِقُونَ إِلَى ضَحْضَاحٍ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ وَهُوَ مُصْفَقٌ، مَنْزِلًا فِي أَدْنَى الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَعْطِنَا ذَلِكَ الْمَنْزِلَ، فَيَقُولُ لَهُمْ: تَسْأَلُونِي الْجَنَّةَ وَهُوَ مُصْفَقٌ وَقَدْ أَنْجَيْتُكُمْ مِنَ النَّارِ؟ هَذَا الْبَابُ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا، فَيَقُولُ لَهُمْ: لَعَلَّكُمْ إِنْ أُعْطِيتُمُوهُ أَنْ تَسْأَلُونِي غَيْرَهُ، فَيَقُولُونَ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا نَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَأَيُّ مَنْزِلٍ يَكُونُ أَحْسَنَ مِنْهُ؟ فَيُعْطَوْهُ، فَيُرْفَعُ لَهُمْ

[1] سنن الترمذي 558.

أَمَامَ ذَلِكَ مَنْزِلٌ آخَرُ كَأَنَّ الَّذِي أُعْطَوْهُ قَبْلَ ذَلِكَ حُلْمٌ عِنْدَ الَّذِي رَأَوْهُ، فَيَقُولُ لَهُمْ: لَعَلَّكُمْ إِنْ أُعْطِيتُمُوهُ أَنْ تَسْأَلُونِي غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُونَ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا نَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَأَيُّ مَنْزِلٍ أَحْسَنُ مِنْهُ؟ فَيُعْطَوْهُ ثُمَّ يَسْكُتُونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا لَكُمْ لَا تَسْأَلُونِي؟ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا قَدْ سَأَلْنَا حَتَّى اسْتَحْيَيْنَا، فَيَقُولُ لَهُمْ: أَلَمْ تَرْضَوْا إِنْ أَعْطَيْتُكُمْ مِثْلَ الدُّنْيَا مُنْذُ يَوْمِ خَلَقْتُهَا إِلَى يَوْمِ أَفْنَيْتُهَا وَعَشَرَةَ أَضْعَافِهَا؟"، ثم ضحك الرسول صلى الله عليه وسلم حَتَّى تَبْدُوَ لَهَوَاتُهُ وَيَبْدُو آخِرُ ضِرْسٍ مِنْ أَضْرَاسِهِ لِقَوْلِ الْإِنْسَانِ: "أَتَهْزَأُ بِي وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟ فَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: لَا وَلَكِنِّي عَلَى ذَلِكَ قَادِرٌ فَسَلُونِي، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَلْحِقْنَا بِالنَّاسِ، فَيَقُولُ لَهُمُ: الْحَقُوا بِالنَّاسِ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُونَ يَرْمُلُونَ فِي الْجَنَّةِ حَتَّى يَبْدُوَ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ قَصْرٌ مِنْ دُرَّةٍ مُجَوَّفَةٍ، قَالَ: فَيَخِرُّ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ، فَيُقَالُ: إِنَّمَا هَذَا مَنْزِلٌ مِنْ مَنَازِلِكَ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُ فَيَسْتَقْبِلُهُ رَجُلٌ فَيَقُولُ: أَنْتَ مَلَكٌ؟ فَيُقَالُ: إِنَّمَا ذَلِكَ قَهْرَمَانٌ مِنْ قَهَارِمَتِكَ، عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِكَ، فَيَأْتِيهِ فَيَقُولُ: إِنَّمَا أَنَا قَهْرَمَانٌ مِنْ قَهَارِمَتِكَ عَلَى هَذَا الْقَصْرِ تَحْتَ يَدَيْ أَلْفِ قَهْرَمَانٍ كُلُّهُمْ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ عِنْدَ ذَلِكَ حَتَّى يُفْتَحَ الْقَصْرُ وَهُوَ دُرَّةٌ مُجَوَّفَةٌ سَقَايِفُهَا وَأَبْوَابُهَا وَأَغْلَاقُهَا وَمَفَاتِيحُهَا مِنْهَا، فَيُفْتَحُ لَهُ الْقَصْرُ فَيَسْتَقْبِلُهُ جَوْهَرَةٌ خَضْرَاءُ مُبَطَّنَةٌ بِحَمْرَاءَ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِيهَا سِتُّونَ بَابًا، كُلُّ بَابٍ يُفْضِي إِلَى جَوْهَرَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى غَيْرِ لَوْنِ صَاحِبَتِهَا، فِي كُلِّ جَوْهَرَةٍ سُرُرٌ وَأَزْوَاجٌ وَتَصَارِيفُ (أَوْ قَالَ: وَوَصَائِفُ)، فَيَدْخُلُ فَإِذَا هُوَ بِحَوْرَاءَ عَيْنَاءَ عَلَيْهَا سَبْعُونَ حُلَّةً، يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ حُلَلِهَا، كَبِدُهَا مِرْآتُهُ وَكَبِدُهُ مِرْآتُهَا، إِذَا أَعْرَضَ عَنْهَا إِعْرَاضَةً ازْدَادَتْ فِي عَيْنِهِ سَبْعِينَ ضِعْفًا عَمَّا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: لَقَدِ ازْدَدْتِ فِي عَيْنِي سَبْعِينَ ضِعْفًا، وَتَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ. فَيُشْرِفُ بِبَصَرِهِ عَلَى مُلْكِهِ مَسِيرَةَ مِائَةِ عَامٍ" فَقَالَ عُمَرُ عِنْدَ ذَلِكَ لراوي الحديث: يَا كَعْبُ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَى مَا يُحَدِّثُنَا ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ عَنْ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَا لَهُ، فَكَيْفَ بِأَعلَاهُمْ؟ قَالَ كعب: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَالْمَاءِ فَخَلَقَ لِنَفْسِهِ دَارًا بِيَدِهِ، فَزَيَّنَهَا بِمَا شَاءَ وَجَعَلَ فِيهَا مِنَ الثَّمَرَاتِ وَالشَّرَابِ، ثُمَّ أَطْبَقَهَا فَلَمْ يَرَهَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ مُنْذُ يَوْمِ خَلَقَهَا، لَا جِبْرِيلُ وَلَا غَيْرُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ قَرَأَ كَعْبٌ {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}، ثم أكمل قائلًا: وَخَلَقَ دُونَ ذَلِكَ جَنَّتَيْنِ فَزَيَّنَهُمَا بِمَا شَاءَ وَجَعَلَ فِيهِمَا مَا ذَكَرَ مِنَ الْحَرِيرِ وَالسُّنْدُسِ وَالْإِسْتَبْرَقِ، وَأَرَاهُمَا مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَمَنْ كَانَ كِتَابُهُ فِي عِلِّيِّينَ يُرَى فِي تِلْكَ الدَّارِ، فَإِذَا رَكِبَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ عِلِّيِّينَ فِي مِلْكِهِ لَمْ يَنْزِلْ خَيْمَةً مِنْ خِيَامِ الْجَنَّةِ إِلَّا دَخَلَهَا مِنْ ضَوْءِ وَجْهِهِ، حَتَّى إِنَّهُمْ يَسْتَنْشِقُونَ رِيحَهُ وَيَقُولُونَ: وَاهًا لِهَذِهِ الرِّيحِ الطَّيِّبَةِ، وَيَقُولُونَ: لَقَدْ أَشْرَفَ عَلَيْنَا الْيَوْمَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ عِلِّيِّينَ؛ فَقَالَ عُمَرُ: وَيْحَكَ يَا كَعْبُ إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ قَدِ اسْتَرْسَلَتْ فَاقْبِضْهَا، فَقَالَ كَعْبٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ لِجَهَنَّمَ زَفْرَةً مَا مِنْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا يَخِرُّ لِرُكْبَتَيْهِ حَتَّى يَقُولَ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ: رَبِّ نَفْسِي نَفْسِي، وَحَتَّى لَوْ كَانَ لَكَ عَمَلُ سَبْعِينَ نَبِيًّا إِلَى عَمَلِكَ لَظَنَنْتَ أَنْ لَا تَنْجُوَ مِنْهَا[1]. (فَيَنْطَلِقُونَ إِلَى ضَحْضَاحٍ أي إلى مكان لا قعر له، فيكون حاجزًا عن دخول الجنة؛ وَهُوَ مُصْفَقٌ أي مُغلق؛ حَسِيسَهَا أي صوتها؛ لَهَوَاتُهُ هي اللحمة المُعلَّقة في سقف الفم؛ يَرْمُلُونَ هو المشي السريع مع تقارب الخُطى؛ قَصْرٌ مِنْ دُرَّةٍ مُجَوَّفَةٍ أي من لؤلؤة عظيمة مُفرَّغة من الداخل؛

---

[1] المستدرك للحاكم 821/5. صححه الألباني في صحيح الترغيب 3704.

وَتَصَارِيفُ أي التوالي والتنوع؛ هَذِهِ الْقُلُوبَ قَدِ اسْتَرْسَلَتْ فَاقْبِضْهَا أي سرحت وتمنت فقل لها ما يُقبضها ويُفيقُها، وقال ذلك حتى لا يعيش في التمني فيتباطأ أو يسرح عن العمل الصالح).

فلاحظ من الحديث، أخي، أن الفرق بين المنزلة الأعلى درجة واحدة تجعل المنزلة الأدنى منها تبدو كالحُلم، أي كأنهم ينسوها من معرفتهم هوانها عن المنزلة التي تعلوها. وهذا ما بين درجتين متتاليتين من الجنة، فما بالنا بالفرق بين أدنى منزلة وأعلى منزلة؟!

وقد تكلمنا تفصيلًا عن صفات الجنة والنعيم الذي يكون فيه أهلها تحت عنوان "معرفة أنك تتخلى عن المعاصي مقابل هذا: "في جزء "ما المقابل لترك المعاصي؟". يُنصح لمن لم يمر عليه أن يقراءه في هذا المقام ليستشعر الكلام هنا ويزداد اشتياقًا، وليبلغ مفعول التذكرة مداه مع المرء.

وفي الكلام عن الجنة، لا أجد حافزًا أكبر لهجر المعصية من التعجب: لماذا أظلم نفسي بالتخلى عن هدية بهذه القيمة؟ هذه الهدية التي نبأنا عنها الرسول (صلى الله عليه وسلم) "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}[1]. فكيف أتخلى عن هذا؟! هل يُعرض عن هذا إلا سفيه؟! لماذا إذا لا أصبر؟ أم أني وقعت في فخٍ شبيهٍ بالذي وقعت فيه بنو إسرائيل، فقال لهم سيدنا موسى (عليه السلام) {فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي} [طه 86]؟

والسؤال هو: لماذا الجزاء (الجنة) يكون عظيمًا بهذه الدرجة على أعمالٍ يسيرة (نسبيًا مقارنة بما نناله)؟ إضافة إلى أن الله هو الكريم وشاكرٌ والغني عن الممتلكات فيفيض علينا من ملكوته، فهذا لأن المؤمن يعمل صالحًا عن يقين وإيمان مع أنه لم يرَ الله، وأغلبنا لم نرَ الرسول (صلى الله عليه وسلم) أيضًا، ولكننا آمنا وعَمِلنا على هذا الأساس، وكانت طاعة الله فيها مشقة على النفس، والبعد عما تشتهيه النفس من المحرمات فيه قهر وغيظ، وكل هذا على شيء غيبي (الجنة والنار). فهذا العناء الذي أشتكي منه أنه عظيمٌ، الذي الله أعلم به إن كان عظيمًا أم حقيرًا، يُكافئ الله عليه بأعظم مما يُستحق، فكانت المكافأة من جنس الوصف حتى وليس فقط من جنس العمل.

فيقيننا في الله يقين عقلي (يقين إخبار واستدلال) وليس أساسه يقين رؤيته عيانًا –المكاشفة أو المعاينة بنفسك–. ولكن ما أمرنا به أو نَهانا عنه الله في الدنيا فهو يحتاج إلى بذل جهد الجسد ومقاومة شهوة النفس في أغلب الأحوال، وذاك قد عاينَّاه وأيقنَّاه في مشقته إدراك معاينة وليس إدراك إخبار (فقد خُضنا تلك المشقات فنعلم حقيقتها وأبعادها بالمعاينة بالسمع والبصر

[1] صحيح البخاري 4406.

والجُهد). وهذا على وزن من ذكرهم الله في كتابه ثناءً عليهم {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (193) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (194) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} [آل عمران 193-195].

وعلى هذا الأساس، فإن المؤمن آثر يقينه الخبري والاستدلالي، أي بوجود الله ووجوب طاعته، لدرجة أنه يواجه به يقينه المكاشف -أنه يُعاني من أجل الالتزام بما أمر الله به-، فهل ذاك لا يستحق مكافأة؟ ولكن مكافأة الله لنا تفوق ما يعادل ما قدَّمه المرء في الدنيا من خير، فالله يعطينا أكثر مما نرضاه بكثير إلى ما يفوق تخيلنا، وربما يكاد لا يُصدَّق بعضنا درجة المكافأة، كما دل الحديث الذي ذكرناه قريبًا في قول الرجل الذي أخرجه الله من النار وأعطاه عشر أمثال ما تمناه "أَتَهْزَأُ بِي وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟".

وبناءً على ذلك تكون المكافأة من جنس العمل أعظم مما قدَّمه العبد، بكرم الله، بأن تكون المكافأة ليست فقط بأشياء لم يرها بعينه، بل ولا بما لم تسمعه أُذُنه من قبل ولم يكن ليخطر على باله حتى. فما يخطر على بالنا من نعيم مهما تخيَّلنا وتمنينا فهو أدنى مما سيجزينا الله به! فلماذا إيماني ضعيف لحد أني أعصي ربي، لحد أني أرى أن متاع الدنيا أولى بالإقبال عليه من متاع الآخرة؟ لماذا لا أعمل على تقويته؟ لمَ التفريط في جنب الله؟ ألا أريد أن أراه، لأنه ليس منطقيًّا أن أعصي ربي وأنا أزعم أني أشتاق للقائه يوم القيامة، أو أن أتوقع أنه يلقاني بمَحَبَّةٍ وأنا قد عصيته!

بل العكس هو الصحيح، أن من يُفرِّط في جنب الله بمعصيته يستحق الوعيد، كما دلت الآية {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة 24]. معنى "فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ" أي فانتظروا حتى يأتي عذاب الله العاجل أو الآجل، وترك محبة الله بالطبع تعني هجر أوامره واقتراف نواهيه. ثم إذا كان ترك الجهاد في سبيل الله كافيًا لاستحقاق وعيد الله للمرء، فما بالنا بما سيفعله الله بمن ترك الجهاد وعاث في المعاصي عند الملاقاة؟! لا شك أن من يعصي الله سيكون خائفًا كارهًا للقاء الله في الحقيقة وليس مُحبًّا للقائه، مهما ادَّعَى خلاف ذلك.

في هذه الآيات تشويق قوي للجنة {يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الزخرف 71-72]. من أجل نيل تلك الجائزة ورؤية رب الكون، يجب أن يتعب المرء بمجاهدة النفس والصبر

(على الطاعة وعن المعصية)، إذ إن الجوائز التي على المحك أعظم ما تكون. حينئذ يُورِثُكَ الله الجنة بعدما يرحمك لعملك الصالح، ويجمعك مع من أنت منهم من الطيبين كما اجتمعتم على طاعة الله في الدنيا {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا} [النساء 69]، فأولئك الذين يُجاوِرونك في الجنة!

قد أوجز رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين قال "مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ. أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ"[1] (أدلج أي سار في أول الليل أو آخره، وقيل إنه من سار الليل كله). فلا شك أن اكتنازها يتطلب تضحيات، وينبغي أن نُذكِّر أنفسنا بهذا، فليس من المنطقي توقع جمع متاع الدنيا كله ومتاع الجنة كله أيضًا. فالتضحية هي أن تتنازل عن المعصية، فهل تستطيعه عندما تأتي اللحظة الحاسمة، لحظة ما قبل المعصية مباشرةً؟

<u>اثنى عشرًا: قيام الساعة.</u> أذكر هذا الفصل أخيرًا إذ إن أغلب الناس يمرون فقط بالمراحل التي سبق ذكرها (إلا الجنة، فهي لمن آمن بالله وحده)، ولكن هناك فئة من الناس سيخوضون عناءً إضافيًّا، وهو عذاب قيام الساعة على من في الأرض قبل أن يُبعث من قد مات. هؤلاء هم شرار الناس آنذاك، إذ لا تقوم الساعة على أحد في قلبه مثقال ولو حبة من إيمان، كما ذُكر في جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا كَرِيحِ الْمِسْكِ، مَسُّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ، فَلا تَتْرُكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ الإِيمَانِ إلا قَبَضَتْهُ، ثُمَّ يَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ عَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ"[2]. المؤمن يرحمه الله بقبض روحه بريحٍ طيبةٍ حتى لا يخوض أهوال نهاية الأرض، فيعايشها فقط شرار الناس.

قبل قيام الساعة هناك علامات تظهر للناس، منها الصغرى ومنها الكبرى. من العلامات الصغرى ما قد وقع بالفعل، وقد تكلمنا عنها في مُقدِّمة هذا الباب. وأضيف هنا مصيبة من المصائب التي تقع، وهي اندثار العلماء إلى حد أن الناس يجتمعون للصلاة في المسجد ولا يجدون بينهم من هو أهلٌ للإمامة. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَتَدَافَعَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ لَا يَجِدُونَ إِمَامًا يُصَلِّي بِهِمْ"[3]، فحتى أهل المساجد يطولهم المرض. وأسأل أهل المساجد: كم منا رأى حدوث هذا في بعض المساجد هذا العصر؟

والمساجد تُزَخرَف وتُنقَّش ويُصرف عليها مال كثير لتُجَمَّل ظاهريًّا، بينهما تُهمل باطنيًّا بهجر الناس للصلاة فيها، دون الاستفاضة في أن هذا يبلغ التبذير أحيانًا بينما يكون هناك فقراء كثيرون

---

[1] سنن الترمذي 2374.

[2] صحيح مسلم 3550.

[3] سنن أبي داود 493.

حقوقهم يتم تجاهلها. فالحقيقة هي أنه يُصبح بناء المساجد الجميلة أمرًا يُتنافس عليه تفاخرًا وسُمعةً (بل وربما حتى للتجارة ببناء القاعات الباهظة للمناسبات)، فيميل إلى الرياء أو جني المال وليس ابتغاء وجه الله. وهذه أيضًا من علامات الساعة كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ"[1].

أما العلامات الكبرى، فهي إشارة أن الساعة على مشارف القيام، وتتبع هذه العلامات بعضها بعضها سريعًا حتى تقوم الساعة كما قال (صلى الله عليه وسلم) في جزء من حديث "وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا"[2]، ومنها ما لا يُقبل إيمانٌ بعدها وهو عند طلوع الشمس من مغربها. وأول أشراط الساعة الكُبرى التي تقع هي ما نبأنا عنها الرسول (صلى الله عليه وسلم) "أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنْ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ"[3].

وجميع العلامات (الأشراط أو الأمارات) مذكورون، وذلك دون ترتيب وقوعهم، في قوله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ: الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَأَجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنْ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ"[4]. وقد يسأل سائل: كيف تكون النار مذكورة أنها أول علامة في حديث ولكنها آخر علامة في حديث آخر؟ الجواب هو أن الراجح أن تكون نارين مختلفتين، خاصةً أن كل واحدةٍ منهما تفعل أمرًا مختلفًا. فأول نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، ولعل هي التي مذكورة في الحديث بدُخَّانِها، والنار الثانية تطرد الناس إلى محشرهم، والله أعلم.

فهي عشر علامات كُبرى، وقال العلماء إن المؤمن يرى ستة منهن ثُم تُقبض روحه بالريح الطيبة، وشرار الناس يمرون بالأربع الباقين أيضًا: الثلاث خسفات، والنار التي تطردهم إلى محشرهم. والراجح أن الدخان الذي يأتي هو ما جاء في الآيات المُنذِرة {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الدخان 10-11]. هذا الدخان يكون أثره خفيفًا على المؤمن ولكن وبالًا على الكافر، كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إنَّ ربَّكم أنذرُكم ثلاثًا: الدُّخانُ يأخذُ المؤمِنُ كالزُّكْمَةِ، ويأخذُ الكافرُ فينتفخُ حتَّى يخرُجَ من كلِّ مَسْمَعٍ منهُ، والثَّانيةُ الدابَّةُ، والثَّالثةُ الدَّجَّالُ"[5] (من كلِّ مَسْمَعٍ أي من كل فتحة في الجسد، مثل الأنف والأذن والعين والدُبُر وغير ذلك).

---

[1] سنن النسائي 682.

[2] صحيح مسلم 5234.

[3] صحيح البخاري 3082.

[4] صحيح مسلم 5162.

[5] تفسير ابن كثير 235/7؛ قال إن إسناده جيد.

ومن تلك الأحداث ما رواه لنا سيدنا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلًا: لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى فَتَذَاكَرُوا السَّاعَةَ، فَبَدَءُوا بِإِبْرَاهِيمَ فَسَأَلُوهُ عَنْهَا فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْهَا عِلْمٌ، ثُمَّ سَأَلُوا مُوسَى فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْهَا عِلْمٌ، فَرُدَّ الْحَدِيثُ إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فَقَالَ: قَدْ عُهِدَ إِلَيَّ فِيمَا دُونَ وَجْبَتِهَا، فَأَمَّا وَجْبَتُهَا فَلَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ. فَذَكَرَ خُرُوجَ الدَّجَّالِ، قَالَ (سيدنا عيسى عليه السلام): فَأَنْزِلُ فَأَقْتُلُهُ، فَيَرْجِعُ النَّاسُ إِلَى بِلَادِهِمْ فَيَسْتَقْبِلُهُمْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَلَا يَمُرُّونَ بِمَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ وَلَا بِشَيْءٍ إِلَّا أَفْسَدُوهُ، فَيَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ فَأَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُمِيتَهُمْ، فَتَنْتُنُ الْأَرْضُ مِنْ رِيحِهِمْ، فَيَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ فَأَدْعُو اللَّهَ فَيُرْسِلُ السَّمَاءَ بِالْمَاءِ فَيَحْمِلُهُمْ فَيُلْقِيهِمْ فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ تُنْسَفُ الْجِبَالُ وَتُمَدُّ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ، فَعُهِدَ إِلَيَّ مَتَى كَانَ ذَلِكَ كَانَتْ السَّاعَةُ مِنْ النَّاسِ كَالْحَامِلِ الَّتِي لَا يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَى تَفْجَؤُهُمْ بِوِلَادَتِهَا[1] (دُونَ وَجْبَتِهَا أي دون قيامها، أي أن الله نبأه بعلاماتها ولكن لم يُنبئه بموعد قيامها، والله أعلم؛ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ أي يخرجون ويأتون مسرعين من كل مكانٍ مرتفع؛ فَتَنْتُنُ الْأَرْضُ أي من تعفن أجسادهم وهم موتى؛ الْأَدِيمِ هو الجلد المدبوغ).

وجاء في حديث آخر "تَطْلُعُ عَلَيْكُمْ قَبْلَ السَّاعَةِ سَحَابَةٌ سَوْدَاءُ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ مِثْلُ التُّرْسِ، فَمَا تَزَالُ تَرْتَفِعُ فِي السَّمَاءِ حَتَّى تَمْلأَ السَّمَاءَ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ [من السماء]: يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ فَيُقْبِلُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ: هَلْ سَمِعْتُمْ؟ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ 'نَعَمْ'، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشُكُّ، ثُمَّ يُنَادِي الثَّانِيَةَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ فَيَقُولُ النَّاسُ: هَلْ سَمِعْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ 'نَعَمْ'، ثُمَّ يُنَادِي: أَيُّهَا النَّاسُ، أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ. (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَنْشُرَانِ الثَّوْبَ فَمَا يَطْوِيَانِهِ أَوْ يَتَبَايَعَانِهِ أَبَدًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَمْدُرُ حَوْضَهُ فَمَا يَسْقِي فِيهِ شَيْئًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَحْلِبُ نَاقَتَهُ فَمَا يَشْرَبُهُ أَبَدًا، وَيَشْتَغِلُ النَّاسُ"[2] (التُّرْسِ أي الدرع، والمقصد ها هنا أنها صغيرة؛ إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَنْشُرَانِ الثَّوْبَ أي يعرض البائع ثوبًا للمُشتري، فلا يلحق أن يُطَبِّقه البائع إن لم يُبع، ولا يلحق أن يشتريه المشتري إذا قرر شراءه؛ لَيَمْدُرُ حَوْضَهُ فَمَا يَسْقِي فِيهِ شَيْئًا أي يُصلِح الحوض الذي يشرب منه ولكن لا يلحق أن يشرب به).

وفي رواية أخرى "فَإِنَّ السَّاعَةَ كَالْحَامِلِ الْمُتِمِّ الَّتِي لَا يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَى تَفْجَؤُهُمْ بِوِلَادِهَا، لَيْلًا أَوْ نَهَارًا"[3] (كَالْحَامِلِ الْمُتِمِّ أي الحامل التي أكملت فترة حملها وأوشكت على الوضع)، وكفى عذابًا رُعب انتظار قيام الساعة على المرء في أي لحظة. فإذا قامت القيامة نفسها، تُفاجِئ الناس وينتهي الأمر في لحظة إلى حد أن الناس تموت وهي على أوضاعها وفي أعمالها لم يتمُّوها، إلى درجة ما نبأنا به

---

[1] سنن ابن ماجه 4071.

[2] المستدرك على الصحيحين للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري 8725؛ الراوي: عقبة بن عامر (رضي الله عنه)؛ قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم، ولم يُخرجاه.

[3] مسند أحمد 3375، ضعفه الأرناؤوط.

الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ {لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا}، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا"[1].

"اللِّقْحَةَ" هي الناقة الحلوب التي توشك أن تلد، أي أن الرجل يحلبها ولكن لا يلحق أن يشرب من اللبن. "يَلِيطُ حَوْضَهُ" أي يُطيّن ويُصلح الشقوق التي في الحوض الذي يشرب منه، ولكنه لا يلحق أن يشرب منه. فبهذه السرعة تتطور لحظة القيامة وتقضي على الناس، وذلك مع فجأة بدئها أساسًا. وشرار الناس تلك يمرون بكل تلك الأحداث الرهيبة التي ذكرناها وما شابهها، فما ظننا بمعاناتهم؟

لكن، بالرغم من أن أناس كثيرين قد يرون القيامة بعيدة، فإنها قريبة كما قال عنها سبحانه وتعالى {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا} [المعارج 6-7]، ودليل قُربها {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ} [القمر 1]. ومن أراد مزيدًا من اليقين، فلينظر كم صمد الدين النصراني منذ سيدنا عيسى (عليه السلام) إلى أن تم تحريفه فنزل الإسلام، ثم ليُقارن عمر ذلك بعمر الإسلام منذ سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى الآن، وسيجد أن ما مضى من عمر الإسلام أكثر بكثير من فترة عمر النصرانية وهي سليمة. فيوشك الإسلام أن يُهجَر شبه كُلّي قريبًا، فتقوم الساعة (فعهد الإسلام ينتهي عندما يهجره المسلمون عملًا، وليس عندما يتم تحريفه كالنصرانية، فقد توعد الله بحفظ القرآن إلى أن يرفعه مع العلماء في آخر الزمان).

ثم إن رأى المرء أن يوم القيامة بعيدًا عنه، فبمجرد وفاته فكأنما قامت القيامة بالنسبة إليه. ذلك لأن عمله يُختم عليه فلا يستطيع تعديله في القبر، لا يستطيع الإضافة إليه إلا إن كان له عمل جارٍ مثل الذي أشار إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"[2] (وفي رواية زاد "رَجُلٌ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ"[3]). وكذلك لا يستطيع المحو من عمله، وإنما هو ينتظر قيام الساعة ليُحاسب عليه. ومن هذا المنطلق، فإن كل من يعيش تكون القيامة بالنسبة إليه في إطار الستين إلى السبعين عام منذ ولادته، مائة عام بحَدٍّ أقصى إن كان مُتفائلًا في طول العمر.

ووقوع الساعة نفسها يكون سريعًا جدًّا، شاملًا بعث الموتى وطمس معالم الأرض وغير ذلك. قد قال تعالى {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ

---

[1] صحيح البخاري 6025.

[2] سنن أبي داود 2494.

[3] مسند أحمد 21285.

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [النحل 77]، وقوله عز وجل "أَوْ هُوَ أَقْرَبُ" أي أسرع. ومن الأهوال التي تحدث آنذاك جاء في عدة مواضع في كتاب الله، وقد أجمل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} و{إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ} و{إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ}"[1].

قال القوي العزيز {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (9) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ} [التكوير 1-14]. فالشمس يُرمى بها ويذهب ضوءها، والنجوم تتناثر وتتساقط فيذهب ضوءها أيضًا، والجبال تصبح رملًا فتصير كالسائل، والنوق الحوامل يضعن حملهن. والبحار تمتلئ حتى يمتزج العذب والمالح، وقيل العكس وهو ذهاب ماؤها (ولعل الاثنين يحدثان متتابعين يوم القيامة، تمتلئ ثم تَجِفُّ، والله أعلم)، وقيل إنها تشتعل. والموءودة هي البنت الرضيعة التي دُفِنَت حية لمواراتها، فتُسأل عن سبب قتلها استقصاءً لحقها من القاتل، والسماء تُكشط أي تُقلَع ثم تُطوى.

وقال مالك الملك {إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ} [الإنفطار 1-5]. انفَطَرَتْ أي انشقت؛ انتَثَرَتْ أي تساقطت؛ فُجِّرَتْ أي تشققت حواجزها حتى يختلط العذب بالمالح ويصبح بحرًا واحدًا؛ بُعْثِرَتْ أي تبددت وتناثرت، وذلك في إشارة أن التراب الذي عليها يتبعثر فينقلب باطن القبر إلى الظاهر، أي أن القبور تُخرج ما فيها.

وقال الجبار {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ} [الحاقة 13-16]. الدكّ هو الدق الشديد الذي يترتب عليه التكسير والتفتيت للشيء، فالأرض والجبال يتم رفعهما ثم تفتيتهم، فتصبح الأرض منبسطة ودون معالم، والسماء تنشق فهي ضعيفة يومئذ. وقال الباعث {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ} [القارعة 4-5]، أي الناس يكونون كالفراش المبثوث في عددهم وانتشارهم وتفرقهم، ويكون الجبل متناثرًا كالصوف الذي يتفرق بعضه عن بعض.

فتخيل أخي عندما يحدث للسماء، التي عشت حياتك كلها لا تعرف المعيشة إلا تحتها، ما قال العلي القادر إنه فاعلٌ بها {فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ} [الرحمن 37]، فتنشق

---

[1] سنن الترمذي 3256.

السماء ويصير لونها إلى لون الوردة الحمراء، وفي ذوبانها وسيلانها كالسائل الذي يُدهن به شيء. فالسماء تنهار وتتلاشى، ويتبين بوضوح أن هناك حدثًا جليلًا يُعَدُّ له أكبر من أحداث قيام الساعة نفسها {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا} [الفرقان 25]، وهو الحساب.

أما عن بدء أحداث الساعة عمومًا، فإنها تبدأ بأن الله يأمر إسرافيل (عليه السلام) بالنفخ في الصور (وهو صاحب القرن) النفخة الأولى، وهي نفخة الفزع التي يذهل فيها الناس. جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في حديث له عن القيامة "ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا"[1] (لِيتًا أي جانب العنق، أي أن الناس ينتبهون ويمدون أعناقهم ليسمعوا جيدًا).

ثم يؤمر إسرافيل بالنفخة الثانية، وهي نفخة الصعق التي هي إشارة لوقوع الأحداث، فتتشقق السماء وتخر الجبال وتتفتت الأرض وتتصادم النجوم، وهناك يموت كل من في السماوات والأرض ويبقى الله وحده. قال تعالى {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} [الزمر 68]. بعد هذه المرحلة يُحيي اللهُ إسرافيلَ ويأمره بالنفخة الثالثة وهي نفخة البعث أو القيام، فيُبعَث الناس إذ إن جميعهم يكونون أموات في تلك اللحظة. واختلف العلماء في عدد النفخات، فمنهم من قال إنهما اثنتان فحسب، على أن الفزع والموت يحدثان من نفخة واحدة، والله أعلم.

قال ابن كثير (رحمه الله): فقوله: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ}، هذه النفخة هي الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض، إلا من شاء الله كما هو مصرح به مفسرًا في حديث الصور المشهور. ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولًا وهو الباقي آخرًا بالديمومة والبقاء، ويقول: {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} [غافر 16] –ثلاث مرات–. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} أي: الذي هو واحد وقد قهر كل شيء، وحكم بالفناء على كل شيء. ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى، وهي النفخة الثالثة، نفخة البعث[2] (انتهى).

فأحذر أيها القارئ ولأحذر أنا أيضًا من أن نُضل عن الطريق بالمعاصي إلى أن يضيع إيمان أحدنا، ويستبعد قيام الساعة في عمره فيُدركه ما لم يستعد له، وهو أن تقوم الساعة بغتة بالدرجة التي ذُكرت وهو لا يتوقعها ولم يستعد لها، ويكون من المتروكين بدلًا من الذين تُقبض أرواحهم بالريح الطيبة. ومن يلتبس عليه في ترتيب أحداث يوم القيامة أو خُيّل له تعارُض في الحقائق التي في أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فليرجع إلى الكتب المتخصصة في هذا الموضوع لعلماء

[1] صحيح مسلم 5233.

[2] تفسير ابن كثير للآية 68 من سورة الزمر.

موثوق فيهم، فإن هذا الموضوع بالغ في التفاصيل مع تداخلها مع بعضها، والخوض فيه للتوضيح يطول ويخرجنا عن نطاق موضوع هذا الكتاب.

ختامًا لهذا الباب، ينبغي التنبيه على أن العلم وحده لا ينفع للنجاة، بل يلزمه بذل الجهد في العمل به. فكم من عالم فقيه لم يكتفِ بالتقصير فيما علِمَه بأن لا يعمل به، بل استخدم علمه للترويج للباطل وباع آخرته لدنيا ينالها شخصٌ غيره، فأصبح علمه نقمةً وحُجَّةً وحملًا عليه بدلًا من أن يكون منفعةً وشفيعًا له. سبق أن ذكرنا حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الخمس أسئلة التي سيُسألها جميع العباد يوم القيامة، فمنها "وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ"[1]. وقد أعطانا سيدنا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) خلاصةً جميلةً قائلًا: كَفَى بِخَشْيَةِ اللَّهِ عِلْمًا، وَكَفَى بِالِاغْتِرَارِ بِهِ جَهْلًا[2].

## الالتزام بتأدية الصلوات في المسجد

إن الصلاة في المسجد لها تأثير عجيب على المرء يجهله كثير من الناس أو يستخفون من شأنه. ومن منافع الصلاة في جماعة المسجد أنها تُعلي إيمان المرء فتجعله أكثر نفورًا من معصية الله وأكثر إقبالًا على طاعة الله، وهي من أقوى السُبل لهجر المعاصي. إضافة إلى هذا، فإن الصلاة في المسجد (شاملًا الخطوات التي يخطوها المرء إلى المسجد) تُكفِّر السيئات السالفة، فأي غنيمة هذه؟ فكثرة الصلاة والالتزام بالصلوات المفروضة في المسجد تأثيرهما هما الإحالة عن الوقوع في المعصية، والتكفير عن الذنوب. وفيما يتعلق بتكفير الذنوب فسيأتي ذلك، إن شاء الله، في جزء: كيف أتخلص من ذنوبي؛ أما هنا فسنتداول منعها للوقوع في المعصية أساسًا.

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ أَثْقَلَ صَلاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلاةُ الْعِشَاءِ وَصَلاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلاةِ فَتُقَامَ ثُمَّ آمُرَ رَجُلا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لا يَشْهَدُونَ الصَّلاةَ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ"[3] (أَثْقَلَ صَلاةٍ المقصد منها هي صلاة الجماعة في المسجد؛ حَبْوًا هو الزحف على الرجلين واليدين). نرى في هذا الحديث مدى غضب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الذين يتركون صلاة الجماعة في المسجد ويُصّلون في بيوتهم فُرَادَى، وسبب من أسباب غضبه عليهم هو أن الجماعة توحد المسلمين وتُرَسِّخ إيمانهم. إن الذين يعتادون المساجد ويرون إخوانهم ويقابلونهم

[1] سنن الترمذي 2340، جزء من الحديث.

[2] المُصَنَّف لعبد الله بن محمد بن أبي شيبة 160/8.

[3] صحيح مسلم 1041.

ويصّلون معهم يكونون أكثر حبًّا وأُلفةً وودًّا مع بعض، يُساندون بعضهم في المواقف العصيبة أيضًا، ويكونون أشبه بالجسد الواحد.

وهذا يجعلهم أكثر تراحمًا بين بعضهم وأقوى أمام مواجهة العدو (سواء من الشياطين أم أعداء الإسلام)، لأنهم كالبنيان يشد بعضهم بعضًا، يتكاتفون مع بعضهم بعضًا ضد المعتدي. وهذا يُستدل عليه من الحديث الشريف لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[1]. فالمؤمنين كالجسد الواحد، والصلاة في المساجد هي إحدى الصفات التي تُصنِّف المرء كمؤمن، كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَتَعَاهَدُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ}"[2].

فوق ذلك، إن الذي يعتاد المساجد أقل عُرضةً لوساوس الشيطان، فيكون أقل عصيانًا لربه. فالمُصلّي في المسجد يكون في كَنَفِ الله، فيتعرض الشيطان له أقل إذ إن الله يُحيل بين الشيطان وعبده، وإن وسوس الشيطان للعبد شيئًا فإن تأثيره على العبد يكون أضعف إذ إن الشيطان ليس له سلطان على عباد الله {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الحجر 42]. وهذان السبيلان يُقلِّصان من تأثير الشيطان على المرء في ارتكاب المعاصي.

وبداية طريق المعصية (مقدمات المعاصي) يكون بترك الأعمال الصالحة التي تقي من تعريض النفس للوقوع في المعاصي. فالطريق إلى الفجور يبدأ بترك الأعمال الصالحة، ثم ارتكاب المعاصي الصغيرة والبدع، ثم ارتكاب الكبائر والمبالغة في الطغيان، وإن ترك نفسه على ذلك قد يصل إلى مرحلة الكفر والعياذ بالله. فهناك أناس يقولون إنهم مسلمون ولكن يَسُبُّون الإسلام عند غضبهم، فأنى حقيقة كلامهم.

وكل خطوة تأتي بعد الأخرى بتَدَرُّجٍ وبتَسَلُّلٍ، فلا يُميّز المرء الفواصل بين مراحل الانتقال إن ترك نفسه. ولهذا فإن أول الطريق لاعتراض المعاصي هي بالمثابرة والصبر على الأعمال الصالحة مع مراقبة النفس. والأعمال الصالحة لها عدة آثار، فهي مرضاة لله، وحسنات تُكتسب، ووقاية من المعاصي، وذنوب تُمحى.

ويجب أن يُدرك المرء، أن الصلاة بالرغم من أنها فُرضت على الفرد فإن الله لا ينتفع منها بشيء، ولو خشع العبد وأخلص وتواضع فيها منتهى الخشوع والإخلاص والتواضع، استنادًا إلى جزء

---

[1] صحيح البخاري 5552.

[2] سنن الترمذي 2542.

من حديث قدسي "يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا"[1]. هذا لأننا (ولا أحد) يبلغ منزلة أنه ينفع الله بشيء. وهذا يثير تساؤلًا، لماذا فُرضت الصلاة إذًا؟!

تفكر مليًّا أيها القارئ، وربما تصل وتستوعب الإجابة الوحيدة المنطقية، وهي: كي ننتفع نحن. فالصلاة فلاحٌ لنا إذ تُهذِّب أخلاق المرء ويستقيم بها قلبه، فيصير أكثر تقوى لله وأكثر إصلاحًا في الأرض. ولكنها فُرضت حتى لا يتركها المرء إذا لم يُدرك أنها تفيده أو أصابه الخمول أو الإجهاد، فإن فائدتها حاصلة ولكن قد لا يراها البعض، فكان الأفضل أن نؤديها لزامًا إذ إن المرء قد لا يستوعب مدى فائدتها. وكلما أحسن المرء فيها –مثل أدائها في المسجد، وفي أول الوقت، وخشع وأخلص لله فيها، وأكثر من النوافل– زاد تأثيرها النافع على المرء؛ الصلاة لقلبك أنت وليست لنفع الله.

وختامًا نذكر حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي يرويه لنا سيدنا أبو هريرة (رضي الله عنه) قائلًا: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّ فُلانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ، قَالَ "إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا يَقُولُ"[2]. ففي هذا الحديث دليل على أن المثابرة على الصلاة قطعًا تحول بين المرء واقتراف الذنوب.

## مداومة محاسبة النفس

**لماذا أُحاسب نفسي؟** إن المرء إذا أحصى أعماله ثم حاسب نفسه عليه، يكتشف أن وضعه أسوأ مما كان يظنه، ومن يُتابع أعماله يجد الاستحياء يلازمه، فلنسأل أنفسنا لماذا يحدث ذلك؟ الجواب هو أن المرء عادة ما يتعلق في ذاكرته عمله الصالح، ويستعظمه، وعلى الصعيد الآخر فإنه ينسى معصيته، وعادةً ما يُقلل من شأنها فيُصغِّرها، وربما يُبررها فيدرأ عن نفسه اللوم عليها ويُمنِّي نفسه أنه سيُرفع عنه وزرها. ولكنه إذا نظر إلى نفسه بموضوعية، كأنه يُقيِّم شخصًا تعرف عليه حديثًا، سينكر عليه كثيرًا من تلك الأعمال، بل وربما يرى أنه هالك إذا ظل على ذلك الحال.

فالمداومة على حساب النفس، ومراجعتها، بمنزلة تقديم لها كشف بالأعمال مُسجَّل وتذكيرها بإخفاقاتها، وذلك يرُدها إلى الواقع لتدرك مدى تقصيرها في الواجبات وتماديها في المنهيات، فيُساعد المرء على أن يُصلح من نفسه. أما إذا ترك المرء محاسبة النفس فإنه سيستزيد من المعصية، أولًا لأنه لا يلوم ولا يوبِّخ النفس على إخفاقاتها إلا عندما يرتكب معصية شنيعة، وثانيًا لأن النفس بطبعها تتذكر أعمالها الحسنة وتتناسى أعمالها السيئة، وذلك طبع الإنسان. والدليل على هذا الكلام

---

[1] صحيح مسلم 4674.

[2] مسند أحمد 9402.

هو أن المرء بطبعه يتذكر ويسترجع الأوقات السعيدة وأعماله الصالحة، ولكن يصد تذكر الأحداث السيئة أو المؤلمة ويتناسى أعماله المُخجلة.

من الضروري إدراك مدى أهمية محاسبة النفس، فإن المرء الذي لا يحاسب نفسه كالذي لا يُتابع مكسبه ومسروفاته المادية لتجارته نهائيًّا، مما يجعله عرضة أن يُبدد أمواله بسبب استهتاره وغروره، فيجد نفسه مُفلسًا وخسر تجارته. ومتابعة أعمال المرء لنفسه يؤدي إلى عرض الأعمال على النفس عندما يسترجعها، فقد يقول في نفسه: قد عملتِ كذا وكذا ثم كذا، وأضفتِ عليها كذا، ولا تتغافلي أنك فعلت كذا أيضًا؛ فذلك قد يؤزه أن يستحيي من أن يُقبل على المعصية القادمة بقوله لنفسه: كفى ما فعلتيه، أتريدين أن تُضيفي هذا أيضًا؟ ومن يدري، لعله يُقبل على عملٍ صالح بدلًا من المعصية كي يُصلح ما ارتكبه.

ثم إن من لا يُحاسب نفسه يكاد يكون كالذي لا يمتنع عن تحقيق أي رغبة لهواه، إذ إنه لا يعي مدى تماديها. ومكسب عظيم من تفعيل هذا النمط في التعامل مع النفس هو أن من يُحاسب نفسه في الدنيا يُخفف الله عليه الحساب يوم القيامة، لأن الجزاء (سواء المُكافأة أم العقاب) من جنس العمل. فمحاسبة النفس من الأمور الضرورية كي يضبط المرء نفسه ولا تتفلت منه فتسرح في الأرض كما تسرح الدواب، ولا يبلغ المرء المنازل العُلى من الصلاح والتقوى إلا مع محاسبة النفس، وإليكم بعض الأدلة التي تحث على محاسبة النفس:

جاء في كتاب الله تعالى أنه أقسم قائلًا {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} [القيامة 2]، وكونه أقسم بها يعنى أن مكانة هذا السلوك عند الله عظيم، لأن الله يُقسم بما هو عظيم عنده مثل قوله {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ} [الواقعة 75-76]. قال الحسن البصري (رحمه الله) في آية سورة القيامة: هي النفس المؤمنة، إن المؤمن -والله- ما تراه إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت بأكلة كذا؟ ما أردت بكذا؟ ما أردت بكذا؟ وإن الفاجر يمضي قُدُمًا قُدُمًا، ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها[1].

ومنطقيًّا، إن المرء لا يستطيع أن يلوم نفسه ويُوَّبخها على أخطائها إلا إذا كان يحصيها، ولا يحصيها إلا من يُحاسب نفسه، وفي الآية دلالة على أهمية محاسبة النفس إذ إن النفس اللوامة لا تتولد إلا بمحاسبة النفس. إن المرء إذا أحصى أخطاءه وجدها أكثر مما كان يظنها لأن الإنسان بطبعه ينسى مساوئه أو لا يُقر ببعضها على أنها أخطاء إلا إذا تفكَّر مليًّا (بسبب تعود رؤيتها مثلًا، أو لأن النفس تكره الاعتراف أنها أخطأت)، إضافةً إلى أن عقله الباطني يتفادى مواجهة النفس بالحقائق التي تُعكِّر صفوته.

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم 7/2.

وجاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال "الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ"[1]. الْكَيِّسُ أي الحكيم الفطن الورع؛ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ أي حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ أي يأمل النجاة دون الأخذ بالأسباب، وهو تطميع للنفس بالباطل في النجاة، وكثي من تلك الأفكار التي يُسوّلِها الإنسان لفسه تخالف مبادئ الشريعة، مثل من يظن أن الله غني من أن يُعذِّب الناس، أو أن من صلح إيمانه ونياته يُدركه عفو الله فيدخل الجنة وإن كانت إساءته في العمل فادحةً. ويُروى عن عمر بن الخطاب قال: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا؛ ويُروى عن مَيْمُونِ بن مِهْرَانَ قال: لا يَكُونُ الْعَبْدُ تَقِيًّا حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ كَمَا يُحَاسِبُ شَرِيكَهُ مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ وَمَلْبَسُهُ.

وكان الصحابة (رضي الله عنهم) يخشون من عدم نجاتهم يوم القيامة حتى في آخر أنفاسهم في الدنيا، ومنهم الصدِّيق أبو بكر (رضي الله عنه)، وهو من هو وله ما له من مكانته في الإسلام. وذلك لأنه وباقي الصحابة يخشون أن تكون أعمالهم لم تُقبل من الله أو أنها لا تكفي لنجاتهم، بل وكانوا يخشون على أنفسهم أن يكونوا نافقوا وهم لا يشعرون إذ لا يأمنون من مكره تعالى. وتلك الخشية إحدى علامات حسن التقوى وكمال الإيمان عند العبد، حتى إنه ورد أن سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وهو من هو، ذهب إلى سيدنا حذيفة بن اليمام (وكان قد أسَّر إليه الرسول صلى الله عليه وسلم بأسماء المنافقين، فحفظهم وكتمهم رضي الله عنه) فسأله هل اسمه ورد في أسماء المنافقين!

يُروى أن سيدنا عمر (رضي الله عنه) ناشده: أَأَنَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ؟ فَقَالَ: لا، وَلا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَكَ[2] (قوله: وَلا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَكَ، أي لا أُنبئ أحدًا بعدك كي لا يشتبه عليه إفشاء السر حتى، وليس المعنى أنه ليس هناك من هو أفضل من سيدنا عمر رضي الله عنه). وقال إبراهيم التَّيْمِيُّ: مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إلا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا. وقال ابن أَبِي مُلَيْكَةَ: أَدْرَكْتُ ثَلاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ. ويُذكر عن الحسن البصري (رحمهم الله جميعا): مَا خَافَهُ إلا مُؤْمِنٌ وَلا أَمِنَهُ إلا مُنَافِقٌ؛ وَيُحْذَرُ مِنْ الإِصْرَارِ عَلَى النِّفَاقِ وَالْعِصْيَانِ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[3].

---

[1] سنن الترمذي 2383.

[2] سير أعلام النبلاء لمحمد الذهبي 364/2.

[3] صحيح البخاري، باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

وسبب ذكري لكل هذا عن الصحابة (رضي الله عنهم) هو لبيان معايير الإيمان وقياس التقوى بهم، فقد بلغت محاسبة أنفسهم مبلغ أنهم كانوا يتشككون أن أعمالهم قد لا تكون كافية لجلب رحمة الله في الآخرة ومن ثمَّ النجاة. فليس مفهوم بلوغ قمة الإيمان والتقوى هو عكس هذا كما قد يُتوقع، بأن قوة الإيمان والمراتب العُلى من تقوى الله تعنيان الأمن من النفاق وعدم الاحتياط منه وتجاوز مرحلة مُحاسبة النفس، بل إن الخوف من عدم النجاة ودوام مُحاسبة النفس يُبلِّغان المرء المراتب العُلى من الإيمان والتقوى. وقد بلغ محاسبة النفس لبعض الصحابة أنهم كانوا يتشككون ويتورعون من أن يكونوا قد نافقوا وهم لا يشعرون، فهذا كله يدل على مدى مراقبة ومتابعة تصرفات أنفسهم. أما بالنسبة إلينا، فقد يجد المرء أنه يختلط عنده كثير من العمل المُفسد مع عمله الصالح، ومع ذلك يرى أنه ناجٍ يوم القيامة بما أنه لا يعاتب نفسه.

وليست النتيجة المطلوبة من معاتبة النفس هي بلوغ مرحلة الإحباط، إنما الهدف من دوام تقييم النفس ومحاسبتها هو لومها وزجرها إلى حد يُحدث التغيير. فبتقييم وضع المرء لنفسه، يزيده ذلك وعيًا للعلل التي فيه وتحفيزًا أن يُعالج عيوبه، فيعلو إيمانًا وعملًا؛ واليأس يفعل عكس ذلك إذ إن المرء يلوم نفسه ولا يتغير عمله إذ يتوهم أن حاله تعدى مرحلة الإصلاح. فالهدف من هذا كله أن تنتبه لأعمالك، فيأخذ ذلك منك مأخذًا فتتغير للأصلح.

وتلخيصًا لأهمية محاسبة النفس وعواقب من لا يتبع ذلك النهج لمراقبة نفسه، أذكر مقولة سيدنا ابن مسعود (رضي الله عنه): إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ 'هَكَذَا' (قَالَ أَبُو شِهَابٍ: أي أشار بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ)[1]. في هذا المثل دلالة على أن المؤمن يعمد إلى إحصاء أعماله ومحاسبة نفسه، وأن الفاجر يُهمل في إحصاء أعماله ومحاسبة نفسه. المؤمن بيوم الحساب يُراجع أعماله فيُحصيها فتصبح عليه همًّا، يخشى من مساوئ أعماله فيرتقي في أعماله ومن ثمَّ الإيمان أيضًا، وأن الفاجر لم يكن يحصي أعماله فاستخف بها فأطلق عنان هواه حتى أصبح فاجرًا.

**مبدأ عام في تقييم النفس.** لتقييم حال النفس بموضوعية، يجب ألا ينظر المرء إلى نياته ولينظر فقط إلى عمله. ومع أن تلك الطريقة قد تنتقص من المستوى الفعلي لصلاح المرء في أثناء تقييمه لنفسه، فإنها أصوب وأدق من أخذ النيات في الحسابات، وهي أيضًا الطريقة الأصدق مع النفس في التقييم (حتى لا يكون خادعًا لنفسه في أعماله). هذا لأن تجنب أخذ النيات في الاعتبار قد يحيف على المرء فقط قليلًا، إذ إن أخذ النيات والمُبررات يرفع من المستوى التقديري للمرء أكثر بكثير، ففيه

[1] صحيح البخاري 5833.

تحريف. والتحريف يحدث على مستويان، الأول هو أن المرء عادة يبالغ في مجازاة نفسه على نياته الصالحة، والثاني هو أن المرء بسبب النيات والأعذار قد يُبرر عدم حسابه أعمالًا سيئة عليه، والنتيجة هي مستوًى مرتفع في تقدير صلاح النفس حتى يرى أنه ناجٍ في الآخرة.

في الوضع المثالي، لكي يُقيّم المرء نفسه بدقة وحيادية تامة، ينبغي أن يُقيم شخصًا آخر وضعه، ويكون مُلمًّا بأعمال المرء الصالحة والسيئة. ولكن نظرًا لأن ذلك غير ممكن من عدة جهات، منها فضح النفس، والمشقة في ذلك، وعدم إمكانية وصف تفاصيل العمل بدقة، وربما حتى تسلل الرياء، فما ذكرته (عدم أخذ النيات في الاعتبار) هو أكثر طريقة حيادية مع النفس في تقييمها. فالعكس هو المستهدف، وهو أن المرء في أثناء تقييمه لعمله يبلغ مرحلة كأنه ينظر إلى عمل شخصٍ غريب عنه. أعدّ نفسك كأنه سيُقال لك يوم الحساب: لا تذكر من أنت ولا ماذا كانت نياتك، ولكن اذكر ما عملك؟ فليأخذ المرء بتلك الطريقة لئلا يكون ضحية لغرور نفسه بتحقير ذنوبه وتعظيم أعماله الصالحة، كما حذَّر الرسول (صلى الله عليه وسلم).

كيف أحاسب نفسي؟ قال ابن القيم (رحمه الله): ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده. فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همَّته وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه. قال الحسن: رحم الله عبدًا وقف عند هَمِّه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.

والنوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل، وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي.

الثاني: أن يحاسب نفسه على عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد: لمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة فيكون رابحًا فيه؟ أو أراد به الدنيا وعاجلها فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به؟[1] (انتهى بتصرف).

فينبغي أن تكون وقفة التقي قبل العمل أن يُراجع نفسه فيسألها: هل تركه خير من فعله، أم أن فعله خير من تركه؟ وبالطبع هذا السؤال يشمل إن كانت مباحة أم مُحرَّمة. ثم ليسألها السؤال الثاني: هل يبتغي به وجه الله، أم يبتغي به الثناء من مخلوق؟ فإن سلِم بعد هذين السؤالين ويستطيع إتمام العمل، فليُتمَّه، حتى إن كان ترويحًا عن النفس، ولكن ليكن فيما أباحه الله ودون تمادي فيها، ونيَّته أن يتقوى وينشط بهذه التسرية على طاعة الله.

---

[1] إغاثة اللهفان 138/1-139.

أما فيما يختص بمحاسبة النفس بعد العمل، ينبغي مبدئيًا إدراك حقيقة، أن المرء لا يستطيع أن يُحصي عمله، سواء الصالح أم السيئ منه، بدقة متناهية. وهذا لأن المرء ما بين نسيانه لأعماله، وبين غافلٍ عن بعضها أنها حُسبت عند الله حسنة أو سيئة، وبين عاجزٍ عن تقدير أثر عمله عند الله. فالمطلوب الاجتهاد في الإحصاء، ثم مُحاسبة النفس على ما أُحصي، لعل الله أن يعفو عنه باجتهاده ذلك، والله المستعان.

وما هو في إطار استطاعتنا هو الأخذ بمعايير تقييم النفس، وأذكر منها ما هو اجتهادٌ شخصي مني، فربما فيه خطأ في الأخذ ببعضها أو أن هناك ما هو أقوى منها، ولكن المؤكد أن عندي نُقصان في الإلمام بالمعايير، وبالله التوفيق. إني أرى أن أدق معايير لتقييم النفس مؤسسة على أربع محاور: محور الصلاة، ومحور الأذكار، ومحور المعاصي، ومحور حسن العمل في المواقف الصعبة. ويكون مستوى المرء بناء على مُحصِّلة تلك الأمور الأربعة.

1. الصلاة. إن اتخاذ الصلاة محورًا للقياس يعتمد على قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ بِصَلاتِهِ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؛ فَيُكَمَّلُ بِهِ مَا نَقَصَ مِنْ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى نَحْوِ ذَلِكَ"[1]، ففي الحديث دليل على أن الصلاة هي عنوان أعمال المرء. ومما لا شك فيه، أن العنوان يُمثل متوسط سائر الأعمال، وذلك ومنطقي إلى حد كبير إذ إن الله لا يُعين من لا يرضى عنهم على الحفاظ على الصلوات المكتوبة في المسجد، لأن صلاة مثل صلاة الفجر تحتاج إلى عونٍ كبير من الله كي يصل العبد إلى المسجد.

قدرة المحافظة على الخمس صلوات في المسجد يستلزم عون الله، والله لا يعين على هذا إلا من يرضى عنه. والدليل على ذلك هو أن هناك صلوات تثقل على المنافقين (كما سيأتي ذكره إن شاء الله). فأخذ الصلاة كمؤشر لتقييم النفس دقيقٌ وأكثرهم شملًا.

ومحور الصلاة للقياس يكون بإحصاء متوسط الصلوات المكتوبة التي يتمكن المرء من حضورها يوميًا في جماعة المسجد، وتلك سهلة الإحصاء. ولكن يجب الانتباه أيضًا إلى نوع الصلوات التي يحضرها المرء كمؤشر، فمثلًا إن أصعب صلاة عادة على الناس هي صلاة الفجر، وأصعب صلاة على المنافقين هما الفجر والعشاء. قد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في جزء من حديث له "لَيْسَ صَلاةٌ أَثْقَلَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنْ الْفَجْرِ

[1] سنن النسائي 461.

وَالْعِشَاءِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا"[1] (حَبْوًا أي زحفًا، وذلك من أجرهما العظيم).

فهذا الحديث يعطينا معيارًا نقيس به مدى صلاح قلوبنا وصدق أقوالنا والإخلاص في أعمالنا، وذلك عن طريق تقييم أنفسنا بناء على مدى التزامنا بهاتين الصلاتين في المسجد. فإن كان المرء يؤديهما في المسجد فيستطيع أن ينفي عن نفسه أنه انحدر لمستوى النفاق، وأما إن لم يكن من أهلهما -أو يصعب عليه أحدهما- فلينتبه وليُراجع عمله فورًا. ولنُداوم على مراقبة هذا المؤشر خاصةً.

ومن أراد أن يعرف تقييم نفسه بتفصيل أكثر ودقة أكبر، فلينظر إلى التفاصيل المتعلقة بجودة الصلاة. فمثلًا، لينظر إلى كم من أولئك الصلوات يُدرك فيها تكبيرة الإحرام، وكم منها يكون في الصف الأول، وكم منها يخشع فيها، وكم يُصلِّي من النوافل.

ثم بعد الصلوات المكتوبة في القدر هناك قيام الليل، وذلك بناء على جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ: الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ"[2]. ونبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنها من أعمال الذين بلغوا منزلة الصالحين "عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأَبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ"[3]. قيام الليل من الأعمال التي تحتاج إلى عون كبير من الله كي يتقوَّى العبد عليها، وهي صلة خاصة بين الرب مع عبده، فكيف يُيسِّر الله للمتمرد أن ينالها؟ فكم يومٍ يقوم الليل فيه المرء، وما المدة التي يمكث يُصلي فيها هي من المؤشرات.

2. الأذكار. إن الأخذ بذكر الله كمؤشر هو أمر منطقي إذ إن هناك علاقة بين كم الأذكار التي يستطيع إتمامها المرء وبين تقواه لله. من يتقِ الله يكتسب ميزتين في هذا الجانب: أولًا أنه بتقواه لله يجلب رضا الله -ومن ثمَّ عونه- في الإكثار من الأذكار، وثانيًا أن العبد التقي يزداد إيمانًا وخشيةً لله فيكون أكثر هِمَّةً في ذكر الله. وهذا كله يشمله قول الله تعالى {كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ (55) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} [المدثر 54-56]، ومع أن الآيات أعمّ من مسألة الأذكار وحدها إذ إن التذكرة المقصودة في الأية الأولى هو القرآن، فإنه مما لا شك فيه هو أن الأذكار تندرج تحت ذلك السقف العام.

[1] صحيح البخاري 617، جزء من الحديث.

[2] صحيح مسلم 1983.

[3] سنن الترمذي 3472.

والآية الأخيرة تدل على أن الموعظة التي في القرآن لا ينتفع بها إلا من يرغب في تقوى الله بصدق، حينئذ يأذن الله لها أن تؤثر في ذلك العبد. فتحقيق الموعظة في العبد يحتاج إلى رغبة من العبد في تقوى الله وإلى إذن من الله. ولا شك أنه من لا يتقي الله لا يُقبل على ذكر الله، فليس منطقيًّا أن تجد عبدًا يُكثر من معصية الله ويُكثر من ذكر الله أيضًا.

فإحصاء مدى استطاعة المرء على الالتزام بذكر الله يُعطي إشارةً على مستوى صلاح المرء، بدءًا بقراءة القرآن والذي هو من أعلى وأفضل مراتب الذكر لأنه كلام الله. وهذا استدلالًا بعظم الأجر الذي نبأنا به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا؛ لا أَقُولُ 'الم' حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ"[1].

يُحصي المرء مدى ذكره لله مرورًا بأذكار الصباح والمساء، والترديد وراء المؤذن، والأذكار عقب الصلاة، وأذكار الطعام والنوم ودخول البيت والملبس وغير ذلك، وشاملًا الأذكار الأخرى التي حث عليها الرسول (صلى الله عليه وسلم) مثل قول "سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم" و"لا حول ولا قوة إلا بالله". وأفضل الذكر هو قول الشهادة كما أرشدنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ"[2]. وليلاحظ المرء أن القرآن يحتوي على هاتين الكلمتين، وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أَرْبَعٌ مِنْ أَطْيَبِ الْكَلَامِ، وَهُنَّ مِنْ الْقُرْآنِ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ"[3].

فالأذكار مؤشر على مدى صلاح المرء وبيانٌ لمنزلته عند الله أيضًا، إذ إن الله لا يُعين الشخص المُفسد على ذكره، بل وقد يمنعه من أن يذكره كما يمنع أناس من قيام الليل. والدليل على أن هناك علاقة بين صلاح المرء وحب الله له وبين ذكر الله نستنتجه من جزء لحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن أصحاب الجنة "يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ"[4]. فكم من الأذكار نستطيع إتمامه في اليوم؟

3. المعاصي. هذا مؤشر يشير إلى مدى تفلت المرء، فيجب أن يُحصي المرء كم مرة يعصي الله في اليوم، وما مستوى تلك المعاصي: أهي من الكبائر أم من الصغائر؟ ومن منظور آخر، قد يُحصي المرء ما عدد المرات التي حثته نفسه على معصية ولكنه امتنع عنها

---

[1] سنن الترمذي 2835.

[2] سنن الترمذي 3305.

[3] مسند أحمد 19267، جزء من الحديث.

[4] صحيح مسلم 5066.

لله، أيفعل ذلك كثيرًا أم قليلًا؟ ولينظر المرء أيضًا إلى مدى إقباله على الاستغفار والتوبة، فيُحصي عدد مرات استغفاره في اليوم، والمُدة التي يستغرقها حتى يرجع منيبًا إلى ربه تائبًا بعد أن وقع في المعصية. ومعلوم أن الأعمال الصالحة والمعاصي متضادان، من حيث القدرة عليهما معًا ومن حيث الجزاء في الآخرة، فالنظر إلى الاثنين معًا يُعطي تقييمًا أدق لحال النفس.

4. حسن العمل في المواقف الصعبة. هذا المعيار يُقاس به، وهو عن طريق النظر إلى تصرف المرء فقط في وضع خاص ومحدد: عندما تكون العوامل أو الظروف مخالفةً لرغبته. وللشرح، إن المرء إذا وُضع في موقف صعب على النفس، يظهر آنذاك معدنه وحقيقته، ويظهر حُسن وصدق النيات من عدمهما.

فمثلًا، إن المرء إذا وجد نفسه في مفترق طرق: إما أن يكذب ويجني مبلغًا من المال أو أن يقول الصدق ولكن يفوته ذلك المال، خاصة مع احتياجه الماسّ للمال. آنذاك تتبين حقيقة المرء، ونياته هي التي تُملي عليه أفعاله في أي الاتجاهين. فالمؤمن يثبت ويقول الصدق ولو فاته المال أو قيل عنه سفيه، وأما المُخفِق هو الذي يُبرر لنفسه قول الكذب لأخذ المال؛ فالنيات هي التي فرَّقت بينهما في العمل عند حضور الحاجة. المؤمن نيته هي إرضاء الله فصدق مع الله بإعراضه عن الكذب، والمُخفق نيته تلبية شهوته في الثراء والدنيا فظهر ذلك بتحايله لأخذ المال.

بشكلٍ عام، مبدأ المرء عندما تكون العوامل موافقة لرغبته أو عكسها يكون إما ثابتًا أو متغيرًا، وهذا مؤشر على صلاح المرء ومصداقيته، فالتقي لا يُغير مبادئه عند الضغوطات أو الشدائد. وقد أرشدنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) على الثلاث عوامل الرئيسية التي قد يحدث فيها مفارقة في تصرفات المرء تجاه قضية ما، وهي: عند غياب رؤية الناس له وعند الغضب وعند فقره أو غِناه. قال (صلى الله عليه وسلم) "وَثَلاثٌ مُنْجِيَاتٌ: خَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا"[1] (وَالْقَصْدُ أي الاعتدال والتوسط، والمعنى هو عدم الإسراف في الغنى وما شابه، وعدم القتر أو الشُح في الفقر وما شابه). فقد يفعل المرء الصواب حتى تغيب أعين الناس عنه فيرتكب المُخالفات، أو قد يُبذِّر في الغنى ويسخط إذا افتقر فيَقتُر، أو قد يعدل عندما يكون سعيدًا وراضيًا ولكن يبطش ظلمًا إذا غضب، وما هؤلاء ممن يبلغون الدرجات العُلى من الصلاح.

[1] السلسلة الصحيحة للألباني 1802.

ومن أصعب المواضع التي تتبين فيها نيات المرء وحسنها هي عندما يظلمه أحدٌ ولكن يكون للظالم حقٌ عنده يطالبه به، فهل سيُحقق العدل عندما يغضب؟ وهذا الموقف حدث كثيرًا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلم يمنع الظالم من حقه عنده، فقد روى لنا سيدنا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): قَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسْمًا [أي يقسم الغنائم على الناس، فأعطى أناس أكثر من آخرين حتى يؤلِّف قلوبهم للإسلام]، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ؛ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَغَضِبَ حَتَّى رَأَيْتُ الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ "يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ"[1]. فلم يأخذ الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الظالم الغنائم ولم يُعاقبه.

بل وقد أحسن على من ظلمه وآذاه في بعض المواضع، وهذه منزلة أعلى من الوفاء بالحق فحسب إلى منزلة الإكرام، فإنه (صلى الله عليه وسلم) يبتغي وجه الله ولا يلتفت إلى شخصه ولا إلى مقاييس الدنيا. يروي لنا سيدنا أنس بن مالك (رضي الله عنه): كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ[2] (بُرْدٌ أي رداء يُلبس فوق الثوب؛ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ أي أوصى بأن يُعطوا الأعرابي من المال؛ صَفْحَةِ هو جانب العُنُق).

والخلاصة هي: ما الذي يفعله المرء عندما تتعارض إرادته أو شهوته مع ما حدده الله من الحق –مع إرادة الله–، أيهما أولى عنده: إرادة الله أم نفسه؟ فالرجل الصالح، الذي يُحب الله بصدق، هو الذي يمتثل لأمر الله {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا} [الأحزاب 36]. عند العبد الصالح، يكن الله ورسوله أحب إليه مما سواهُمَا، حتى على نفسه برغباتها، ويكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم). المرء إذا صلُحَت نيَّته، ظهر ذلك في عمله وخصوصًا في المواقف الثقيلة، فهو مؤشرٌ دقيقٌ على صلاح المرء وحُبِّه لله، فهل منطقيٌ أن يزعم المرء محبة الله بينما يُقدِّم ما تُحبه نفسه من شهوات فوق ما يُحبِّه الله من أفعال عندما يتعارضان؟ هو في الحقيقة آنذاك يُحب نفسه أكثر مما يُحب الله.

---

[1] صحيح البخاري 2917.

[2] صحيح البخاري 2916.

هذه المعايير الأربعة تقترب من معايير ذَكرها الإمام الحسن البصري (رحمه الله) عندما كان يتكلم عن قياس مدى إيمان العبد وقُربه من ربه، قائلًا: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم... وإلا فاعلموا أن الباب مُغلق[1]. ومنطقيًّا، إن العبد الذي لا يُتابع نفسه ولا يُحاسبها سيُكثر من عصيان ربه، إلى أن يسخط عليه الله ويُغلق بابه أمامه، فهذه المعايير –التي ذكرها الإمام البصري– مؤشر على مدى عصيان العبد أيضًا.

وختامًا مُجملًا لهذا الموضوع، يجب على المرء أن يُتابع أعماله حتى لا تنفلت نفسه منه ويضل، وليُداوم مراجعة نفسه لئلا يغتر بأعماله الصالحة ويستصغر معاصيه. قال ابن القيم (رحمه الله) في الآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر 18]: أمر الله سبحانه العبد أن ينظر ما قدّم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟ والمقصود من هذا النظر: ما يُوجِبه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد، وتقديم ما يُنجيه من عذاب الله، ويُبيّض وجهه عند الله[2].

وتساؤلًا أخيرًا ونصيحة، هل جرب أحدنا أن يحصي أعماله الصالحة وأعماله السيئة ليوم واحد، يكتبها في ورقة ثم يُقارنهما؟ هل حاول أحدنا استرجاع وحصرِ أعماله الصالحة التي يراها كثيرة، فيُقيّم هل هي فعلًا كثيرة أم توهم له؟

## الاجتهاد في إصلاح القلب

هناك أسباب معينة على إصلاح القلب، وقد أجمل إبراهيم الخواص قائلًا: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين[3]. وعلى الوجه الآخر، هناك مفاسد تحجب العبد عن ربه، فإذا اجتهد العبد في التخلص منها حصلت له سلامة القلب. وقد جمعها الإمام ابن القيم (رحمه الله) قائلًا عن القلب: ولا تتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السُنَّة، وشهوة تخالف الأمر [أي من اتباع شهوة تخالف ما أمر الله به]، وغفلة تناقض الذكر، وهوًى يناقض التجريد والإخلاص [في العمل لله][4]. ويتبين لنا من هذه الخلاصة أن البعد عن المعصية يحتاج إلى جُهدٍ يُبذل وتضحيات تُنفَّذ.

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم 424/2.

[2] مدارج السالكين لابن القيم 187/1.

[3] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني 327.

[4] الجواب الكافي لابن القيم 122.

وحول تلك المحاور التي ذكرهن ابن القيم ينبغي لنا إصلاح قلوبنا، وهذا حتى لا تطرأ فكرة العصيان كثيرًا في نفوسنا، وإن طرأت فيصعب ويثقل علينا ارتكاب المعصية. وأهمية إصلاح القلب تتبين لنا من جزء من حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ"[1]. أما في الآخرة، فإن إصلاح القلب يعود على العبد بالمنفعة، إذ يرفع من عذاب الله عنه {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء 88-89]. بل وتكون له الجنة إن شاء الله إذ بشَّرنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ؛ وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ؛ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ"[2] (مُقْسِطٌ أي عادل).

قد تكلمنا أن مِن تبعات المعاصي أنها تجعل القلب يقسو أكثر فأكثر، حتى قد يصبح مثل الذين قال تعالى عنهم {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة 74]. ومن ثمَّ، من يبتعد عن المعاصي ينصلح حال قلبه. والحقيقة هي أن العكس صحيحٌ أيضًا، أن من يعمل على إصلاح قلبه ويجعله رقيقًا سيجد مشقة في أن يحمل نفسه على انتهاك حدود الله أو التجرؤ بظُلم مخلوقات الله؛ فالعلاقة بين المعصية والقلب متبادلة، كلاهما يؤثر على الآخر.

ومن إصلاح القلب أن يجعل العبد قلبه ليّنًا رقيقًا، وإن في ترقيق القلب تنزيهًا للنفس عن المعصية إذ يستنكرها أكثر، ويبقى السؤال عن كيفية ترقيق القلب. القاعدة الأساسية هي زيادة الإيمان بالله، وهذا يحصل بعدة طُرق ولكن يدور حول ثلاث محاور: فيما يكون مع الله، وفيما يكون مع الناس، وفيما يكون مع الجماد والحيوان.

أما محور ما يكون مع الله، فهو ما يتقرب به العبد من ربه مثل الصلاة، وقراءة القرآن بتدبر، والأذكار، وتعلم العلوم الشرعية وحضور مجالسها. ودليل تأثير تقوية علاقة العبد بربه على القلب يوجد في قوله تعالى {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر 23]. فمن يُقبل على منهج الله ويستجيب للحق يلين قلبه إلى الرِقَّة، وأما من يُعرض عن الله يقسو قلبه تدريجيًا {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد 16].

---

[1] صحيح البخاري 50.

[2] صحيح مسلم 5109، جزء من الحديث.

فأمور مثل الزهد عن متاع الدنيا، وتَذَكُّر أمور الآخرة مثل الموت، والقبر (مع زيارته عندما يُمكن)، ومُحاسبة النفس، كلها تساهم في تليين القلب وجعله يرق. ومن تلك الأمور هو التواضع والتذلل لله بالدعاء. الدعاء عامة يُرقق قلب العبد، إذ إنه يُخضع نفسه لله بإقراره أن الله هو القوي المُجيب للدعوات، وأنه تعالى رب العباد الذي يُوَّجَه إليه العبادة (بالدعاء في هذه الحالة) ويُلجأ إليه للعون. وفيه أيضًا إقرارٌ من العبد بضعفه وعجزه، أنه يحتاج إلى ربه ولا يستطيع أن يُدبِّر أموره ومن ثمَّ لا يستغني عنه تعالى. أما في دعاء المرءِ لنفسه أن يُرقق الله قلبه ويصرفه إلى الطاعة، فهذا له تأثير مُضاعف، إذ إن العبد يُخضع قلبه لله بالدعاء في المقام الأول، وأن الله يُليِّن قلب العبد استجابة للدعاء ثانيًا.

فمع اجتهادنا في إصلاح القلب علينا بالدعاء أن يُصلحه اللهُ لنا، كما علّمنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ"، ثم قال "اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ"[1]. وفي رواية أخرى جاء أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يُكثر من أن يقول "يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ"، قَالَتْ السيدة عائشة (رضي الله عنها): يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تُكْثِرُ تَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ، فَقَالَ "إِنَّ قَلْبَ الْآدَمِيِّ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا شَاءَ أَزَاغَهُ وَإِذَا شَاءَ أَقَامَهُ"[2].

وأما المحور الذي يكون مع الناس، فهو يرتكز على كسر حاجز الكبر والغرور وتعظيم النفس والانفصال عن معاناة الناس لدى المرءِ، فيصبح قلبه يتأثر بما يحدث مع إخوانه المسلمين. وهذا من الإيمان بالله: أن يكون المؤمنون بالله إخوة في الله، كالجسد الواحد، إذا اشتكى عضو واحد تكاتف معه سائر الأعضاء؛ يتألم المؤمن لألم أخيه المُصاب.

فالأمور مثل زيارة المريض واتباع الجنائز من الأمور التي تتعدد فوائدها، منها تأليف المسلمين ببعض، ومنها أنها تُصلح قلب العبد، حتى إن الله قد جعل بعضًا منها حقًّا للمسلم على المسلم. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ"[3] (وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ أي إلى الطعام؛ وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ أي القول له 'يرحمكم الله' بعد عطسته). وبالطبع، هناك نُصرة المسلم لأخيه إذا ظُلم، وهذا في حديثٍ (ضعيف السند) لوحده "مَنْ أُذِلَّ عِنْدَهُ مُؤْمِنٌ فَلَمْ يَنْصُرْهُ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْصُرَهُ، أَذَلَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[4].

---

[1] صحيح مسلم 4798.

[2] مسند أحمد 23463.

[3] صحيح البخاري 1164.

[4] مسند أحمد 15416.

وهناك عدة أدلة على ارتباط طريقة معاملة الناس بقلب العبد، مثل ما ترويه لنا السيدة عائشة (رضي الله عنها): جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟"[1]. وهذا الحديث فيه إشارة على أن العطف على الأبناء بالتقبيل من دلالة، وأيضًا لاستجلاب الرحمة في القلب.

ومما يُلين القلب، فيما يتعلق بالناس، ما نصح به الرسول (صلى الله عليه وسلم) رجلًا عندما جاءه واشتكى له قسوة قلبه، فرد عليه قائلًا "إِنْ أَرَدْتَ تَلْيِينَ قَلْبِكَ فَأَطْعِمْ الْمِسْكِينَ، وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ"[2]. فأمور مثل مُجالسة وصُحبة المساكين والفقراء وإطعامهم، والعطف على اليتيم، ومخالطة ذوي العاهات والمبتلين، تجعل المرء يستشعر حالهم ويُذهب عزة وكبر النفس ويقودونه إلى التواضع مع الناس، إضافة إلى إدراك نعم الله عليه فيكون شاكرًا مُمتنًّا فيخضع قلبه لله ويرقّ.

ومن أصعب الأمور، ولكن من أنفعها، هو التواضع ومُساواة خادم المرء (أو العامل أو الموظف أو غيرهم ممن تحت إدارة المرء) معه في المأكل والملبس والتكليف. قد عاتب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سيدنا أبا ذر (رضي الله عنه) عندما أساء معاملة عبد عنده (كان قد عايَرَه بأُمِّه)، فزجره وأوصاه قائلًا "يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ"[3]. فاستجاب سيدنا أبو ذر حتى إنه شوهد وهو يلبس مثل خادمه ويحكي هذه الواقعة لمن يستفسر، وكان الملبس متواضعًا.

ويتبقى الكلام عن المحور الذي يتعلق بما خلقه الله من جمادات وحيوانات. إن التمعُّن في ما خلقه الله يزيد من إيمان المرء، ويدرك أكثر فأكثر مدى عظمة الله، وهذا ما أثنى عليه الله قائلًا {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران 191]. فعندما يرى الإنسان كم أن البحر شاسعٌ وصوته مُسكِنٌ، وكم أن السماء جميلة بسحابها وشمسها، وكم من تصرفات الحيوانات تُشبه الإنسان، ومدى جمال بعض الحشرات في نمط ألوانها ودقة الرسوم التي عليها، يرى العجائب في خلق الله وإبداع الخالق فيهم، فيزداد تقربًا إلى الله ويرق قلبه. هذا لأنه يشعر ويُدرك أنه جزء من هذا الكون الجميل الدال على عظمة الله، وأنه عبدٌ لله مثلهم، فيجتهد في طاعة الله والابتعاد عن عصيانه.

ومن آثار التمحيص والتفكر في خلق الله أن العبد يُحافظ على البيئة حوله ويرأف ويعطف على الحيوان، وهذا من رقَّة القلب. والرفق بالحيوان شيء عظيم عند الله إذ هو مؤشر من المؤشرات

---

[1] صحيح البخاري 5539.

[2] مسند أحمد 7262.

[3] صحيح مسلم 3139، جزء من الحديث.

على قلبٍ طيبٍ سليمٍ، فيغفر الله به الذنوب كما دلت القصة التي رواها الرسول (صلى الله عليه وسلم) "بَيْنَا رَجُلٌ بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي؛ فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا؟ فَقَالَ "فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ"[1] (الثَّرَى هو التراب الرطب؛ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أي في إرواء أي حيوان).

على الصعيد الآخر، من يُعذِّب الحيوانات عبثًا أو يقتلهم لهوًا أو يُنكِّل بهم فهو مذمومٌ عند الله، إلى حد أنه قد يُلعن في بعض الحالات، أي يُطرد المرء من رحمة الله بالمِثل كما لم يرحم المرء ذاك الحيوان. جاء عن ابن عُمَرَ (رضي الله عنهما) أنه مرَّ بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ ذات مرة قَدْ نَصَبُوا طَيْرًا وَهُمْ يَرْمُونَهُ، وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ لَعَنْ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ مَنْ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا[2] (يَرْمُونَهُ أي القذف بالنبل أو السهام أو ما شابه؛ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ أي ما لم يصب الهدف؛ غَرَضًا أي هدفًا للتدريب على النشان، وليس للصيد لأكله). وهذا منطقي ومنصفٌ، إذ إن من يستضعف حيوانًا فيعذبه ويستمتع بهذا يُدل أن قلبه قاسٍ، فيُعامله الله بلا رحمة جزاءً من جنس العمل، فيقهره الله عند الحساب بقوته وقدرته عليه كما قهر المرء مخلوقات الله بقوته وقدرته عليهم.

يُروى أيضًا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذات مرة دخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ، فَسَكَتَ، فَقَالَ "مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟" فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَقَالَ "أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ"[3] (حَائِطًا أي بُستانا؛ ذِفْرَاهُ أي أصل الأُذُن وطرفها؛ تُجِيعُهُ أي تُهمل إطعامه إلى أن يجوع؛ وَتُدْئِبُهُ أي تُتعبه بالكد والأحمال).

عامةً فيما يختص بالقلب، قال ابن الجوزي (رحمه الله): اعلم: أن أشرف ما في الإنسان قلبه، فإنه العالم بالله، العامل له، الساعي إليه، المقرب المكاشف، بما عنده، وإنما الجوارح أتباع وخدام له يستخدمها القلب استخدام الملوك للعبيد. ومن عرف قلبه عرف ربه، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم ونفوسهم، والله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته أن يمنعه من معرفته ومراقبته، فمعرفة القلب وصفاته أصل الدين، وأساس طريق السالكين.

---

[1] صحيح البخاري 2286.

[2] صحيح مسلم 3619.

[3] سنن أبي داود 2186.

(في مداخل إبليس في قلب الإنسان) اعلم: أن القلب بأصل فطرته قابل للهدى، وبما وضع فيه من الشهوة والهوى، مائل عن ذلك، والتطارد فيه بين جندي الملائكة والشياطين دائم، إلى أن ينفتح القلب لأحدهما، فيتمكن، ويستوطن، ويكون اجتياز الثاني اختلاسًا كما قال تعالى {مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} [الناس 4] وهو الذي إذا ذُكِرَ الله خنس (أي تراجع وتأخر)، وإذا وقعت الغفلة انبسط، ولا يطرد جند الشياطين من القلب إلا ذكر الله تعالى، فإنه لا قرار له مع الذكر.

واعلم: أن مثل القلب كمثل حصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن، ويملكه ويستولى عليه، ولا يمكن حفظ الحصن إلا بحراسة أبوابه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يعرفها، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد، وهي كثيرة، إلا أنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان.

فمن أبوابه العظيمة: الحسد، والحرص، فمتى كان العبد حريصًا على شيء، أعماه حرصه وأصمَّه، وغطى نور بصيرته التي يعرف بها مداخل الشيطان. وكذلك إذا كان حسودًا فيجد الشيطان حينئذ الفرصة، فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته، وإن كان منكرًا أو فاحشًا.

ومن أبوابه العظيمة: الغضب، والشهوة، والحدَّة. فإن الغضب غول العقل، وإذا ضعف جند العقل هجم حينئذ الشيطان فلعب بالإنسان.

ومن أبوابه: حب التزيين في المنزل والثياب والأثاث، فلا يزال يدعو إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها، والتزين بالثياب، والأثاث، فيخسر الإنسان طول عمره في ذلك.

ومن أبوابه: الشبع، فإنه يُقَوِّي الشهوة، ويُشغِل عن الطاعة.

ومنها: الطمع في الناس، فإن من طمع في شخص، بالغ بالثناء عليه بما ليس فيه، وداهنه، ولم يأمره بالمعروف، ولم ينهه عن المنكر.

ومن أبوابه: العجلة، وترك التثبت، وقد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم "التَّأَنِّي من اللهِ، والعجَلَةُ من الشيطانِ"[1].

ومن أبوابه: حب المال، ومتى تمكن من القلب أفسده، وحمله على طلب المال من غير وجهه، وأخرجه إلى البخل، وخوَّفه الفقر، فمنع الحقوق اللازمة.

ومن أبوابه: حمل العوام على التعصب في المذاهب، دون العمل بمقتضاها.

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني 1795.

ومن أبوابه أيضًا: حمل العوام على التفكير في ذات الله تعالى، وصفاته، وفي أمور لا تبلغها عقولهم، حتى يُشككهم في أصل الدين.

ومن أبوابه: سوء الظن بالمسلمين، فإن من حكم على مسلم بسوء ظنه، احتقره وأطلق فيه لسانه، ورأى نفسه خيرًا منه، وإنما يترشح سوء الظن بخبث الظان، لأن المؤمن يطلب المعاذير للمؤمن، والمنافق يبحث عن عيوبه. وينبغي للإنسان أن يحترز عن مواقف التهم، لئلا يساء به الظن، فهذا طرف من ذكر مداخل الشيطان، وعلاج هذه الآفات سد مداخل بتطهير القلب من الصفات المذمومة، بقي للشيطان بالقلب خطرات واجتيازات من غير استقرار، فيمنعه من ذلك ذكر الله تعالى، وعمارة القلب بالتقوى[1] (انتهى بتصرف).

والخلاصة هي أن إصلاح القلب أمرٌ أساسي في تجنب المعاصي، إذ إن القلب السليم يعلو فيه الإيمان، وعلو الإيمان يجعل العبد يتقي الله. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لا يَسْتَقِيمُ إيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ"[2] (بَوَائِقَهُ أي أذاه). وهناك كتب متخصصة لتليين وترقيق القلب تُصنَّف بكتب 'الرقائق'، لمن أراد أن يتزود في هذا الجانب.

## إعطاء كتاب الله حقه

إن القرآن فيه فوائد كثيرة للعبد، منها أنه يُحيل بينه وبين المعصية. ولو أننا أدركنا قيمة القرآن لاجتهدنا في قراءته وتدبره والعمل به، وحفظه أيضًا. قال تعالى {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر 21]. حقًا، إن هذا القرآن له شأن، وما له ألا يكون له شأن وهو كلام خالق الكون الحكيم العليم، ولكننا نُقَصِّر في حقه؛ قصّرنا في حق قراءته وتدبُّره وربما العمل به أيضًا. وفي هذه الآية إشارة لنا على عظم قدر القرآن ونعمة أنه أُنزل لنا، مما يحث المرء على تقديره وأداء حقه، ويا ليتنا نُقدِّره حق تقديره ونستوعب قيمته. ولو أننا علمنا قدر القرآن لكان حالنا معه كما سيكون حال الجبال، وما كنا لنهجره.

وجاء في كتاب الله {كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَن شَاء ذَكَرَهُ} [عبس 11-12]. هذا القرآن، فيه شفاء للنفس الأمّارة بالسوء، فيُنصَح للعاصي أن يُكثر من قراءة القرآن ولو بالضغط على النفس لأنه دواء وشفاء إن شاء الله من مرض العصيان. فالنفس المُستعصية تنفر من القراءة، ولكن متى ما

---

[1] منهاج القاصدين ومفيد الصادقين لعبد الرحمن بن الجوزي 3/3-5.

[2] مسند أحمد 12575، ضعفه الأرناؤوط.

لزمته تُعايشه وتتأثر به وتُحبه، وهذا من عجائب القرآن: أنه دواء للنفس الشاردة تمامًا مثل الدواء المُركَّب للبدن.

والقرآن فيه تذكرة، فيحث النفس على الإصلاح والامتناع عن المعصية، فيُهذِّبها، والنفس العنيدة لا ينفع معها شيء إلا التذكرة بالمنطق، إن كان سيؤثر فيها شيء، لأنه لن ينفع معها الإجبار الذي قد يزيدها تمردًا. فالتذكرة تُخاطب العقل فتجعله يُدرك الحقيقة، وتجعل النفس تقتنع بما وجب فعله، وهو أمر اختياري الآن في الدنيا، بخلاف الوضع في الآخرة، ومن لم ينفع معه سبيل التذكير فلن يؤثر فيه أي سبيل آخر.

والقرآن نوع من أنواع ذكر الله، كما أن التهليل والتكبير والتحميد ذكرٌ لله. ومن فوائد ذكر الله أنه يُحَصِّن المرءِ من وساوس الشيطان ونفسه، مما يُقلل من ارتكاب المعاصي، فذكر الله كالدرع من المعاصي. وذلك ما نوَّه إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وحث على أن يُحَرِّز المرءِ نفسه بالذكر في قوله "وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنْ الشَّيْطَانِ إلا بِذِكْرِ اللَّهِ"[1] (فَأَحْرَزَ أي يحفظ ويقي نفسه).

للعلم، حقوق القرآن ثلاث: قراءته، وتدبره، والعمل بما فيه. وعلى هذا، فإن هجر القرآن يُصنَّف على هذه المحاور. وفيما يختص بحق العمل بالأحكام التي في القرآن، فإن العبد إذا طبَّقه ولَزِمَهُ فإنه لا يزيغ عن صراط الله، ويكون أقل عُرضة للإقبال أو الانخداع إلى معصية الله. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في جزء من حديث له "وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابُ اللَّهِ"[2]. وجاء في رواية أخرى، ضعيفة الإسناد لانقطاعٍ فيها، "تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ"[3]. بهذا النهج يَسلَم العبد من الأضرار المعنوية والجسدية، وفوق هذا فإنه يغنم في الدنيا والآخرة بأقصى كفاءة.

## التطلع في علوم الدين

المسلم الذي ضعف إيمانه فأكثر من المعاصي يوشك أن يدخل النار حتى يُكَفِّر عن سيئاته، وهذا هو العدل. ذلك كي يكون هناك توازن واستقرار في الدنيا، وحتى لا يتملص أحدٌ من عدل الله، فليس هناك ثغرةٌ في نظام الله الكوني. والسبب الرئيسي أن بعض المسلمين يدخلون النار هو ضعف إيمانهم في البعث والعقاب إلى درجة أنهم أكثروا من عصيان الله، فكان عقابهم أن يدخلوا النار التي

[1] سنن الترمذي 2790، جزء من الحديث.
[2] صحيح مسلم 2137.
[3] موطأ مالك 1395.

لم يرعوا وجودها حق الرعاية، واستبعدوا أن يدخلوها بالرغم من تهاونهم. وأقوى الإيمان هو ما أدركته حواس الشخص من الرؤيا واللمس وغير ذلك، وهو إيمان المعاينة للأمر؛ فالذي يدخل النار يزداد إدراكًا وإيمانًا بها بالمُعاينة، ويدرك أن النار حق للعصاة.

وعكس ذلك صحيح، أن من قوي إيمانه تجده قليل المعصية، ومن ثمَّ يشفع له إيمانه القوي وتقواه عن العقوبة بالنار مُعاينةً. فالسؤال هو: كيف أُقوي إيماني؟ كيف يكون فلانًا أكثر مني طاعةً لله وبعدًا عن معصية الله؟ لماذا يجد هذا الشخص طاعة الله خفيفة عليه وسهلة بالنسبة إليه، بل ويحبها، ومعصية الله ثقيلة عليه وصعبة، بل ويشمئز منها؟ وإجابة هذا السؤال المهم باستفاضة يخرج عن نطاق هذا الكتاب، ولكن لنعِ أن من أسس تقوية الإيمان هو العلم، كما جاء في القرآن {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء} [فاطر 28، جزء من الآية]. ومن السنّة الشريفة جاء عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ"[1]، والأفضلية تعني أنه أعلى إيمانًا من ضمن الأمور. فالعلم يزيد المتعلم هدًى وحكمةً وتقوةً وتأنيًا ورشدًا ويقينًا.

وعن عَطَاء بن أبي رباح (رحمه الله) قال: قال موسى (عليه السلام): يَا رَبِّ أَيُّ عِبَادِكَ أَحْكَمُ؟ قَالَ: الَّذِي يَحْكُمُ لِلنَّاسِ كَمَا يَحْكُمُ لِنَفْسِهِ. قَالَ: يَا رَبِّ أَيُّ عِبَادِكَ أَغْنَى؟ قَالَ: أَرْضَاهُمْ بِمَا قَسَمْتُ لَهُ. قَالَ: يَا رَبِّ أَيُّ عِبَادِكَ أَخْشَى لَكَ؟ قَالَ: أَعلَمُهُمْ بِي[2]. فلنُكْثر من العلم الشرعي، فهو خير الزاد والعُدة للحياة القادمة، ولنُكْثر من مجالسة الصالحين إذ إنها تطهِّر القلوب من الريبة وضعف العزيمة.

وأوصانا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ، وَقَبْضُهُ أَنْ يُرْفَعَ"، وَجَمَعَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ الْوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الإِبْهَامَ هَكَذَا، ثُمَّ قَالَ "الْعَالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ شَرِيكَانِ فِي الأَجْرِ، وَلا خَيْرَ فِي سَائِرِ النَّاسِ"[3]. والتعلم واجب علينا، كي لا نضل بالجهل والآراء الشاذة والأهواء، وبعد العلم وجب العمل، لأن العمل هو الدليل على الإيمان بذلك العلم. يُروى عن أبو الدَّردَاء أنه قال: لا تَكُونُ عَالِمًا حَتَّى تَكُونَ مُتَعَلِّمًا، وَلا تَكُونُ بِالْعِلْمِ عَالِمًا حَتَّى تَكُونَ بِهِ عَامِلًا، وَكَفَى بِكَ إِثْمًا أَنْ لا تَزَالَ مُخَاصِمًا، وَكَفَى بِكَ إِثْمًا أَنْ لا تَزَالَ مُمَارِيًا، وَكَفَى بِكَ كَاذِبًا أَنْ لا تَزَالَ مُحَدِّثًا فِي غَيْرِ ذَاتِ اللَّهِ[4] (مُمَارِيًا أي مُجادلًا).

---

[1] سنن الترمذي 2606، جزء من الحديث.

[2] سنن الدارمي 365، الحديث منقطع.

[3] سنن ابن ماجه 224.

[4] سنن الدارمي 295.

فإن لم نتعلم ونعمل بما نتعلمه، يوشك الله أن يرفع العلم عنا عقابًا لنا، فنحتار ونختلف ونَضِل. وذلك مما حذرنا منه الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"[1]. ومن أنواع العمل بما نعلم هو التوبة، فأغلب الناس يعلمون التوبة وشروطها، ولكنّ كثيرًا منهم لا يعملون بها أيضًا، فكيف ينتفعون ويؤجرون عليها وهم لم يعملوها؟ فمن لم يستغفر ويتب ولكن يأمل في رحمة الله ومغفرته فقد تمنى على الله، وأضاع نفسه، لأنه تواكل ولم يأخذ بأسباب المغفرة، فإن شاء الله عذبه وإن شاء رحمه.

قد جاء في تفسير الآية (عندما يُنادي المنافقون على المؤمنين يوم القيامة) {يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [الحديد 14] أنهم فتنوا أنفسهم بزرع الفتنة بين المسلمين، وتربصوا الدوائر والضرر بالنبي (صلى الله عليه وسلم) وبالمسلمين. هذا وارتابوا عن تصديق النبوة وحقيقة الإسلام، وغرتهم الأماني الباطلة أن يصيب الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين الضعف والدوائر. ولكن على محملٍ آخر في تفسير "فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ"، وهو الذي يتعلق بموضوعنا، أنه يحدث لهم بمعاصيهم، "وَتَرَبَّصْتُمْ" بالتوبة، "وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ" أي طول الأمل والمغفرة لهم على أفعالهم، "وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ" أي الشيطان خدعهم بأن أطمَعَهم في النجاة من عقوبة الله والسلامة من عذابه.

وهذا فيه إشارة إلى أن المتراخين في دين الله لهم نهجٌ مُتَّبع يتميز بصفات مقرونة، ويتشابهون في تلك الصفات التي يُعرَفون بها. وذلك المنهج، وصفاتهم، أنهم يزرعون الفتنة في المجتمع، يصاحبه كثرة عصيانهم وقلة أعمالهم الصالحة، ووجود خصال المنافقين فيهم ما بين الكذب وخيانة الأمانة ومخالفة العهود والفجور عند المخاصمة.

وأيضًا يتربصون بالمسلمين، ويفرحون إما بوقوع عليهم ضرر وإما بفوات منفعةٍ عليهم، إلى حد أنهم يمكرون بالمسلمين، فيخونوهم قولًا وعملًا آملين أن يصيب المسلمين الأذى والذلة. وكثيرًا ما يتعاونون مع أعداء المسلمين، وهذا من شدة بغضهم وحسدهم من المسلمين لأنهم يريدون التمسك بشرع الله. وذلك كله كي ينالوا من دين الله لشدة غيظهم من أحكام الله التي تحيل بين الناس وبين عبادة متاع الدنيا وإطلاق العنان للشهوات، وإسقاط الإسلام هو غايتهم العُلى، وليس هدفهم الأساسي أفراد المسلمين.

والمفارقة أنهم قد يُقرِنون مع هذا كُله نيةً للتوبة بعد إتمام ذلك كله، عند تقدم عمرهم وبعد تحقيق غاياتهم. فهم يتمنون المغفرة بعد تلك المصائب التي اقترفوها، أو في أسوأ افتراضاتهم هو

[1] صحيح البخاري 98.

المكوث اليسير في جهنم ثم يدخلون الجنة. فمَثَلهم مَثَل الذين قال عنهم الله {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مُّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [الأعراف 169]. "يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى" أي ما يُعرض عليهم من حطام الدنيا وإن كان من الحرام. "وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مُّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ" أي يتكرر الوضع عندما يُعرض عليهم متاعٌ من الدنيا فتنةً لهم، وإن تابوا، فإنهم يُعيدوا فعلتهم بأخذ من الدنيا بالحرام ولا يرفضون منها شيئًا. فهم مُصرّون على العصيان، ومع ذلك يأملون –بل ويجزمون– أنهم سيُغفر لهم.

ذلك كله وهم يرتابون عن التصديق بالإسلام جُملةً أو تفصيلًا (أي يُنكرون بعض الشرائع التي لا تُناسب منطقهم الضال أو لا تكون متماشيةً مع هواهم)، فيُحَكِّمون عقولهم القاصرة فوق قوانين الله الحق. ويُقدمون هواهم فوق شرع الله الذي بيّنه لنا لننتفع به، وتلك الصفة مقرونة أنهم يُشككون في أهمية التوبة، فيتهاونون بها لأنهم في شك عن أمور الآخرة أيضًا أو أن يصيبهم العذاب. وفوق ذلك أن غرّهم الأماني أن يضعف المسلمون حتى أصبحوا في نفس الخانة مع الماكرين الحاسدين على الإسلام، فيكونون سواء في الجزاء.

ولعل خلفية تربصهم بالمؤمنين هو ظنًّا منهم أن الله سيمتنع عن تعذيبهم إذا أصبح الناس جميعهم ماءً واحدًا في الفساد، على مبدأ: إذا لم أستطع أنا أن أرتقي لمستواك فانحدر أنت حتى تلاقني في مستواي. وذلك شبيه بما أشار إليه قول الله {وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء} [النساء 89، جزء من الآية]، وفي قول الله أيضًا {وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا} [النساء 27].

فيا ليت المفسدين اتبعوا شهواتهم وانتهوا عند ذلك الحد، ولكن بلغ فجور كثير منهم إلى أنهم لم يقتصروا على أنفسهم، فأحبوا استدراج الناس أيضًا إلى اتباع الشهوات مثلهم، فأحبوا أن تشيع الفاحشة في المتقين لله، فما تركوهم في حالحم لينجوا. أولئك الساعون لنشر الفساد وعصيان الله قد قال تعالى فيهم {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النور 19].

وذلك الحقد مَقرونٌ بطول الأمل في الحياة والاستمتاع بها، ملحوقة بتوبة ليفوزوا بالدنيا والآخرة، فلا كانوا مع الكفار علانا ولا مع المسلمين باطنًا، لا يديمون الانتساب إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، قد أنشأوا دينًا خليطًا فيه أن لهم أن يهدموا الإسلام الذي لا يؤمنون بشرائعه ولكن يؤمنون أن باب التوبة عند الله مفتوح لهم أيضًا! أولئك قد غَرهم الشيطان بالله فأقنعهم أنهم ينجون من عذاب الله بمكرهم، بالرغم من قبح معاصيهم والمصائب التي تُخلفّها أفعالهم وكيدهم بدين الله. وهذا الفخ ألذي أوقعوا أنفسهم فيه إنما هو حصاد أعمالهم وصفاتهم المذكورة التي بها أعانوا الشيطان على أنفسهم،

ففتحوا الباب للشيطان (بل ودَعَوه ومكَّنوه عليهم) ليكون له سلطان عليهم ومرشدهم، وبالطبع خدعهم وغدر بهم بعد أن تمكن منهم.

وفي توضيح لنا عن فوائد العلم، وتبعات التخلي عنه، قال سيدنا علي (رضي الله عنه) وهو يوصي كُمَيْلُ بن زيادٍ: الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا. وَاحْفَظْ مَا أَقُولُ لَكَ: النَّاسُ ثَلاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ. الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ: الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ، وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ؛ الْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْعَمَلِ، وَالْمَالُ تُنْقِصُهُ النَّفَقَةُ، وَمَحَبَّةُ الْعَالِمِ دَيْنٌ يُدَانُ بِهَا. الْعِلْمُ يُكْسِبُ الْعَالِمَ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الأُحْدُوثَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ[1]. في تلك النصيحة يتبين لنا أن العلم يزيد المرء همَّةً على العمل الصالح، إضافة إلى أن المرء يكتسب صفة لا تُقدَّر بثمن وهي استطاعة تمييز الحق من الباطل، ومن ثمَّ يكون المرء قد حصَّنه علم الله من اتِّباع كل داعٍ يظهر بدعوة لمنهجٍ باطلٍ ولكن عنوانه برَّاق.

ومن تلك المناهج الباطلة المُضلَّة هي فصل الدين عن نظام الدولة (وهذه دعوة للخروج من الإسلام حقيقة إذ إن رأس منهج الإسلام -الرسول صلى الله عليه وسلم الذي وجب علينا اتباع سُنَّته- كان يدير الحروب والمُعاهدات والقوانين والتجارة)، أو نبذ الدين واللهفة وراء أسباب النجاح في الدنيا وحدها، أو الترويج للفواحش أو مساوئ الأخلاق. ولكن عندما يزداد المرء علمًا، لا يميل إلى أيٍّ من أئمة الضلال بسبب كلامهم المُزَيَّن، فلا يستدرجونه ثم يُلقوه حيث تُملي عليهم أهواؤهم: في وادٍ من أودية الهلاك؛ بعد أن يأخذوا من المرء ما أرادوا وحققوا غاياتهم ومصالحهم الشخصية...

## الإكثار من ذكر الله

إن لزوم ذكر الله من النصائح الشاملة التي وصى بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين سأله أعرابي: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَمُرْنِي بِأَمْرٍ أَتَثَبَّتُ بِهِ، فَقَالَ "لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[2]. وذلك أن ذكر الله يُعلي مراتب المرء عند الله، ويقيه من الوقوع في المعاصي، ويُكفِّر سيئاته، ويرتقي بأخلاق العبد. وقد أثنى الله في كتابه على عباده الذين يذكرونه كثيرًا، وقال إن هؤلاء هم أولو الألباب، أي ذوي العقل الصائب (شاملًا الحكمة) {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران 190-191].

---

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم 79/1-80.

[2] مسند أحمد 17037، جزء من الحديث.

ويُفضَّل أن يُصاحَب ذكر الله بتحريك اللسان والشفتين، أي لا يكون الذكر فقط باطنًا، بل يظهر على الجوارح (وإن كان دون صوت) مع تجنب الرياء. وهذا بناءً على ما رغَّب فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا مَعَ عَبْدِي حَيْثُمَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ"[1]. والدرجة الأعلى هي من يذكر الله بلسانه وهو خاشعٌ مُتفكرٌ في عظمة الله، يتدبر ويستشعر معاني الأذكار بقلبه.

قد أوحى الله إلى سيدنا زكريا (عليه السلام) تشبيهًا جميلًا للوقاية من الشيطان، ومن ثمَّ المعاصي، التي تكون لمن يذكر الله، فأمر به بنو إسرائيل. قال لهم "وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَثِيرًا، وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنْ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[2].

أما من لا يذكر الله، فكيف يَسلَم وهو لم يستعِن بالله؟ وكيف يُساعده الناس، وماذا يقال له، وقد اختار هو لنفسه أن يكون ميّتًا يمشي على الأرض، بدلًا من أن يكون من أحياء القلوب؟ ذلك ما أشار إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله "مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ"[3]، فكيف نتحسر عليه وقد اختار لنفسه حياة التيه والتخبط؟

إن الذاكرين الله كثيرًا هم الذين لهم أعلى مراتب في الآخرة، أعلى حتى ممن استُشهِد في سبيل الله، وذلك استدلالًا بعدة أحاديث للرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، مثل قوله "مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ"[4]. وفي حديث آخر عندما سُئل: أَيُّ الْعِبَادِ أَفْضَلُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ "الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ" قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمِنْ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ "لَوْ ضَرَبَ بِسَيْفِهِ فِي الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَنْكَسِرَ وَيَخْتَضِبَ دَمًا، لَكَانَ الذَّاكِرُونَ اللَّهَ أَفْضَلَ مِنْهُ دَرَجَةً"[5] (يَنْكَسِرَ أي السيف؛ وَيَخْتَضِبَ أي يُصبغ بالدم، وهي كناية عن الاستشهاد).

وقال (صلى الله عليه وسلم) "أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟" قَالُوا: بَلَى، قَالَ "ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى". وقال مُعَاذُ بن جَبَلٍ (رضي الله عنه): مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ

---

[1] صحيح البخاري، باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ}.

[2] مسند أحمد 16542، جزء من الحديث.

[3] صحيح البخاري 5928.

[4] صحيح مسلم 4854.

[5] سنن الترمذي 3298.

عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ[1]. وليس فقط ينجون من عذاب الله، بل إن أولئك الذاكرين الله كثيرًا يسبقون عامة الناس في الأعمال، كما دل حديث آخر "سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ" قالوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال "الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ" (جُمْدَانُ هو جبل في طريق مكة).

وهذا بالطبع مع إتمامهم ما فرضه الله عليهم، مثل الصلاة المكتوبة في وقتها، إذ إن الصلاة المكتوبة في وقتها أحب الأعمال إلى الله، وهي من الواجبات. ولكن من زاد بالنوافل عامةً، وبالإكثار من ذكر الله خاصةً، فإنه يكون في أعلى مراتب العاملين.

وذكر الله له فوائد ومزايا جمّة، قد لا نستطيع أن نحصيها، تعود على المرء، بجانب حمايته من الشيطان وأن العبد يكون في أعلى منازل الآخرة. فمن المزايا العظيمة هي أن العبد الذي يذكر الله كثيرًا يكون الله معه، ويُحبه، بما يشمل ذلك من سكينة وسرور وعون وحفظ للعبد. ويتضمن هذا أمرًا يبتغيه كثير من الناس، ألا وهو ما نبأنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) "ثلاثةٌ لا يَرُدُّ اللهُ دُعاءَهم: الذاكرُ اللهَ كثيرًا، ودعوةُ المظلومِ، والإمامُ الْمُقسِطُ"[2]. فكم يدفع أحدنا لتكون عنده هذه النعمة؟

## التفكر والتأمل

إن التفكر والتأمل يجعلان الإنسان يُبصر ويوعي جمال ما خلقه الله حوله، ويتوصل إلى حقائق كثيرة، فيكون مُتدبرًا للواقع وطبيعة الحال ما بين القوانين التي وضعها الله وواقع الحياة، فيكون مُقدرًا لنعم الله، ويزداد إدراكًا عن عظمة الله. هذا يجعله أكثر خشوعًا وخضوعًا لله، فتزداد طاعاته وتتقلص معاصيه. وللفت النظر لنقطة مهمة، فإن التفكر والتأمل يحتاج إلى تباطؤ في نمط الحياة، فمن الصعب أن تجد من حياته مملوءة بالأحداث والإشغالات وسريعة النمط أن يكون مُتأملًا.

ولذلك من فوائد العبادات مثل الصلاة والاعتكاف أنها تُفرض على المرء أن يُبطئ من نمط حياته مع العزلة عن الدنيا، يتفرغ لله فيبدأ يتفكر ويتأمل في الله، مما يعود عليه بالفائدة على روحه. ولو أن الله لم يُفرض مثل تلك العبادات لقلما وجدنا من يُبطئ من نمط حياته الشاغلة، التي هي ضرورية ليزداد تقربه إلى الله، لأن الإنسان بطبعه دائم السعي لإشغال نفسه وتحقيق الإنجازات، وهذا يُحدُّ من فرصته للتأمل. والنصيحة التي أريد توصيلها هي: لا بأس أن تُبطئ من نمط حياتك بين الحين والآخر لما يعود ذلك من نفعٍ، ولو كان على حساب مكسبك من الدنيا، لتزيد من قربك إلى الله، ولتُراجع أفعالك وحالك، وللتواصل مع روحك، ولتُصوِّب رؤيتك للحياة، ولإصلاح حالتك النفسية عامةً.

---

[1] سنن الترمذي 3299.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني 3374.

فخذ وقتًا من يومك لله، ومَتِّع نظرك بالمباح مما خلقه الله كي تعرفه وتُجِلَّه، مثل رؤية البحار والحيوانات والسماء، مع التأمل.

وفي تأمل ما خلقه الله متعة ومنافع تزيد المرء إيمانًا. ولكن هناك نوع آخر من التفكر والتأمل يزيد المرء إيمانًا، وهو التفكر في الشرائع والحدود التي وضعها الله. إن كل أمرٍ أو نهيٍ أنزله الله له أسبابه، وكذلك لكل حدٍ يُقام وسُنَّةٍ عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) تُوضع، فكل شيء غلب فيه الخير قد حثَّ عليه الله أو حتى أوجبه، وكل شيء غلب فيه الأذية قد نهى عنه الله أو كَرَّهَه. وفي التفكر في هذه القوانين لمعرفة أسبابها يفضي بالمرء إلى أمرين لا ثالث لهما، وكلاهما خير، فإما أن يكتشف المرء حكمة الله في ذلك القانون فيزداد إيمانًا ويقينًا بالله (ومن ثمَّ يرتقي بعمله)، وإما لا يكتشف حكمة الله في ذلك القانون ولكنه يلتزم به مع ذلك. والالتزام بحدود الله دون علم الحكمة يكون بمنزلة إثبات واقعي على إخلاص المرء وانصياعه لحكم الله حتى إن لم يُعرف المغزى من ذلك القانون، وبيان تقديم إرادة الله فوق منطق ورغبة المرء، وذلك له قدرٌ كبير عند الله إذ يُعبِّر عن ثقة العبد المطلقة في الله بأن هذا خير له ولا بُد.

فكم من قانون أو سُنَّة اكتُشِفَ الفائدة منها بعد دراستها علميًا –مثل شرب الماء جالسًا في أنه يُقلل من الضرر على المعدة–، أو بعد التخلي عنها لأمد فتظهر عواقب التخلي عنها –مثل نبذ عقوبة القتل كقصاص فتكثر جرائم القتل وتمتد حسرة أهل الضحية–. ففي التفكر والتأمل فوائد نفيسة ومُتعددة. والتفكر عامةً يتشعب لاتجاهات، منها التفكر في حال المرء نفسه، والتفكر فيما حول المرء من مخلوقات الله، والتفكر في صفات الله (الصفات فحسب وليس ذات الله)، والتفكر في شرائع الله، وغير ذلك؛ كُلٌ له تأثيره وجانبه من إظهار الصورة الكاملة للمرء. فالتفكر في حال المرء مثلًا يزيده من إدراك ضعفه واحتياجه لله، والتفكر في شرائع الله يزيد من تفهم المرء لحكمة وفضل الله فيُوقِّره، والتفكر فيما خلقه الله يجعل المرء يتعجب ويُدرك عن عظمة الله، والتفكر في صفات الله يجعل المرء يُحب ويخشى الله. لنتداول بعض مسائل التفكر:

**ماذا أريد من المعصية؟** السؤال الذي يجب أن أسأله نفسي: ما غايتي من المعصية، وماذا سأبلغ وأتوقع، مع وضع جميع العوامل في الاعتبار؟ الإجابة المنطقية الوحيدة لارتكابها هي لتلبية هوى النفس وإرضاء الشهوات، لأن الأسباب التي تُعارض ارتكاب المعصية، والعواقب السلبية لها، أكثر بكثير من الأسباب التي تؤيد ارتكاب المعصية، ولكن الإنسان يضعف. أما ظني بإن المعصية ستُلَبِّي وتُرضي شهوتي تمامًا فهذا لا يحدث حقيقةً، إذ إن طبع الإنسان أنه يطمع في المزيد، كما جاء في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَوْ أَنَّ لابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ، أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ

وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إلا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ"[1] (لن يملأ فاه إلا التراب معناها أنه لن يشبع أو ينتهي طمعه إلا عندما يموت).

يُضاف إلى هذا أن المعصية تُلَبِّي جزءًا كبيرًا من الشهوة ولكن لا تقضيها تمامًا، لأن المعصية بطبعها لا تكتمل أركانها كما يبغيها العاصي حتى تُرضيه كاملًا، وهذا يعني أنها لن تشفي علة شهوته تمامًا. وهذا دون النظر إلى تعكير الضمير لحوض نشوة العاصي –وهذا لمخالفته أمر الله–، ولجلب أضرار المعصية (التي حرَّم الله المعصية بها، لأنها تضر الإنسان)، ولمخالفة فطرة الإنسان المزروعة داخلنا.

فالمعصية تُخفض مستوى رغبة الشهوة ولكن لا تُذهبها تمامًا، وإن تم تلبيتها فانخفضت لظهر من النفس شهوة أخرى تطلب تلبيتها، فيقع المرء تحت سيطرة هواه ويكون عبدًا لشهواته، فيكون كالحيوان الذي يُوَجَّه بلذَّات الحياة. فوق هذا فحتى بعد انخفاض مستوى الشهوة بقضاء بعضها، فإنها ستعود ثانيةً بعد حين وربما بدرجة أشد إذ تم مُجاوبتها وتغذيتها. فلماذا إذا ارتكاب المعصية وهي لن تُروي عطش الشهوة تمامًا؟ والصورة الشاملة لهذه القضية تتبين عندما يكون قد فات الأوان ووقع المرء في المعصية، بعدما يشعر بالسوء لكم الضرر الذي وقع ما بين عصيان الله وضرر للنفس وظلم للناس، فيرجع إليه رشده ويئن ضميره فيندم. فإنما هي لحظات ضعف، والحل الوحيد بعد المعصية هو أن يتوب العبد حتى يُصلح قدر المستطاع مما وقع من مفسدة.

ولا يخفى علينا أن المعصية لها ضرر على النفس وإن لم يعرفها الإنسان أو لم يشعر بها، ولذلك حرّمها الله، فما غلب ضرره على نفعه حرّمه الله، وما غلب نفعه على ضرره أحلّه الله. ذلك كما دلت آيات قرآنية عليه مثل {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} [البقرة 219]. وقال تعالى أيضا {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف 157].

يجب أن أُرسِّخ في نفسي أن ما أمر الله به إنما هو لمصلحتي، مع الالتزام بحدوده، فإني لن أنفع الله بشيء لتنفيذي أوامره إذ إني لا ولن أبلغ تلك المكانة أبدًا. وكل ما نهاني عنه الله إنما هو لأصون نفسي ولمصلحتي، ولن أضُر الله إن فعلته كله لأني أصغر من ذلك، فلماذا المعاندة؟

[1] صحيح البخاري 5959.

وهذا ما قصّه علينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما ينقله عن الله تبارك وتعالى "يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ"[1] (الْمِخْيَطُ هو الإبرة التي يُغزَل بها).

فالمعصية لا يُتوقع منها إلا لحظات من المتعة ولن تسد طلبات الهوى كاملًا حتى، فمن الذي أغنى عن مَن، ومن الذي له اليد العليا؟ ءأنا الذي في غنى عن المعصية، أم أن الدنيا هي التي في غنى عن تلبية طلبي منها؟ أين عزة نفسي وعقلي إذا لهفت وراء الدنيا فجرجرتني ورائها ذليلًا أطلب منها وهي تتجاهلني وتتكبر عليَّ؟ فهذا ما سأبلغه من المعصية، لحظات قليلة من المتعة ثم تلهف النفس على تكرارها أو تجربة غيرها، يعقبها حسرة على التذلل لها بالإضافة إلى الضرر للنفس، ثم فوق ذلك كله يعقبها سخط من الله وعذابه.

إدراك أن كل شيء مادي سيفنى، ولن يبقى إلا الأعمال المكتوبة. قال تعالى {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص 88]. سبحان الله، حقًّا إن كل شيء لهالكٌ لا محالة إلا وجهه تعالى، ومصير كل شيء إليه تعالى بعد الهلاك لأن له الحكم (أي الملك والأمر ولا مُعقّب لحكمه) على كل شيء في الدنيا والاخرة، ثم يفصل بينهم.

خذ نظرةً جيدةً فيما حولك يا أخي، فكل ما وقعت عيناك عليه هالك، من الأحياء والجمادات، وحتى الأرض التي نقف عليها والسماء التي نحتمي تحتها {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [إبراهيم 48]، {كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا} [الفجر 21]. فلماذا إذًا حرصنا الشديد على أشياءٍ فانية لا محالة؟ فإن كنا سنهلك، ويهلك ما عصينا الله به أو من أجله، ولا يبقى من أثرنا شيءٌ إلا ما كُتب من أعمالنا، فما فائدة المعصية؟ لماذا لا نصبر عن متعتها وندعها تفوتنا

[1] صحيح مسلم 4674.

بدلًا من أن تُكتب علينا كزَلَّة ويكون علينا عبء خوض الحساب عليها؟ ينصحنا رجل بقول: إن تعبت في البر، فإن التعب يزول والبِر يبقى؛ وإن تلذذت بالاثم، فإن اللذة تزول ويبقى الإثم.

والقضية قد لا تبدو مهمة لأننا ننظر بمنطلق حالنا الآن في الدنيا، فإننا في الدنيا لا نرى كامل عواقب معاصينا لله، فنؤثر المتعة العاجلة ونؤجل همَّ الحساب عليها إلى أجل لاحق غير مُحدد، وفي ذلك استهتار شديد وتوريطٌ للنفس. ولكن لا تسري الأمور هكذا وتمر المعاصي مر الكرام، وإلا لكان كل الناس يعثون في الأرض فسادًا ولم يلقوا بالًا لآثار أفعالهم. فضع نفسك في الآخرة وأنت تستلم كتاب أعمالك، وتخيل أن من عمل تلك الأعمال كأنه شخص غريب (وهي نفسك في الدنيا)، ماذا سيكون رأيك فيها وماذا ستقوله لها، وكيف ستلومها؟ وهذا هو الحال، كما أن حال المرء يتغير من السراء إلى الضراء في الدنيا، فيجب أن تضع نفسك في مكانك يومئذ بتخيلك، لعل ذلك يحدث فينا عظة.

إدراك أن متعة المعصية من شيء مادي تنفد، ثُم يعقبها حسرتان لا محالة: حسرة في الدنيا لانتهائها وحسرة في الآخرة لارتكابها. قال تعالى {مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [النحل 96]. لماذا أنا مُصّر على أن أُقدِّم الفانية على الباقية وأنا أعلم أن ما تأخر خير مما تقدم بما لا يقارن؟ وسبحان الله في المواعظ الخفية في القرآن التي تحتاج إلى المتدبرين، فالشيء الوحيد الذي يمنع الإنسان من تقديم الباقية على الفانية هو الصبر، فمن جاهد نفسه وعانى في مقاومتها على طاعة الله وعن معصية الله هو الذي يستحق ما لا ينفد. لماذا إذًا، نسعى وراء الذي يصيبنا بخيبة الأمل عند نفاده وعلى حساب ما لا ينفد، ولكننا لا نتعلم ونسعى وراءه مجددًا، فهذا شيءٌ عجيبٌ حقًّا!

ماذا تتذكر من المعاصي التي ارتكبتها في يومٍ مُحدد قد مضى؟ ماذا تتذكر من الأمس؟ قد تتذكر بضع ساعات. وماذا تتذكر عن أول أمس؟ وأول أول أمس؟ وماذا عما أبعد من ذلك؟ ستكتشف أنك لا تتذكر إلا القليل حتى تجد أنك لا تتذكر أيامًا كاملة وأسابيع كاملة، كلما بَعُدَ الزمن تذكرت منه أقل وأقل. وماذا تتذكر عن أول عام لك بعد ولادتك؟ لا شيء، وكأنه لم يحدث ولم تمر بهذا العمر قط، فإنه قد مُحي من ذاكرتك. إذا حاولت أن تتذكر، يبدو الأمر أنك وجدت نفسك في هذه الدنيا وأنت عمرك عامان، أو ثلاثة، أو أربعة، أو بعد ذلك حتى، تختلف لدى كل شخص. فلماذا لا نفكر بنفس المنطق في أحوالنا بعد الموت؟

إن الله يكتب علينا أن نتذكر أعمالنا بالتفصيل يوم البعث، بالإضافة إلى تسجيلها في كتاب الأعمال {يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى} [النازعات 35]، ولكن في نفس الوقت نشعر أن الحياة كلها مرت في فترة وجيزة {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ} [الروم 55]. فمال الإنسان يشتكي من الدنيا ومشكلاتها، ولكن عندما يأتي الموت ينسى المُعاناة وملل الزمن وبلايا الدنيا ويريد الاستمرار في الحياة؟ سبحان الله. فإن الإنسان يشعر أن ما فات من الحياة إنما حدث ومضى، وأن اللحظة التي هو فيها الآن هي أهم لحظة.

توضيحًا، ما أردت الإشارة إليه هو أن الزمن شيءٌ نِسبِيٌّ، وعلى هذا الأساس فإن كثيرًا من الناس لا يدركون معنى الخلود على حقيقته. تخيل معي أنك في الجنة، وأنت تفعل ما يحلو لك، وكل أنواع المتاع الذي لا يوصف حولك، وفي وسط متعتك تقف لحظة وتتأمل.... "هذه المتعة لن تزول أبدا". فهذه فرحة عظيمة في حد ذاتها، أن المستقبل ثابت على ما أنت عليه ومضمون.

والعكس صحيح، تخيل أن أحدًا في نار جهنم خالدًا فيها، وهو يُعذب ويُهان بما لا يُتخيل، ومن شدة تفكيره في كيفية الخروج يُفكر في المستقبل ويدرك الإجابة "هذا العذاب لن يزول أبدًا"... فأي تحطيم للصبر والأمل والمعنويات هذا؟ والعياذ بالله، إنما الإحباط والقهر زيادة لهم في العذاب، لأنه إن فكّر: ماذا بعد هذه اللحظة من العذاب؟ فالإجابة هي لحظات أُخرى من العذاب لا تنتهي، ولا خروج منها لأنه قد خُتم له على ذلك، فكيف يُصَبِّر نفسه على اللحظة الحالية؟!

وقد جاء كلام عن هذا على لسان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ! وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ! وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلا مَوْتَ" ثُمَّ قَرَأَ "{وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ}، وَهَؤُلاءِ فِي غَفْلَةٍ: أَهْلُ الدُّنْيَا، {وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}"[1] (أَمْلَحَ أي الذي بياضه أكثر من سواده؛ فَيَشْرَئِبُّونَ أي يمُدون أعناقهم لينظروا).

وفي رواية تصف مشاعر أهل الجنة وأهل النار حين يُنادى عليهم قال (صلى الله عليه وسلم) "فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؛ فَيَطَّلِعُونَ خَائِفِينَ وَجِلِينَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنْ مَكَانِهِمْ الَّذِي هُمْ فِيهِ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ؛ فَيَطَّلِعُونَ مُسْتَبْشِرِينَ فَرِحِينَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنْ مَكَانِهِمْ الَّذِي هُمْ فِيهِ"[2]. وعامةً فإن أهل النار يتلهفون في كل مرة يُنادى عليهم لأنهم لعلهم يُخرَجون، فكل مرة ترتفع آمالهم ثم تهبط مُحطمة، ولكن تُسحق آمالهم تمامًا بعدما يُذبَح الموت. وذلك كما دل جزء من حديث آخر "ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ

[1] صحيح البخاري 4361.

[2] سنن ابن ماجه 4318.

النَّارِ، فَيَطَّلِعُونَ مُسْتَبْشِرِينَ يَرْجُونَ الشَّفَاعَةَ"[1]، وأما عن شعورهم بعد أن يُذبح الموت وتثبيت حقيقة الخلود عند الجميع، فقد جاء في رواية "فَازْدَادَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ، وَازْدَادَ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ"[2]. وفي رواية أُخرى "فَلَوْلا أَنَّ اللَّهَ قَضَى لأَهْلِ الْجَنَّةِ الْحَيَاةَ فِيهَا وَالْبَقَاءَ لَمَاتُوا فَرَحًا، وَلَوْلا أَنَّ اللَّهَ قَضَى لأَهْلِ النَّارِ الْحَيَاةَ فِيهَا وَالْبَقَاءَ لَمَاتُوا تَرَحًا"[3] (تَرَحًا أي همّا وحسرةً وحزنًا).

أبدأنا الآن نستوعب معنى الخلود بأن نشعره؟ فإن كل ما في الدنيا فان، والحال لا يبقى كما هو عبر الزمن، ولذلك لا نستوعب معنى الخلود تمامًا لأننا لم نجده في شيء بعد، ومعنى الخلود ينقض المعنى "طوال العمر"، لأن كلمة "العمر" تعني شيئًا له زمن محدد ويبلى بعده. ويأتي سؤال منطقي: الذين يدخلون النار ويخلدون فيها ماذا فعلوا ليستحقوا هذا؟ فمنهم من كفر بوجود الله، ومنهم من أشرك بالله، ومن ثمَّ منهم من أفسد في الأرض ومنهم من طغى على الناس وظلمهم، فكل هؤلاء يستحقون أشد العذاب لأنهم نفوا أن لهم إلهًا واحدًا وأنه يملك الجنة والنار، وظنوا أنهم سيفلتون بجرائمهم ولن يعاقبوا عليها.

وإني إذا عصيت الله كثيرًا، سأُحشر في النار معهم (ولو لفترة محدودة)، وهذا يدل على مدى قبح عملي. لماذا لا أرتقي إذًا بعبادة الله والابتعاد عن معصيته وعما يُبطل الأعمال الصالحة؟ وكيف أساوي بين ساعة الحياة الدنيا وبين خلود الآخرة؟ فلماذا لا أضحي بحياتي كلها في سبيل الله مقابل الخلود في الجنة؟ ومن الناحية الحسابية، فإن نسبة المكسب بين التخلي عن ساعة (أو عام، أو مائة عام، أو حتى ألف عام) والفوز بالخلود هي اللا نهائية، فلماذا أتردد في هذه الصفقة؟

وأريد أن أطرح وجهة نظر تجعلك تتفكر أيها القارئ، إذا كنت لا تتذكر ما فعلته الأسبوع الماضي في لحظة معينة، فما الذي يمنع أنك ستنسى هذه اللحظة الآن بالتحديد؟ إنها ستُنسى بلا شك، أو على الأقل ستنشغل بأمور الحياة عن تذكرها في خلال حياتك، فما فائدة استعمال اللحظة التي أنت فيها في المعصية، أو حتى في تضييعها بلا مكسب إن كنت ستنساها في كل الأحوال؟ فلا معنى لها إذا استعملتها في شيء غير مربح لك بالحسنات لأنك ستنساها، ولكن لا يغفل عنها الله ولا الملائكة الكتبة {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} [ق 17]. فإنها سُجِّلت ودامت في كتابك وستنساها أنت، ولكن الله سيُذكِّرك بها يوم القيامة {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المجادلة 6]، قد بقيت عليك حِملًا.

وما الفارق بين من أطاع الله من اسبوع وبين من عصى الله من أسبوع من ناحية الجهد؟ عادةً أن المرء قد لا يدرك فرقًا، ولكن الفرق بين هاتين اللحظتين في الآخرة فرق السماء والأرض.

---

[1] سنن الترمذي 2480.

[2] مسند أحمد 5721.

[3] سنن الترمذي 3081.

من أبرز الأمثلة التي تُفطر القلب هي في وقت الصلاة، حين يكون هناك أناس جالسون في المقهى المُلاصق للمسجد يلهون بينما في المسجد أناس يُصَلُّون خلف الإمام في نفس اللحظة، وصوت الإمام بالقراءة يصل إليهم في المقهى ولا يُحركهم ذلك إلى الصلاة. فكِلا الفريقين، من في المسجد ومن في المقهى، سينسون أعمالهم بعد زمن، ونفس الوقت الذي أمضاه المصلون في الصلاة قد أمضوه هم في أية حال على المقهى، ولكن الفرق في الميزان كبير.

فما الذي حمل جلساء المقهى على الكسل وعدم الذهاب للصلاة... يا حسرتاه. فلماذا إضاعة الوقت، والأقبح من ذلك هو لماذا معصية الله في الوقت المُضاع، ما دام أني سأنساها عاجلًا أم آجلًا؟ الأمر كله يبدو غير منطقي، لكنه يحدث...

إدراك أن الحمل الذي علينا من معاصينا أكبر مما نظنه. قال تعالى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [الشورى 30]. فالحمد لله الذي يعفو عن كثير من مساوئنا، بل إنه ليعفو عن أغلب مساوئ الذين صلحت قلوبهم وأخلصوا نياتهم لله.

وهذه الآية تجعل المرء يتفكر في أعماله، فما يصيب المؤمن من هم وحزن وبلاء ومرض وظلم من الناس أو حتى عقوبة على حد انتهكه فهو كفارة له، وغالبًا يصيبه من هذا بسبب ما أُحصي عليه من المعاصي، ولكن قد يكون لرفع منزلة العبد دون ذنب عظيم. ينقل لنا سيدنا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) ما يدل على ذلك قائلًا: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قَالَ "أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْكُمْ"، قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ "أَجَلْ ذَلِكَ، كَذَلِكَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا"[1] (تَحُطُّ أي تلقيه منتثرًا).

والعجيب هو أن ما يصيب الإنسان قد يدفع المرء أن يرى أحيانًا أنه حُمِّل فوق طاقة تحمُّله من الابتلاءات، بالرغم من أن كل تلك الابتلاءات لا تساوي تكفير كل ذنوب العبد لأن الله يعفو عن كثير. فذاك الحمل على المرء إنما هو جزء من معاصيه، فكم أتخيل أن المعاصي التي ارتكبتها بلغت؟! إننا لا نشعر بثقل معاصينا إلا إذا حُوسِبنا عليها في الدنيا، بينما عندما نعاقَب على بعضها نجزع...

وعن سيدنا أنس (رضي الله عنه) فيما يرويه لنا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَادَ رَجُلا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "هَلْ كُنْتَ

---

[1] صحيح البخاري 5216.

تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟"، قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "سُبْحَانَ اللَّهِ لا تُطِيقُهُ (أَوْ لا تَسْتَطِيعُهُ)، أَفَلا قُلْتَ: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ؟"، فَدَعَا اللَّهَ لَهُ فَشَفَاهُ[1] (عَادَ أي زار؛ خَفَتَ أي ضَعُفَ).

وهذه القصة دليل على أن المرء لا يطيق بلاء تكفير معاصيه في الدنيا، ولا شك أن الأمر كذلك بالنسبة إلى الآخرة أيضًا، فالرجاء وأمل النجاة هو في نيل رحمة الله ومغفرته وتجاوزه عنا. المراد من كل هذا الكلام أن المرء له معاصي أكثر مما يدركه، والذنب عادةً ما يكون أكبر مما يتخيله، فنحن لا نشعر ولا نفكر في كم ذنوبنا لأننا لا نُحاسَب عليها جُملةً بعد. ولكن أنا أؤكد لكم أنها أكثر مما يحسبه المرء على نفسه، لأن المعاصي تتسلل علينا ونحن لا نعي بها، إذ إن بعضها قد تكون خفية، يرتكبها المرء بعفوية (مثلًا بأن يقول كلمة تلقائيًا لا يُلقي لها بالًا وفيها ما لا يجوز) أو بغفلة (مثلًا بأن يفعل شيئًا يُظلم شخصًا في أثنائه دون تعمد)، أو وهو لا يعلم أنها معصية حتى، أو أن أحدًا يعمل وزرًا بسبب أننا مهَّدنا له الطريق، أو رآنا نفعلها فجرأّناه عليه فحملنا مثل وزرِه. وإحصاؤنا لها يتسرب من أذهاننا أيضًا.

ويُشار إلى هذا، أي أن ذنوب العباد أكثر مما يحسبون، في قول الله تعالى {بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ} [المؤمنون 63] (غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا أي غطاء وغفلة عن الإيمان بالقرآن وعمل مثل أعمال المؤمنين الصالحة). جاء في تفسير الوسيط: وهؤلاء الكافرون لهم أعمالٌ سيئة كثيرة من دون ذلك، أى من غير ما ذكرناه عنهم من كون قلوبهم في غمرة وجهالة عن الحق، هم لها عاملون أى: هم مستمرون عليها، ومعتادون لفعلها مندفعون في ارتكابها بدون وعى أو تدبر (انتهى).

هذا بالنسبة إلى الكفار أنهم يرتكبون ذنوباً غير الكفر والشرك، ولكن المؤمن أيضًا يقع في ذنوب لا يعيها، بدليل أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) علمنا أن ندعو "رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[2]. وجاء عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه كان يدعو في صلاة التهجد "اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ الْحَقُّ،

---

[1] صحيح مسلم 4853.

[2] صحيح البخاري 5919.

وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ. اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ خَاصَمْتُ، وَبِكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ"[1].

إضافةً إلى ذلك، إن الإنسان عادةً ما يستصغر الذنب الذي يقع فيه، إما لأنه يرى أن المبررات التي تدفعه إلى المعصية تُخفف من وِزرها عليه، وإما بعدم رؤية الصورة الأكبر كاملةً لتداعيّاتها. فمن الوصايا المهمة للإقلاع عن العصيان هو عدم استصغار الذنب.

ومن أساليب عدم استصغار الذنب يكون بإمعان النظر فيه حتى نراه على حقيقته. مثلًا، إذا تفكر أحدنا في كمّ الناس والجهد والعوامل التي تتدخل حتى يستطيع المرء أن يرتكب معصية صغيرة، سيجدها أكثر بكثير من الجهد الذي بذله كي يرتكبها. لنضرب مثلًا لتتضح الصورة، فإن العبد الذي يُدخِّن، والتي هي معصية صغيرة في نظر الناس، كي تُرتكب يحتاج العاصي إلى نعم داخلية فيه مثل العقل وأن يجري الدماء في عروقه (بما يشمل هذا من نعم كثيرة وجهد من الجسد حتى تتزن مكونات الدم وسرعة جريانه في العروق) والرئة السليمة، ويحتاج إلى عوامل خارجية منه مثل البَصَر وحاسة الشم والمال وقوة الجسد لاقتناء المدخنات.

ويحتاج أيضًا إلى عوامل كثيرة من غيره من الناس، فالمدخنات مثلًا تأتي من مصنع يعمل فيه كثير من الناس، ما بين من يحصد الورق ومن يُصنِّعه ومن يُغلِّفه ومن يصون الأجهزة ومن يُشرف على سريان التصنيع ومن ينقله، وإلخ. وهناك وغيرهم من الناس، الذين لم يقصدوا أن تُستخدم منتجاتهم للمعصية، مثل صانع الكرسي والهوَّاية وغير هذا. فكل هذا الجهد والنِّعم والتجهيزات تُستخدم برُخصٍ في متعة قصيرة أو صغيرة، فقدر متعة المعصية لا يتناسب مع كل هذا الجُهد المبذول والضرر الناجم له وللناس حوله (ما بين من ساهم في معصيته فيحمل أوزارًا وما بين من يشتم الدخان الناتج مُكرَهًا).

أي أن حجم المعصية المرئي وتهيئة لحظتها عادة تحتاج إلى أضعافها قدرًا من المجهود والنعم، أقل ما يُقال عنه إنه يُهدر، ويتسبب في أضرار أكثر بكثير من المجهود المطلوب لارتكابها. فما نراها معصية صغيرة لها أبعاد أكبر بكثير مما نحسبه، لو أدركناها لعظمت تلك المعصية في قلوبنا.

فإيانا والتهاون بالذنوب، وكلما بَكَّرنا بالامتناع والتوبة قل تراكمها علينا. وهذا احترازًا من اليوم الذي سنفاجأ برؤيتها وهي محصاة لنا!

---

[1] صحيح البخاري 6888.

**معصية الله تحتاج إلى ستر الله.** يجب أن يُلاحظ المرء أن معصيته تحتاج إلي سترٍ من الله، فأغلب المعاصي (إن لم يكن كلها) تحاتج إلى مواراتها عن أنظر الناس، ولو لجزءٍ منها. فالزاني يحتاج إلى الاختباء عن أنظر الناس، والسارق، والخائن حين يتآمر، والقاتل، وغير ذلك. أما الذي يجهر بالمعصية، فهو يجهر بجزء كبير من معصيته ولكن يحتاج إلى مواراة جزء صغير ومهم، مثل نياته أو مكايده أو مصدر المال الذي جناه لتحقيق معصيته، فهو يعتمد على ألا يفضحه الله في ذلك الجانب.

ومثال على ذلك هو المُحتال الذي يخدع الناس عن أموالهم برسم صورة جميلة لهم للاستثمار، ولكنه يُخفي بعض الحقائق التي تُبين للضحية خدعة هذا العرض. بل وقد يُجادل بالباطل أنه حاول استثمار أموالهم ولكن حدثت أمور استثنائية ففشل، ولكنه يحتاج لستر الله كي ينجو بكذبته. والخلاصة هي أن المرء يحتاج إلى ستر الله حتى يُتم المعصية، ولولا ستر الله لما استطاع ولما تجرأ على المعصية.

فحريٌّ بالمتأمل أن يقلق بمعرفة أن الله يستره وهو في المعصية، فما ثمن نعمة ستر الله للمرء في أثناء معصيته تعالى؟ وأفلم نلاحظ كم يبدو هذا الوضع كالإعداد لمن سينزل مكر الله عليه؟ وقد يكون تذكر المرء لتلك النقاط في أثناء معصيته كفيلة بأن تُنغِّص عليه معصيته فيقوم عنها.

**معرفة مدى حق الله عليَّ في عبادته.** قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ، أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ"[1]. لا إله إلا الله سبحانه تعالى، إن الملائكة الذين لا يعصون الله يكِدُّون في تعبدهم إلى الله، ويوم تقوم الساعة يقولون لله: ما عبدناك حق عبادتك!

أما أنا فقد أتهاون في التعبد لله أحيانًا، بل وأذنب ولا أستغفر ربي أحيانًا أُخَر! فما هذا التناقض؟ كل ما أفعله من معاصٍ أفعله لأني لا أُدرك ما ينتظرني، فلأتعلم من الشريعة ما يُعرفني شيئًا عن كيف سيكون الحال في الآخرة لأزداد طاعةً لله ومناجاة له، ولأحاسب نفسي كي لا يتفلت زمام الأمور مني. والحمد لله، فله في جهلنا بهذه الأمور حكمة لا ندركها، فوق أنها ستُعكر علينا الاستمتاع بالمباح من متاع الدنيا.

---

[1] سنن الترمذي2234.

إدراك أكبر نعمة لدى الإنسان في الدنيا، أهي سلامة البَدَن؟ قال تعالى {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأنعام 122]. في هذه الآية جاءت كلمة "كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ" بمعنى أنه كان ميت بالكفر ثم أحياه الله بالإيمان، وليس المعنى هو نشأة الجسد إلى الحياة لأن كل من يمشي على الأرض حيٌ في الجسد. ولو كان المقصد هو نشأة الجسد إلى الحياة لما كان هناك داعٍ لذكر ذلك لأن هذا ما هو حاصل مع كل المخلوقات، ولكن جاء في هذه الآية بالتخصيص "مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا".

فتدل هذه الآية على أن الصحة ليست هي أهم نعمة من الله كما يظن كثيرٌ من الناس، فإنما نعمة الإسلام أعظم وأجل، ولكني أُفرِّط فيه بتقصيري فيه لأني لا أُدرك قيمته البالغة. فكم من مُعافًى في جسده مريض في قلبه يكون كأنه ميت لأن ليس في قلبه نور الإيمان. ومهما بلغ من مال وسلطان فهو يتخبط في الدنيا أعمى، وبلا سند فيكون كالريشة في العاصفة {أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [الملك 22]، تذهب به الدنيا أينما شاءت. وكم من مريض في جسده قلبه ينبض بالإيمان، ترى له نورًا وتشعر بالسعادة والراحة في التعامل معه. فأيهما أفضل؟

ولنأخذ الحقائق من رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فقد قال "أربعٌ من أُعطيهنَّ فقدْ أُعطي خيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ: قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وبدنًا على البلاءِ صابرًا، وزوجةً لا تَبغيه حُوبًا في نفسِها ومالِه"[1] (لا تَبغيه حُوبًا أي لا تعمد إلى إثمٍ عظيمٍ ولا إلى ظُلمٍ يمسَّه). وفي ملحوظة جانبية، هذا الحديث يتكلم عن الخير الذي ينتج منه مصلحة للعبد في الدنيا والآخرة، فلا يلتبس على القارئ هذا الحديث بحديث الثلاث أمور التي تجعل المرء "فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا"، إذ إن الحديث الثاني يشير إلى ثلاث أمور إذا اجتمعت عند المرء فكأنما كان عنده مفاصل نعيم الدنيا. فالفرق واضح، الأول يتكلم عما هو فيه خيرٌ للعبد في الدنيا والآخرة، والآخر يتكلم عن نعيم الدنيا.

وقد جاءت آية تجعل المرء يستوعب مدى نعمة الهداية في قوله تعالى {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات 17]. قد كانت هناك فئة من الناس يمنون على الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنهم آمنوا به واتبعوه كيلا يطلب منهم الجهاد معه أيضًا، بالرغم من أن إيمانهم ذلك يعود نفعه على أنفسهم وليس على الرسول (صلى الله عليه وسلم).

---

[1] الترغيب والترهيب للمنذري 329/2، قال أن إسناده جيد، الراوي: عبد الله بن عباس؛ أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط 7212 وقال عنه: لم يرو هذا الحديث عن طلق بن حبيب إلا حميد الطويل، ولا رواه عن طلق بن حبيب إلا حماد بن سلمة، ولا رواه عن حماد إلا موسى، تفرد به محمود بن غيلان؛ وقال عنه الألباني: ضعيف.

ففي تلك الآية نرى أن القضية ليست نصرة الدين منا، لأن الله غنيٌ عنا وقد ينصر الإسلام من دوننا، ولكن القضية هي من يختار الحق والصلاح لنفسه، فمن اختار الحق مَنَّ الله عليه بالهداية إلى الإسلام والإيمان. فتخيل معي أخي حال الدنيا والعيش على الأرض إن لم يكن هناك إسلام، لا شك أنها لكانت حياة يحكمها قوانين الغابة فيكون نظام الحيوانات، حيث يأكل القوي فيها الضعيف ويفيض الفساد وسوء الأخلاق والظلم دون أن يعلم المرء أين الحق يقينًا. نعم، فإنها لنعمة الإسلام.

هذه النعمة، التي يكفي منها أن الله عرَّفنا من خلالها ما هو المُفسد من المُصلح، المُضر من المُفيد، عن طريق الحلال والحرام، لَنعمة يغفل عنها كثير من الناس بالرغم من عظمها. إن مجرد التفرقة بين الحق والباطل على أساس قاطع وموثوق هي راحة كبيرة للعبد. فبالإسلام عرفت أن الربا حرام وإن اجتمع الناس وجادلوني وألَحّوا أن ما به من علة وارتكبوه جميعًا، وإن أفتى بعض من جمعوا علوم الشريعة على أنه ليس مُحرَّمًا، وإن حدَّث المُقرضين طريقة عرضه وجمعه وغيَّروا اسمه وجعلوا صورته أنيقةً وجميلةً مثل "الفوائد" عن طريق البنوك، فهو حرام لا محالة ودون مواراة، وفساده أكبر من نفعه. هذا لأن الله قد قال إن أضراره كبيرة ولذلك حرَّمه، وهذه المعلومة نعمة عظيمة. من يرَ الربا على حقيقته ويُدرك أبعاده، ويؤمن أنه مُحرَّم، فهو على يقين أنه على الحق وأن غير ذلك هو الباطل.

ومن أبرز تلك الفواصل بين الباطل والحق هو تفنيد منطق الشرك مع إعادة إثبات التوحيد بقدوم الإسلام {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء 81]؛ الشرك الذي يدين به كثير من الناس وتأخذهم الحمية إذا قيل لهم إنه باطل، ولكننا الآن نعرف ما هو الباطل دون شك وإن آمن به أغلب الناس. ولكن، بمعصيتي لله قد تُسلب نعمة الإسلام مني، فيلتبس عليَّ الحق من الباطل، ولست مستثنًى من أنه قد يصيبني ما أصاب بعض المسلمين أنهم ارتدوا إلى الشرك، وما ذلك إلا نتيجة معاصيهم التي عمتهم عن تمييز الحق من الباطل.

ويبقى الاستفهام، ماذا قدمته أنا لدين الله؟ فإن لم أُقدم له شيئًا ملحوظًا مثل بلوغ الدرجات العُلى من التُقى والعلم، أو أترك فيه ما ينفع المسلمين مثل ما فعل الإمام البخاري الذي بذل جهدًا فائقًا لجمع الأحاديث الصحيحة والتحقق منها، أو أنصر الإسلام مثل الصحابة الذين جاهدوا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى يرسخوا هذا الدين في الأرض، فعلى الأقل هلا حافظت عليه بعدم تعدي حدوده؟!

كيف أستثقل تطبيق هذا الدين، متمثلًا في عدم عزمي على ترك المعاصي، بينما هناك من الصحابة من اضطُّر لمواجهة قتل أبيه أو ابنه أو أخيه في المعركة كي يُطبِّق هذا الدين ويُظهره؟! {لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ

إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة 22]. يُوَادُّونَ أي يتوددون لهم بالمداهنة أو إرضائهم أو موالاتهم؛ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أي من يُخالف ويُعادي الله ورسوله.

**إدراك مدى حظي بنعمة الهداية، مع إدراك أن التفريط في نعمة من نعم الله أدعى بسلبها من العبد.**

عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) قال: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ؛ يَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ؛ قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعمائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ؛ فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ". فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ" فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ "ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ" فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ "شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ" فَكَبَّرْنَا[1] (شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ أي النصف). وجاء في سنن الترمذي "اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَمَعَ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا مَعَ شَيْءٍ إلا كَثَّرَتَاهُ: يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَمَنْ مَاتَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ"[2] (وَمَنْ مَاتَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ أي ومن مات على الكفر من هؤلاء الفئتين).

هذا هو فضل وإكرام ربي عليَّ، لأُدرك مدى حظي أن هداني للإسلام، وذلك بأن المسلم عندما يدخل الجنة فسيكون فردًا مقابل تسعمائة وتسعة وتسعين يدخلون النار من الكفار والمنافقين ومن يأجوج ومأجوج ومن الجن. فهذه نسبة يعلمها الله وليس حُكمًا عشوائيًا (تعالى الله عن ذلك إذ يحيط بكل شيءٍ علمًا)، بل لأنه يعلم أن بإحصاء أعمال الناس فإن من كل فرد يدخل الجنة هناك تسعمائة تسعة وتسعون يدخلون النار نتيجةً لأعمالهم.

فالسؤال هو، ما الذي يُميزني عن تسعمائة وتسعة وتسعين من العباد كي يهديني ربي إلى الإسلام؟ كان من الممكن أو أولد تحت أبوين يهودين أو مجوسيين أو مشركين أو ملحدين، وأُصر أن أكون مثلهما؛ أو أن أولد تحت أبوين مسلمين ولكني لا أقبل الإسلام أو لا يدخل قلبي فأكون منافقًا. لماذا أنا؟ لماذا فضَّلني ربي وأنا لم أفعل شيئًا؟ لماذا بادر إليَّ بالحسنى قبل أن أعمل أي شيء؟! وسواء تهربت أم أمعنت في التفكر في كل تلك النقاط، فماذا أنا فاعلٌ بتلك النعمة الفريدة (نعمة

---

[1] صحيح البخاري 4372.

[2] سنن الترمذي 3093.

الهداية)، بعد أن أنعم الله عليَّ بها؟ فإن أعمالي أحيانًا تجعلني أبدو كأني تخليت عن تلك النعمة وأقبلت على شهوات الدنيا.

فالحمد لله الذي هدانا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. الحمد لله الذي جعلنا حنفاء مسلمين غير مشركين. لماذا يُنعم عليَّ ربي وهو يعلم أني سأرد الإحسان بالمعاصي؟ ألا أستحيي؟ لماذا أُفَرِّط في نعمة الله بالمعصية؟ أفلا أعتبر وقد جاء في القرآن الكريم {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ} [سبأ 15-16]، وهذا أخف مما ينتظرهم في الآخرة من عذاب أيضًا. ما الذي أريده من الله أكثر من هذا كي لا أعصيه؟ حقًّا، فهو كما قال ربي {وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم 34]. الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه غير مَكفِيٍ ولا مُوَدَّعٍ ولا مُستَغنًى عنه ربنا، والحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه ولعظيم سلطانه، ونسأل الله الرأفة والرحمة بنا، وأن يغفر لنا زلاتنا.

ماذا قدَّمته لله؟ وهل يفي حق نعم الله عليَّ التي سأُسأل عنها؟ بدايةً، منذ خِلقتي، فإني في دَينٍ إلى الله بما قدَّمه إليَّ من نعم، منها السمع والبصر والجسد السليم، وما يحتوي أولئك من ملايين النعم التي أجهلها كي تعمل بشكل صحيح. يُضاف إلى هذا أن لي أبوين يرعياني حتى لا أهلك بعد ولادتي، ويحرسانني وأنا أكبر، فقد سخَّرهم الله لي حتى أستطيع البقاء بل والارتقاء. وما دمت أتنفس فإن نعم الله في تزايد مستمر عليَّ، فكل لحظة أكون على قيد الحياة فهي بإذن الله وتوفيقه وفضله، وكل لحظة لا أشعر في بألم فهي نعمة من الله، وما بين الأكل والشرب والملبس ومما يُسعدني من متاع الدنيا فهن نعم، وما على شاكلة هذا. فوق كل هذا، تأتي نعمة الإسلام.

بل والمعضلة هي عندما أسعى لشكر الله على تلك النعم فإني أنال من فضل الله أيضًا، هذا لأن إتمام العمل الصالح (شكره تعالى) إنما هو بعون الله لي، فكم من عازم على أداء عمل صالح لله لم يستطع فعله؟ ثم تأتي نقطة أن العمل الذي أُقدِّمه لله لا يكون لائقًا به تعالى، إذ يصدر من كائن ضعيف هزيل معلول. فالصلاة يكون فيها سهوٌ مثلًا، ومع هذا فإن الله يقبل مثل تلك العبادات مِن عِباده بكرمه، مع إرشادنا إلى الاستغفار بعد أدائها لأنها لم تُقَدَّم على الوجه الذي ينبغي، فهي أفضال فوق أفضال من الله تعالى.

جاء في كتاب مدارج السالكين: قال بعض العارفين: متى رضيت عن نفسك وعملك لله فاعلم أنه غير راضٍ به، ومن عرف أن نفسه مأوى كل عيب وشر، وعمله عرضة لكل آفة ونقص، كيف

يرضى لله نفسه وعمله؟ ولله در الشيخ أبي مدين حيث يقول: من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء، وكلما عظم المطلوب في قلبك صغرت نفسك عندك وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيله، وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية وعرفت الله وعرفت النفس، وتبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين، خشيت عاقبته، وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله، ويثيبك عليه أيضًا بكرمه وجوده وتفضله[1].

لما نزلت {أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ} قَرَأَهَا (الرسول صلى الله عليه وسلم) حتى بلغ {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}، فقَال الصحابة: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ أَيِّ نَعِيمٍ نُسْأَلُ، وَإِنَّمَا هُمَا الأَسْوَدَانِ: الْمَاءُ وَالتَّمْرُ، وَسُيُوفُنَا عَلَى رِقَابِنَا وَالْعَدُوُّ حَاضِرٌ، فَعَنْ أَيِّ نَعِيمٍ نُسْأَلُ؟ قَالَ "إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ"[2]. فبالنسبة إلي، ما الذي فعلته في نعم الله علي التي تتعدى تلك النعم من حيث الكم والتنوع؟ هل اجتهدت في تأدية حق الله عليَّ فيها قدر المستطاع بالشكر والطاعة؟ أم هل نسيت شكرها؟ أم أني استخدمت نعم الله في معصيته؟ كل هذا وأنا في أمنٍ وأمانٍ بالنسبة إلى زمن الصحابة (رضي الله عنهم)، فليس جيش العدو أواجهه ولا أحمل سلاحي على رقبتي (بالرغم من وجوب مُدافعة العدو عن إخواننا المسلمين).

كل تلك النعم، وتقصيري في مسؤولياتي، سأُسأل عنه يوم القيامة، والمصيبة كيف سأصيغ إجابتي لله بأني استخدمتها لأتمكن من معصيته تعالى! وهذا دون التكلم عن النعم البسيطة في منظوري، أو النعم الضرورية لبقائي، أو النعم التي لا أدركها، وما أكثرها. فالمعصية عادة ما تحتاج إلى نعمة العقل والبصر وسلامة البدن (بما يشمل ذلك عضوًا عضوًا وسلامتهم من أمراض كثيرة متنوعة)، ويحتاج إلى معدة مملوئة من الطعام والشراب، والهواء للتنفس في أثناء فعل المعصية، وربما العين واللسان والأُذن وغير ذلك مثل المال أو السلطة على الأمر نفسه. وتحتاج إلى غير ذلك مما لا أحصيه ولكن أتمنى من القارئ التفكر فيه، وخصوصًا قبل ارتكاب المعصية لأن كل معصية تحتاج عادةً إلى استخدام تركيبة مختلفة من النعم عن الأخرى.

وأنا عندما أستخدم نعم الله لأعصيه تعالى، أين الوفاء إذًا؟ أو الولاء؟ أو الأمانة؟ أو الامتنان، أو الحياء، أو النزاهة، أو الشهامة؟ وهناك نعم تابعة للمعصية، لولاها ما اعتدت ولا لزمت تكرار المعاصي، منها ستر الله عليَّ كي لا أنفضح، ومنها إمهال الله لي انتظارًا لتوبتي وهو الغني عني وعن توبتي! ومن الذي ينتظرني؟! ومنها أني أخرج من المعصية سليمًا إلا ما أُحدث في قلبي.

ومن النعم التي قد يستصغرها بعض الناس، أو لا يلقون لها بالًا أو قدرًا، هي النعم غير المباشرة، وهي النعم التي تُستغل في غير قصدها لتسهيل بلوغ المعصية، مثل الطريق الممهد للدابة

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم 176/1.

[2] مسند أحمد 22532.

التي رُكبت ليصل المرء إلى المعصية، أو سلامة البدن، أو جمال خلق الله في ما أُمرت أن أغُض البصر عنه. هذه النعم ليست ضرورية لارتكاب المعصية، ولكن المرء يستغلها لإعلاء متعته من المعصية أو لتسهيل ارتكابها، ولكن يبقى السؤال: من الذي أنعم بها؟

أكانت إرادة الله على مَن أنعم عليه أن يعصيه بنعمه؟ السؤال المترتب إذا هو: لماذا أنعم الله عليهم وعلينا؟ ما سبب إعطاء الله كل فرد منا نعمة ما بعينها بوفرة ربما ليست عند كثير من إخوته؟ هذا ما ينبغي التفكر فيه. جزء من الإجابة هو أن الله يُبادر بالإحسان مع الإنسان وبوفرة قبل أن يُحسِن الإنسان لله (بالشكر والعبادة)، ثم ينظر الله كيف يعمل العبد، أَيَرُدَ المرء إحسان الله إليه بالإحسان أم يَرُدَّه بالمعصية.

أما فيما يتعلق بخاصية النعم، أي أن عبدًا قد يُعطَى نعمة دون أخيه، فهي من حكمة الله وعلمه التام، إذ قد تكون تلك النعمة ليست بفتنة لذاك العبد بأن لا يستطيع مُقاومتها، إضافةً إلى أنه يستطيع تأدية حقوقها مثل الزكاة والصدقة دون بُخلٍ فيما يختص بالمال. أما غيره، فقد لا يستطيع مُقاومة تلك الفتة فتكون له هلاكًا مؤكدًا بدلًا من بلاء مُمَيِّز ومُمَحِّص يُعلي من منزلته عند الله. أما إذا أراد الله بعبدٍ هلاكًا لكرهه للعبد، فإن الله يُعطيه من النعم ما لا يستحق حتى تكون عليه حِمل ووبال يوم القيامة.

وذلك لأن غاية الله من إعطاء النعم هو أن يرى الطريق الذي سيختاره العبد (الصلاح أو الفساد) في تلك النعم وبها، وليس تكليفه بما لا يطيقه. والإعراض عن الله أو نسيانه تعالى هو من فتنة النعم، فمن الناس من لا يستطيع مقاومة فتنة المال، وغيرهم لا يستطيعون مقاومة فتنة السلطة مثلًا. وكل ذلك رأفة من الله بنا، وتلك قطفة من أسباب توزيع الله للنعم كما يرى بحكمته، ولا شك أننا لن نُلِمَّ بحكمته في ذلك. ولكن مما لا شك فيه هو أننا سنُحاسَب على تلك النعم، وأن الله برحمته لا يريد أن نهلك بها، فتكون فقط اختبارًا نستطيع اجتيازه إن اجتهدنا.

والحساب على النعم أدق وأشمل مما نتخيله، فقد روى سيدنا أبو هريرة (رضي الله عنه) قائلًا: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ "مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟" قَالا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ "وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا". فَقَامُوا مَعَهُ فَأَتَى رَجُلًا مِنْ الأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيْنَ فُلانٌ؟ قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنْ الْمَاءِ؛ إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبَيْهِ ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي. فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ؛ وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ". فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنْ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا. فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،

لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ الْجُوعُ ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ"[1] (يَسْتَعْذِبُ أي يجلب الماء العذب؛ بِعِذْقٍ أي غصن من النخل؛ بُسْرٌ أي أول ما يُدرك من التمر؛ الْمُدْيَةَ أي السكين). فالأمر أبلغ مما أظنه وتظنونه.

**إضافة إلى أني مديون لله منذ بداية حياتي، إذا تركت شهواتي تسيطر عليَّ فإن العبء سيزيد.** يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ: هَذَا فِكَاكُكَ مِنْ النَّارِ"[2]. جاء في شرح النووي رحمه الله: قَوْله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِذَا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة دَفَعَ اللَّه تَعَالَى إِلَى كُلّ مُسْلِم يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُول هَذَا فَكَاكُك مِنْ النَّار)، وَفِي رِوَايَة: (لا يَمُوت رَجُل مُسْلِم إِلا أَدْخَلَ اللَّه مَكَانه النَّار يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا)، وَفِي رِوَايَة (يَجِيء يَوْم الْقِيَامَة نَاس مِنْ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثَال الْجِبَال فَيَغْفِرهَا اللَّه لَهُمْ وَيَضَعهَا عَلَى الْيَهُود وَالنَّصَارَى). (الْفَكَاك) بِفَتْحِ الْفَاء وَكَسْرهَا الْفَتْح أَفْصَح وَأَشْهَر، وَهُوَ: الْخَلَاص وَالْفِدَاء. وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيث مَا جَاءَ فِي حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة، لِكُلِّ أَحَد مَنْزِل فِي الْجَنَّة وَمَنْزِل فِي النَّار. فَالْمُؤْمِن إِذَا دَخَلَ الْجَنَّة خَلَفَه الْكَافِر فِي النَّار لاسْتِحْقَاقِهِ ذَلِكَ بِكُفْرِهِ. مَعْنَى (فَكَاكك مِنْ النَّار) أَنَّك كُنْت مُعَرَّضًا لِدُخُولِ النَّار، وَهَذَا فَكَاكُكَ؛ لأَنَّ اللَّه تَعَالَى قَدَّرَ لَهَا عَدَدًا يَمْلَؤُهَا، فَإِذَا دَخَلَهَا الْكُفَّار بِكُفْرِهِمْ وَذُنُوبهمْ صَارُوا فِي مَعْنَى الْفَكَاك لِلْمُسْلِمِينَ (انتهى).

هذا الحديث يدل على أن لكل واحد منا مكانًا في النار ومكانًا في الجنة، وأن كل من دخل الجنة أدخل الله مكانه أحدًا في النار (ممن يستحقون العذاب) بدلًا منه. ولعل من التفاصيل الدقيقة حول الحديث، عندما نتفكر، أن المؤمن والكافر لهما مقعدان في الجنة ومقعدان في النار، فكيف يكون كُلٌ يأخذ مكان الآخَر؟ الجواب، والله أعلم، أن الكافر يتم تضخيم حجمه ليشعر بعذاب النار أكثر، كما دل الحديث "مَا بَيْنَ مَنْكِبَيْ الْكَافِرِ فِي النَّارِ مَسِيرَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ" (المنكب هو التقاء العضد بالكتف)، فيشغل مكانه ومكان المؤمن؛ والمؤمن يُضاف لمساحته في الجنة مساحة الكافر منها.

وتفصيل آخر هو أنه قد يتوهم أحد أن الله يظلم بأنه رفع الذنوب من على بعض المسلمين ثم وضعهم على الكفار، كما في رواية: بِذُنُوبٍ أَمْثَال الْجِبَال فَيَغْفِرهَا اللَّه لَهُمْ وَيَضَعهَا عَلَى الْيَهُود وَالنَّصَارَى، ولكن الله لا يظلم أبدًا ولا مثقال ذرة أو أدنى. إنما يضعهم الله على أهل الكتاب لما جلبوه بسعيهم في فتنة المسلمين محاولين القضاء على الإسلام، منها مثلًا مُحاولة تحريف القرآن والسُنَّة، ومنها اتهام الإسلام بالاتهامات الباطلة، ومنها زرع في عقل عامة المسلمين أفكارًا وأحكامًا باطلة

---

[1] صحيح مسلم 3799.

[2] صحيح مسلم 4969.

منسوبة للإسلام ليُضلونا عن منهج الله. ومنها بالطبع إغراء المسلمين بمتاع الدنيا والشهوات (مثل تسهيل وترويج الزنا وشرب الخمر والربا والأغاني ونبذ الشريعة تحت تعريفٍ مُحرَّفٍ لحرية التعبير والتصرف -يحتوي على التنصل من حقوق الله على مخلوقاته-)، يُقحِمون الشهوات على المسلمين قحمًا.

ومنها ما زاد في زمننا هذا وهو مُحاولتهم لإخراج الفقه وتعليم القرآن من المناهج الدراسية، وهذا لصناعة جيل رخوٍ يُداهن في حدود الله ويتنازل في حقوق المسلمين مُساومةً وإرضاءً للكفار. ومنها إخفاء (أو تحريف تفسير) الآيات والأحاديث التي تحث المسلمين على الجهاد، إضافة لسعيهم في تدمير مستوى التعليم عامةً في بلاد المسلمين. فمثل هذا كله وغيره يتسبب في أن شريحة من المسلمين يُفتتنون ويرتكبون المُحرَّمات، فالسيئات التي سببها سعي أهل الكُتب لتضليل المسلمين فهم أولى بها، فتُغفر للمسلم ما دام قلبه طيبًا وتُوضع على الكفار.

رجوعًا إلى حديث الفكاك، نرى الصلة التي فيه مع قول الله عز وجل {فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [آل عمران 185]. فالآية تشير إلى أن كل إنسان متجه إلى النار إذا ترك نفسه دون تقييد، إذ إن هواه والشيطان يقودانه آنذاك، إلا من عدل عن طريقه إلى طريق الله، فحينئذ يُزحزَح من دخول النار. ويدعم ذلك كله أكثر وأكثر حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه لن يُدخل أحدًا عمله الجنة من جهة القَدْر، إنما يدخل الجنة برحمة الله المكتسبة عن طريق العمل الصالح. ذلك لأن العمل مهما كثر وعظم فإنه لن يوفِّي حق الله على الإنسان، ولا عمل الرسول (صلى الله عليه وسلم) نفسه بالرغم من إضافة ثواب كل من اتبع هداه إلى ميزانه!

وكلمة "زُحْزِحَ" كلمة معبرة جدًا، لأنها تعبر أن حتى الذين أنجاهم الله من النار، فإنهم بالكاد نجوا، ويكأن نجاتهم كانت بعد احتكاك سطحي مع النار أو بعد مقاربتها. ففيها إشارة على مقاربة جميع المسلمين لجهنم مع احتمالية الوقوع فيها فعليًا، متمثلًا في العبور على الجسر إذ إن البديهي أن نسقط في النار إلا من هداه الله وعمل صالحًا، فيعينه الله على اجتياز جسر جهنم. ويؤيد هذه النقطة أكثر وأكثر ما جاء في جزء من الحديث القدسي "يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ"[1].

وتدل كلمة "زُحْزِحَ" أيضًا أن الجسم الذي تحرك ثقيلًا، وأن تحريك هذا الجسم يتطلب طاقةً كثيرةً لأنه يُقاوم الحركة، في دلالة وتعبير أن الجسم هو النفس التي تريد المكث على الشهوات، وجهد الحركة هو ما يبذله المرء للبُعد عن الشهوات والإقبال على المكاره (أي مجاهدة النفس عن الاستمتاع بالدنيا إلى المشقة والصبر على العمل الصالح). فنزع النفس عن الشهوات، ومحاربة

[1] صحيح مسلم 4674.

وساوس الشيطان، وتحريكها إلى طاعة الله يحتاج إلى جُهدٍ لتقويمها إلى الطريق المستقيم. هذا مع التأكيد على أن الله هو الذي يُعيننا حتى نتحرك، فهو المُزَحزِح لنا بعد أن هدانا إلى معرفة طريق الصلاح والرغبة في سلكه، فلا نستطيع هذا دون تفضله علينا.

وبعد أن يفعل أحدنا ذلك، يُنجِّيه الله من النار، ويدخله الجنة برحمته وكرمه، لا بعمل الإنسان. فهذه النقطة مِحورية فيما يتعلق بقضية المعصية، أن إذا كنت أنا متجهًا إلى النار إن تركت نفسي (عن طريق اتباع شهواتي)، فالمنطق يُملي أن الوضع يستدعي تفعيل الإجراءات الطارئة، إذ إن الموقف شبيه بالسفينة التي تبدأ بالغرق، وتلك الإجراءات تستلزم البعد عن المعصية وطلب المغفرة من الله على ما قد اقترفت من المعاصي بدلًا من الإسراف فيها. وليس من المعقول أن من كان في طريق آخره النار أن يستمر في هذا الطريق ولو لبرهة من المسافة، بل يجب العدول عن هذا الطريق فورًا، فليس منطقيًّا أن من سيدخل النار أن يزيد من ورطته وغرقه بأن يرتكب المعاصي بلا مبالاة، ويعتمد على أنه سيتفادى النار في آخر لويحظة.

قد يتَّضح الكلام أكثر بشرحه من الجهة المعاكسة، وهو أن لو أن الإنسان طبيعيًّا سيدخل الجنة إلا مَن تعمد بذل الجهد لدخول النار عنادًا وفُجرًا، فقد يحتمل الوضع بعض المعاصي. ولكن حقيقة الوضع هو أنني متجه إلى النار تلقائيًّا إذا تركت هواي يقود زمام حياتي، فالوضع ليس فيه مجال واسع للخطأ (المعاصي)، ولا يتحمل ائتمان نفسي، حتى أنجو من النار إلى الجنة، لأن دخول الجنة يحتاج إلى عمل صالح. فكيف أُوطد نفسي على أني سأدخل الجنة بينما أنا أقترف السيئات التي تزيد الوضع سوءًا مما هو عليه؟! وهذا الوضع شبيه بمن حُرقت منطقة من جسده، أيضع عليها ماءً باردًا أم يضع عليها إربة ماءٍ ساخنٍ؟ كيف له أن يتوقع أو يأمل أن يتحسن حاله ويشعر بالارتياح وهو يضع الإربة الساخنة عليها؟!

إن ترك المعاصي هو من الهِجرَة. إن أوائل المسلمين الذين اتبعوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهاجروا وجاهدوا معه قد ذهبوا بعظائم الأجور والأفضلية، فقد جاء في حديثٍ "لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ"[1]. وفي حديث آخر جاء "إِنَّ أَوَّلَ ثُلَّةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ"[2] (ثُلَّةٍ أي طائفة). ومع فتح مكة عن سيطرة المشركين، أُغلِق باب ثواب الهجرة مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله "لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا"[3].

---

[1] صحيح البخاري 2785، جزء من الحديث.

[2] مسند أحمد 6383، جزء من الحديث.

[3] صحيح البخاري 2575.

أولًا يجب التوضيح أنه ما من أحد ممن بعد الصحابة قد يبلغ منزلة صحابي من الصحابة لما قدموه للإسلام (رضي الله عنهم)، خاصة أن أجر كل من يعملوا بعدهم من المسلمين يكون في ميزان حسناتهم. فلا يمكن إدراك أجرهم ولا أفضليتهم، وتكون مرافقتهم في الجنة بالرؤية والمحادثة وليست في المرتبة. ولكن بالرغم من هذا، فإن كل جيل في زمانه عنده الفُرَصه أن يُثبت لله معدنه وإيمانه. وطريقة إثبات المرء منا إيمانه لله هو بالعمل، وهناك من الأعمال ما تُعلي من قدر المرء كثيرًا، مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمن الفتن، وقول كلمة حق عند سلطان جائر، فهذه مواقف تُشبه، إلى درجة ما، الأوضاع التي كان الصحابة فيها.

وإسقاط هذا الكلام على موضوع الكتاب، فإن من تلك الفُرص ما هو في الهجرة، فمع أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) نبأ أن فرصة الهجرة الرئيسية قد مضت، فإن هناك فرعًا من الهجرة لا يزال متاحًا. ذلك الفرع هو ما دلَّنا عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما سُئل: فَأَيُّ الْهِجْرَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ "أَنْ تَهْجُرَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ"[1]. وقال في موضع آخر "إِنَّ الْهِجْرَةَ خَصْلَتَانِ، إِحْدَاهُمَا أَنْ تَهْجُرَ السَّيِّئَاتِ، وَالْأُخْرَى أَنْ تُهَاجِرَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا تُقُبِّلَتْ التَّوْبَةُ، وَلَا تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ الْمَغْرِبِ، فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ، وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلَ"[2] (تُهَاجِرَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أي تُسَلِّم وتتبع الأوامر والمنهج).

فهذه غنيمة وفرصة لمن يريد أن يُثبت قدره أمام الله، خاصةً إذا كان يزعم أنه لو كان في زمن الصحابة لآمن وهاجر مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقاتل معه، ألا وهي بهَجر المعاصي. من المنطقي أن من يرى أنه كان ليُبلي بلاءً حسنًا مثل الصحابة، أن يكون على الأقل هاجرًا لما نهى الله عنه.

**التفكر في حال المرء مع تقييمه لنفسه.** التفكر سلاحٌ قويٌ ضد الشيطان ومكايده، بدأ بالتفكر في عظمة الله وصفاته وآياته ونعمه علينا، مرورًا بطبائع الإنسان وعظم ما خلقه الله في الكون وسننه في الأرض، وصولًا إلى أدق مخلوقات الله مثل الكائنات ذات الخلية الأُحادية. ولكن ما أردت الخوض فيه تفصيلًا هو التفكر في النفس، ولا أقصد عن التفكر في آيات الله المتعلقة فقط بنشأتنا وتكويننا (مع أهميتها)، بل التفكر في حال النفس بموضوعية. وذلك أن النفس تميل إلى اتباع ما يُسعدها –وهو شهواتها–، وكثيرًا ما تكون الشهوات في معصية الله، ولذلك ابتلانا الله باختبار الحياة لينظر أنستجيب لشهواتنا أم نستجيب لمنهج الله فنُخالف ونُهَذِّب شهواتنا.

---

[1] سنن الدارمي 1388.

[2] مسند أحمد 1581.

إن طباع الإنسان غالبًا ما تنحاز إلى اتجاه شهوات النفس. فمثلًا تجد أن الضمير عندما يتشكك في أمرٍ مريبٍ أو مخالف للقيم والأخلاق، تجد جانب الطمع لدى الإنسان يُعطي المُبررات للخوض في ذلك الأمر. ذلك لأن النفس أمَّارةٌ بالسوء بطبعها، وتلك حقيقة يجب أن نتقبلها جميعًا كي نستطيع أن نواجه ذلك العيب مع معرفة كيفية التعامل معها، وذلك أثمر من أن ينكر المرء وجود تلك الصفة المشاكسة لدى الإنسان ومن ثمَّ لا يستطيع معالجتها.

قال الإمام الحسن البصري (رحمه الله): حَادِثُوا هَذِهِ الْقُلُوبَ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ الدُّثُورِ (أي الانسلاخ من ذكر الله)، وَاقْرَعُوا هَذِهِ الأَنْفُسَ فَإِنَّهَا طَلِعَةٌ، وَإِنَّهَا تُنَازِعُ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ، وَإِنَّكُمْ إِنْ تُقَارِبُوهَا لَمْ تُبْقِ لَكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا، فَتَصَبَّرُوا وَتَشَدَّدُوا، فَإِنَّمَا هِيَ لِيَالٍ تُعَدُّ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ رَكْبٌ وُقُوفٌ يُوشِكُ أَنْ يُدْعَى أَحَدُكُمْ فَيُجِيبُ وَلا يَلْتَفِتْ، فَانْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بَحَضْرَتِكُمْ. إِنَّ هَذَا الْحَقَّ أَجْهَدَ النَّاسَ، وَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ شَهَوَاتِهِمْ، وَإِنَّمَا صَبَرَ عَلَى هَذَا الْحَقِّ مَنْ عَرَفَ فَضْلَهُ وَرَجَا عَاقِبَتَهُ[1].

وهذا نوع من أنواع محاسبة النفس، وهو في المُجمل من أنواع التفكر التي تُصلح وتُعلي من شأن المرء وإيمانه بالله، وقد تكلمنا عن محاسبة النفس سابقًا. مثال آخر على التفكر في حال النفس هو التفكر في تغير سلوك المرء، خاصةً عندما يكون من حالٍ صالحٍ إلى حالٍ أسوأ، ولو في نقطة فردية في سلوك المرء. فمثلًا قد يكون هناك من ينتظم في صلاة النوافل ثم تركها، أو من كان ينتظم على قراءة القرآن ثم توقف، أو كان يصوم كثيرًا ثم قلَّص صومه.

وجب على المرء آنذاك أن يسأل نفسه أسئلة مثل: لماذا حدث هذا، وكيف حدث، ومتى بدأ ذلك التغيير، وما مدى الفترة الزمنية التي حدث فيها التغيير، وما المتغيرات في تلك الفترة الزمنية من أفعال أو أحداث (سواء بالنقصان أم الزيادة، لأن ذلك قد يفيض إلى إدراك أن ذلك التغيير حدث بسبب عاملٍ آخر). ثم ينظر إلى ما هي المبررات أو الأعذار التي أحدثت ذلك التغيير (إن وُجدت)، ولماذا انقلاب الحال حدث بتلك الضراوة والشساعة، وما الخطوات التي مر بها حتى ينقلب الحال إلى الحال.

كل تلك الأسئلة تعطي ثلاث نتائج بَنَّاءة. أولًا، يُدرك المرء أنه على خطأ فيُؤنبه ضميره ويُحفّزه على إصلاح حاله، ولاسيما إذا صدق في ذلك وأخذ خطوات عملية فإن الله يعينه أيضًا، وما على العبد إلا أن يسأل الله الإعانة على الإصلاح بعد أن يصدق في الإصلاح. ثانيًا، هذه الأسئلة قد تؤدي إلى تشخيص سبب العِلَّة، مثل أنه يكتشف أنه في تلك الفترة تعرّض لصدمة في حياته، أو شاهد واقعة جعلت هِمَّته للآخرة تهبط أو لمتاع الدنيا تزيد، أو تعرَّف على صديق (سُوء)، أو اعتاد معصية جديدة لم يكن يفعلها من قبل. وقد يكون تغييرًا في النمط الفكري وليس لمعصية في عينها،

[1] ذم الهوى لابن الجوزي 43.

كأن يُغير المرء نظرته للرزق من أنه هبة من الله بحتة إلى فكرة أن ما يُحصّله من الرزق إنما هو نتيجة لتفوقه ومجهوده.

حينئذ يُدرك كيف يُصلح حاله على علم، ولا يُستَخَفُ بتلك النقطة، لأن الفرق بين الذي يعلم مصدر العلة بالتشخيص وبين الذي يتخبط دون علم كالفرق بين السماء والأرض، لأن الذي يجهل سبب المشكلة كيف له أن يواجهها ويعالجها؟ وهذا تمامًا مثل قائد الجيش، فإنه يجمع قدر المستطاع من المعلومات عن جيشه من حيث عدد الجنود وتسليحهم ومواقعهم، وعن العدو من حيث عددهم وتسليحهم وأساليبهم وتمركزهم وأهدافهم، وعن ساحة المعركة أيضًا كي يستغل طبيعة الأرض في صالحه ويتجنب أن تعيق تقدمه أو أن يضع نفسه في موقف سلبي. وأما القائد الذي لا يدرس ولا يجمع المعلومات فإنه يتخبط ويهدر قوَّته ويُقلص من فرص انتصاره، ويُعرض نفسه لأفخاخ العدو، فيُهلك نفسه ومن تبعه من جنوده.

ثالثًا، تمييز سبب العلّة يُسلِّح المرء بأن يتجنب الوقوع في نفس العلّة ثانيةً بعد أن أصلح حاله. بهذا لا يُكرر المرء خطأه.

وإضافةً لذلك كله، إن التفكر في حال النفس يجعل الشيطان يتراجع ويبتعد، لأنه لا يريد من المرء أن يكتشف الأدوات ولا المنهج المُستخدم لتشتيت حال المرء وتوريطه في معصية الله. وسنستفيض أكثر، إن شاء الله، عن أساليب الشيطان لفتنة المرء في فصلٍ قريبٍ. فإذا شعر الشيطان أن المرء يوشك أن يُدرك أساليبه معه، تراجع قليلًا حتى لا ينكشف منهجه الخبيث. وهذا التراجع من الشيطان يُقلل (إلى حد ما) من تأثير الشيطان على المرء، فيكون أسهل على المرء أن يُعرِض أو يُقلع عن المعصية ويُصلح حاله.

هذا مع أهمية الانتباه إلى أن الشيطان يستغل عنصر الوقت أشد الاستغلال لتغيير حال المرء، فيثابر ولو لعقود من الزمن ليستدرج المرء للانتكاس إلى المعصية، فهو مُلِحٌّ مُصِرٌّ. فنسمع عن أُناس ينشأون في طاعة الله ثُم يفتتنون في أواخر عمرهم، كقصة الراهب العابد الذي استدرجه الشيطان بتَدَرُّجٍ كبيرٍ إلى أن وَجَّهَهُ إلى الكفر بالله، فمات كافرًا. وسيأتي سرد القصة كاملةً إن شاء الله في تفسير الآية {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} [الحشر 16-17]، تحت عنوان "ترك المشبوه والمُريب مُبكرًا وسريعًا". فنسأل الله العفو والعافية والهداية والتوفيق والعون والثبات لأنفسنا ولإخواننا، وللذين فُتِنوا منا بالفعل لعلهم يرجعون.

**التفكر في أوقات ضعفي.** إن الإنسان له أوقات ضعف، وتلك أوقات الضعف تنزل على الإنسان لحكمة من الله، منها كي يُدرك الإنسان قَدْرَه فيخضع وينيب إلى الله. قال ابن القيم (رحمه الله) وهو يُعدد حِكَم الله من البلاء والنقاط التي تُعين العبد على الصبر: السابع: أن يعلم أن هذه المصيبة هي دواءٌ نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرُّعه، ولا يتقيأْه بتسخُّطه وشكواه فيذهب نفعه باطلًا.

الثامن: أن يعلم أن في عُقبى هذا الدواءِ من الشفاءِ والعافية والصحة وزوال الألَم ما لم تحصل دونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظر إلى عاقبته وحسن تأْثيره. قال تعالى: {وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُم، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [البقرة 216]، وقال الله تعالى: {فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء 19][1] (انتهى).

فالمرض البدني مثلًا إنما هو دواء من أمراض قلبه، إذ يُجبره على التواضع، والتوقف عن الركض في الدنيا تنافسًا عليها فيضطر إلى ترك انشغاله بها فيتفكر في خالقه، ويُعاين ضعفه وعجزه، ويُبصر هوان الدنيا. والعبرة تكون في الطريق الذي سيسلكه العبد بعد ذلك الدواء ويشفَى، هل سيُهدِره بأن يرجع إلى معاصيه التي كان عليها سالفًا، أم يتّعظ ويستثمر ذلك الدواء في حث نفسه على الانصلاح؟

أوقات الضعف عند الإنسان تندرج تحت أربع مراحل عامة، ثلاث منهم في دنياه والرابعة في الآخرة، فأما في حياته هم في طفولته وفي هرمه، وبينهما فترة قوة ولكن يتخللها فترات وجيزة (عادةً) من الضعف في أوقات مرضه وإجهاده. أما الفترة الرابعة من الضعف فهي تبدأ منذ لحظة الاحتضار، وتمتد وهو في القبر وإلى يوم القيامة، وخاصةً وهو واقفٌ بين يدي الله إلى أن يُقضى به.

وأوقات الضعف الأربعة منها ما لا يمكن الاستفادة منها، وهي فترة المهد. ومنها ما ينبغي له الاستفادة منها مثل مرحلة المرض، فهي مرحلة للتريث ومراجعة المرء لما يفعله في حياته، لعله يصدُق مع نفسه في أخطائه ويصارح نفسه في تصرفاته ويُقَوِّم حاله، فيلجأ إلى الله ليغفر له ويُعينه في لحظات ضعفه، ويعزم على إصلاح سلوكه في الحياة. ومنها ما ينبغي الإعداد لها، وهي مرحلتا الهرم والآخرة.

ومرحلة الهرم تضعف فيها قوة المرء فلا يستطيع تحقيق كثير مما كان يمكن أن يُحققه في شبابه، خاصة أن صحته قد تدنو أيضًا بسبب الأمراض. ولكن هي مرحلة لا تزال للمرء فرصة فيها أن يُصلح حاله، وذلك بمراجعة النفس أيضًا والعمد إلى إصلاح ما بقي فيه من الأخطاء التي يرتكبها،

[1] طريق الهجرتين لابن القيم 416.

فإن عُنصُريّ علمه بقرب نفاد وقته في الدنيا إضافة إلى أنه عادة ما تكون شهواته تخمد في ذلك العمر يُساهمان في تسهيل تركه للمعاصي، ولربما قد نال من الدنيا ما نال فاكتفى.

فهي نعمة من الله لا ينالها كل الناس كفرصة أخيرة لإصلاح حال المرء، والندم على الأخطاء والتقصير (وتصليحهما إذا أمكن)، وهذا ما يدل عليه معنى الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً"[1]. أما من يزال يرتكب معاصٍ كبرى وهو في ذلك العمر بالرغم من كل ذلك، فالراجح أن يكون له عقاب خاص من الله كما دل قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ "[2].

وسبب جمع هؤلاء الثلاثة في هذا الحديث، كما أشار القاضي عياض رحمه الله، هو أن لكل واحد منهم صفة تنفي الداعي لفعل تلك المعصية. فالشيخ (أي العجوز) تكون شهوته للجماع اضمحلت، والمَلك ليس هناك من الناس من هو أعلى منه في السلطة حتى يخشاه فيكذب ليُداهنه أو ليُصانِعَه. والعائل (أي المُحتاج إلى النفقة من غيره) لا يملك ما يكفيه فهو في حاجة إلى مساندة الناس له، فلماذا يتكبَّر على غيره وكيف يحتقر غيره ولو كانوا قُرناءه إلا إذا كان مريض القلب؟ ولذلك لهم عذابٌ خاصٌ، لأن ارتكابهم لتلك المعاصي أقرب من المعاندة والاستخفاف بحقوق الله عن شدة الرغبة أو الاحتياج لارتكابها.

أما مرحلة الآخرة، فهي المرحلة التي يُستَعَد لها بالعمل الصالح وترك العمل المُفسد، إذ إنه لا ينفع عملٌ حينها. فما نلاحظه هو أن كل مرحلة لها صفاتها التي تُميزها عن غيرها، وسبب إشارتي إلى ذلك هو للاستفادة القصوى من كل مرحلة بحسب طبيعتها.

وتلك الأوقات، كما ذكرنا، إنما جعلها الله لحكمة عنده ولغاية إصلاحية قد نصيبها إن سعينا، ولا إجبار فيها في الأول والآخر لأن الإنسان يتحمل مُحصِّلة أعماله كما قال تعالى {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ} [النور 54]. سبحان الله، حقًّا ما على الرسول إلا البلاغ المبين، وكلٌ له حمله بحسب عمله، وما يحمله الإنسان إنما هو نتيجة اختياراته في أعماله. فلماذا أهمل في طاعة الله؟ لماذا أتهاون بها؟ لماذا، وقد وُلدت عاريًا ضعيفًا لا أستطيع النجاة دون رعاية... لا حول لي ولا قوة.

هذا بالإضافة إلى أن الله يُطعمني ويُسقيني ويُكسيني ويحميني، ثم بعد فترة أكون قويًّا ساعيًا في حياتي. فلمَ التكبر عن طاعة الله، ولمَ التهاون بأثر المعصية على نفسي ظنًّا مني أني قوي..

[1] صحيح البخاري 5940.

[2] صحيح مسلم 156.

ونسيت الضعف بعد قوة الذي سيأتي (الشيخوخة). أفلا أُقدِّر نفسي حق قَدرها؟ فلا أغتر بما عندي الآن، فيوم الحساب آت لا ريب فيه وسأكون حينئذ في أضعف حالاتي. أفلا تنقل نفسي القوية من الزاد ما يُخفف عن نفسي الضعيفة؟ أفلا تُساعدها فتحمل عنها؟ هذا هو الأَولى، لأن الإنسان القوي يساعد أخاه الضعيف على فعل شيءٍ ما لأن قلبه يعطف عليه ويرق له، أفليس بالأحرى أن أعطف على نفسي الضعيفة يوم القيامة وأنا الآن قويٌّ؟

وإن افترضنا جدلًا أن الإنسان لا يمر بأوقات ضعف في حياته، فحتى وهو في أقوى حالته فإنه لا يكون شيئًا أمام قوة الله وعظمته. قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} [الحج 73]. قال المفسرون عن "الطالب والمطلوب" هما الصنم والذباب، وقيل إنهما المشرك (الذي يطلب من الصنم) والصنم (وهو المطلوب منه تلبية طلب المشرك). ولو تفكرنا سنجد أن تلك المُهِمَّة، وهي استخراج ما سلبه الذباب من المرء، أمرٌ لا يقدر عليه أحد إلا الله بالرغم من ضعف الذباب، فهذا يعني أن الإنسان ضعيف كذلك، إذ لا يستطيع تلبية ذلك التحدي البسيط في مخلوق هزيل (بالنسبة إلى منظورنا القاصر إذ إن الذُباب مخلوق مُعقَّد فوق ما نتخيله).

وهذه من آيات الله التي قد تُحمل على عدة أوجه، وقد تعني أيضًا الطالب هو المشرك، إذ يطلب من الصنم طلبات عظيمة لنفسه، والمطلوب (أي الذي يطلبه الله من هذا الصنم ليبين للإنسان حقائق الأمور) أن يستنقذ ما سلب الذباب منه. ففيه توبيخ عند مقارنة أمل المشرك في إجابة طلباته الكبيرة أمام بيان عجز الصنم عن استنقاذ ما سلبه الذباب منه، وهو طلب بسيط وسهلٌ افتراضيًّا للصنم من مخلوق ضعيف (الذباب)، فيعجز الصنم عن ذلك. وفي ذلك إبراز لعلة ما يفعله المشرك في طلبه من عاجز إلى هذا الحد، حينئذ يتبين للمشرك مدى قبح صنيعه وضلاله إذ يتذلل لصنم يعجز عن أبسط الأمور.

والحاصل أن سواء كان الطالب والمطلوب بين المشرك أم الصنم أم الذباب أم استنقاذ الذي سلبه الذباب، فكلٌ ضعيف في ضعيف، وقدرتهم وهنٌ على وهنٍ أمام عظمة وقدرة الله. والمراد من ذكري لهذه الآية هو الإشارة إلى أن نفس شيء ينطبق على الإنسان، أنه لا يستطيع أن يسترجع من الذباب ما سلبه منه، فبأي حق لكائن ضعيف مثلي أن يعصي ربه القوي العظيم، وبأي جرأة؟

هنا أريد لفت الانتباه إلى مسألة خادعة، متعلقة بسياق الموضوع، وهي تحدث في أثناء حديث المرء مع نفسه وهو في فترة ضعفه -لمرض ثقيلٍ أو لمصيبةٍ أصابته في ولده أو ماله- بأنه اتَّعظ وسيُصلح حاله. المشكلة ليست في هذا الجزء، إذ إن كثيرًا من الناس يُنيبون ويتضرعون إلى الله في فترة ضعفهم لإدراكهم مدى عجزهم في تحقيق مُرادهم ومُعاينة سهولة انقضاء أجلهم، ولكن رأس المشكلة هي ما بعد فترة الضعف. فترة الضعف قد تكون جيدة في أن يأخذ المرء قرار الإصلاح

بصدق وعزم، ولكن الواقع هو أنه لن ينصلح على الدوام إلا عندما يبدأ بتغيير حاله مع (وبعد) زوال المصيبة، خاصة أن في فترة الضعف قد يعجز الجسد وتعجز النفس عن فعل هذا الكم الكبير من الإصلاح.

مفصل القضية هو أن الإصلاح ينبغي أن يستمر في فترة الرخاء واستعادة القوة، فينزل فيها إلى طاعة الله، وهنا هو المكان الذي يخفق فيه كثير من الناس ويتخاذلون، فيرجعون إلى عاداتهم تدريجيًّا. القضية تحتاج إلى حسم وتضحية بإرغام النفس على التغير في فترة الرخاء والقوة، وهكذا يثبت الانصلاح فعلًا، وهذه هي نصيحتي ومما لاحظته، والله أعلم.

**الإدراك والتفكر في أساليب الشيطان لفتنة المرء.** الشيطان كي يفتن المرء يلجأ إلى أدوات أو حِيَل ليؤثر في المرء، ويحتاج أن يُمرر المرء على مراحل ممنهجة حتى يرتكب المعصية، فوجود الأدوات وسلك النهج ركنان ضروريان من أسلوب الشيطان لإيقاع المرء في المعصية. فالأدوات التي يستخدمها الشيطان في الخداع تتمثل في رغبات كل امرئ الخاصة، والتي تكون بمنزلة أبواب للتأثير عليه، فيأتيه الشيطان من جهتها، إضافةً إلى استغلال عنصر الزمن بالإلحاح كي يلين المرء ويفعل ما يقترحه الشيطان في النهاية. فالشهوات نقاط ضعف تختلف درجاتها بين كل امرئ، مثل حب المال أو شهوة النساء أو حب السلطة، فإذا أدركها المرء كان أحوط من التأثر بها.

أما المنهج الذي يحتاج الشيطان أن يُمرر المرء عليه خطوة خطوة حتى يبلغ غايته، فهي تتمثل (اختصارًا) في عدم إنكار المعصية ثم أُلفتها ثم الاحتكاك بها ثم الرغبة فيها ثم التجرؤ لارتكابها. وهذا يتضح جليًّا في أن الأطفال بفطرتهم السليمة يُنكرون وينقبضون بشدة من أفعالٍ مُحرّمة يرتكبها الكبار، مثل السباب والتدخين وظُلم الآخرين، ثم عندما يكبر هؤلاء الأطفال فمنهم من يعتاد فعل تلك الأشياء، لأنهم تدريجيًّا تبلدوا تجاه المعصية وانحرفت فطرتهم.

فإذا انتفى أحد الركنين لدى الشيطان: الأدوات أو النهج، انتفى تأثير الشيطان في إيقاع المرء في المعصية. فكيف يُوقِع امرأ قد سيطر على شهواته وهذّبها، أو كيف يُوقع امرأ في معصية وفطرته تنفر منها ويُنكر على من يُقبل عليها؟

ولكن الشيطان لا يُقلع عن محاولة جلب الضرر على الإنسان، ولا يعطيه فرصةً ليستريح إذ يخالطه كمجرى الدم، فيظل يكرر وسوسة الأفكار الخبيثة على الإنسان، ويتنوع في محاولاته، إلى أن يصيب مرة بوجهة نظر يضعف المرء أمامها فتؤثر فيه. فمثلًا، قد يوقعه الشيطان في التخلي عن الجهاد تحت تسويل أنه يجب أن يثبت لأعداء المسلمين أنه مسالمٌ ولا يُعادي الأديان الأخرى. والنتيجة هي أن يتخلى المسلم عن الجهاد ونصرة أخيه، ببراءة الظن في الأعداء أنهم ربما يعادوننا

بسبب سوء انطباعهم عنا أو أن بينهم أبرياء مرغمون على التكاتف علينا، وهذا بالرغم من أن أعداء الإسلام يرتكبون الجرائم ضد المسلمين ويستعمرون أراضينا. فقد استخدم الشيطان أداة رغبة المرء في أن يتقبله الناس ورغبته في الراحة وأن يظل سليمًا، وبلغ في المنهج مع المرء إلى أنه ألِف من أن العدو اتَّخذ من أرض المسلمين مَسكنًا فتبلَّد وأصبح لا ينتفض، فاقتنع بهذا التسول من الشيطان عن ضعف حالٍ وقهرٍ وليس لأنه الحق.

أما غاية الشيطان العليا، فهي أن يفيض بالمرء إلى الكفر بالله، فالشيطان لا يزال يُلح على تحريف مقاصد المرء من جهة الإيمان بالله. فإن عجز عن جعله يكفر يجعله يُشرك، فإن عجز يجعله يتبع البدع، فإن عجز فيُسول له الكبائر، فإن عجز يُسول له الصغائر، وإن عجز فيُقَعّسه عن فعل الطاعات، فإن عجز ألبس على العبد أولويات أو قدر أجر الطاعات (فيفعل الطاعة الأصغر بدلًا من الطاعة العظيمة الأجر). وأخيرًا، إن عجز فإنه يُسلّط جُنده –من استجابوا لتأثيره من الإنس والجن– لاعتراض وتعطيل العبد الصالح.

فيُستحب للمرء مراقبة أساليب الشيطان معه واستيعاب غاياته منها، حتى يُميز المرء تلك المؤشرات في بوادرها فيُدرك أن الشيطان يريد النيل منه، فيفيق ويأخذ تدابير احترازية. ومن أهم الأمثلة في محاولة الشيطان لإجهاض سعي المرء في العمل الصالح هو مساومته في نزوله لصلاة الجماعة في المسجد. إذا عزم المرء على النزول إلى المسجد لصلاة الجماعة استدرجه الشيطان قائلًا: لا يزال الوقت باكرًا على الأذان فانظر شيئًا تقضيه حتى حينه؛ فإذا بدأ الأذان قال له: لا يزال هناك فسحة من الوقت حتى الإقامة، فأتم ما بيدك وافعل كذا وكذا سريعًا؛ فإذا اقتربت الإقامة قال: تستطيع أن تُنجز ما بيديك وتُحصِّل الجماعة، وفي أسوأ الأحوال ستفوتك ركعة تستطيع أن تُعوِّضها؛ فإذا أُقيمت الصلاة قال: أنت متأخر في كل الأحوال فليكن هدفك أن تلحقهم قبل أن يفرغوا من الصلاة.

فإذا عمد المرء إلى النزول تأتي نقلة نوعية في التعامل من الشيطان، وهو إجهاض عزيمة المرء فيقول له: أنت قد تأخرت ولن تلحق الجماعة، قد فات الأوان فصلِّ في البيت ولكن الصلاة القادمة ستنزل (وربما يقول له: إن الناس سيرونك متأخرًا ويتكلمون فيك ويزدرئونك بأعينهم). ثم يظل ملازمًا لك يوشوش لك تأخير الصلاة التي فَوَّتَّها في المسجد إلى قُبيل التي بعدها بلحظات، ولعله حتى يُنسيك فتخرج الصلاة من وقتها، ثم تُعاد الدورة.

وينبغي أن نلاحظ مرحلة القفزة النوعية في التعامل، فبعد أن كان يجعله يتراخى في النزول، يأتي فجأة ويُثبطه في النزول، أي يُحبطه بتحميله المشكلات والعقبات وتذكيره بالأعباء، أو يُذكِّرَه بمعاصيه وأنه ليس من معيار أهل المساجد، مع تبشيره أن المرء سيُصلح حاله المرة القادمة –وهو التسويف–. فليس هناك مرحلة وسطية في تعامل الشيطان مع المرء، إذ منهجه على المرء إما بجعله

يتراخى وإما يُحبَط، مع أن المفترض أن تكون هناك مرحلة حماسية للمرء بين الاسترخاء والإحباط، ولكن الشيطان يريد تفويت أو تقليص تلك المرحلة على العبد. وقِسْ أسلوبه ذلك على سائر الأعمال الصالحة أيها القارئ.

إلمامًا بهذا الفصل، إن المرء إذا أدرك أساليب الشيطان التحايُلية بالأدوات والمنهج، وأدرك غاية الشيطان من المرء، أصبح أكثر انتباهًا وأقل عُرضةً من الوقوع في المعصية، خاصة لو أخذ خطوات عكسية عن سعي الشيطان. ولهذا، فإن التفكر في أساليب الشيطان مع المرء لإيقاعه في المعصية مُحبَّذٌ، لأن ذلك يعود بالنفع عليه.

**هذا الجسد الذي أسكنه إنما هو إعارة لي من الله.** إن جسد الإنسان أشبه بالزورق الذي يركبه المرء كي يعبر البحر، فهو يحتاج إليه لقطع طريقه، وإنما هي فترة مؤقتة يستخدم فيها الزورق ثم يتركه. وكذلك الجسد، فإنا نحتاج إليه لاجتياز مشوار الحياة، ثم ينهار مع الموت، ولكن الروح التي كانت تسكنه تظل في القبر تُعَذَّب أو تُنَعَّم. وهذه الرؤية لواقع الأمر تُوَضِّح كثيرًا من الأمور، مثل أن الحياة الدنيا مرحلة وليست غاية في حد ذاتها للمرء، وتُفرض على المرء التعامل مع الأمور بطريقة أصوب إذ ترده إلى الواقع.

فإذا كان الجسد هو الوعاء الذي أعبر به مسيرة حياتي، فلماذا أتصرف كأنه ملكي وأنه يدوم معي أبدًا؟ ولماذا أتصرف كأني مُتَخَفٍ فيه عن الآخرين بينما الله هو الذي خلقه ويعلم ظاهره ومُطَّلع على ما يحتويه، كأني كتاب مفتوح؟ إنما هي لحظات من حُرِّية مُنحت يتوهم فيها العبد أنه أصبح مِلك نفسه غرورًا.

قال تعالى {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [التغابن 4]. هذه الآية فيها تحذير للإنسان مما قد يرد في باله ويُسِرَّه من نيات سيئة أو مكرٍ يمكره بينما يُظهر خلاف ذلك. وهذا لأن الله هو الذي ركّبنا، فهو أدرى بالتفاعلات التي تحدث في أجسادنا –سواء فكرية أم عضوية–، فالله يملكنا. وما نحن إلا نفس تسكن هذا الجسد الغريب الذي يملكه الله وقد ملّكنا إياه فقط أمدًا من الدهر، فهل من المنطق استخدام ما أعارنا الله إياه في معصيته؟ وما ظني بعواقب ذلك؟ قال أحد الناصحين: من أنفق عافيته وصحته في معصية الله، فمَثله كمن ترك له أبواه ألف دينار فاشترى بها حيّات وعقارب وجعلها مِن حوله: تلدغه هذه مرة، وتلسعه هذه أخرى؛ أفما تقتله؟

من الواضح منطقيًا، إضافةً إلى إخبارنا شرعًا، أن الجسد لم يُصَمَّم لعصيان الله. إنه لا يكدّ ويعمل طوال الوقت بالتنفس وتصفية المشروبات وهضم المأكولات وصناعة المواد الكيميائية والنمو

وإصلاح الخلايا والحفاظ على توازن أنظمة الجسد (مثل درجة الحرارة وتكوين الدم)، وضخ القلب للدم حتى في أثناء النوم وغير ذلك حتى يتم استخدام كل هذا لقضاء شهوة له، إذ يتبين الإهدار للجُهد. والأهم هو المفارقة من المغزى من صيانة الجسد بهذا الاهتمام فقط للّهو، لأن إن لم يكن هناك جسد فلن تكون هناك شهوة ولا رغبة في اللهو، فليس منطقيًّا إذًا أن يكون الهدف من خلق الجسد هو تلبية شهواته، فهذا تمامًا مثل رجل يصنع سيَّارة بغرض ملء هواء عجلاتها وخزان وقودها كل حين دون استخدامها في التنقلات. فالواضح أن المغزى أكبر من تلبية شهوات الجسد.

هناك تناقض بيّن إذا وُضع كل هذا المجهود الهادف من الأعضاء في عملٍ عبثيّ بالجسد ككل (المعصية). هذا وخاصة أن المعصية تعود بالضرر على الجسد في المُحَصِّلة، فالإنسان بجسده لم يُخلق إلا لعبادة الله، وهذا الآخر يُعطي للمجهود الذي يبذله الجسد معنًى ويضع تفسيرًا لمعيشتنا.

إدراك أني مُبدَّلٌ بغيري عاجلًا أم آجلًا، ومعنى ذلك أن خلاصة المرء هو عمله. قال تعالى {أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (58) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} [الواقعة 60]. إن المني الذي يخرج من الإنسان هو أصله، فسبحان الذي قدّر الحياة بحيث أن من المني يخرج رجلًا يخرج منه المني عندما يكبر. وفي ذلك تبصرة لنا، أن الفرق بيننا وبين جيل المني هو سنين قليلة، وكلٌ مكتوب عليه الفناء. فالمني الذي يخرج من الرجل ويصبح جنينًا في بطن الأم هو الجيل الذي يعقبنا تبعًا، كما كنا مني من قبل ومضى أجل أجدادنا، وأولادنا تبعًا لنا كما نحن تبعًا لآبائنا.

وهذا يشير إلى سرعة انقضاء الدنيا، إذ إن الذين سبقونا مروا بجميع المراحل التكوينية مثلنا، وكانت لهم حياة مثل حياتنا خاضوا فيها أحداث واختيارات وأزمات، ثم انقضت. ولكننا لا نعلم، وقد لا نُقدِّر أو حتى لا نُبالي، بما مر به أجدادنا مِن أحداث في حياتهم، ولكننا كلنا سواء في المراحل الحياتية، فكلنا كنا أطفالًا ونضجنا ومررنا بأوقات سعيدة وبأزمات، وواجهتنا اختيارات عصيبة. وكذلك وضعنا، فإننا لسنا مختلفين عنهم في ذلك الجانب، قصة حياتنا تنقضي لأنه حان دور المني ليأخذوا مكاننا في الدنيا ويمروا بمثل ما مررنا به. وفي ذلك تبصرة وعظة لمن يتفكر ويعقل.

وقال تعالى فيمن أهلكهم {كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ} [الدخان 25–28]. فسبحان الله، قد بيَّن في تلك الآيات ما كان قوم فرعون فيه من ترف وأملاك قبل إهلاكهم، ثم انتقلت تلك النعم لمن بعدهم، وتلك سُنّة الحياة. في هذه الآيات يُذكِّرنا الله بما قد نتغافل عنه، أن الإنسان تارك كل ما هو فيه الآن من متاع الدنيا، وأنه هو الذي يُبدّل وليست الدنيا (حتى يأتي أجلها)، فالمنزل يُبدِّل من يسكن فيه كل

فترة، وكذلك من يملك قطعة الأرض، والمال اليوم تملكه أنت وغدًا سيملكه غيرك؛ كُلٌّ يتنقل من مالك إلى مالك إلا القليل.

يروي لنا سيدنا عبد الله بن الشخير بن العوف (رضي الله عنه) قائلًا: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْرَأُ {أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ}، قَالَ "يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي؛ وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟"[1]. فالإنسان، في حقيقة الحال، لم يكن ليمتلك شيئًا بالفعل إلا ما أكله وشربه فأفناه، وما لَبِسه فأذابه، وما تصدق به فأبقاه لآخرته؛ أي إما ما استخدمه إلى الإهلاك والفناء بحيث لا يستطيع أحدٌ استخدامه بعده، أو ما تصدق به فيُسَجَّل عند الله كأعمال صالحة ينتفع بها العبد في آخرته.

وفي ذلك أيضًا تبصرة لمن يعتبر، فنحن المُبَدَّلون ولسنا المُبَدِلين لماديات الدنيا حتى. فما تملكه اليوم وتبيعه أو تتركه لغيرك يُخيل إليك بمنظورك أنك أنت مالكه، ولكن الأمور تختلف بحسب المنظور. ومنظور الأرض أن الله هو الذي بدّلك من فوقها، لأنك أنت الذي أصبحت في بطنها وأصبح غيرك يمشي عليها ويجمع ما عليها ويتصرف فيما كان في يديك، فأنت الذي مضيت وفنيت قبل أن تفنى الأشياء التي كانت في يديك. حتى الأشياء التي تُبلى مثل الطعام، فإنها تدخل دورة إعادة الخلق في الدنيا، ولكنك لا تدخل تلك الدورة إلا مع قيام الساعة، قد امتلكته فقط مؤقتًا ولكنك استهلكته، أما غير ذلك فلم تستهلكه إضافةً إلى أنك لم تمتلكه إلا مؤقتًا أيضًا.

فلا يغُرَّنك ما تملكه على معصية الله، واعرف مكانك، أنك مُبدّل ولا يُنظر إلا إلى ما في قلبك وعملك كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ"[2]. فأحسن في الدنيا بما وهبك الله إياه، سواء من مميزات أم مُعَوّقات، واشتغل باستغلال مميزاتك فيما يثيب وبمقاومة إعاقاتك عن تعطيلك عن الصواب أو دفعك إلى الحرام.

وإن من أبلغ وأصرح التعبيرات على أن المرء عند الله إنما هو عبارة عن أعماله هو ما جاء في الآية {هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم} [محمد 38]. فإن كان عمل المرء سيئًا، يُبدِّله اللهُ بشخصٍ عمله صالح ولو بعد أمد طويل. وتلك القاعدة تسري حتى بعدما يبقى فقط شرار الناس على الأرض فتقوم الساعة، فمِن بعدها في الآخرة تكون الأرض هي أدنى منزلة الجنة كما هو وجه من أوجه تفسير الآية {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء 105]، وأكّدت عليه الآية {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [الزمر 74].

[1] صحيح مسلم 5258.

[2] صحيح مسلم 4651.

وفي هذا توكيد على أني عندما أعصي الله فإن الشيء الوحيد الذي يدوم إضراره هي نفسي، إذ إن الله يُعيد الحقوق لمن أنا قد ظلمته أو ما أتلفته من الدنيا بعد أن يتم تبديلي بمن هو أفضل مني، وأبقى أنا الظالم لنفسي {فَلَمّآ أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ يَأَيّهَا النّاسُ إِنّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىَ أَنفُسِكُمْ} [يونس 23، جزء من الآية]. فماذا أنا بعامل؟ وأين أظن مكانتي عند الله بعملي الحالي؟

**هل مضى من عمري ما يَجُبُّ إعذاري عن تقصيري؟** إن الإنسان بطبعه يؤجل الأمور الشاقة عليه ويُقبل على ما يُلهيه. وبسبب تلك الصفة، فإنه يُقبل على المعاصي لأن فيها مُتعة فورية، ومقابل هذا يؤجل التفكر في أفعاله وإصلاح النفس والاجتهاد في العمل الصالح، إذ إنه يُريد أن يعمل الأمر الشاق في آخر عمره، أملًا أنه سيتساوى في المنزلة مع من أصلح نفسه منذ أن كان شابًا. والمشكلة أن المرء قد يظل يُسوِّف ويؤجل الإصلاح مُقنعًا نفسه أنه لا يزال في مقتضى عمره، والمشكلة تكون أنه قد يكون قضى من عمره ما يكفي لرفع العذر عنه أنه لم ينصلح.

قد قال تعالى واعظًا عن ذلك {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ} [فاطر 37]. هذه الآية تُنبئنا بحال الكفار في جهنم، ولكن هذا وارد على من في النار من المسلمين أيضًا، فلا شيء يمنع أصحاب النار (مثل الكبر أو الخجل) من أن يقولوا أو يتحايلوا بكل أساليب الخداع ولو كان مهينًا لهم، وذلك من شدة بؤسهم ويأسهم.

فيجب أن أحترس من أن أجد نفسي في وضع أني أقول مثل ذلك، وهذا بأن أُصلح عملي وأترك المفاسد، فما زال العمر في يدي للتوبة ولم يفت الأوان قبل الغرغرة. وحقًّا قوله تعالى إنه عمّرني ما يكفي مما ينفي العذر لأتذكر إن كنت سأتذكر، فلا مجال لي أن أتعذَّر بحججٍ مثل "لم يبلغني ما يكفي عن ديني" أو "لم أتمتع بما يكفي من الدنيا حتى أُدرك حقيقتها". هذا وقد جاء النذير أيضًا (صلى الله عليه وسلم)، فلا حجة لي في تقصيري، وأنا ادرك أني سأشهد بذلك على نفسي عندما أُسأل وقت الحساب... ففيما المُعافرة والمماطلة، في أمرٍ قد قُضي –انقضاء من عمري ما يكفي لدرء الاحتجاج–، أم في أمرٍ قد حان –أن يخشع قلبي لله وأتّقيه–، أم مع أمرٍ هو آتٍ لا محالة –الموت–؟!

**التفكر في مدى قصر مشوار حياتنا الدنيا، وأننا لا نراه كذلك لأننا لا نعي غيره.** قال تعالى {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [النازعات 46]. هذا شعور الناس يوم القيامة بعد البعث، أن

مكوثهم في الدنيا كان للحظات قليلة. وهذا كما جاء في أكثر من موضع في القرآن {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} [الأحقاف 35، جزء من الآية]، وقولة تعالى {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ} [الروم 55]. وكما تكلمنا سابقًا، وجهة النظر لطول مدة الحياة شيء نسبيّ تعتمد على المعاين، فنحن نراها طويلة الآن لأننا لم نُعاين الآخرة.

وبما أننا لم نعاين سوى الدنيا، فمعاييرنا لتقييم الدنيا تكون مُختلة، لأننا لا نستطيع أن نقارنها مع الآخرة. وتوضيحًا للنظرة التناسبية بين شخص وآخر بحسب حالته وبحسب زمانه ومكانه، فقد يُقلل المرء من قيمة يوم نظرًا لأنه يأمل طول العمر، ولكن من أُصيب بمرض مُهلك ينظر إلى اليوم بنظرة أخرى، فيرى كل شيء يحدث في يومه بعين الملاحظة، ويشعر بكل لحظة ويَعِيَها، فيُدرك قيمة اليوم الواحد. وذلك تمامًا مثل ما أنك ترى لحظات التسلية تمضي سريعًا ولحظات الشقاء تمر بطيئًا. فاستيعابنا للوقت يعتمد على عدة عوامل، منها الحالة النفسية والصحية وبالطبع معاينة المكان (أي خوض الدنيا والآخرة يجعل رؤية المرء تختلف بسبب ما مر به).

فالسوال الذي يجب أن أطرحه على نفسي، أيجب أن أمُر بمرض معجز، أو بالقبر، أو الساعة –والساعة أدهى وأمرّ– كي أُدرك وأتحسر على مدى قصر الحياة وألاحظ أنّي فرَّطت كثيرًا؟ وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ناصحًا لنا "بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ؟"[1] (مُنْسِيًا أي يُنسي طاعة الله لانشغال المرء بطلب القوت وشعوره بالجوع وربما الضعف؛ مُطْغِيًا أي تجاوز الحد في العصيان، بسبب الغرور بما عنده وافتتناه بما يستطيع اقتنائه بالمال، وبديهيًّا يشمل الكلام أيضًا إشغال المال له عن الله؛ هَرَمًا أي الشيخوخة والعَجَز؛ مُفَنِّدًا أي إنكار العقل لضعف أو مرض، متمثّلًا بالخرف والهذيان؛ مُجْهِزًا أي يُنهي الأمر بغتةً قبل أن يتوب المرء أو يُوصي).

فدعونا ننظر مع بعضنا إلى عدد من الحقائق التي قد تُغير منظورنا إلى مدة الحياة. أولًا ننظر إلى ما في هذه الدنيا: أتعلمون أن الشجرة قد يناهز عمرها آلاف السنين، يموت جيلٌ بعد جيلٍ من الناس وهي تستمر، فمائة سنة لا تعني لها شيئًا، وهذا أكثر من عمر الإنسان. وعلى الصعيد الآخر: ما مدى وعينا بعمر بعض الحشرات. أتعلم أن مدة حياة الحشرة البالغة لذبابة مايو (أو ذبابة آذار) تتراوح بين ثلاثين دقيقة إلى بضعة أيام، ودورة حياتها الكاملة تكون من ثلاثة أسابيع إلى عامين ونصف (بحسب الفصيلة)؟! اليوم الذي قد لا يعني لبعض من الناس شيئًا أحيانًا يمضي فيه

[1] سنن الترمذي 2228.

أحداث حياة تلك الحشرة كاملةً في خلاله، بل المئات منها، ولو كانت لها ملائكة حفظة مثلنا لفتحوا وأغلقوا كتاب أعمالها في ذلك اليوم وقد خُتمت!

ولا شك أن الأحداث التي مرت بها تلك الحشرة تعني لها الكثير، فتلك الأحداث خلاصة مشوار حياتها! وحياتنا حينئذ ستشمل ملايين من كتب أعمال تلك الحشرة ونحن لا نلاحظ ذلك وربما لا نكترث أيضًا، مما يدعو للتفكر. هذا تمامًا مثل وضعنا مع الشجر، فنحن نأتي ونذهب في لمحة بصر بالنسبة إليهن.

وماذا عن الآخرة، والتي أولى منازلها هو القبر. أوَلا ندرك أن سيدنا آدم (عليه السلام) في قبره ينتظر الساعة من حين موته، مارًّا بكل من بعده وبنا، وما زال سينتظر مَن بعدنا حتى يقضوا آجالهم! إذا كان الالتزام في حياتنا صعب علينا على أساس أنها طويلة بالنسبة إلينا (لنقل مائة عام للمتأمل)، ألا نعلم أننا عندما نموت سننتظر في القبر أعمار الذين بعدنا من الناس حتى يقضوا آجالهم؟ ثم يُضاف إلى هذا الزمن انتظار الأرض حتى انقضاء أجلها، أي انتهاء عمرها هي نفسها (لا نُبعث فور موت آخر إنسان، بل نُترك قدر ما شاء الله).

هذا استدلال بأننا سنُبعث يوم القيامة الذي فيه تُبدَّل الأرض غير الأرض وتدنو الشمس من رؤوس الخلائق، وقد قال علماء الفلك إن هذا من علامات انتهاء عمر الشمس وظواهر احتضارها (أنها تبدأ تكبر حتى تبتلع بعض الكواكب)، وهذا أمامه بلايين السنين. هذا مع العلم أن الكرة الأرضية نفسها عمرها تقريبًا 4 ونص بليون سنة إلى الآن، ولا نعلم كم بقي لها حتى تتلاشى ولا كيف. فأي الحياتين أطول؟

هذا ولم نخُض بعد في مدة إتمام الأهوال الكونية يوم القيامة، ولا الحساب، ولا العبور على جسر جهنم، وغير ذلك، مع العلم أن اليوم عند الله كألف سنة من أيامنا في الدنيا {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [الحج 47]. ويوم القيامة وحده قد قال الله عنه {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (1) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (2) مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (3) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [المعارج 1-4]، فهو يستغرق خمسين ألف سنة بمقاييسنا. فلندعو لبعضنا أن نكون من المؤمنين فيُخفف عنا، لأن الله يُخفف عنهم تلك الأيام العصيبة كما أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما سُئل عن يوم القيامة: ما أطول ذلك اليوم؟! فرد قائلًا "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِيَّ الدُّنْيَا"[1].

[1] مسند أحمد 11292. صححه ابن حبان ولكن ضعفه الأرناؤوط والألباني.

أما لحظات الحساب... لحظات يُذكرني الله فيها جميع ذنوبي شاملة أقبحها، وأخفاها، وما ظننت أني تَفَلَّتُّ بها، وأنا واقف أمام خالق الخلق وحدي! الحساب الذي قال فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ". فقَالَتْ السيدة عَائِشَةُ (رضي الله عنها): أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا}؟ فَقَالَ "إِنَّمَا ذَلِكِ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكْ"[1].

فإياك أخي أن تجادل في أعمالك، ولا تأتي بعذر غير شرعي، فإن الله يعلم مكايد عباده ويعلم السر وأخفى. وإياك وتكذيب ما كُتب عليك إذ إنك لا تُظلم بأن يُكتب عليك ما لم تفعله، فإن الملائكة الكتبة لا يُخطئون، ولا يجرؤون أن يعبثوا في كتابك الذي كلفهم الله به.

ولن يعجز الله أن يُثبت أنك ارتكبت ما هو مُسجَّلٌ عليك دون الكتاب حتى، فتفتح على نفسك بابًا لا تتحمله من شهادة أعضائك على نفسك إذا كذَّبت كتابك، ثم يُناقِشُك الله في الحساب. إنما قِرّ بما كُتب عليك، ولعل بإقرارك تكون ممن ينالون عفو الله ورحمته فيمن شملهم الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ؛ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ {هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}"[2].

وفترة الحساب قد تطول أو تقصر بحسب إرادة الله النافذة على العبد، ولكن يكفينا معرفة مثال على مدى التفاوت في وقت الحساب بين فئتين من عباد الله من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم). قال (صلى الله عليه وسلم) "يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِنِصْفِ يَوْمٍ، وَهُوَ خَمْسمِائَةِ عَامٍ"[3]. ومن الراجح أن الفرق في الزمن يكون في أثناء الحساب نظرًا لفرق الكم فيما سيُسأل عنه الغني، وهذا بين المسلمين، فما بالنا في فرق فترة الحساب بين الفاجر والمُصلح؟!

أما عبور الصراط، فكُلنا سنمر من عليه بمُعدل يعتمد على طبيعة أعمالنا، كما دل جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ" فقَالَ أحد الصحابة: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ "أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ؛ حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ

---

[1] صحيح البخاري 100.

[2] صحيح البخاري 2261.

[3] سنن الترمذي 2277.

فَلا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إلا زَحْفًا، وَفِي حَافَتَيْ الصِّرَاطِ كَلالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ"[1].

هذا الجسر الذي فوق جهنم هو أدق من الشعرة وأحَدُّ من السيف، لا يجتازه إلا من أعانه الله، على جانبيه الأمانة وصلة الرحم يساندان أو يسحبان العبد بحسب عمله فيهما، وهذا دالٌ على مدى أهميتهما. وهيئة ذلك الجسر ما ذكره الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديث (جزء منه) "وَلِجَهَنَّمَ جِسْرٌ أَدَقُّ مِنْ الشَّعْرِ وَأَحَدُّ مِنْ السَّيْفِ، عَلَيْهِ كَلالِيبُ وَحَسَكٌ يَأْخُذُونَ مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالنَّاسُ عَلَيْهِ كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، وَالْمَلائِكَةُ يَقُولُونَ: رَبِّ سَلِّمْ رَبِّ سَلِّمْ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَمَخْدُوشٌ مُسَلَّمٌ وَمُكَوَّرٌ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ"[2]. فمن شدة ذلك الموقف في ذلك اليوم تقول الملائكة: رَبِّ سَلِّمْ رَبِّ سَلِّمْ، من إشفاقهم علينا فيما يحدث معنا، فما مدى مصائب ذلك اليوم؟!

وما بالنا بتلك اللحظات، ماذا سيكون شعورنا فيها وكيف سنشعر بمرور وقتها؟ ولو أنك قلت لي إني سأزحف على الصراط لمدة ثانية فحسب لقلت لك هذه اللحظة ستجب كل لحظات متاع الدنيا التي أمضيتها، ولا شك أن ذلك يستغرق أكثر من ثانية. ثم طبعًا هناك الخلود، في الجنة أو النار، الذي لا يضاهيه زمن كائنٌ ما كان، وإدراك معنى الخلود في الجنة أو النار يُعلي من عزيمة المرءِ في تحسين عمله في الدنيا. وفي لفتة جانبية، يستطيع المرء أن يستشعر مبدأ الخلود بطرح على نفسه السؤال: ماذا بعد الخلود في الجنة؟ الضمانة بالمزيد من التنوع. ثم ماذا بعد؟ المزيد من المُتع الجديدة. وعلى الجهة الأخرى، ماذا بعد الخلود في النار؟ المكوث للمزيد من العذاب. ثم ماذا بعد؟ استمرار العذاب. وبمثل هذا المسلك في التفكر قد يستشعر المرءِ شيئًا عن الخلود.

وفي قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (103) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه 102-104] بيانٌ لشعور أهل الظلم يوم القيامة بفترة مكوثهم في الدنيا. تخيل أخي لو أنك في الدنيا تُعاني بسبب قرار خاطئ أخذته في لحظة (مثل مقولة قلتها أو مظلمةٍ فعلتها) وأنت في شبابك، ما أسهل أن تُغير ذلك إن استطعت أن ترجع لتلك اللحظة، وماذا ستُقدمه كي تستطيع أن ترجع لتلك اللحظة وتُعدّلها.

قياسًا على ذلك، وضعك الآن معكوس بالنسبة إلى آخرتك، فأنت الآن أُتيحت لك فرصة الرجوع إلى لحظتك في الدنيا التي تستطيع أن تصلح فيها مصيرك في آخرتك: بحفاظك على صلاة، ببِر الوالدين، بتوبةٍ، بصلة رحمٍ، بصدقة، بكلمة حق، باسترضاء أحد ظلمته، بتجنب خطيئة. أيًا ما كانت النقطة، فالفرصة متاحة الآن وتوشك الفُرجَة المتبقية أن تُقفل. إن الله يقبل إصلاح النفس

[1] صحيح مسلم 288.

[2] مسند أحمد 23649، ضعفه الأرناؤوط بهذا اللفظ.

والتوبة ما لم تخرج الروح من الجسد، وكون أن الله لا يزال تاركًا لك روحك في جسدك يعني أنه تعالى سيَقبل منك الانصلاح إذا سعيت فيه. أما إذا أبى تعالى أن يقبل توبة عبدٍ فإنه إما يختم على قلبه وإما يقبضه قبل أن يتوب.

بل ولنا عدة لحظات الآن كي نتخذ قرار إصلاح آخرتنا، فلنتفادى التفريط فيها، وإلا يكون أحدنا كمن فاتته لحظة التوبة مرتين، مرة في حياته ومرة عندما أُرجِع إلى الدنيا كفرصة ثانية للإصلاح، فأي سفهٍ وإسرافٍ ذلك؟ فلتتخيل أنك رُجعت من الآخرة لتصلح عملك، وأنت الآن في لويحظات الدنيا (لأن الدنيا ما هي إلا لحظات بالنسبة إلى الآخرة)، فماذا أنت صانع؟ هذه اللحظة الآن كتلك التي تمنيتها في الآخرة لإصلاح خطأٍ ارتكبته في شبابك.

لا تنتظر المُعاينة كي تقتنع أنه كان يجب عليك ترك المعاصي. يقول تعالى {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ} [فاطر 36]. ذلك جزاء من كفر بالله، أن الله يجعله يذوق كل لحظة من العذاب ليستيقن بوجود الله وناره اللذين كفر بهما، بعد أن جاءته الآيات الدالة المخبرة في الدنيا على ذلك ولم يؤمن بها. وبما أنه كفر بها خبرًا، وأن أمر الله نافذ لا محالة في أنه سيؤمن كل الناس –سواء في الدنيا أم الآخرة–، وأن الله هو القاهر، فكان الإثبات للكافر عن طريق المعاينة، وهو الدخول في النار والخلود فيها.

ومن هذا نرى أن الخبر ليس كالمعاينة (الخبر أنه يُقال لنا عن الجنة والنار دون رؤيتها وذلك هو حالنا الآن، أما المعاينة فهي أن نراهما ونشعر بهما وذلك يحدث في الآخرة)، إذ قد كفر كثيرٌ من الناس بجهنم خبرًا، ولكن عند المعاينة لا يُكذب بها أحدٌ كائنًا من كان. ومما لا شك فيها أن الفرق في الأثر على المرء بين الخبر والمعاينة ليس بصغيرٍ، كما دل الحديث القدسي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ؛ فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا. فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لا وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ، فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا، يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ، يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ يَقُولُونَ: لا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً. فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ يَقُولُونَ: مِنْ النَّارِ، يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ يَقُولُونَ: لا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً، فَيَقُولُ:

فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. يَقُولُ مَلَكٌ مِنْ الْمَلائِكَةِ: فِيهِمْ فُلانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمْ الْجُلَسَاءُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ"[1].

ودل على فرق تأثير الخبر عن المعاينة على المرء أيضًا الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ فَلَمْ يُلْقِ الأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا أَلْقَى الأَلْوَاحَ فَانْكَسَرَتْ"[2]. وبهذا المنطق نستطيع أن نستنتج العكس، أنه حقٌ لنا على الله (مع الاجتهاد في وفاء حقوق الله علينا، التي هي أعظم وأكثر من حقوقنا عليه ولا نستطيع أن نوفِّيها حق وفائها) أن يجازي من آمن به خبرًا مُكافأة مُعاينة، وهي تبدأ بأعظم مكافأة على الإطلاق وهي رؤية الله عيانًا. ويليها كمكافأة الجنة وما فيها من الحور العين، والطعام الشهي، والشراب الجميل، وصحبة الإخوة في الله، وغير ذلك مما لا يخطر ببالنا.

وذلك لأننا آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والقضاء والقدر، ولم نرَ ونعاين منها إلا القرآن والقضاء والقدر، أما الباقي فآمنا به خبرًا. فكما أن العذاب لمن كفر بعد الإخبار يكون معاينةً ومُضاعفًا، وجبت أن تكون المكافأة لمن آمن بالإخبار معاينةً ومضاعفةً –وقد يكون لذلك السبب أن الله يُضَاعف الحسنة بعشر أمثالها للمسلم يوم الحساب–. فلماذا نُعَكِّر حوض لذة المكافأة بِسُمِّ المعاصي، فالصبر الصبر نتزين به.

وكلما ازدادت بساطة الأمر سَهُلَ الالتزام به، فالإيمان بالله سهلٌ لأن كل ما حولنا أدلة تشير وتؤدي إلى استنتاج ربوبيته وأُلُهيَّته، والإيمان فكرًا سهل على المرء (كما سيأتي في الحديث اللاحق)، ولكن العمل الصالح والامتناع عن المعصية يكون أصعب الالتزام به لأنه أصعب في التحقيق، بما أنه يتطلب من المرء بذل الجُهد أو التنازل عن رغبة. فكل ما يتطلبه الإيمان بالله وحده هو الإقرار بذلك، كما دل الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلا أَنْ تُشْرِكَ بِي"[3].

وعلى الوجه الآخر من الإيمان فكرًا، وهو الإيمان التطبيقي، فإن الإمساك عن المعصية أصعب، وهي المساحة التي تقع فيها الخلل عند الناس عامة، لأن الإمساك عن المعصية يحتاج إلى إيمانٍ قوي، وعزم النية في التخلي عن الشهوة، وجُهدًا في قهر الهوى. وعلى هذا الأساس، إن دوام الامتناع عن معصية الله أبدًا نظريٌ لأن الإنسان بطبعه يضعف، والمعصية تتطلب الضعف في أي واحد من تلك العوامل الثلاثة. فلا تجد مسلمًا صادقًا يتأرجح في أصل الإيمان، أي ما بين الإيمان

---

[1] صحيح البخاري 5929.

[2] مسند أحمد 2320.

[3] صحيح البخاري 6072.

والشرك لأن الإيمان لا يتطلب جُهدًا، وتلك من الأسباب أن الخطأ فيه أمرٌ عظيم ولا يُقبل فيه العذر. ولكن المسلمين يتأرجحون بين قوة الإيمان وضعفه (وليس بين وجوده وغيابه)، ومن ثَمَّ بين الطاعة والمعصية. والمحاسبة على خطأ الوقوع في المعصية ليس مثل خطأ في أصل الإيمان، إذ إن وقوع العبد في المعصية قد يَعذُره الله عليه ويتجاوز عنه لأن مدافعة شهوة المعصية يحتاج إلى جُهدٍ، فتارةً ينجح المرء وتارة يخفق.

وقياسات ذلك التأرجح بين الطاعة والمعصية هو ما يشير إلى منزلة العبد عند الله، وهناك أربع معايير يستطيع أن يقيس المرء مدى الخلل عنده، وهم معدل تكرار المعصية، درجة المعصية (صغيرة أم كبيرة)، مدة مكوثه فيها، وإذا كان يجهر بها أم يُخفيها. ومحصلة تلك المعايير تدل أو تؤثر على قوة إيمان المرء، لأن العمل وقوة الإيمان متعلقان ببعضهما -يؤثران على بعضهما بالتبادل-. العمل الفاسد يخدش في الإيمان (والإيمان القوي قد يمنع العبد من العمل الفاسد)، وقد يظل المرء على هذا الطريق حتى إذا بلغ مرحلة الفسوق فيخدش هذا في أصل الإيمان بالله والعياذ بالله، ودليل ذلك أن من يعصي الله كثيرًا قد تجده في نهاية المطاف أنه يكفر بالله. ولذلك لا يؤمن أكثر الناس بالله إذ إن ذلك يتطلب ترك بعض الشهوات وتهذيب البعض الآخر، ولكن يثقل عليهم مقاومة الشهوات وترك الراحة بأداء الواجبات فمن ثَمَّ يكفرون بالله.

فوجب علينا إدراك أن الإيمان سهل ولكن مقاومة المعاصي صعب. وبعد تسليط الضوء على هذا يفترض أن يكون المرء أكثر حرصًا من العوامل التي تؤدي إلى المعصية، ومن ثَمَّ أقل عصيانًا لربه. ذلك لأن محاربة العدو (الشيطان والجانب السلبي من النفس) بفعالية أساسها جمع المعلومات عن العدو للاحتراس من نقاط قوته، ومهاجمته في نقاط ضعفه، وبلا شك فإن ذلك يكون مثمرًا أكثر من محاربة عدو أنت تجهل مَن هو، ومن أين يأتيك، وماذا يريد، وما هي آلياته.

ويجب أن ندرك أمرين آخرين من هذه الآية، أن قوله تعالى "لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا" يدل على شدة عذاب الله لهم، فهو يعلم كيف يشدد عليهم العذاب لأنه خلقهم، فلا يرأف بهم ولا يرحمهم. ويتبين مدى إرادته في تعذيبهم أنه يحشرهم حشرًا مُحكمًا بين أمرين فلا ينالون إحداهما، الموت أو النجاة. فالحذر كل الحذر من أن يقع أحدنا في نطاق نقمة الله بكثرة المعاصي، فإن الله يعلم كيف يجعل مخلوقه يُعاني، فاحذر من أن تسقط إلى حد أنه يشرع في عذابك.

والأمر الآخر هو أن مع علمه الدقيق في تعذيب العبد، فبالطبع علمه دقيق أيضًا في تمتيع العبد، فقارن ذلك بتلك. إنك إن صبرت وعانيت في الدينا، دع نفسك تتأمل في فكرة أن الله هو الذي سيُعطيك التعويض بنفسه، وأنه هو الذي يتولى بنفسه إسعادك مع وجود فيه صفتان يتمان المقصد إتمامًا كاملًا، العلم والقدرة. بمنتهى العلم يعلم كيف يسعدك لأنه هو الذي ركبك، وبمنتهى القدرة

والتمكين على كل شيء (لأن السماوات والأراضين ومن فيهن قد أتياه طائعين خاضعين لأمره) يستطيع أن يفعل ما يشاء، كقوله للجنة أن تتزين لعباده، بل ويُنشئ ما ليس له وجود حتى.

ذلك ويجب أن تدرك أن الله بكَرَمِهِ سيُفيض عليك في سُبُل إسعادك إذا رضي عنك ورأى أنك تستحق ذلك، وأن لكل إنسان تكوين مميز مما يشتهيه فيختلف كل امرئ عما يشتهيه أخوه، ولكن الله يُقابل تلك التكوينة أيضًا. أي أن الله البديع سيُبدع في تمتيعك خاصةً فيما تشتهيه! فالخلاصة أن الله يعلم كيف يمتعك لأقصى حد ممكن لأنه ركَّبك ولأنه قادر، وما عليك إلا العمل لنيل ذلك الشرف والميزة من الله.

**التفكر في مدى العبء الذي سأكون على الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذا كنت عاصيًا.** قال تعالى {وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة 116-118]. هذا قول سيدنا عيسى (عليه السلام) عندما يسأله الله عز وجل سؤالًا بيانيًّا إذا كان قد دعى الناس للشرك.

وهذا ما صدر من فئة من النصارى بعد أمد من رفع سيدنا عيسى (عليه السلام)، أنهم افترقوا وبدلوا وحرّفوا وأخفوا الحق، فضلّوا حتى إنها أصبحت منهم فرقة كبيرة تزعم أن سيدنا عيسى هو الله أو ابن الله، ويخفون ما في كتبهم الأصلية عن الناس من حقائق. ثم يوم القيامة يكون سيدنا عيسى (عليه السلام) شهيدًا عليهم أنه أبلغهم الرسالة ولم يدعُهم إلى ذلك، ويتبرأ من الذين أشركوه مع الله. ومن تلك الواقعة نعتبر، فلا نكونن مثل هؤلاء الذين ضلوا، لئلا يكون ذلك أيضًا موقف سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة مع فئة من أواخر أُمته يوم القيامة!

لا أعني أنه سيكون هناك أناس يقولون إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو الله أو ابن الله، فلن يكون هناك تبديلٌ أو تغييرٌ في القرآن (لأن الله عهد بحفظه) لتثبيت ذلك عند الناس. إنما أعني أن هناك من الناس من يعلم شرائع الإسلام ولكن يُحرِّف التفاسير، ويُخفي البعض الآخر من النصوص وهو يعلمها؛ يُلبِّس على المسلمين لغاية يريد بلوغها. ففي عالمه: رأيه يُصيغ الأدلة الشرعية، وليست الشريعة هي التي تُصيغ اعتقاداته وقناعاته. وهم ممن حذرنا الرسول (صلى الله

عليه وسلم) منهم "إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ"[1]، وجاء أيضًا عنه (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ"[2].

فهؤلاء هم منافذ للطعن في الإسلام ومداخل الفتن على المسلمين، هم وأهل البِدع، إذ إنهم يُظهرون إسلامهم ويُؤثرون شهواتهم ومصالحهم، أو حتى يُبطنون البُغض للإسلام، ويسمحون للكفار والمشركين التسلل إلى الإسلام والمسلمين. ذلك حتى إن منهم من قد يُجيز الشرك بالله عن طريق الغلو في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالدعاء إليه بدلًا من الله ولعياذ بالله. يبلغون تلك المرحلة بالرغم من تحذيرات الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ"[3] (تُطْرُونِي أي تجاوز الحد في المدح وبلوغ الباطل)؛ "لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي"[4] (وَلَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا أي بعدم صلاة النوافل فيها وبترك قراءة القرآن وقول الأذكار، فيكن كالمكان الذي يؤوي الأموات)؛ "لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ"[5].

ومن الناس من يفسر القرآن بحسب ظنه دون علم (ولا يقبل غير تفسيره ذلك) أو بما يناسب هواه، فلا يحرّم بعض المحرمات ولا يوجب بعض الواجبات. فمثل أولئك قد ضلوا لأنهم إما كذّبوا أو حرّفوا المقصد أو بدّلوا الشرائع -فالحرام يستباح والحلال يُنكر-، أو أخفوا الأدلة التي تُبطل زعمهم. هذا بينما هناك من المسلمين من يجهل عن دينه كثيرًا ويسعى في الأرض بناء على ظنه وما يسمعه من عامة الناس، وبهذا أصبحوا عرضةً لأي ريحٍ أن تأخذهم، فرأي منافق عليم اللسان يجعلهم ينحرفون إذ يتبعونه.

والذين هم من الصنف الأخير، بسبب جهلهم، يكونون كالأرض الخصبة لتنفيذ مكايد ومفاسد المتآمرين على الإسلام، فيُصبحون عُرضة للاستغلال لتحقيق مصالح وأغراض الشخصية للمُستَغِل، وكأنهم دُمى في أيديهم. ثم بعد أن يستخدموهم يُضَحُّون بهم بعد أن تلاعبوا بهم وأخذوا منهم غاياتهم أو حققوا أغراضهم بهم. ويقع على مثل أولئك لوم كبير بجانب الذين استغلوهم، إذ إن كل فردٍ منهم قد غيَّب نفسه، فتركها مطمعًا لذوات الغايات والعزائم الكبيرة الباطلة والمُفسِدة. والإسلام جاء ليحفظ ويحمي المرء من الوقوع تحت تأثير مثل ذلك الفساد، مما يثبت أكثر أن الإسلام يريد مصلحة العبد ورعايته من الأضرار، فكيف لنا أن نتخلى عنه بعد التفقه فيه للاستفادة مما فيه من مواعظ وحِكَم؟

---

[1] مسند أحمد 127.

[2] سنن الدارمي 2155.

[3] صحيح البخاري 3189.

[4] مسند أحمد 8449.

[5] صحيح البخاري 1301.

فلا يجب أن نخذل الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين يلقانا يوم القيامة بأن نكون قد ضيعّنا هذا الدين من بين أيدينا، خاصةً بعدما ترك الإسلام قائمًا مُتمكِّنًا منتشرًا في الأرض بين يد رجالٍ لهم شأن عند الله. ومن يغار على دينه لن يطيق أن يكون من الجيل الذي ضيَّع الإسلام بترك أوامره، وارتكاب نواهيه، والجهل عنه، والعجز أو الجُبن عن الدفاع عنه. رسولنا (صلى الله عليه وسلم) الذي أفدى بالكثير من أجل إرساخ واستمرار هذا الدين حتى يبلغ جميع الأجيال، يلقى أُناس من أُمته يوم القيامة يُقال له عنهم: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك؛ فيتبرأ منهم لأنهم هم الذين تخلوا وخذلوا هذا الدين.

وذلك كما في حديثه وهو يخطب "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}، أَلا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، أَلا وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُصَيْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}، فَيُقَالُ: إِنَّ هَؤُلاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ"[1]. فمَن منا يقبل أن يكون منهم؟! من منا يرضى أن يحمل في الآخرة لقب الذين ضَيَّعوا هذا الدين، أو كان عبئًا عليه؟!

فيا إخواني، العمل ثم العمل ثم العمل. ومِن قبْل أن يُفارق الرسول (صلى الله عليه وسلم) هذه الدنيا قد كان مهمومًا على أمته لدرجة أنه كان يبكي، فعن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه) يروي أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في سيدنا إبراهيم عليه السلام {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}، وقول سيدنا عيسى عليه السلام {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، فرَفع يديه وقال "اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي" وَبَكَى، فقال الله عز وجل: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللَّهُ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلا نَسُوءُكَ[2].

فهكذا كان إشفاق الرسول (صلى الله عليه وسلم) على الذين من أُمته أن يضلّوا. فلماذا ذلة المعصية التي تصيب المرء في الدنيا والآخرة بدلًا من شرف أن يكون المرء منا بهجة للرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة، وليُريه أنه أعقب من نسل أمّته رجالًا أيضًا؟

ومن العبء الذي سأكونه على الرسول (صلى الله عليه وسلم) إن كنت عاصيًا لله هو أني سأشغله عن تمتعه بالجنة بعدما يبلغها، وذلك لحرصه على نجاة كل فرد من أُمَّتِه بخروجه من النار.

---

[1] صحيح البخاري 4259.

[2] صحيح مسلم 301.

فبينما أصحاب الجنة ينشغلون بمتاعها بعد دخولها، فإن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يُعرِض عن متاع الجنة، بالرغم من قدرها وقوة إغرائها، للشفاعة لمن في النار من المسلمين لأنه يشعر بالمسؤولية تجاه سلامتهم بعدما اتبعوه. يظل يتوسل إلى الله بالسجود والثناء عليه تعالى متأملًا أن يقبل الله الشفاعة منه، فيظل على هذا الحال، يتردد على ربه راجيًا يقول: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، إلى أن ينجوا كل أتباعه من النار ويبلغوا الجنة! أفلا يكفي ما عاناه الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الدنيا حتى أجعله يُعاني في الآخرة أيضًا؟

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات مرة وهو على نَاقَتِهِ الْمُخَضْرَمَةِ بِعَرَفَاتٍ "أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا وَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا وَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟" قَالُوا: هَذَا بَلَدٌ حَرَامٌ وَشَهْرٌ حَرَامٌ وَيَوْمٌ حَرَامٌ، قَالَ "أَلا وَإِنَّ أَمْوَالَكُمْ وَدِمَاءَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي يَوْمِكُمْ هَذَا، أَلا وَإِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ وَأُكَاثِرُ بِكُمْ الأُمَمَ، فَلا تُسَوِّدُوا وَجْهِي، أَلا وَإِنِّي مُسْتَنْقِذٌ أُنَاسًا وَمُسْتَنْقَذٌ مِنِّي أُنَاسٌ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُصَيْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ"[1]. فَرَطُكُمْ أي المتقدم؛ فَلَا تُسَوِّدُوا وَجْهِي أي بِأَنْ تُكْثِرُوا الْمَعَاصِي فَلَا تَصْلُحُوا لِأَنْ يُفْتَخَر بِمِثْلِكُمْ؛ مُسْتَنْقِذًا أي مُخَلِّصًا.

قد يكون حالي مثل هؤلاء أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم أقلع عن معصيتي لله وأتب. فماذا سيكون شعوري عندما آتي النبي صلي الله عليه وسلم كي أشرب من حوضه يوم الظمأ فأُبعد، وينادِيني النبي صلي الله عليه وسلم لأنني من أمته فيقال له "إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ"؟ قد خسرت الخسران الأعظم يومئذ إذ إني قد علمت أني قد خسرت ربي، وسودت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وخذلته. يومئذ سيعلم النبي صلى الله عليه وسلم أني كنت عاص لربي ولم أتبع المنهج الإسلامي ولم أحافظ على ديني الذي عانى النبي صلى الله عليه وسلم كي يصلني، بل وربما حرَّفت فيه أو ساهمت في تحريفه وأنا لا أُدرك.

والمصيبة أني أكتم معصيتي من الناس خشية أن يعرفوها فأُخفيها عنهم، فما بالي عندما أرى أن الله أحصاهم وبدأ يحاسبني عليهم، ويعلم عنها النبي صلى الله عليه وسلم! ثم بعد كل هذا أُفضح أمام الناس يوم القيامة، وهذه أقل مُعضلة لي يومئذ من شدة الداهية التي أنا فيها!

كم سيحزن عليَّ النبي صلى الله عليه وسلم لشفقته ورحمته كما حزن على من هو مثلي، روح أخرى ضائعة تفلَّتت منه. هل قصَّر النبي صلى الله عليه وسلم حتى أكون كما أنا عليه الآن؟ والله إني لأشهد أنك ما قصّرت يا رسول الله، فقد بذلت كل ما في وسعك كي أكون من المهتدين وأن أتبع سبيل الرشاد، وبلغت الرسالة تمام التبليغ، ولكن التقصير مني أنا... فإن وجدت نفسي في هذا

[1] سنن ابن ماجه 3084.

الموقف يوم القيامة، فلا يلام عليه أحد إلا نفسي. أوليس مخجلًا إذا وجدت نفسي في ذاك الوضع بالرغم من تحذيره المسبق لي من أن أسلكه؟

يجب أن يستقر في قرارة نفسي أني إذا عشتُ عاصيًا فسأكون عبئًا على الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة، ومن ضمن ذلك أني سأضعه في موقف شاق بأن عليه أن يشهد عليَّ أني أستحق دخول النار لأفعالي، بالرغم من أني من أُمَّتِه. ذلك بأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يشهد، ضمن ما يشهد به، أنه قد أبلغنا أنه من لا يعمل ليشتري نفسه يوم القيامة فسيضيع، وأن من يعصي الله فقد استحق العذاب {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الزمر 13].

وأنذرنا (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ اللَّهِ؛ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ اللَّهِ؛ يَا أُمَّ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، اشْتَرِيَا أَنْفُسَكُمَا مِنْ اللَّهِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، سَلَانِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمَا"[1]. وأعلمنا مبدأ في التعامل يوم القيامة وهو يُحذِّر من الغلول (وهو أخذ من غنيمة الحرب دون وجه حق، ولكن المبدأ يشمل ذلك من يعصي الله في شيء) قائلًا "لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ"[2]. لَا أُلْفِيَنَّ أي لا أجد أحدكم على هذه الصفة، فهي وصية ألا يضع أحدنا نفسه في هذا الموقف بأن يَغُلّ فيلقى الرسول ويستغيث به بعد توريطه لنفسه؛ صَامِتٌ أي الذهب والفضة.

فمثل هذا الموقف يكون ثقيلًا على رسول الله بلا شك، إذ إنه لا يرى نفسًا قد تفلتت منه فحسب، بل هو الذي يشهد عليها أنها تستحق العذاب، وذلك على أفواجٍ من الناس، فأي عبء هذا؟! يروي لنا سيدنا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال فيها: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "اقْرَأْ عَلَيَّ"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ "نَعَمْ"، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}، قَالَ "حَسْبُكَ الآنَ"، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ[3] (تَذْرِفَانِ أي الدموع تسيل منهما). فالموقف غاية في الشدة والجِد.

وليس عليه (صلى الله عليه وسلم) أن يشهد فقط على أمته، بل يشهد على جميع الإنس كما جاء في حديثه عن يوم القيامة "يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ؛ فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ؛ فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتُهُ؛ فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا

---

[1] صحيح البخاري 3264.

[2] صحيح البخاري 6737، جزء من الحديث.

[3] صحيح البخاري 4662.

لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}، وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ"[1]، وهذا الموقف يتكرر مع كل نبي كما جاء في روايات أخر. أفلا يكفي ذلك حملًا عليه وعبئًا حتى أزيد عليه بوجوب شهادته عليَّ بالعذاب؟

سبحان الله، فإن هذه الواقعة تدعو للتأمل على مدى ثقل أحداث يوم القيامة، وعلى أننا غافلون عن شدَّتها ورهبتها بينما لم يغفل عنها الرسول (صلى الله عليه وسلم). ولكن بدلًا من أن يُحَمِّل علينا ما لا نطيقه فنيأس أو نبتئس في الدنيا، رأف بنا واكتفى بقوله "وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ"[2]. وحقًّا إنه لموقفٌ رهيب، حين يُدعى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليشهد علينا وعلى الناس الذين بلغتهم الرسالة ولم يستجيبوا لرُسُلِهم.

فأين نحن مما أراده النبي (صلى الله عليه وسلم) لنا؟ لماذا أضعه في موقف يُجبر فيه أن يشهد عليَّ بالتقصير، بدلًا من أن أُسعده أني قد وفَّيت بما بلغني من رسالته فيشهد لي مسرورًا؟! ألم يكفِ ما عاناه الرسول (صلى الله عليه وسلم) من سب وضرب ومحاولات اغتيال وتجويع وخوض حروب وغير ذلك من المشقات في الدنيا كي يُبَلِّغني هذا الدين، حتى أُحَمِّله عبئي يوم القيامة أيضًا؟ كفى بالتبليغ مسؤولية وحملًا، أفأُحمِّله مسؤولية نجاتي الشخصية أيضًا؟ فهلا عملت بدلًا من كثرة الكلام؟

**استيعاب أنك ستكون شهيدًا على الأمم السابقة، فكن جديرًا بمكانتك وملائمًا لوضعك.** قال تعالى {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الحج 78]. في هذه الآية نرى مدى كرم الله علينا وكم أعزنا وأثنى علينا، فقد اختارنا أن نكون من الذين يجاهدون فيه (وهذا شرف عظيم لنا). هذا وقد خفف الله علينا في الإسلام، وجعلنا أتباع ملة سيدنا إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) الذي هو من أفضل الرسل عند الله، وسمّانا المسلمين بفضله تعالى، وسنتشرف بمقامة أن نكون شهداء على الناس.

وخاصةً سنكون شهداء على اليهود والنصارى أن رسالات الله بلغتهم (الأديان)، فمن كفر بالرسول المتعقب فقد خسر الأجر، ومن آمن منهم بالله وحده وعمل برسالة الله فقد أفلح وله أجرٌ مُضَاعَّف (أجرٌ لكل رسول آمن به واتَّبعه). وذلك مصداقًا لقول الله تعالى على من آمن بسيدنا محمد

---

[1] صحيح البخاري 3091.

[2] سنن الترمذي 2234، جزء من الحديث.

(صلى الله عليه وسلم) من اليهود والنصارى عندما تُلي عليهم القرآن {وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [القصص 53-54].

والمؤمن بسيدنا مُحمد (صلى الله عليه وسلم)، المُتّبع لشريعة الإسلام، له أقصى درجات الأجر فيما يختص بالجانب الإيماني بكُتب الله ورُسُله. ذلك لأن المُسلم الآن يؤمن بأصل الزبور والتوراة والإنجيل، ويؤمن بالقرآن، ويؤمن بجميع الأنبياء بدءًا بسيدنا آدم (عليه السلام) مُرورًا بجميعهم إلى سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم). ولو كان عاصرهم لاتّبع شريعتهم نبيًّا نبيًّا، فله أجر اتباعهم جميعا إذ إن رسالتهم واحدة وهي: لا إله إلا الله.

وذلك ما دل عليه قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ عَلَى أَجْرٍ مَعْلُومٍ، فَعَمِلُوا لَهُ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالُوا: لَا حَاجَةَ لَنَا إِلَى أَجْرِكَ الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا، وَمَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ، فَقَالَ لَهُمْ: لَا تَفْعَلُوا، أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا؛ فَأَبَوْا وَتَرَكُوا. وَاسْتَأْجَرَ أَجِيرَيْنِ بَعْدَهُمْ فَقَالَ لَهُمَا: أَكْمِلَا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمَا هَذَا وَلَكُمَا الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمْ مِنْ الْأَجْرِ؛ فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينُ صَلَاةِ الْعَصْرِ قَالَا: لَكَ مَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ وَلَكَ الْأَجْرُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ، فَقَالَ لَهُمَا: أَكْمِلَا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمَا، مَا بَقِيَ مِنْ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ؛ فَأَبَيَا. وَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا، فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ وَمَثَلُ مَا قَبِلُوا مِنْ هَذَا النُّورِ"[1]. فهذا تشبيهٌ لوضع اليهود والنصارى والمسلمين، فالمسلم يحصد ثواب أجور إيمان أهل الكُتب السابقة الذين آمنوا برسولهم ثم كفروا بالرسول التالي عندما جاءهم.

كل هذا التكريم والشرف للمسلم يتضمن مسؤولية، وهي أن الله يريد منا أن نجاهد فيه ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة ونعتصم به. وسيكون الرسول (صلى الله عليه وسلم) شهيدًا علينا أنه بلّغنا الرسالة وصدَّقناه، فهذا شرفٌ وشفاعةٌ لنا، وسيشهد على باقي الرُسُل أنهم قد أبلغوا رسالاتهم، وسنشهد له وباقي الرُسُل (عليهم الصلاة والسلام) أنهم بلَّغونا والأمم السابقة برسالة الله.

قال (صلى الله عليه وسلم) "يَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقَلُّ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ؛ فَيُدْعَى قَوْمُهُ فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا؛ فَيُقَالُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَتُدْعَى أُمَّةُ مُحَمَّدٍ فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ؛ فَيَقُولُ: وَمَا عِلْمُكُمْ بِذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: أَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا بِذَلِكَ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا فَصَدَّقْنَاهُ؛ فَذَلِكُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى

[1] صحيح البخاري 2110.

{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}"[1]. فقد أفلح وفاز من صدَّق وطبَّق ما بلغه من الرسالة وطوبى له، وقد خاب من أهمل ما بلغه من الرسالة والويل له.

وسؤالي هو، كيف يكون لمن طُلب منه أن يجاهد في الله ويصلي ويزكي ويعتصم بالله أن يستبدل كل ذلك بشتى أنواع عصيان الله؟ هذا لا يليق بمن يوصف بكل تلك الكرامات المذكورة في الآية، متضمنةً أن يكون شهيدًا على الناس، فإن الشاهد على الناس يُفترض أن يكون أفضلهم وأكثرهم تهذيبًا.

**التفكر في المغزى من وجود طريقٍ للحق وطريقٍ للباطل، وترك المسلك اختيارًا لنا.** قال تعالى {وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [النحل 9]. قصد السبيل أي بيان طريق الحق، وهو الإسلام، والجائر هو الطريق المائل عن الإسلام، ولو شاء الله لهدانا إلى الحق جميعًا. إذًا ما الحكمة في أن يُبين الله لنا الطريق دون أن يهدي جميع الناس إليه؟ الإجابة هي أن يُميّز الله المجتهد من اللاهي، الصادق بالعمل من الكاذب التارك للعمل، فمن اجتهد فاز ومن لهى خسر. فلا شك أن الحياة جهاد وكفاح وعمل للإصلاح، وكلما زاد كم المجهود كبرت الجائزة. فلماذا إذًا أسعى وراء المعصية للمتعة وقد علمت أن اللهو وإطلاق النفس، في فترة حياتي بالدنيا، ليس الفعل المناسب لا في المكان المناسب ولا في الزمن المناسب؟

وقال عز وجل أيضًا {نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (28) إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا} [الإنسان 28-29] (أَسْرَهُمْ أي خَلْقهم). في تفسير القرطبي جاء أن التبديل يكون بإهلاك هؤلاء وخلق من هم أطوع لله منهم، وقيل أيضًا إن التبديل يكون في صورهم بأن يبدل حسن سيماتهم بأقبح السيمات كعقاب. هذه نقطة فعلًا تدعو للوقفة عليها، أن الله قد أحسن خَلقنا حتى نستطيع أن نسعى، فكيف رددنا تلك النعم إلى الله؟ فمن الناس من يقابل تلك الإحسان بالإساءة عن طريق الجحود والمعصية، ومن الناس من يحاول مقابلة هذا الإحسان بالإحسان قدر استطاعته، فمن أي فئة أحدُنا؟

وهذا كلّه تذكرة، أي سورة الإنسان وليست فقط الآية السابقة، بل القرآن كله تذكرة. والنقطة التي تخص موضوعنا هي قدرة الاختيار، الاختيار بين الصواب والخطاء بعد أن بيّن الله كلّ منهما وعواقبهما. ويبدو أن الأمر بسيطٌ من الناحية النظرية، إذ إنه يُتوقع أن كل الناس سيختارون السبيل إلى الله، ولكن يدخل هوى النفس ومكايد الشيطان فيُسمّمان العقل والعزيمة بحيث إنهما يجعلان أغلب الناس يزيغون عن سبيل الله في الواقع. ومن المعلوم أن اتباع هوى النفس حتمًا يؤدي إلى مخالفة

---

[1] سنن ابن ماجه 4274.

شرع الله، ومن ثمَّ يَضِل المرء، فقد أوصى اللهُ سيدنا داود (عليه السلام) ألا يتبع هواه ليستطيع إرساخ شرع الله {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص 26]. فاللهم عافنا من الوقوع في اتباع أهوائنا.

فينبغي للعبد تحكيم العقل على الشهوة. قال بعض السلف: خلق الله الملائكة عقولًا بلا شهوة، وخلق البهائم شهوة بلا عقول، وخلق ابن آدم وركب فيه العقل والشهوة، فمن غلب عقله شهوته: التحق بالملائكة، ومن غلبت شهوته عقله: التحق بالبهائم[1].

فمن يشرد عن الصراط المستقيم بالمعاصي فليرجع إليه سريعًا ويتُب إلى الله دون أن يؤجل كي لا يبتعد أكثر، لأن الشرخ يصبح أكبر مع مُضيّه في المعاصي وترك السبيل مدة أطول، ويكون الرجوع إلى السبيل أثقل على النفس. فهدف الحياة بسيط في مبدئه ولكن صعبٌ في التطبيق، لأننا نخوض في الطُرُق الفرعية فنتيه وننشغل بالشوائب وما يُلهي. ومَن واجَهَته تلك الصعوبة فليتذكر رأس القضية، وهو أن الناس ما بين من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا ومن لم يشأ أن يتخذ إلى ربه سبيلًا، ولكل طريقٍ سالكوه.

وفي حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما يكفينا من العظة، وفيه توضيح للهدف من الحياة كلها (وهو مُلخَّص لمعنى مشوار الحياة) "إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ"[2]. فالدنيا حلوة بلا شك... ولكن هذه زينتها، فمن سعى في متاع الدنيا هلك، ومن سعى للآخرة نجى وفاز. وأكثر شهوة في الدنيا إغراءً للرجال هي النساء، ومما يدل على قوة فتنة النساء للرجل (مدعومًا بهذا الحديث الذي ذكر فتنة النساء وحدها عن سائر فتن الدنيا من شدة التحذير) هي الآية {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [آل عمران 14]، فقد بدأت بذكر النساء.

وجاء أيضًا في جزء من حديث له (صلى الله عليه وسلم) وهو يخاطب النساء "مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ"[3]، واللب هو العقل. فعلى الرجل أن يحترس من هذه الفتنة بوضع عدة حواجز احتياطية، من أهمها التي لا تقبل حتى المَيَلان فيه هو عدم الخلوة مع امرأة. ومن الحديث الأول نرى أن معصية الله تكون لسبب من أسباب متاع الدنيا، فإذ إن إيماني بالله قوِيَ بما يكفي لوجدت أني امتنعت عن تفضيل الدنيا (ومن ثمَّ المعصية) على طاعته. وهذه

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم 352/2.

[2] صحيح مسلم 4925.

[3] صحيح البخاري 293.

التقوى الناتجة تكون الحالة العامة، وأما لحظات عصيان الله فتكون الحالة الاستثنائية، لأنه لا يمكن أن نتقي الله حق تقاته لأننا لا نُقدِّر الله حق قدره، فلا نستطيع الوفاء نظرًا لقصر إدراكنا لعظمته تعالى ولضعف قوتنا في التنفيذ، إذ إننا أصغر من ذلك كله. قال تعالى {مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج 74].

هذا وما جاء في الآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [آل عمران 102] عن حق تقوى الله، قال عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر. وجاء في تفسير القرطبي: وذكر المفسرون أنه لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله، من يقوى على هذا؟ وشقّ عليهم، فأنزل الله عز وجل {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن 16]، فنسخت هذه الآية. وقيل أن قوله تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} بيان لهذه الآية، أي أنها لم تُنسخ، والمعنى: فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم؛ وهذا أصوب، لأن النسخ إنما يكون عند عدم [إمكانية] الجمع، والجمع ممكن فهو أولى (انتهى). فهذا ما وجب علينا فعله، أن نتقي الله قدر استطاعتنا.

وقد نصحنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ"[1]. هذا الحديث يرد على من يقول أنه يحق له أن يتمتع في الدنيا، فذلك منهج خاطئ. من سعى وتعب في هذه الدنيا لإرضاء ربه بلغ الجنة، ومن متَّع نفسه فيها دون حدود ولا هدف لحياته فهو يُجازف بمصيره. وليس المقصد أن المتعة بشكل عام مذمومة، بل يؤخذ منها ما هو مباح وأيضًا دون إفراط، وذلك للترويح عن النفس لإمكان العبد من مواصلة طاعة الله.

نُقِل أن من حِكَمِ آل داود: على العاقل أن لا يشتغل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه؛ وساعة يحاسب فيها نفسه؛ وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يصدقونه عيوبه وينصحونه في نفسه؛ وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل، فإن هذه الساعة عون لهذه الساعات، واستجمام للقلوب، وفضل وبلغة[2]. فينبغي أن نضع المتعة في مكانها الصحيح، وهو أنها تأتي بعد الواجبات، وأن يوازن المرء فترتها مع الثلاث فترات الأُخر.

ويجب إدراك أن الجنة لا تُكسب دون مشقة، فهي سلعة غالية، بل هي أغلى سلعة عرفناها. واعلم أن السلع التي يطلبها الإنسان من تبشيرٍ بالجنة عند الموت، والثبات عند السؤال في القبر، والشرب من حوض الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة، واجتياز جسر جهنم، والرأفة في المحاسبة، والجنة، كلها سلع غالية. فيجب أن ندفع ثمنهم جُهدًا إذا أردناهم، والحمد لله الذي يقبل

---

[1] سنن الترمذي 2374.

[2] المصنف لعبد الرزاق لأبي بكر الصنعاني 22/11.

اليسير من العمل الصالح ويجزي عليه بالغزير والنفيس، فإن لم تُرِدهم فلا داعي للنصب في الدنيا وافعل ما يحلو لك. ولو كانتا الدنيا والآخرة متاعًا، فسيعني ذلك أن هناك خطأً ما لأن ذلك يخالف العقل والمنطق، إذ إنه لم يكن هناك داعٍ أن نُختبر في الدنيا، ومن ثمَّ لفسدت الدنيا بأعمالنا وعلا الظلم إذ ليس بالضروري الالتزام بضبط النفس.

ولكن المنطق يتوصل إلى أن من يتعب في الدنيا لإرضاء ربه -بالتزام أوامره- يستمتع بجنة ربه، والعكس صحيح، وهو أن العاصي المتمتع بالدنيا فليحذر غدرها وغدر الشيطان يوم القيامة. فالدنيا التي أقبل العاصي عليها مُحبًّا تُفشي أخباره يوم القيامة ولا تستره كما في الآية {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} [الزلزلة 4]. وقد قال النبي (صلى الله عليه وسلم) في تفسير هذه الآية: "أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟"، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ "فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا؛ فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا"[1].

وأكبر دليل على أن الدنيا غدارة هو أنها تُغوي من أعرض عنها ولكنها لا تدع من أقبل عليها أن يتمكن منها ويجمع كل جوانبها، بل وتُهين من يلهف وراءها. فنعم المنهج في التعامل مع الدنيا ما وصَّى به الحسن البصري (رحمه الله) قائلًا: أَهِينُوا هَذِهِ الدُّنْيَا، فَوَاللَّهِ لأَهْنَأُ مَا تَكُونُ إِذَا أَهَنْتُمُوهَا[2].

أما الشيطان فيقول يوم القيامة {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم 22] (بِمُصْرِخِكُمْ أي بمُغيثكم استجابة لصراخكم بالشفاعة لكم، وكذلك العكس، فإن أتباعه لن يُغيثوه ولن يستجيبوا لصراخه ولن يشفعوا له أمام الله، فيغدرون ببعض). فإن الدنيا والشيطان يغدران بمن أقبل عليهما ويبيعانه بالرخيص، فليحذر كل واحد منا وليتسلح ضدهما، وبئس الشخص أكون لئن لم أتعظ.

والمغزى من جعل الطريقين هو لتمييز الصادق من الكاذب، ثم إن كل طريق حُف بما يليق به ليميز من هو قوي الإيمان عن ضعيف الإيمان (ومن ثمَّ قوي الإرادة وضعيف الإرادة) في مقاومة أو عدم مقاومة المُغريات والعقبات، فإن الجنة قد أُحيطت بالمكاره والنار أُحيطت بالشهوات. وذلك ما نبأنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديث القدسي "لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إلا دَخَلَهَا. ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ

---

[1] سنن الترمذي 2353.

[2] تاريخ الإسلام للذهبي، الطَّبَقَةُ الْحَادِيَةَ عَشَرَةَ، الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ.

خَشِيتُ أَنْ لا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا. فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لا يَبْقَى أَحَدٌ إِلا دَخَلَهَا"[1].

فهذا هو الحق والعدل، أن لا جنة إلا لمجتهد في سبيل الله، وأن يكون هذا السبيل فيه ما فيه من مكارهِ مصداقًا لقول الله عز وجل {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ} [العنكبوت 2]. والعكس صحيح، وإلا لو كان غير ذلك لدخل كل الناس الجنة دون تعب ولا نصب، ولدخلها المنافق والظالم والمتكبر والمتجبر والمفسد في الأرض ومن تهاون بدين الله. فالحذر كل الحذر، ففي هذا الحديث موعظة قيّمة، أن الصبر على المكاره وتحمل ما لا تحبه النفس ابتغاء وجه الله ومرضاته، وعن الشهوات التي تتضمن عصيان الله، له جزاءٌ حسنٌ. فمن غاص فيما حُفَّت به النار حق عليه أن يُكمل مشواره فيدخلها.

فيا أيها القارئ، اختر واسعَ في طريق العمل الصالح لله، وتجنب عصيان الله، فإن منزلة المرءِ عند الله تكون بحسب ذلك. بعون الله، أنت تُحدد مكانتك في الجنة بعملك، ولكن إذا بلغت مرحلة أنك ترى أن لك منزلة عالية في الجنة بعملك، فاعلم أنك قد بدأت تنحدر في منازل الجنة. على المرءِ أن يختار أن يعمل صالحًا ثم ليجتهد في ذلك، مع الاستعانة بالله وإدراك أنه لن يستطيع أن يُوفِّي الله حقه، ولا يفتخر بعمله الصالح لأن الله لا يُحب كل مُختال فخور، ولكن ليسعى في الارتقاء إلى أن يُدركه الموت.

استيعاب أن مُلخص الحياة الدنيا إنما هو قرار يأخذه المرء، واختيار لطريقه ومن ثمَّ مصيره. أولًا، يجب أن يُدرك المرءِ أن وجوده في الحياة الدنيا ليس لتمتيع نفسه، بل له هدف، وكي يُلبي ذلك الهدف يجب أن يُصارح نفسه في عدة أمور. فبوجوده في الدنيا تنتفي حريته في أن يستمتع أو يرتاح، أو حتى أن تأتي ظروف الدنيا بحسب ما يرغبه أو يقبله، فإنه لن يسلم من الفتن والمظالم والابتلاء والكد.

والله قد نبأنا بتلك الحقيقة في قوله {أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى} [النجم 24]، فهذا سؤال منطقي لنا، من الأفضل أن نسأله أنفسنا بصدقٍ لإدراك الواقع: هل لنا ما نتمنى؟ لو أن لنا ما نتمنى لسعينا في الأرض لهوًا تلبيةً لأهوائنا وشهواتنا، ولفزنا أيضًا بالجنة في الآخرة بحسب أمانينا، ولكن هذا ينقُض المغزى من الاختبار. فليس للإنسان ما تمنى، إنما هي دار شقاء لاختبار معدن المرء ليُحدَدَ مكانه في الدار الحقيقي، وهذا هو الواقع.

---

[1] سنن أبي داود 4119.

ومن ذلك نستخلص أن المرء يجب أن يختار مصيره في المقام الأول، ثُم يعمل على ذلك الأساس، والاختيار يتبين لنا في قول الله تعالى {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ} [الشورى 20]. العجيب أن الحقيقة المُجَرَّدَة البسيطة الأساسية عن الفلاح أو الهلاك موجودة في هذه الآية، فالحقيقة أبسط من أن تكون لها مُتغيرات أو احتماليات، لأنها بكل بساطة مسألة اختيار المرء لنفسه، وأن ذلك الاختيار يجب أن يُثْبَت عن طرق العمل. قد أكَّد سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) على هذا بقوله "إنَّما العلمُ بِالتَّعَلُّمِ، وإنَّما الحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، ومَنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ، ومَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ"[1].

فإذا رأى الله من العبد الصدق في الاختيار، هداه ووفقه إلى تحقيق العمل، بل وإلى الاستزادة من العمل الصالح، إذ إن الهداية في المقام الأول بيد الله وحده. لا يستطيع المرء تحقيق أي عمل صالح دون إذن الله وتوفيقه {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [المائدة 16]؛ {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص 56]. فمن اختار الآخرة نجى، ومن اختار الدنيا هلك، ولكن المشكلة تأتي عندما تكون الدنيا أحب إلى المرء من الآخرة بسبب أن شهواته غلبت على عقله، فآنذاك يكون قد اختار الدنيا بأفعاله (ولو لم يختر الدنيا بكلامه).

وهذا من أساس الدين وبُرهان الإيمان: العمل. فمن اختار الآخرة حَكَّم عقله على جسده والحق على الباطل، فاتبع الشريعة بقواعدها الأساسية والفرعية. وأما من اختار الدنيا فقد حكّم شهواته على عقله، وملّك الدنيا والناس القدرة على التحكم فيه وقيادته إلى ما يريدونه، فيلقون به في أي وادٍ بعد استخراج غاياتهم منه، ولا عاقبة لهذا المسلك إلا الذل في الدنيا والآخرة. وكما أجمل لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الواقع والنصيحة "مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى"[2]. فمصيرك في الآخرة (سواء إلى الجنة أم النار) يعتمد على قرارك الأصلي بالإيمان أم لا، ومنزلتك في مصيرك (أي درجتك في الجنة أو النار) تعتمد على سلسلة قرارتك التابعة من إقبال أو إعراض عن الطاعات والمعاصي.

وقال أيضًا (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ كَانَتْ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ؛ وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ"[3]. سبحان الله، "وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ"، أي حتى بعد كل

[1] السلسلة الصحيحة للألباني 342.

[2] مسند أحمد 2866؛ صححه ابن حبان 709 والسيوطي في الجامع الصغير 8313، وحسَّنه ابن حجر العسقلاني في مشكاة المصابيح 10/5.

[3] سنن الترمذي 2389.

ذلك من بيع نفسه وآخرته وخسارتهما، لم يزد شيئًا من مقتنيات الدنيا مما كان سيبلغه في كل الأحوال، لأن الله قد حدد الرزق له.

فهي خسارة مضاعفة لأنه خسر ما كان لديه من كرامة ولم يُحَصِّل مقابل ذلك زيادةً من الدنيا ولو يسيرًا. فبكل بساطة، ماذا نختار لأنفسنا؟! وكفى إلمامًا بهذه القضية قول الله تعالى {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا} [الإسراء 18-19].

وقد دلت بعض الآيات أن الله يترك لنا باب الاختيار، وعلى أنه قادرٌ على أن يجعل كل الناس يؤمنون ويهتدون بأن يريهم آيات قاطعة لا يختلف فيها اثنان، واضحة وضوح الشمس في السماء الصافية {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} [الشعراء 3-6]. كان يُسري اللهُ عن النبيَ (صلى الله عليه وسلم) عندما يأبى المشركون أن يؤمنوا، فقال له الله إن هذا هو الواقع الذي أراده، أن لا تكون الآيات ظاهرة ظهور الشمس إلى حد أن الجميع يؤمن كالإجبار، ولكن الله أراد أن يؤمن الإنسان اختيارًا بالآيات غير المباشرة (أي دون رؤية الله مثلًا).

ولو أن الله أنزل آية كاسحة جعلت الجميع يؤمنون، لكانت الحياة لا معنى لها ووجودنا على الأرض متناقض، لأنه لا فائدة من اختبار يُملى فيه الإجابات على الطلاب. فذلك كله من حكمة الله تعالى، فلا تكن فيمن خضع لضعفه واستجاب لهواه وأعرَض عن ذكر الرحمن (ولا أقصد الكفر، ولكن أقصد باللهو عن الواجبات وارتكاب المعاصي وعدم أخذ بموعظة الله وتذكيره لنا). والحمد لله، فبفضله ومَنّه علينا أننا آمنا بعد أن جاءتنا آياته التي يغفل أو يُعرض عنها كثير من الناس، إذ إنهم يجدونها ثقيلةً على أهوائهم.

{فَأَمَّا مَن طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات 37-41]. هذا، وبمنتهى التبسيط والمنطق والوضوح، خلاصة مقصد ما نحن فيه، فكما قال تعالى {ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا} [النبأ 39]. فماذا سأختار؟ وماذا ستختار أنت؟

فقد جاء في كتاب الله {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (27) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} [التكوير 27-28]. هذا هو الحق، أن الطاعة والمعصية أمر اختياري، فلا أحد يُجبر العامل أن يأخذ رشوةً مثلا، وإنما ضيق حاله هو ابتلاء من الله ليرى كيف سيعمل. وليس العادة أن أحدًا يُجبر أحدًا على

السرقة مثلًا، أو فعل بعض المعاصي بناء على أعذار افتراضية، لأنه إذا قيل له إن أجله يحين بعد تلك المعصية، لامتنع عنها مهما بلغ إلحاح نفسه لفعلها أو قناعته أنه في حاجة ماسة إليها.

ففكر ثانية قبل أن تعصي الله، هل لأحد عليك سلطان، أم ما عذرك، وهل عذرك هذا يُجبرك، لأنه لو كان يُجبرك حقًّا فسيعفو الله عنك. أما إذا اتضح لك خلاف ذلك وأنت واقفٌ أمام الله حين الحساب، فقد خدعت نفسك في الدنيا والآخرة. ومن هانت عليه نفسه لدرجة أنه يخدعها فكيف لا تهون عند الله؟ عامةً إذا كان صاحبها يُذِلُّها، فكيف يُعزها الله بإدخالها الجنة؟

والأصل هو أن الله خلق المرء على الطريق الصواب بالفطرة، ولو التزم به لنجى، ولكن أكثر الناس يحيدون عن ذلك الصراط في خوضهم طريق حياتهم، فقد قال تعالى {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} [الشمس 7-8]. كل نفس خلقها الله سوّاها، أي عدل فيها وهيأها، وذلك أنها تولد على الفطرة كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ، هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ؟" (جَدْعَاءَ أي قطعٌ في الأُذن مثلًا)[1].

ثم إن الله ألهمها فجورها وتقواها، أي بيّن لها الخير والشر وعرفها الطاعة والمعصية. ومن المتفق عليه أن الإنسان يُدرك الخير والشر عمومًا بفطرته، والأدلة على هذا كثيرة، مثل أن الأطفال يستنكرون السب والضرب والقتل. ومثال آخر هو سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، فبالرغم من أن ماضيه قبل الإسلام كان ممتلئًا بعادات الجاهلية حتى إنه وأد (أي دفن الرضيع الحيّ) بنتًا له في التراب، إلا أنه بعد إسلامه كان يرى في ضوابط محددة أنها فيها مصلحة، ثم نزلت آيات فترة الوحي تُؤكد صواب رأيه. ولكن الظن يوافق الصواب عندما تكون فطرة المرء سليمة ويكون صادقًا مع نفسه.

ويتبين لنا ذلك فيما يرويه سيدنا عمر (رضي الله عنه) قائلًا: وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى؛ فَنَزَلَتْ {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}. وَآيَةُ الْحِجَابِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ، فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ؛ فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ. وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُنَّ: عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ؛ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ[2]. ولكن من الناس من يكسر حاجز الفطرة ويُبرر لنفسه فعل المعصية التي هو يعلم أن هذا خطأٌ بفطرته، ولكنه يُكذِّب فطرته لغاية عنده أو لشهوة يُلَبِّيها، والمُحصلّة هي أن فطرته تفسد فتنقلب بشكل كبير. بالإضافة إلى بُصلة الفطرة فإن هناك ما جاء من

---

[1] صحيح البخاري 1296.

[2] صحيح البخاري 387.

الشرع صراحةً عن الحلال والحرام، ولكنّ كثيرًا من الناس يتجاهلون ذلك أيضًا. فمن الواضح أن الأمر اختياري، فماذا أختار؟ وماذا تختار أنت؟

وفي نهاية المطاف، تُحدد كرامة المرء بحسب اختيار أعماله {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [الشمس 9-10]. هذا قول الله فيمن غوى وأهان نفسه بالتعايش في وَحلِ المعاصي. فحقًّا إن الإنسان هو النفس، إن زَكَّاها أعزه الله على ذلك، وإن دَسَّها في المعاصي فقد أهان نفسه وذلها، وحق على الله أن يُذل الإنسان الذي أذّل نفسه. فالأكرم لي في الدنيا والآخرة أن أُكرم نفسي بتزكيتها بطاعة الله وبتجنب دسّها في المعاصي.

وهناك مثلًا ضربه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيمن اختار قبول الهدى ومن رفض قبول الهدى، وذلك في قوله "إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ" (غَيْثٍ هو المطر؛ الْكَلأَ هو النبات؛ أَجَادِبُ هي الأرض التي لا تُنبت ولا تشرب الماء؛ قِيعَانٌ هي الأرض المُستوية الملساء التي لا تُمسك الماء ولا تنبت الزرع)[1]. فما هو قرارك يا أخي؟ وما هو قراري أنا؟

فالقضية بسيطة وواضحة: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} [الجاثية 15]. لذلك اليوم فليستعد الجادون، ليومٍ يُوَفَّى المرء ما عمل، فالرجوع إلى الله للجزاء أمرٌ واقعٌ لا محالة ولا تفادي منه. وهذا الوضع شبيه بالمرء الذي يسعى طوال اليوم في طلب الرزق، فهل مِن بُد إلا الرجوع إلى المنزل للراحة عاجلًا أم آجلًا؟ إذا أدرك المرء ذلك ولكن لا يُهيئ منزله ليكون فيه أساسيات سُبل الراحة له عندما يرجع من العمل، أفلا يكون تصرفًا سفيهًا؟ كذلك من يعصي ربه، فإنه راجع لا محالة لداره في الآخرة، فلماذا لا يُهيئ منزلته في الآخرة حتى يجد فيها سُبُل الراحة والرفاهية والمتاع عندما يصل؟ ولكن هذا يحدث بسبب ضعفنا واستعجالنا للمتعة، فالسبيل إلى النجاة يكون بالاستغفار إلى الله وطلب العفو والرحمة، مع الاجتهاد في البُعد عن المعصية والإقبال على العمل الصالح.

وقال عز وجل أيضًا {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} [فصلت 46]. هذا والله إنه للحق والعدل، وتلك هي خلاصة الواقع المجرد. فما بالي إن وجدت نفسي قد استحققت عذاب الله، لبئس ما قد أكون اقترفت من الذنوب حتى بلغت أني لُقّبت بعاصٍ لله. وقد

[1] صحيح مسلم 4232.

نقل لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) في سياق هذه الآية ما يقوله الله (جزء من الحديث القدسي) "يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ"[1].

وقد حذرني الله من ذلك، أنه غفور رحيم، ولكن من تمادى عن الحد ولم يسعه عفو ورحمة الله بالرغم من سعتهما، أُخذ إلى الطيف الذي في الجهة المقابلة، وهو البطش والعذاب الشديد. وهذا كما جاء في قوله تعالى {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [الرعد 6، جزء من الآية]، وفي قوله تعالى {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ} [الحجر 49–50]. فماذا أنا صانع بحياتي؟

وجاءت أيضًا كنصيحة من الله {وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى (41) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى} [النجم 39–42]، فإنها لآيات بسيطة في الخطاب وقليلات في العدد، لنا فيها تبصرة بالغة. وفي الآية الأولى هناك ما يدعو إلى التفكر وتغيير منطلق رؤية المرء للأمور، إذ عادةً ما يقول المرء في نفسه إنه ليس للإنسان ما سعى بمعنى: إن ما يصيب الإنسان في الآخرة من سوء الجزاء إنما هو بسبب سعيه في السوء. ولكن أدعوكم لعكس منظوركم للآية أيضًا برؤيتها من منطلق: إن منزلة ارتقاء الإنسان في المنزلة، كحسن الجزاء، تكون بحسب ما سعاه في الدنيا، فهو ينتهي في الصعود أينما انتهى به عمله.

فتلك النظرة أكثر قبولًا لقلب العبد، إذ يرى أن تقصيره يؤثر في درجة حسن الجزاء وليس أنها تُدنيه في سوء الجزاء، لأن الإنسان بطبعه يميل إلى الأمل والتفاؤل. وبتلك النظرة يرغب الإنسان أكثر في إصلاح عمله، لأنه ينظر إلى القضية أساسًا بمنظور فوات المكاسب بعدم الإقبال على الخير ثم بمنظور الجزاء بالعقاب إذا لم يمتنع عن الشر.

وفي حديثٍ تشويقي عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال فيه "كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ أَبَى"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى؟! قَالَ: "مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى"[2]. ومن هذا الحديث يمكن قول إن كل عاصٍ يكون سفيهًا بسبب تفريطه في الجنة، وجاهلًا لأنه إن كان يعلم ويدرك قيمة الجنة ما أبعد نفسه عنها بالمعاصي (وبذلك يكون قد ظلم نفسه)، ولأنه لم يستوعب حقيقة الدنيا والآخرة. ذلك وأن العالِم يكون حكيمًا، والحكيم لا يُفضّل الدنيا الحاضرة، التي هي سريعة الزوال ذي المتاع قليل، على الآخرة البعيدة ذي المتاع الفائق الدائم. فالحكيم لا يؤثر المتعة الحاضرة الزائلة على المتعة المُأجّلة الدائمة، وهي الجنة.

---

[1] صحيح مسلم 4674.

[2] صحيح البخاري 6737.

فالمسألة بسيطة من باب المبدأ، ومع ذلك فإني أُخفق في التنفيذ، فلماذا ذاك؟ إخفاقي ينتج من إحدى عِلَّتين: ضعف هِمَّتي في درجات الجنة أو عن وجود نفاق فيَّ، ولا ثالث لهما. فأيهما أنا مصاب به؟ ولا يمكن استبعاد النفاق إذ إنه يتسلل تسلل تدريجي وخفي حتى إنه لم يسلم منه بعض علماء الدين الثقال، فمنهم من يتملق ويُجامل الحاكم الجائر بالدين. إني إذا ذهبت يمينًا أو يسارًا، وبلغت ما بلغت، وفعلت ما فعلت، فلا مفر من أمر واحد، وهو أن كلنا سنصب إلى مصير مشترك: الوقوف بين يدي الله، فإليه المنتهى. فما فائدة فعل أي شيء يتعارض مُقتضاه مع تلك اللحظة؟

التفكر فيما خلقه الله. قال تعالى {اللَّهُ الَّذِي سخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الجاثية 12-13]. كل ما سخره ربنا لنا من نعم تدل على مكانة الإنسان عند الله، وما طلب منهم مقابل ذلك سوى توحيده وعبادته، فما ظهر من أغلب الناس إلا رد الإحسان بالعصيان. كل هذه الآيات ليتفكر الإنسان في عظمة الله فيزداد إيمانًا وتقوىً، ولكن قليل من تفكر وتأمل بما يكفي، والنتيجة كثرة المعصية لله الذي لا ندرك فضله علينا. فقلةٌ هم من يعلمون أن من طُرق الإعانة على ترك المعصية هو التأمل في الآيات الدالة على الله مما حولنا من خلق، والتفكر في عظمة وكرم الله.

قال تعالى {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} [الروم 8]. التفكر في الحياة والكون والمخلوقات أحد سبل النجاة، فالتفكر في أي شيء من ذلك يَصُب إلى استنتاج واحد، وهو أنه لا بد أن يكون هناك خالق واحد لهذا الكون وأن حياتنا هذه بداية لشيء أكبر. والإسلام يبين لنا أن الخالق هو الله وأن المرحلة القادمة تشمل البعث والحساب والجزاء، وهكذا يصبح الأمر منطقيًا ونرى أن الجزاء هو الموازنة لأوضاع الدنيا.

إذًا كيف لمن يرى نفسه، وكل من وما حوله، أنه سيصير إلى مآل واحد (الفناء ويوم القيامة)، تكون له هِمَّةً في أن يعصي ربه؟ بالعقل لا يكون الأمر منطقيًا، ولكن الهوى يتدخل فيدفع المرء للمعصية. فالله المستعان على الامتناع عن المعصية، وهو الغفور الرحيم لمن وقع فيها.

ويسأل تعالى {وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ} [غافر 81]. حقًّا، إن آيات الله كثيرة لا نُحصيها، فمنها ما في أجسادنا من أنظمة وتفاعلات للحفاظ على الروح مثل المناعة، وحفظ توازن المواد بعد استخراجها من الطعام، وتوازن الماء، وتدفق الدم، والتنفس، والتنسيق بين الأعضاء.

وإضافةً إلى كل ذلك القدرة على تحريك الجسد الذي لا نعلم كيف نُحركه بكل تفاصيله، فإنما هي قدرة موهوبة من الله.

ومن آياته تعالى التي في مخلوقاته الدقيقة ما نغفل عن قدرها، مثل في الحشرات التي تتحرك وفيها أعضاء دقيقة ومختلفة عنا، ولكنها تؤدي نفس الغرض. وكذلك في مخلوقاته الكبيرة، مثل التناسق بين الكواكب والمجرات بحيث إنها لا تُهلك بعضها بعضًا بالاصطدام مثلًا، ومدى جمال رؤية كل ذلك حولنا. أكل هذا عشوائي؟ لا والله إنها كلها تدل على وجود خالق ومُدبِّر. وليس تدل فقط على وجوده، بل وحدانيته أيضًا إذ هذا الجمال والتوازن لا يمكن بلوغه إلا إذا كان المُدبِّر واحدًا. فكل شيءٍ خلقه الله يصرخ من صُلب كيانه بلسان حاله أنه لا إله إلا الله، لأن وجود المخلوق في حد ذاته آية، وبداخله هو ممتلئ بالآيات أيضًا، ولكننا نغفل وننشغل عن آيات الله. ومع كل هذا الجمال والتناسب أعصي ربي لأُصبح نشازًا في هذا الكون المتناسق الساعي في اتجاه واحد: عبادة الله. متى أستحيي مما أفعله؟!

وكيف أعصي الله وأنا مُحاط بآياته؟ كيف تجرأت وعصيت ربي بالرغم من أني إذا نظرت في أي اتجاه حولي أرى ما يُذكرني به، حتى إن نظرت في نفسي فإني أجد آيات تسوق إلى الله؟ وهذا ما أشارت إليه الآيات {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} [الذاريات 20-22].

فآيات الله في كل مكان ولكن نحن قد نغفل عنها، وقد لا يحول بيننا وبين إدراكها إلا التفكر أو تَقَبُّل الحق. والعجيب أن المرء غالبًا ما يكون محاطًا بآيات الله الكونية ويعصيه، أفلا يدعو ذلك للحياء؟! ذلك وهو شهيدٌ علينا مما يدعو إلى الحياء أكثر، لأنه يراني وأنا أتَّكل على أنه غالبًا سيتركني أكمل معصيتي له، مُعتمدًا على أنه رحيم رءوف وقد وعد أنه سيؤخِّر حساب الناس. أوَلَا أستحيي أني أستغل ذلك؟ أفلا أرتعد من جُرأتي على عفو وصبر الله؟

إن الكون أذعن لدعوة الله له بالخضوع، أفأنا أعظم من الكون حتى أُعارض هذا الأمر؟ قال تعالى {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت 11]. سبحان الله وتعالى، فمن شدة قدرته وهيمنته على كل شيء عرض على السماء والأرض أن يأتيا طوعًا أو كرهًا. أي أن تحقيق خضوعهما لأوامر الله حاصلٌ لا محالة، ولكن كان الاختيار لهما في أن يأتيا طوعًا أم كرهًا، وكان اختيارهما حكيمًا إذ انصاعوا وأجابوا بالطاعة. فإذا كانت قدرة الله قهرت وأبهرت من هما أكبر مني خلقًا، واختارا أن يأتيا طوعًا، فكيف لي أنا ألا أخضع له طوعًا؟! كيف تتجرأ نفسي وأعصي أنا الله! ألا يدعو هذا للتفكر؟ ألا يدعو هذا للرعب من الله؟

ثم إني بمعصيتي لله أُخالف النظام الذي عليه الكون، وأسير عكس التيار الذي يسير فيه. أفلا يجعلني ذلك أشعر بالعزلة والفُسق عن مسار الكون؟ أفلا أستحيي مما تفعله نفسي تجاه الله؟

ولكن تلك هي حكمة الله سبحانه وهكذا قَدَّر لنا، ترك لنا القدرة على معصيته، ونحن واقعون فيها لا محالة، فلا نملك إلا أمرين: مجاهدة النفس لتفادي حدوث ذلك والاستغفار مع التوبة. فاللهم إنا أتينا طائعين مع السماء والأرض ولكن نقع في معصية أحيانًا بسبب عِلَلٍ في أنفسنا، فنسألك بضعفنا أمام قوتك، وبعِلَلِنا أمام كمالك، وبعجزنا أمام قدرتك، وبهزلنا أمام عظمتك، وبأنك خلقتنا معيبين ولا نملك رأيًا ولا حيلةً في هذا، أن تعفو عنا وتغفر لنا وترحمنا بغناك عنا وبرأفتك علينا، ولا تحرمنا من أن نكون مع جملة من يأتونك طوعًا.

**التفكر وإدراك مدى الفساد للكون الذي يترتب على معصيتي لله.** نستنتج من قوله تعالى {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء 44] أن لكل شيء وعيًا بالله وقدرته. هذا يقودنا إلى التفكر في نقطة أخرى، وهي أن المرء إذا أمسك كرة مطاطية وقذفتها على الحائط، فإنها ترتد إليه، وهذا التفاعل يحدث بناء على قوانين كونية قد حددها الله، ودرسها علماء الفيزياء. فمن الذي يضمن للمرء أن كل مرة يقذف فيها هذه الكرة أنها سترتد إليه؟ إن قذفت الكرة ولم ترتد فسيكون ذلك خللًا ونشوزا في قوانين الفيزياء، مما يجعلها غير صالحة لتحديد قانون لها ولا يعتدّ عليها حتى نبني عليها أنظمة ونتقدم باستخدامها ونستفيد من ثباتها.

فمثلًا، مولدات الكهرباء ومحطات المياة وإنشاء المباني وغير ذلك كله معتمد على قوانين ثابتة مدروسة، وكي نتقدم نبني تطلعاتنا على نتائج متوقعة استنادًا إلى تلك القوانين (مثل تحمل عواميد البناء لأحمال محسوبة، فلا ينهار بأقل من ذلك الحمل). فإلى من سأشتكي إن شذَّت تلك القوانين، وعما سأشتكي أساسًا؟ فلنفرض أن الكرة قررت أن تشذ عن القوانين التي وضعها الله، أو أن الحائط قرر ذلك، فلن ترتد الكرة.

للتوضيح أكثر، من الذي ذهب بالقوانين الكيميائية عندما قُذف سيدنا إبراهيم (عليه السلام) في النار ولم يحترق؟ من الذي أبطل قوانين الفيزياء عندما حاول سيدنا إبراهيم (عليه السلام) أن يذبح ابنه بالسكين فلم تقطع في جسد ابنه؟ من الذي يحافظ على دوران الكواكب حول الشمس وأقمارهن حول الكواكب عبر ملايين السنين دون أن يخرجوا من مصارهم، فيحدثوا كوارث كونية تؤدي إلى هلاكنا بل وهلاك الكون؟ من الذي يصون القوانين الكونية ابتداء من أصغرها، كارتداد الكرة من الحائط، إلى أكبرها كتفاعلات الكواكب والمجرات ببعض؟! ءأدركتم الحال الذي نحن فيه؟

ما أريد إيصاله للقارئ هو إدراك أن لو كان كل شيء كالإنسان، قادر على المعصية والخروج عن قوانين الله، لفسدت السماوات والأرض فسادًا طائلًا، ولكانت العيشة على الأرض شاقة جدًّا، بل مستحيلة! وهذا موافق لما جاء في الآية {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [فاطر 41].

وكفى ضررًا بالكون أننا نحن والجن عصاة لله، فكما جاء في الآية {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم 41]، فإن الفساد عمَّ وطفى بسبب عصياننا نحن فحسب. ولو أن كل شيء يجرؤ على معصية الله لزرع الإنسان ولم تطرح الأرض، أو لجمع بعض الماء كي يشرب فتتبخر سريعًا دون سبب، وهكذا. في تلك الحالة لا يمكن الوصول إلى ما نحن فيه الآن من التقدم، فمثلًا قد يشز الأسمنت الذي نبني به بيوتنا فيتفتت أحيانًا بهواه، مما يجعل البناء مستحيلًا. إننا لا ننتبه للفساد الذي نسببه لأننا نتهاون به أو لا نُلاحظه، وذلك مثل ما في قول الله تعالى عن بعض الناس {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ} [البقرة 11-12].

فالحمد لله الذي لم يعطِ مخلوقاته القدرة على عصيانه إلا نحن والجن. وبهذا فإن ما حولنا لا يعصي الله مثلنا كي نلاحظ مدى أضرار معاصيهم علينا وتوابع ذلك فوق معاصينا. ولو أن لكل شيء أن يتبع هواه مثلنا ما ظللتني الشجرة بظلها عندما أعصي الله، ولا رضي الماء أن يتركني أتمكن من جمعه كي أشربه، لأنهما يُبغضاني. ولكن الحمد لله الذي منع قدرة المعصية عن معظم مخلوقاته رحمةً بنا، فإن الله يمنعهم من أن يخرقوا القوانين أو يؤذوننا عندما نعصيه! وهذه من رحمة وفضل وكرم ولطف ورأفة الله بنا. ومن يدرك هذا، يدرك أن هذه صفات يتصف بها الرب في التعامل مع العبد، لأن الرب الحقيقي لا بد أن يكون مطلق القوة، ومن يملك مطلق القوة يستعملها بحكمة وصبر وبتقدير لأنه لا يحتاج أن يثبت قدرته، وهذا هو كمال القوة، فمع مُطلق القوة يليق مُطلق الصبر والعفو.

ثم إن معاصي الأفراد تجلب البلاء على الإنس وحتى على الحيوانات، بقلة المطر وزيادة الكوارث مثل الزلازل والعواصف والأمراض. ومعاصي المسلم خاصةً تُضعف شوكة المسلمين أمام أعدائهم الذين يريدون محو الإسلام، وأفعالهم تُعين الأعداء على اجتياح والسيطرة على بلاد المسلمين، فتُطمس شرائع الإسلام. وبذلك تندثر كلمة "لا إله إلا الله" على الأرض، ويَقِلُّ عدد الذين يعبدون الله وحده.

وإذا زادت وتراكمت معاصي الإنس عامةً حتى تبلغ أنها تكون المعتادة ومُعلنة، فإنها تجلب قيام الساعة، إذ إنه لا مغزى ولا فائدة آنذاك من مد طول عمر الأرض. ذلك لأن المراد من خلق الأرض هو اختبار الناس عليها وإقامة اسم الله عليها بالذكر، وقد بلغ الاختبار نهايته وتوقف ثمرته،

وذلك بفسوق عامة الناس مع تقلص من يُقيم اسم الله فيها. فإذا زال المغزى من الشيء زالت معه الحاجة للحفاظ عليه، فيأمر الله بقيام الساعة لمحاسبة الناس.

**إن الله يُحافظ على نظام الكون لبقائنا، فهل من الحكمة أن نعصيه تحت مظلة حمايته؟** قال تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [الحج 65]. إذا نظر الإنسان حوله إلى الأشياء الذي يأخذها على أنها مُسَلَّمة، لرأى أنها ثابتة بقدرة الله، وهذا كي يستطيع الإنسان أن يعيش ويسعى. ومن أكبر تلك الأمثلة هي تفاعُل الكواكب والنجوم وغيرهما مع بعضهما، نرى أن في علاقتهم ببعض قوانين مُنظَّمة ومُحكمة تجعلهم يؤدون واجبهم دون خروج عن مجراهم لملايين السنين. فمن الذي يحفظ هذه القوانين من أن تشذ ويضمن لنا ثباتها؟

ومع العلم، أن القوانين التي تحفظ علاقة الكواكب بعضهما ببعض لا تشذ أبدًا كالإنسان الذي قد يعصي ربه أحيانًا، لأن الله لا يأذن لها بذلك. وهذا يطرح سؤالًا آخر ليس بموضوع الكتاب، وهو أنه لماذا ترك الله للإنسان القدرة على معصيته، وهو سؤالٌ لا يعلم إجابته إلا المُتفكرون. ولو أن تلك القوانين شذت لحدثت كوارث تُهلك الإنسان، فمثلًا إذا خرج كوكب الأرض عن مجراه وابتعد عن الشمس فسيتجمد لدرجة أن الحياة ستنعدم، أو يقترب من الشمس فيحترق كل شيء.

وهناك احتمالات أخرى مثل إذا خرج كوكب آخر من مجراه واصطدم بالأرض فسيدمرها، أو أن القمر خرج عن مجال جاذبية الأرض ويتيه في الفضاء فلن يكون لنا قمر ينير لنا الليل، فتضطرب وتصعُب معيشة الكائنات على الأرض. وهناك غير ذلك مما لا نتوقعه ولا نتخيله حتى.

فحقًّا قول الله في أنه يُمسك السماء أن تقع على الأرض، فما الضامن للإنسان الذي يعصي ربه أن الله لن يُطبق السماء عليه؟ ما جُرأة من ظن أن الله لن يهلكه وهو على معصية لأن الله عهد لنا أن كل إنسان سيُتم ما كُتب له من عُمر، وأن للقيامة ميعادًا ولها دلالاتها؟ فمال هذا العبد الذي نقض عهده مع الله بالمعصية ويعتمد على أن الله سيفي بعهده كي يتمكن هذا من إكمال معصيته لله، فأي قبحٍ هذا؟ من الذي يستغل رأفة ورحمة الله بنا كي يفعل ما يحلو له؟! ما الذي يمنع الله من التخلي عن مُقوِّمات بقاء الإنسان إذا عصى الإنسان ربه؟

### ترك المشبوه والمُريب مُبكرًا وسريعًا

إن من أفضل الطرق لتجنب المُحرمات هي بتمييز المتشابه أو المحذور ثم هجره فور تمييزه قبل الانخراط فيه أو الاحتكاك به، وذلك يجعل المرء يسلم من تسلسل أحداث الانحدار المتلاحق بعد

المحذور الأصلي. وللتوضيح، نستفيض في الآيتين {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} [الحشر 16-17]. هذا هو مدى كره الشيطان لنا، أنه قَبِلَ دخول النار في سبيل إهلاكنا، أي رضي أن يكون ثمن قيادتنا لجهنم أن يدخلها هو أيضًا. وهذا يبين مدى الحرص الذي ينبغي أن نأخذه تجاهه، لأنه بدلًا من البقاء في الجنة بسجدته لسيدنا آدم (عليه السلام)، اختار أن يُطرد ويدخل النار ولكن يجر الإنس معه. ضحّى بنفسه كي يهلك أحدًا من الإنس بدلًا من أن ينجو هو والإنس، فما هذه الضغينة؟!

والعجيب أن من الناس من يتخذونه خليلًا، ومنهم من يتخذونه وليًّا، ومنهم من يعبدونه. ومن الناس، وأنا منهم، من يُجيب الشيطان أحيانًا فيعصي ربه، فأين العقل؟ ويبقى سؤال: ما تسلسل الأحداث التي تُفضي بالمرءِ إلى أن يُجيب الشيطان عندما يطلب منه أن يكفر بالله؟

في تفسير القرطبي (رحمه الله) عن المثل المتعلق بالآيتين المذكورتين جاء: إن عابدًا كان في بني إسرائيل وكان من أعبد أهل زمانه، وكان في زمانه ثلاث إخوة لهم أخت وكانت بكرًا، ليس لهم أخت غيرها. فخرج البعث على ثلاثتهم، فلم يدروا عند من يخلفون أختهم ولا عند من يأمنون عليها ولا عند من يضعونها. فاجتمع رأيهم على أن يخلفونها عند العابد، وكان ثقة في أنفسهم فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده فتكون في كنفه وجواره إلى أن يقفلوا من غزاتهم، فأبى ذلك عليهم وتعوذ بالله منهم ومن أختهم. فلم يزالوا به حتى أطمعهم فقال: أنزلوها في بيت حذاء صومعتي، فأنزلوها في ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها، فمكثت في جوار ذلك العابد زمانًا، ينزل إليها الطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة ثم يغلق بابه ويصعد في صومعته، ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضعه لها من الطعام.

فتلطف له الشيطان فلم يزل يُرغِّبه في الخير ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهارًا، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها. فلبث بذلك زمانًا، ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والأجر وقال له: لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظم لأجرك، فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها فوضعه في بيتها. فلبث بذلك زمانًا ثم جاء إبليس فرغبه في الخير وحضه عليه، وقال: لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك، فإنها قد استوحشت وحشة شديدة، فلم يزل به حتى حدثها زمانًا يطلع عليها من فوق صومعته.

ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال: لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها وتقعد على باب بيتها فتحدثك كان آنس لها، فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها، وتخرج الجارية من بيتها، فلبثا زمانًا يتحدثان. ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وفيما له من حسن الثواب يصنع بها وقال: لو خرجت من باب صومعتك فجلست قريبًا من باب بيتها كان آنس لها، فلم

يزل به حتى فعل. فلبثا زمانًا، ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وفيما له من حسن الثواب فيما يصنع بها وقال له: لو دنوت من باب بيتها فحدثتها ولم تخرج من بيتها، ففعل فكان ينزل من صومعته فيقعد على باب بيتها فيحدثها.

فلبثا بذلك حينًا، ثم جاءه إبليس فقال: لو دخلت البيت معها تحدثها ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك، فلم يزل به حتى دخل البيت، فجعل يحدثها نهاره كله فإذا أمسى صعد في صومعته. ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبّلها، فلم يزل به إبليس يحسنها في عينه ويسول له حتى وقع عليها فأحبلها، فولدت له غلامًا. فجاءه إبليس فقال له: أرأيت إن جاء إخوة هذه الجارية وقد ولدت منك، كيف تصنع؟ آمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك! فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه، فإنها ستكتم عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا ما صنعت بها، ففعل.

فقال له: أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها؟ خذها فاذبحها وادفنها مع ابنها، فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحفيرة مع ابنها، وأطبق عليها صخرة عظيمة وسوّى عليها التراب، وصعد في صومعته يعبد فيها. فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث حتى قفل إخوتها من الغزو، فجاءوه فسألوه عنها فنعاها لهم وترحم عليها، وبكى لهم وقال: كانت خير أمة، وهذا قبرها فانظروا إليه. فأتى إخوتها القبر فبكوا على قبرها وترحموا عليها، وأقاموا على قبرها أيامًا ثم انصرفوا إلى أهاليهم.

فلما جن عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم أتاهم الشيطان في صورة رجل مسافر، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم، فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها وكيف أراهم موضع قبرها. فكذّبه الشيطان وقال: لم يصدقكم أمر أختكم، إنه قد أحبل أختكم وولدت منه غلامًا فذبحه وذبحها معه فزعًا منكم، وألقاها في حفيرة احتفرها خلف الباب الذي كانت فيه عن يمين من دخله، فانطلِقوا فادخلوا البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله، فإنكم ستجدونها هنالك جميعًا كما أخبرتكم. وأتى الأوسط في منامه وقال له مثل ذلك، ثم أتى أصغرهم فقال له مثل ذلك، فلما استيقظ القوم استيقظوا متعجبين لما رأى كل واحد منهم، فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم لقد رأيت عجبًا، فأخبر بعضهم بعضًا بما رأى.

قال أكبرهم: هذا حلم ليس بشيء، فامضوا بنا ودعوا هذا، قال أصغرهم: لا أمضي حتى آتي ذلك المكان فأنظر فيه. فانطلقوا جميعًا حتى دخلوا البيت الذي كانت فيه أختهم، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذي وصفه لهم في منامهم فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين في الحفيرة كما قيل لهم، فسألوا العابد فصدَّق قول إبليس فيما صنع بهما. فاستدعوا عليهم ملكهم، فأُنزل من صومعته فقدموه ليُصلب، فلما أوقفوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له: قد علمت أني صاحبك الذي فتنتك في المرأة

حتى حبلتها وذبحتها وذبحت ابنها، فإن أنت أطعتني اليوم وكفرت بالله الذي خلقك خلّصتك مما أنت فيه، فكفر العابد بالله، فلما كفر خلى عنه الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه (انتهى).

هكذا انقلب حال العابد المجتهد إلى أنه مات كافرًا باتباعه للشيطان، فيا للعجب على التغير. وهذه القصة ممتلئة بالعبر لمن يعتبر، فما زال يكسر حاجزًا وراء حاجز من حدود الله حتى وجد نفسه في القعر. ويتَّضِح لنا أن التغيير قد يأتي تدريجيًا وعلى أمد من الزمن (ومثل ذلك في إصلاح النفس، فالتدريج خير من تحميل النفس ما يُجهدها فتترك الإصلاح كليًّا). وما أريد إبرازه من عبر والتحذير منه مما في هذه القصة هو عدة أمور:

1. أن الشيطان قد يمكر بالمرء ليعصي الله عن طريق إلباس الأمور والأولويات عليه، فقد استدرج الراهب إلى معصية الزنا عن طريق ترغيبه في الخير! قد زيَّن للراهب الاستزادة في الخير وجاءه من جهة الشفقة عليها، فسوَّل له إعطاء المرأة اهتمامًا أكبر ومؤانسةً أكثر تصبيرًا لها، ووقاء الناس من رؤيتها والافتنان بها على أنها تخرج. ولكن، الأصل في القضية هو الخوف على نفسه من الفتنة ولذلك كان يتورع عنها، فإذا تقابلت الاستزادة من الخير في وجه الحرص من المعصية، كيف سيكون تعامل أحدنا وقراره عما هو أولى (الورع المؤكد أم الاستزادة في الخير)؟ قد جاءه الشيطان في صورة الصديق الحريص على مصلحة العابد، مرة من باب النصيحة بالاستزادة من الخير، ومرة من باب التحذير من الفضيحة، ومرة من باب الإغاثة. وهذا من أساليب الشيطان الماكرة، كما استخدمه مع أبينا آدم (عليه السلام) بأنه ينصح له {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [الأعراف 21]، إلى أن أخرجه من الجنة.

2. أن من أساليب الشيطان القوية والفاعلة في التأثير على المرء هو الإلحاح عليه باستمرار على أمد، كما أن القطر من الماء المستمر ينحت في الصخرة مجرى بعد زمن. ويظل الشيطان على هذا الحال حتى يلين المرء عن موقفه الثابت وردة فعلته العنيفة إلى أن يصبح متساهلًا ورقيقًا في التصدي للقضية. وطريقة مواجهة المرء لهذا الأسلوب يكون بفعل عكس ما يوسوس به الشيطان، فإن وسوس بالاختلاط مع امرأة مثلًا، يتخذ الرجل إجراءً أكثر صرامةً وحرصًا في التعامل مع المرأة المحرمة عليه، بتجاهلها مثلًا عندما تخاطبه. فيتخلى الشيطان عن هذا المسلك إذ يُدرك أن وسوسته تأتي بتأثيرٍ عكسي.

3. أن السيئة تجر السيئة. وذلك إذ إنها تُهيئ المرء للإقدام على مثلها أو أفظع منها، إما باستحسان وأُلفة معصية أخرى فكرةً وفعلًا، وإما بالإكراه عليها ليواري سيئة ارتكبها سابقًا بعدما وجد نفسه في موقف لم يتوقعه. وفي هذه القصة، عصى الله تارة

باستحسان مؤانسة المرأة باللغو، وتارة كارهًا بقتل الغلام ليتجنب العقاب والفضيحة على أنه زنا وليس بالعابد الصالح الذي ظنه الناس. قد وجد نفسه في مأزق لأنها قد حملت غلامًا (وهو البلاء الذي لم يكن يحسبه)، فحَمَلَه تعظيم النفس والغرور والجرأة على اختيار أن يقتل المولود. بدأ الأمر، بما يبدو بريئًا عند كثير من الناس، بمخالطة المرأة دون داعٍ، وانتهى بالكفر بالله عندما وضعته معاصيه في مأزق ومزنق، إذ إن طريق الرجوع والتوبة مُكلِّفٌ جدًّا (أي تحمل الجزاء الحق على ما ارتكبه) بينما كان يأمل أن يخرج سالمًا غانمًا بالرغم من المصائب التي اقترفها. فاختار الكفر عن المعاناة في الدنيا، فكانت عاقبته أسوأ (ضاف على نفسه المعاناة في الآخرة) عما لو كان تقبل عناء كسر سلسلة المعاصي، وتكلفة إصلاح ما اقترفه، وتحمل عاقبة أفعاله.

وليُعلم أن هذا هو الحال العام مع العبد في حياته، وهو أن الله يعرض عليه الفتن باستمرار ليظهر معدنه، وتتصعَّد درجة الفتنة خاصةً مع قبول العبد للتي قبلها، لينظر الله أين الحد الذي سيقف عنده العبد. إذا أقبل العبد على معصية، فإن الله يُعرّضِه لمعصية أخرى، فإن قبلها العبد، عُرض عليه ما هو أشد عند الله وعلى حياء ومبادئ المرء. وهذا إلى أن يتبين هل العبد سيندم إلى درجة أنه يخاف التجاوز فيتراجع بالرغم من الصعوبة التَصَعُّدِية في الخروج مما هو فيه، أم سيُعاند فيدهس كل الحدود ومبادئه مهما كانت حتى يُتمّ غايته.

فمثلًا، إن كان هناك من يريد أن يحتال على شخص في ماله، فإنه يضطر إلى الكذب كي يسرقه، حتى إذا تم القبض عليه يومًا فإنه قد يدفع رشوة كي يخرج. ثم إذا طلب منه الشخص الذي أفلته من العقاب برشوة أن يعينه بشهادة زور للاستيلاء على أملاك شخصٍ آخر، هل سيوافقه فيدخل في مراحل أخرى أم سيرفض ويتحمل عواقب رفضه؟

4. أن مجموعة من المعاصي قد تجعل المرء يرتكب ما لا يتخيله على نفسه أبدًا. وهنا، اجتمعت ذنوب الخلوة مع المرأة وملامستها وتقبيلها ومجامعتها والقتل والكذب فقادوه إلى أن يفعل ما ليس له تكفيرًا عنه في الآخرة، وهو الكفر بالله.

5. أن الموقف المريب يهيئ صاحبه أن يرتكب المعصية، وكان العابد ورعًا في بداية القصة، ولكنه وضع نفسه في وضع مريبٍ عندما بدأ هو بأخذ الأكل إلى سكنها والتقرب إليها تدريجيًّا والتلطف معها. فبدأ بعد ذلك يخالط المرأة بالتحدث معها دون ضرورةٍ، وهذا كان أول خط من الخطوط الحمراء الذي يكسره.

6. أن المرء الذي يغتر بنفسه وبعمله سيهلك، إذ إنه تهون عنده المعصية أمام عمله الصالح، فيسهل عليه ارتكابها لاستبعاده أن تضر عمله أو أن يُعذِّبه الله عليها. وهنا رأينا كيف أن العابد استحقر ذنب مخالطة المرأة، ثم ظلت تُعرض عليه الذنوب الأكبر من ذلك بالتدرج، فلم يُنكرها ويقف عند سقفٍ مثل القتل الذي لا رجعة فيه، إلى درجة أنه قَبِلَ الكفر بالله. ولعل ذلك بسبب اغتراره وتعظيم عمله بجانب تعظيم نفسه، فتسول له أن كل هذا لن يُفضي به إلى الهلاك نظرًا لحُسن وكثرة عمله الصالح، فأحبط كفرهِ بالله تعبُّده الفريد الذي أدّاه لله. وقد يكون سوَّل لنفسه أنه سيرجع إلى الإيمان ويجتهد في عبادته أكثر ليُكفِّر عن كل ما سلف منه ولكن بعدما ينجو من الصلب.

ونرى من هذه القصة كيف تدرج العابد، إذ بدأ بالمحذورات قبل أن يقع في الصغائر ثم في الكبائر ثم كفر. ولذلك يضع الله لنا حدودًا، قد لا يُدرك حكمتها كثير من الناس إذ إن منها ما هي في المراحل المبكرة من المحذورات، والتي هي أسهل وأسلم المراحل لتفادي الوقوع في المصائب. ذلك مثل الكراهية من الاستكثار من المباحات، إذ إن الإكثار منها يُعود المرء على الاستمتاع، مما قد يفضي به إلى المعصية.

ومن اللحظات الفارقة في القصة هي عندما اختلى بها، والتي تفتح على المرء ذرائع الفتن إذ بدأ يلمسها ويُقبّلها، وخُلو الرجل بالمرأة هو من الأمور المُستخف بخطورته من كثير من الناس. قد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) في خطورة الخلوة "إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ"، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ؟ قَالَ "الْحَمْوُ الْمَوْتُ". والحمو هم أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه، وهم ممن يحل للمرأة التزوج بهم إن لم تكن متزوجة، مثل أخي الزوج وابن عمّه، فهما من الحمو بالنسبة إلى المرأة. أما وصفه بالموت فلعدة أسباب، بمعنى أن إذا حدث ما يُستبعد فإن ذلك يؤدي إلى ضياع الدين، وهلاك الزواج وصلة الرحم بفراق الزوج لها وخصومة الحمو إذا حدث أمر، واستحقاق الموت للزناة بإقامة الحد عليهما. ومعنى كراهية الدخول على النساء أي على نحو ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم -الخلوة-، لأنه "لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إلا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ"[1].

والقتل هو الجزء الذي لا رجعة فيه، إذ لا يمكن تصليحه كاملًا بإرجاع الروح إلى الجسد، استدلالًا بقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا"[2]، وذلك لأنه لا يستطيع رد الروح التي زهقها. وقتله للغلام قد فتح له بابًا سَهَّلَ عليه قتل المرأة، لأنه قد ارتكب القتل سابقًا فمرض قلبه مرضًا شديدًا، حتى إنه بعد ذلك أقبل على الكفر بالله وخُتم له على ذلك.

---

[1] سنن الترمذي 1091.

[2] صحيح البخاري 6355.

فيا أخي، كن فَطنًا وورعًا. إذا رأيت نفسك في موقف مريب، أو أن أحدًا يُعرض عليك أمرًا وأنت تشتبه فيما يُقدِّمه لك، فاخرج منه بأسرع ما يمكن تنفيذًا لقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الْحَلالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ. أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ؛ أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ"[1]. وقد أهدانا (صلى الله عليه وسلم) مبدأ عامًّا مُختصرًا قائلًا "دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ"[2].

والخروج من الموقف المريب مبكرًا يكون أسهل على النفس من الخروج منه بعد أن يتأقلم عليه المرء أو يتعقد الوضع أو يحدث المُحرّم البيّن. ولكن إن أخطأت وبقيت حتى وقع المحرّم فاخرج من الموقف فورًا وتب إلى الله، قبل أن يقع مُحرّم أكبر من المحرّم الذي يسبقه، فتجد نفسك منغمسًا في تيارات من المحرمات تنهال عليك، مما لم يكن لك علاقة به في الأصل، وتجد نفسك في موقف شبيه بموقف الراهب. واعلم أن كل ما يحتاجه الموقف المريب من أن ينقلب إلى فوضى هو عاملٌ لم يكن في الحسبان، وما أسهل وقوع ذلك، فاستبرئ لدينك بالاعتزال المبكر.

ونصيحة مهمة قد تخفى على كثير من الناس: لا يخدعن المرء نفسه بأن يقول إنه يريد الخير بالإقبال على أمر هو مُحرمٌ في الأصل. والقاعدة الفقهية التي تجيب على هذا الفكر تتلخص في المقولة: درء المفسدة مُقدمٌ على جلب المنفعة. هذا الفكر يتزين مثلًا للرجل الذي يريد أن يُقبل على مرأة متبرجة كي ينهاها عما تفعله. وفي ذلك خطر أن يُفتتن هو بها، أو يُتَّهم بأنه حقيقةً أراد الاختلاط بها وليس نُصحها، فيجلب على نفسه شبهة هو كان في غنى عن تبعاتها.

قد نُقل عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال "منْ كانَ يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلا يقِفَنَّ مواقِفَ التُّهمِ"[3]. وقال سيدنا عمر (رضي الله عنه): مَنْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلتُّهْمَةِ فَلا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ[4]. فلذلك كان الأولى أن يتركها ويتوكل على الله أن إحدى الأخوات الملتزمات ستتكفل بنهيها بالنيابة عنه، فمن يتقِ الله ويصدق معه يكفِه الله الشر ويُدبّر الأمر من عنده. فالأولى أنك تترك مثل ذلك تجنبًا للأضرار التي يُتوقع حدوثها، وعندما تقع ستفوق قدر المصلحة.

ثم قد يتساءل امرؤ: كيف لنا أن نُميّز الحرام أو المتشابه عندما نجهل النص الشرعي أو الرأي الفقهي للعلماء حول المسألة، وذلك حتى نستطيع تجنب المريب؟ مبدئيًّا، ينبغي التنبيه أن

---

[1] صحيح مسلم 2996.

[2] سنن الدارمي 2420.

[3] تخريج الكشاف للزيلعي 136/3؛ قال: حديث غريب.

[4] الزهد لأبي داود 61.

الكلام الآتي يكون عندما يُفاجأ المرء بأمر أو موقف وعليه أن يتعامل فيه، فله أن يلجأ إلى المؤشرات التي سيأتي ذكرها. فلا يجوز له أن يتخذ هذه المؤشرات بديلًا عن استشارة أهل العلم إذا كان الموقف يتكرر، أو هناك سِعة من الوقت ليسأل عن الحُكم الشرعي، تحت ذريعة مثلًا "أستفتي قلبي" (أي بغير موضعها وتأويلها)، إذ قد يكون يقع في الحرام وهو لا يدري. ولن يكون عذره بالجهل مُبررًا آنذاك إذ كانت له فرص أن يتفقه، بل يكون آنذاك خادعًا لنفسه أو حتى ماكرًا مع الله.

ولنتداول الآن المؤشرات التي تعين المرء على تمييز المتشابهات، أو الأمر الذي يختلط فيه ما قد حرَّمه الله. يستطيع المرء أن يتعرف على المتشابه مبكرًا استدلالًا بحيائه، فإنه عادة ما يكون الحرام مُستنفرًا لحياء المؤمن، وذلك دل عليه قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ"[1]. ويزداد الأمر شبهة في أنه حرام خاصة عندما يريد أن يواري المرء ذلك الأمر عن كافة الناس، لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال "الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ"[2]. فتلك مؤشرات مفيدة، أي إذا لاحظت أن حياءك يعلو في أمر، وظل يتردد في صدرك مساءلتك لنفسك فيما تفعله من جهة السوء، وكرهت أن يعرفه الناس، فذاك إنذار، فتجَنَّبه حتى تتحرى وتُمحِّص في الأمر. وكن حذرًا، فالحرص والوقاية أفضل من أن تجد نفسك قد وقعت في مُحرمٍ ثم تبدأ في إصلاح التداعيات.

وفوق الحياء، قد وهب الله لنا فطرة سليمة تُوجِّهنا بعيدًا عن الشر، فنستنكر ونفر من السوء وإن لم نعهده من قبل. ومن المؤشرات هو العقل، فالمرء الفطن ينظر إلى الناس المجتمعين على هذا الأمر أو الموقف، أهم أهل التُقى أم أهل اللهو، فإن كان المنجذبين للأمر من أهل اللهو أو الفجور، فغالب الأمر أنه باطلٌ أو فيه من المُحرَّمات، إذ يُستبعد أن أهل الفجور سيجتمعون على أمر تقوى.

وفيما يتعلق بشعور الاحتكاك أو التردد الذي يصدر في القلب عندما يواجَه المرء بالمتشابه، فذلك واعظ القلب الذي يضعه الله في قلب كل مسلم بفضله تعالى ورحمته، والذي يكون زاجرًا عن الحرام والمتشابهات. فعندما يُقابل المرء أمرًا فيه من المحرمات وهو لا يدرك ذلك، فإن قلبه يرتاب في الإقبال عليه، وعقله يبدأ يحترس.

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "ضربَ اللهُ تعالى مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جنْبَتَيِ الصراطِ سورانِ فيهما أبوابٌ مُفَتَّحَةٌ، وعلَى الأبوابِ ستورٌ مُرْخَاةٌ، وعلى بابِ الصراطِ داعٍ يقولُ: يا أيُّها الناسُ ادخلوا الصراطَ جميعًا ولَا تَتَعَوَّجوا؛ وداعٍ يدعُو مِنْ فَوْقِ الصراطِ، فإذا أرادَ الإنسانُ أنْ يفتحَ شيئًا مِنْ تِلْكَ الأبوابِ قال: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ، فإِنَّكَ إنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ. فالصراطُ: الإسلامُ، والسُّورانِ: حدودُ اللهِ، والأبوابُ الْمُفَتَّحَةُ: محارمُ اللهِ تعالى، وذلِكَ الدَّاعِي على رأسِ الصراطِ: كتابُ اللهِ، والداعي مِنْ

[1] صحيح البخاري 3225.

[2] صحيح مسلم 4632.

فوقٍ: واعظُ اللهِ في قلْبِ كُلِّ مسلِمٍ"[1]. سُتُورٌ هي جمع ستارة، وهي القماشة التي يُستر بها ما وراء المدخل؛ تَتَعَوَّجوا أي تنحرفوا وتميلوا عن الصراط؛ تَلِجْهُ أي تدخله.

فالصراط المستقيم هو الإسلام، وهو الطريق إلى الله، والتفريعات التي تتشعب منه هي سُبل تُحوِّل مسار المرء من الصراط إلى التفرقة والتيه والضلال والهلاك، فينبغي أن يجاهد المرء منا نفسه عن دخول تلك الأبواب. ولا يتهاون أحدنا بدخول إحدى تلك الأبواب ويقول لنفسه مثلًا: سأدخل سريعًا وأخرج، لأنه إذا دخل إحدى تلك الأبواب فلا يدري متى سيرجع منه إلى الصراط المستقيم، إن لم يفتنه الله لتهاونه فلم يخرج قط من ذلك الباب أصلًا.

وعلى هذا الأساس، فإن القلب السليم عند المُسلم الصادق يُمكن أن يُستفتى في المواقف المُفاجئة، كما دل حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما جاءه صحابي اسمه وَابِصَة (رضي الله عنه) يريد أن يعرف منه عن كل برٍ وإثمٍ. فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ (صلى الله عليه وسلم) فَضَرَبَ بِهَا صَدْرَهُ وَقَالَ "اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ (ثَلَاثًا)؛ الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ"[2]. ولننتبه إلى جملة "وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ"، أي وإن أفتى لك الناس –أو حتى فقيهٌ كما في رواية أخرى "الْبِرُّ مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ"[3]– تكرارًا بأنه حلال وهو خلاف ما تشعر به، فتركه يكون أولى إذ قد يكون العالم جاهلًا بحديثٍ مثلًا أو يبيع دينه ليشتري الدنيا. وهذا يتجلى لنا خاصة عندما يلتف المبطلون حول أمر سوء ويفتون الناس أنه ليس بحرام، وذلك لإتمامه أو ليزداد عددهم.

للحُكماء المُبصِرين مبدأ عام يتعلق بهذه القضية، نستطيع أن نتخذه مؤشرًا آخر عند مسألة مفاجئة أو تفصيلية تحتاج إلى التعامل الفوري، حينما لا يعلم المرء كيف يتصرف فيها. نصيحتهم ومبدؤهم هو: الهوى عدو العقل، فإذا عرض لك أمران ولم يحضرك من تشاوره فاجتنب أقربهما إلى هواك.

وختامًا لهذا الباب، يجب أن نُدرك أن هذا هو أسلوب الشيطان والنفس في التحايل على المرء للوقوع في المعصية، تبدأ سلسلة الخطوات بترديد فكرة المعصية في العقل إلى أن يتفكر فيها المرء، ثم التفكير في الإقبال عليها، ثم التقرب منها (دون الوقوع فيها)، مثل التآلف مع الناس الذين يرتكبون تلك المعصية)، ثم التفكر في العقبات التي يحتاج تخطيها ليرتكب المعصية. ومن هنالك

---

[1] صحيح الجامع للألباني 3887.

[2] سنن الدارمي 2421، ورواه أحمد في مسنده، والحديث منقطع ولكن حسنه النووي والمنذري والشوكاني، وحسنه الألباني لغيره في "صحيح الترغيب" 1734.

[3] مسند أحمد 17076.

يُسهِّل الطريق أكثر وأكثر على الشيطان، إذ يقول للمرء: قد اقتربت من المعصية وبذلت مجهودًا، لذلك فأقبل عليها فإنه لا يُحيل بينك وبينها إلا خطوة، وهي ليست بدرجة القبح التي تظنها.

ولا يزال يُزينها ويُلح على المرء حتى يقع فيها، ثم بعد أن يقع فيها المرء يؤزه كي يُرتب للمرة القادمة التي سيرتكبها ثانية، فيجعله يُهيئ الزمان والمكان للمرة التالية! حينئذ تكون المعصية قد بدأت تتثبت في نفس المرء وتتشابك مع نسيج قلبه ويتشابك هو معها، ولا يزال يزداد الأمر تفاقمًا ويرتبط المرء بالمعصية أكثر فأكثر ما دام هو ماكثًا عليها ويُكررها. فسبحان الله على ضعف الإنسان أمام فخ الشيطان والنفس. فالأسهل والأحوط هو ترك المريب مبكرًا ووضع مسافات وحواجز احتياطية بينك وبينه، وذلك أثمر في تفادي المعصية. وللسيدة عائشة (رضي الله عنها) نظرة غاية في الحكمة حول هذه القضية، أوصت بها عندما سُئلت عن أكل الصيد للمُحْرِم، فقالت: إنما هي أيام قلائل، فما رابك فدَعه[1] (أي إنما الحياة أيامٌ قليلة توشك على النفاد، لا تستحق أن تُقبِل على المُريب حتى، فضلا عن الإقبال على الحرام. الواقعة على أساس أن الناس اختلفوا في إباحة أكل الصيد للمُحرِم إذا لم يَصطَد هو).

## الاستعاذة بالله والقضاء على وساوس واستعدادات المعصية في بوادرها

إن مقاومة مقدمات المعصية أسهل من اعتراض المعصية نفسها بعدما تحرك المرء لارتكابها أو في أثناء ارتكابها. وهناك جانبان لهذه القضية، وهما: مقاومة وساوس ارتكاب معصية، ومقاومة التجهيزات الملموسة استعدادًا لارتكاب المعصية. للتوضيح بمثال، قد يخطر على بال رجل أن يسرق مال شخصٍ ما، وهذه الخاطرة قد تمر عابرةً على العقل، فهذه الوسوسة هي جذور المعصية التي يُنصح التصدي لها وانتقادها كي لا تعود أو تكبر في العقل.

فإن لم تُقاوم هذه الخاطرة، تنمو وتتطور بأن تتردد إلى ذهنه أكثر وتتزين له، حتى يبدأ المرء في التفكر في العقبات من ارتكابها وكيف يتجاوزها. ومن ذلك أنه يُقنع نفسه أنه يستطيع فعلها، أو أن ما سيفعله له مُبرراته، أو أن ما سيفعله ليس بالأمر الغاية في السوء. ثم يبدأ في وضع مخطط لارتكاب المعصية. حتى الآن، فإن هذا كله في جانب واحد، وهو تحدُّث المرء بينه وبين نفسه دون أن يصدر منه أمور ظاهرة. وبالرغم من خطورة حديث النفس هذا، فإن الله لا يؤاخذ العبد به رحمةً ورأفةً بنا، كما أشار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ بِهِ"[2].

---

[1] جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي 95.

[2] صحيح مسلم 182.

فإذا تمادى فهنا يأتي الجانب الآخر، وهو الانتقال إلى الاستعدادت الملموسة لسرقة ذاك الشخص، مثل مراقبة انتقالاته ومنزله، والتحري عن مكان ماله وكيفية الوصول إليه، وتجهيز أدوات السرقة. وهنا يُكتب عليه من السيئات على أفعاله بناء على نِيَّته منها، بل ويُحسب عليه حديث نفسه أيضًا لأن ذلك أدَّى إلى أعمال ظاهرة، وهذا من باب العدل –وربما المكر أيضًا–، من الله. ويؤيد هذه النقطة، أنه آنذاك يُؤاخَذ على ما سبق من حديث النفس الخبيث، حديثا للرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما سُئل: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ فقال "مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ"[1]. فمن انصلح بعد الإسلام غُفر له ما صدر مِن قبل، وأما من ساءت نيَّته وأساء عمله بعد الإسلام فإن الله يُجازيه بأن يحسب عليه ما كان قبل الإسلام أيضًا. وهذا جزاءً وفاقًا لتصرفات العبد ومُستَحَقّ، إذ إنه لو كان وُلِد مُسلمًا لكان يسيء العمل منذ البداية، فإنه لم ينصلح لله بعد إسلامه.

كل هذا وهو لم يقع في المعصية المُستهدفة بعد، فإن زجر نفسه هنا وانتهى فلم يسرق، يُرجى له في عفو الله عن استعداداته أيضًا، إذ يغلب نيل عفو الله عما أقدم عليه من استعدادات للمعصية نظرًا لنهيه نفسه عن السرقة. أي أن استعدادته المبنية على نيَّته السيئة يُعفى عنها برحمة الله، بل ويؤجر بالحَسَنة على مجاهدة نفسه عن المعصية لله بكرم الله.

إن الرغبات السيئة لا تُحسب على المرء إلا إذا تمثلت في صورة فعل معصية، فإن قاومها فإن له أجرًا، وهذا استدلالًا بجزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ وَاحِدَةً أَوْ يَمْحُوهَا"[2] (كُتِبَتْ وَاحِدَةً أي سيئةً واحدة؛ أَوْ يَمْحُوهَا أي يغفرها الله إن شاء). وهذا ينطبق على الممتنع عن المعصية إراديًا، وليس على من مُنِع عن ارتكاب المعصية مع مُحاولته، فهذا له شأن آخر بحسب مكانته عند الله.

وعلى هذا المبدأ ينطبق الحال في تسلسل المعاصي أيضًا، كإطلاق البصر مثلًا. إن لم يُقاومه المرء وتحقق إطلاق البصر على ما لا يحل له، ثارت شهوته حتى قد تُفضي به إلى الزنا في نهاية المطاف. فمقاومة شهوة النظرة أسهل من مقاومة الوساوس والشهوات المترتبة على النظرة، مثل الرغبة في الاختلاط والزنا. فكمبدأ عام، ينصحنا الشيخ ابن القيم (رحمه الله) قائلًا: دَافع الخطرة، فَإِن لم تفعل صَارَت فكرة، فدافع الفكرة، فان لم تفعل صَارَت شَهْوَة، فحاربها، فَإِن لم تفعل صَارَت عَزِيمَة وهِمَّة، فَإِن لم تدافعها صَارَت فعلًا، فَإِن لم تتداركه بضدّه صَار عَادَة فيصعب عَلَيْك الانْتِقَال

[1] صحيح البخاري 6410 .

[2] سنن الدارمي 2667.

عنها[1]. ثم إذا اعتاد المرء معصية ما، تبدأ دائرة الأحداث ثانية مع معصية أخرى، ويسهل عليه الانتقال إليها.

حول قضية هذا الفصل، إن الله قد أنعم علينا بسلاحٍ نستخدمه ضد وساوس الشيطان، ألا وهو ما أرشد إليه رسوله (صلى الله عليه وسلم) {وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فصلت 36]. هذه نصيحة غالية، وفيها وقاية من مكايد الشيطان، خاصةً إذا غمرت وأجهدت المرء وسواس الشيطان. ذلك لأن الشيطان عندما يوسوس للإنسان (وقد يضعف الإنسان للوساوس لأنه لا يستطيع منعها نهائيًا)، يكون الحل الجذري هو الاستعاذة بربه ورب الشيطان منه. وبذلك يكون قد سد العبد على الشيطان الباب، إذ إنه لا يتم أمر من الشيطان إلا إذا تركه الله كما دلت عموم الآية {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة 102، جزء من الآية].

فما عليك إلا أن تطلب من الله عونه وعصمته كي يعطيك إياها، وحينئذ يتبقى عليك مجاهدة هواك لترك المعصية، فهل أنت ستنتهي في مكانك آنذاك؟ واعلم أن الله يُعين من يصدق في جهاد نفسه إذ إنه تعالى وعد بذلك {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت 69].

ولعل الاستعاذة بالله من ضمن الأسباب المُجلبة لكثرة الرزق أو البركة في الرزق، لأن الاستعاذة بالله تُحد من وقوع العبد في المعاصي. ومعلوم أن المعصية تمنع الرزق، فمن ثمَّ إن الحد من المعاصي يحد من منع الرزق. وذلك مبني على حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ""لَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ، وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِخَطِيئَةٍ يَعْمَلُهَا"[2].

## عدم تجاهل الإنذارات والعقبات التي تظهر للمرء قبل المعصية

من رحمة ورأفة الله بنا عامةً، أن العبد إذا شَرَع في ارتكاب معصية ما، فإن الله يرسل إليه إنذارات وعقبات، وذلك بناء على قاعدة وضعها الله {وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [النحل 9]. فقد وهب الله لعبده الحق في أن يُبيّن له الحق من الباطل، حتى يكون العدل مُتحققًا عندما يُحاسبه على ارتكاب الباطل، وهذا من نعمة الله الفائضة وكرمه البالغ.

أما الإنذارات، فتكون في صورة شواهد أو أحداث غريبة، مثل أن يرى أحدًا من الناس حوله يتصرف تصرفًا يزعجه أو يُسبب له المتاعب. فقد يرى رجلًا يجهر بمعصية أو تصرفٍ مُنكر في مكان

---

[1] الفوائد لابن القيم 30/1.

[2] سنن ابن ماجه 87.

عام، أو يرى سلوكًا شاذًّا لم يعهده من قبل من دابته أو زوجته أو ابنه، أو أن عاملًا عنده يُخالف أوامره. وقد تظهر الإنذارات بطريقة أخرى، مثل سارق مُستعد وسيبدأ في السرقة يجد شرطيًّا يمر قريبًا منه، ومثل هذا الأمر الغريب ليس صدفة إذ إن احتمالية حدوث هذا قد تكون ضئيلة جدًّا، فإنما هو إنذار واضح ومُقدَّر من الله. أما العقبات، فيحدث معه ما يُعيقه عن ارتكاب المعصية، مثل أن يُصاب ببلاء فيشغله عن المعصية، أو تضيع عنه أداة من الأدوات التي يحتاج إليها ليرتكب المعصية، أو يقطع عليه شخصٌ ترتيباته واستعداداته في ارتكاب المعصية.

فإن تجاهل العبد تلك الإنذارات، وسعى في تخطي تلك العقبات، يُخلّي اللهُ بين العبد وبين المعصية بناءً على إصرار العبد وعناده، فيقع العبد في المعصية وتُكتب عليه. ولذلك ينبغي للعبد الصالح أن يرقب ويلاحظ تلك الظواهر، ويتَّعظ بها، فإنها هدايا ورحمة من الله فليقبلها، حتى لا يكون هو الخاسر.

## عدم تجاهل العظات التي ترد على خاطر المرء قبل أو في أثناء المعصية مع إخماد صراخ الضمير

الباب السابق كان يتكلم عن الإنذارات والعقبات التي تظهر للمرء عندما يُقبِل على المعصية، أما هذا الباب فيتكلم عن العظات التي ترد داخليًّا في المرء، أي في قلبه وعقله. في بعض الأحيان عند المعصية، قد يجد المرء نفسه يتناسى العظات ويُغرق صراخ ضميره ويمتنع عن التفكير في ما قد يُنَغِّص عليه متعة المعصية، مثل ما ورد في القرآن والسنة عن أفضال ترك المعصية والتحذير من عواقب المعصية، أو مثل إدراك أنه سيؤذي أحدًا بعينه عند المعصية. فأما تناسي العلم الذي يزجر عن المعصية فهذا شيء خطير، لأن الله قد يذهب بهذا العلم من العاصي من باب الجزاء من جنس العمل. وأما إغراق نداء الضمير فيجب أن نعلم أن الضمير قد لا يُسمع ولكن له تأثير إن أُسكِت، وهو الشعور بوحشة في القلب وضيق في النفس والسخط على النعم وعدم الرضا في الحياة، وهذا يؤدي إلى الحزن والاكتئاب والاضطراب (لأن النفس والجسد يختلفان).

وأما الرغبة في عدم تنغيص متعة المعصية على نفسي فإن ذلك يزيل الحواجز التي بين المعصية والقلب، فتقع في القلب خالصةً حتى يحبها القلب، فلا ينكرها بعد ذلك من شدة الحب. وذلك حتى يصبح القلب كما جاء في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ"[1] (نُكِتَ أي به أثر أو

---

[1] صحيح مسلم 207.

نقطة؛ مُربَادًّا أي سواد يخالطه بعض البياض؛ كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا أي مائلًا ومنكوسًا)، فاللهم إنا نعوذ بك من أن تَسوَدّ قلوبنا.

فعدم تجاهل ما يتذكره المرء من عظات، وعدم إخماد ضميره، وعدم تمكين المعصية من القلب كلها أمور ثقيلة على النفس ولكنها تساعد في الإعراض والإقلاع عن المعصية. والخطورة هي أن على الوجه الآخر، تفريط العبد في هذه العوامل قد يؤدي إلى زوالها نتيجة نزع الله لتلك النعم من العبد، فيزداد وضع العبد سُوءًا في مواجهة المعصية.

## التخلص من متعلقات المعصية التي وُقع فيها كي لا يسهل تكرارها

إذا ضعفت لحظات وعصيت الله، اجعل لحظة معصيتك تلك مقصورة على تلك اللحظة فحسب واعزلها. بمعنى، إذا عصيت ربك فلا يحملنك ضعفك على أخذ قرار أو فعل شيء يفرش لك بطانة ضعف في لحظة مستقبلية للوقوع في المعصية. أمثلة على ذلك مثل من شرب الخمر، قد اشترى بعض الخمر وشرب منه ولكن تبقى منه، فوجب ألا يحتفظ بما تبقى حتى لا يشربه في وقت لاحق. ذلك لأن وجود الخمر يُسهِّل فعلة الشرب، فيجعل المرء يضعف أمامه عندما يراه في المستقبل (مثل عدم الرغبة في سكبه بذريعة أن هذا هدر، أو أنها كمية قليلة فلن تؤثر فيه سلبًا، أو بتذكر أوقات مرحه وهو سكران)، فيشربه مجددًا.

مثالٌ آخر على ذلك من تشاجر مع شخص آخر، ثم في لحظة غضبه تَوَعَّدَ لخصمه علنًا وأمام الناس أنه سينتقم منه، حتى إذا انصرف كل واحد منهما وهدأ غضب المُتوعد، قد لا يحمله على الانتقام من خصمه إلا بسبب أنه توعد فعل ذلك. قد يرى أن كلمته ألزمته الانتقام وإن لم يعد يُرد ذلك، لئلا يفقد سمعته واعتبار الناس له فيكون مظهره ضعيفًا أمامهم وأمام خصمه. وهناك أيضًا من ارتكب معصية مع صاحب سوء ولكن قبل أن يتركوها اتفقوا على أن يكرروها في وقت لاحق، فذلك أدعى أن يقع فيها ثانية، أو كالذي يحتفظ بصورٍ تثير شهوته فتحمله على الزنا.

والحل الجذري هو أن يتخلص مما عنده من متعلقات المعصية، لأنها تُذكره بالمعصية، وتضعفه حين تأتي لحظة إلحاح النفس بالتنفيذ في المستقبل. فليتخلص من آثار المعصية المتمثلة في الأشياء الملموسة وغير الملموسة (مثل إعجاب القلب بها، أو النية على تكرارها). فوجب في الأمثلة السابقة التخلص من الخمر، والعزيمة على نقض العهد على إضرار أخيه المسلم الذي اشتبك معه. وينبغي قطع صلته بصديق السوء، فليكلمه ويلغي ذلك في اللحظة الحالية وهو في قوة إذا أَمِن من الافتتان بكلامه وانتقاداته وإلحاحه، أو حتى يتجاهله إذا خشي من أن يُفتتن برفيقه، ولا يؤجلها حتى تتراكم العقبات للتهرب من المعصية فيقع فيها ثانية. وليتخلص المرء مما يحتفظ به من صورٍ

وأمتعة تُذكِّره بالمرأة التي زنا معها كيلا تُثار شهوة فرجه، فيسهل عليه الانفصال عنها إذ تبدأ تكون كالغريبة له. الهدف هو أن يضع المرء حواجز كبيرة وكثيرة بينه وبين المعصية القادمة.

والحقيقة الواقعية هي أنك لا تستطيع أن تثق بنفسك وبقراراتك في أثناء المعصية أو على مشارفها. ومن الأدلة على ذلك هو أن بعدما يرتكب المرء عملًا سيئًا يندم على أفعال أقبل عليها وقرارات اتَّخذها، فيتساءل مع نفسه: كيف لي أن أفعل كذا؟! أو: لماذا فعلت كذا بدلًا من كذا وكذا؟!

وعلى هذا الأساس، كثيرًا ما تأخذ النفس قرارات تضع بها بوادر الفخ للمرء وتهيئ المناخ لمعصية المرة القادمة، فَتُوَرِّطُك نفسك في المعصية القادمة وهي ما زالت في المعصية الحالية. وكلما تخلصت من متعلقات المعصية الماضية تقلصت احتمالية الوقوع فيها لأنها قد لا تتكرر في بالك كثيرًا. إضافة إلى ذلك، إنك عندما تعزم على التوبة فإن عدم وجود متعلقات المعصية لا تَرُدَّك إلى ذكريات تمتعك بها تفصيليًّا، مما يثير رغبتك. إن لم تحِن للمعصية فإن ذلك يخفف عنك تركها فعلًا، ويجعل الأمر أسهل عليك.

وفوق ذلك كله أن التخلص من المتعلقات قد تُحبَط عزيمة المرء في تكرار المعصية، لأن معاودة المعصية تكون أصعب لأنها تحتاج إلى تجميع متعلقات المعصية ثانيةً قبل ارتكابها. فمثلًا، أن شارب الخمر يحتاج إلى المال لشراء الخمر من جديد، أو المُطلِق لبصره يحتاج إلى جمع الصُوَر المُحرَّمَة من جديد. أي أن كلما زدت من الإجراءات التي تحتاجها لارتكاب المعصية، زادت فرصة أن يتدخل وازعك الديني وضميرك في مرحلة من المراحل فتُعرض عن المعصية، ولأن إعداد هذه المتعلقات، التي لا تتم المعصية إلا بها، تكون في هذه الحالة بمنزلة عقبات وتُمثِّل مَشَقَّة.

هذا بالإضافة أن المرء قد يمل بمنتهى البساطة بسبب تعقيد الإجراءات فينتهي. لو أن كل مدخنٍ اشترى علبة سجائر ثم شرب فقط سيجارة واحدة ثم ألقى العلبة بكل ما تبقى فيها، هل سيطيق أن يشتري علبة كلما أراد أن يُدخن؟ قطعًا سيُقلِّص هذا الإجراء من عصيانه لله ولو فقط لمرة واحدة، بل قد يُعينه الله عونًا فائقًا لصِدقه وإخلاصه في رغبته الاستبراء من عصيان الله، فيجد نفسه أقلع عن المعصية تمامًا بسلاسة أكثر مما كان يتخيل.

### هجر الأماكن التي تثير رغبة المرء في معصية ما

هذه النقطة مرتبطة في المبدأ مع الباب الذي سبق، فالباب السابق تداول قضية التخلص من متعلقات المعصية، وهذا الفصل يتداول قضية التخلص من الأماكن التي تُذكِّر العبد بالمعصية. ربما كان هناك أماكن كان يعتادها المرء لارتكاب معصية مُحددة، مثل من كان يتردد إلى مقهى

للتدخين، ومن كان يذهب إلى ملهى فاخر ليشرب الخمر، ومن كان يذهب إلى مكان معزول في جبل ليتجرع المخدرات.

وقد يكون المكان له تأثير على المرء بطريقة أخرى، مثل أن المكان يكون مكتظًّا بأُناس يرتكبون معصية مُحددة، أو مُعَدًّا لمعصية مُحددة مثل صالة الميسر (القِمار)، فكثرة المُرتكبين للمعصية تضغط عليه أن يرتكبها مثلهم خاصة لو كانوا يُحثّونه عليها، ورؤيته لكثرة اقتحام حد الله تجعله يهون عنده فيتجرأ على تعديه. هل يُتوقع أن فردًا يذهب إلى صالة ميسر فقط ليأخذ مشروبًا هناك مثلًا؟ ماذا يفعل العبد الذي يريد تقوى الله هناك؟ إنه لا يتماشى مع ذلك المكان حتى! المُحصلة فيما يحدث هو أن هذه الأماكن ترتبط في عقله الباطن بتلك المعصية المُحددة، وكأن هذا المكان لهذه المعصية.

هنا ينبغي لمن يصدق في رغبته أن يتوب ويُقلع عن هذه المعصية ألا يرجع إلى هذا المكان ثانية، فليس من المنطق ولا الحكمة أن يذهب شارب الخمر إلى ذلك الملهى الفاخر فيكون مُحاطًا بأقرانه السُكارى، يُتداول فيه الخمر بسهولة، وترجع إليه ذكريات أوقات تَمَتُّعِه بالمعصية، ثم يتوقع أن يخرج سالمًا. إذا كان هذا المكان يُزَيّن لمن لم يشرب الخمر من قبل أن يشرب الخمر، فكيف بالإغراءات لمن كان يستلذ بشرب الخمر من قبل؟! هذا المكان أصبح يجعله يَحِنّ إلى تلك المعصية، ويُثير غرائزه، ويُعلي من نشوته وجُرَأته، فلا يصح رجوعه إلى ذلك المكان ولو كان فيه نشاطات أخرى مُباحة ممكن أن تُمارس (الأكل أو الترفيه). بل إن التائب الصادق الذي سلم قلبه يصبح يبغض تلك الأماكن لأنها تُذكِّره بأفعاله الشاذة وفترة حاله المتدني، ولشدة كرهه من أن يعود لما كان عليه من العصيان.

هذه الظاهرة لا يُستهان بها إذ لها أهمية وتأثير بالغ إلى درجة أن برامج مكافحة الإدمان أدركتها فتحُثّ أعضاءها على عدم ارتياد الأماكن المتعلقة بتعاطي المُخَدِّر، بل وتجعله قاعدة. وهذه البرامج أيضًا تحث أعضاءها هجر الرفقة المُتعلقة بتعاطي المُخدر، ولكن هذه النقطة متعلقة بباب: التخلي عن صديق السوء.

والأهم من هذا هو أن في الشريعة الإسلامية دليلًا على أن ترك أماكن المعصية ضروري للتمكن من ترك المعصية، فقد جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ: لا، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً. ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ: نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدْ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ

مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ وَقَالَتْ مَلائِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ؛ فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ"[1]. ففي عظة الفقيه "وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ" صميم ما نتكلم عنه.

## استيعاب من الذي أعصيه!

كلما أدرك المرء عن الله، فيما يتعلق بصفاته مثل عظمته وكرمه علينا ورأفته بنا وحبه لنا، كان مستنكرًا من أن يعصي الله. فينبغي للمرء أن يتعلم عن ربه كي يتعرف إلى الله فيكون أكثر ارتباطًا مع ربه، فالعبد الذي عرف ربه أقل عصيانًا له من الذي ربه غريبٌ عليه. وخوضًا في جانب من تلك الصفات، وهي عظمة الله، فقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ"[2].

هذا ليَعرف كلٌّ منا مكانته، فلا يظن أحدنا أنه فوق منزلة العبد لأي سبب، فإن الله هو الرب الخالق، ونحن العباد المخلوقون المأمورون المقهورون. لو استعظم الإنسان نفسه أو أكبر نفسه أو اغتر وافتخر بنفسه، كانت المعاصي أهون عليه لأنه يشعر أنها شيء صغير مقارنة بما قدَّمه للدنيا، وأن مُخالفة حُكم الله في هذا أمرٌ هَيِّنٌ، فيرتكبها بسهولة أكثر واستخفاف، ولا يلوم نفسه عليها فلا يستغفر الله ويتوب عنها. وأكبر وأشهر مثال على ذلك هو إبليس لعنة الله عليه، فإنه لم يكفر بوحدانية الله وصفاته العلى كما دلت الآية (قول ابليس لله بعد إذ أبى أن يسجد لآدم عليه السلام) {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص 82]، ولم يكفر بالملائكة إذ كان يسجد معهم.

وهو لم يُشرك بالله أيضًا (وإنما يُحث الناس على ذلك) كما جاء في قول الله {وَقَالَ الشّيْطَانُ لَمّا قُضِيَ الأمْرُ إِنّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ وَوَعَدتّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مّن سُلْطَانٍ إِلاّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوَاْ أَنفُسَكُمْ مّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيّ إِنّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنّ الظّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم 22]، وقوله تعالى {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الحشر 16]. ومع ذلك كله فإنه سيخلد في جهنم! لماذا إذًا مع أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؟؟؟

---

[1] صحيح مسلم 4967.

[2] سنن ابن ماجه 4165.

ذلك لأنه استكبر وتجبَّر واستعظم السجود لسيدنا آدم (عليه وسلم)، وأنكر حكم الله في أن البشر أفضل منه وجحد حق الله في وجوب طاعته، فعصى الخالق سبحانه وتعالى وتحدى أوامره وعاند حكمته (وهذا يختلف عن من يخطئ فيقع في المعصية ثم يندم ويتوب مع إقراره أنه أخطأ). ومعلومٌ أنه لم يتب كما تاب سيدنا آدم (عليه وسلم) عندما أكل من الشجرة، إضافة إلى ذلك فإنه كان داعيًا للكفر، ومن دعى لشيء فهو كفاعله وله نفس جزاء من اتَّبَعه. فخلاصة القضية هي أن عمله هو الذي قاده للخلود في النار.

فسبحان الله، إن إبليس تكبر على المخلوق فحادد الخالق ولم يتب، فاستوجب بفعلته تلك الخلود في النار! فالحذر الحذر من التكبر على المخلوقات، فإنه استكبارٌ غير مباشر على الخالق الذي خلقهم. وهل يعيب من عاب مخلوقًا إلا الخالق الذي اختار أن يخلق المخلوق في صورته تلك؟ فهل يُعيب المخلوق المستهزِء قدرة وحكمة خالقه فيما خلق، أم يُعيب المخلوق المستهزِء مخلوقًا آخر بما جبره الله عليه؟! فكيف يُعيب مخلوقٌ مخلوقًا ربهما واحد!؟! فبفعلته هذه، كفر إبليس بحكمة الله فيما يخلق، وبحق الله في أن تُطاع أوامره، فاستحق عقوبة الله وحكم الله فيه بقوله تعالى {قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنّ جَهَنّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مّوْفُورا} [الإسراء 63].

ولو أن إبليس كان قد قَبِل في نفسه أنه عبد لله كسائر المخلوقات، وسلَّم لحُكم الله وأيقن أن حكمة الله هي الحكمة المُتناهية، ما كان ليستعظم نفسه على عبدٍ آخر مخلوق مثله ولكنه في هيئة مختلفة. ومن هذا نستفيد عبرة أخرى لمن ظن أنه ناجٍ من النار لأنه نطق الشهادة ثم عصى الله كثيرًا، أو استكبر عن عبادة الله وعن ترك ما يُغضب الله. فحال مثل هذا هو كما قال الله تعالى {وَقَالَ رَبّكُمْ ادْعُونِيَ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنّ الّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنّمَ دَاخِرِينَ} [غافر 60]. وقد خشي الصحابة، وهم أفضل منا فيما قدَّموه من أعمالٍ فضلًا بالغًا، من أن يُبطَل عملهم الصالح بأعمالٍ أخرى سيئة، كما أنذر القرآن عن ذلك {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد 33].

فيجب عليَّ أن أعرف مقامي، أني عبد ليس إلا، ذليل وصغير إلى الله؛ أنه خلقني وهو غنيٌّ عني وأنا فقيرٌ إليه، دائم الحاجة الماسة إليه. وإني إذا أمعنت النظر في نفسي... فسأجد أني لا قيمة لي ولا ميزة فيَّ إلا أن يشاء الله، لأني عبد، وهناك عباد كثيرون مثلي، وكثيرون أفضل مني، وآخرون يظنون أنهم أفضل الناس وليس أحد مثلهم، ولكن جميعًا سيهلكون وسأهلك مثلهم سواء. ومهما بلغت في الدنيا من إنجازات واختراعات واكتشافات، فإني فانٍ وأُنسى، وكله من عطاء ربي فلا أغتر وأظن أني أنجزت ذلك بمهاراتي وحدها (دون الخوض في نقطة عمن الذي أعطاني مهاراتي في الأصل)، فلا قيمة لي ولإنجازاتي في تعمير الدنيا بعد زمن وإن طال هذا الزمن، لأن يوم القيامة يُدَمِّرُ كل شيء! إنما قيمة الإنسان الراسخة هي قيمة أعماله، وليست قيمة الماديات.

فلا قيمة لي فعلًا إلا إذا نظر إليَّ ربي يوم القيامة، فيُعِزّني ويكرمني ويجعل لي منزلة مرتفعة، وهذا التكريم والتعزيز يتجسد في أن يدخل الله عبده جنته، حينئذ فقط يكون المرء مُميَّزا وخاصًّا. فكل صفاتي ناقصة ومحدودة، وكل صفاته تعالى كاملة مُنَزَهَةٌ. متى ما أيقنت هذه النقاط واستقرت في قلبي حق الاستقرار، أُصبح منكسرًا لعظمة الله، خاضعًا لأمر الله، دائم الحاجة إليه وأن يكون معي، ومن ثمَّ قليل عصيانه.

وجانب آخر من صفات الله لنتفكر فيها هو حبه لنا ورأفته بنا وتودده وإرشاده لنا، كما يتجلى لنا في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال "يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُو، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ"[1].

هذا الحديث يشمل جوانب علاقة العبد بربه، ويجيب عن أسئلة حول موضوع المعصية، ويرد على كل حجة أحتج بها (سواء كانت من هوى نفسي أم من تسويل الشيطان) في أثناء المعصية، مع العلم أن معصية الله من الظلم لحق الله علينا. لننظر إلى غنى الله عنا، فهو لا يحتاج لنا في شيء، ولكنه يحب أن يُكرِم مخلوقاته فلذلك يكلمنا بلطف وإحسان. وهذا اللطف ليس لاحتياجه لنا (تعالى سبحانه عن ذلك)، بل شفقةً علينا ورحمةً ورأفةً بنا، إذ إنه يحب أن يرجع إليه عباده فيتوب عليهم ويغفر لهم ويدخلهم جنته.

وأخطأ من ظن أن الله لا يريد إدخال كل الناس الجنة، وإنما يحكم الله بالحق والعدل أن من عصاه وأفسد وأعرض عنه وآذى عباده لا ينبغي أن يتساوى مع الصالحين في الجزاء. فوجبت للمُفسد النار بما يناسب فساده، وإلا لفسد الناس جميعًا لو كان المفسد كالمصلح سواء في منزلة الآخرة. وهذه حكمة الله لا تسع عقولنا لاستيعاب كل جوانبها؛ ووالله هذا هو الحق، هذا هو الحق، هذا هو الحق... أن من يجد ما أُحصي له من عمل ليس خيرًا فلا يلومن إلا نفسه.

---

[1] صحيح مسلم 4674.

ويساعد على الإقلاع عن الذنب استحضار قوة الله وعظمته، واستحضار ما عنده من ثواب وعقاب. وعن ذلك جاء في تفسير الشعراوي (رحمه الله) لقول الله تعالى {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} [آل عمران 97]: ولماذا يقول الحق: إن على العبد المؤمن أن يحج البيت الحرام؟ لأنه الخالق، وهو خبير عليم بأن التكليف شاق على النفس، ولكن على المؤمن المكلف حين يجد تكليفًا شاقًّا عليه أن ينظر إلى الفائدة العائدة من هذا الحكم، فإن نظر إلى الفائدة من الحكم وجد أنها تعود عليه، ولذلك يسهل على العبد المؤمن أمر الطاعة. والذي لا يُقبل على الطاعة، ويهمل الجزاء عليها ويغفل عنه، تكون الطاعة شاقة عليه. والذي يُقبل على المعصية ويُهمل الجزاء عليها، تكون المعصية هيّنة عليه. ولكن الطائع لو استحضر غاية الطاعة لعلم أنها له لا عليه.

ولو أن العاصي استحضر العذاب على المعصية لعلم أنها عليه لا له؛ فالعاصي قد يحقق لنفسه شهوة، لكنها شهوة عاجلة، أمدها قصير، ولو استحضر العاصي العقوبة على المعصية وقت عملها ما أقدم على معصيته أبداً. ولكن الذين يرتكبون المعصية ينظرون إلى الشهوة الطارئة، ويعزلون جزاء المعصية عنها، ولو أنصفوا أنفسهم، لا يستحضرون العقاب على المعصية في وقت الرغبة في ارتكابها. وحين يستحضرون جزاء المعصية مع المعصية فإن شهوة المعصية تنتهي منهم، وأضرب هذا المثل دائمًا عن أعنف غرائز الإنسان وهي غريزة الجنس.

هب أن هناك واحدًا رأى فتاة جميلة ثم أراد أن ينالها نقول لهذا المتشرد جنسيًّا: استحضر العذاب على هذا العمل، وإن أخذت هذه الفتاة فتعال لنريك بعينيك ما أعده الله لك حين تتمتع بهذه الفتاة خارجًا عن شرع الله؛ وأوقد له فرنًا مسجورًا ومحمّيًا، وقُل له: في مثل هذا ستدخل بل وأشد منه إن نلت من الفتاة. أيقبل هذا المتشرد على ارتكاب تلك المعصية؟ لا؛ فشهوة المعصية تضيع عندما يستحضر العذاب عليها[1] (انتهى).

## معرفة أن الله، وهو من هو، يُمهلني ويصبر علي كي أُقلع عن عصياني له وأُنيب إليه

قال تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146) مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء 145-147]. الحمد لله الذي يترك أبواب رحمته مفتوحة حتى إن أعرض العبد عن ربه. فحقًّا إنه صبرٌ لا حدود له، وحلمٌ لا مثيل له، ومعاملة لا تليق إلا بالرب مع عباده؛ الذي يقابل الإساءة بالإحسان ما لم يبلغ العبد مرحلة أنه يُختم له، في قلبه أو حياته. وكفى تحفيزًا لنا أن الله هو الذي يقول إنه سيؤتي المؤمنين أجرًا عظيمًا، إذ إن الذي أعطى العهد هو الله الذي لا يُخلف عهده ولا يُخيّب ظن العبد في ربه.

---

[1] تفسير الشعراوي 1641/3.

أي عندما يقول الله "فَوْزًا" مثلًا، فلا شك أن العبد نفسه سيُقِر ويقتنع أنه فاز عندما يأخذ الجزاء، فسيعطي الله العبد ما ترضاه نفسه ويُقر عينه، بل وسيزيد على ذلك لأن الله هو الكريم. ولكن الله لم يقف فقط عند تبشيرنا بالفوز أو بنيل الجزاء والأجر، ولكن يزيد في التبشير، مثل في قوله "وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا". ذلك يشير إلى أن العبد سيتيقن أنه أخذ أكثر مما يرى أنه يستحقه في أدنى الأحوال، وبالتأكيد سيكون أكثر مما كان يتمناه. بل وأكثر فأكثر بأن يكون فوق ما يتخيله من جزاء، إلى حد أنه يكاد ألا يُصدِّق، كما دل قول الذي أعطاه الله مثل متاع الدنيا وضِعفه بعدما نجّاه من النار "أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟!"[1].

وفي موضع الآيات المسرودة، زاد الله هنا بقوله "عَظِيمًا". ومعلوم أن الكلمة تتناسب مع قائلها، فإن قلت أنا لأحدٍ إني سأعطيه أجرًا عظيمًا على أن يقضي لي عملًا، لكان عظيمًا بالنسبة إليَّ بحسب إمكانياتي المحدودة ورؤيتي القاصرة، وإذا قالها مَلِكٌ فإن الأجر سيكون أكبر. ولكن ليس مضمونًا أن يرى الغير أن الأجر عظيم، بل وربما يكون صاحب الحاجة كذابًا ولا ينوي الوفاء بعهده للأجير من الأساس. فما بالنا عندما يقول الله العظيم إن الأجر عظيم؟! فكل كلمة من الله لها وزنها البالغ، لأنها بمنزلة عهد، ومن رب الكون مالك الملك. ثم لنضع في بالنا أيضًا، أن كلمة مثل تلك لها نفس الأثر على الوجه الآخر، فعندما يقول تعالى {وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، {وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ}، {وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} {فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، ما بالنا بمدى ذلك العذاب؟

فالحمد لله على أن الله هو الله، وصفاته هي صفاته. ما يفعل الله بعذابنا... إن شكرنا وآمنا؟ هذه الآية فيها راحة شديدة وطمأنينة لمن يجتهد، ومن خلالها نرى عظمة الله وغناه عنا ورأفته بنا. الله أكبر من أن ينتفع بتعذيبنا ولو عصيناه بعض الشيء، ولكن تحقيق عدله يقتضي تنفيذ ذلك إذا كثرت معاصي عباده، وذلك كي لا تُفسد الأرض. أفلا أستحيي عن معصيته بعد أن بيَّن لي ربي مدى إحسانه إليَّ؟ كل ما هو مطلوب مني هو أن أتوب، وأكون صالحًا شاكرًا متمسكًا بدينه، مخلصًا له.

ومعلوم أن الله إذا أراد البطش بي في اللحظة التي أعصيه فيها تحديدًا، لوقعت عليَّ نقمته وعذابه لا محالة إذ إنه قبضني على خاتمة سوء، ومع هذا فإنه يصبر عليَّ. فبأي حق لي ءُأخر عليه اعتذاري له، وبأي قلب أتركه يترقب هذا مني؟

## معرفة أن الله، بالرغم من أنه يترقب توبتي ويُمهلني، فإنه غني عني تمامًا

يجب أن يُدرك المرء مدى هوانه عند الله إن شرد عن طاعته، وأنه ليس هناك عزيزٌ إلا من يُعَزُّ بالله، فينبغي أن أدرك مكاني بالنسبة إليه: أني إذا تماديت في معصيته أصبح بلا قيمة عنده

[1] صحيح مسلم 274.

وفي الكون. ويتبين لنا مدى الهوان الذي قد يصل إليه الفرد عند الله، وذلك إذا أشرك بالله، إذ إن الله يُخرج نفسه من دائرة المعبودين ويذر العبد وما يشرك بالله به. جاء عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ"[1]. هذا هو مدى غني الله عني إن فسقتُ، فهو العظيم الخالق الغني، لا يحتاج أن يعبده أحد. من عبَدَه أدخله في رحمته وأحبه وأعلى من قدره، ومن عصاه بالشرك يتركه مع ما أشرك به.

وقد يسأل السائل: كيف لمسلمٍ أن يُشرك بالله؟ فيجب إدراك أن هناك شركًا أصغر، مثل كون المرء عبدًا للمال أو زينة الحياة الدنيا كما جاء في حديث "تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ"[2]. ففئة من الناس قد يُطيعون ما يأمره به المال في جمعه (أي بأي وسلية، مثل الربا)، فوق ما أمر به الله من الطرق المباحة لجمعه مثل التجارة. ولكن هناك شرك أصغر آخر أخطر وهو الرياء، وفي ذلك يتبين كيف للمسلم أن يصبح هينًا ذليلًا عند لله فيتخلى عنه بسبب ذلك. فكما جاء في الحديث القدسي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ"، قَالُوا (الصحابة): وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ "الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً"[3].

فيجب أن يرسخ بداخلي حقيقة معنى أن الله غني عني، وبعدها لأسأل نفسي: فعلى أي أساس أعصيه؟ هل أنا واثق أن الله لن يعرض عني يوم القيامة؟ فمن أنا حتى يكون لي وزنٌ أو تميز عن سائر الناس؟ وماذا أكون عند الخالق؟ فإن فقري إلى الله بلغ أني أحتاج إليه كي أتنفس، بل لكي يعمل كل عضوٍ في جسدي دون توقف، إذ إنها تسير بأمر الله، بما في ذلك الدم الذي يجري في عروقي. فوق هذا، يحيا جسدي على موارد من مُلك الله، ما بين طعام وشراب وهواء.

هو الذي يُمسك وظائف جسدي لتستمر فلا أهلك، كما يُمسك السماوات والأرض من أن تزولا، فإن رفع يده عن شيء منها، ولو للحظة، لانهار لأن ذلك الكيان سيغرق في فوضى داخلية. بلغ عجزي إلى درجة أني أحتاج ربي أن يُجرِي جسدي لأتقوى على معصيته، إذ إني لا أستطيع إدارة جسدي الشخصي! فإذا شاء الله تركني، وحينئذ من الذي سيجعل الدم يجري في جسدي بعده؟ أم أني اتخذت على الله عهدًا أنه لن يتركني؟ لا إله إلا الله. فما مصدر التكبر والثقة الخادعة والغرور عندي، والذين يُمهِّدون الطريق لمعصية الله؟ وهل يعصي الله من يخاف أن يتركه الله يوم القيامة؟ إن مكثت على معصيته، أَيَعِزُّ على الله أن يُعذبني بعدما هانت عليَّ أوامره؟

---

[1] صحيح مسلم 5300.

[2] صحيح البخاري 5955.

[3] مسند أحمد 22523.

ونختم بسرد مَثَلٍ لأناس ظنوا أنهم أغنياء عن الله، إذ أعرضوا عن رسالات الله تَوَهُّما منهم أنهم في غنى عن ذلك كله. والنتيجة هي أنهم ضاعوا في الدنيا لأنهم انحرفوا عن سبيل المنفعة والسلامة لهم، وضاعوا في الآخرة لأنهم لن ينالوا الجنة ولهم جهنم بدلًا منها، ولأنهم سيُدركون مدى سفاهتهم وغفلتهم بالظن أنهم أغنياء عن الله، بينما كان الله هو الغني عنهم وعن إرسال الرُسُل إليهم منذ البداية. قال تعالى {ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [التغابن 6]، فأي حسرةِ تلك عندما يُدركون كم هو نفيسٌ ما فرَّطوا فيه؟

فهم جهلاء إذ ظنوا أنهم هم الأغنياء عن الإيمان بالله، ولكن مع إعراضهم عن الله كان الله أسرع في الاستغناء عنهم، قد خدعوا أنفسهم. ظنوا أنهم أعرضوا عن الإيمان بالله بإرادتهم بينما قد أعرض الله عنهم فساقهم إلى الانصراف عنه بالكفر، وما انصرافهم عن الله إلا نتيجة أن الله لا يريد تقريبهم منه –بسبب أن بدا منهم السوء في قلوبهم وأفعالهم– فزيَّن لهم الانصراف عنه. فإيانا والإعراض عن الله بمعصيته فيصرفنا عنه مُستقبلًا.

### ستر الله علي وأنا أعصيه مع إمهاله إياي كي أتوب، أذلك دون ثمن؟

قال تعالى {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} [الرحمن 26]. هذه الآية تشير إلى فناء كل من على الأرض عاجلًا أم آجلًا، وهذا نداء للإنسان للانتباه إلى حاله، لأن فناء الشيء يثير سؤالًا على فائدة الوجود. ولو تفكر الإنسان في ذلك لوجد أن ما دون العمل الصالح، الذي يُحفظ للمرء عند الله، يكون عملًا هباءً. فمهما بنى وطوّر الإنسان فليس له معنى إن كان سيُفنيه الله، والله لا يُفني العمل الصالح لأنه يُسجّل، وهذا من ثمَّ يدعو لمراجعة النية في العمل والهدف منه. فما فائدة المعصية إذا كانت لحظة هي تفنى ومرتكبُها يفنى، ولا يبقى منها إلا حمل المحاسبة عليها؟

ولكن العجيب في الأمر أن الله يصبر على العاصي، ولو شاء لقبض روح العاصي وهو يعصي، ولكنه يمهل العصاة الواحد تلو الآخر، ومرة تلو أُخرى، حتى قيام الساعة. وكما أن الإثابة المؤجلة تكون مُضاعفة لمن صبر على الطاعة جزاءً على إيمانه بما لم يُعاينه بحواسه، فكذلك يكون العذاب المؤجل مُضاعفًا لمن شاء الله أن يعذبه (ولكن ليس بنفس قدر التضاعف).

يكون جزاء الصابر أضعاف الذي بذله من جهد، لأنه آمن بكلام الله بشدة لدرجة أنه أسس عمله على ذلك الإيمان، بالرغم من أنه لم يُعاين الجنة أو النار بالنظر إليهما أو سماعهما أو دخولهما، ولكن تصديقًا بكلام الله أنهما موجودتان. فقد اختار مشقة مجاهدة شهوة النفس بدلًا من المتعة المُحرَّمة التي أمامه في الدنيا، وهذا بناء على خبرٍ بمكافاءةٍ آجلة بينما يُعاين المتعة المُحرَّمة

بين يديه في الدنيا مع يقين بما فيها من استمتاع فوري للنفس. وهذا يتلخص في قول سيدنا عيسى (عليه السلام): طوبى لِمن ترك شهوةً حاضرةً لِمَوعُودٍ غائبٍ لم يره[1].

وعلى هذا الأساس فإن العكس صحيح، أن من عصى الله بالرغم من الأدلة المنطقية القاطعة على أنه سيُحاسب عليهم قد يُضاعف له العذاب إذا شاء الله، لأن عليه وزر الاستخفاف بالمحاسبة أيضا ووزر أنه مُنِحَ من الوقت ما يكفي ليتشبع من المعصية ثُم يتوب، ومع ذلك لم يُقلع ولم يتُب. فصبر الله عليَّ له توابع، أن الجزاء يكون مُضاعفًا نظرًا لإمهاله. والدليل على ذلك هو أن صبغة في نار جهنم لا تجُبُّها كل متاع الدنيا.

ومبدأ أن العذاب قد يُضاعفه الله لأنه أمهل عباده كي يتوبوا، وهذه في حد ذاتها نعمة من الله وتُحسب كدَين على المرء فيستوجب لها الوفاء بالتوبة أو بقضاء الدين يوم القيامة، شبيه بمبدأ مضاعفة العذاب لمن يكفر بالله بعد واقعة المائدة ممن رأوها -أو أي معجزة مُحددة طلبها الناس بعينها من الله فحققها-. وتلك الواقعة ذُكرت في القرآن {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيدا لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ} [المائدة 114-115]، فكان توابع إنزال المائدة أن من رأى هذه المعجزة وأصرّ على الكفر يكون له عذاب لا يبلغه أحدٌ من العالمين.

وزيادةً في التوكيد على تلك النقطة جاء قول الله تعالى {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا} [الإسراء 59]، ومعنى الآية أن الله لا يُرسل بالمعجزات الدامغة التي طلبوها بعينها لأنه من يكفر بعد رؤيتها فإنه لا يُمهَل، بل يؤخذ بالعذاب الشديد المُعَجَّل، وضرب الله مثلًا في ذلك ما حدث مع قوم ثمود، فما إن رأوا المعجزة الدامغة إلا وظلموا بها! ففي الآية يقول الله أنه لا يُرسل بالآيات، التي حددوها كي يؤمنوا، لأنه قد كذَّبت الأمم السابقة بها فحق عليهم العذاب المهلك في الدنيا مُعجّلًا (مثل الثلاثة أيام لقوم ثمود بعدما عقروا الناقة)، فإن الله بحكمته أمسك عن تنزيل الآيات القاطعة رحمةً ورأفةً بالناس.

ودل على ذلك أيضًا الحديث القدسي الذي يرويه سيدنا ابن عباس (رضي الله عنه) قائلًا: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ الصَّفَا ذَهَبًا وَأَنْ يُنَحِّيَ الْجِبَالَ عَنْهُمْ فَيَزْدَرِعُوا، فَقِيلَ لَهُ "إِنْ شِئْتَ أَنْ تَسْتَأْنِيَ بِهِمْ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تُؤْتِيَهُمْ الَّذِي سَأَلُوا، فَإِنْ كَفَرُوا أُهْلِكُوا كَمَا أَهْلَكْتُ مَنْ قَبْلَهُمْ". قَالَ "لا، بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ"، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الآيَةَ {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ

[1] إحياء علوم الدين للغزالي 71/3. وقد روى مثله البيهقي في الشعب. وروى مثله ابن الجوزي في كتابه صفة الصفوة ولكن نسبها لبشر بن الحارث وليس لسيدنا عيسى عليه السلام.

بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً}[1] (فَيَزْدَرِعُوا أي يحرثوا ويزرعوا؛ تَسْتَأْنِيَ أي ترفق بهم بأن تصبر عليهم وتُمهلهم إلى أجلهم، لأن الكفر بعد البرهان بالآية يستوجب الإهلاك العاجل).

قال المفسرون إنها إذا نزلت الآية التي طلبوها ثم لم يؤمنوا فلن يُمهلوا، وأنه ليس هناك مناظرة بعد نزول الآية. وفي لفتة جانبية توضيحية، فإن انشقاق القمر كانت آية طلبها الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الله ولكن لم يطلبها المشركون منه (صلى الله عليه وسلم) بعينها، فقد طلبوا أن يريهم آية دون أن يُحددوا، فلما كفروا بها لم ينزل العذاب الفوري. ولكن إذا كانوا طلبوا آية بعينها ثم نزلت وكفروا، فإن ذلك يستلزم العذاب والهلاك.

وكذلك ما حدث للرسول (صلى الله عليه وسلم) فيما يروي "خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ لأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَكْفَى، أَتُرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ؟ لا، وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ"[2]. وقد أدرك الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن للاختيار الأول تابعة أنه لن يُسمح له بالشفاعة لأمته مقابل ذاك النصف، فاختار الشفاعة كي يُنقذ أكبر عدد من أمته ويُدخلهم الجنة، ولو بعد وهلة من العذاب بسبب ذنوبهم. والمقصود من ذِكر هذين المثالين هو أن لله مكرٌ وجب الحذر منه، وصبر الله عليَّ في المعصية مع تأجيل العقاب يدعو للريبة، فاحترس أيها العاصي، فإن إمهال الله لنا ليس بلا مقابل.

### استيعاب أني عندما أعصي الله، فإني أجعله يغار!

قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ"[3]. كلنا نعرف الغيرة، وتنشأ عندما يتم التعدي من الغير على شيءٍ يتميز بالخصوصية (مثل الدين أو الزوجة)، وإنه لشعورٌ بغيض. والله تعالى يغار عندما نعصيه بأن نأتي ما حَرَّمه علينا، لأن ما حَرَّمه علينا هو ملكه إذ إنه الخالق. وتم ضرب لنا المثل بمعصية مُحددة تثير غيرتنا لنستوعب ونتعايش المسألة، وذلك عندما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَرَى عَبْدَهُ أَوْ أَمَتَهُ تَزْنِي، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا"[4]. فكما أن المرء يغار من أن يرى أحدٌ من رَعيَّته قد لجأت إلى الزنى، فالله يغار أشد من ذلك.

---

[1] مسند أحمد 2217.

[2] سنن ابن ماجه 4301.

[3] صحيح مسلم 4959.

[4] صحيح البخاري 4820.

ولكن تعالى الله من أن تكون غيرته مثل غيرتنا لأنه ليس كمثله شيء سبحانه، فصفاته ليست كصفات خلقه، وإن أُطلق عليها نفس الأسماء، كالغيرة والغضب، فلا يعتريها النقص أو العلة أو السوء. إنما قصدت ذكر المثال أولًا كي نستشعر حقيقة الموقف، ولأُذكركم أن الغيرة إحساس كريه، وكل من استجلب هذا الشعور على المرء يكرهه المرء.

وبعد هذه النقطة التي أُثيرت، فلنستفيض في الحديث المذكور. إن الله خلقنا، ونحن عباده، وكل شيء حولنا هو خلقه أيضًا، فكيف لي (وأنا ضعيف هزيل، وما أنا إلا عبد من عباد الله الذين لا يُحصيهم إلا الله) أن أعصيه بأن أرتكب شيئًا هو حرمه عليَّ في شيء هو خلقه؟! فهذا تعدٍ من عدة مستويات، وأول تعدٍ أني عصيت ربي وهو خالقي ورازقي وقد نهاني عن هذا، ولولا أنه خلقني لما كنت شيئًا. فعدم طاعتي له تعدي إذ إني شردت عن أوامره بالرغم من أنه يملكني.

أما التعديان التاليان فهما أن المعصية عادة ما تستوجب شيئًا يُستعمل للمعصية، وربما أيضًا مفعولًا به. فمعصيتي له تعدٍ آخر مني إذ أتطاول على سائر مُلكه. ومثلًا، إن ارتكب أحد ذنب من الذنوب كالسرقة، فإنه يستخدم يده وعقله وعينيه وجوارح أخرى في غير الموضع الذي خصصه الله لهن؛ قد استخدم نعم الله عليه في عصيان الله.

والسارق أيضًا يحتاج إلى أدوات كي يسرق بها، كمفتاح أو أدوات لخرق الخزنة. فالأدوات المُستخدَمة يكون قد استعملها في غير مقصدها، ولا يحق له أن يستعملها هكذا لأن هذه الأدوات أصل معدنها من صنع الله. فإنه بالغصب قد استعمل شيء خلقه الله في معصية الله، ولم يخلق الله شيئًا ليُستعمل في معصيته أو ليعصيه! وأقول إن العاصي قد استعمل تلك الأدوات بالغصب لأن تلك الأدوات لا تريد أن تعصي الله، ولكن العاصي أجبرها على ذلك بجعلها طرفًا في معصية الله. والدليل على أن الأدوات تفقه وأنها من عباد الله هو قوله تعالى {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ}، وأنها تشهد على الإنسان يوم القيامة.

أما المفعول به فهو المسروق، وكما أن الله لم يخلق شيئًا ليُستخدم في معصيته، فإنه لم يخلق أحدًا كي يُظلم أيضًا. فالسارق قد آذى عبدًا قد خلقه الله، وبما أن ذاك الشخص مِلكٌ لله فلا يحق لأحدٍ أن يتصرف فيه دون إذن الله، وقد بيَّن لنا الله الذي لا يرضى به مما يأذن به في التعامل مع عباده (الحلال والحرام، أي ما يراه الله مباح وما يراه مؤذيًا فيما يُفعل في عباده). فالواقع عندما أعصي ربي هو أني أتعدى بمُلكه (أنا) على مُلكه (ما هو حولي).

ولكن واقع الحال أننا نظلم أنفسنا ونظلم بعضنا. والجدير بالذكر أن الله قد حرم الظلم على نفسه، وأن الله بهذا لم، ولن، يظلم أبدًا؛ حتى والعبد الظالم واقفٌ بين يديه ليس بينه وبين الله واقٍ أو مُنجٍ، يُحاسَب على عصيانه وفُجوره وقتله المسلمين ومُحاربته الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم).

وحرَّم علينا الظلم، ولكن نحن ظلمنا وسنظلم، فالحمد لله الذي يعاملنا بما هو أهله ولا يعاملنا بما نحن أهله، ثم الحمد لله ولكنه لا يكفي حمده.

إن الله لا يرضى أن يستغل أحدٌ قوته التي وهبها إياه على عبدٍ آخر قهرًا، فإن الله يغضب لعبده المظلوم. والله يبغض الظلم لدرجة أنه يُعين المظلوم بطريقة خاصة حتى ينتصر المظلوم المستضعف على الظالم المُقهِر المُتَجبّر عاجلًا أم آجلًا. وقد بلغ المظلوم منزلة عند الله مستوى المقبول دعاءه على ظالمه لا محالة، ولو كان المظلوم مُشركًا والظالم مُؤمنًا، كما وعد الله عز وجل على لسان الرسول (صلى الله عليه وسلم) "ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَالإِمَامُ الْعَادِلُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللَّهُ فَوْقَ الْغَمَامِ وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ"[1].

فالمظلوم معه الله، وأما الظالم فقد تخلى عنه الله، بل وينتقم الله منه لأنه آذى مخلوقًا من مخلوقاته، فيصبح مُعَرَّضًا أن يصيبه أي شيء! قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ، مِنْ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ"[2] (الْبَغْيِ هو التعدي والظلم). فأين الضمان للظالم حتى ينام وهو مطمئن البال؟ أين وقد تركه الحفيظ، وقد لا يُمنع أي شيء من أن يصيبه! فقد تخلى الله عنه، ومن تخلى عنه الله فأين الأمل له وأنَّى النجاة له؟

والداهية الكبرى تكون عندما يجتمعان تخلي الله عن الظالم مع مكر الله به أيضًا! اللهم إنا نعوذ بك من أن تتخلى عنا، ونعوذ بك من مكرك، ونعوذ بك من أن نظلم عبدًا من عبادك، وإن ظلمنا أحدًا فبيِّن لنا خطأنا وأعنا على التصحيح، أو اقض عنا لهم بالخير في الدنيا دون أن تمكر بنا، ونعوذ بك من دعوة المظلوم. ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

وتلخيصًا، إن العاصي يستخدم شيئًا في غير مقصده لإتمام معصية على ضحية، وهذان تعديان على حق الله، بل وتعدٍّ على حق العباد أيضًا لأن هناك ضحية في المعصية، وذلك هو الافتراء البالغ من العاصي. أما التعدي الثالث هو أني أستخدم نفسي وجسدي فيما حرَّمه الله؛ أعصي الله لإرضاء شهوة أو غاية لديَّ، وإن كان في هذا مُخالفةٌ لربي. حينئذ أكون قد فضلت هذا الشيء الذي أريد نيله على طاعة الله، وفيه لم أُراعِ حكم الله، وكان كل اعتباري لما أريده أنا فحسب، فنظرت إلى رغبتي ولم أنظر إلى إرادة الله. ويوضع فوق ذلك كله أن العاصي يُضعف الأمة الإسلامية ويُضعف تمكين الإسلام في الأرض بأكلها من الداخل، فكيف لا يغار الله على عباده والإسلام ونحن نغار أن يُمس ديننا بسوء خاصة من غير المسلمين.

---

[1] سنن الترمذي 3522.

[2] سنن الترمذي 2435.

فكل تلك أسبابٌ تجعل الله يغار عندما آتي بمعصية. فكيف أتجرأ أنا، العبد الصغير الفقير الذليل، أن أجعل الله العظيم الجليل يغار! كيف لي أن أفعل ذلك، وبأي حق؟ ألا أستحيي من أن أفعل هذا؟ حقٌ على العبد أن يخجل من نفسه عندما يتذكر أنه قد جعل الله يغار بعد معصية ارتكبها.

أما على الوجه الآخر، فهناك عبادٌ لله يُعَظِّمون حدود الله فلا ينتهكونها، فإن انتهاك حدود الله لأحدهم أشد كرهًا من البلاء يصيبه وانتهاك عرضه هو شخصيًا. وأفضل مثال وقدوة نتأسى به هو الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فإنه لم يكن ينتصر لنفسه إذا أوذي هو شخصيًا، ولكن كان يغضب ويأخذ بالحدود إذا انتُهكت محارم الله. ذلك كما دل الحديث الذي يرويه أبو مسعود البَدْرِيُّ (رضي الله عنه): كُنْتُ أَضْرِبُ غُلامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي "اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ"، فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنْ الْغَضَبِ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ "اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ"، فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي فَقَالَ "اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلامِ"، فَقُلْتُ لا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا[1].

بل كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يغضب أيضًا إذا حاول أحدٌ أن يتغاضى عن تطبيق حد من حدود الله، كما حدث عندما أهمَّ قُرَيشًا شأن المرأة المَخْزُومِيَّةِ التي سَرَقَت فقالوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إلا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟"، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ "إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"[2]. فكان يغضب لما يُغضب الله، وكان يغار مما يغار الله عليه.

وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يُضرب ويُسب في مكة وحين ذهب إلى الطائف ليدعو أهلها، ولكنه لم يكن ينتصر لنفسه. بل كان يترحم عليهم فكان يقول تارة -عندما أتاه ملك الجبال في أمر إهلاك أهل مكة- "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"[3]، وتارة يشفع لهم قائلًا "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ"[4]. وتارة يشكو إلى الله ضعفه وقلة حيلته وهوانه على الناس بعد أن أصابه من أهل الطائف ما أصابه من سبٍ ورشقٍ بالحجارة "إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي"[5]، أي أنه سيواصل الدعوة ولن ييأس بالرغم مما فعلوا به، ولن يبالي لما أصابه ما دام الله ليس بغضبان عليه!

---

[1] صحيح مسلم 3135.

[2] صحيح البخاري 3216.

[3] صحيح البخاري 2992.

[4] صحيح البخاري 3218.

[5] السيرة النبوية لابن هشام 421.

إنما كان ينتصر النبي (صلى الله عليه وسلم) عندما يرى الكفار يريدون إخماد نور الله وإقصاء الإسلام، فكان يعد لهم من الجيوش ليس إلا لإعلاء كلمة الله وإتمام الإسلام بالتبليغ. وكما قالت أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها) "مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ إلا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا"[1]. ففي الأحاديث السابقة أدلة على أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يغار على حُرُمات الله، فكان أبعد الناس عن الإثم بتلك الغيرة (مع عصمة الله بالطبع).

فأين أنا من هذا كله؟ هذا الرسول إنما هو عبد يغار ويغضب لله، وأنا عبد يجعل الله يغضب ويغار! ثم يجب أن أُلاحظ حقيقةً خفيةً وصِفة سلبية أسلكها، أني بعدما أعصي الله فأجعله يغار، لا أزال ءأمل وأنتظر منه الرزق الوفير، فأي تناقضٍ وتواكلٍ ووقاحةٍ هذه؟! ألا يدعو ذلك للخجل؟ أنَّى لي أن أطمع في كرمه بالرزق والعافية بعدما أغضبته وجعلته يغار؟ لماذا أعتبر أن رزقه إياي مُسَلَّمٌ به بالرغم من إغضابي له، فما الذي غرَّني على أن لي ما أحكم وأختار في علاقتي بربي، أفليس هو المسيطر على الأوضاع والمهيمن الذي يضع القواعد ويفعل ما يشاء ولا يُعجِزه شيء؟ أم اتخذت من الله عهدًا أن يرزقني بالرغم من جعلي إياه تعالى يغار؟

وصحيح أن الله قد يرزقني بالرغم من أني جعلته يغضب ويغار، ولكن أين الحق والعدل في هذا الوضع؟ قد جمعت بين سلعتين متناقضتين، متعة تلبية الشهوة بمعصية الله ومتعة اكتساب الرزق من الله، فأين الثمن الذي دفعته في هذه الحالة التي تحققت؟ ألا يدعو ذلك للريبة والخوف؟

لا إله إلا الله... اللهم اهدنا في من هديت، وعافنا في من عافيت، وتولنا في من توليت. اللهم اجعلنا من عبادك الوقّافين عند حدودك غير منتهكين لها، واجعلنا من المستغفرين التائبين، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، وتجاوز عنا ضعفنا وزلاتنا. اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين الناصرين لك، واستعملنا ولا تستبدلنا. اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان. اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك. اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسّلط علينا من لا يرحمنا. اللهم إنا

---

[1] صحيح البخاري 3296.

نسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحُب المساكين، وأن تغفر لنا وترحمنا، وإذا أردت فتنةً في قوم فتوفنا غير مفتونين. اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك، وأغننا بفضلك عمن سواك. اللهم إنا نسألك خشيتك في الغيب والشهادة.

أُشدِّد مرة أخرى على أن الله يغار عندما تُنتَهك حرماته، فأذكر حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنْ اللَّهِ، فَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ"[1]. فهل سأترك نفسي أن تجعل رب الكون يغار؟

## التحرج من استغلال إعذار الله لنا

إن الله يتعامل مع العبد بتنوعٍ ليُقوِّمه على الرشد -عندما يهمّ العبدُ بالمعصية أو بعد ارتكابها-، وأشار على هذا قوله تعالى {وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف 168، جزء من الآية]. يكون هذا تارة بالتبيان الواضح أن هذا خطأ وعن مدى قُبحه، وتارة بالعقاب، وتارة بالتشديد على العبد عند تحصيله لحوائجه، وتارة بتعريض العبد لواقعة كادت أن تودي بحياته لعله يفيق ويتعظ ويُراجع أفعاله.

وتارة يكون بالمغفرة المُيَسَّرة مع إعلام العبد بهذا (بأن يرى العبد آثار المغفرة في حياته مثل العون على العمل الصالح، وربما الشعور بالانبساط أو الراحة مباشرةً بعد التوبة)، وتارة بتذكيره بنعم الله عليه التي تُغنيه عن المعصية، وتارة بالإكرام عن طريق الاستفاضة عليه بنعمٍ أخرى، وتارة بإثبات أنه تعالى يستره. وتارة أيضًا بإراءته ما الذي سيكون له من المميزات -سواء في الدنيا أو الآخرة- إذا ترك المعصية، وتارة بالمواساة، وتارة بصرفه عن المعصية إلى بديلٍ لها من المباحات لينشغل فيه، وغير هذا مما يعلمه الله وأعجز عن إدراكه (فهذه أحوال بين الله وبين عباده).

بهذا تثار مشاعر مُتعددة عند المرء، مثل الخوف والنفور والخجل والامتنان والعجز والضعف والحب واللوم والإهانة والصدق مع النفس ورغبة تكريم النفس عن الدناءات والفقر إلى الله، لعله يترك المعصية بإحداها. وهناك تدرج في التعامل إلى أن لا يكون للعبد أي حُجة لارتكاب المعصية سوى هواه، ويشهد العبد بنفسه على هذا. فإذا تعدى العبد كل تلك الطرق وما شاء الله من غيرهن، يوشك أن يدخل في نطاق مكر الله.

هذا كله لأن الله غنيٌ عن تعذيب عباده، كريمٌ معهم بالنظر إلى الأعذار المُحتملة قبل مؤاخذتهم على ذنوبهم، كما دلت أحاديث عدة مثل "ليسَ أحدٌ أحبَ إليهِ المدحُ منَ اللهِ، ولا أحدٌ أكثرَ

---

[1] صحيح البخاري 4271.

معاذيرَ منَ اللهِ"[1]، "لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ"[2] (يُعْذِرُوا أي يكثروا الذنوب والعيوب حتى تُقام الحُجَّة عليهم). إنما يُعذِّب الله عباده عند مخالفة أمره من باب رد الحقوق، وبعد تحقيق العدل معهم، فمن العدل أن يعرف العباد الصواب من الخطأ فلا يكون لهم عذر حقيقي في عصيان الله. وهذا ما دلت عليه عدة آيات مثل {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء 15، جزء من الآية]، {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [البقرة 187، جزء من الآية]، {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [التوبة 115]، {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [القصص 51].

خلاصة الغاية من هذا الباب هو: استغلال إعذار الله لعباده ليس شيمة النبلاء والصادقين، ولا من شيم المروءة. من الشرف أن يتنزه العبد عن استغلال سعة إعذار الله لعباده.

## عدم الأمن من مكر الله، ومن ثمَّ عدم الطمأنينة من مصيري في الآخرة

إن من خاف الله في الدنيا يجعله الله آمنًا يوم القيامة، والعكس صحيح، وهذا منطقي إذ إن الجزاء –سواء مُكافأةً أم عقابًا– يكون من جنس العمل. جاء في حديث قدسي للرسول (صلى الله عليه وسلم) "قال اللهُ عزَّ وجلَّ: وعزَّتي، لا أَجْمَعُ لعبدي أَمْنَيْنِ ولا خَوْفَيْنِ، إنْ هو أَمِنَنِي في الدنيا أَخَفْتُهُ يومَ أَجْمَعُ فيهِ عبادِي، وإنْ هو خَافَنِي في الدنيا أَمَّنْتُهُ يومَ أَجْمَعُ فيهِ عِبادِي"[3]. هذا لأن من خشي ربه حق الخشية، فإنه يمنع نفسه بنفسه من عصيان الله تعالى بأن يُخوِّفها من عذاب ربها، ولهذا يُجازيه الله بالأمن يوم القيامة، لأن فترة الاختبار مضت وقد أبلى العبد فيها بلاءً حسنًا.

سببٌ آخر أن الله يجعله آمنًا هو أنه من تواضع لله رفع منزلته، كما جاء في (جزء من) حديث "وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إلا رَفَعَهُ اللَّهُ"[4]، وتواضع المرء لله يتحقق بالخضوع لعظمة وهيمنة الله، مما يجعله يخاف الله، وهكذا ينبغي أن يكون طبيعة حال العبد من ربه. فمن أدرك أنه ما هو إلا عبدٌ لله، ولم تغُرُّه الحياة الدنيا، تواضع فأطاع الله حبًّا وخشي منه، فذلك الذي استحق الأمن والبشرى بالجنة {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل 32].

أما من أمن من مكر الله في الدنيا... لن يعمل لله ما يكفي لبلوغ رضاه، فلن يدري يوم القيامة أئن عمله كافٍ للنجاة من النار أم لا، فيظل خائفًا آنذاك. من ظن أنه داخل الجنة بعمله واطمأن لذلك فقد أخفق، إذ إن لله مكرٌ لا يأمنه إلا المُتهاون {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ

[1] الجامع الصغير للسيوطي 7569؛ وقال عنه: صحيح.

[2] صحيح الجامع للألباني 5231.

[3] السلسلة الصحيحة للألباني 742.

[4] صحيح مسلم 4689.

الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف 99]. فمن جزم بأنه داخل الجنة فهو أقرب للهلاك والوقوع في المعصية، لأنه اغتر بنفسه وعمله، والطمأنينة عنده تقوده إلى الاستهتار والتراخي (وهذا طبع الإنسان). وكما جاء في القرآن الكريم في وصف صفات أصحاب الجنة {وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ} [المعارج 27-28].

فما بالي مطمئنًا مما قد يفعله ربي بي مع أنني أعصيه، وضمنت نيل رحمته بكثرةٍ من الأعمال السيئة؟! وفي هذا الموضع أذكر ما جاء في تفسير الطبري للآية {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} [النبإ 38]، فعن الإمام الحسن البصري (رحمهما الله) جاء: إن الروح (أي سيدنا جبريل عليه السلام) يقول يوم القيامة: لا يدخل أحد الجنة إلا بالرحمة، ولا النار إلا بالعمل. وهو معنى قوله تعالى "وَقَالَ صَوَابًا" (انتهى).

أما أنا، فتصرفاتي تشير أني أرى أني سأنال رحمة ربي وتجاوزه عن عملي السيئ فأدخل الجنة، بدلًا من أني قد أدخل النار. فمن أين هذا الغرور وهذا المنطق المعلول وهذه الثقة الخادعة؟ لا أطيع الله في الدنيا، وأريد وضعًا استثنائيًّا ومعاملة خاصة في الآخرة. هذا شبيه بحال من قال الله فيهم {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً} [المدثر 52]، فكان المشرك يريد أن يُنزّل عليه كتاب خاصًّا له من الله حتى يؤمن بالله؛ أراد معاملة خاصة وهو ليس أهلًا لها، إذ لم يقدم من الأعمال ما يُؤهله لاستحقاق الخير، إضافة إلى أن هذه ليست سنَّة الله. وقد زجر أحد المُبصرين تلك الصفة عامةً قائلًا:

يَا آمِنًا مِنْ قَبِيحِ الْفِعْلِ مِنْهُ

أَهَلْ أَتَاكَ تَوْقِيعُ أَمْنٍ أَنْتَ تَمْلِكُهُ؟

جَمَعْتَ شَيْئَيْنِ: أَمْنًا وَاتِّبَاعَ هَوًى

هَذَا وَإِحْدَاهُمَا فِي الْمَرْءِ تُهْلِكُهُ

وَالْمُحْسِنُونَ عَلَى دَرْبِ الْمَخَاوِفِ قَدْ سَارُوا

وَذَلِكَ دَرْبٌ لَسْتَ تَسْلُكُهُ

فَرَّطْتَ فِي الزَّرْعِ وَقْتَ الْبَذْرِ مِنْ سَفَهٍ

فَكَيْفَ عِنْدَ حَصَادِ النَّاسِ تُدْرِكُهُ؟

هَذَا وَأَعْجَبُ شَيْءٍ مِنْكَ زُهْدُكَ فِي

دَارِ الْبَقَاءِ بِعَيْشٍ سَوْفَ تَتْرُكُهُ

مَنِ السَّفِيهُ إِذًا بِاللَّهِ

أَنْتَ أَمِ الْمَغْبُونُ فِي الْبَيْعِ غَبْنًا سَوْفَ يُدْرِكُهُ؟[1]

الغُبن هو استخدام الشيء في غير موضعه بحيث أن الشخص لا يستفيد منه، فيصير غافلًا مُفَرِّطًا، ومثال على هذا هو من عنده العافية ولكنه يشرب المُدخنات. ولكن الغُبن ينطبق بداية من الإهدار، كالذي عنده نِعَم الفراغ والصحة والمال ولا يستخدمهم لطاعة الله، فهو في الواقع يُهدرهم إذ لا يُحصِّل منهم المنفعة الدائمة: الحسنات، بل ويكونون عليه حملًا يوم القيامة إذ سيُحاسَب كيف صرفهم، ففي الإضاعة عبء. أما لو استخدمهم في المعصية، فهذا عبء آخر.

وقد بكى سيدنا أبو هريرة (رضي الله عنه) في مرض موته خوفًا من ألا يكون قد بلَغ النجاة، هذا بالرغم من أنه هو من هو بين مرافقة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبين جهاده معه. بل وقد كان من أهل الصُفَّة، تمر عليه أيام يظل جائعًا، فيُكلِّم الصحابة في العلم (وهو يعلم إجابة سؤاله) لعل أحدهم يدعوه للطعام عنده. فإنه لم يكن مُرفَّهًا حتى تكون عُجِّلت له حسناته في الدنيا.

هذا كله دون الاستفاضة في كم الأحاديث الذي نقله عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التي يستفيد منها المسلمون، ما سَيُضاف إلى حسناته. وبالرغم من ذلك كله، قال سيدنا أبو هريرة عندما سُئل عن بكائه في مرض موته: مَا أَبْكِي عَلَى دُنْيَاكُمْ هَذِهِ، وَلَكِنْ عَلَى بُعْدِ سَفَرِي، وَقِلَّةِ زَادِي، وَأَنِّي أَمْسَيْتُ فِي صُعُودٍ، وَمَهْبِطُهُ عَلَى جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ، فَلا أَدْرِي أَيُّهُمَا يُؤْخَذُ بِي[2] (زَادِي أي الأشياء التي يحملها المسافر على دابته ليتمكن من بلوغ وجهته). فكيف أني مُطمئنٌ بالقليل الذي قدمته وبالكثير الذي قصَّرت فيه، بل وعصيت؟!

هذا وحالي أنا أني قد لا أزال مُصرًّا على المعصية، فينبغي أن أعلم أنها لن تُترك دون أن أُحاسب عليها مهما كانت تافهةً في نظري. ولكن يجب أن أدرك شيئًا فوق ذلك، وهو أن الله لن يعجز من أن يخرج حقه مني مهما كان صغيرًا! للتوضيح بمثالٍ، فلنفترض أني أطلقت بصري على مُحَرَّمٍ للحظة، أوليس الله بقادر على أن يعاقبني على قدر ذلك؟! بل أوليس الله بقادر على أن يُعاقبني من نفس جنس المعصية مع الدقة في قدر العقاب؟

فالواقع هو أني بهذا السلوك أُسيء التعامل مع الله، إذ إني أعصيه معتمدًا ومتأملًا أنه سيعفو عني بالرغم من عدم اجتهادي في تجنب المعصية من المقام الأول. إني أضع نفسي في

---

[1] الجواب الكافي لابن القيم 92.

[2] سير أعلام النبلاء لمحمد الذهبي 625/2.

وضعٍ حرج قد كنت أستطيع أن أتجنبه، فقيرٌ إلى رحمة الله بينما لم أسعَ لنيل هذه الرحمة، بل وسعيت لنيل العقاب، فما هذا التناقض؟ هذا أشبه بالمكر بصفات الله عن أنه زلة للنفس.

إن الله هو أقدر الماكرين، وكفى تحذيرًا لنا قوله تعالى {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء 47]. كُل عملٍ يُكتب في كتاب الأعمال، إذ لا تجرؤ الملائكة الكتبة أن يُهملوا تفصيلة فيما كلَّفهم الله به، إلى حد أن المرء يُصدم من دقة التفاصيل المُدوَّنة في كتابه {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف 49].

فإذا كان كل شيء مكتوبًا، وأن الله بقادر على أن يُعاقب على قدر وجنس المعصية، فعلى إثر تلك النظرة المُحرَّمة الخاطفة التي تعمدتها، ما الذي يمنع الله أن يخطف بصري أيضًا للحظة ولكن تكون في لحظة فارقة مثل وأنا على جسر جهنم، فأُخطئ وتزل قدمي فأهوي في جهنم؟! ينبغي ألا أعصي ربي، لأن مصيري قد يكون إلى نار جهنم السوداء، وقد يمكر الله بي كما مكرت في معصيتي له.

إذا كان الإنسان لا يطيق الحرارة المشعة من الشمس حتى، ولا يطيق الحرارة المنبعثة من نار الدنيا ولو لثانية بوضع يده فيها، فكيف بالمكوث في جهنم ولو قليلًا. وهذا بالرغم من أن نار الأرض بين إطار الحمار والصفار والزرقان والبياض، فما بالنا بتحملنا لنار الآخرة التي هي سوداء بسبب أنها تأكل حتى الضوء الذي يقع عليها؟! فلنتقِ الله ونسأله العفو والعافية في الدنيا والآخرة، والعون والثبات على طاعته واجتناب معصيته.

وقال الله تعالى مُثنيًا على حال بعض عباده {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (9) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَومِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورا} [الإنسان 7-11]. أفلا نتأسى بهم ونستوعب القضية؟

وكفى بسيدنا أبي بكر الصدّيق (رضي الله عنه) واعظًا كي نعلم كم يجب علينا أن نخشي الله في الدنيا، فبالرغم ما قدّمه للرسول (صلى الله عليه وسلم) من مساندة وما قدَّمه للإسلام من نصرته، كان يقول لطيرٍ رآه ما عنده من هموم: طُوبَى لَك يَا طَيْرُ، وَاَللَّهِ لَوَدِدْت أَنِّي كُنْت مِثْلَك، تَقَعُ عَلَى الشَّجَرَةِ وَتَأْكُلُ مِنْ الثَّمَرِ ثُمَّ تَطِيرُ وَلَيْسَ عَلَيْك حِسَابٌ وَلا عَذَابٌ، وَاَللَّهِ لَوَدِدْت أَنِّي كُنْت شَجَرَةً إلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ مَرَّ عَلَيَّ جَمَلٌ فَأَخَذَنِي فَأَدْخَلَنِي فَاهُ فَلاكَنِي ثُمَّ ازْدَرَدَنِي ثُمَّ أَخْرَجَنِي بَعْرًا وَلَمْ أَكُنْ بَشَرًا[1].

[1] المصنف لعبد الله بن أبي شيبة 144/8.

وكان سيدنا عثمان بن عفان (ثالث خليفة في الإسلام، رضي الله عنه) يقول: لَوْ أَنِّي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَلا أَدْرِي إِلَى أَيَّتِهِمَا يُؤْمَرُ بِي، لاخْتَرْتُ أَنْ أَكُونَ رَمَادًا قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ إِلَى أَيَّتِهِمَا أَصِيرُ!!![1]

وما يجعل المرء يندهش هو أن أبا بكر وعثمان (رضي الله عنهما) كلاهما بشَّرهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالجنة، ومع ذلك كانوا يخشون الحساب والجزاء يوم القيامة! ولكن هذا كان حالهم من قوة الإيمان والخوف من الجبار، وهكذا كانوا يخشون من مصيرهم، فكيف ينبغي أن يكون ظني في مصيري أنا؟؟؟ وهل معصيتي لربي تدل على خوفي من الله؟! هل أصبح الالتزام بحدود الله هينًا في قلبي؟ وما أنا (مهما بلغت) حتى تكون حدود الله هينة عندي؟! إذا كيف أعصي الله مع أني لا أريد أن ألقاه إلا مؤمنًا، أفلا أخشى أن يُصَنِّفني الله على أني منافق؟

سبحان الله، إن مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم) كانوا جديرين أن يُنَبَّأوا أنهم من أصحاب الجنة، إذ إن بعد أن علموا بذلك لم يطمئنوا بعد فلم يتقاعسوا عن التسابق في الأعمال، ولم يتركوا جهاد النفس ولم يستكينوا عن محاربة أعداء الإسلام، وخافوا أن تُبطَل أعمالهم الصالحة. أما أنا فلو ضمنت دخولي الجنة لربما تخاذلت وتقاعست عن العمل أكثر، وربما أكثرت من الإقبال على الشهوات اتِّكالًا، ولكرهت مشقة الجهاد وخفت من عناء الموت المرتبط به.

بل وقد حدثتني نفسي بالأماني أني ناجٍ من العذاب، وعملي أحيانًا يدل على أني أتصرف على ذلك الأساس، هذا ولم يُبشرني الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن مصيري الجنة! فسبحان الله على الاختلاف الشاسع بين عباده في عبادتهم له، كيف أصبح الفرق في الفكر (ومن ثمَّ العمل) بيني وبين الصحابة كبيرٌ إلى هذا الحد؟! أفلا أخشى أن أكون قد خدعت نفسي بالخدعة ذاتها التي وقع فيها الذين نطقوا بالشهادتين ولكن لم يقبلوه بقلوبهم، وأفعالهم كانت تخذل الإسلام فقال الله فيهم {قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنّا قُل لّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَكِن قُولُوَاْ أَسْلَمْنَا وَلَمّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُمْ مّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنّ اللهَ غَفُورٌ رّحِيمٌ} [الحجرات 14].

فكيف قولي إني مؤمن وعملي يُكذب ذلك بالمعاصي (فهذا صميم النفاق العملي)... والعمل أقوى وأدل من الكلام، فسأُحاسب عليه حسابًا عسيرًا إن خالف كلامي. قد وصف الإمام الحسن البصري (رحمه الله) للإيمان: إِنَّ الإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّي وَلا بِالتَّمَنِّي، إِنَّمَا الإِيمَانُ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ[2]؛ وقال أيضًا: إِنَّ قَوْمًا أَلْهَتْهُمْ أَمَانِيُّ الْمَغْفِرَةِ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا بِغَيْرِ تَوْبَةٍ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ: لأَنِّي أُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّي، وَكَذَبَ، لَوْ أَحْسَنَ الظَّنَّ لأَحْسَنَ الْعَمَلَ[3].

---

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني 60/1.

[2] المُصَنَّف لابن أبي شيبة 217/7.

[3] الجواب الكافي لابن القيم 28.

ويجب أن ندرك أمرًا، أن المرء الذي يُكثر من المعاصي ثُم يقول إنه يخشى حساب الله عنده تناقض، لأن المرء إذا أيقن حقيقة الحساب واستحضر الموقف لخشي من حساب الله له حق الخشية. ومن ثَم لظهرت خشيته في أعماله لأن نفسه تضطرب إذا أقبل على المعصية، ومن ثمَّ لا يستطيع إقناع نفسه على إتيان المعصية بسهولة، وإن أقبل عليها فلا يستطيع الاستقرار عليها، فيُقلِّص من معصيته لله. فمن يعصِ الله كثيرًا ينطق لسان حاله أنه لا يخشى الحساب حق الخشية، وهذا نوع من أنواع الأمن من مكر الله. وقد قال الْخَفَاجِيُّ في وصفه للأمن من مكر الله: هُوَ الاسْتِرْسَالُ عَلَى الْمَعَاصِي اتِّكَالًا عَلَى عَفْوِ اللَّهِ[1].

## احذر حين تنام

قال تعالى {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الزمر 42]. "فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ" أي يُمسك الله عنده الروح التي كُتب على صاحبها الموت، فلا ترجع إلى الجسد. "وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى" أي يُرسل الله روح النائم لتعود في الجسد، حتى أجل مسمى وهو الموت، فآنذاك يُمسكها.

يقول العلماء إن النوم نصف الموت، لأن النفس تخرج من الجسد آنذاك، ثم يُرسلها الله (أي يُعيدها) إلى الجسد عند الاستيقاظ. والفرق بين حالة الموت والنوم هو أن عند الموت تخرج النفس ولا تكون متصلة بالجسد، أما النوم فتخرج النفس ولكن تبقى متصلة به. ودل على ذلك ما أوصانا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ"[2].

بعد معرفة هذا، سؤالي هو: كيف لك يا عاصٍ أن تنام مطمئن البال ونفسك تفارق جسدك يوميًا؟ كيف تنام نومًا عميقًا وأنت تعلم أنك تُسَلِّم روحك بين يدي الله تطوعًا بالرغم من معصيتك له؟ كيف تأمن مكر الله لهذا الحد؟! ءأخذت من الله عهدًا أنه سيُعيد نفسك ولا يُمسكها؟ اعلم أن رد روحك إلى جسدك إنما هو بأمر الله، فإن لم يأمرها بالرجوع فإنها لن ترجع، فتكون الطامة الكبرى حين يموت المرء عاصيًا غير تائبٍ، كان مغترًا أنه لن يموت في هذه الفترة.

---

[1] التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور 25/10.

[2] صحيح البخاري 5845.

فأنصح نفسي وإياكم، أن يتوب المرء كل يوم قبل أن ينام، فإنه لا يدري أين يكون عندما يفيق. هذا بالطبع مع قول أذكار النوم مثلما علمنا سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ ’اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ‘. فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ"[1]. ولعل وعسى هذا سبب من أسباب عدم الطمأنينة في النوم لمن قال عنهم الله {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [السجدة 16]، فهم يخشون عواقب ذنوبهم فيضطرب نومهم فيقومون ليعبدوا الله ويُناجوه أن يغفر لهم.

يا مفرط في المعاصي يا لاهي في الاستمتاع

يا مهمل للاستغفار وأنت مرتاح البال

قد أمنت من بطش الله إذ إنك متيقظ

ولكنك ستضع روحك الليلة بين يدي المُتعال

علِّمني كيف علمت أنه يردها فيك

وذلك بدلًا من مَسكِها التارة عنك

هذا مع نقض العهد الذي أخذه عليك

وأنت مطمئن أنه بعهدٍ أُلغي يفي إليك

ألا ترتاب لاعتمادك على إحسانه

بينما أنت ترُدّ بالإساءة ونسيانه؟

## النظر إلى حال من هم أفضل مني في طاعة الله في الدنيا

اتخاذ الأسوة الحسنة وبعناية. لا شك أن خير أسوة نتمثل بها هي أسوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فقد قال تعالى {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب 21]. هذه الآية نزلت في غزوة الخندق تحثُّ المسلمين على التأسي برسول الله

---

[1] صحيح البخاري 239.

(صلى الله عليه وسلم)، ولكن تحث على اتباعه في النهج عامة. وذلك أن الصحابة اشتكوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تعبهم وجوعهم، فأراهم أنه كان رابطًا صخرتين على بطنه من شدة جوعه، فحث الله المسلمين أن يتأسوا بتحمُله ومثابرته في معاناتهم.

فكيف يكون الرسول (صلى الله عليه وسلم) تكبد مثل ذلك العناء ثم يكون اقتدائي عكس ما كان عليه، بأن أجزع عن مجاهدة النفس وعن الصبر فأعصي الله، مع أن الأولى أنه هو الذي يرتاح وأنا الذي أتكلف بما عاناه، إذ إنه يحمل رسالة إلينا من الله فوجب الحفاظ عليه. فكفى عليه حملًا أنه أمين الرسالة بين الله وبين كافة الناس، ولكنه (صلى الله عليه وسلم) أبى إلا أن يكون قدوة لنا ويفتدي بنفسه حتى يتم تبليغ الرسالة بحق، وكي لا يتحجج أحدٌ أنه (صلى الله عليه وسلم) لم يكن يعاني فلماذا يتحمل هو المعاناة. أو بأن يتحجج أحد من الذين لم يؤمنوا أنه لم تَبلُغه رسالة الإسلام. فأين أنا من مثل هذا الحرص والجهد؟ ماذا سيظن بي ويقول لي، وكيف سيُعاملني عندما يطَّلع على عملي؟ أين التشابه بين من يحفر خندقًا في ظل ظروف قاسية ليدافع عن دين الله، وبين من يُطلق هواه وينظر إلى أين تقوده شهواته؟

ويتجلى لنا منهج رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ومنظوره لجوهر علاقته مع الله، فيما ترويه لنا أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها) قائلة: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلاهُ، فسألته: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ "يَا عَائِشَةُ، أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورا"[1] (تَفَطَّرَ رِجْلاهُ أي تتشقق). وهذا الحديث يوضِّح لنا مدى تقصيرنا في حق الله، فإن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان مغفورًا له ما تقدم من ذنوبه (بالرغم من أنه لم يعصِ الله قط بفضل وعون الله له، حتى قبل نزول الوحي عليه)، ومعصومًا مما قد يتأخر، ومع ذلك كان يقوم الليل ليكون عبدًا شكورًا لله. ليست نظرته فقط أن يؤدي ما عليه من مسؤوليات، أو أن يُغفر له فحسب.

أما أنا فأعصي ربي، بل وأغفل عن استغفاره أحيانًا، وبعد هذا كله لا أقوم الليل حتى! أين أنا؟ وإني لن أقارن نفسي بالرسول (صلى الله عليه وسلم)، بل أتساءل ما مدى الفرق الذي بيني وبين الصحابة الذين علَّمهم وأرسخهم النبي (صلى الله عليه وسلم) على تلك المبادئ؟! كم يُفَضِل الله أحدهم على عبد مثلي؟! فمتى سأفيق من هذا الحلم الذي أنا فيه؟ متى سأفيق من غفلتي وارتخائي؟ متى سأتحرك؟؟؟

ومما لا شك فيه هو أنه ما من أحدٍ من البشر أحرص على مصلحتي ومصلحتك، وأرأف بنا، من الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولا حتى آباؤنا ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا

---

[1] صحيح مسلم 5046.

عَنِتّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة 128]. فكيف لنا ألا نتأسى به وقد كان على منهج الحق وحريصًا على سلامتنا أيضًا؟

ثم جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصية أن نقتدي ببعض الصحابة خاصةً، قائلًا "اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ"[1]. ولكن حث عامةً على اتباع سُنَّته وسُنن الخلفاء الراشدين المهديين من بعده.

جاء فيما يرويه لنا سيدنا العِرْبَاضَ بن سَارِيَةَ (رضي الله عنه): وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ "أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ"[2] (وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ أي وإن أصبح الوالي ممن تستصغرون مثل عبد حبشي، فيجب السمع والطاعة للحاكم ما لم يكن مخالفًا لشرع الله، لئلا تنشأ الفتن؛ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ تعبيرٌ مقصده أن تمسكوا بالسُنَن أقوى التمسك). وفي رواية أخرى زادت "وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ"[3] (وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ أي لنتجنب اتباع البِدَع التي تكون في الدين).

ويروي لنا سيدنا أَنَس بن مالك (رضي الله عنه) قصة رجل أدرك أهمية جعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) قدوة، وأعلن له ذلك في روايته: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ "وَمَا أَعْدَدْتَ لِلسَّاعَةِ؟"، قَالَ: حُبَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ "فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ". قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بَعْدَ الإِسْلامِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ"[4]. هل يُعقل أن من أحب الله أن يُخذله بعصيانه؟ وهل يُعقل أن من أحب النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يُعرض عن وصاياه وسلوكه؟

لذلك يجب على المرء أن يختار مثله الأعلى بعناية، لأنه سيقع في حُبّه، ثم يُحشر معه عندما يتَّبِع أَثَره. فيا ويل من اتخذ مُطربًا قدوة له، أو ثريًّا بالحرام، أو سلطانٍ ظالمٍ، يريد أن يكون مثله... فقد أضاع نفسه... لأنه إذا سُئل هل تحب أن تحشر معه فسيقول كلا. والويل الأكبر لمن اتخذ كافرًا كقدوة له ويتَّبع خطواته، خاصة لو كان مُحاربًا لله وللإسلام.

---

[1] سنن الترمذي 3595.

[2] سنن الترمذي 2600.

[3] سنن أبي داود 3991.

[4] صحيح مسلم 4777.

وللمرء أن تكون له أكثر من قدوة، مختلفين في الدرجات، يكون أعلاهم هو الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ويتأسى بآخرين مثل عالمٍ صالحٍ في زمنه يتلقى منه العلم والأخلاق؛ نموذجًا يراه رؤية العين ويتعلم منه بالتفاعل معه. وقد تتعدد القدوة عند المرء أيضًا نظرًا للتخصص، فالدين يأخذه من الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وفرع من علوم الدنيا -مثل الهندسة- يتأسى بفلانٍ فيه (فإن لم يكن رجلًا صالحًا يكن فقط متعلمًا منه دون أن يتّخذه قدوة). ولكن من الضروري أن كل من يقتدي بهم وينظر إليهم نظرة وقار وتكريم يكونون من الرجال الصالحين، كالصحابة مثلًا أو ممن جاء بعدهم وقدَّم نفعًا للإسلام والمسلمين.

إن وطَّدنا أنفسنا وأولادنا على اتخاذ القدوة الحسنة الصالحة، ستنهض الأمة الإسلامية ثانيةً. ولكن للأسف، أصبح القدوة فيمن له شهرة كبيرة، أو جَمَع مالًا كثيرًا، أو كان نابغًا في مجال من مجالات الدنيا، أو ذا سلطة واسعة في الأرض، وهذا دون الاعتبار إلى درجة طاعته لله. ومن ثَمَّ يغرق كثير من الناس في المعاصي مثل قدواتهم، ويُصبح الفرد منهم غير نافع لدينه، فيكون كالأنعام: لا رُشد له وليست له شخصية فريدة أمام الباطل ولا هدف ذات معنى في حياته. ذلك لأنهم لا يُعِدُّون لحسابهم في الآخرة، وإنما يُثبِّتون أنظارهم على إعمار الدنيا وتحصيلها.

فيجب عليَّ أن أختار قدوة صالحة لتكون أساس فكري وتصرفاتي، لأنه من البديهي أني سأحب قدوتي، ومن أحببته أحببت أن أكون مثله في بعض الصفات إن لم يكن كلها. فلو أني اتخذت قدوة مثل سيدنا عمر (رضي الله عنه) لتكلمت عندما أرى منكرًا لأُصححه، لأني أعلم أنه كان سيغضب عندما يرى المنكر ولا يخشى لومة لائم في الله، ولن أسكت وأقول لنفسي "مالي ومال هذا" أو "إني أخشى على نفسي النقد أو البطش". وأما إن كانت قدوتي ذاك المُطرب، لقلت في نفسي شيئًا مثل "إذا تكلمت بما لا يرغبه الناس سيفسد ذلك مظهري العام أمامهم". ومن ثَمَّ، لن أقول كلمة الحق إذا كانت تُغضب الناس، وأنشغل في معاصي قد لا أدرك أنها معاصٍ أصلًا، فأكون في زمرة الساهين الغافلين.

لله عباد مثل هؤلاء. إن لله عبادًا بلغوا من الاجتهاد مرحلة أن الله أحبهم، فكان قريبًا منهم ويُنزل عليهم الكرامات والمزايا، ويبقى أن يسأل المرء نفسه: أين أنا إذًا من هؤلاء؟ ولماذا أغتر وأظن أني غالٍ وعزيز عند الله بينما له عباد مثل الذين سيأتي ذكرهم؟ وأين روحي، ألا أغار أن هناك من يعبد الله في جماعة في بيت الله (المسجد) في الصلوات المكتوبة وأنا قد أتغيب عنها؟ ألا أغار أن هناك من ينفرد بالله في قيام الليل يُناجي ربي ويوطّد علاقته به بينما أنا نائم؟

ألا أغار أن الله هو الذي يُقبل على بعض عباده بسبب حسن عملهم ولهفتهم إليه، فيُقابل لهفتهم بالإسراع إليهم؟ ذلك كما دل على ذلك الحديث القدسي "قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ"[1].

ألا أغار أن هناك من يزيد على الفرائض حبًّا لله، فيتقرب إلى الله ويتقرب الله منه لدرجة أن الله يدافع عنه، ويكون معه في سكناته وحركاته، ويوفي الله له مسألته؟ فكما جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"[2] (عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ أي قبض روحه عند حضور الأجل).

فمن هؤلاء، وهو شرفٌ وتكريمٌ لهم أن ذكرهم الله في كتابه، من أثنى الله على همّتهم في قوله {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [السجدة 16]. فهؤلاء بلغوا منزلة الخوف من الله بحق، ومنزلة الرجاء في رحمته وكرمه بحق، حتى إنهم لا يستطيعون اجتياز ليلتهم نومًا على فراشهم دون اضطراب مِن هَمِّ الآخرة.

هاتان الصفتان جعلا هؤلاء المؤمنين (اللهم اجعلنا منهم) لا يبيتون في فراشهم مطمئنين، يقومون للتعبد والرجاء مع أن أجسامهم تريد الراحة، ولأن نار جهنم لن تتركهم يرتاحوا إن دخلوها، يطلبون العفو والرحمة والمغفرة كي ينجوا من النار ويدخلوا الجنة. فهذا سيدنا شَدَّادُ بن أَوْسٍ (رضي الله عنه) إذا أوى إلى فِرَاشِه يكون كأنه حَبَّةُ قَمحٍ على مِقلَى (أي من كثرة تقلبه) ثم يقول: اللَّهُمَّ إِنَّ النَّارَ قَدْ مَنَعَتْنِي النَّوْمَ، ثُمَّ يَقُومُ إِلَى الصَّلاةِ (أي قيام الليل)[3].

فأين أنا من هؤلاء؟ فإني أرتكب المعاصي وأنام مطمئن البال في فراشى ليلًا، ولا أقوم من نومي للتكفير عن ذنوبي في قيام الليل، وذلك من عمق نومي الذي لا بد أن للطمأنينة بأعمالي لها يدٌ فيه، طمأنينة كاذبة خادعة. أضمنت الجنة ومعي بذلك موثق من الله كي يرتاح بالي؟ أم أمنت من أن الله لن يقبض روحي عندما أُسلّمه إياها وأنا نائم، إذ إن الروح تخرج من الجسد في أثناء النوم مع بقاء اتصالهما. أم أريد أن أتساوى في المنزلة مع مثل هؤلاء المجتهدين، سواء في الدنيا أم

[1] صحيح مسلم 4927.

[2] صحيح البخاري 6021.

[3] المصنف لعبد الله بن أبي شيبة 306/8.

الآخرة، وقد قال الله {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} [الزمر 9].

ربنا اهدنا في من هديت، فإنا عزمنا على طاعتك، وإنا نحاول، ولكن نحتاج إلى توفيقك، وأن تُعيننا على ترك المعاصي، وأن تُكرِّه إلينا فعل ما يُغضبك حتى نصل إلى تلك المنزلة، وتقيمنا بين يديك. وهناك عظة قالها الشيخ إبراهيم بن أدهم (رحمه الله) عندما جاءه رجل قائلًا: إني لا أقدر على قيام الليل فصف لي دواء! فقال: لا تعصه بالنهار وهو يُقيمك بين يديه في الليل، فإن وقوفك بين يديه في الليل من أعظم الشرف، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف[1]. وقال الغزالي (رحمه الله) متحدثًا عن الأسباب المُعينة على قيام الليل: الرابع: أن لا يحتقب (أي يفعل) الأوزار بالنهار، فإن ذلك مما يُقسي القلب ويَحُول بينه وبين أسباب الرحمة. قال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد إني أبيت مُعافى وأحب قيام الليل وأعد طهوري، فما بالي لا أقوم؟ فقال: ذنوبك قيَّدَتك[2].

وهناك عبادٌ تكبدوا من الأذى ما لا يتكبده أُناس عاديون، واستحملوا من المشقة ما يُفلق ظهر المرء، وحملوا هذا الدين على أكتافهم بتضحيات حتى ينتشر ويصل إلى أركان الأرض وعبر الأزمنة. يقول تعالى {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران 146-147]. فحتى إذا أصابهم أشد ما قد يصيبهم مما يُعيقهم وقد يهدم معنويات الأشخاص العادية، لا يزالون يستجيبون لله {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ} [آل عمران 172].

هؤلاء رجالٌ بمعنى الكلمة، وشهد الله لهم بهذا، حاربوا مع الأنبياء كي تقوم الشريعة الإلهية، وما أصابهم في الحرب لم يُضعف عزيمتهم وإصرارهم على تقوية شوكة الحق وإظهاره، ولم يستسلموا مهما أصابهم ولو كان ثمن هذا حياتهم. ذلك لأنهم صدقوا مع الله أنهم سيثبتون ويبذلون أقصى جهودهم في نشر الإسلام، حتى أنزل الله عن أشخاص بعينهم {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب 33].

ومِن النماذج مَن لم ينشغل بنفسه وهو يموت شهيدًا مدافعًا عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) في غزوة أُحُد، فذاك سيدنا سعد بن الربيع (رضي الله عنه) الذي انشغل بسلامة رسولنا محمد (صلى الله عليه وسلم). هو الذي أعطانا مثلًا عن مدى حرص الصحابة على الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهمِّهم على نشر الرسالة، فكانت من أنفاسه الآخيرة وصية لأحد الرجال قائلًا: وأبلغ قومك

---

[1] فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب لمحمد نصر الدين عويضة 400/9.

[2] إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي 356/1.

مني السلام، وقل لهم: إن سعدًا يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلى نبيكم –أي أصابه مكروه– وفيكم عين تطرف[1].

أما أنا إذا أصابتني مشقة بسيطة، فقد أيأس من مُعالجتها وأتحسر على وضعي وأُحبَط وأجزع وأشتكي وأشعر بالشفقة على نفسي، مما يدعو إلى الشفقة أكثر، وقد أُصبح متشائمًا وتُحدثني نفسي بالمعصية للتسرية عن نفسي، فيكون وضعي مُخزيًا ومزريًا أكثر. وإذا أصابتني نعمة قد أنسى ذكر ربي وشكره، وأنسى واجباتي المترتبة على هذه النعمة، بل وقد أرتكب معصية بها أيضًا فرحةً بها وغرورًا. وبذلك أبتعد عن ربي باستمرار لأني أعصيه في كِلا الوضعين، ففي الضراء وفي النعماء تُسول لي نفسي المعصية، فما الذي أريده كي أطيع الله؟ وما نوع الشخص أنا؟

ولكن هؤلاء الرجال إذا شق عليهم قتال العدو في الحرب لم يجزعوا ولم يشتكوا، بل طلبوا المغفرة والثبات والنُصرة من الله، دون أن يفتُرُوا عن الجهاد، بل ولم يتركوا قيام الليل حتى في تلك الظروف العصيبة. وعندما ينتصرون يشكرون الله ويُقَسِّمون الغنائم بحسب ما أمرهم الله دون غَلِّ (أن يأخذ أحد شيئًا من الغنيمة قبل تقسيمها)، ويؤدون منها ما عليهم من حقوق إليه تعالى، محافظين على دينهم في كِلا الوضعين.

وتلك ليست بشهادة الرواة المسلمين وحدهم، بل شهد بذلك أيضًا أعداؤهم الذين أصابتهم الرهبة والدهشة مما رأوه منهم. يُروى في واقعة قنسرين بين المسلمين وهرقل أنه سأل عن وضع المسلمين رجلًا من اتباعه كان قد أُسِرَ عند المسلمين، فقال: أَخْبِرْنِي عَنْ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ، فَقَالَ: أُخْبِرُكَ كَأَنَّكَ تَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: هُمْ فُرْسَانٌ بِالنَّهَارِ، رُهْبَانٌ بِاللَّيْلِ، لا يَأْكُلُونَ فِي ذِمَّتِهِمْ إلا بِثَمَنٍ، وَلا يَدْخُلُونَ إلا بِسَلامٍ، يَقِفُونَ عَلَى مَنْ حَارَبُوهُ حَتَّى يَأْتُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ: لَئِنْ كُنْتَ صَدَقْتَنِي لَيَمْلِكُنَّ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ[2].

وبالمقارنة بهم، عندما يصيب البلاء المرء منا قد يتساءل بينه وبين نفسه لماذا حدث لي هذا خاصةً من بين الناس، ولماذا الآن، وقد يتذمر إلى الناس بما حدث له. وإن تصبه النعمة يسعد ويُحدِّث نفسه بفخر، وكل تلك الصفات وجب على المرء منا تصحيحها. أين أنا من هؤلاء الرجال؟! إنهم صبروا عن الاعتراض أو التذمر في أشد البلاء الجسدي والنفسي –في الحرب–، بينما لا أستطيع أنا أن أصبر عن المعصية في الرخاء؟ كيف يكون الفرق بيننا جسيمًا هكذا؟ حقًّا، إنه لشيءٌ مخجل.

---

[1] السيرة لابن هشام 2/94-95.

[2] البداية والنهاية لإسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي 9/651.

ولم يكفِ جهادهم لطاعة الله ومقاومة هوى أنفسهم نهارًا فحسب، ولكن حتى في أوقات الليل الذي يعتاد المرء أن يرتاح فيه يقومون هم ليتزودوا ويُكملوا كفاحهم. هؤلاء آمنوا كما ينبغي، حتى إن أفئدتهم لا تهدأ بسبب همِّهم من الآخرة، أفلا أكون مثلهم؟ هم في حالٍ وأنا في حالٍ آخر، في طريقٍ وأنا في طريقٍ آخر، فهم في طاعة الله وأنا في معصية الله. هؤلاء خافوا من عذاب الله يوم الحساب فأقبلوا على رضاه وحُسن جزائه، فلم تطمئن أجسادهم في المضاجع من قلقهم من أن يُعذَّبوا، ومن رغبتهم في الجنة، فقاوموا تعب أجسادهم وهوى أنفسهم فقاموا ليذكروا الله ويُصَلّوا.

وقد قال الله، تكريمًا لهم، عمن يقيم الليل {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [آل عمران 113]. وعلى الصعيد الآخر، أنا أعصي الله ثم أنام نومة الأطفال، مطمئنًا في مضجعي وكأني بالفعل قد نجوت من النار، فسبحان الله على الفرق الشاسع بين عباده. هذا ومجرد قيامهم بالليل وحده يُفرّق بيني وبينهم بمراتب شاسعة، فليس أنا أتساوى معهم عند الله، فكيف بعدما أضفت أنا المعاصي؟! وكيف أكثر وأنا لا أقاتل في سبيل الله لنصرة الإسلام؟

فهؤلاء المُتقون يبحثون ويتلهفون على طرقٍ لمرضاة الله، فيتتابعون في الأمور التي يُحبها الله، وينتظرون باشتياق الفرصة القادمة لإرضائه، حتى إن الله يرى ذلك فيُباهي بهم مخلوقاته. فكما ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في حديث نقله عبد الله بن عَمرو بن العاص (رضي الله عنهما): صَلَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلاةَ الْمَغْرِبِ أَوْ غَيْرَهَا، فَجَلَسَ قَوْمٌ أَنَا فِيهِمْ يَنْتَظِرُونَ الصَّلاةَ الأُخْرَى، فَأَقْبَلَ إِلَيْنَا (صلى الله عليه وسلم) يُسْرِعُ الْمَشْيَ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَفْعِهِ إِزَارَهُ لِيَكُونَ أَحَثَّ لَهُ فِي الْمَشْيِ، فَانْتَهَى إِلَيْنَا فَقَالَ "أَلا أَبْشِرُوا، هَذَاكَ رَبُّكُمْ أَمَرَ بِبَابِ السَّمَاءِ الْوُسْطَى (أَوْ قَالَ بِبَابِ السَّمَاءِ) فَفُتِحَ فَفَاخَرَ بِكُمْ الْمَلائِكَةَ، قَالَ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي أَدَّوْا حَقًّا مِنْ حَقِّي ثُمَّ هُمْ يَنْتَظِرُونَ أَدَاءَ حَقٍّ آخَرَ يُؤَدُّونَهُ"[1].

يظل العبد منهم يلتمس ويتفرّغ لإرضاء الله، مُلحًّا على نيل رضاه تعالى، حتى يرضى الله عنه ويرحمه. فلا شك أن مثل هذا العبد قد بلغ عند الله مكانة مميزة، وله قيمة خاصة. فكما جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَلْتَمِسُ مَرْضَاةَ اللَّهِ وَلا يَزَالُ بِذَلِكَ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِجِبْرِيلَ: إِنَّ فُلانًا عَبْدِي يَلْتَمِسُ أَنْ يُرْضِيَنِي، أَلا وَإِنَّ رَحْمَتِي عَلَيْهِ؛ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى فُلانٍ، وَيَقُولُهَا حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَيَقُولُهَا مَنْ حَوْلَهُمْ حَتَّى يَقُولَهَا أَهْلُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ تَهْبِطُ لَهُ إِلَى الأَرْضِ"[2]. فإني أريد نيل مثل منزلته الرفيعة وكرامته البالغة دون جهد كثير، فماذا يُقال في ذلك؟

---

[1] مسند أحمد 6564.

[2] مسند أحمد 21367.

وكيف لا يرضى الله عنهم وهم يترددون كثيرًا إلى المسجد ليعبدوه، يلجأون إليه في كل حالٍ وموضع، مثل تسمية الله قبل المأكل والمشرب وحمد الله بعده، وفي كل حاجةٍ مثل الصلاة للاستسقاء والدعاء والاستغفار لكشف الكرب والاستخارة قبل الإقدام على اختيار؛ كل حركة وسَكَنَة عندهم يخضعونها لحكم الله. بل بلغ خشيتهم من مكر الله وعذابه إلى أن كلما يحدث تقلب في جو السماء (مثل كسوف الشمس أو سحاب مُظلم) أو في تُربة الأرض (مثل زلزال)، سارعوا للصلاة في المسجد يتضرعون إلى الله خاشعين منه، طالبين مغفرته ورحمته وألا تكون عذابًا مُهلكًا من عنده.

فكان الله لا يُخيِّب رجاءهم ومناجاتهم عند الدعاء، ولا يُضيّع جُهدهم، فلم يبعث عليهم ما نراه الآن في بلادِ المسلمين من زلازل وعواصف ثلجية ومائية وهوائية، أو الجراد أو أمراضٍ مستحدثة. وأول إنذار وقع بين المسلمين من مثل تلك الكوارث كان زلزالًا على عهد سيدنا عمر (رضي الله عنه)، فخطب في الناس ولامهم على أعمالهم، ونبأهم لئن وقع ثانيةً ليَهجُرَنَّهم ويتبرأ منهم، إذ أدرك أن ذلك بسبب مخالفتهم لأوامر الله.

وقد بيَّن لنا النضر بن عبد الله (وهو أحد التابعين) عن أحوال الصحابة وأحوال ما بعدهم قائلًا: كَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى عَهْدِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) فَأَتَيْتُ أَنَسًا فَقُلْتُ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، هَلْ كَانَ يُصِيبُكُمْ مِثْلُ هَذَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ، إِنْ كَانَتْ الرِّيحُ لَتَشْتَدُّ فَنُبَادِرُ الْمَسْجِدَ مَخَافَةَ الْقِيَامَةِ![1] فكانت مبادرتهم إلى المسجد تجلب رضا الله، فوقاهم ليس فقط عذابه، بل حتى الإنذارات. وخشيتهم تلك كانت بالرغم من قلة معاصيهم وعِظَم ما قدموه لإرساخ الإسلام ونشره في الأرض.

ومع أن خشيتهم من الله بلغت أنهم كانوا يتضرعون له مع كل تغيرٍ في المناخ، فإنهم كانوا لا يخشون أحدًا من العباد بتاتًا، ولو كان أعداؤهم جمعوا من العدة والعتاد ما يفوقهم. فلم تكن خشيتهم من الله تحول بينهم وبين مقاتلة الأعداء بعزةٍ وشجاعةٍ وضراوةٍ؛ كانوا يخشون الله وحده. وعلى الصعيد الآخر، فأنا أعصي الله وإذا رأيت ريحًا قويًا وسحابًا كثيفًا أكون بين تهوين الأمر أو حتى السُرور مستبشرًا بالمطر، وفي الحقيقة أنا في غفلةٍ أنه قد يكون هذا عذابًا من عند الله. أنا تصرفاتي آنذاك أقرب للذين قال الله فيهم {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الأحقاف 24]. فقولوا لي كيف هذه المفارقة؟

وإليكم نموذجًا من طريقة تفكيرهم وتطلعاتهم التي تُعلي هِمَمِهم، التي تختلف عن منظور وغاية أغلب الناس: كان أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلانِيُّ عابدًا مجتهدًا، وحافِزه تَبَيَّن في مخاطبته لنفسه عندما تفتر: أَتَظُنُّ الصَّحَابَةَ يَسْتَأْثِرُوا بِمُحَمَّدٍ دُونَنَا؟ وَاللَّهِ لأُزَاحِمُهُمْ عَلَيْهِ زِحَامًا حَتَّى يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ خَلَّفُوا

[1] سنن أبي داود 1011.

رِجَالا[1]. فهل فكري يُقارب فكره؟ لماذا إذًا قد ينظر الله إليَّ وله عبادٌ مثل هؤلاء؟ حتى إن أدخلني الله الجنة، فأي مرتبة سيعطينيها مقارنةً بجانب هؤلاء؟

مقارنة حالي بحال المخلوقات الأعظم مني. لله مخلوقات أعظم خلقًا مني، كالملائكة والسماوات، وبالرغم من ذلك فهم أعبد لله مني! ألست بضعفي أولى من الملائكة في أن أكون أكثر خشية من الله؟ قال تعالى {تَكَادُ السّمَاوَاتُ يَتَفَطّرْنَ مِن فَوْقِهِنّ وَالْمَلاَئِكَةُ يُسَبّحُونَ بِحَمْدِ رَبّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأرْضِ أَلاَ إِنّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ} [الشورى 5]. الله... العظيم... الذي تكاد السماوات أن تتشقق من عظمته لولا أنه يُمسكهن، ما أنا له جل جلاله؟ أنا وجميع الخلائق إن اجتمعنا لن نضره ولن ننفعه. هل هو يحتاج إليَّ أو عبادتي له؟

إني أقارن بين حال السماوات وبين حالي، فإنهن يكدن أن يتفطرن من عظمة الله، وأنا هنا غير دارٍ، وربما غير مبالٍ، بما يحدث حولي... وأعصي ربي. إذا كانت السماوات التي قال عنها الله {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [غافر 57] يوشكن أن يتفطرن، فكيف ينبغي أن يكون حالي؟

والملائكة... إنهم يسبحون الله من بداية خلقهم حتي يوم القيامة، لا يسأمون ولا ينقطعون عن التسبيح {وَلَهُ مَن فِي السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبّحُونَ اللّيْلَ وَالنّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ} [الأنبياء 19-20] ("لاَ يَفْتُرُونَ" أي لا يتعبون). أتدرون بعد كل هذا ماذا يقولون يوم القيامة؟ يقولون، كما جاء في حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "ما في السَّماواتِ السَّبعِ موضعُ قدمٍ ولا شبرٍ ولا كفٍّ إلَّا وفيه مَلَكٌ قائمٌ أو مَلَكٌ ساجدٌ، فإذا كان يومُ القيامةِ قالوا جميعًا: سبحانَك ما عبَدْناك حقَّ عبادتِك، إلَّا أنَّا لم نُشرِكْ بك شيئًا"[2]. والله إنهم لعلى حق... كيف يوفّون حق الله في العبادة لعظمته وفضله، التي لا يحصرهن ولا يستوعبهن أحدٌ إلا هو تعالى، وإنما يستشفعون بأنهم لم يُشركوا به شيئًا ولا يستشفعون بعبادتهم لله بالرغم من كثرتها!

هم على ذلك الحال بالرغم من عظم خلقتهم، فقد قال تعالى عنهم {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فاطر 1]. ووصف لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) حجم ملائكة العرش في قوله "أُذِنَ

---

[1] التبصرة لابن الجوزي 500/1.

[2] مجمع الزوائد للهيثمي 56/1؛ رواه جابر بن عبد الله. حكم المحدث: فيه عروة بن مروان؛ قال الدارقطني عن عروة: ليس بقوي في الحديث وبقية رجاله رجال الصحيح.

لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ"[1].

وفي وصف لأحد الملائكة الذين لا يعرفهم إلا القليل من الناس، وهو الملك الموكل بالسحاب، قد سأل عنه نفر من اليهود وهم يتحققون من صدق نبوة الرسول (صلى الله عليه وسلم). سألوا: أَخْبِرْنَا مَا هَذَا الرَّعْدُ؟ قَالَ "مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، بِيَدِهِ (أَوْ فِي يَدِهِ؛ كما نقل الراوي) مِخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ، يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ"، قَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي يُسْمَعُ؟ قَالَ "صَوْتُهُ"، قَالُوا: صَدَقْتَ[2] (مِخْرَاقٌ، هو في الأصل ثَوْبٌ يُلَفُّ وَيَضْرِبُ بِهِ الصِّبْيَانُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَأَرَادَ بِهِ هُنَا آلَةً تَزْجُرُ بِهَا الْمَلَائِكَةُ السَّحَابَ؛ يَزْجُرُ أي يسوق). فصوت الرعد المُفزع والمَهيب الذي نسمعه إنما هو صوت زجرة ملك السحاب للسحاب، فما بالنا بحجمه وشكله وصوته الخاص؟!

وقد رأى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سيدنا جِبرِيلَ (عليه السلام) في هيأته الحقيقية، كما جاء في جزء من حديثٍ له "إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنْ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ"[3]. هذا، وإن سيدنا جبريل (عليه السلام) ليلتصق بالأرض عندما يكون عند الله من شدة الخشية، فقد شبَّه الرسول (صلى الله عليه وسلم) حاله بالكساء الرقيق الذي يُفرش ويُبسط على أرض البيت، قائلًا "مَرَرْتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي بالملأِ الأَعلَى، وجبريلُ كالحِلْسِ البالي من خشيةِ اللهِ تعالى"[4].

أما عن عددهم فهو هائل، ففي جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) جاء "فَرُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ"[5]، أي أنه يأتي غيرهم كل يوم. فتلك أنباء عن عظم خلق الملائكة، ومع ذلك يُوقفهم الله صفوفًا يوم القيامة من شدة هيمنته عليهم وخضوعهم له {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر 22]، ولا يتكلم منهم أحد إلا من يأذن له الرحمن.

ومن الملائكة من يستغفرون الله لي إضافة إلى تعبدهم لله! قال تعالى {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْما فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَاتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (7) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ

[1] سنن أبي داود 4102.

[2] مسند أحمد 2359، جزء من الحديث.

[3] صحيح مسلم 259.

[4] صحيح الجامع للألباني 5864. الراوي: جابر بن عبد الله.

[5] صحيح البخاري 2968.

السّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [غافر 7-9]. فأين أهرب استحياءً من نفسي؟ والسؤال الذي ليس فيه جدال في إجابته، ويجعل الجميع يقر بحقيقة رحمة وكرم ونعمة ورأفة وعدل الله... من الذي خلق الملائكة يستغفرون للمؤمنين بفطرتهم؟!

لماذا خلق الله ملائكة يستغفرونه... لنا؟ قل لي أخي. وماذا يدل هذا عن صفات الله، أن يخلق ملائكة ويُلهمهم أن يستغفروا لنا كي يعطينا كل حقوقنا وزيادة ليرحمنا، ويريد لنا أي حجةً ليرحمنا! حقًّا، {مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيما} [النساء 147]. فحقًّا، ما الفائدة أن يُعذّب اللهُ من شكر وآمن، ولماذا قد يفعل هذا ونحن لا نملك له نفعًا ولا ضرًّا وهو غنيٌّ عنا؟ إنما هي نظرتنا القاصرة لواقع حياتنا عندما نتساءل: لماذا يعذب الله من عصاه عذابًا أليمًا لهذا الحد؟ هذا سؤال قاصر لأن وجهة النظر خاطئة، والمفترض أن نفكر بالعكس، وهو أن نسأل: ما يفعل الله بعذابنا إن شكرنا وآمنا؟! ولماذا إذًا لا يُعطي العاصي تلك الحقوق السهلة لله، بل يأبى ويفعل ما يحلو فقط لنفسه هو؟

والله إن الله يتعاذر لنا ليرحمنا، بدليل هذين الحديثين عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مِنْ الْخَيْرِ شَيْءٌ، إلا أَنَّهُ كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَكَانَ مُوسِرًا، فَكَانَ يَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنْ الْمُعْسِرِ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ"[1]، والحديث "كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إلا مَنْ أَبَى"، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى؟! قال "مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى"[2]؛ وغيرهما من الأحاديث الدالة. ماذا أفعل؟ كيف أنا الآن من هذا الوضع الغريب... قد سجد الملائكة لأبي آدم ثم أنا أعصي ربي.

لا مفر من الإجابة الطبيعية الصريحة... كل هذه الأفكار إجابتها: أقبل على التوبة! وكأن الله سدَّ عليَّ كل المخارج إلا مخرجًا واحدًا... طريق التوبة والرجوع إليه. وكل هذا لمصلحتي، ليس لله حاجة في شيء مني! إذًا، لئن لم أستغفر وأتب... ماذا أكون حينئذ؟ أتساءل في هذا لأني قد أعصي الله وأنسى أن أستغفره. أين حيائي وضميري؟

فلله ملائكته لا يُقلعون عن عبادته للحظةٍ أبدًا، وهذا دون التطرق إلى أنهم لا يُضيّعون الوقت بفعل لا شيء، فضلًا على أنهم لا يعصون الله أبدًا. قد قال الله فيهم {إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ} [الأعراف 206]، وهم على ذلك الحال على الدوام دون أن يملّوا، فرحين بعبادة الله {فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ} [فصلت 38] (لَا يَسْأَمُونَ أي لا يَمِلّون). ومع ذلك، يوم القيامة يُقِرُّون أنهم لم يعبدوا الله حق عبادته!

---

[1] صحيح مسلم 2921.

[2] صحيح البخاري 6737.

سبحان الله، قد خلق الله الملائكة أعظم منا، وهم لا يستكبرون عن عبادة الله ولا ينقطعون عن تسبيحه والسجود له، وقد خلق الله الناس أضعف من الملائكة، ولكن منهم من يستكبرون عن عبادة الله، بل إن فريقًا منهم يستكبرون عن الإيمان بالله كليًّا. وأنا أتكاسل عن عبادته تارة، وأنشغل عن ذكره تارة، بل وإني أتجرأ فاعصيه تارةً. ما هذا الفرق الكبير بين عباد الله في تصرفاتهم؟! المخلوقات العظيمة لا تتجرأ على ترك عبادة الله للحظة، وعلى النقيض الآخر فإن مخلوقات هزيلة مثلي تتجرأ على معصيته، أعطوني عقولكم! فسبحان الله، له في أموره حِكَم لا يُسأل عنها، ولا نملك إلا المداومة على الاستغفار والتوبة مع الاجتهاد في عبادته.

**نماذج عن مدى صبر صنف من عباد الله عن مُخالفة أمر الله بالرغم من الاضطهاد والفتن.** هناك عبادٌ لله أدركوا أن مهما حدث لهم ومعهم فإنه يكون أهون مما سيقع عليهم من ربهم إن خالفوا أمره، فهانت عليهم أنفسهم، وكانت أرخص عندهم من أن يعصوا الله بها لكف أذى الناس عنهم. هؤلاء تكبدوا التعذيب والتنكيل من الطغاة لأن ذلك كان أهون عليهم من عذاب الله وتنكيله {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا} [النساء 84].

هذا لأنهم أحاطوا بقوة آيات الله، وامتزجت بقلوبهم، وتدبروا معانيها الشاملة، فأدركوا أبعاد ما تحمله تلك الآيات من رسائل ودلالات، فرسخ عندهم الإيمان بقوة، وعملوا بناءً على ذلك الإيمان الراسخ. آيات عندما علموها دمجت بهم فتعايشوها، فكانت تُملي عليهم منهجهم العملي، آيات مثل {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ} [الانفطار 19].

ذلك اليوم الفارق، الذي يُفرق فيه بين الحق والباطل، والذي يُفرِّق بين المخالفين لأمر الله ولو كان بين الأب وابنه. اليوم الذي يُفرِّق بين الصداقة الحقيقية، الذين يُعينون بعض على طاعة الله، وبين الصداقة الزائفة التي ظاهرها حب وباطنها هلاك وتبرئة الأطراف لبعضهم، بل والخيانة بإلقاء اللوم على بعضهم. حين لا تملك نفس لنفس شيئًا، أكثر الناس ضياعًا يومئذ الذين علقوا نجاتهم بالتعلق بمعتقدات أفراد في الدنيا يثقون بهم، أي المشركون الذين يتبعون أقوال غيرهم بدلًا مما أنزله الله.

ثم يليهم ضياعًا الذين كانوا يعصون الله من أجل إرضاء آخرين، أو للاندماج مع فرقة من الناس ونيل ثقتهم أو مما معهم من متاع الدنيا. فإياك والخنوع لمعصية الله بضغط أحدٍ، مهما كان من هو، ومهما استعمل من الأساليب، فإنه لا سلطان له عليك، يُريدك التصدر له في حمل وزر المعصية ليعلو هو في الأرض سالمًا غانمًا. وبمخالفتك لمثل هذا الفاسق الغادر ستفوز بفوزين: رضا

الله، واسترداد حقك من الظالم؛ وكِلا الأمرين يُقِرّان عينك ويُرضيان قلبك ويُسكِنان فؤادك، فالمُحصّلة تكون أن تعتليك البهجة والسكينة في نهاية المطاف. أما إذا أطعت أحدًا من البشر في معصية الله، فإن آخر ذلك الطريق (وإن طال الأمد) أن يطعنك في ظهرك، والذلة والصغار عند الله وبين الناس لك وله.

ولنأخذ قدوتنا في الصبر على الأذية، مع قلة الحيلة، من سيدنا بلال (رضي الله عنه)، فقد جاء عن عبد الله بن مسعودٍ (رضي الله عنه) قال: كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلامَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعَمَّارٌ وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ وَصُهَيْبٌ وَبِلالٌ وَالْمِقْدَادُ. فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمْ الْمُشْرِكُونَ وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا إِلا بِلالا، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ فَأَخَذُوهُ فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ[1] (وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا أي أجابهم بما أرادوا منه، وذلك جبرا من شدة التعذيب).

كان يرى سيدنا بلال (رضي الله عنه) نفسه أهون من أن يُغضب ويعصي الله بها استجابة لهؤلاء، وذلك من شدة تعظيمه لله. فلم يكن يكترث إلى ما يحدث لنفسه، وإن مات من التعذيب (والذي بالفعل وشك أن يحدث)، وذلك من أجل إرساخ توحيد الله.

وقد كان فيمن سبق مَن أوذي أشد الإيذاء وما تزحزح عن دينه، بالرغم من أنه معه عذر. قد فُعل بهم كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيما يرويه سيدنا خَبَّاب (رضي الله عنه): شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ "كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ؛ وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"[2].

وهناك أيضًا واقعة الأخدود، إذ حُرِّق في النار كل من آمن بالله وخالف دين الملك، فقُذف أفواج من المؤمنين في النار. وقد روى لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) تفاصيل تلك الفاجعة قائلًا "كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلامًا يُعَلِّمُهُ. فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلامَهُ فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا

[1] سنن ابن ماجه 147.

[2] صحيح البخاري 3343.

خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ، فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ؛ فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ. فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلا تَدُلَّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ. فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟! قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلامِ. فَجِيءَ بِالْغُلامِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ. فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ؛ فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ [أي قطعتين أو نصفين]، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ؛ فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ. ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ؛ فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلا فَاطْرَحُوهُ؛ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ؛ فَرَجَفَ بِهِمْ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ [هي سفينة صغيرة] فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلا فَاقْذِفُوهُ؛ فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ؛ فَانْكَفَأَتْ بِهِمْ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعْ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلامِ؛ ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلامِ؛ ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ [هو جانب الوجه بين العين والأنف]، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلامِ. فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ [هو الشق العظيم في الأرض] فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ [أي مداخل الطُرقات حُفرت] وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا (أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ)، فَفَعَلُوا، حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ [أي توقفت ولزمت مكانها، كراهة إدخال رضيعها معها في النار] أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ"[1].

---

[1] صحيح مسلم 5237.

فهؤلاء هم المؤمنون الثابتون الصادقون حقًّا، فلنحتذي بهم، وما يُصيبنا لا يكون مثل ما أصابهم، فلا يحملك غرور مَن حولك أو قدرتهم عليك على معصية الله، فإنه لن يَحملوا عنك أوزارك بالرغم من أنك جاريتهم وأطعتهم. وعلى الصعيد الآخر، يخجل المرء من نفسه وتصيبه خيبة أنه يُرتِّب للمعصية مسرورًا ويذهب إليها بكامل إرادته، مقارنةً بهؤلاء الذين يُقاومون معصية الله بالرغم أنهم يُجبرون عليها جبرًا.

## النظر إلى حال من هم أقل حظًّا مني في أمور الدنيا

نقطة مهمة ينبغي ذكرها للتوضيح: هناك فرق بين أن ينظر المرء إلى من هو أفضل منه في أمور الدين وبين أن ينظر المرء إلى من هو أدنى منه في أمور الدنيا، فلا يوجد تعارض بينهما. فالنظر إلى من هو أفضل مني في الإيمان يزيد هِمَّة المرء ويُريه مثالًا ليقتدي به، والنظر إلى من هو دوني من حظ الدنيا يزيد المرء رضا وشكرًا بنعم الله، وقد حث الله على الأمرين. والدليل على ذلك هو قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "خَصْلَتَانِ مَنْ كَانَتَا فِيهِ كَتَبَهُ اللَّهُ شَاكِرًا صَابِرًا، وَمَنْ لَمْ تَكُونَا فِيهِ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ شَاكِرًا وَلَا صَابِرًا: مَنْ نَظَرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فَاقْتَدَى بِهِ، وَمَنْ نَظَرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ فَحَمِدَ اللَّهَ عَلَى مَا فَضَّلَهُ بِهِ عَلَيْهِ؛ كَتَبَهُ اللَّهُ شَاكِرًا صَابِرًا. وَمَنْ نَظَرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ وَنَظَرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فَأَسِفَ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنْهُ، لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ شَاكِرًا وَلَا صَابِرًا"[1].

وأدلة أخرى على ذلك هو أن الله أمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) بالاقتداء بهَدي من سبقوه من الرُسل في قوله {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام 90، جزء من الآية]. وأما فيما يختص بأمور الدنيا، فقد جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ"[2] (أَجْدَرُ أي أمنع وأحفظ؛ تَزْدَرُوا أي تُحَقِّروا أو تستصغِروا). وإذا ازدرى العبدُ نِعَم الله ترك حَمد الله، وكان أكثر قابليةً للإقبال على معصية الله، لتحصيل ما يراه ينقصه ويستحقه من متاع الدنيا.

ومن الجهة الأخرى، من يسلك ذلك النهج فإنه يرضى بما آتاه الله من النعم، فيُلاحظ ويُقدِّر تلك النعم على حقيقتها أكثر، لأنه يعلم أن أي نعمة لم تكن عنده لولا أن الله وهبه إياها، حتى الهداية إلى الإسلام. وأيقن الرسول (صلى الله عليه وسلم) والصحابة (رضي الله عنهم) والصالحون هذا، وتبين في كلامهم وأفعالهم، فمثلًا قد كان يدعو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما يأوي إلى فراشه "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ"[3]. وأوصانا

---

[1] سنن الترمذي 2436.

[2] صحيح مسلم 5264.

[3] صحيح مسلم 4890.

(صلى الله عليه وسلم) أن نقول بعد الأكل "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ"[1]. وكان يُنشد سيدنا عامر بن الأكوع (رضي الله عنه) فيقول:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

ورضا العبد بتلك النعم ورغبته في بقائها، وكراهية زوالها، تجعله أكثر تقوة لله وبُعدًا عن معصيته تعالى، إذ إنه يعلم أن الرزّاق هو الله وأن تلك النعم إنما هي رزق من أرزاق الله. وبهذا يحرص من أن يقبضها الله عنه بسبب معصيته الله أو حتى استصغاره للنعمة.

بل وربما يزيد عن ذلك فلا يكون هجره للمعاصي هو الأثر الوحيد على المرء، فقد يجتهد أكثر في أداء حقوق نعم الله عليه، وشُكره بالوفاء وبيان الامتنان. فيتصدق أكثر من المال الذي يمتلكه مثلًا، حتى يبلغ أنه يُهلك ماله في الحق وفي سبيل الله، وتلك من السيمات التي أثنى عليها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ"[2].

## النظر إلى حال المسيئين في الآخرة

جاء في كتاب الله عن أهل النار {فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ} [فصلت 24]. هذا حال أصحاب النار، إذ يوبَّخون ويُحَسَّرون على ما هم فيه فيقال لهم سواء أصبروا أم لم يصبروا فالنار مأواهم. أما الجزء الثاني من الآية فقال فيه المفسرون إنهم يطلبون العُتبى، أي الرضا من الله، أو أنهم يطلبون العودة إلى الدنيا كي يصلحوا ما كانوا فيه، ولكن الله يأبى عليهم ذلك.

وأقول إنه يُحتمل أن يكون من معاني "يَستعتَبوا" هو أنهم من شدة يأسهم مع شدة رغبتهم في الخروج من النار بأي سبيل من السبل يتمنون فتح باب الحوار مع الله، أملًا أن ذلك يؤدي إلى مخرج لهم (أملٌ مبنيٌّ على أمل). وهذا بأن يطلبوا العتاب من الله (أي أن يعاتبهم ويؤنبهم على ما فعلوا) فيعاتبهم، ومن هناك يُقرّون بخطئهم ويعتذرون، أو يتحججون ويُبرّرون، مجيبين الله إلى ما يريده، وهو الإيمان به وطاعته، فينالون عفوه عنهم ويخرجون من النار. وأنى لهم ذلك إذ قُضي الأمر الذي لا يعاد فيه وهو الحياة والحساب والجزاء، ووافقوا على الاستجابة والخضوع لله بعدما قُهروا بينما أراد الله أن يفعلوا ذلك طوعًا.

---

[1] سنن الترمذي 3380.

[2] صحيح البخاري 71، جزء من الحديث.

فيا أخي، عاتب نفسك من الآن قبل أن يأتي الوقت الذي يُحكم عليك فيه بعدم المُعاتبة، وحاسب نفسك قبل أن تأتي مرحلة المحاسبة من الله. وكما وصّانا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ" (الْكَيِّسُ أي العاقل أو الفطن أو الحكيم؛ دَانَ أي اتَّهم نفسه وخطَّأها فقوَّمها). وقد كان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا. ويُروى عن مَيمُونِ بن مِهْرَانَ قال: لا يَكُونُ الْعَبْدُ تَقِيًّا حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ كَمَا يُحَاسِبُ شَرِيكَهُ مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ وَمَلْبَسُهُ[1].

ومن المآل السيئ في الآخرة هم من قال عنهم الله {رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ} [الحجر 2]. جاء في التفاسير أن الذين كفروا يتمنون أن لو كانوا مسلمين؛ واختلفوا في الزمن الذي يقع فيه ذلك، فمنهم من قال في الدنيا حين انتصر المسلمون، ومنهم من قال إنه يوم القيامة حين البعث، وقيل عندما يُعرض الكفار على النار، ومنهم من قال إنه يكون عندما يُخرِجُ اللهُ من النار المسلمينَ الذين أكثروا من الذنوب. ولكن لا شك في أن الكفار يودون لو كانوا مسلمين في جميع مراحل البعث، إذ يرون ما المسلمون فيه من أمن وفضل مقابل ما هم فيه من تنكيل وعناء.

وقد جاء في حديث أبي مُوسَى عند ابن أبي عَاصِم والبَزَّار رَفعَه عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "وَإِذَا اِجْتَمَعَ أَهْل النَّار فِي النَّار وَمَعَهُمْ مَنْ شَاءَ اللَّه مِنْ أَهْل الْقِبْلَة يَقُول لَهُمْ الْكُفَّار: أَلَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ؟ قَالُوا: بَلَى؛ قَالُوا: فَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ إِسْلامُكُمْ وَقَدْ صِرْتُمْ مَعَنَا فِي النَّار؟ فَقَالُوا: كَانَتْ لَنَا ذُنُوبٌ فَأُخِذْنَا بِهَا؛ فَيَأْمُر اللَّه مِنْ كَانَ مَنْ أَهْل الْقِبْلَة فَأُخْرِجُوا. فَقَالَ الْكُفَّار: يَا لَيْتَنَا كُنَّا مُسْلِمِينَ"[2]. فها نحن في هذه النعمة، فما نحن فاعلون بها؟ هل من شيمة المسلم، الذي يتمنى الكافر أن يكون مثله، أن يُفرّط في الإسلام بعد أن ناله؟ هل من حياء وشرف المسلم أن يُسرف في معصية الله وهو معه ذلك الفضل وتلك الرخصة من الله؟ بل الأسوأ وهو هل للمُسلم أن يرى أن العزة والرُقي هما في أهل الكفر، فيريد أن يكون مثلهم فيتولاهم فقط لأنهم جمعوا رخاء وعلوم الدنيا؟! هذا كله متناقض ومنافٍ للعقل.

وقياسًا على الصعيد الآخر، فمن المنطقي أن يكون التمني والغبطة على الدرجات أيضًا، أي أن المسلم ذا المنزلة المتدنية يتمنى أنه كان شد همَّته واجتهد في الدنيا فيكون له مكانة ذي المنزلة الرفيعة. فهل أتقاعس وأنا في الدنيا الآن وأتوهم بالمنزلة الرفيعة دون العمل الصالح؟ بل ومع ارتكاب المعاصي؟! هذا مُنافٍ للمنطق.

---

[1] سنن الترمذي 2383.

[2] فتح الباري بشرح صحيح البخاري 6088، رواه: أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس؛ صححه الألباني في تخريج كتاب السنة 843.

## النظر إلى حال المُرتقين في الآخرة

لا شك أن كل امرئ في الجنة سينظر بغبطة إلى من هو أعلى منه في الدرجة، لما بين كل درجة بما فيها والتي تعلوها من فرق. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنْ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ"، قَالُوا (الصحابة): يَا رَسُولَ اللَّهِ، تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ "بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ"[1] (الدُرّي أي المتوهج شديد الإضاءة؛ الغابر أي الذاهب أو الماضي). وقال (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ"[2].

فما بالنا عن حال من هم في أعلى مرتبة في الجنة للعباد، وهي الفردوس، ولكنها دون الوسيلة التي هي فقط لرجل واحد. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا سَمِعْتُمْ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ"[3].

هؤلاء الذين يكونون في الفردوس، قريبين من الوسيلة، يكونون مع النبيين والصِدّيقين والشهداء والصالحين والمُحسنين والأبرار والسابقين الأولين والشهداء. ولا شك أنه عندما يعي المرء بوجود مثل تلك المراتب مع معرفة ما فيها من زينة ومتاع، وأن هناك من يستهدف ويبلغ تلك المنازل، فإن حافزه وهِمّته لبلوغ تلك المنازل تعلو، فيَجِدُّ ويجتهد سعيًا. قال تعالى {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين 22-26].

ثم ماذا يشعر المرء منا عندما يعلم أن الله هو الذي اختار هؤلاء من بين عباده؟ يُعدّ لهم تلك المنزلة بيديه الجليلتين بحيث يكون ذلك المكان خاصًّا بهم، مُهيَّأً عليهم لخدمتهم وتلبية شهواتهم، وذلك من درجة عزة وقدر أولئك العباد عنده تعالى وحبّه لهم. جاء في جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ

---

[1] صحيح البخاري 3016.

[2] صحيح البخاري 6873.

[3] صحيح مسلم 577.

عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"[1]. فهل ازدادت همَّة أحدنا لطاعة الله بعد سماع مثل هذا الحديث أم لا؟

## المقارنة بين الترويع والطمأنينة من الله للعبد في جميع مراحل الآخرة بحسب عمله في الدنيا، فأيهما أُحب؟

قال تعالى {كَلا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي} [الفجر 21–30].

إنها لأحداث مُرَوِعَة ولحظات عصيبة، حين تُدَك الأرض دكًّا دكًّا، ويأتي الملائكة صفًّا صفًّا، لا يتجرءون على الكلام من شدة خوفهم من غضب الله ذلك اليوم، اليوم الذي يقول فيه الأنبياء: رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي[2]، ويرى الإنسان جهنم تُجَرَّ تجاهه. في تلك اللحظات الفارقة يُصارح الإنسان نفسه من شدة الفزع، فيُقِرّ بينه وبين نفسه بما قدمه من أباطيل وتقصيره في حياته في أثناء تلك اللحظات، ولكنه في محاولة يائسة للنجاة قد يكذب على الله ويجادل.

ولكن، بعد كل الحجج والكذبات والتورية والتحايلات على الحقيقة مع الناس في حياته الدنيا، ويتذكر الإنسان تفاصيل ما قدمه وما كانت نياته، فأنى له الذكرى (قال ابن كثير رحمه الله: أي عمله وما كان أسلفه، وكيف تنفعه الذكرى). فيتكشف أمامه كل شيء، فلا ينفع الكذب ولا الموارة ولا الجدال مع الله في الآخرة. والعجيب في الوضع هو أن هذا يوم الندم الذي لا ينفع فيه الندم!

ولننظر إلى المآل بحسب الفرق في الأعمال كي نتعظ: فإما نفس تُرَوَّع وتُعذَّب، وإما نفس يُنزل الله عليها الطمأنينة والراحة. لا إله إلا الله، هذا هو الحق والعدل، لا جدال في ذلك، وكلٌّ منا يعلم حقيقة ما يفعله. فكيف يُقارن، وهذا فقط بداية الطريق، بين موتٍ يُستَقبَل فيه المرء بملائكة عابسين يُخرجون الروح بغلظة مع تنبيئه بالعذاب والحرق، وبين موتٍ يُستقبل المرء بملائكة حسن الوجوه مبتسمين يُبشّرونه بالسلام والجنة؟! كيف يُقارن بين الضيق والعذاب في القبر وبين الفَسَحَة والتسلية في القبر، بين الحرق يوم تدنو الشمس وبين الظل من الله، بين العطش وبين الارتواء من حوض الرسول (صلى الله عليه وسلم)، بين مناقشة كل عمل للمرء وبين عدم المحاسبة، بين هذا وذاك وبين كذا وكذا؟ بل وبين الجنة والنار؟!

---

[1] صحيح مسلم 276.

[2] صحيح البخاري 3092.

كم نظنه قيمة الانتقال من حال العذاب والبؤس إلى حال النعيم والسرور؟ ما هو القدر الذي يكون العاصي مستعدًّا أن يبذله كي فقط يُرفع عنه العناء يومئذ (أي دون دخول الجنة حتى) {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [الزمر 47]؟

ومصيبة أخرى هي من الذي يكون ولي المرء يوم القيامة، فكل فرد اتَّبع رمزًا في الدنيا يجد الرمز وليه يوم القيامة. فأما حال الذين اتبعوا الشيطان أنه يكون هو وليهم يوم القيامة {تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النحل 63]. وأما حال الذي اتقى يكن وليه الله {لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأنعام 127]، وتتولى ملائكة الرحمان شؤونه يوم القيامة حتى يوصلونه إلى بر الأمان {نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} [فصلت 31]. فمن منا يقبل أن يكون الشيطان هو وليه يوم القيامة ويُمَثِّله أمام الله ويتولى أموره، يُدافع عنه بالحُجج مُبرِّرًا معاصيه؟

وهناك نقطة مهمة يجب أن نُدركها، وهي أن من عمل صالحًا في الدنيا يُحب لقاء الله، ومن كان عمله فسادًا كره لقاء الله، بما تشملها كلٌّ من الحالتين من تبعات ما بين الموت والحساب وتعامل الملائكة معه وغير ذلك. هذا وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ"، قالت السيدة عائشة (أو بعض أزواجه، رضي الله عنهن): إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ؛ قَالَ "لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ. وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ"[1].

ثم إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فإن المؤمن يود أن يلقى ربه ليرى الراحة والمتعة التي وعده الله إياها وأعدها له، ويلقى ربه الذي كان يعمل من أجله. ذاك العبد يتمنى لقاء ربه كي يرى رضا الله عنه والمكافأة لكدّه وشقائه في الدنيا لله، ويريد أن يرحل من دار الشقاء والخراب إلى دار الراحة والخلود. والعكس صحيح، فالعاصي يعلم أنه حان وقت الحق، لحظة الحق... الموت، فيكره لقاء ربه مخافة الحساب ممن خالف أمره فيما عمله، ومن ثمَّ يُريد التهرب من العقاب على ما ارتكبه، بالإضافة إلى عدم رغبته في ترك الدنيا التي ساد فيها وبلغ التمكن من متاعها بقهر الضعفاء والاستيلاء على المُمتلكات. فيا لتعاسة هذا الذي يكره لقاء ربه. أبَلغت أعماله الفاسدة إلى حد أنه يكره لقاء خالقه!؟! ولماذا، لدنيا أراد إصابتها! وهذا رب العالمين... ومن كره لقاء الله فأين يريد أن يذهب؟ إنه لتائه ضائع، فيا للحسرة.

---

[1] صحيح البخاري 6026.

فلماذا لا أُهيِّئ نفسي للقاء ربي؟ لماذا لا أعمل صالحًا كي أحب لقاءه تعالى، كي أرى خالقي وخالق كل شيء؟ لا شك أن في اللقاء فيه ما فيه من شرفٍ وفرحٍ. ولا أزعم أن الأمر سهل ويخلو من الكد والاضطهاد، ولكن آخره تعويض على ذلك بغزارة، وهذا يتمثل بالفوز بالجنة التي لا شك أنها أفضل من الدنيا بأضعافٍ لا متناهية! لماذا لا أصبر إذًا؟ الطريق صعب وكله كد ومعاناة، ولكن آخره ما لا عينُ رأت ولا أذنُ سمعت ولا خطر على قلب بشر. فإن لم أستطع إقناع نفسي بهذا كله لتقوى الله، فلأفعل ما شئت لأنه طريق ضال كله عذاب بمتاعٍ سطحيٍ، كالخمر المُحَلَّى، ظاهره الشعور بالسعادة وربما طعمه حلو، ثم تظهر عواقبه الحقيقية بذهاب العقل وانهيار الجسد.

فالطريق صعب ويبدو طويلًا، ولكن الجنة حفَّت بالمكاره، والزمن الذي نقضيه في الدنيا لا يُقارن بزمن الآخرة، أفلا أصبر على ابتلاء الدنيا إذًا؟ هذه الدنيا التي كانت عقابًا لسيدنا آدم (عليه السلام) عندما عصى ربه، فهأنا أرتع وألعب وأتمتع بها وأسعد فيها، بل وربما يريد البعض المكوث فيها، أجعلتها جنَّتي؟ سبحان الله، كيف تنقلب العقوبة إلى دار سعادة في منظور الإنسان؟! ما هذا إلا امتحان، ولنجتازه تمامًا كما يجتاز الطالب الامتحان الدراسي، بالاستعداد والاجتهاد. ومن لا يستعد لن يرى كاملًا عاقبة تقصيره إلا بعد فترة من الزمن، حين يكون الأوان قد فات وليس بيده حيلة. هذا ومع الفارق أن امتحان الدراسة يعاد ويعاد، لكن امتحان الحياة فرصة واحدة لا تعاد، فهو أهم امتحان في حياتنا لأنه امتحان لحياتنا!

ولن أقول إنه لا يمكن الرجوع إلى الدنيا لإصلاح العمل، بل إن الأجل لأدق من ذلك كما قال الله تعالى {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف 34]، أي لا أستطيع أن أزيد أو أنقص من عملي مثقال ذرة عندما يحين أجلي. هذا ويا حظ من أحب الله لقاءه، ويا ويل من كره الله لقاءه، وهي فكرة تثير الرعب.

ويبقى آخرًا المصير النهائي، إلى الجنة أو النار، والذي أعطانا الرسول (صلى الله عليه وسلم) رؤية شاملة عنهما، في خلاصة مُعبرة، تُيسِّر لنا استيعاب الوضع بقوله "يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ، هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ، هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ"[1].

لا إله إلا الله. هكذا يكون جمال الجنة، وعذاب النار. فالذي يُغمَس في النار للحظة يرى أنه عُذِّب أكثر مما ناله من شهوات وراحة في عصيان الله، فيرى أن جميع ما تمتع به لم يكن يساوي

[1] صحيح مسلم 5021.

مدى معاناته في النار. إضافة إلى ذلك، فإن شدة ذلك العذاب يمحو من العاصي ذكرياته مما تمتع به في الدنيا. فكيف إن كان ماكثًا فيها لبعض الوقت، أو الأدهى: خالدًا فيها والعياذ بالله. فلماذا أنا مستمر في المعصية؟ لماذا لا يتّعظ قلبي ويتقي الله؟ ما فائدة المعصية؟ وماذا سأستفيد منها على المدى الطويل إن فعلتها؟ ولأي هدفٍ شمولي؟ فلا يعصي الله إلا سفيه أو جاهل.

إن المعصية متعة لحظية، ثم أنساها تمامًا عادةً، وأغفل عنها في مشاغل الدنيا بينما هي لا تغفل عني، لا أتفكر في أنها ستلقاني يوم القيامة وستنال مني. ذهبت لحظة المتعة وبقيت لطخةٌ في كتاب أعمالي، تطاردني إلي يوم القيامة حتى تلاقيني، حتى تُعرض عليَّ وتقتص مني، وقد نسيتها هي وإخوتها... فما بقي منها إلا الذل والأعباء. ولا شك أني سأعذب بها أكثر من متعتي بها، وذلك بين همّي من المحاسبة عليها وسخط الله عليَّ وبالطبع عذابه في الآخرة، إلا إذا أعتقني الله منها. فكفى عذابًا أن أعلم أني سأحاسَب عليها منذ لحظة موتي. كفى عذابًا أن تُذكر معصيتي أمام الله. كفى عذابًا أن يكلمني ربي عنها وأتكلم عنها مع ربي. وكفى عذابًا أن يجازيني عليها ربي، حتى إن غفرها لي في النهاية. فلماذا أصر على المعصية، ولماذا العناد؟ ما بقي سبيلٌ للخلاص أمامي إلا الاستغفار والتوبة.

أما على الجهة المعاكسة، فإن المُبتلَى عندما يُغمس في الجنة ينسى كل ما عاناه في الدنيا، وكأنها تُذهب العقل. ولكن في الحقيقة، ما يراه من جمال الجنة وتمتعٍ بالتفاعل فيها تجعله يشعر أنه كُوفئ بما يكفي على ما لقيه من عناء في الدنيا، بل بأزيد! فالرسالة التي ينقلها هي أن تلك اللحظة في الجنة تُساوي كل ما مر به من ابتلاءات في الدنيا، ولسان حاله ينقل أنه ليس عنده مانع لخوض كل ذلك العناء مُجددًا لمجرد صبغةٍ ثانيةٍ في الجنة! فما بالنا بمن يخلد فيها، لا يموت ولا يخرج ولا يتوقف الاستمتاع للحظة؟! وهل يدرك أحدنا حقيقة معنى وواقعية الخلود في الجنة؟

أليس إذًا من يتعب ليحافظ على دينه، ويصبر عن الفتن وعلى المظالم والاضطهادات والابتلاءات والانتقادات طاعةً لله وإرضاءً له جديرٌ بمثل تلك المكافأة؟ ألا يستحق مثلها تعويضًا له لما ضحَّى به لله؟ بل الله بكرمه البالغ يُكافئ المسلمين المجتهدين بأن يجعلهم يخلدون في تلك الجنة، وليسوا فقط يُصبغون فيها أو يمكثون بقدر ما قضوه في الدنيا من زمن.

السؤال هو، إني إن فاتتني الجنة بسبب سوء أعمالي، ولو مُنعت عنها فقط لفترة وجيزة، هل مهَّدت لنفسي أني لن أندم وسأصبر عندما أرى أني ضيَّعتها مني بنفسي؟ هل أنا متأكدٌ أني لن ألوم نفسي عندما يُقال لي {اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور 16]؛ عندما أكون في النار وكان من الممكن أن أكون في الجنة حاليًّا؟

وإجابةً لمن يتساءل كيف تكون الصبغة أكبر قدرًا كمُكافأة عما سلف من معاناة أو متعة، أقول أرأيت كيف أن المكوث في الماء المُعكَّر يجعل الجلد يتغير؟ فكيف المكوث في الحامض، ثم كيف المكوث في النار؟ إذًا فجميعنا يتفق أن كثافة العذاب يفرق في مدى المعاناة، وهذا أولًا. ثانيًا، لا شك أن الزمن في الجنة أو النار يتعدل حتى يصبح أطول، وهذا بالإضافة إلى أن الإحساس بالزمن يتغير بحسب الأحداث التي يمر بها المرء، فاللحظة الممتلئة بالأحداث والمعلومات التدفقة للعقل قد تُوهم المرء أنه قضى أكثر مما مر بالفعل.

ففي تلك الصبغة قد يكون المرء قد رأى البساتين، وأكل من ثمار الجنة، وشرب من أنهارها، وشم رائحتها الطيبة الجميلة، وسمع أصوات الحور العين وهن يُغنِّين، ودخل القصور، وغَمَرَته نشوة الجنة؛ قد تفاعل مع ما في الجنة. فهنا نتفق أيضًا أن الزمن قابل للالتواء في الآخرة فعليًّا ومنظوريًّا، مثلما يستشعر أناس أنهم أمضوا خمسين ألف سنة بينما آخرون يستشعرون أنهم أمضوا وقت صلاة مكتوبة واحدة، وما هو إلا يومٌ واحد، ألا وهو يوم القيامة. فأقول إذا تم تعديل كثافة القَدر وزمن المكوث في النعيم أو العذاب، فإن ذلك سيفرق فرقًا شاسعًا مع المرء، وبذلك قد تتلاشى معانته أو نعيمه في الدنيا في تلك الصبغة.

وبعد الاستفاضة في الشرح يبقى الواقع: أن العرض لا يزال مطروحًا علينا، فأي الاختيارين أفضل: النار أم الجنة؟ إذا قلت الجنة، فلماذا أعصي ربي باستمرار إذًا؟! لماذا أكثر من معصيته وقد خلقني لمقصد خلاف ذلك، وهو عبادته. هذا مع وجود سعةٍ أنه تعالى يعفو عن اليسير من زلاتي بالمعاصي إذا تمت جملة عبادته، وذلك من رحمته وكرمه ومَنِّه عليَّ، فقد خلقني لأعبده.... ليرحمني....ليدخلني جنته!!! فيا للعجب، حتى تلك السعة قد تماديت عنها.

والدليل على أن الله خلقنا لنعبده ليرحمنا ويُدخلنا جنَّته هو ما جاء {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالإِنسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات 56]، وقال الله عز وجل {إِلاّ مَن رّحِمَ رَبّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [هود 119، جزء من الآية]. فالله يُحب أن يرحم عباده، ويُعذِرهم بأي عذر حقيقي ليعفو عنهم وينجوا. أي أن الله خلقني لأعبده، كي لا أضل ولا أنجرف عن العقيدة الصحيحة.... فيرحمني.... فيدخلني جنته. أما إذا شردت عن المقصد الذي خلقني له فستكون عاقبتي بائسة.

وأريد أن ألفت الانتباه إلى أمر أخير، وهو أن المرء قد يضغط على نفسه فيتحمل مظالم وعذاب يومٍ واحد (وهذا في الدنيا)، ولكن إذا تكرر الأمر يوميًّا تتحول تلك الضغوط والمعاناة إلى بؤسٍ له حتى يوشك أن يناهر نفسيًّا أو يُجنّ. وانعكاسًا على حال الآخرة، فما بالنا بمن في قبره يُعرض عليه مقعده من النار غدوًّا وعشيًّا تفزيعًا له وتنكيلًا، كي لا ينسى ولا يرتاح. فكيف رُعبه وهو مضموم في القبر يحاول أن يعافر ولكن ضيق القبر عليه لا يسمح له بذلك، بل ويُذَكَّر أن مصيره سيسوء عن هذا؟! ألا يُجَنّ من يُفعل به ذلك؟

فلماذا أُعرّض نفسي لمثل ذلك بدلًا من أن يُعرض عليَّ مقعدي من الجنة غدوًّا وعشيًّا، تصبيرًا وتسليةً وتشويقًا لي في قبري؟ وهذا مقتضى ما ذكره الرسول (صلى الله عليه وسلم) ""إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غُدْوَةً وَعَشِيًّا، إِمَّا النَّارُ وَإِمَّا الْجَنَّةُ فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى تُبْعَثَ إِلَيْهِ"[1]. فلماذا أُبدل هذه بتلك؟

## حمل النفس على العمل الصالح للوقاية من المعاصي

إن الأعمال الصالحة عامةً لها عدة آثار إيجابية على قضية العصيان، فمنها أنها تحيل بين المرءِ والمعصية. ذلك من جهة أنها تشغله (ومدى أهمية ملء فراغ المرءِ بأهداف مشروعة لا يمكن التشديد عليه بما يكفي)، ومن جهة أنها تجعله يستحيي أن يُتبع العمل الصالح بالمعصية. ومن الآثار هو أنها تمحو السيئات، وهذا سنُتداوله في جزء "كيف أتخلص من عبء الذنوب التي عليَّ؟" إن شاء الله.

وأثر آخر للأعمال الصالحة هي أنها تجلب رضا الله، ومن ثمَّ عونه تعالى للعبد في تجنب المعصية بتوفيق الله. بل وإن كان العبد عزيزًا عند الله، فإن الله يمنعه من الوقوع في المعصية منعًا إذا أقنعه الشيطان بالمبادرة في ارتكابها. والعكس صحيح، وهو أن الذنب عقوبة من الله لغفلة العبد عنه تعالى، كما قال ابن القيم (رحمه الله): فلأن الذنب عقوبة على غفلته عن ربه، وإعراض قلبه عنه، فإنه إذا غفل قلبه عن ربه ووليه، ونقص إخلاصه: استحق أن يُضرب بهذه العقوبة، لأن قلوب الغافلين معدن الذنوب، والعقوبات واردة عليها من كل جهة. وإلا فمع كمال الإخلاص والذكر والإقبال على الله سبحانه وتعالى وذكره، يستحيل صدور الذنب، كما قال تعالى {كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف 24][2].

ومن الآثار أنها تُهَذِّب النفس، فتهدأ شهواتها وتزداد رُشدًا عن ارتكاب المعصية. وعلى الوجه الآخر، فإنها تزداد اشمئزازًا واستنكارًا من الخوض في المعصية، وتأنف من مخالطتها، تريد تزكية نفسها من الرذائل ومما يُهينها، فتكون أكثر نفورًا منها.

وهناك من الأعمال الصالحة ما تم الحث عليها بعينها لتجنب المعاصي، مثل الصلاة {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت 45]. وهناك أعمال مُحددة تم ربطها بمقاومة معصية مُحددة، مثل الصيام لمقاومة شهوة الفرج، وهذا ما دل عليه حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ،

---

[1] صحيح البخاري 6034.

[2] مدارج السالكين لابن القيم 2/212-213.

مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ؛ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ"[1] (الْبَاءَةَ هي تكاليف الزواج والقدرة عليه؛ أَغَضُّ أي أحفظ وأصون؛ وِجَاءٌ أي وقاية ومنع من الوقوع في الزلل). فالصيام، نظرًا لالتزام المرء بحدود الصيام (أي يُلغى في عقله الباطني فكرة الجماع لأنه يُبطل الصيام) ولانتقاصه على طاقة الجسد، يُقلّص من الشهوة ومن ثمَّ يسهل على المرء مقاومتها.

وفي هذا مجال للاجتهاد إن لم يجد المرء عملًا منصوصًا عليه لمعالجة معصية مُحددة. فمثلًا، بالنسبة إلى الذي يجد في نفسه بعض الحسد تجاه إخوته، فليدعو الله لهم بالهداية وأن يزدادوا فقهًا، وبالبركة فيما يملكونه، وأن يزيدهم الله مما يملكونه -دون أن يكون فتنةً لهم- حتى يزداد الفرق الذي بينه وبينهم. ففي ذلك كله ثِقل على النفس الحاسدة وإيلام لها فتتداوى وتنصلح، ويأخذ المرء أجرًا على دعائه لأخيه من ظهر الغيب. ذلك، ولعل الله أن يؤتيه مما دعا به لأخيه كما دل عليه قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ"[2].

ولعلك أيضًا تشتري له هدية، إذ إن إعطاء هديةً لأخيك الذي تجد في صدرك شيئًا تجاهه يشفي ما في الصدر. ذلك كما أكّد لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "تَهَادَوْا، فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَغَرَ الصَّدْرِ"[3] (وَغَرَ الصَّدْرِ أي الغش والوساوس والحقد والغيظ والعداوة والغضب). فعامةً، إن العمل الصالح يُبعِّد العبد عن المعاصي بطرق متعددة، ولكن إذا كان عند المرء معصية بعينها تستشكل عليه مقاومتها، فليبحث في القرآن والسُنَّة وليسأل العلماء عن العمل الصالح الذي هو ضد تلك المعصية تحديدًا، ثم ليجتهد.

ثم ليُعلم، هناك مبدأ عام يتعلق بالمواظبة على العمل الصالح، وهو أن من اجتهد وألزم نفسه تكرار الطاعة، فإن الله يُعينه حتى تصبح سهلة ويعملها تلقائيًا، بل ويُحبها. وقد تكلمنا من قبل كيف أن الله قد يختم على قلب العاصي فلا يستطيع الإقلاع عن معصيته، فيظل يُكررها وإن كرهها، وذلك من باب العادة، فالعكس صحيح أيضًا. قال ابن القيم (رحمه الله): ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزه إليها أزًّا، وتُحرّضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها[4].

---

[1] صحيح البخاري 4678.

[2] صحيح مسلم 4913.

[3] مسند أحمد 8882.

[4] الجواب الكافي لابن قيم الجوزية 56.

والأدلة على هذا متعددة، مثل قوله تعالى {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت 69]، وقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنْ الْجِنِّ وَقَرِينُهُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ"، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ "وَإِيَّايَ، لَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ"[1]. فاعلم أخي، أن مثابرتك على طاعة تستثقلها إنما ستكون مرحلة وتمر، يليها مرحلة أنك تُحبها وتسهل عليك.

قد يجتهد العبد في العمل الصالح، والارتقاء في المنازل عند الله بإيمانه، حتى يبلغ مرحلة أن الله يُنزل عليه سكينته، فيَستَقِر ويطمئن ويزداد يقينًا، مما يُحدث له لذة فريدة؛ لذة نفسية من السكينة يحرص من زوالها إذا ارتكب المعاصي. يقول ابن القيم (رحمه الله) عن العاصي الذي يُصلح في نفسه حتى تنزل عليه السكينة: فإنه قد وجد فيها [أي السكينة] مطلوبَهُ، وهو اللذة التي كان يطلبها من المعصية، ولم يكن له ما يُعِيضه عنها. فإذا نزلت عليه السكينة اعتاض بلذتها وروحها ونعيمها عن لذة المعصية، فاستراحت بها نفسه، وهاج إليها قلبه، ووجد فيها من الروح والراحة واللذة ما لا نسبة بينه وبين اللذة الجسمانية النفسانية. فصارت لذته روحانية قلبية، بعد أن كانت جسمانية فانسلب منها وحبس عنها وخلصته[2].

هؤلاء هم المُبصرون حقًّا. قيل لبعض العباد: إلى كم تتعب نفسك؟ قال: راحَتها أريد[3].

### مقابلة كل واقعه لمعصية مُحَدَدة بعملٍ صالحٍ مُحَدَدٍ

في الباب السابق تكلمنا عن أن العمل الصالح يحول بين المرء والعصيان، وفي هذا الباب يدور الكلام حول الحث على العمل الصالح بعدما وقع العبد في العصيان، لما في ذلك من فوائد متعددة. إن لفئة من المسلمين نظامًا فريدًا وزكيًّا للتعامل مع معصيتهم لله، وهو أنه يضع لنفسه قاعدةً أنه إذا عصى الله فإن عليه أن يفعل طاعة ما مُحددة.

فمثلًا، إذا اغتاب شخصًا (أي أفصح أمام أحد عن صفة سلبية في شخصٍ ليس بحاضرٍ)، فإنه يستغفر للمُغتاب ولنفسه، ويُخرج مبلغًا مُحددًا من المال بنية تطهير قلبه وللتصدق بالنيابة عن ذلك الشخص. إضافة لذلك، قد يمنع نفسه من الكلام، إلا عند الاضطرار، لمدة يوم مع ملازمة ذكر الله. يفعل ذلك كله عقابا لنفسه التي استمتعت بالغيبة، إذ إن التصدق بالمال وإمساك اللسان عن الكلام ثقيلٌ على النفس. وبهذه الطريقة، قد ضاد لذة النفس بمكروه للنفس، وقابل جنس سوء العمل اللسان بعكسه من العمل الصالح باللسان، وحتى تربط النفس هذه المعصية بشعور الثِقل، فتُقلِّص

---

[1] مسند أحمد 3611.

[2] مدارج السالكين لابن القيم 508/2.

[3] الفوائد لابن القيم 50.

النفس من العصيان. وقد أوصى عبد الله بن المبارك من يريد التوبة بهذا قائلًا: وأن يذيق نفسه أَلَم الطاعة كما أذاقها لذة المعصية[1].

وفائدة أخرى من هذا النهج هو أن ما يفعله قد يُكفِّر عنه ما ارتكبه. وفي هذه الحالة، لعل الاستغفار والتصدق وذكر الله يكونون كفَّارةٍ له أيضًا عما ارتكبه. هذا ما أشار إليه قول الله تعالى {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود 114].

ومع تنوع المعاصي قد يُنوِّع العبد في ما يقابلها من أعمال الصالحة، فقد تكون ركعتين نافلةً لمعصية أخرى، أو صيام يوم، أو قضاء حاجة لشخصٍ آخر، أو زيارة مريض، أو زيارة للقبور إذ إنها تُذكِّر بالآخرة أيضًا فتهدم لذَّات المعصية. والنتيجة من هذا المنهج فعَّالة جدًّا، فبالإضافة إلى أن إلحاق الحسنة بالسيئة تمحو السيئة، فإن الله يجازي ذاك الشخص لإقباله على الله بأن يعصمه أكثر من المعصية.

وقد لزم سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ذاك النهج بصرامة حتى بلغ مرحلة لا يتصورها كثير من الناس، إذ نبأه الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "إِيهٍ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ"[2] (فَجًّا أي طريقا). قد بلغ مرحلة أن كلما سوَّل الشيطان له معصية، يُقابله بعملٍ صالحٍ، فأصبح وضع الشيطان وكأنه يأمره بالطاعة، فأدرك الشيطان ذلك فأصبح يتفاداه حتى لا يجعل سيدنا عمر (رضي الله عنه) يُكثر من الأعمال الصالحة!

ومن أبرز الأمثلة، عن مقابلة المعصية بالعمل الصالح، التي جاءت في السُنَّة الشريفة هي رَدّ ما أُكل من مظالم الناس إلى أصحابها. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لا يَكُونَ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ"[3] (فَلْيَتَحَلَّلْهُ أي يعتق نفسه منه، إما برد الحق إليه أو باستسماحه وطلب العفو).

ورد المظالم أيضًا من أكثر الأعمال تأثيرًا على المرء بإيجابية، حتى على الأجناس الأخرى من المعاصي، لأنه من أثقلها على النفس المُستعظمة المُتكبِّرة؛ ويكأن المرء يُشرب نفسه الدواء البالغ في المرارة. وبذلك، فإن العبد يُروِّدها ويُعلِّمها التواضع، إذ فيه تضحية بالزائف من عزة النفس،

---

[1] فتح الباري بشرح صحيح البخاري 103/11.

[2] صحيح البخاري 5621.

[3] صحيح البخاري 2269.

وربما المال أيضًا، لإصلاح ما أفسده المرء. فإذا جنى المرء مالًا من الحرام بظُلم أحد، فليرُد المال إلى مالكه وليطلب منه السماح، فإن عجز عن الوصول للمالك فليوجع نفسه بأن يتصدق بذلك المال، وبنيَّة أن الثواب يذهب إلى صاحب المال، وفي ذلك تهذيب للنفس.

ثم إن المرء بهذا الإجراء يهدم ما جناه بظُلم الناس، وكأنه أعاد حاله إلى ما قبل ظُلم الناس، فتُصاب النفس بالإحباط من ظُلم الناس. هكذا، يُرسِّخ عند النفس أن تفادي معصية ظُلم الناس أصون وأهون من الوقوع فيها ثم إصلاحها، فيحمل المرء على تركها من المقام الأول، بل وترك المعاصي عامةً حتى التي ليس فيه مظلمة للناس. الخلاصة هي أن يكون مبدأ العبد هو مقابلة المعصية (خاصة المُستعصية المُتكررة من العبد) بضدها من العمل الصالح، والأفضل لو كان العمل الصالح من نفس جنس المعصية.

## تبديل الحرام بالحلال

في الباب السابق تكلمنا عن مقابلة كل واقعة معصية محددة بعمل صالح محدد، وكانت الغاية هي إخماد الرغبة حتى لا تتكرر المعصية. أما في هذا الباب، تكون الغاية هي تنفيس الرغبة وليس إخمادها ولا كبتها، ولكن تنفيذها في الحلال، وهذا طريقٌ بديل في لمعالجة شهوة العبد وحل مشكلة العصيان. وبالمنطق، هذا الاختيار لا يكون متاحًا دائمًا، فلا بديل في شهوة شرب الخمر مثلًا، فإما أن يشرب أو لا يشرب. لكن يكون الاختيار متاحًا في بعض الشهوات، مثل تفادي الربا بالإقبال على التجارة لزيادة المال، فإن أُتيح بديلًا في الحلال كمخرج فليغتنمه المرء.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك يكون في شهوة الفرج، فهناك الزواج بدلًا من الزنا. قد ذكرنا آنفًا وصية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لنا بالزواج لمن استطاع، إذ إن ذلك أغضُّ للبصر وأحصن للفرج عن الزنا. ذلك لأن المرء يستبدل الحرام بالحلال فيتجنب المعصية، إذ في الزواج تنفيس لشهوة الفرج، فيسهل على المرء تجنب معصية الزنا. حتى إن وقع عين المرء على مُحرمٍ بالخطأ وأثار هذا في نفسه شيئًا، أوصانا الرسول (صلى الله عليه وسلم) بتفريغ تلك الشحنة قائلًا "إِذَا أَحَدُكُمْ أَعْجَبَتْهُ الْمَرْأَةُ فَوَقَعَتْ فِي قَلْبِهِ، فَلْيَعْمِدْ إِلَى امْرَأَتِهِ فَلْيُوَاقِعْهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ"[1] (فَلْيُوَاقِعْهَا أي يُجامعها).

بل للمرء أكثر من تفادي السيئات من المعصية، وهو أن له حسنات لإعراضه عما نهى الله عنه، ابتغاءً لرضا الله. بل أكثر وأكثر، إذ تتضاعف حسناته بأن تكون له حسنات على قضاء شهوته! ولكن كيف ذلك؟

---

[1] صحيح مسلم 2492.

سُئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذات مرة: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، فقَالَ "أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟! قَالَ "أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا"[1] (ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ أي أصحاب الأموال الكثيرة، إذ يتصدقون وهم لا يستطيعون التصدق، فارتفعوا عنهم في الأجر بالتصدق بعدما تعادلوا في الصلاة والصوم وما شابه؛ وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ أي في جماع الرجل لامرأته).

فالحمد لله على عدله وكرمه ولُطفه، فإنه تعالى يجعل منفذًا في الحلال لقضاء الشهوات الأساسية (مثل حب الطعام وجمع المال والجماع)، ثم يُجازي العبد إذا أتى أهله لأنه يضعها في الحلال بدلًا من الحرام. فجِد واجتهد أيها القارئ في إيجاد منفذ وتفريغ لرغبتك في الحلال، فإنك إن صدقت في نيّتك أن تتقي الله، فإنه سيتيح ويُرشدك إلى سبيل {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} [الصلاق 2].

## مرافقة الجماعة الصالحة

تلك إحدى وصايا الرسول (صلى الله عليه وسلم)، إذ إن الجماعة تقي المرء مكايد وتأثير الشيطان كما دل الحديث ""اسْتَوْصُوا بِأَصْحَابِي خَيْرًا، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَبْتَدِئُ بِالشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا، فَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ بَحْبَحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ. لا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا، وَمَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ"[2]. وفي حديث آخر جاء "إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ، يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ، فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ وَالْمَسْجِدِ"[3] (بَحْبَحَةَ أي متعة وأو لذّة، وهي أيضًا تعني التوسط والسعة؛ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ المُنفردة أو البعيدة).

ومن الأسباب أن الجماعة تقي المرء تأثير الشيطان هو أن المرء عادة يكون أكثر حياء من ارتكاب المعصية مع الجماعة الصالحة، وأن في الجماعة يُصوّب الأفراد بعضهم بعضًا إذا رأوا منكرًا ممن فيهم فيقيموا بعضهم. وهذا ما أشار إليه حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "المُؤمِنُ مِرَآةُ

---

[1] صحيح مسلم 1674.

[2] مسند أحمد 109.

[3] مسند أحمد 21020، قال الأرناؤوط: حسن لغيره.

أَخِيهِ المُؤمِنِ"[1]. جاء في كتاب تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي تفسيرا للحديث: أَيْ آلَةَ لِإِرَاءَةِ مَحَاسِنِ أَخِيهِ وَمَعَائِبِهِ لَكِنْ بَيْنه وَبَيْنه، فَإِنَّ النَّصِيحَة فِي الْمَلأ فَضِيحَة، وَأَيْضًا هُوَ يُرِي مِنْ أَخِيهِ مَا لا يَرَاهُ مِنْ نَفْسه، كَمَا يَرْسُم فِي الْمِرْآة مَا هُوَ مُخْتَفٍ عَنْ صَاحِبه فَيَرَاهُ فِيهَا، أَيْ إِنَّمَا يَعْلَم الشَّخْص عَيْب نَفْسه بِإِعْلامِ أَخِيهِ كَمَا يَعْلَم خَلَل وَجْهه بِالنَّظَرِ فِي الْمِرْآة (انتهى).

ويُضاف إلى ذلك أنهم يُعلّمون ويحُثّون بعضهم بعضًا على الأعمال الصالحة. إذا تفقه أو انتاب لواحدٍ منهم مسلكًا من مسالك العمل الصالح، عرضه على سائرهم.

ومن الفوائد هي أنهم يُعوّضون عن عيوب الأفراد بينهم، بمعنى أنهم يُكمّلون بعضهم. إن الله خلق كل إنسانٍ به مميزات وبه نقاط ضعف، فإن كانوا في الجماعة غطّوا عيوب إخوانهم عن طريق معالجتهن، وأخذوا بمميزات كل فرد في المجالات المختلفة ليُعوّضوا ضعف باقي الأفراد، فتعُمَّ مميزات كل فرد على الجماعة كلها؛ تستفيد الجماعة كلها من مميزات أفرادها. أي أن القوي يُتم ما لا يستطيع عليه الضعيف، والذكي يتم ما يستطيع عليه من ليس بذكي، والجريء يتم ما لا يستطيعه الجبان منهم؛ وهكذا. وبالصحابة نقتدي بهم ونأخذ الأمثلة منهم، فقد كان سيدنا أبو بكر هو من بُويِعَ على الخلافة أولًا لأنه كان ألزمهم وأحبّهم للنبي (صلى الله عليه وسلم)، وكان سيدنا بلال هو المؤذن لأن صوته حسنًا. وكان سيدنا خالد بن الوليد هو قائد المسلمين في الحروب عامةً لأنه دهيٌّ في الحروب، إلى درجة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لقَّبه: سيف الله المسلول؛ وهكذا.

وفائدة أخرى للجماعة هي أنهم يشاركون بعضهم العلم، فإذا علم أحدٌ شيئًا نقله وأفاد به باقي الجماعة. وهذا كان يحدث بين الصحابة حول أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فارتقوا وأصابوا، وهذا كان عاملًا في وصول أحاديث كثيرة إلينا.

## التخلي عن صديق السوء مهما كان الأمر شاقًّا ومؤلمًا، ولو نزعت نفسك نزعًا

هذه النقطة لا يُدرَك مدى أهميتها كثير من الناس، إذ قد يظن المرء أنه يستطيع أن يُحافظ على صديق السوء دون أن يؤثر ذلك على تقدمه في دينه؛ ذاك الصديق الذي عرفه منذ الطفولة فحفظوا بعضهم بعضًا وألفوا وترابطوا ببعض لأنهم مروا بأحداث كثيرة وأوقاتٍ مُمتعة معًا. قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) ناصحًا لنا "مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ وَكِيرِ الْحَدَّادِ، لا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكِيرُ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوْ ثَوْبَكَ أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً"[2] (وَكِيرِ الْحَدَّادِ هو زقٌّ أو جلدٌ غليظ ينفخ فيه الحدّاد عند تشكيل الحديد ليزيل

---

[1] بلوغ المرام لابن حجر العسقلاني 451؛ الراوي: أبو هريرة (رضي الله عنه). حسنه العسقلاني بهذا اللفظ، وصححه ابن باز في مجموع الفتاوي 162/7.

[2] صحيح البخاري 1959.

منه الشوائب، فجليس الحداد قد تصيبه هذه الشوائب المتطايرة التي تكون مثل الشرارة؛ لا يَعْدَمُكَ أي لن يفوتك أن تُصاب بإحدى الأمور التي سيُذكرن).

وكفى عظةً وتحذيرًا لنا ما جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا وَقَعَ فِيهِمْ النَّقْصُ كَانَ الرَّجُلُ فِيهِمْ يَرَى أَخَاهُ عَلَى الذَّنْبِ فَيَنْهَاهُ عَنْهُ، فَإِذَا كَانَ الْغَدُ لَمْ يَمْنَعْهُ مَا رَأَى مِنْهُ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَخَلِيطَهُ، فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ وَنَزَلَ فِيهِمْ الْقُرْآنُ {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (78) كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (79) تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}"، وَكَانَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ "لا، حَتَّى تَأْخُذُوا عَلَى يَدِ الظَّالِمِ فَتَأْطُرُوهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا"[1].

أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَخَلِيطَهُ أي يأكل ويشرب معه ويُخالطه في التعامل بغير ضرورة؛ فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ أي جعل الله قلوبهم تتطبع على بعض فتتشابه؛ فَتَأْطِرُوهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا أي تُلزموه على الحق إلزامًا. ولنلاحظ أن جميعهم لُعنوا في النهاية، المُفسدون وحتى الذين كانوا ينهون المُفسدين ولكن رافقوهم، لأن من الطبيعي أنهم يُصبحون ماءً واحدًا فلا ينهون المُفسدون مع مرور الوقت، بما أنهم أنفسهم أصبحوا مفسدين، فلعنهم الله جميعًا.

وفيما يتعلق بخطورة رفقة السوء ومدى الهلاك الذي قد يُفضون المرء إليه، فهناك عدة أمثلة في زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم). عندما حضرت أبا طَالِب الوفاة، جاءه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أُمَيَّة بن المُغِيرَة، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأبي طالب "يَا عَمِّ قُلْ 'لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ'، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ". فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمَيَّة: يا أبا طالِب، أترغَبُ عن مِلَّةِ عبد المُطَّلِبِ؟! فلم يزل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يَعرِضُهَا عليه ويَعُودان بتلك المَقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلَّمهم: هو على مِلَّةِ عبد المُطَّلِبِ؛ وأَبَى أن يقول 'لا إله إلا الله'. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أَمَا وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ"، فأنزل الله تعالى فيه {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}[2].

فسبحان الله، لعبوا على كِبرِ وحميَّة أبو طالب فمنعوه من قول كلمة الحق التي ستجعله يخلد في الجنة بدلًا من الخلود في النار. مارسوا ذلك الغدر به لأغراضهم الشخصية الدنيوية في لحظات

[1] سنن الترمذي 2974. الحديث منقطع، لهذا ضعيف.

[2] صحيح البخاري 1272.

موته التي لا يهم فيهن شيءٌ إلا شؤون المُحتضر ونجاته، فاشتروا أغراضهم الرخيصة بحياته الغالية.

وفي واقعة أُخرى، جاء في تفسير البغوي وفي تفاسير أخرى أن رجلًا يُدعى عقبة بن أبي معيط كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعامًا فيدعو إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم. فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعامًا فدعا الناس ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قَرَّب الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله"، فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه. وكان عقبة صديقًا لأُبي بن خلف (وكان غائبًا آنذاك)، فلما أخبر أبي بن خلف قال له: يا عقبة صبأت؟ قال: لا والله ما صبأت، ولكن دخل علي رجل فأبى أن يأكل طعامي إلا أن أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدت له فطعم. فقال: ما أنا بالذي أرضى عنك أبدًا إلا أن تأتيه فتبزق في وجهه، ففعل ذلك عقبة، فقال عليه السلام "لا ألقاك خارجًا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف"؛ فقُتل عقبة يوم بدر، وأما أبي بن خلف فقُتِل يوم أُحُد.

وقيل إن عقبة نزلت فيه قول الله تعالى {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا} [الفرقان 27-29]. فسبحان الله، كفر بعد إسلامه بسبب صديق السوء مع أنه لقي رسولًا من عند الله وجهًا لوجه، فأي ضياع بعد ذلك الضياع الذي جرَّه إليه صديقه؟

فصديق السوء وجب عليك تركه إن لم يُجِبْك إلى الهداية، ولو اضطررت إلى نزع نفسك منه (أو منهم) نزعًا، خصوصًا أنهم غالبًا ما سيحاولون استرجاعك بانتقادك على قرار تركهم، أو بقولهم إنهم سيُقابلونك في منطقة وسط بينك وبينهم (أي أن تتراخى أنت قليلًا وهم يجتهدون قليلًا). وقد تغزك نفسك ألا تتركهم خاصةً عندما تسترجع ذكريات سعيدة قضيتموها مع بعضٍ، فتتعاطف معهم ويُصيبك الأنين لهم ويثقل على نفسك قطع مثل تلك الذكريات وتخييب عشمهم، بل وربما تُسوِّل لك نفسك أن ما تفعله هذا هو أنك تغدر بهم. ومع ذلك، إذا أبصرت ستلاحظ أن تلك اللحظات لا تكفي بالنسبة إليهم كحافز لإحداث تغيرٍ في أنفسهم إلى الأصوب، كي يبقوا معك.

وهنا أريد أن أسرد واقعة شخصية تتعلق بهذا الباب، فتحت عيني بشكل كبير، ولعل قارئًا يستبصر وينتفع بها ويحترز، فرُب قارئ يكون أوعى مني. كانت لي مجموعة أصدقاء منذ الطفولة أعز وأحب ما يكونون إليَّ، وكانوا مُهذَّبين ويسكنون بالقرب مني أيضًا، ولكن مع بلوغ سن الرُشد بدأوا يتعدون حدود الله، حتى تمادوا في الشهوات مع الوقت. أصبح فراقهم بالنسبة إليَّ شيئًا صعبًا وكريهًا، ولكني تدريجيًّا كنت أتفادى الخروجات التي كانت في أماكن يُرتكب فيها معاصٍ كثيرة، حتى

أصبح الوضع أني أكاد أخرج معهم بالرغم من سعيهم ورائي، ولكنهم ظلوا أعز أصدقاء بالنسبة إليَّ، لا أرغب في الخروج مع غيرهم.

كنت على اتصال مستمر وأخرج معهم أحيانًا لأني أستمتع معهم، مع الأمل أن يهتدوا مع انتهاء فترة المُراهقة وما شابه. وفي يوم من الأيام، بعد أن هداني الله وأصبحت أُصلي في المسجد، وبينما كنت في الطريق إلى المسجد لأُصلي الفجر إذ قابلت قَدَرًا أعز صديق لي فيهم، وكان ذاهبًا ليمضي وقتًا للتسلية مع صاحب آخر لي من المجموعة في بيته. ففرحت للقائه (ولكني حزنت أيضًا لأنه لم يُخبرني أنهما سيتقابلان في مكانٍ هادئ فألتحق بهما)، وقلت له أن يأتي معي ويُصلي ثم يذهب إلى صاحبي الآخر، فرفض. فظللت أُلح عليه، وأستعطفه وأمزح معه كي يأتي معي، وكنت مُصرًّا أن يأتي معي، وكنت أعلم أنه سيُحقق لى رغبتي بالرغم من رفضه للفكرة نظرًا للعشرة والألفة التي بيننا. ولكني ذُهلت عندما ظللنا هكذا وهو لا يستجيب لرغبتي، خاصة أنه لو كان ألح عليَّ في فعل شيء أبغضه من أجله كي يسعد -ما دام في غير معصية الله- لكنت أجبته وطاوعته، وهكذا كانت علاقتنا، ولكن اتضح لي أن الأمر ليس مُتبادلًا الآن.

هذه الواقعة جعلتني أتفكر. ما هذا الإصرار على الإعراض عن الصلاة في المسجد؟! ولماذا لم يستجب لرغبتي في هذه المسألة تحديدًا؟ وليست أي صلاة التي أعرض عنها، بل هي صلاة الفجر التي لعلها أعظمها أجرًا بين كل الصلوات. وظللت أتفكر، فإنه لم يكن نائمًا حتى يصعب عليه الإقبال على الصلاة، وكان يرتدي ملابسه فلم يكن عذره أنه يصعب عليه الاستعداد، وكان في الطريق فلم يكن عذره أن يصعب عليه الخروج من البيت أو أنه لا يستطيع أن يبذل المجهود، ولم يكن مشواره ضروريًّا حتى يؤجل الصلاة، ولم يكن عليه الانتظار كثيرًا لأن الصلاة قد أوشكت على الإقامة. أما إن كان غير متوضئ، فهذا حله سهل لأن المسجد به مكان للوضوء، فما الذي منعه بالضبط.

حينئذ صدمني الواقع، وواجهتني الحقيقة، وخابت آمالي أشد الخيبة، إذ أصبح من الواضح جليًا أنه هو الذي يرفض نفسيًّا الذهاب للصلاة في المسجد رفضًا، أي ولو كانت كل الظروف تقريبًا مُهيَّأة لأن يُصلي في المسجد... آنذاك أدركت أن أصحابي هؤلاء لن يلينوا ولن يُضحوا من أجلي، وإنما أنا الذي عليَّ أن أُضحِّي وألين إن أردت نكون أصدقاء، لدرجة أني شعرت أنه تم الغدر بي، إذ إن المودة والعشرة التي بيننا لم تكفِ حتى يُضحِّي من أجل إسعادي. والحكمة التي توصلت لها بعد أمد من إهدار الوقت والجُهد، وأنصح بها القارئ، هي أن المرء إن كان له أصدقاء سوء فعليه أن يدعوهم إلى الله، فإن أبوا فليعتزلهم مع الحفاظ على دعوتهم للهُدى، فإن حدث واهتدى أحدهم فمن اليسير الرجوع إليه وإعادة الصداقة بينهما؛ فهذا أفضل وءأمَن من ملازمتهم وهم عصاة آملًا أن يهتدوا.

في حالة أن الأصدقاء لا يستجيبون للهداية فاعتزلهم ولو كان الأمر قاسيًا عليك وشعرت أنك تُقطِّع من نفسك قطعًا، فلا تفقد ثقتك في كرم الله أنه سُيعوضك أفضل منهم (في الدنيا والآخرة) لتركك إياهم من أجله وتوكلًا عليه. ولا تنسى أن صاحب السوء مرافقته حتمًا تنتهي بالمعاداة يوم القيامة، إن لم يحدث ذلك في الدنيا أولًا في نزاعٍ على أمر من أمور الدنيا. فتركه أصون لك، خاصةً أنك ستتركه لا محالة إما اختياريًّا في الدنيا وبالمعروف، وإما اضطراريًّا في الآخرة بالتلاوم. وتذكر أنك تتركه لله فلا تحزن، فإنما هذه الدنيا مشقة وتضحيات لأجل الآخرة.

وقد أدرك سيدنا إبراهيم (عليه السلام) تلك الظاهرة، ظاهرة مجاملة ومجاراة أصدقاء السوء لبعضهم في الدنيا على أمور باطلة، وأن مصيرهم حتما أنهم يتعادون يوم القيامة أشد العداء. هو الذي قد قال {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ} [العنكبوت 25].

هذا ومن الفائدة أن يُدرك المرء ما هو محتومٌ عليه، ووجب عليه أن يضع ما هو محتومًا عليه في حُسبانه، ويعمل استعدادًا لذلك حتى لا يُفاجأ ويُؤخذ وهو في غفلةٍ أو لهوٍ فيكون مصيره مُظلمًا. ذلك الأمر المحتوم هو الموت –الذي يقترن معه بالضرورة البعث والحساب والجزاء– {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} [الزمر 30–31]. الموت هنا إشارة إلى المصير وليس حاله (صلى الله عليه وسلم) آنذاك لأن الصيغة جاءت للمستقبل، أي بمعنى أنك ستموت وهم سيموتون؛ فهذا مصيرنا جميعًا، الموت. ثم ننتقل إلى دار يختلف فيه الموازين، حين تكون سلعة التداول الوحيدة هي الحسنات والسيئات، والمصير إما جنة أو نار.

حينئذ ترى الناس يتخاصمون. فالأزواج ينشقون، والأقارب يتلاومون بينهم، والأخلاء يبيعون بعضهم، والناس يسعون على كل صغيرة وكبيرة من حقوقهم من بعضهم. ذاك يوم ينظر الناس إلى الأقارب والأصدقاء كأنهم لا يعرفونهم من شدة اختلافهم وتخاصمهم، لأن أولوية إنقاذ النفس قد بلغت ذروتها بسبب شدة العذاب الحاضر. فلماذا مصاحبة صديق السوء وأنا أعلم أني سأغدر به يوم القيامة، ولماذا أطيع من هو ذو سلطة أو مال على حرام كي أُرضيه أو أنال مما لديه وأنا أعلم أني سأبيعه يوم القيامة؟ أليس هذا بالغدر؟ وهل تُحمد عاقبة الغادر يوم القيامة؟

وبعد أن كل شيءٍ قد قُضي يوم القيامة والعباد قد صاروا إلى الجنة أو النار، يتبين للمرء كاملًا أبعاد الأضرار التي كانت لتحدث إذا لزم صاحب السوء، حين يتساءل شخص ممن فاز بالجنة {قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (53) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (55) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} [الصافات 51–57]. ومع العلم، أن مثل ذلك

القرين لا يُشترط أن يكون كافرًا إذ إن المبدأ عام، فقد يكون مسلمًا ولكن فاجرًا أو مُسرفًا في المعاصي، أو حتى مُشغِلًا عن ذكر الله.

ذلك لأنه إذا شغلك وصرفك قرينك عن ذكر الله، فسيؤدي إلى إنحدار منزلتك في الجنة. ومما لا شك فيه هو أنك ستتحسر على ما فاتك من منازل، وتلوم ذاك القرين وتُبغضه وترغب أن يبتعد عنك على وزن القائلين {حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} [الزخرف 36-38]. ولكن يفوز فقط من يتخذ القرار الصحيح بمفارقة قرينه السيئ في الدنيا.

وقد جاء من النموذج الأخير من القرناء (الذي يشغل صاحبه عن ذكر الله) في القرآن الكريم {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت 26]. ولكن ما لا يدركه كثير من الناس أنه لا يُشترط أن يقول ذلك لفظيًا (خاصةً لو كان مسلمًا)، ولكن لسان حاله قد يقول لك هذا. فمثل ذلك هو الذي يُلهيك عن صلاة الجماعة في المسجد أو يسخر منك لذلك، أو الذي يُثبِطك عن مجالس العلم، أو يسحبك عندما تعزم على الجلوس لذكر الله. وفي المُحصلة، تخيل مدى رواح وطمأنينة وسعادة هذا الشخص الذي نجى عندما يرى بعينيه أن قرينه الذي قرر أن يتخلى عنه يكون في النار، فيتيقن أنه أخذ القرار الصائب بعدما كاد أن يدخل النار. فحقٌّ عليه أن يحمد الله على نعمة إرشاده لأخذ ذلك القرار، وعونه في أن يمضي فيه ويثبت عليه.

ولنَلتفت خاصةً إلى ما يُدركه الناجي آنذاك {قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ} [الصافات 56]، وهذا قول من يدخل الجنة لقرينه الذي فارقه في الدنيا وأصبح مصيره جهنم، إذ كاد يجُر المؤمن إلى الضلال رفقةً بسبب أفكاره. فاحذر أن يجرُّك أحدٌ لعمل ما يُغضب الله، لأن فراقه في الدنيا أهون من عذاب الله مهما كانت قوة الروابط بينكما، وستفارقه لا محالة يوم القيامة، بل وستتخاصم معه.

ترك صاحب السوء أصلح لك في دنياك وآخرتك مهما كانت مجالسته ممتعةً لك. ومفارقته، وإن شَقَّت، هو الأمر الرشيد لأن العلاقة لا بد لها من الفراق. ولا أقول إن الفراق الاضطراري يكون فقط في الآخرة، فقد رأيت الأصدقاء الحميمين المتلازمين كالأخَّين يفترقان فقط بسبب الزمن دون خلاف حتى، عن طريق مشاغل الحياة أو انتقال أحدهما لمكانٍ آخر مثلًا. إضافةً، فإن بعضهم قد يفترقون بعد عمرٍ طويل من ارتكاب الدواهي معًا على خلافٍ مادِّي، أو بسبب غدر أحدهما بالآخر، فيتعاركان ويفترقان على حال الأعداء. فالوقت يُذيب ذلك كله بين أصدقاء السوء، سواء في الدنيا أو الآخرة، ومن لم يفارق في الدنيا ثم فرَّقت بينهما ظروف الحياة يكون قد خُدع مرتين، لأنه لم يُبقِ على علاقته مع صاحبه بالإضافة إلى أنه سيحمل أضرار وأوزار تلك المصاحبة أيضًا، فلا نال في الدنيا ولا في الآخرة.

والعجيب كل العجب أن الطرف المُستضعف قد يجد نفسه يرتكب معصية بالرغم من أنه لا يرغب في ارتكابها (بل وربما يأنف منها)؛ ارتكبها فقط لأنه كان يواكب رغبة صاحبه ويُرضيه. وتلك أيضًا خسارة مُركَّبة، خسارة أنه فعل شيئًا كان كريهًا على نفسه، ثم يُؤنِّبه عليه ضميره، وخسارة أنه يحمل وزر تلك الفعلة يوم القيامة. فاختر الصحبة وانتقِها، لأن العكس وارد أيضًا، أنك تفعل طاعة لله (ونيتك هي لله) مجرد لأن صاحبك البار اقترحها عليك ثم أخذ بيدك بالرغم من أنك لم تكن تُرد فعلها.

وعلى صعيد آخر، إن كان الاثنان استحقا النار، فالماكث في جهنم يقول للوارد (أو المتبوع للتابع، أي المُستكبر للمُستضعف) عندما يُعلَن عن دخول فوج جديد {هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (59) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (60) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ} [ص 59-61]. وقد جاء لاحقًا في السورة تعقيبًا على ذلك الحال {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ} [ص 64]. فهذا هو الحال بين الفوج السبَّاق الماكث في جهنم -الذي كان رائدًا في صنف من المعاصي- وبين الفوج المُقتحم الذي يرِد النار للتو -والذي قلَّد واتبع خطوات رُوَّاد المعاصي-، ويشمل هذا طريقة التفاعل بين أصدقاء السوء من التابع والمتبوع في الآخرة، مهما كانت قوة الترابط بينهما في العلاقة.

ونرى مدى البُغض والضغينة والاشمئزاز الذي يُكِنّ بعضهم لبعضٍ يومئذٍ، ونتساءل: ما الذي ساقهم إلى ذلك الحال؟ فوجب الاحتراس من أن أكون أحد الطرفين، ضالًّا أو مُضِلًّا، فيكون حق جزائي يتضمن ذلك التخاصم والتلاعن.

هذا وقد كان الرعيل الأول من المسلمين خير أسوة لنا في ذلك، فقد كان الرجل منهم يهجر أعز أصدقائه في الجاهلية لأنه يُعادي الإسلام. بل ومن الصحابة من اضطُر إلى قتل أبيه أو أخيه أو حتى ابنه الذي يُعادي ويُحارب الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) في المعارك بين المسلمين والمشركين، بالرغم من مدى مشقة ذلك عليه.

جاء في تفسير القرطبي (رحمه الله) للآية {لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة 22] أن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: نزلت في أبي عبيدة بن الجَرَّاح، قَتَل أباه عبد الله بن الجراح يوم أُحد (وقيل: يوم بدر). وكان الجَرَّاح يتصدى لأبي عبيدة وأبو عبيدة يحيد عنه [أي أن أباه يقصده وأبو عبيدة يتفاداه]، فلما أكثر [أي القتل من المسلمين] قصد إليه أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله حين قتل أباه الآية. "أَوْ أَبْنَاءَهُمْ" يعني أبا بكر دعا ابنه عبد الله إلى البراز يوم بدر، "أَوْ إِخْوَانَهُمْ" يعني مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد

بن عمير يوم بدر؛ "أَوْ عَشِيرَتَهُمْ" يعني عمر بن الخطاب قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وعَلِي وحمزة قتلا عتبة وشيبة والوليد يوم بدر (انتهى مختصرًا).

ينبغي أن نتأسى بهم (أنصار وأصحاب الرُسُل والنبيين) لأن الله قد حثَّنا على هذا {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [الممتحنة 4-6]. هكذا حال من آمن بالله حق الإيمان، أنه يسلك المنهج السليم ويفارق من يُعادي الله، وذلك لأن في موالاة ومُجاراة المشركين ضياع للدين.

والمُخالطون لمن يُكمن في نفسه الضغينة والمعاداة للإسلام لا يسلمون من الوقوع في أحد أمرين، أولهما أن يجدوا أنفسهم في بعض المجالس التي يُسخر فيها من آيات الله كما قال الله {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء 140]. وثانيهما هو أن المؤمن يعتاد ويألف أفعال الكافر إلى أن لا يعترض عليها، بل وقد تطبع عليه فيفعلها مثلهم وهي تنافي الشريعة، كما دل حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي ذكرناه آنفًا عن بني إسرائيل الذين ضرب الله قلوب بعضهم ببعض.

فأي الطريقين أفضل لي، أن أعتزلهم وأنجو بديني أم أن أخالطهم ويمرض قلبي، ولا أدري حينئذ أين ينتهي بي المآل؟ ويجب الانتباه إلى أن هناك فرقًا بين المعاداة والاعتزال، فالمعاداة تكون مع من حارب الدين، وأما الاعتزال فيكون بترك الفرد وعدم أذيته باللسان أو اليد، بل والوفاء بالحقوق التي له. ويكون الاعتزال مع المُسلم العاصي الذي لم ينفع معه النصح، ومع المشرك أو الكافر الذي لا يُحارب الإسلام.

أقول ذلك لأن في دول مثل مصر هناك عدد كبير من النصارى، وكثير منهم لا يعادون المسلمين، فيجب المعايشة معهم بالحسنى ودون معاداة، بل ومع إعطائهم حقوقهم كاملة، ودون إظهار الاعتزال أيضًا إن أمكن منعًا لحدوث الشحناء أو البغضاء اللتين قد تشعلان الفتنة بين الفئتين. ذلك النهج هو ما أوصانا به الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وذم قتل من كان له عهدٌ عندنا

(ما لم يُخالفه هو) مثل عقد استئجار أو أمان أو جزية أو هُدنة، فقال "مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"[1] (يَرِحْ أي يَشُم).

ثم يتبين لنا، من آيات سورة الممتحنة، أنهم بعد اعتزالهم للكفار واستعانتهم بالله، رجوا من الله ألا يجعلهم فتنة للذين كفروا. والمقصود هو ألا يصيبهم البلاء بما ارتكبوا من المعاصي، فيقول الكافر إنهم أُبتلوا بسبب تركهم الأصنام أو ما شابه ذلك. وهذه نقطة تستدعي الوقوف عليها، لأن الفتنة قد تأخذ أشكالًا متعددة؛ أوليست الفتنة أن يرى الكافر في هذا الزمان مسلمًا يسرق ويكذب ويُقصّر في عمله ويغُش وتكون أخلاقه بذيئة؟ أوليست فتنة أن تكون دول إسلامية متخلفة حضاريًّا واقتصاديًّا بينما نقول لهم إننا أفضل؟ إذا كانت هي فتنة لفئةٍ من المسلمين، إذ يرون أن الإصلاح والتقدم يكونان في اتباع منهج الغرب بدلًا من منهج الإسلام الصحيح، فكيف لا تكون فتنة للكافر؟! وإن أصبحت أنا فتنة للكافر فأي انحدار قد بلغت؟

وكيف ستكون نظرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لي عندما يعلم، وقد كان من معه رجال حملوا الإسلام حق حمله إذ كانوا خير المتمثلين به، أني قد صرت أنا فتنة لغيري عن الإسلام. فكيف انتقلنا من ذاك الحال إلى هذا الحال؟ فقد كانوا رجالًا بمقتضى المعنى حول الرسول (صلى الله عليه وسلم)، حتى إن المشكرين انبهروا من أفعالهم وأصبح عندهم رهبة منهم، كما جاء على لسان عُروة بن مسعود، وكان من مشركين قريش الذين منعوا المسلمين حج البيت الحرام قبل فتح مكة.

جاء في صحيح البخاري: فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَمَّدًا. وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إلا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا[2].

وكان الصحابة أُسُودًا في الحروب، ومع ذلك قوَّامين بالليل، والدليل على ذلك قول الله تعالى الذي يُطبِّقونه {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} [المزمل 20، جزء من الآية]. أما حالنا الآن، فإن كثيرًا من الدول الإسلامية لا تخوض حروبًا مع أن الجهاد قد حان إذ إن اليهود دخلوا بلاد المسلمين حتى احتلوا بيت المقدس، ودول

---

[1] صحيح البخاري 2930.

[2] صحيح البخاري 2529.

عقدوا مع العدو معاهدات هدنة بالباطل ليبيت أبنائها في أمنٍ ورفاهيةٍ، ومع ذلك لا يقومون الليل، وأنتِ منهم يا نفسي. فعجبًا لانقلاب الأوضاع.

وبعد كل ذلك لا نزال نتساءل، كيف تحول حالنا من العزة إلى الذل، ومن وقار ورهبة الكفار منا إلى هوانٍ في أعينهم واستهزاءٍ بنا؟ كيف لا نكون فتنة للكفار وهم يرون سلاطين بعض الدول التي تنتمي للإسلام يبلغون غاية الثراء وقومهم فقراء ومتأخرين علميًّا وصناعيًّا. دولٍ كثر فيها الفساد، ما بين السرقة والرشوة والمحسوبية والقهر بالقوة، بل والتعاون مع الكفار لقتل المسلمين، وفيها أطياف من الظلم الذي لا يُتخيل، ثم نقول لهم إننا أفضل منهم لأننا مسلمون؟ فكيف يُصدّقون ذلك؟

أقول هذا وأنا أخجل مما أقوله وأتأسف على أوضاعنا، ولكنه الواقع والحقيقة المؤلمة التي يجب أن نعترف بها، ونُشَخِّص المشكلة حتى نستطيع مواجهتها إن أردنا مُعالجتها ونتقدم. الأخلاق انحدرت في بعض الدول التي تنتمي للإسلام لدرجة أن أخلاق بعض دول الكفار أفضل. فقد أصبحنا في زمن يمشي المرء في دولة مسلمة يُسب فيها أب الرجل وأمّه على أمر غاية في التفاهة، بل وقد يكون المسبوب هو الذي على الصواب ومعه الحق، والذي يَسُب هو الظالم من الأصل. ويسمع المرء سبٌّ للدين في المشاجرات بين المتنازعين في الطرقات وبصوت مرتفع، بل حتى من باب المزاح بين أصدقاء السوء!

والله إنه لشيء محزن وبندى له الجبين، وكثر لدرجة أنه يصعب على من ينهى عن المنكر أن يُصححه كله نظرًا لكثرة انتشاره مع قلة الذين ينهون عن المنكر. أما بالنسبة إلى ما نراه من الابتلاءات حولنا، وجور السلاطين، وترويع وقهر رؤوس مستبدين لعامة الناس، وغير ذلك، فنحن نقر بوجوده ونشتكي منه. والعجيب أننا نرى المفسدين أو المُقصّرين حولنا ونَعلَمهم ونشير إليهم بأصابع الاتهام واللوم، وقد أستثني نفسي منهم إذ لا أُحاسب نفسي بصدق هل يصدر مني مثل ذلك أحيانًا؛ فهل أنا منهم أم لا؟ ثم هل أنا على الأقل من المقصرين الذين جُبلوا على مثل تلك الابتلاءات كعقاب من الله؟

ومن أكثر ظواهر الفساد التي يفعلها كثير من الناس، ومع ذلك لا يرون مدى ضررها البالغ على الأمة، مع اتهامهم غيرهم بالفساد، هي ما تُعرف بالمحسوبية (أي المُحاباة أو الوساطة بالباطل). والمُحاباة هي أن يضع صاحب سلطة أقاربه، أو من يألفه شخصيًّا، في منصب وهو لا يستحقه وليس بأكثرهم كفاءةً أو أمانة، ويذر الذي هو مستوفٍ لشروط المنصب واجتهد لنيله.

والتحري عن فساد النفس أمرٌ ضروري منطقيًّا، لأن البلاء إذا عم المجتمع فسيعني أنه لا يمتنع من الغرق في المعاصي إلا القليل. فكيف ينزل عقاب وبلاء الله في كل مكان حولي ومع ذلك

أرى أني سليم تمام السلامة والصلاح؟ ببساطة، لم يكن البلاء ليَعُمَّ لو كانت أغلب الناس مُحسنة، فما الذي يُميزني فيستثنيني من أن أكون من الذين جلبوا البلاء، فأقل تقصير أكون قد وقعت فيه هو بقائي صامتًا وعدم وقوفي للظالم أو المُفسد، بألا أنهاه عن المنكر ولا ءأطره على الحق أطرًا. فوجبت محاسبة النفس بصدق ودقة واستمرار، ثم مُجاهدتها، إن أردت أن أكون من الذين سلموا حقًّا.

رجوعًا للنقطة الأصلية، يجب على المسلم ترك صاحب السوء واستبداله بالصاحب الصالح. وليحذر وليراقب كلٌّ منا نفسه فيمن يُصاحبه، لأنه يوشك للمرء أن يجرَّه صديق السوء إلى القاع، وهذا ما أشار إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) في نصيحته "الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ"[1]. ومعنى "عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ" أي على عاداته، فإن الصديق قد يشُدّ المرء إلى الطاعة أو يجرَّه إلى المعصية، والدليل هو أنك ترى الأصدقاء الحميمين يتقاربان في التصرفات والاختيارات مع مرور الزمن، حتى يتشابهان بدرجة كبيرة ولو كانت طريقة تفكيرهما مختلفة! وأصاب الشاعر عدي بن زيد العبادي حين قال: عن المرءِ لا تسأل وسَلْ عن قرينه، فكل قرين بالمُقارَن يقتدي. وهناك مَثَلٌ مُختصر في هذا الشأن: يُعرَف المرءُ بقرينه.

ثم قد استفاض ابن الجوزي (رحمه الله) حول هذه النقطة قائلًا: ما رأيت أكثر أذى للمؤمن من مخالطة من لا يصلح، فإنّ الطّبع يسرق، فإن لم يتشبّه بهم ولم يسرق منهم، فَتَر عمله [أي ضعفت وتتقلّص أعماله الصالحة]. فإنّ رؤية الدنيا تحثُّ على طلبها، وكذلك رؤية أرباب الدنيا ودُورهم وأحوالهم، ومثله سماع الأغاني، إذ كل هذا يعين على المعصية ويدل عليها[2].

ومن الجهة الأُخرى، قد أرشدنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى من ينبغي مصاحبته قائلًا "لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنًا، وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلا تَقِيٌّ"[3]، وإرشادًا على كيفية إنفاذ وصيته (صلى الله عليه وسلم) تلك، أذكر لكم ما لاحظته وتوصَّلت له عن تجربتي الشخصية في أثناء انتقالي من فترة التيهة إلى فترة الهداية بفضل الله. هذا الإرشاد هو أنه بما أن الأنفع والأمتع للمرء مصاحبة الرجل المؤمن، فأفضل مكانٍ تجد فيه تجمعاتٍ للمؤمنين هو المسجد، فصلوات الجماعة تعج بالمؤمنين، وهذا ما أشار إليه أثر عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإِيمَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}"[4].

فمن هناك انتقِ الأصدقاء وأنت تُعاود الذهاب إلى المسجد لتُصلي الفرائض في جماعة. والأفضل والأفضل أن تراقب على عدة مرات سيمات من يعتادون المسجد، لتُقيّم من أصلحهم وأكثرهم

[1] مسند أحمد 8065.

[2] صيد الخاطر لابن الجوزي 411، بتصرف.

[3] سنن الترمذي 2318.

[4] مسند أحمد 11300، صححه السيوطي ولكن ضعفه الألباني والأرناؤوط.

أُلفةً وأفضلهم طباعًا، ثم تختار منهم صُحبتك. ففي المسجد أصدقاء إذا وُزنوا بالذهب فلن يستوفي الذهب قيمتهم.

وفي الختام أذكر حديثًا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إلا بَدَّلَكَ اللَّهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ"[1]. وسبب ذكري لهذا الحديث هنا مع أن الحديث ينطبق على أي جانب من جوانب الحياة هو أني أرى أنه من أصعب الأشياء على النفس هو التخلي عن الصديق الذي نشأت معه وطُبعتما على بعض، لما بينكما من أُلفة وعشرة. ففي رأيي، لا مال ولا منصب ولا أرض منشأ أصعب على النفس في التخلي عنه من الصديق الحميم الذي ترعرعت معه، إلا رجل يُفارق أهله وزوجته ليدخل الإسلام.

إنك بترك صديق السوء الذي نشأت معه لله، سيُبدلك الله به صديق أقرب إليك بكثير بعده، تُحبه أكثر من صديقك في السوء. ولا تنكر إمكانية حدوث ذلك إذ إن القلوب بيد الله يُقلّبِها كيف يشاء، وأنه هو الذي دبَّر السماوات والأرض، فكيف يعجر أن يُدبِّر لك صديق هو شبيه بك؟ وهذا ما حدث معي والحمد لله، فقد نشأ لي عدة أصدقاء جُدد من المساجد، عزيزون عليَّ، منهم الآن صديق حميم لي أُحبُّه أكثر من حبي للمجموعة بأكملها التي كنت فيها، فحقًّا قد أبدلني الله خيرًا منهم من كل الجوانب.

والخلاصة هي أنك إذا أردت أن تلتزم، فوجب التخلي عن أصدقاء السوء. وهذا ليس بغدرٍ بهم، بل إنه أقصى الوفاء لهم بالنسبة إلى ما تستطيع فعله لنفعهم ولكنهم لا يُدركون، فلئن تعتزلهم وتُقلل من المعاصي التي ترتكبونها معًا أقل خذلانًا وضررًا لهم من أن تُجيبهم ثم تختصم معهم وتلومهم يوم القيامة، تُحاول التبرؤ من وزرك وترميه عليهم وحدهم. الوضع ببساطة اختيار ومن دون حلول وُسطى: إما الله وإما أصدقاء السوء؛ فبأيهما ستُضحِّي؟

## الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قد تداولنا عدة جوانب من مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في خلال الكتاب، فسنقتصر هنا أساسًا على كيفية تقليصها من العصيان. قال تعالى {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران 104]، فالمسألة واجبةٌ على الأمة. هذا لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له فوائد متعددة مهمة، وتركه له أضرار متعددة وجسيمة، منه أن أهل المُنكر يكثرون ويسُودون في المجتمع لدرجة أن الحاكم الفاجر لا يُولِّي لمنصبٍ إلا من يراه فاجرًا، وتقوى شوكة الرويبضة والعُصاة إلى حد أنهم ينتقدون –بل

---

[1] مسند أحمد 21996.

ويعتدون– على أهل التقوى. قال النابلسي: تركنا النهي عن المنكر حتى خرج لنا أهل المنكر ينهوننا عن المعروف.

أما فيما يتعلق بموضوع هذا الجزء، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يُساعد فاعله على الإقلاع عن المعاصي، فليس التأثير مقتصرًا فقط على من يتم نهيه عن المنكر. والجميل في القضية هو أن تأثر هذا السلوك على صاحبه –بجعله يترك المعاصي– هو تأثيرٌ مُضاعّف، منها أن النهي عن المُنكر يجعل المُسلم السوي الصادق أن يستحيي من أن يرتكب ما ينهى الناس عنه، فيُنزِّه نفسه عن المعاصي التي ينهى الناس عنها. وفائدة أخرى هي أن هذا الفعل هو من الأعمال الصالحة، والتي تُحقق رضا الله، ومن ثمَّ تجلب عون الله على التقوى ووقاية الله للعبد المُقبل على معصية من الوقوع فيها.

وهناك تأثيرات غير مُباشرة، مثل أنه عندما يتقلص ارتكاب المعاصي في المجتمع فإنه لا يراها كثيرًا ومن ثمَّ لا يُفتتن إلى ارتكابها. وإضافةً، فإنه إذا أقبل على معصية فسيجد من ينهاه عنها! وهذه فقط بعض من التأثيرات الإيجابية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تعود على من يُمارسه نفسه، فما بالنا بتأثيره الإيجابي الإجمالي، وعلى مُستوى الأُمة أيضًا؟!

## الإدراك والحيطة من الصفات الفطرية لدى الإنسان التي تقوده إلى المعصية

لماذا يسهل على المرء تذكر ما له من الله ولكن يصعب عليه تذكر ما عليه تجاه الله؟ لا شك أن طبع الإنسان هو الطمع في جمع قدر ما يستطيعه، وفي نفس الوقت يبحث عن متعته وراحته. فيتولد من كل ذلك أنه يطلب من الله كل ما يستحقه ومع ذلك يتقاعس عن الوفاء بحق الله في عبادته. هذا مثلٌ على تجمع بعض الطباع العامة لدى الإنسان حتى تُكوّن سلوكًا مذمومًا فيه إن لم يضبطها.

ومثل آخر هو أن من طبائع الإنسان العجلة، ولمثل تلك الصفة مميزات وعيوب. فمن مميزاتها هي عندما تكون العجلة في المبادرة إلى طاعة الله (أعمال الآخرة عامة)، فإن الله يُحب المُسارعين والمتنافسين في طاعته، أو عندما تكون العجلة لإتمام حاجة لأخيه من أمور الدنيا. ولكن وجب علينا تصفية أو معالجة عيوبها التي تقود المرء إلى ما نهى الله، مثل أنه قد يُقبل على ما بين يديه من الشهوات المنهية على حساب ما يتأخر مما يُحبه من الجزاء ومثيلتها في الجنة. قال عز وجل {كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ} [القيامة 20–21]، فقد خُلق الله الإنسان عجولًا {خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ} [الأنبياء 37]. آيات سورة القيامة تحكي حال المشركين في أنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، ولكنها صفة فطرية في الإنسان عامة.

فقد أفلح من جاهد نفسه وحَكَّم عقله، وقد خاب من آثر هواه على عقله فملَّكه السيطرة على جسده. وصفة إيثار العاجلة على الآجلة ليست غريبة على أحد منّا، فهي محور اختبارنا في الدنيا، والله ناظر ماذا سيختار كل واحد منّا، هل سيجاهد تلك الصفة أم لا، ولأي مدى في جوانب حياته؟ ولولا وجود صفة الاستعجال عند الإنسان لأمسك عن المعصية، ولم ليكن هناك معنى للاختبار.

فمن لم يصبر وآثر متاع الدنيا يستمتع قليلًا بالذي هو ظاهر، ويُضيّع الوفير الدائم، لأن نظرته اقتصرت على ما بين يديه ولم يبالِ بالصورة الشاملة للوضع. وأما من صبر عن معصية الله، وهو أشق الاختيارين على النفس، فقد ضحّى بالمتعة المُتناولة من أجل المتعة الخفية، بناء على إيمانه أنها موجودة وبهيئة أفضل، مع أنه لم يُعاينها بجوارحه. فوجب أن يكون جزاؤه أضعافًا لأنه آمن بعقله ما لم تره عيناه (لم نرَ الله وملائكته والكُتُب السابقة واليوم الآخر والجنة والنار، وأغلبنا لم يروا الرسل أيضًا)، وعمل على ذلك الأساس، وإيمانه وصل لمرحلة أنه فاق هواه فقاوم متاع الدنيا. ولذلك يُضاعف الله لمن عمل الحسنة عشر أمثالها ويزيد، جزاءً لقهر نفسه على أساس شيءٍ لم يره بعد.

فاصبر يا أخي، إنما هي لحظات حتى تلقى الله فيُجازيك بالوفرة، لأنه تعالى يعلم مدى معاناة الصابرين {إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} [المؤمنون 111]. ولا يعلم قدر تلك النصيحة أكثر من المُسِنِّين، إذ أغلب ما يخوضه الإنسان في الدنيا يُنسى، سواء جاهد المعصية أم ارتكابها، وهذا عندما يمضي عليها وقت كافٍ، ولكن العمل يبقى ويُحصى لك أو عليك بتدوينه في كتابك.

أيضًا، إن ضعف الإنسان أمام ما تشتهيه نفسه هي صفة ينبغي الاحتياط منها احتياطًا كبيرًا، وتُعطَى احترازًا بالغًا، لأنها عاملٌ في أغلب ما يرتكبه الإنسان من معاصٍ. فليس من المنطق ولا الحكمة أن يَعرِض الإنسانُ المعصية على نفسه مُتَّكِلًا أنه سيقاومها بإرادته، فلماذا يضع نفسه في هذا المأزق من الأصل؟! إذا فعل المرء منا هذا، فإنه أميل إلى أن يقع في المعصية، لأن الإنسان بطبعه إذا كانت الشهوة أمامه وفي متناول يده فإنه يضعف أمامها، إذ إن نفسه تبدأ بتهوين ارتكابها رغبةً فيها، وتنشأ المبررات كي يُقدم عليها، وربما أيضًا يتراخي عند نشوة لحظة، فيرتكب المعصية. من يبدأ مغرورًا بنفسه أكثر قابليةً أن ينتهي به المطاف إلى التجرؤ على ما حُرِّم عليه.

وفي كتاب الله هناك ما يدل على ضرورة تجنب تعريض النفس على المعاصي، فقد قال تعالى {وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} [الأنعام 151، جزء من الآية]، ولم يقَل مثلًا: ولا تفعلوا/تقعوا في/ترتكبوا الفواحش. ومثل هذا في قول الله تعالى {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا} [البقرة 187، جزء من الآية]، ولم يُقال: فلا تتعدوها/تنتهكوها. فلفظ "تقربوا" بالغ في الأهمية والدلالة، لأن ربنا الذي خلقنا يعلم أننا نضعف أمام المعصية عندما نقترب منها.

ولمن لا يزال يظن أنه قوي أمام المعاصي ويستطيع أن يُقاومها عندما يقترب منها، فليتذكر أبانا سيدنا آدم (عليه السلام) الذي قال الله له {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأعراف 19]، فأساس التحريم كان الأكل من الشجرة، ولكن نُهي عن الاقتراب منها. فبالرغم من أنه رأى وتكلم مع الله، وأنه في الجنة، وله أن يأكل أي ثمرة في الجنة غير من هذه الشجرة، فإنه عندما خالف وصية الله فاقترب من الشجرة لم يتمالك إلا أن أكل من الشجرة.

وفي السُنَّة الشريفة عدة أدلة على هذه النقطة أيضًا، فمثلًا حول موضوع الزنا قد نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الخلوة بالمرأة أو مُصافحتها، إذ إن الشيطان يُحرِّضه على التودد إليها، وأن المرأة تستطيع أن تُذهب بعقل الرجل الحكيم الشديد الحازم إلى أن يلين ويقع عليها. وكل هذا يندرج تحت قول الله تعالى {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء 32].

ومنها قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، فَيَتَّبِعُهُ مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنْ الشُّبُهَاتِ (أَوْ لِمَا يَبْعَثُ بِهِ مِنْ الشُّبُهَاتِ – شك راوي الحديث)"[1]؛ فَلْيَنْأَ أي ليبتعد تنزيها لنفسه عن رؤيته، وهذا وقايةً. هذا بالرغم من أن قد نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن سيمات الدجال، منها ما يظهر جليًّا مثل أنه أعور ومكتوب بين عينيه "كافر" صراحةً، فالرجل قد يرى أن في إيمانه صلابه وعنده كثير من العلم ولكن يلين لكلام وقُدُرات الدجال الخادعة، فينتهي إلى اتباعه والكفر بالله! فإذا كان المرء عُرضةً للسقوط بسبب ضعفه عند المسألة المحورية: من الإيمان إلى الكفر بالله، أفلا يكون أكثر قابليةً للرضوخ لضعفه أمام معصية دون الكفر؟ فوجب على العبد أن يضع مسافة بينه وبين المعصية، تحسُّبًا للضعف الذي فيه واعتبارًا بقول الله تعالى {وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا} [النساء 28، جزء من الآية].

ومن الطباع التلقائية في الإنسان أنه يتناسى عواقب وأضرار المعصية كي يُهيئ لنفسه أكثر درجات المتعة من المعصية، فينصب لنفسه مناخًا صافيًا من التعكير الذهني قبل المعصية. فستلاحظ عندما تبدأ بالتفكير في الإقبال على معصية ما أنها تتزين لك، وذلك لأنك تتذكر متعتها والجانب الإيجابي فيها، ولكن لا يخطر ببالك الجوانب السلبية وآثار المعصية (أو يواريها الشيطان أو نفسك).

لا أقصد بآثار المعصية ههنا عواقبها الغيبية التي في الآخرة، بل أقصد تحديدًا تبعاتها في الدنيا مثل تأثيرها على جسدك، أي الجوانب العبثية فيها التي تُحبط من إرادتك الإقبال عليها. ومثال على ذلك هو أن السارق يبات قلقًا من أن يُمسك، والزاني يجد جسده منهكًا ويخاف أن يُفضح، لا

---

[1] سنن أبي داود 3762.

سيما ضياع الوقت وذلة في النفس التي ترتبط بأي نوع من أنواع المعاصي؛ كل ذلك يُنسى أو يُهوَّن قبل إقبال النفس على المعصية.

فستجد أنك لا تتذكر الوقت المُهدر، ولا فقدان السيطرة على نفسك، ولا وهن الجسد بعد المعصية، ولا الانطواء النفسي، ولا الإحباط من أن الشهوة أذلَّتك على فعل شيءٍ لم تُرد فعله، ولا أن عقلك قد أُلغي، ولا فلان وعلان الذين أوذوا من المعصية. ولا تتذكر ذلة النفس بعد المعصية، أو الندم على ما فعلت، أو الانكسار في نفسك، أو القلق من أن يطلع الناس على ما فعلت، أو التوتر من ارتقاب نزول عقاب الله على ما فعلت، أو الأنين المُلح من ضميرك، أو أن ما فعلته يحيك في صدرك ويَحزّ في نفسك. إنك لا تتذكر لحظة إدراك أنك قد خذلت ربك الذي أحسن إليك فخالفته. فإنك لا تتذكر مثل تلك الأمور كي لا تُنَغِّص عليك نفسك لذة المعصية، إضافة إلى أن هذا كله من مكايد الشيطان لتزيين المعصية لك حتى تُقع فيها.

وصفة أخرى تظهر قبيل ارتكاب المعصية هي إسكان الضمير، فتمامًا مثل أن الحاكم الظالم يَحجم من يُعارضه أو يعظه لأن ذلك الشخص يُكدِّر عليه نشوة غروره وكبريائه، فإن النفس تُسكت الضمير كي لا يُعكِّر عليها صفوة الاستمتاع بالمعصية. فمن مكايد النفس لتهيئتها للمعصية أنها تُصَغِّر الذنب لإخماد الضمير، أو أن تختلق الأعذار لتخفيف التأنيب على ارتكابها.

ولكن يجب أن يُدرِك المرء أن منزلة الذنب لا تتغير عند الله مهما شاع، وإلا لانهار تكليف مدافعة المعصية مع تقدم الزمن. ومثال على ذلك مما شاع من الذنوب هو التبرج، فمن كثرة التبرج قد تقول الأخت إنه لا بأس في الخفيف من التزين مقارنةً بكثرة المتبرجات، وأن تلك من سيمات التحضر والرُقي والتجميل، وأن المجتمع يحث بل ويضغط لذلك. ويقول الأخ لنفسه إنه معذور إذا أطلق بصره قليلًا نظرًا لكثرة إغراءات النساء المتأنقات وتعمدهن في ذلك، وأن واللوم عليهن، ولكن أوامر الله لا تتغير والفساد مُعرَّف، فقد أمر الله النساء بعدم إبداء زينتهن إلا لفئات مُحددة، وأمر الرجال والنساء بغض بصرهن. وإنما تلك فتن للعبد المؤمن، نسأل الله الإعانة على مجاهدتهن والوقاية من الانخداع بهن.

فإذا رأيت نفسك تُصغِّر ذنبًا فاحترس لئلا تنتهك حرمة الله فيها، فتألفها وتعتادها، وقلبك يشرب منها حتى تستحسنها والعياذ بالله. وإذا كان شيئًا تراه كثيرًا فجاهده مع إرساخ مبدأ مكانة الذنب عند الله في نفسك، فذلك أدعى أن تسلم منها، ولو وقعت فيها فتستطيع أن تتعافى سريعًا بخلاف الذي لا يرى بأس فيها، والله المستعان.

ومن الصفات الفطرية السلبية هي الجزع والتضرع إلى الله فقط عند الشدة، حتى إذا انكشفت تلك الشدة وعاد إلى الرخاء، افتخر ونسي الفضل والحقوق {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ

الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} [المعارج 19-23]. وكملحوظة جانبية: إن في الآيات دليلًا على أن الدوام على الصلاة وسيلة شافية من سلبيات الصفات الفطرية في المرء، والمثل هنا هو أن الإنسان خُلق إذا مسه الخير منوعًا وإذا مسه الشر جزوعًا... إلا المصلين، الذين هم صفاتهم كما ذُكرت بعد ذلك.

وربما يتمادى الإنسان حتى، فيغتر ويفتري كما دلت آيات مثل {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِّعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} [فصلت 50]. وبما أنه تجاهل فضل وحقوق رب الناس عليه، تجاهُل حقوق الناس والتكبر عليهم يكون أدعى {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} [القصص 78].

وبطبعه، فإن الإنسان يرى أعماله الصالحة عظيمة وينتظر عليها ثوابًا بالغًا، ويرى أعماله السيئة هيّنةً في الضرر وضئيلة في الفساد فيتوقع العفو عنها له، إلا المؤمن الذي هذَّب طباعه وروَّد نفسه. قال سيدنا ابن مسعود (رضي الله عنه): إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا (وأشار بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ)[1]. وفي هذا دلالة على أن الفاجر لا يستصغر ذنبه فحسب، بل ويُحاول أن ينساه. وهذا بخلاف نهج الصالحين الذين يداومون على محاسبة أنفسهم، ويُقاومون صفات الكبر والغرور وتعظيم النفس، ويمتنعون عن إطلاق العنان للنفس. قال مالك بن دينار: رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟! ثم زَمَّها، ثم خَطَمَها [كناية على وضع اللجام على الأنف ليقود النفس]، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل[2]. فالعبد المستقيم يُذكر نفسه بزلّاتها وذنوبها ليكسر العُجب الذي فيها.

صفة نسيان الذنب، بما فيها من هلاك وحدها، إذا اجتمعت مع عُجب المرء بنفسه حتى يرى أنه أفضل من أغلب الناس، ومع رؤيته أن أعماله الصالحة كثيرة بالرغم من جهله بما يُقدِّمه آخرون، تتيح للشيطان أن يستولي على المرء فيسوقه حيثما شاء. ولنستعيذ بالله من هذا، إذ إن في بلوغ هذه المرحلة تتقلص احتماليات خروج المرء من الضلال، إلا من رحِمَه الله.

ومن الصفات السلبية الأُخر هي تأجيل متتالٍ للعمل الصالح وللإقلاع عن المعصية، {حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ} [النساء 18، جزء من الآية]. وهذا في الواقع تأجيلٌ للتعامل مع حقيقة وجود حساب وجزاء.

---

[1] صحيح البخاري 5833.

[2] محاسبة النفس لابن أبي الدنيا 8.

صفة أخرى ينبغي الحيطة منها هي صفة الطمع، فإن كان للعبد وادٍ من ذهب لانشغل سعيًا في تحصيل الوادي الثاني، فإذا جاءه مرضٍ مُقعِد والموت، تنازل عن كل ما جَمَعَه وزهد عما كان يطمع فيه مقابل ألا يموت ولا يدخل جهنم. يُنبئنا الله {لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [الرعد 18]. أفليس الأولى إذًا أن يتنازل المرء عن طمعه في الدنيا وهو مُعافى، ولا يُبقي داخله إلا طمعه في الآخرة، وخاصة أن طمعه في الدنيا سيؤول إلى الفناء بل والهدم لا محالة؟

والطمع قد يسوق المرء إلى أنه يسخط عندما لا ينال ما كان يسعى له وإن كان عنده الكثير من النعم، ويجحد بنعم الله، ويعترض على قدر الله وقسمته، بل وربما يسعى ليُحصِّله بالحرام بعدما أخفق بالطرق الشرعية. وهناك مثلٌ لمن ينتهج ذلك النهج، فإن أصابه خيرًا أثنى على الإسلام وأقر أنه دين خير، وإن أصابه السوء في أمور الدنيا فتنةً واختبارًا له جحد وقال أنه دين سوء وأعرض عن الله {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج 11]. فقد ذم الله ذلك السلوك الطامع في الدنيا، إذ إنه قد يُفيض بالمرء إلى أن يخرج من الإسلام.

ثم عجبًا لأمر الإنسان، أنه إذا قدَّم لله عملًا صالحًا ينتظر المكافأة عليه، وسريعًا، ولكنه إذا وقع في معصية لا ينتظر العقاب عليها، بل ويأمل أن يغفر الله له ولا يصله تبعاتها إطلاقًا، فهو يطمع من الله في كلتا الحالتين، ولكن هل هذا هو العدل والإنصاف؟ بل وربما يطمع في الجزاء الحسن لتوبته بعد المعصية، فليس رجاؤه يدور حول إذا قبل الله منه توبته ورفع عنه الوزر أم لا، بل يغتر ويتجرأ بتوقع المكافأة من الله لأنه أقبل على التوبة، ويدور رجاؤه حول المكافأة التي يتمناها.

فالحمد لله الذي لا يُعاقبنا على طمعنا، ولا يؤاخذنا بكل ما نقترفه، بل يرأف بنا ويعفو عن كثير. ولعل هذا الطبع له ارتباط بمقصدٍ من مقاصد الآية {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [يونس 11]. ففي الآية دليل على أن الناس يستعجلون الخير، ولكن إذا حقق الله تعجيله بالجزاء الخير لهم كقاعدة عامة فإن ذلك يقتضي أن يُعجِّل لهم العقاب على مساوئهم أيضًا من باب العدل، وحينئذ لهلك الناس في تلك الحالة.

ومن ثمَّ، هناك إشارة على أن الله شاء أن يؤخر المكافأة على الأعمال الصالحة، فلا تكون في التو واللحظة (وإن كان بعضًا منها يتحقق للعبد في الدنيا ولكن بعد مرور بعض من الوقت) مقابل أنه يؤخر للعبد عقوبته عندما يُسيء. وفي ذلك خيرٌ لنا، إذ إن فترة الإمهال عن العقوبة تعطي

مهلة للعبد عسى أن يتوب فيها فيعفو الله عنه، فيتجنب العبد العقوبة مجملًا. ففترة الإمهال تندرج تحت سعة رحمة ورأفة الله، كفرصة للعبد أن يتفادى العقاب.

ويؤيد هذه النقطة أكثر قول الله عز وجل {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [الشورى 30]، فإن المصائب التي تحل على المرء هي نتيجة ما اقترفه العبد من مساوئ لم يتُب عنها، لأن جملة "وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ" تدل على أن الله كثيرًا ما يتجاوز عن مؤاخذة العبد على سوء العمل، وهذا بالطبع يشمل ما تاب العبد عنه وقَبِله الله. والمُتوقَّع أن توبة العبد من الأسباب التي تجعل الله يعفو عن معاقبة العبد، إضافة إلى أنه تعالى قد يعفو عن بعض الذنوب التي لم يتب العبد منها، مثل عندما يسهو العبد عن عادته في الاستغفار، أو يُقدِّم عملًا طيبًا لله فيعفو الله به عنه عملًا سيئًا.

وتأييدٍ آخر هو أن هذا المبدأ في المُعاملة يُطبَّق في أمر الدعاء، وذلك ما أشار إليه قوله تعالى {وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا} [الإسراء 11]. قد جاء في التفاسير أن الإنسان إذا غضب لعله يتعجل بالدعاء بالشر على نفسه أو عشيرته كما يتعجل في دعائه بالخير عادةً. ومثال على ذلك هو دعاء الأم على ولدها عندما تغضب، فتدعو عليه وهي لا ترجو أن يصيب ابنها ذلك الدعاء. ومن حكمة الله ورحمته ولطفه أنه لا يستجيب لذلك الدعاء فورًا أو نهائيًّا حتى، فلعل العبد يندم أو يُراجع نفسه فيرجع عن دعائه. فإذا كان الوضع هكذا، فمن باب العدل والمُساواة ألا يستجيب الله للدعاء بالخير فورًا أيضًا. وهذا الوضع هو خيرٌ وأسلم لنا، أن يؤجل الله الاستجابة للدعاء بالشر والخير سواء، بدلًا من الاستجابة الفورية لكلاهما. والله أعلم.

الطمع والرغبة في الاستمتاع أمثلة لطباع عامة في الإنسان، ولكن هناك أيضًا طباعٌ خاصة تختلف من شخصٍ لشخص، فلا يخفى على أحدنا أن لكل امرئٍ منا صفات مميَّزَة وأُخر سلبية. فينبغي للمرء إدراك ما يُميزه (مثل أنه صبور، أو يُحب التصدق) فيُنَمِّيه ويتَّكئ عليه لتقويم نفسه عن المعاصي. وعلى الجهة الأخرى، يدرس سلبياته كي يستطيع الاحتراز منها -بل ومعالجتها- حتى لا تكون مدخلًا تصل إليه المعاصي من خلاله، فإن لكل شخصٍ سلبية تكون بمنزلة نقطة الضعف يُفتتن منها. فمن الناس من يُفتتن بالمال أكثر، ومنهم من يُفتتن بالنساء أكثر، ومنهم من يُفتتن بالسلطة والمنصب أكثر، ومنهم من يفتتن بالسمعة والشهرة خصوصًا، وهكذا. فخيرٌ للمرء أن يدرس نفسه فيعرف قدرها.

وحول هذه القضية، الصفات الشخصية لكل فرد، هناك مدخل لكيد الشيطان. يقول ابن القيم (رحمه الله): ومن كيده العجيب: أنه يُشامُّ النفس، حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها: قوة الإقدام والشجاعة، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة؟ فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام، أخذ في تثبيطه وإضعاف همَّته وإرادته عن المأمور به، وثقَّله عليه، وهوَّن عليه تركه، حتى يتركه جملة،

أو يُقصِّر فيه ويتهاون يه. وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة، أخذ يقلل عنده المأمور به، ويوهمه أنه لا يكفيه، وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة. فيُقصِّر بالأول ويتجاوز بالثاني، كما قال بعض السلف: ما أمر الله سبحانه بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيهما ظفر.

ثم أعطى ابن القيم بعض الأمثلة، منها: فقوم قصر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحد بالوسواس. وقوم قصر بهم عن إخراج الواجب من المال، وقوم تجاوز بهم حتى أخرجوا جميع ما في أيديهم، وقعدوا كلًّا على الناس، مستشرفين إلى ما بأيديهم. وقوم قصر بهم عن تناول ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس، حتى أضروا بأبدانهم وقلوبهم، وقوم تجاوز بهم حتى أخذوا فوق الحاجة، فأضروا بقلوبهم وأبدانهم. وقصر بقوم في خلطة الناس حتى اعتزلوهم في الطاعات، كالجمعة والجماعات والجهاد وتعلم العلم، وتجاوز بقوم حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام. وقصر بقوم حتى امتنعوا من ذبح عصفور أو شاة ليأكله، وتجاوز بآخرين حتى جرَّأهم على الدماء المعصومة.

وكذلك قصر بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم الذي ينفعهم، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم، دون العمل به. وقصر بقوم حتى زين لهم ترك سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من النكاح، فرغبوا عنه بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى ارتكبوا ما وصلوا إليه من الحرام. وقصر بقوم حتى جفوا الشيوخ من أهل الدين والصلاح، وأعرضوا عنهم، ولم يقوموا بحقهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله. وكذلك قصر بقوم حتى منعهم قبول أقوال أهل العلم والالتفات إليها بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحلال ما حللوه والحرام ما حرموه، وقدموا أقوالهم على سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الصحيحة الصريحة[1] (انتهى).

عامةً، قد ذُكر في مواضع متفرقة في هذا الكتاب عدة صفات سلبية عند الإنسان (مثل الحسد والغضب وتعظيم شأن النفس). وقد أجمل ابن القيم (رحمه الله) بقوله: سبحان الله! في النفس كبر إبليس، وحسد قابيل، وعتو عاد، وطغيان ثمود، وجرأة نمرود، واستطالة فرعون، وبغي قارون، وقبح هامان، وهوى بَلعَام، وحِيَل أصحاب السبت، وتمرد الوليد، وجهل أبي جهل. وفيها من أخلاق البهائم: حرص الغراب، وشَرَهُ الكلب، ورُعُونَة الطاووس، ودناءة الجُعَلِ، وعقوق الضب، وحقد الجمل، ووُثُوب الفهد، وصَولَةُ الأسد، وفسق الفأرة، وخبث الحية، وعبث القرد، وجَمعُ النملة، ومكر الثعلب، وخِفَّةُ الفراش، ونوم الضبع، غير أن الرياضة والمجاهدة تُذهب ذلك[2]. (الرياضة أي التدرب والمداومة على تهذيبها).

---

[1] إغاثة اللهفان لابن القيم 1/202-204.

[2] الفوائد 74.

ينبغي للمرء معالجة مثل تلك الصفات، لأن الصفات المذمومة إذا تراكمت تكون سببًا في أن المرء يُقبِل على الباطل وينفي الحق. قد ضرب ابن الجوزي (رحمه الله) مثلًا مُبصرًا بقوله: ومثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك، فإن لم يكن بين يديك لحم وخبز، فإنه ينزجر بأن تقول له: اخسأ؛ وإن كان بين يديك شيء من ذلك وهو جائع، لم يندفع عنك بمجرد الكلام، فكذلك القلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر. فأما القلب الذي غلب عليه الهوى، فإنه يرفع الذكر إلى حواشيه، فلا يتمكن الذكر من سويدائه، فيستقر الشيطان في السويداء. وإذا أردت مصداق ذلك، فتأمل هذا في صلاتك، وانظر إلى الشيطان كيف يحدث قلبك في مثل هذا الموطن، بذكر السوق، وحساب المعاملين، وتدبير أمر الدنيا[1] (انتهى).

فالمرء إذا أدرك وأحصى صفاته الفطرية التي تجعله يُقبل على المعصية، سواء العامة منها أم الخاصة، كانت مقاومته للمعصية مبنيةٌ على أساس علمي، فيصبح لديه ميزة في معالجة آفاته ومقاومة المعاصي، إذ قد أدرك المقومات التي تقود إليها والتي تصدُّها. وللفائدة، هناك طباع محورية ينبع منها أغلب أسباب المعصية وصفات سلبية أُخَر، قد جمعها بعض المُفكرين قائلين: من ملك نفسه عند أربع حرَّمه الله على النار: حين يغضب، وحين يرغب، وحين يرهب، وحين يشتهي[2]. فعند الغضب يكون المرء قابلًا أن يَظلِم، وعند الرغبة يوشك أن يأخذ مسلكًا مُحرمًا لتحصيل مُراده مثل التكبر لتحصيل شرفًا، وعند الرهبة يوشك أن يُداهن بدينه أو يوافق ويتملق للظالم، وعند الشهوة يوشك أن يضعها في حرام مثل الزنا بدل الزواج.

ففي الإنسان طباع وشهوات خلقه الله بها تجعله قد يُقبل على المعصية {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [آل عمران 14]، ثم يُعلمه الله الصواب من الخطأ عن طريق الإسلام بالإضافة إلى الفطرة المُرشدة. ثم يراقب الله ماذا سيفعل العبد {وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الأعراف 129، جزء من الآية]، أسيجاهد نفسه أم يترك نفسه يعيش في الأرض عيشة الأنعام؟ وهذه سُنة الله علينا ليرى معدن كل إنسان ودرجة إيمانه.

يبلغ العبد المنازل الرفيعة عند الله بعلاج نقاط ضعفه، وبمجاهدة ومخالفة الشهوات القوية في نفسه. مثلًا، إن كان الإنسان يصعب عليه الزكاة بماله الذي تعب فيه ولكن يسهل عليه صيام التطوع، فإنه عندما يُكابد نفسه ليدفع الزكاة بطيب نفس يكن له أجر أكبر من صومه. والعكس قد يكون صحيحًا مع شخصٍ ذات طباع مُغايرة، أنه يأخذ أجرًا على الصيام أكثر من الزكاة لأنه يثقل عليه جدًّا ترك الطعام والنكاح ولكن يسهل عليه التصدق بالمال.

---

[1] منهاج القاصدين ومفيد الصادقين لعبد الرحمن بن الجوزي 5/3.

[2] المستطرف للأبشيهي 41/1.

وهذا نستشفه إلى حد كبير من واقعة يرويها لنا السَّدُوسِيّ (يعني ابن الخَصَاصِيَّةِ، رضي الله عنه): أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُبَايِعَهُ، فَاشْتَرَطَ عَلَيَّ: شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنْ أُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَأَنْ أُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ، وَأَنْ أَحُجَّ حَجَّةَ الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَصُومَ شَهْرَ رَمَضَانَ، وَأَنْ أُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَّا اثْنَتَانِ فَوَاللَّهِ مَا أُطِيقُهُمَا: الْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ، فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُ مَنْ وَلَّى الدُّبُرَ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ، فَأَخَافُ إِنْ حَضَرْتُ تِلْكَ جَشِعَتْ نَفْسِي وَكَرِهَتْ الْمَوْتَ؛ وَالصَّدَقَةُ، فَوَاللَّهِ مَا لِي إِلَّا غُنَيْمَةٌ وَعَشْرُ ذَوْدٍ هُنَّ رَسَلُ أَهْلِي وَحَمُولَتُهُمْ. فَقَبَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ، ثُمَّ حَرَّكَ يَدَهُ ثُمَّ قَالَ "فَلَا جِهَادَ وَلَا صَدَقَةَ، فَلِمَ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِذًا؟"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أُبَايِعُكَ؛ فَبَايَعْتُ عَلَيْهِنَّ كُلِّهِنَّ[1] (غُنَيْمَةٌ أي القليل من الغنم؛ ذَوْدٍ أي الإبل). لنلاحظ أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يُبايعه على شهادة التوحيد والصلاة والصيام وحدهم، بالرغم من أن الشهادة والصلاة أساسيات أكثر من الزكاة والجهاد، ثم سأله كيف يرى أن له الجنة دون معاناة مكابدة هواه.

وتتبين لنا هذه النقطة أكثر من حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما سأله رجل: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ "أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا؛ وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ"[2]. صَحِيحٌ شَحِيحٌ أي مُعافًى البدن لأن هذا أدعى لحرص العبد على المال من المريض الذي ليس المال أبلغ ما يتمناه، والشُحّ هو البُخل مع الحرص على المال. وَلَا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ أي لا تؤجّل التصدق حتى تأتي لحظات الموت. وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ هو تعبير عن فوات الأوان، لأن آنذاك تكون من باب الوصية بعد أن آيس من المال ولا يتصدق بنفسه، فلا يكون له نفس الأجر؛ وقد يكون لأن الذي كان يحتاج الصدقة إما سافر أو مات أو لم يعد في أمس الحاجة إلى المساعدة.

بل وقد يبلغ المرء مرحلة أكثر ارتقاءً من هذه، تتحقق إذا بلغ مبدأ عام يُطبّقه في نفسه: الاستقواء بصفاته الإيجابية على صفاته السلبية. للتوضيح، إن المرء كي يصبح صالحًا ينبغي له القضاء على صفاته السلبية، أو تقويمها إلى إيجابية، وهذا يحتاج إلى أسلوب وجهد، والأسلوب هو المبدأ الذي ذُكِر للتو. فلن تجد رجلًا صالحًا إلا قد مر من هذا الطريق، أنه كافح صفاته السلبية حتى ارتقى، ومن الصعب جدًّا فعل هذا دون استخدام صفات المرء الإيجابية للتأثير على صفاته السلبية.

مثل توضيحي لهذا هو أن نفس الإنسان بطبعها تنفر من التغيرات الجذرية عما تعتاده، خاصة مع تقدم العمر، فإن كان الرجل مبتلًى بحُب السرقة، فليُشغل نفسه عن السرقة بالتفكر في كيف أنه يؤذي غيره وكيف سيكون جزاؤه إذا قُبض عليه، فيتخيل قطع يده. وليُجرّب العيش دون

---

[1] مسند أحمد 20946.

[2] صحيح البخاري 1330.

استعمال يده قليلًا مثلًا، وغير ذلك من الوسائل التي تُؤثِّر فيه، حتى إذا قهر نفسه عن السرقة دهرًا من الزمن سيجد أنه لا يستهوي السرقة كما كان. ذلك لأن كُره نفسه في تغير حاله بالعودة إلى السرقة وما يرافقها من وبال يجعل إقدامه على السرقة أثقل من قبل؛ قد استعان بصفة كُره النفس للتغيير على صفة حبها للاستيلاء على أملاك الآخرين. ولكن ليظل يحترز، فإن مقاومته لرغبة السرقة تحتاج إلى مجهود مستمر إذ قد لا تزال تستهويها النفس، ولكن الجهد المطلوب سيتقلص جدًّا، فلا ينبغي أن يتهاون ويغتر فينتكس.

## وضع في الاعتبار أن الإنسان يُكثر من التجاوزات عندما يتعلق الأمر بجمع المال

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ"[1]، وهذا ظاهر جليًّا في أمتنا الإسلامية إذ إن التعاملات المادية تكون علة وزَلة كثير من المسلمين. وهناك من الإخوة من يكونون في غاية التعبد لله، ولكن للأسف تكون تعاملاتهم المالية فيها خلل، وبهذا السلوك يفتنون كثير من غير المسلمين أو حتى المسلمين ذوي الإيمان الضعيف، يُنَفِّرون الناس عن الإسلام. فلنسأل الله الصلاح والهداية لنا ولهم، والثبات على الحق، والوقاية من فتنة المال.

إن الإنسان بطبعه يطمع في جمع وتخزين المال، وبسبب رغبته تلك فإنه قد يخالف شرع الله لنيل مراده. ويفعل ذلك عن طريق التهاون بأضرار مخالفته لفطرته وللشرائع، أو يلتمس التبريرات ويسرد الحجج التي تُسوِّل له لمُخالفة تلك الشرائع، مثل أنه في حاجة ضرورية لذلك المال أو بالتحايل في أسلوب جمع المال توهمًا أنه بهذا لا ينطبق عليه تصنيف الربا أو التطفيف أو السرقة أو غيرهم. أو قد يتسول له الحرام تحت عذر أن كثيرًا ممن حوله يسرقون أو يجنون المال من الربا أو غير ذلك، وفقط القليل من الناس يعترضون على ذلك المنهج، مما يعطي الانطباع أنهم يقبلون تلك التصرفات. والحقيقة أن ذلك يخالف منطق الحياة، إذ إن الله يبتلي المرء ليرى ما الطريق الذي سيسلكه {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ} [العنكبوت 2].

حجة أن المرء في حاجة ماسة لذلك المال للبقاء حجة باطلة، إذ لا يموت مسلم من الجوع، لأن الله يتكفل برزقه بحيث إنه لا يهلك من الجوع. فهل يُعقل أن الله يخلق مخلوقًا ثم ينساه فلا يُخصص له رزقه حتى يعيش؟ ولكن المشكلة تحدث عندما يعصي ابن آدم ربه، فيبتليهم الله بالشدة في المأونة والمتجبرين السارقون، فيسرقون قوت العباد الذي خصصه الله لعباد بعينهم، حتى يموت بعضهم بسبب قلة الغذاء.

[1] سنن الترمذي 2258.

وذكرًا لمبدأ شامل يُصلح نظرة الإنسان لأمور الرزق، يروى عن حَبَّةَ وَسَوَاءٍ ابْنَي خالد قالا: دَخَلْنَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُعَالِجُ شَيْئًا فَأَعَنَّاهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ "لا تَيْئَسَا مِنْ الرِّزْقِ مَا تَهَزَّزَتْ رُءُوسُكُمَا، فَإِنَّ الإِنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرٌ، ثُمَّ يَرْزُقُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ"[1]. ولكن تكثر معصية ابن آدم في مجال تحصيل المال، فإن أفرادًا قد يرتكبون المعصية مثل الغش أو السرقة أو الرشوة أو الربا لجمع المال، زعمًا منه أنه مضطر إلى ذلك لنيل ما يحتاجه، لاسيما أن هناك منهم من يفعل ذلك للإكثار من ماله مع أن معه ما يكفيه من الرزق. والحقيقة أن ذلك كله توهم، لأنه لم يكن الله ليَفرِض على المرء حرامًا لتلبية ضرورياته، لأن الله أعظم من ذلك ومنزه عن ظلم عباده، وإنما هو بلاء واختبار ويراقب الله ما سيفعله المرء عندما يظن المرء أن لا سبيل أمامه إلا الحرام.

والحديث المذكور يرد على ذلك الاعتقاد جملةً، بالإضافة إلى كثرة ما يدل على ذلك مثل قول الرسول (صلى الله عليه وسلم): لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إلا وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ إِلَى النَّارِ وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إلا وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وَإِنَّ الرُّوحَ الأَمِينَ قَدْ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ حَتَّى تَسْتَوْفِي رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللَّهِ، فَإِنَّهُ لا يُدْرَكُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إلا بِطَاعَتِهِ[2] (وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ أي اطلبوا الرزق بأسلوب جميل مُهذَب معتدل في الحلال، ليس من الحرام أو الشبهات). ومع أن الحديث الأخير فيه موضع انقطاع، إلا أنه يُفسِّر ويساند حديثًا صحيحًا عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ؛ خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حَرُمَ"[3].

فكِلا الحديثين مفادهما أنهما ينهيان عن تحصيل الرزق بالحرام، ويُشيران إلى أن رزق المرء ثابتٌ، وإنما هو يختار أيجمعه من حرام أم يجمعه من حلال. ويزيد تأكيدًا لذلك المبدأ جزء من حديثٍ لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ"[4]. فحقيقة حال الجامع للمال بالحرام هو أنه منع عن نفسه الرزق الحلال بترك الصبر، إذ إن الذي سرقه كان سيُحصِّله بالحلال إن صبر واجتهد في ذلك.

وهنا تأتي قضية شائكة تحتاج إلى إيمان ويقين، وهي: ما حال الذي يحتاج إلى المال احتياجًا ماسًّا لكي يشتري ضروريات حياته، بحيث تبدأ الأفكار أنه مضطر أن يقبل الرشوة أو يسرق أو يخدع الناس عن أموالهم أو إلخ. أولًا، إن الضروريات مسألة نسبية، فكم من رجل يريد تزيين منزله فيسرق من الناس كي يستطيع تجميل بيته، فهو يرى أن هذا ضرورة، ولكن هل هي كذلك

[1] سنن ابن ماجه 4155.

[2] إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري 270/3؛ الحديث منقطع.

[3] سنن ابن ماجه 2135.

[4] سنن الترمذي 2389.

بالفعل؟ أما من يحتاج إلى المال ضرورة حقًّا، للأكل وإلا سيبات جعانًا، فليتذكر أن هناك مثل سيدنا أبي هريرة، الذي بلغ أنه كان يُغشى عليه من الجوع وما كان يقبل الحرام، ثم لننظر إلى ماذا صار – إلى سعة في الرزق وعلو شأنه عند الله وبين الناس.

ثم ليضع المضطر عينيه على أن الله أكرم وأعلى من أن يتخلى عن عبده إلى أن يُجبَر على الوقوع في الحرام، خاصة الذي يتحرى إرضاء ربه وتقواه من الأصل (بالاجتهاد في تجنب الحرام)، خاصة أكثر أن الله قد وعدنا {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} [الصلاق 2]. وقد أكَّد على هذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تصبيرًا وتبشيرًا لنا "إِنِّي لَأَعْلَمُ آيَةً لَوْ أَخَذَ بِهَا النَّاسُ لَكَفَتْهُمْ: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}[1].

فاصبر عن الحرام مهما كان، فلن يضطرك الله أن تقع فيما يكرهه تعالى مهما بدت أبواب الحلال مُغلقة ومهما طالت المدة، فإنما هي فتنة لاختبارك كم ستصبر. وكثيرًا ما سيفرض عليك اختيار الحلال أن تتخلى عن تطلعاتك في بلوغ مرتفعات أماني متاع الدنيا (مثل الراتب الفائق أو المنصب الرفيع)، وأن ترضى بأقل مما كنت ستحصل عليه بالحرام. بل وربما تضطر إلى التنازل عن بعض حقوقك فتَقبَل بما هو أقل مما تستحقه، وتبذل مجهودًا أكبر، ولكنه سيكفيك لأن هذا الذي قدَّره الله أنه سيُخرجك من الاضطرار إلى الحرام، فاصبر وارضَ واحتسب.

وثق وتأكد أن ما كنت ستجنيه بالحرام كان سينقص منه بذهاب البركة، مثل صرفه على داء تُصاب به، حتى يتساوى قيمةً مع ما حصلت عليه بالحلال، والفرق حقيقة آنذاك يكون الفرق في الآخرة بين جزاء من أطاع الله وجزاء من عصى الله. وكي أكون صريحًا، هذا الكلام يحتاج إلى إيمان وتوكل على الله، ثم يحتاج إلى تجربته شخصيًّا ورؤيته بالعين وهو يتحقق كي يتيقن العبد به عين اليقين.

ثم هناك قضية أخرى شائكة ومُعقدة، تُثير تساؤلًا منطقيًّا يؤدي إلى إضعاف يقين بعض الناس في كلام الله. ما يراه كثير من الناس فيُفتنون به ويقتنعون به هو: من يسرق أو يغش أو يكذب أو يُتاجر في المُحرَّمات أو يكون قلبه قاسيًا يجمع مالًا أكثر من الذي يتقي الله، وهذا يعني أن الرزق ليس بثابت لكل شخص، إذ نادرًا ما ترى من يتحرى الحلال يبلغ الآفاق في ادخار المال، فلو كان الرزق ثابتًا ومُقدَّرًا لرأينا أغنى الناس في العالم بين تقي وبين فاجر بالتساوي. هنا أريد أن أجيب عن هذه الفتنة بملاحظاتي الشخصية، وهي أن الرزق ثابت كما نبأنا الله ولكن العيب في معاييرنا لتقييم الرزق.

---

[1] سنن الدارمي 2609.

للتوضيح، فإن الذي يكذب كي يستولي على أموال الناس، أليس قد ضحَّى بنزاهته بين الناس؟ فالمال الذي يجنيه من وراء ذلك هو ثمن بيع نزاهته، والنزاهة نعمة ورزق من الله لمن تكون عنده. وكذلك الحكمة، والهيبة، والوقار، والجمال، كلها أمثلة على نعم نفيسة من عند الله، بيعها عادة يجلب مبلغًا طائلًا من المال، ولكن القضية تدور حول من عنده مبادئ في التمسك بشرع الله ممن يتخلى عنه فيبيع ما عنده من نِعم (رزق) ليجمع المال.

ولإبراز المقصد من الكلام أكثر بمثلٍ بسيط، فإن الله يخلق عبدًا بجسدٍ سليم، ثم يذهب هذا العبد فيبيع عضوًا من أعضائه مُقابل مبلغ طائل من المال، فالذي حدث هو أن هذا العبد استبدل رزق برزق آخر بطريقة مُحرَّمة. أليست الكِلية السليمة رزق من الله بما أنها تكون مُعطَّلة عند بعض الناس؟ فإنما الرزق ثابت قد حدده الله، ولكننا لا ننظر إلى هذا الشخص الذي باع كليته وجمع مالًا كثيرًا على أنه فقدَ رزقًا، إنما نرى أنه اغتنى. فالمشكلة أننا لا نزن النعم الأخرى على أنها رزق من عند الله لها قيمة عالية. وجانبٌ آخرٌ هو أن الذي يكذب إنما واقعيًّا يبيع جُزءًا من رزقه في الآخرة (لأنه كان سيُجازى بالخير إن كان صادقًا، والآن أصبح سيُجازى بالعقاب) ليُحصِّل رزقًا في الدنيا، فالقضية أشبة بالتبديل أو الفكاك، والله أعلم.

هذا وقد قال الله إنه لا يُحمِّل نفسًا فوق طاقتها، بل وقد عهد لمن صبر على البلاء أن يُفرِّج عنه {لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} [الطلاق 7]. فكيف يُعقل أن الله يفرض على العبد ما يكرهه الله (المعصية) لحاجة ماسة عند العبد، خاصةً بعد عهد الله الذي في الآية، هذا بالإضافة إلى أن الله هو الرؤوف بعباده الرحيم عليهم الناصر لهم! فلا عذر لأن أعصي الله على أساس أنه لاحتياج أساسي من الرزق، وإنما ذلك ما تسوله لي نفسي. ولا عذر أيضًا أن أعتبر أني أحتاج للتخفيف عن بلاء قلة امتلاك الوسائل الرخائية التي يمتلكها سائر الناس، لأن ذلك ينقض مغزى الاختبار، فهل للطالب أن يغش في الامتحان لأنه عجز عن إجابة سؤال فيه؟

فلا ينبغي للعبد أن يخاف الفقر، أو أن يطمع فيُبالغ في جمع المال وينشغل به. أعطانا أبو زكريا يحيى الرازي موعظة بليغة ومُبصرة: مسكين ابن آدم، لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة[1].

## تحليل واستيعاب طبيعة رغبة الإنسان

[1] تاريخ بغداد لأحمد بن علي بن ثابت 212/14.

لا شك أن معرفة وفهم طبيعة الرغبة عند الإنسان، من حيث الدوافع والنمط الذي تسلكها، تُساعد المرءِ في علاجها وإيجاد وسيلة فعَّالة للتعامل معها. وللتوضيح، فهناك دوافع وهناك نمط للرغبة، ولنتداول كل منهما:

1- دوافع المعصية: من الرغبات ما يكون الدافع منها واضحًا ومباشرًا، مثل شهوة النساء التي تكون دافعًا للزنا، وفي هذا المثل يكون سهلًا على المرءِ معرفة الدافع للمعصية. ولكن قد تتعقد الدوافع بأن تكون الصلة التي بين المعصية والدافع غير مباشرة، مثل معصية بهتان فردٍ لا يعرفه لرغبته في بلوغ منصب. فهذا الشخص ليست غايته أن يظلم الفرد، ولكن غايته هي بلوغ منصبٍ يقف هذا الفرد عائقًا في الطريق إليه، فيظلمه ليتخطاه. ومن ثمَّ، إن دافع المرءِ هو بلوغ منصب، ولكن يظلم شخصًا كي يُرضي المسؤول عن المنصب أو ليُسَوِّئ سُمعة الشخص الذي يُنافسه على المنصب.

وكقاعدة عامة، عندما يضع المرءِ لنفسه هدفًا أو غاية، فإنه يصبح أكثر قابلية أن يعصي الله من هذا الباب، إذ إن رغبته في بلوغ هدفة قد تجعله أكثر لينةً عن مبادئه. عندها قد لا يُبالي إذا كانت الوسيلة من حلال أم من حرام، ويُبرر أفعاله الملتوية لنفسه تبريرًا. ليس العيب أن يكون للمرءِ أهداف في حياته، بل يُحبَّذ هذا، وليس العلاج أن يمحو الأهداف والغايات من حياته، ولكن ليكن أكثر حرصًا من أن تدخل إليه وساوس المعصية من باب ما يرغبه ويسعى إليه.

وهذا ما نراه خاصة في مسائل الأموال، إذ إن كثيرًا من الناس يحيدون عن الحق عندما تتعلق المسألة بجمعهم المال. وتلك المسألة بلغت فتنة وداهية أن هناك من علماء الدين من يبيعون بعلمهم الفتاوى الباطلة ليوافقوا هوى ذوي السلطة والجاه والمال، وذلك مقابل منصب أو إعجاب السلطان بهم أو أجر كبير أو حتى ثناء عليهم. قد تجاهلوا قول الله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة 174]؛ فلا أُجرة كبيرة بما تكفي في الدنيا لتعويضهم على عذاب الله في الآخرة. فالرجل الذي هدفه أن يكون غنيًّا يُصبح أكثر قابليةً أن تحمله نفسه إلى السرقة أو الاحتيال على الناس أو الربا ليجمع المال، ومن الجهة الأخرى قد يصبح بخيلًا في صرف المال لدرجة أنه يتهرب من دفع الزكاة. فليحذر المرءِ من أن يؤتى من جهة ما يتطلع إليه.

ويكون الوضع أكثر تفاقمًا إذا كان يرجو الكمال في غايته، مثل الوظيفة المثالية أو المرأة المتكاملة أو الرخاء المتناهي. والمعضلة هي أننا في الدنيا، أي المرحلة الأدنى، فليس هنا متعة كاملة أو مثالية، فكل أمر من أمور الدنيا يتخلله النقصان أو حتى الأضرار، إلا الإسلام إذ إنه من الأمور المتعلقة بالآخرة. كمثال، إذا كان الإنسان يسعى للحصول على الوجبة المثالية التي يشتهيها،

فإنه لا يكاد إلا أن يجد صنفًا ليس مطهيًّا كما تمنى، أو أن يكون باهظ الثمن فيُكلِّفه كثيرًا، أو أن يقطع عليه استمتاعه بالطعام أحد الناس.

أما الذي يبحث عن الرخاء المتناهي، فإنه لا يكاد ينتهي من إعداد سبيل من سبل الرخاء إلا ويجد أن هناك سبيلًا آخر لم يُحصِّله بعد، أو يحدث عُطل في سبيل قد حققه من قبل ولكن يحتاج إلى الصيانة الآن، فهو في سعي ومشقة مستمرة لبلوغ حلمه بالرخاء التام في الدنيا! فينبغي أن يَكُفَّ العبد عن البحث عن المتاع الكامل أو المثالي، إذ إن هذا يدفعه إلى المعصية بحثًا عنه، أو في أقل الأحوال يُشغله عن ذكر الله الذي مكاسبه أكبر بكثير. لنُدرك الواقع على حقيقته فنترك البحث عن الكمال من الأصل، فالمُتع المتكاملة توجد في الآخرة.

2- نمط الرغبة: إن للرغبة التي تدفع المرء للمعصية سلوكًا يُمكن للمترقب ملاحظته، منها أن الرغبة تبدأ بتفكير المرء في المعصية حتى تتردد في ذهنه أكثر فأكثر. وقد تكلمنا في هذا الجانب عندما ذكرنا نصيحة ابن القيم (رحمه الله) عن مدافعة ما يقع في بال المرء من الخَطْرة والفكرة والشهوة والعزيمة والهِمَّة لارتكاب معصية. قلما تكون المعصية عفوية في لحظة، دون أن يكون المرء قد فكَّر فيها يسيرًا أو حتى خطط لها، أي نادرًا ما تطرح نفسها أمامه لأول مرةٍ ويأخذ قرار ارتكابها في التو واللحظة دون تقييمٍ.

ومن نمط الرغبة أنها تأتي في هيئة "أمواج"، بحيث إن الرغبة تعلو جدًّا فتبلغ ذروتها في لحظة فيشعر المرء أنه يحتاج أن يُلبِّيها، ثم تنخفض بعدها بلحظات لدرجة أنه قد ينفر من المعصية حتى، ثم تهيج عليه ثانيةً. من الأدلة أن الرغبة تسلك هذا النمط هو قول الله تعالى {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فصلت 36]، فالنزغات تشير إلى وجود لحظات ذروة. وهذه الأمواج تأتي متتالية ومتقاربة عادة، ومعدلها يختلف من شخص لآخر وبحسب نوعية الرغبة أيضًا. مع رغبة الفرج، عادة ما تبلغ قمَّتها في فترةٍ محدودة وتظل الأمواج تصدم المرء بتتالي في هذه الفترة، وأما فيما يختص برغبة الاغتناء فعادةً ما تكون الأمواج متباعدة.

والمشكلة لا تكمن فقط في أن تلك الأمواج قد تتوالى على المرء بكثافة حتى يرتكب المعصية، بل تمتد المشكلة إذ إن المرء قد تفوته المعصية بعدما صدمته الأمواج ولكن تَرسَّخ عنده القناعة أنه يحتاج تحصيل وتلبية تلك الرغبة، بالرغم من أن رغبته تكون قد خمدت. فلا يزال يسعى لتحصيلها، وكأنه مُبرمجٌ على ارتكابها وحسب. قد كان يشتهيها في فترة تهيُّج رغبته أمواج، والآن لا يشتهيها ولكن لا يزال يسعى وراءها، وتلك هي النكسة.

فهذا هو المقصد من استيعاب المرء لطبيعة الرغبة من حيث الدافع والنمط، فإذا أحاط بها المرء يستطيع أن يدرك أين ومتى يُهاجمها حتى يُخمدها، فيتفادى معصية الله. بالمثال، فإنه إذا شعر

أنه يريد أن يخالط امرأة لا تحل له، فإنه يعلم أنها تنبع من شهوة الفرج في الأساس، فقد يعمد للصيام إذ إنه يُقلِّص من الرغبة في الجماع، وهذا بالنسبة إلى موضوع مهاجمته لدوافع الرغبة. أما عن متى يُهاجم رغبته، فهذا يكون أثمر في فترة انخفاض الموجة، حين تكون الرغبة ضعيفة وفي هدوء نسبي، فيسهل عليه إقناع نفسه بالرشد لهجر المعصية، ولينزع نفسه نزعًا من أجواء المعصية عند تلك المرحلة. ولكن هذا الكلام لا يعني عدم مُدافعة المعصية في أثناء الرغبة، بل المعنى أن يستمر أو حتى يزيد من المُجاهدة فتؤدي إلى اتخاذ إجراءات مُضادة للمعصية في فترات انخفاض الرغبة عن المعصية.

أريد الإشارة إلى أني لم أحصر جميع الجوانب والأمثلة لهذين النقطتين (الدوافع والنمط) في هذا الباب، فلعل القارئ يعلم أو يكتشف جوانب أخرى للدوافع، وطبائع أخرى للأنماط في أثناء مُراقبته لنفسه. وهذا بالطبع سيساعده في كفاءة تجنب المعصية إذا تم استغلال تلك المعلومات.

## التنوع بين الخمس صفات التي تُعلي الهِمَّة

قد يُدرك كثيرٌ من الناس أن الخوف من الله والرجاء لما عنده هما من الصفات التي تحث المرء على طاعة الله والبعد عن معصيته، ولكن هناك صفات أُخر غيرهما يُعلون من همّة العبد في تقوى الله، وهم حُب الله والحياء منه والامتنان له، وتلك الخمسة هن الصفات الأساسية ولكن هناك غيرها فرعيون تساهم في تقوى الله. المسلم الفطن هو الذي يستخدم تلك الصفات، بالانتقال بينها بحسب قوة تأثيرها عليه في الموقف، حتى يبلغ تجنب معصية الله. فتارة قد يُذكِّر نفسه بما يُخوِّفه فينتهي عن ارتكاب المعصية، وتارة يُذَّكر نفسه بما عند الله من ثواب فيُضحِّي بالمعصية ويمتنع عنها لينال ما عند الله.

فالخوف يعتمد على رغبة العبد في اجتناب عذاب الله، سواء في الدنيا أم الآخرة، وهذا ما نستشعره عندما نقرأ آية مثل {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (47) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51) هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [إبراهيم 47–52] (الْأَصْفَادِ هي قيود لليدين أو القدمين، عادة تكون من حديد؛ سَرَابِيلُهُم أي ثيابهم التي تلتصق بهم؛ قَطِرَانٍ هو النُحاس المُذاب من الحرارة). فوصف بعض أصناف العذاب بتفاصيلها يجعل المرء يشيب، والذي يدل على مدى شروع الله في تعذيب المستحقين للعذاب، إلى حد أنه يُعدّ أدق تفاصيل التعذيب لاستقبال المُجرمين.

والرجاء فيما عند الله مرتبط بالأمل أن يفوز العبد بجائزة الله، أي الجنة في الأساس. وهذا ما نشعر به عندما نمر على آيات مثل {وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران 133]. ذلك الجزاء الذي وصفه الله {وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة 72]. ومما ينبئنا به الله والذي يتلهف العبد أن يحدث ذلك معه هو في قوله تعالى {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي} [الفجر 27–30].

وحب العبد لله يعتمد على تعظيم الله وتقدير كرمه وحب صفاته، فتكون غاية المرء فقط هي إرضاء الله، أي دون اعتبار للمكافأة، وهذه من أسمى وأخلص درجات التعامل مع الله. فأما تعظيم الله فيكون بالإحاطة بالآيات والأحاديث الدالة على عظمة الله، مثل قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [فاطر 41]. وأما تقدير كرمه، فهو بإدراك المرء مدى عطاء الله فوق المُستَحَق، فهو أرسل لنا رُسُلًا كثيرة بالرغم من أنه الغني عنا، ويصبر علينا حين نعصيه وهو القادر علينا. ويدعونا ليغفر لنا بالرغم من أنه نهانا من عصيانه في المقام الأول، ويعفو عن المنيب ولو بعد ارتكاب المصائب {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [الزمر 53].

فيما يخص حب صفات الله، فهو يتواجد مع كل صفاته، مثل حب أنه الرؤوف بنا {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلا عَظِيمًا (27) يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا} [النساء 27–28]، وحب أنه الرحيم. وحب أنه مُجيب دعوة المكروب فيُنقذه من مأزقه، وأنه العدل فلا يظلم عباده مثقال ذرة حتى عند مُحاسبة ومُعاقبة من يبغضهم أشد البغض، ومع أن العبد قد ظلم الله في حقوقه. وحتى صفاته البطشية فهي تُحب، مثل أنه منتقم وشديد العقاب، إذ إنه ينتقم من الذين مكروا بالإسلام، وللمظلومين من الذين أجرموا فشاقوا المسلمين وقتلوهم وذبحوا أبناءهم واستحيوا نساءهم، ثم تفادوا محاسبة الناس لهم وتهربوا من قصاص الناس منهم.

والحياء يأتي عندما يُدرك المرء أنه يُسيء في العمل مع الله وقد أنعم الله عليه، وأن الله يراقبه، فيخجل من تقصيره في العمل الصالح، وإقباله على المعاصي، وأن الله سيسأله عن ذلك ويُعاتبه عليه. وهذا يُستثار عند قراءة آيات مثل {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقّ وَلاَ يَكُونُواْ كَالَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد 16].

أما الامتنان، فيأتي عندما يُدرك المرء أن الله قد بادر بالحسنى والانعام على العبد، فيشعر العبد أنه مديون لله. فيعمد العبد إلى شُكره عن طريق البحث عما يريده الله فيفعله، ويبتعد عما نهاه عنه لأنه يعلم أن الله له فضلًا وحقًّا عليه في أن يأمره باجتناب أمرٍ ما، وأن الله يبغض الفساد ويغضب منه. والامتنان فيه من القوامة والنزاهة لأن العبد يُطع الله من باب إحساسه بالمسؤولية إلى الله، فيعمد إلى الوفاء بتلك التكاليف من الله بما تَحمل من مشقة. وذلك ما نستشعره عندما نقرأ آية مثل {وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم 34]، {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} [لقمان 20]. وقال تعالى عن حقيقة الحال {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ} [النمل 73].

والفروقات بين تلك المشاعر الخمسة في مقصدها هي أن الخوف يحمل المرء في الأساس على تفادي غضب الله وعذابه. أما من يُحب الله فإنه يسعى لنيل رضا الله. وبالنسبة إلى الرجاء فإنه يحمل المرء على السعي للفوز بما في الجنة من متاع. والحياء يحمل المرء على تَجنب معاتبة الله له، فإن عاتبه الله حزن حزنًا شديدًا وأثَّر ذلك في نفسه ولو كان مصيره إلى الجنة في النهاية. وبالامتنان يكون حال المرء أنه يريد أن يلقى الله وقد أبدى لله أنه يُقدِّر نعمه عليه وحاول الوفاء لله حق تلك النعم، وتلك الصفة تجعل المرء لا ينظر إلى جزائه، سواء الثواب أم العقاب، ما دام قد أبرز شكره لله عمليًّا. والفرق بين الحياء والامتنان هو أن الحياء ينبع نتيجة أعمال المرء، سواء التقصير أو الإساءة، والتي لا يريد المرء أن يمر بالمرحلة المحرجة في محاسبة الله له عليها، وأما الامتنان فينبع بما يتلقاه العبد من نعم الله.

والملخص هو أن تلك الخمس مسالك وراءها غايات مختلفات، ولكنهن يَقُدنَ إلى نفس المُحصِّلة عمليًّا: طاعة الله. ومن أفضل الأمثال لذلك هو مثل قومٍ قد اجتمعوا ليحاربوا المسلمين، ومع أن أجسادهم مجتمعة فإن قلوبهم مُتفرقة. فمنهم من يُحارب للقضاء على الإسلام، ومنهم من يريد السيطرة على الأراضي أساسًا، ومنهم من يريد الاستلاء على أموالنا ومواردنا، ومنهم من يُحارب سُمعةً وشجاعةً، ومنهم من لا يريد المحاربة ولكنه يفعل ذلك مجبورًا من قائده. والواقع هو أنهم جميعهم عند الله يُحاسبون أنهم حاربوه وحاربوا الإسلام بالرغم من اختلاف غاياتهم، وعلينا قتالهم كافة بالرغم من اختلاف نياتهم، إذ إنهم واقعيًّا يُقلِّصون من رسوخ كلمة 'لا إله إلا الله' في الأرض بفعلهم هذا.

وواقع الحال هو أن طباع الناس تختلف لأن الله خلَقهم متنوعين، فمن الناس من يكون الخوف أقوى التأثيرات عليه ليعمل صالحًا ويمتنع عن العصيان، ومن الناس من يكون الرجاء أقوى مُحفِّزٍ له، وغيره يكون حُب الله أقوى مُحفِّزٍ له، وهكذا. ولكن حتى مع الفرد الواحد، بين كل موقف

وآخر وبين كل حين وآخر، تختلف استجابته مع كل من تلك الصفات، فتؤثر فيه إحداهن دون الأخرى. فمثلًا، إذا قابله عملٌ صالح يتكاسل عنه كان حبّه لله هو المُحرك له إخلاصًا لله، وإذا قابلته معصية صغيرة من صغائر الذنوب كان الحياء هو الناهي له.

وإذا قابلته كبيرة من الكبائر كان الخوف مما سيُفعل به في القبر هو الزاجر له تارة، وتارة يكون الامتنان هو العائق له لأنه يشعر بالدناءة والخيانة مع الله إذا ارتكبها. وتارة يكون الرجاء، فيما هو أجود عند الله، هو الحافز له للتخلي عن المعصية، إذ يتمنى من الله أن يُبدِله من جنس المتعة بما هو أمتع لتركه الأمر الذي تشبثت به نفسه من أجل الله، مُتيقنًا أن الله سيعطيه ما يطلبه. بل ويُبالغ في طلب ما يحلو له كتعويض من الله، وذلك طمعًا وأملًا في كرم الله.

من الصعب أن نجد شخصًا يتأثر فقط بنوع واحد من تلك الصفات ومنهاجية التفكير، ولكن عادة ما يكون في الفرد جميع أنواع تلك المشاعر تؤثر فيه، ولكن قد تعلو واحدةً فوق الباقي. فمن الحكمة تجديد النظرة والمنهاجية كيلا تمل وتعتاد النفس على طريقة واحدةٍ، فتتبلد ولا تتأثر بها بعد زمن. وللتوضيح، أقول عن من لزم جانب الخوف رُبما لم يؤثر فيه بعد مدى لأنه قد حفظ أو يقل إدراكه بشدة عذاب الله، فيكون مناسبًا له في تلك المرحلة أن يتفكر في وينتقل إلى الرجاء أو غيره، ولو لفترة ثم يرجع إلى الخوف. وهكذا يتجدد استشعاره للأمور ويُنشِّط حواسّه، مما يؤادي إلى إعلاء هِمَّته بكفاءة أكثر. واستحباب التبديل بين تلك الصفات مُستدلًا عليه في الآية {تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [السجدة 16] (تَتَجَافَى أي ترتفع).

وتمييزًا أكثر بين تلك الصفات الخمس، فلنتخيل تلك الصفات في تعاملاتنا مع الناس. فالخوف يبرز في الموظف الذي لا يتَّقي الله فهو في الأرض مثل ريشة طائر، تُحركه الأشياء المادية، فيخاف من رئيسه في العمل إذ قد يؤذيه إن لم يفعل ما يأمره به، فإنه يعمل العمل خوفًا من أن يصيبه عقاب رئيسه. أما الحُب، فالمرء قد يُلَبّي طلبًا لرئيسه في العمل مما ليس من التزامات وظيفته (كطلب شخصي مثلًا) لأنه يُحب رئيسه الذي يُعامله بإحسان، فيخرج عن عادته كي يُحقق لرئيسه تلك الخدمة، وإن لم يطلبها رئيسه منه. والرجاء يجعل العامل يسعى جاهدًا ليُلفت انتباه رئيسه ولينال إعجابه، وذلك حتى يرتفع راتبه أو يعطيه رئيسه منصبًا أكبر.

وبالنسبة إلى الامتنان، فهو عندما تعمل عملًا لشخصٍ من باب الوفاء له وبيانًا لشكرك له، لأنه قدَّم لك معروفًا كبيرًا من قبل وأنت تريد أن تُريه تقديرك له، بل وتردّ إليه المعروف أو الخدمة إن استطعت. أما الحياء، فهو ما يجعلك تعمل عملًا لشخصٍ طلب منك معروفًا وأنت لا تعرفه ولم يُقدِّم لك خدمةً من قبل، ولست مسؤولًا ولا مُلزمًا على تلبية ذلك الطلب، ولكن أنت تظُن في ذلك الشخص حُسنًا فتستجيب لطلبه، إذ تستحيي أن ترفض وترد عليه حاجته فيرجع خائبًا. وهذا باختصار التمييز بين تلك الصفات الخمس. وبيانًا لتطبيق لتلك الصفات مع الله فهو كما يلي:

الحب. من الحب لله أن يسعى العبد في نيل رضاه، ومن سُبل نيل رضاه هو ألا يُغضبه وألا يجعله يغار، والذي يحدث عندما يعصيه، كما جاء في حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ"[1]. فكيف يتوقع من يُغضب الله ويجعله يغار بعصيانه أن يُحبه الله ويرضى عنه؟ بل وكيف لي أن أفعل ما يغضب الله ويجعله يغار؟ بأي حق؟!

إن الله خلق كل شيء، ولا يرضى لما خلقه أن يَرتكب معصية، ولا أن يُرتكب محرمًا بما خلقه. إني عندما أفعل معصية، مثل أن أنظر إلى محرم، فإن غيرة الله تأتي من جهتين، الجهة الأولى أني استخدمت نعمة تخصني من نعم الله كي أعصيه (العين أو العقل أو اليد أو غير ذلك) بدلًا من استخدام النعمة في طاعته. والجهة الثانية أني ارتكبت المعصية في شيءٍ هو خلقه ولا يخصني وليس لي الحق بالمساس به، فهذا في الحقيقة اعتداء على مُلك الله.

إن الله يهب لكل عبدٍ نعمًا، ثم يراقب كيف يستعملها، لأن الدنيا دار امتحان. ولكن الإخفاق يصدر من الرجل الذي يُطلق بصره، قد استعمل النعم في النظر المحرم؛ والمرأة قد تكون تزينت لتزيد من جمالها فيُفتن الرجال، وعلى كلاهما خطأ. فالمعصية فيها خرق لحدود الله، التي هي من حق الله أن يضعها كيف يشاء لأنه خلق كل شيء، وعندما أعصي الله فذلك يكون كسرًا لأوامر الله والخروج عما حدده لي، وذلك يجلب الغيرة. وبالطبع يجب مراعاة عدم مقارنة غيرة الله بغيرتنا، تعالى الله عن أوصافنا، لأن الله ليس كمثله شيء، وغيرة الإنسان تشمل شعورًا فيه شر وربما عزيمة على الظلم، تعالى الله وتنزه عن مثل ذلك كله.

فالمعصية دليل على أن هناك خللًا ما (أو ضعفًا) في الإيمان يحتاج إلى إعادة النظر فيه ومعالجته. والعكس صحيح، فمن يعظّم الله كثيرًا في نفسه نجده قلما يعصي الله، لأن حبه لله وخشيته منه يحيلان بينه وبين المعصية. أما كثرة المعاصي وكبر قبحها فهو مؤشر خطير، إذ يدل على قلة تعظيم أحكام الله والتهاون ببطش الله، ولله الحق أن يغار عندما يرى عبدًا هو خلقه لا يرعى الحدود التي وضعها له، بل ويعتدي على مخلوقاته تعالى.

ذلك لأن العبد عندما يعصي الله يكون قد فضَّل معصية الله على طاعة الله، أي أنه أحب الشهوة أكثر من محبّته لله، ولو لفترة وجيزة، وقد فشل في امتحان الفتن. العاصي لم يستوعب حق الاستيعاب ما جاء في الآية {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ} [العنكبوت 2]، فعندما تُعرض على العبد شهوة تُبعده عن الله، فهذا اختبار لحبِّه لله. فالحمد لله الذي يُحيط لماذا

---

[1] صحيح مسلم 4959.

نعصيه فيغفر ويعفو عمن يشاء، ومقابل هذا يجب أن نجتهد بقوة في تجنب معصية الله، وإن وقعنا في المعصية أن نستغفر ونتوب سريعًا وبصدقٍ؛ آنذاك نأمل أن تدركنا رحمة الله بالمغفرة وعفوه عنا.

فالمُحِب لله يُحب أن يُرضي الله عنه، فيسعى في معرفة ماذا يُحبه الله ويجتهد في تحقيقه، وذلك ليُفرِح الله منه، فيفرح لفرح الله. أرأيت كم يسعى ويجتهد الحبيب لإسعاد ونيل إعجاب خطيبته، ويفرح لفرحتها ويتحرى ما الذي تُريده فيسعى وراءه ويُحققه لها؟ فالمفترض أن تكون اللهفة والبذل لنيل رضا الله أشد من ذلك، إلى حد أن العبد يُحب ما يُحبّه الله، ويكره ما يكرهه الله، ويؤثر ما يُحبّه الله فوق ما تُحبّه نفسه عندما يحدث تعارض، وتلك سمات المُحب لله. آنذاك يصبح من أحب وأفضل العباد عند الله، وقد قال بعض الحكماء: أفضل الناس من لم تُفسِد الشهوة دينه، خير الناس من أخرج الحرص من قلبه، وعصى هواه في طاعة ربه[1] (أخرج الحرص أي على الدنيا).

وضرب الله لنا مثلًا من هؤلاء في الأنصار، الذين أحبوا الله لدرجة أنهم أحبوا الذين هاجروا من مكة تاركين أموالهم وديارهم حبًّا لله. ففعل الأنصار ما بوسعهم ليُريحوهم ويؤوهم، حتى إنهم آثروهم على أنفسهم، ولم تكن في صدورهم غضاضة أو حسد أن أعطاهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) من غنائم الحرب أكثر منهم بحكمته، وذلك من شدة حبهم لمن أحبَّهم الله. قال تعالى {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر 9] (تَبَوَّءُوا أي اتخذوا من المدينة منازل لهم؛ خَصَاصَةٌ أي حاجة ماسة أو ضيق شديد في سبل المعيشة).

ومع معرفة أسماء الله وصفاته وأفعاله، يزيد حب العبد لربه، وبها يبلغ أعلى المراتب والتي لا تُبلغ إلا عن طريق الحُب، ويتقرب إلى ربه أقصى التقرب. قد أجمل ابن القيم (رحمه الله) حين قال: من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعِيَهُ ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأُنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه[2].

---

[1] المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين الأبشيهي 59/1.

[2] الفوائد لابن القيم 49.

الرجاء. الراجي يهدف إلى نيل رحمة الله، ومن ثَم نيل ما عند الله من ثواب. قد أشار الله إليهم في قوله {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} [فاطر 29-30] (لَنْ تَبُورَ أي لن تكسد ولن تهلك، وهي تجارة غير خاسرة). هذه هي خلاصة موضوع الرجاء.

الخوف. أولًا ينبغي بيان الفرق بين الخوف والخشية، وقد أشار الشيخ محمد بن عثيمين (رحمه الله) أن هناك محورين يُفرّقانهما. المحور الأول هو أن الخشية تكون مع العلم بالمخشي وحاله، كما في قوله تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} [فاطر 28، جزء من الآية]، ولكن الخوف قد يكون من الجاهل. والمحور الثاني هو أن الخشية تكون بسبب عظمة المخشيّ، بخلاف الخوف فقد يكون من ضعف الخائف لا من قوة المُخوف[1]. وهذه التفرقة ظاهرة في قول الله تعالى {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ} [الرعد 21]. فالخشية خوفٌ خاص، فيه علمٌ بمن يخشاه، والمخشي يكون ذات قوة.

وكما ناقشنا أن من يحب الله يجب ألا يُبعِد نفسه عن ربه بأن يجعله يغار، فعلى الوجه الآخر كيف لا يخشى المرء من بطش الله عندما يغار؟ معلوم بين الناس بعضهم بعضًا أن المرء إذا أُثيرت غيرته فلا يؤمَن من بطشه نظرًا لدرجة غضبه ورغبته في القصاص. ومن الناس من إذا أُثيرت غيرته فإنه قد لا يستطيع كبح نفسه في الانتقام، وقد لا يستطيع الانتظار حتى تُرفع المسألة إلى الحاكم. وذلك يكون خصوصًا عندما تُنتهك أعراض النساء اللاتي يكُون تحت رعايته، فينتقم على الفور وبعُنف بما قد لا يفعله في انتهاكات أُخرى مثل سبِّه أو سرقته.

وهناك واقعة غريبة تُبين مدى اختلاف حالة الغائر في بطشه دون الأحوال الأخرى. قد جاء أن سَعدُ بن عُبَادَةَ (رضي الله عنه) قال: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ؛ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ "أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي"[2]. ومعاني مصطلحات الحديث: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي أي في الزنا؛ غَيْرَ مُصْفَحٍ أي ليس بجانب السيف بل بالوجه الحاد من السيف، ويقصد بذلك أنه سيعمد لقتله وليس فقط الأذيه.

والجدير بالملاحظة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يُنكر على سيدنا سعد ما قال، ما يدل على أنه ليس على خطأ ولا مُبالغ في رد الفعل. وتفاصيل الواقعة تتبين في رواية أخرى عندما قال سيدنا سعد (رضي الله عنه): يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ وَجَدْتُ مَعَ أَهْلِي رَجُلًا لَمْ أَمَسَّهُ حَتَّى آتِيَ بِأَرْبَعَةِ

---

[1] القول المفيد على كتاب التوحيد 2/170-171.

[2] صحيح البخاري 6340.

شُهَدَاءَ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "نَعَمْ"، قَالَ: كَلا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ كُنْتُ لأُعَاجِلُهُ بِالسَّيْفِ قَبْلَ ذَلِكَ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "اسْمَعُوا إِلَى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ، إِنَّهُ لَغَيُورٌ وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي"[1].

فمن الروايتين يتبين أن سيدنا سعد (رضي الله عنه) لم يكن ليرضى أن يترك الرجل مع امرأته حتى يجمع الأربع شهداء ويُسلِّم المعتدي للقصاص، بل كان ليقتص بنفسه، والرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يعترض على غيرة سعد (رضي الله عنه). فهذا بطش الشخص الغيران، وعادة ما يخشى الناس بطش الغائر إذ قد تصل إلى مرحلة ذهاب العقل، فينتقم الغيران بمبالغة حتى إنه قد يدخل في مرحلة أن وجب منه هو القصاص شرعًا (مثل الذي يُنكِّل بالمعتدي فيقتل أقاربه). فتلك هي درجة الغيرة عند سعد (رضي الله عنه) وذلك هو بطشه عندما يغار، مما جعل الناس يخافونه وكانوا يقولون: وَاللَّه مَا تَزَوَّجَ اِمْرَأَة قَطُّ إِلَّا عَذْرَاء، وَلا طَلَّقَ اِمْرَأَة فَاجْتَرَأَ رَجُل مِنَّا أَنْ يَتَزَوَّجهَا مِنْ شِدَّة غَيْرَته[2].

والسؤال المترتب هو: إذا كانت الناس تخاف من غيرة شخصٍ بتلك الطريقة، أفليست الخشية من غيرة الله ومن بطشه الذي لا حدود له تكون أدعى؟ ذلك مع مراعاة أن غيرة الله ليست كغيرة خلقه (فمثلًا، إن الله لا يظلم أبدًا عندما يغار)، وأن بطش الله أشد من بطش خلقه أضعافًا لأنه عنده مُطلق القدرة والهيمنة على كل الأمور. فكيف ينبغي أن تكون درجة ارتعادي عندما أدرك أني جعلت الله يغار بمعصيتي له؟

ويجب أن أسأل نفسي عندما أتوارى عن الناس لأُقبل على العمل القبيح، حين ألجأ إلى أخبأ الخبايا، ألم أمر بهذه الآية من قبل {أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ} [العلق 14]؟ فهو يراني لحظة بلحظة في أثناء معصيتي له، يعلم ما أنوي عليه وأين أنا ذاهبٌ بأفعالي، ولا يبقى إلا أنا وهو وحدنا، فما الذي يمنعه أن يبطش بي في تلك اللحظة بسبب قبح صنيعتي؟ فالحذر كل الحذر من معصية الله.

وهناك عدة أمثلة في القرآن عن الذين يقفون عند حدود الله ويعملون ما كلَّفهم الله به لخشيتهم منه، فمنها {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ} [النازعات 40]. ومنها {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (24) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ

[1] صحيح مسلم 2754.

[2] فتح الباري بشرح صحيح البخاري، شرح حديث غيرة سيدنا سعد (رضي الله عنه).

رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ} [المعارج 19–35].

هَلُوعًا أي المبالغ في الخوف والحرص من الإصابة بالبلاء، فإذا مسه الخير لم يشكر وإذا مسه الضر لم يصبر؛ جَزُوعًا أي الشكوى والتذمر عند الإصابة بالبلاء. مَنُوعًا أي يمنع إعطاء الخير لغيره محتفظًا به لنفسه؛ الْعَادُونَ أي المعتدون المتجاوزون لحدود الله بعدم حفظ فروجهم.

إضافةً إلى نهجهم ذلك، من يزلّ فيقع في التقصير أو المعصية يُسارع في التوبة النصوح، كما أشارت الآيات {وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (67) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (70) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان 63–74]. هَوْنًا أي بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار؛ غَرَامًا أي لازمًا ودائمًا، لا يُفارق ولا ينتهي؛ يَقْتُرُوا أي يبخلوا.

ختامًا، ينبغي للعبد أن يُعلي خشيته من الله حتى يكون أتقى لله، نافرًا من المعاصي، وهذا يكون بمعرفته تعالى عن طريق أسمائه وصفاته وأفعاله (الأمر الذي يزيد أيضًا من حب العبد لربه ويُقرّبه إليه). وهناك كتبٌ متخصصة في شرح أسماء الله وصفاته، أفلح من تطلع فيها. قال أحمد بن عاصم: من كان بالله أعرف، كان له أَخوَف[1]. وهذا يظهر في آية سورة فاطر، التي ذُكِرت قريبًا، بأن العلماء يخشون ربهم، ومن قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً"[2]، وقوله "أنا أعرَفُكم باللهِ وأخوَفُكم منه"[3]. ومتى ما خشي العبد من ربه إلى درجة أن يظهر هذا في عمله بمنعه عن المعاصي، فقد بلغ المُراد. ولمسروق بن الأجدع مقولة غاية في الحِكَمة والإيجاز: كفى بالمرءِ علمًا أن يخشى الله، وكفى بالمرءِ جهلًا أن يُعجَب بعلمِهِ[4]، فمن المعاني التي تحملها أن الغاية من التعلم هو النجاة، بأن المرءِ يخشى الله فيتَّقيه، فيُصيب في القول والفعل، فيَسلَم وينجو، بل ويُكافأ.

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم 338/3.

[2] صحيح البخاري 5636، جزء من الحديث.

[3] مختصر المقاصد للزرقاني 165، وقال عنه: صحيح. الراوي: أبو ذر الغفاري.

[4] الدر المنثور للسيوطي 20/7.

الحياء. قال تعالى {وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (5) يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ} [الانفطار 4-8]. تلك لحظات عسيرة... لحظات إيقافنا للحساب وتفكيرنا فيه، فمن عصى الله أكثر مما أطاعه فقد اغتر بالله، وما أقبح ذلك. إن الغرور بمن خلقنا هو قمة الهزل والجهل والسفاهة، فلو أن العبد انكسر لله لرفعه الله، كما جاء في أثر (ضعيف الإسناد) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ"[1].

والمغتر إنما يكون ذليلًا لاستكباره الذي هو ليس ببالغه، فإنما ذلك وهمٌ في عقله، فلِمَ عصيان الله الذي خلقنا ونحن لا شيء دونه؟ كيف نغتر وكلنا مصيرنا تحت الأرض، فليس فينا من سيموت فيُكرَّم على مِنَصَّةٍ لكي يتذكره الجميع، وما منا من سيخلد ذكراه. ولو شاء الله أن يجعلني غير عاصٍ لخلقني مشلولًا أو مجنونًا مثلًا، أو بي نقص خَلقي مثل عدم اكتمال يديَّ أو عينيَّ. أفبعد أن أحسن مثواي أعصيه؟

وقال تعالى {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [الرعد 13] (الْمِحَالِ أي المكر مع القوة في المُعاقبة، وهو التدبير بالحق أو إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر). فسبحان الله، نحن بنو آدم فضَّلَنا الله على سائر مخلوقاته، ونرى كيف يسبح له الرعد والملائكة، وذلك من شدة خشيتهم من الله، فهو شديد المحال. أليس مُخجلًا أنا نحن، الذين كرَّمنا الله فوق سائر مخلوقاته بأن أمر الملائكة أن تسجد لنا، نعصي الله، وخاصةً أننا أصغر من الملائكة خلقا؟! فلماذا نحن هكذا؟ لماذا أعصي الله أحيانًا دون ندم ولا حياء؟

قد أيقَنَ كل شيء بوجود وقدرة الله حتى أنهم قالوا {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت 11]، ومع ذلك فهناك بشر يُكثرون من معصية الله، وآخرون يجادلون في قدرة الله، بل وآخرون ينكرون وجود الله! فهم مُتشعِّبون في الطُّرقات، وسائر الكون مُتوحِّد في طريقٍ آخر.

فأيهما في رأيك ينبغي أن يكون أفضل عند الله، الإنسان العاصي أم الحيوانات التي تُسَبِّح؟ أم الملائكة الذين وصف الرسول (صلى الله عليه وسلم) عبادتهم وطاعتهم لله أنها مستمرة ولا يعصونه بتاتًا، ثم يقولون يوم القيامة: ما عبَدناكَ حقّ عبادتِكَ، إلّا أنّا لم نُشركْ بِكَ شيئًا. فمن تقول

[1] مسند أحمد 11299.

هو الأخْيَر؟ والآية التي ذكرناها للتو تدل على أن العاصي قد يصل إلى مرحلة أنه يكون أدنى من الحيوانات وسائر المخلوقات في الكرامة، لأن سائر المخلوقات قالوا "أَتَيْنَا طَائِعِينَ"، وقد صدقوا ووَفّوا.

فلِمَ العناد والتكبر بعدم طاعة الله، والاستهتار بعقاب الله، والتهاون بحدود الله بالسعي وراء المعاصي؟ لماذا أتمادى في المعاصي أحيانًا؟ أقلبي مات؟ فإن القلب الميت هو الذي لا يستحيي من الله حتى يصبح قاسيًا، وهذا ما قد يحدث لي، أفلا أخاف هذا؟ اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة، واللهم سلم سلم يوم الحساب.

هذا وقد فتح الله لنا أبواب الأعمال الصالحة على مصارعهم، والعمل الصالح يطغى على مساوئ الأعمال فيمحوها. ومعلوم أن العمل الصالح في متناول أيدينا، ومنه السهلٌ وأجره يكون بسخاء من الله كما دلنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا؛ لا أَقُولُ 'الم' حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ"[1]. كل هذا الثواب، وفي المتناول بتلك السهولة؟! إن أبواب الخير كثيرة، وهذا مثال على ذلك، والحمد لله الذي جعل أبواب الخير كثيرة وأبواب الشر أقل منها، وأن الله يُضاعف الحسنات لمن يحبه أكثر مما يضاعف السيئات لمن يمكر به. إضافة إلى هذا، فإن الله يقبل القليل والبسيط من العمل الصالح لكل مُوحِّد، ويتجاوز عن الكثير والكبير من العمل السيئ لمن صدق في توبته.

ومما نراه في حالنا واقعيًّا، وليس فيه مجال للخلاف عليه، هو ما جاء في قول الله تعالى {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} [فاطر 45]، وقوله {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [الشورى 30]. فنحن نُدرك أن الله يتجاوز عن أغلب مساوئنا، ولو آخذنا عليهم ما كنا لنجد أحدًا على وجه الأرض لأننا جميعًا كنا لنهلك من شدة وكثرة العقوبات على أخطائنا، ولكانت المصائب تنهال على المرء الواحدة تلو الأخرى باستمرار. فالحمد لله الذي يتجاوز عن الكثير، ويؤجل علينا المحاسبة لعلنا نتوب فلا نُعاقب عليه.

ففي كل مرحلة يضع الله سُبلًا وأعذارًا لخروج العبد من مأزقه، من اغتنمها تجاوز عنه الله، ومن لم يغتنمها وضع نفسه في موقفٍ حَرجٍ. هذا لأن الله يُحب أن يرحم عباده بعتقهم من العقاب، فيقبل أي عذر صادق من المسلم ليُنَجّيه، كما نبأنا سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "ليسَ أحدٌ أحبَ إليهِ المدحُ منَ اللهِ، ولا أحدٌ أكثرَ معاذيرَ منَ اللهِ"[2].

---

[1] سنن الترمذي 2835.

[2] الجامع الصغير للسيوطي 7569؛ وقال عنه: صحيح.

ولكن، ماذا لو أن بعد كل هذا الفضل والكرم من الله في فُرَص النجاة، ظهر لي أني أخفقت فرسبت؟ هذه الفرص التي هي ما بين مُضاعفة الأجر على الأعمال الصالحة، والتماس كل عذر ممكن لي كي لا تُحسب علي السيئة إذ إن الله يُحب إعذار عباده، وحساب السيئة أنها واحدة عند المعصية، وفتح باب التوبة على مصراعيه، وفوق ذلك كله وجود عفوه تعالى (لمن نسي الاستغفار مثلًا وهو في العادة مداوم عليه، أو من يعمل الصالحات، أو من كان قلبه صافيًا تجاه إخوانه). كيف سيكون حالي إن اتضح أن ذنوبي ما زالت أكثر من حسناتي في الآخرة، بالرغم من كل هذا اللين في التعامل، فنلت تصريحًا لجهنم؟! أسأرضى وأقبل بما أستحقّه؟

الآن أُحَكِّمَكُم عليَّ، ءأستحق أن أدخل الجنة بعد كل هذه الفرص الكريمة وقد طلعت المُحصِّلة أن ذنوبي أكثر من حسناتي؟ أيكون هذا هو الحق والعدل، أن نفتح الباب لمن عصى الله أكثر من أن أطاعه أن يدخل الجنة؟ أين حيائي إذًا من إيجاد نفسي في ذلك الموقف؟! ما يجب عليَّ فعله هو أن أتقي الله بأن أطيعه وأجتنب نواهيه، ثم أرجو رحمته ومغفرته اللذين دونهما لن أدخل الجنة مهما بلغت أعمالي الصالحة.

الحياء صفة محورية في الإسلام، إذ قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ"[1]. بالحياء يثابر العبد على طاعة الله لأنه يستحيي أن يُقصِّر مع الله، وينفر من المعصية لأنه يستحيي أن يراه الله في وضع دنيء.

هذه الصفة لا يمكن تجاهل أهميتها، والتي قال النبي (صلى الله عليه وسلم) عنها "إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ"[2]. هذا الحديث يُحمل على وجهين، فالأول بمعنى أن من ليس له حياء فليفعل ما يشاء –من باب التهديد والوعيد مثل قوله تعالى {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}– لأن هذا الشخص لن يسلم من الوقوع في المعصية، فالحياء شعبة من شعب الإيمان. جاء في حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَفْضَلُهَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَوْضَعُهَا: إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ"[3] (وَأَوْضَعُهَا أي أدناها). فمن ليس له حياء فليفعل ما شاء لأنه سيهلك، لأن من ليس له حياء فلا يمنعه النصح ولا الإرشاد عن استباحة المعصية، وفي هذه الحالة يُحمل الحديث بوجه أنه وعيد وذم وتوبيخ لمن لا حياء له.

والوجه الآخر للحديث هو خطاب للمؤمن، أنه إذا رأى عملًا أمامه لا يعلم إذا كان مباحًا فعله أم عليه تركه، ولا يستطيع أن يؤجله حتى يسأل، فليُراجع حياءه. إن وجد في نفسه أنه يستحيي منه

---

[1] سنن ابن ماجه 4172.

[2] صحيح البخاري 3225.

[3] سنن النسائي 4919.

فلا يفعله، وإن لم يجد في هذا العمل ما يدعو للحياء فليعمله لأنه لا بأس به في الراجح. ولهذا الوجه من الحديث ما يدل على مقصده حديث آخر للنبي (صلى الله عليه وسلم) "الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ"[1]. والملخص هو أن المؤمن قبل أن يرتكب عملًا فيه معصية يشعر بالريبة وعدم الارتياح للعمل، خاصة إذا استحيى أن يطلع عليه الناس خشية من الذم. ذلك لأنه يشك أن جزءًا من العمل فيه شيء منهيٌ عنه شرعًا، مما عادة يجعل المرء يستحيي أو أن العمل يحيك في الصدر، وهو الضمير أو الوازع الديني داخل الإنسان، وهو دليل المؤمن في المواقف الجديدة.

ولذلك يجب أن نفرق بين العمل الصالح والباطل عن طريق القرآن والسنّة، ثم عن طريق الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، ثم من آراء العلماء فيه، ثم عن طريق الحياء؛ مع العلم أنه إذًا كان العمل فيه شبهةً فالأولى تركه. وذلك عملًا بما جاء في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ؛ أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ. أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ"[2] (مُشَبَّهَاتٌ أي ما تردد بين الحلال والحرام؛ اسْتَبْرَأَ أي صان وحفظ؛ كَرَاعٍ أي الذي يرعى الدواب؛ الْحِمَى هي الأرض الخاصة التي يُمنع الغير من دخولها، يُوَاقِعَهُ أي يدخله).

أما من يعصي ربه أفلا يستحيي ممن خلقه؟ ماذا لو سألني ربي، لمُعاتبتي، أعصيته لأبتعد عنه أم لتحصيل ما هو أفضل مما قسمه لي من نعم في الدنيا وما وعدني إياه في الآخرة، أم لتلبية رغبتي على حساب أوامره؟! إني إن لم يكن لديَّ حياء الآن فلا محالة أنه سيظهر الحياء مني يوم القيامة أمام الله، عندما يسألني لماذا عصيته بعد أن خلقني وسوّاني وأنعم عليَّ! من المنطقي أن من لا حياء له في الدنيا فأجرَمَ فيها لن يستقيم عندما تأتي لحظة الحساب، فقد فات الأوان لذلك إذ إن الاستقامة بالإعتراف بالخطأ سيُكلفَّه كثيرًا، فسيلجأ إلى الكذب والجدال والعناد لا محالة. فيجب أن نسأل أنفسنا قبل أن نُسأل، ونُحاسِب أنفسنا قبل أن نُحاسَب، ونصدق مع أنفسنا قبل أن تَصدق فينا أعضاؤنا وهي تشهد علينا يوم القيامة! فأين ذهب حيائي؟ أين امتناني لربي بما أنعم عليَّ؟

وهناك حديث للرسول (صلى الله عليه وسلم) أجمل فيه دلالات الحياء، فقال "اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ"، فقال الصحابة: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ "لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرْ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ

[1] صحيح مسلم 4632.

[2] صحيح البخاري 50.

الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ"[1]. وتفصيلًا لهذا الحديث ما يلي: لَيْسَ ذَاكَ أي ليس فقط ما تحسبونه، بل هو صيانة جميع الجوارح عما حرَّمه الله؛ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى أي عن رفعها استكبارًا أو رياءً، وألا تسجد ولا تخضع بها إلا لله، وتحفظ ما يحتوي الرأس من العين واللسان والأذن والعقل عما حرَّمه الله؛ وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى أي عن الأكل الحرام، وما اتصل بالبطن من القلب والفَرْجِ وغير ذلك؛ وَالْبِلَى أي أن يبلو، وهو أن الإنسان يصير رفاتًا في القبر.

وقد أشار تعالى إليهم في كتابه {أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [هود 5] (يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ أي إمالتها وطأطأتها وحنيها بحيث تكون القامة غير مستقيمة محاولة للاستخفاء من الله؛ يَسْتَغْشُونَ أي يتغطون). قال سيدنا ابن عباس (رضي الله عنه) في إحدى تفسيرات هذه الآية: كان ناس يستحيون أن يتخلَّوا [أي من الذهاب إلى الخلاء ويقضوا حاجتهم عُراة] فيُفْضُوا إلى السماء، وأن يصيبوا [أي من مجامعة أزواجهم عُراة] فيُفضُوا إلى السماء[2]. فهؤلاء رجال بلغوا من الاستحياء من الله درجة أنهم يستحيون أن يراهم الله في بعض المباحات، فما لأناس لا يستحيون من الله في الحرام؟!

ويروي لنا سيدنا أبي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ (رضي الله عنه) أنه بينما كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) جالسٌ في المسجد والناس معه ذات مرة، أقبَلَ [أي جاء] ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَهَبَ وَاحِدٌ، فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الْآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا؛ فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ "أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنْ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ"[3] (فُرْجَةً أي فتحة أو مكان خلل؛ فَأَوَى أي لجأ؛ فَآوَاهُ اللَّهُ أي وَسِعَه الله في رحمته؛ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ أي استحيا الرجل أن يمشي دون أن يجلس مع الرسول كما فعل الثالث، بعدما قد همَّ أن يمشي كما جاء في تفسير الحديث، فاستحيا الله من مُعاقبته وعدم إدخاله في رحمته). ففي الحديث مثلٌ على الحياء في التعامل مع الله.

وهنا أحب أن أذكر مقولة لابن القيم (رحمه الله) هي في غاية التحفيز للعبد أن يُحسن مع الله، بأن يستحيي من أن يعصي الله أو حتى يُقدِّم لله عمل صالح يتخلله تقصير، فلا يغدر في صفقته مع الله بعد أن قَبِلَ بيع نفسه لله. قال، وهو يصف المروءة مع الله: بالاستحياء من نظره إليك، واطّلاعه عليك في كل لحظة ونَفَس، وإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان، فإنه قد اشتراها منك، وأنت

---

[1] سنن الترمذي 2382.

[2] تفسير الطبري للآية.

[3] صحيح البخاري 64.

ساعٍ في تسليم المبيع، وتقاضي الثمن. وليس من المروءة: تسليمه على ما فيه من العيوب، وتقاضي الثمن كاملًا[1].

تلخيصًا للقضية: إن وضع الإنسان أن أصله من نطفة، بعدما كان عدمًا فخلقه الله، ولا يستطيع النجاة في الدنيا دون أن يرزقه الله، فكيف لمن يعتمد كليًّا على الله كي يحيى أن يقبل بمُخالفة أمر ربه؟! قال إبراهيم بن أدهم: إذا كنت بالليل نائمًا، وبالنهار هائمًا [أي السير بلا قصد مهم فلا يعرف إلى أين هو متجه، متحيّرا مُتخبّطًا]، وبالمعاصي دائمًا، فكيف يرضى من هو بأمرك قائمًا؟[2] وختامًا، ألا أستحيي أن يتضح لي في الآخرة أني أستحق دخول النار بناءً على أفعالي؟ ألا أستحيي من أن يلتصق بي مواصفات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن من يستوفي شروط قبوله في جهنم، وذلك حين قال "لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا شَقِيٌّ"، فقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ الشَّقِيُّ؟ قَالَ "مَنْ لَمْ يَعْمَلْ لِلَّهِ بِطَاعَةٍ وَلَمْ يَتْرُكْ لَهُ مَعْصِيَةً"[3]؟

الامتنان. قال تعالى {وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم 34]. إن الإنسان لا يُحصي ولا يُقّدر نعم الله عليه، وسببًا رئيسيًّا في هذا هو قلة التأمل فيما عنده. ينبغي للعبد، إن أراد أن يكون ممتنًّا لله وشاكرًا له وتقيًّا، أن يستوعب نِعَم الله عليه قدر المستطاع، وقد تكلم الشيخ الغزالي (رحمه الله) حول أسباب كفران النعم وجحودها قائلًا:

لم يقصّر بالخلق عن شكر النعم إلا الجهل والغفلة، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم، ولا يتصوّر شكر النعمة إلا بعد معرفة كونها نعمة، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول باللسان: الحمد لله والشكر لله. ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وهي طاعة الله عز وجل، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان.

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدّون ما يعم الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكرون على ما عم الله به الخلق من شتى النعم في الكون والنفس كالشمس والقمر والليل والنهار والحرارة والبرودة واستساغة الطعام، ذلك مما لا يحصى كثرة، لأنها عامة للخلق، مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصًا به فلا يعده نعمة. فلا تراهم يشكرون الله على روح الهواء، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء

[1] مدارج السالكين لابن القيم 2/353-354.
[2] البداية والنهاية لإسماعيل بن كثير 13/508.
[3] سنن ابن ماجه 4288 .

عنهم ماتوا، ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غمًّا. فإن ابتلي واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قدّر ذلك نعمة وشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفًا على أن تسلب عنهم النعمة ثم تُردّ عليهم في بعض الأحوال.

والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها، فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمى عيناه، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعدّه نعمة. وهذا الجاهل الذي لم يقدّر نعمة الله عليه مثل العبد السّوء، حقه أن يُضرب دائمًا حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلّد به منة، فإن ترك ضربه على الدّوام غلبه البطر وترك الشّكر، فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرّق إليه الاختصاص من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم. ولو أمعن الإنسان النظر في أحواله رأى من الله نعمًا كثيرة تخصّه لا يشاركه فيها الناس كافة، بل يشاركه عدد يسير من النّاس، وربما لا يشاركه فيها أحد من الخلق، وذلك يتمثل في ثلاثة أمور يعترف بها كل عبد:

أحدها: العقل. فإنه ما من عبد لله تعالى إلا وهو راضٍ عن الله في عقله يعتقد أنه أعقل الناس، وقل من يسأل الله تعالى العقل، ولذا وجب على كل الخلق شكر الله.

الأمر الثّاني: الخُلُق. فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبًا يكرهها وأخلاقا يذمّها، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئًا منها، فإذا لم يشتغل بذمّ الغير وجب عليه أن يشكر الله إذ حسن خلقه وابتلي غيره بسوء الخُلُق.

والأمر الثالث الذي يقر به كل واحد: العلم. فما من أحد إلا ويعرف بواطن أمور نفسه وخطايا أفكاره وما هو منفرد به، ولو كشف الغطاء حتى اطّلع عليه أحد من الخلق لافتضح، فكيف لو اطّلع الناس كافة؟! ألا يوجب ستر القبيح وإخفاؤه عن عين الناس شكر هذه النعمة العظيمة؟ ولم يصرف الخلق عن شكر هذه النعمة إلا الغفلة والجهل.

وأعمّ من هذه الأمور أمور أخرى، فما من واحد من الخلق إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو والده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو زوجه أو ولده أو عزّه أو جاهه أو في سائر أموره، فإنه لو سلب ذلك منه وأعطي ما خصّص به غيره فإنه لا يرضى به. فإذا كان الأمر كذلك فقد وجب على كل الخلق أن يشكروه على أن جعلهم على هذه الحالة التي هم عليها ولم يجعلهم على حال الآخرين، ولكن غلب عليهم كفر النعمة. وما سدّ على الخلق طريق الشكر إلا جهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة، أو الغفلة عنها لحصولهم عليها بلا أدنى سبب[1] (انتهى بتصرف).

---

[1] إحياء علوم الدين للغزالي 4/123-126.

فالإنسان ظلوم من ناحية أنه لا يشكر الله شكرًا يوَفّي حقه تعالى في نعمه علينا، بل وقد يستعمل نعمة الله في معصية الله؛ وكَفَّار من ناحية أنه قد يتمادى أكثر من هذا فيُنكر أن تلك نعمةً أو يُنكر أن الله هو الذي أعطاه تلك النعمة، ويدّعي أنما هو جلب المال أو الصحة أو السلطان لنفسه فهذا حقّه، كما في حال فرعون عندما قال {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ} [الزخرف 51]. بل تمادى أكثر كما جاء في الآية {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [القصص 38] (صَرْحًا هو البناء المرتفع).

ومثال آخر هو حين زعم قارون قائلًا {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} [القصص 78]. ومعنى الكفر في الآية يشمل معنى الكفر الذي جاء في حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) "أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ"، قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ "يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ"[1] (الدَّهْرَ هو العام)، وهو جُحُود النعمة.

وعلى الوجه الآخر، قد ضرب الله لنا مثلًا عن من يعمل صالحًا شُكرًا لإنعام الله عليه، وذلك في سيدنا إبراهيم (عليه السلام) {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [النحل 120-121] (أُمَّةً أي كان عنده من الخير ما كان عند أمة من الناس، إمامًا يُقتدى به؛ قَانِتًا لِلَّهِ أي طائعًا خاضعًا؛ حَنِيفًا مائلًا عن الباطل مقبلًا على الحق؛ اجْتَبَاهُ أي اختاره واصطفاه بالنبوة). فشكر الله لا يقتصر على اللسان بقول "الحمد الله"، بل يكون أيضًا بالإقرار بالقلب وبالعمل الصالح واجتناب معصية الواهب للنعم، وهذا هو الامتنان.

العقبة المحورية أن يشعر العبد بالامتنان لله هو أنه لا يلاحظ، أو لا يعترف، بنعم الله عليه، وبهذا يكون ساخطًا، فيكون أقرب للإقبال على المعصية، أولًا لإسكان سخطه عن طريق الاستمتاع بالدنيا، وثانيًا لأنه يَهون عنده أن يعصي أوامر الله إذ لا يُعظِّم الله حق تعظيمه ولا يمتن له، وهذا ما استنكره سيدنا نوح (عليه السلام) على قومه {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} [نوح 13]. أما من عرف نعم الله، فإنه يكون كثير الشكر لله وقليل العصيان.

أختم هذا الفصل بالقصص التالية التي فيها نماذج لما أستهدفه من وراء هذا الفصل: يروي سلمان الفارسي (رضي الله عنه) أن رجلًا بُسِط له من الدنيا فانتُزع ما في يديه، فجعل يحمد الله ويُثني عليه حتى لم يكن له فراش إلا بارية، فجعل يحمد الله ويثني عليه، وبُسط لآخر من الدنيا فقال

[1] صحيح البخاري 28.

لصاحب البارية: أرأيتك أنت، على ما تحمد الله؟! قال: أحمده على ما لو أُعطيت به ما أُعطى الخلق، لم أعطهم اياه [أي لن يتخلى عما لديه بما مثل عند الناس من نِعم]، قال: وما ذاك؟ قال: أرأيتك بصرك؟ أرأيتك لسانك؟ أرأيتك يديك؟ أرايتك رجليك؟[1]

وقد نُقل إليَّ في أثناء ما ابتُلينا به مؤخرًا من وباء 'كورونا/كوفيد'، الذي من ضمن آثاره الجانبية أنه يُذهِب حاسة الشم عند بعض الناس، فإنه مع هذه المرأة ذهب من عندها حاسة الشم والتذوق، وكانت تُقسم إنها لم تكن لتُميّز ما تأكله إلا لأنها تراه. فسبحان الله، لم تُسلب القدرة على مضغ الطعام، ولم تُسلب القدرة على هضمه، ولا حتى تُعاني بأن تتألم عندما تأكل... ولكن مُجرَّد سُلبَت الاستمتاع بمذاق الطعام، ولفترةٍ مؤقتة! فتخيل أخي، إن سُلبت أنت نعمة الاستمتاع باستساغة الطعام بشكل دائم، والتي هي متعة عظيمة ونستخدمها في اليوم عدة مرات، كيف ستكون أجواء حياتك وكيف ستكون حالتك النفسية؟ وهذا ضيق بسيط بالنسبة إلى هذا البلاء النازل الذي فقدَ أُناس كثيرون أرواحهم فيه، وآخرون عانوا عناءً شديدًا... فالحمد لله، لعلنا نُلاحظ نعم الله فنتَّعظ ونتَّقي الله. قال سفيان بن عيينة: إن مِن شُكر الله على النعمة أن نحمده عليها، ونستعين بها على طاعته، فما شكر الله من استعان بنعمته على معصيته[2].

أفبَعد أن خلقني ربي ورزقني وعافاني بحيث أستطيع أن أسعى في الدنيا، لا أكترث ولا أسعى إلا لنفسي دون أن يعود سعيي بالنفع على عباد ربي كشُكرٍ له، بل وأعصيه وأتسبب في أذية مخلوقاته؟ هذا بعيد كل البعد عن حال العبد الشكور. ما لي لا أستبصر نِعَم الله مثل سيدنا يوسف (عليه السلام)، الذي بالرغم من أن أصابه من الابتلاءات العظام أن تآمر إخوته عليه وهو صغير، فأدرك مدى بغضهم له عندما خلعوا عنه قميصه وضربوه ثم هجروه في بئر، والتقطه أناس فعاملوه كعبدٍ وباعوه بثمنٍ بخسٍ، فخُلع من بين أبويه وعاش عند أناس ليسوا بأهله، إلا أن بعد كل هذا عندما أغرته امرأة العزيز بنفسها وهو أعزب رد قائلًا {مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [يوسف 23، جزء من الآية]؟

## مطابقة أحوال المرء في الآخرة على حياتنا الحاضرة

المقصد من العنوان هو أن ينظر المرء إلى ما سيقع من مواقف يوم القيامة، ثم يُماثل تلك المواقف على أوضاع في الدنيا حتى يفهم ويستشعر –إلى حد ما– الوضع عندما يخوضهن في الآخرة. مثال على هذا، فهناك من يمشي في الممرات المظلمة ظلامًا دامسًا، لا يرى أمامه فيها، يتحسس ويمشي ببطء إلى أن يخرج منها. هو يفعل ذلك كي يُعايش موقف الآخرة إن لم يجعل الله له

---

[1] عدة الصابرين لابن قيم الجوزية 130.

[2] حلية الأولياء للأصبهاني 278/7.

نورًا وتُرك ليتخبط، يستشعر خوف أن خطوته التالية قد ينزلق بها في جهنم إذ إنه لا يرى أين يسير؛ يُلَقِّن نفسه أن ذلك سيكون حاله في الآخرةِ إذا كان ظالمًا في الدنيا.

وآخرٌ قد يضع نفسه في مكانٍ ضيقٍ يُعيق حركته، ويُغلق على نفسه، وربما يُطفئ النور حتى يحيطه الظلام. يُمهّد لنفسه ويتخيل أنه سيبقى محبوسًا في هذا المكان مدة طويلة، يُحدّث نفسه أنه لا يمكن لأحد أن يسمعه أو يراه، لا يدري به أحد، لا أحد سيأتي ليُساعده، استشعارًا لحاله عندما يكون في ضمّة القبر. ذلك ويُحاكي تقييمه ومحاكمة نفسه عندما كانت في حياته الدنيا السابقة، كيف يراها، ويتفكر في المعاصي التي ارتكبها في حياته والتي حددت حاله في القبر.

وفي القرآن، هناك ما يشير إلى استحباب اكتساب ذلك السلوك، وذلك بقول الله تعالى ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة 81]. ففي الآية، أمر الله تعالى رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يقول لهم إن نار جهنم أشد حرًّا من حر صحراء الدنيا الذي يفرون منه، وأنهم إذا تخلفوا عن الجهاد فإنهم يتفادون حر الدنيا ولكن سيُلاقون حر الآخرة. فقد شعروا بحر شمس الدنيا بالرغم من أنهم يبعدون عنها مسافة كبيرة، ولكن لم يصبروا وتحججوا بالحر، فما بال صبرهم على حر يوم تدنو الشمس من رؤوس الخلائق؟ بل وما بال صبرهم على حر نار جهنم السوداء التي تفوق حرارة الشمس بأضعاف كثيرة؟!

أما المسلم، فيُحَبَّذ له أن يضع نفسه في مثل تلك الظروف عمدًا بين الحين والآخر، ليستشعر ويُدرك واقع الآخرة، ويرُدَّ نفسه (التي تميل إلى الهوى والأماني والأحلام والرخاء) إلى الواقع. ففي الصوم مثلًا يكون فيه عطش يُذكِّر المرء بعطش يوم القيامة، وفي قيام الليل تذكرة لمواقف يوم القيامة التي ستتعب فيها قدماه، من مشقة طول وقوفه انتظارًا لقيام الساعة والحساب أمام الله.

وفي نهج السلف الصالح العديد من الأمثلة لنا على ذلك. ولعل هذه النقطة هي من ضمن الأسباب التي جعلت عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) يُحِب مشقة الصوم والقيام، إذ تُعايشه فتُذكِّره بحاله في الآخرة، وهذا بالطبع إضافةً إلى إظهارهما لمدى حبه لله وتهذيبهما للنفس. قد قال في آخر لحظات حياته: ما آسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث: ظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، وأني لم أقاتل الفئة الباغية التي نزلت بنا[1] (ما آسى أي ما يحزن وما يشتاق إلى شيء هو تاركه؛ ظمأ الهواجر هو عطش الصوم في أثناء لفحه نصف النَّهار عند اشتداد الحرّ؛ ومكابدة الليل أي تحمُّل مشقة ومجاهدة النفس على قيام الليل). فمن المعلوم أن مشقة الصيام تبلغ ذروتها مع اشتداد الحر، ومشقة القيام تبلغ ذروتها مع برد الشتاء.

---

[1] سير أعلام النبلاء للذهبي 232/3.

يحاكي المؤمن مثل تلك المواقف حتى يزداد إيمانه وتقواه لله عن طريق ازدياد يقينه بالآخرة وتذكرته بالأجل الذي هو آت لا محالة، وبملامسة حاله تحت تلك الأوضاع آنذاك. فكم منا مثلًا وجد -أو وضع- نفسه في مثل هذه الحالة: أن يحاول النوم في غرفة مظلمة في مساحة ضيقة وليس من حوله أحد، مُذكرًا نفسه أنه سيُغلق عليه تحت الأرض في يومٍ ما ثُم يُضَمّ ضمة القبر حتى تختلف أضلاعه، مستشعرًا وضعه والأفكار التي ستدور بباله آنذاك؟ ولينظر كم سيصبر في ذاك الوضع الاختياري، فما باله عندما يكون إجباريًّا؟!

ومثال آخر هو عندما يدخل المرء امتحانًا شفهيًّا أو مقابلة مع مسؤول للتوظيف، فإذا سأله المُمتحن أول سؤال وأخفق فيه المرء فإنه يرى أن وضعه حَرِج، إذ إن بداية اللقاء ذهب في اتجاه سلبي، خاصةً إذا كان السؤال سهلًا وبديهيًّا. أما إذا جاوب بكفاءة فإنه يزداد ثقةً وطمأنينة وهدوءًا. ضف إلى ذلك سلوك الممتحن، إذا كان هادئًا يصبح المرء هادئًا ومتفائلًا، أما إذا كان غاضبًا فإن المرء يتوتر ويشعر أنه سيفشل. وينبغي أن نُطابق مثل ذلك الموقف مع موقف الحساب أمام الله، عندما يَسأل الله أول سؤال لعبده، الذي هو عن الصلاة، فليتخيل كيف سيكون حاله إذا أفلح في الوفاء به، ثم ليتخيل إذا أخفق في الوفاء به. وليتخيل أيضًا موقف حسابه إذا كان الله راضيًا عنه، ثم ليتخيل إذا كان الله غاضبًا منه، كيف سيكون حاله؟

وقد رُوي عن الأحنف بن قيس أنه كان يضع إصبعه على المصباح ويقول: حِسَّ يا أحنف، ما حملك على [معصية] كذا؟ ما حملك على كذا؟ ويقول لنفسه: إذا لم تصبر على المصباح فكيف تصبر على النار الكبرى؟[1] وحول موضوع نار جهنم، إذا كان المرء يتأذّى ويتعذب بالكابوس يصيبه، وما هو إلا حلمٌ سيئ وخيالٌ سارحٌ فلَم يطوله شيء من العذاب في جسده بالفعل، ومع هذا لا يستطيع الصبر عليه ولا يطيقه مع أنه مؤقت، فكيف يصبر ويتحمل الحرق الفعلي للجسد مع التوبيخ والتقريع والتهكم والتحسير النفسي؟!

وهناك جانب آخر من مطابقة أحوال الآخرة على الدنيا، فبدلًا من أن يُحاكي المرء مواقف الآخرة على الدنيا، يعكس واقع مواقف الناس في الدنيا على مواقف الآخرة. مثال على ذلك هو حال السارق، فعندما يُقبض عليه ويُحاكم فإنه يعترف على كل رفقائه الذين عاونوه وشاركوه في السرقة حتى تُخفف العقوبة عليه من الحاكم، لأن نجاته بنفسه هي أولويته ولو على حساب غيره. وهذا يُذكرنا بقول الله تعالى حين الحساب {يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ} [المعارج 11-14] ("وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ" أي قبيلته أو عشيرته أو عائلته التي كانت تضُمَّهُ فتحميه وتنصره في الدنيا).

[1] البداية والنهاية لابن كثير، الجزء الثامن – الأحنف بن قيس.

فكما أن السارق يهتم فقط لمصلحته عندما يُمسَك، كذلك سيكون الوضع في الآخرة عند العصاة والكفار والمنافقين ولكن بدرجة أفجّ. ذلك إذ إن العاصي يبيع ويغدر بقرنائه ومُعاونيه، بل وحتى بالأبرياء ممن كانوا حوله يأسًا في النجاة، ليلصق الذنب على غيره أو على الأقل ليُخفف عن نفسه بعض حمل جُرمِه.

## البحث عن أكثر منظور فعَّال مع المرء

في الفصل السابق كان الكلام عن أحوال الآخرة، وأما في هذا الفصل فسيدور الكلام على أوضاع المرء في الدنيا. بما أن الأفراد يختلفون في الطباع وطرق التفكير والرغبات، فلكل امرئ منظور للحياة إذا توصل إليه كان أتقى لله. أي هي طريقة فكر أو تخيُلٍ لوضع أو رؤية للواقع، إذا توصَّل إليها المرء كانت له حافذًا في الاستقامة، والدليل على هذا موجود في قول الله تعالى {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} [السجدة 13، جزء من الآية]، فتشير ضمنيًّا إلى أن الأنفس تتنوع فيما يهديها. فهناك أناس يؤثر معهم الخوف من النار أكثر من رغبته في الجنة، وأناس يؤثر فيهم امتنانهم لله على نعمه أكثر من نمط الترهيب، وآخرون تُثار حميّتهم بشدة أن عدوهم الشيطان يستغفلهم ويحتقرهم فيستغلهم ويُغويهم لغاياته ضد الله. وهكذا، فيستخدم المرء تأثير صفاته عليه بإسقاطهن على ما نتلكم عنه في هذا الفصل، وهو المنظور، فيكون دافعًا قويًّا له في تقوى الله. أي أن المرء يبني على الصفات تَصَوُرٍ لمشهدٍ أو حدثٍ يترتب على أفعاله.

وتوضيحًا بالأمثلة، فإن هناك من يتخوف أنه إذا عصى الله بشيءٍ فإن ذلك الشيء سينقلب ضده ويكون وبالًا عليه، أو يرى أن ذلك الشيء سيتلاشى أو يخرب، فيتوقى من حدوث ذلك. فيظل متوترًا مثلًا بأنه إذا جلس على الحاسوب الآلي ولم ينزل إلى صلاة الجماعة في المسجد فإن الجهاز سيخرب عقابًا من الله (عاجلًا أم آجلًا). ثم إنه يرى أن ما الذي سيقوله لله عندما يقف أمامه ليُحاسب على تلك المعصية، فحيائه من الله أن يقف أمامه ويُسأل عن عصيانه يمنعه من العصيان.

وهناك من يتخيل أنه يرى روحه البرزخية وهي تُحاسَب، تُعرض عليها حياته التي يخوضها الآن في الدنيا اللحظة باللحظة. فكلما أقبل على عملٍ صالح رأى نفسه التي في الآخرة تبتسم وتفتخر ويُسري عنها، وكلما أوشك أن يُقبل على معصية فإن نفسه البرزخية تقرأ ذلك فيه فتصرخ له بحمئةٍ تكرارًا ألا يفعلها، بينما هي تتذكر أسيرتكبها في النهاية أم سيُعرض عنها. فإن كان ارتكبها فهي تهلع من لحظة عرض ارتكابه للمعصية، ويُصيبها الخزي والإحباط وتبدأ تذُمَّه وتلومه؛ يستشعر أنه قد أزاد حِملًا على نفسه في الآخرة. فهو في الواقع يرى أن أي عملٍ صالح يفعله في الدنيا إنما يُرسله كزادٍ لروحه في الآخرة وهي تُحاسَب، وأي عملٍ سيئ يرتكبه فهو بمنزلة كُربة يُرسلها إلى روحه التي في

الآخرة يُورطها بها في حسابها، وكل ذلك لحظةً بلحظة. فهل ستتفهم وستستوعبه نفسه التي في الآخرة أنه احتاج إلى أن يفعل المعصية؟

وآخَر يكون محور المسألة بالنسبة إليه قضية صدق وعدل، أدرك أن كما أنه يريد بصدق أن يدخل الجنة وليس يخدع نفسه بالتمني، فعليه أن يكون صادقًا مع الله ومع نفسه بأن عندما يُعرض عليه الحق أن يُقرّ به ويتمسك به ويُطبِّقه. هو يتيقن أنه إذا كان مع ما أنزله الله من الحق في الدنيا وأعرض عن الفساد، فإن الله سيصدق معه بإدخاله الجنة، وأن الحق والعدل يقتضي ألا يُعذَّب. صارح نفسه بأنه كيف يحق له أن يدخل جنة الآخرة إذا لم يقف مع الحق في الدنيا، وأن الصدق في قبول الحق يكون بتحقيقه، متمثلًا في خوض مشقة فعل الطاعات والانتزاع من المعاصي، وهذا هو الدافع له للعمل.

وغيره يرى أن هذه الحياة تجربة واحدة فحسب ستمر في كل الأحوال، فليقضها في مشقة طاعة الله والإحسان فيها ما دامت ستنقضي حتمًا. بمعنى آخر، هو ينظر إلى نهاية الطريق ولا يضع وزنًا للطريق نفسه، فبما أن هذه الحياة ستمر وتبقى حياته في الآخرة هي التي تدوم فليجتهد في الدنيا وينتهي من هذه المسألة. فكأنما لا فرق له إن أمضى حياته في اللهو أو في العمل، ولكن رغبته في حياة كريمة في الآخرة وأن تكون على أحسن وجه تدفعه أن يعمل في الدنيا بدلًا من أن يلهو.

عند آخر قد تكون حادثة كادت أن تودي بحياته هي نقطة التحول عنده. هو يُبصر أنها إذا كانت أصابته فسيكون قد خُتم على أعماله بهذه البساطة، والتي لا يرضى عنها هو شخصيًّا، ويُدرك أنه كان يوشك أن يُختم له بعنوان: غافل مُهدِر. يرى أنه الآن في وقت إضافي قد وهبه الله إياه، أي كأنه قد مات، فيبذل حياته في إرضاء الله ويهجر المعاصي والسفاهات.

وآخرون يتخيلون منظر ومسمع الذين يدخلون النار، فيتخيل ماذا يحدث لهم عن طريق رسم صورة لهم في ذهنه. فكأنه يراهم أن أيديهم أو أقدامهم تُثبَّت فوق النار جبرًا وينظرون عليها وهي تُشوى، بينما يشعرون بالألم المفجع ويشتمون رائحة جلودهم التي تُحرق ويصرخون صراخًا تقشعر منه الأبدان... ومع أن هذا التخيل قاسٍ وبائس فإن الواقع الذي يحدث في الآخرة أشد وأسوأ من هذا، وأن ذلك النمط يأتي بنتيجة إذ يمنع المرء من الوقوع في المعصية في كثير من الأحيان. ومثل هذا السلوك مماثل لسلوك كثرة تذكر الموت الذي أوصانا الرسول (صلى الله عليه وسلم) به قائلًا "أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ"[1] (أي الموت، فتذكُر الموت يُذهب بالشهوات ويُعلي الهمة على العمل الصالح).

---

[1] سنن الترمذي 2229.

ثم إنَّ تعايش مثل تلك الأفكار القاسية المُيئسة من الدنيا قد تُبلِّغ المرء النجاة والأمن من النار في الآخرة. وبالرغم من شدتها على النفس، فإنها أفضل من تعايش الأفكار النَشْوِيَّة والتَمَنّوية إلى أن يصل المرء الآخرة مكتشفًا أن عمله لم يبلغ النجاة فيهلك. وهذا المبدأ نصح به الإمام البصري (رحمه الله): وَاللَّهِ لأَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُخَوِّفُونَكَ حَتَّى تُدْرِكَ أَمْنًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُؤَمِّنُونَكَ حَتَّى تَلْحَقَكَ الْمَخَاوِفُ[1]. ولكن الموازنة مطلوبة بالتبادل بين مثل تلك الأفكار وبين تشويق النفس بالتفكر فيما سيفعله المرء عندما يدخل الجنة، وذلك حتى لا يقنط أو يكتئب.

وكان للإمام الغزالي منظور فريد ليحث نفسه على الاجتهاد في العمل الصالح، فقال: إذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه لمشارطة النفس فيقول لها: ما لي بضاعة إلا العمر، ومهما فَنِيَ فقد فَنِيَ رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنسأ في أجلي وأنعم عليَّ به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يُرجعني إلى الدنيا يومًا واحدًا حتى أعمل فيه صالحًا، فاحسبي أنك قد توفيت ثم قد رددت، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، فلا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة، فألم الغبن وحسرته لا يطاق[2].

أما الفضيل بن عِياض (رحمه الله)، فكانت قصَّة هدايته عجيبة. كان الفضيل بن عياض شاطرًا يقطع الطريق بين أَبِيوَرْد وسَرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تاليًا يتلو {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ}، فلما سمعها قال: بلى يارب قد آن؛ فرجع فآواه الليل إلى خَرِبة، فإذا فيها سابلة، فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نصبح فإن فُضَيلًا على الطريق يقطع علينا. قال الفضيل: ففكرت، وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين هاهنا يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مُجاورة البيت الحرام[3].

وهناك وجهات نظر كثيرة أخرى تُعين المرء على الاستقامة والاجتهاد في العمل الصالح، فمنهم من كانت تثيره غيرته على الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أن ينفرد الصحابة بصحبته يوم القيامة دونه فقال: أَتَظُنُّ الصَّحَابَةَ يَسْتَأْثِرُوا بِمُحَمَّدٍ دُونَنَا؟ وَاللَّهِ لأُزَاحِمُهُمْ عَلَيْهِ زِحَامًا حَتَّى يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ خَلَّفُوا رِجَالا[4] (خَلَّفُوا أي تركوا وراءهم). ومنهم من تثيره غيرته على الله في أن هناك من يتردد على بيوت الله فيكون ضيفًا عند الله، فيُحافظ هذا الشخص على صلاة الجماعة في المسجد كي يكون

---

[1] الجواب الكافي لابن قيم الجوزية 28.

[2] إحياء علوم الدين للغزالي 395/4.

[3] سير أعلام النبلاء للذهبي 423/8.

[4] التبصرة لجمال الدين بن الجوزي 500/1.

منهم. ومنهم من يغار أن هناك من ينفرد مع الله في الثلث الأخير من الليل فيكون أقرب ما يكون مع ربه، فيُحفّزه ذلك على أن يقوم الليل، فيرتبط بربه هو أيضًا. وهناك من هذا هو منظروه: والله إني لأستحي من الله أن أكون مقبلًا على عصيانه وهو مقبلٌ عليَّ بنعمه، مُسبِلًا عليَّ سِترَه، فكيف لا أكون من التائبين وهو الغفور الرحيم؟!

وفي هذا المقام، ينبغي التعريف بمبدأ يتبعه المسلمين الذي بلغوا منزلة الإحسان، الذين يكدّون في طاعة الله ويُقدمون من الأعمال ما نراه أننا لا نُطيقه، وهو مبدأ ومنظور: ما الذي عليَّ لله من مسؤوليات؟ وهذا المنظور يسبق التفاته لحقِّه هو كعبد، أو رغباته ولو كانت في المباحات، مما يجعل همَّته وطاقته ووقته مُخصصٌ لله. للتوضيح بالمثال، إن المرء منا، وهو في وظيفته، قد ينظر إلى أنه عندما يرجع إلى البيت قد يُعِدُّ لنفسه كذا أو كذا من الطعام أو الشراب كي يرتاح؛ يتشوق لتلك اللحظات كي يُهوِّن على نفسه إجهاده في العمل، ويُصبِّر نفسه في وقت وظيفته. هكذا يكون المرء قد جعل حقه من المعيشة أو حتى الترفيه نُصب عينيه وهدفًا له، فينشغل به، بل وربما يسخط إن لم يبلغ مراده.

أما المُحسن، فإنه في وظيفته يتفكر فيما عليه تجاه الله مما لم يُتِّمه بعد، فقد يتفكر أنه عليه من الأذكار كذا وكذا لم يُتمَّه بعد، وأن عليه من النوافل كذا وكذا لم يلحق أن يؤديهم بعد، فيُفكِّر فيما عليه من مسؤوليات قبل ما له من احتياجات أو رغبات. ومن ثمَّ، فإنه يضع نُصب عينيه أنه عندما يرجع البيت سيُصلي النوافل التي عليه، أو أن يستعد لحضور درس علم شرعي، أو أن يَصل رحمه أو غير ذلك. وأما ما يظهر أمامه من حقوقه مثل طعامه وراحته وترويحه عن نفسه، فهو يرضى ويُمضي حاله بما هو متاح أو يظهر أمامه أيًّا ما كان. فإذا كان الطعام بسيطًا أو إذا لم يجد وقتًا ليرتاح، رضي وتأقلم على ذلك، وتعامل مع الوضع فمضى وأكمل ما عليه من واجبات أو تطوعات تجاه الله.

إنه لا يسخط ولا يتعثر إذا لم تتوفر له حقوقه أو لم تتحقق رغباته، إذ إن تلك الأمور ليست على باله أو لا وزن لها يُذكر عنده، فهو منشغلٌ بحقوق الله عليه بدلًا من حقوقه على الله. فهدفه أن يأكل حتى يتقوى وليس هدفه أن يأكل صنفًا معينًا من الطعام ليتمتع، وهدفه أن يرتاح جسده عندما تأتي الفرصة وليس هدفه أن يرتاح بطريقة مُحددة أو بالترفيه بأمرٍ بعينه في وقت مُحَدد.

وبهذا المنظور، ليس المرء يبتعد عن معصية الله فحسب، بل إنه يبلغ منزلة أنه يبتعد عن بعض المباحات له لانشغاله مع الله، فهو يُطبِّق فعليًا نصيحة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى"[1]. قد طاب قلبه وصدق مع الله في المعاملة، فصدَّقه الله بأن يرزقه

---

[1] مسند أحمد 20728، جزء من الحديث.

بالطيب من متاع الدنيا، ويعينه على بلوغ مراحل من العمل الصالح والعبادة قَلَّ من يبلغها. وهذا الوضع يبرز في مثال قد ضربه الله لنا في القرآن {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمرن 37].

ومن تصحيح منظور المرء هو أنه لا ينظر إلى معصيته لله فقط من جهة أنه يتمتع بما لا يحل له، بل يرى الصورة الأكبر، وهي أنه يأخذ جزءًا من نصيبه من جنة الآخرة ويستهلكها في الدنيا، وأنه يتقرب أكثر من نار جهنم. كقاعدة عامة، كلما يعصي المرء ربه تتدنى منزلته في الآخرة، والتوبة هي الإعفاء من هذه القاعدة، إذ إن التائب المقبول توبته لا ينزل عن منزلته لمعصيته لأنه كأن لم يفعلها. ففي الحقيقة، إن كل معصية يرتكبها المرء عبارة عن استقطاع من آخرته ومُخاطرة في دخوله النار، وذلك ما ينبغي أن يراه ويدركه المرء منا.

والداهية هي أني، بالمعصية، أستقطع جزءًا كبيرًا من نصيبي في الآخرة لأصرفه على متعة أحقر في الدنيا، إذ إن جنس من متاع الدنيا لا يُقارن بنظيره من متاع الآخرة. وعلى هذا الوزن، فقد يُضحي المرء بقصور وجنات وأنهار وحور عين له في الآخرة من أجل قول كلمة غِيبة في حق أخيه اشتهى أن يُلقيها، ثم ينساها...

وقد ينتكس حال المرء الذي يعصي ربه بشيءٍ ملموس إلى أنه يُمنع منه كليًا في الآخرة، وليس فقط يُنتقص من جودته أو كَمّه، وإن دخل الجنة! فمثلًا، إن الرجل الذي يلبس الحرير في الدنيا لا يلبسه في الآخرة، كما حذَّرنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا فَلَنْ يَلْبَسَهُ فِي الْآخِرَةِ"[1]. وشارب الخمر في الدنيا لا يشرب من خمر الآخرة كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا حُرِمَهَا فِي الْآخِرَةِ"[2]؛ وخمر الدنيا لا شيء بالنسبة إلى خمر الآخرة. فبدلًا من أن يرى شارب الخمر إلى أنه ستفوته متعة شرب الخمر إذا أعرض عنها، فلينظر إلى أنه سيفوته شرب الخمر الأجود مع إخوانه في الجنة بينما هم يشربونها وهم جلوس يتحدثون ويمرحون.

وعلى الوجه الآخر، لا يمكن أن أنكر أن إقبالي على معصية مُحددة هي التي قد تُفضي بي إلى النار، إذ إني لا أستطيع أن أُجزم أني لن أدخل النار في الآخرة، وإلا لاستطعت أن أقسم بالله إني مَعفيٌ من دخول النار. عندما أُخاطر حول دخولي النار أم لا من أجل معصية واحدة، اغترارًا مني أني فقط أقترب من النار ولكن لن أسقط فيها لقلة أو صغر المعصية، أكون أحمق آنذاك. فمعلوم أن الإنسان كثيرًا ما يُسيء تقدير قدرات نفسه، فكم من طالبٍ اغتر بنفسه وظن أنه أبلى بلاءً حسنًا في

---

[1] صحيح البخاري 5384.

[2] صحيح البخاري 5147.

الاختبار وسيتفوق ثم يكتشف أنه رسب، وكم من جائع ظن أنه يستطيع أن يأكل كل ما على المائدة ثم يجد أنه ترك أكثر مما أكله؟

وكما أن المنظور قد يُعكس على جوانب الحياة فيكون منهجًا للمرء عامةً مثل الأمثلة السابقة، فمن الممكن أيضًا أن المنظور يُطلق على معصية مُحددة يستعصي على المرء الإقلاع عنها. كمثال، إن مَن تُسوّل نفسه له الزنا ولا يستطيع طرد هذه الفكرة من عقله بالرغم مما يعلمه من عواقب الزنا، قد ينتهي عندما يدرك أنه يتعدى على مِحرِم هذه المرأة، مثل أبيها أو أخيها أو زوجها. فيمنعه كُرهُه للغدر تحديدًا عن الزنا نظرًا لشدة بغض المرء للغدر، أو لأنه يطابق ذلك على نفسه أنه قد يُرد له مثله في أهله، فتُثار غيرته وحميَّته فيشمئز من الزنا. فالعبرة هي أن المرء يجب أن يُغير منظوره للأمور حتى يسهل عليه تغيير سلوكه ومشاعره الباطلة.

في مسألة الزنا تحديدًا توجد واقعة على عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) تشير إلى مسألة المنظور. ذلك عندما جاء فتى شاب فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا؛ فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، قالوا: مَهْ مَهْ. فقال (صلى الله عليه وسلم) "ادْنُهْ"، فَدَنَا منه قريبًا فجلس، قال "أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ! قَالَ "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ"؛ قَالَ "أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ! قَالَ "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ"؛ قَالَ "أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟" قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ! قَالَ "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ"؛ قَالَ "أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ! قَالَ "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ"؛ قَالَ "أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ! قَالَ "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ"؛ فَوَضَعَ [الرسول صلى الله عليه وسلم] يَدَهُ عليه وقال "اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ"؛ فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ [1] (فَزَجَرُوهُ أي المنع مع التوبيخ؛ فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ أي لم يكن يتشوق للزنا ومتعلقاته).

إن العبد الذي يعشق معصية بعينها، وتكون لذتها متأصلّة في قلبه بحيث إنه يتحسر من تركها تفوت، ينبغي أن يُغير منظوره بوضع نصب عينيه أنه بتركها سيكون هو الذي قد نفذ منها ولواصقها وليس أنها هي التي ستفوته، أي أنه سيفوز في الحقيقة وليس أنه سيخسر. بهذا، تتغير مشاعره من الحسرة على فواتها إلى الرغبة في نيل السلامة، فيسهل عليه التخلي عن المعصية.

الوصية بتغيير منظور المرء لا تقتصر فقط على المسائل الدينية ورؤية المرء للمعاصي، بل تشمل مسائل الحياة الدنيا أيضًا. قد يصبح المرء صابرًا مُحتسبًا بدلًا من ساخطًا متذمرًا عندما يتفكر في أن ما أصابه، كخسارة مبلغٍ كبير من المال، كان في شيء يستطيع تعويضه ولم تكن الإصابة في دينه ولا جسده. وعندما يعي المرء قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ

---

[1] مسند أحمد 21185.

إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ 'لَوْ' تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ"[1] (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ أي قوي العزم والهِمَّة في أمور الآخرة؛ فَإِنَّ 'لَوْ' تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ أي التحسر على الماضي بقول "لو كان حدث/فعلت كذا لأصبح الوضع كذا"، فهذا مما لا يأتي بفائدة وفيه قلة إدراك لحقيقة قضاء الله وقَدَره)، يقِل حزنه على ما فاته من الدنيا بعدما اجتهد لتحصيله، وتُهوِّن عليه شعوره بأن جُهده ذهب هباءً.

حين يُدرك المرء أن ما أصابه لم يكن ليُخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليُصيبه، وأن ما وقع معه إنما كان قد كَتَبَه وقدَّره الله أن يُصيبه هو تحديدًا، يكن أكثر صبرًا وأقل جَزَعًا. ومن جهة أفعاله، قد تتقلص معاصيه التي تنتج بسبب سخطه بقضاء الله وبسبب الاحتجاج للإقبال على المعصية بالترويح عن نفسه لما أصابه.

أي ضرر تراه أنت هو في الحقيقة ما قدَّره الله عليك، وهو خير لك لا محالة ما دمت مؤمنًا بالله وتصبر. فلعله عقاب ليكفِّر عنك سيئاتك، أو لعله بلاء وتمحيص من الله حتى ترجع وتتقرب إليه، أو تهذيبًا لك من الله حتى ينخفض غرورك أو إعجابك بنفسك. ولو صبرت وحمدت الله عليه في كل الحالات لارتقيت في الدرجات أكثر.

فالوظيفة المرموقة التي خسرتها هو خير لك، ومالك الذي خسرته هو خير لك. والمرأة التي ذهبت لتخطبها ورفضتك هو خير لك إذ إنها ليست التي قدَّرها الله لك ولا هي المناسبة لك وإن كانت صالحة، فلعل الاختلاف في الطباع هو الذي كان سيؤدي إلى الفراق بينكما؛ فالله يعلم ونحن لا نعلم كيف ذلك. واعلم أن لكل شيء نفيسًا في أعين الناس، من أمور الدنيا، فإنه كثير ما يحمل معه جانبًا سلبيًّا على دينك. فالوظيفة المرموقة مثلًا عادة ما تجعل المرء يغتر بنفسه، وحتى إن لم يحدث ذلك، فلعلها ستشغله فتُبعده عن الله، إذ لا يمكن لوظيفة مرموقة ذات مرتب مجزٍ ألا تُرهق صاحبها جُهدًا وانشغالًا.

وهناك عدة أمثلة من السُنَّة الشريفة على تغيير منظور المرء للأمور في وقائع مُحددة، منها كلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لإحدى بناته في أشد المواقف على الإنسان، وهو عندما كان ابنها يحتضر فأبلغها "إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ"[2]. فهذا الاستبصار للحقيقة، أن لله الروح التي أخذها وقد وهبها من قبل، وأن كل شيءٍ ينتهي ويفنى وله وقت مُحدد قد كتبه الله، يجعل المرء أكثر تقبلًا لما أصابه، ويعينه على الصبر واحتساب أجر الإصابة بالابتلاء عند الله.

---

[1] صحيح مسلم 4816.

[2] صحيح البخاري 1204.

من الأمثلة أيضًا ما ترويه لنا السيدة عائشة (رضي الله عنها) أنهم ذَبَحُوا شَاةً، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) "مَا بَقِيَ مِنْهَا؟" قالت: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا؛ قَالَ "بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا"[1]. كانت هي (رضي الله عنها) تتكلم من منطلق معايير الدنيا، وكان هو (صلى الله عليه وسلم) يتكلم بمنظور الآخرة أنهم استفادوا بأجر التصدق بالشاة كلها إلا الكتف الذي أبقوه لأنفسهم. فالكتف في هذه الحالة تكون عليهم حملًا إذ إن المرء يُسأل عن النعيم الذي أكله، ولكن الصدقة ستكون لهم زادًا.

وجاء في حديث (سَنَدَه ضعيف) لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن صحابي ستُقطَع يده في معركة "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَنْ سَبَقَهُ بَعْضُ أَعْضَائِهِ إِلَى الْجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى زَيْد بْن صُوحَان" وَكَانَ قُدُوم زَيْد فِي عَهْدِ عُمَر، وَشَهِدَ الْفُتُوح. وروى ابن مَنْدَهْ من حديث بُرَيْدَة قَالَ: سَاقَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً فَقَالَ "زَيْد زَيْد الْخَيْر"، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ "رَجُلٌ تَسْبِقُهُ يَدُهُ إِلَى الْجَنَّةِ"، فَقُطِعَتْ يَدُ زَيْد بْن صُوحَان فِي بَعْضِ الْفُتُوحِ، وَقُتِلَ يَوْم الْجَمَل[2]. في هذا الحديث بشارة وفرحة للذي تُقطع يده، بعدما كان ليحزن لخسارة يده، فتغيير المنظور يُغير مشاعر المرء وسلوكه.

### الزهد عن متاع الدنيا والإعراض عنها بمعرفة أنها رقيقة زائلة، واستيعاب هوان قيمتها

الزهد في اللغة هو: الانصراف عن الشيء احتقارًا له، وتصغيرًا لشأنه للاستغناء عنه بخير منه. قال ابن الجلاء: الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، فتصغر في عينك، فيسهل عليك الإعراض عنها. وقال الإمام أحمد: الزهد في الدنيا قِصَر الأمل. وعنه رواية أخرى: أنه عدم فَرَحه بإقبالها ولا حزنه على إدبارها؛ فإنه سُئل عن الرجل يكون معه ألف دينار هل يكون زاهدًا فقال: نعم، على شريطة أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نَقُصَت[3].

يُروى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعث أبا عُبَيدَة بن الجَرَّاح إلى البَحرَينِ يأْتي بجِزْيَتِهَا، وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو صَالَحَ أهل البَحرَينِ وأَمَّرَ عليهم العَلاءَ بن الحَضْرَمِيّ. فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتْ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ فَوَافَتْ صَلاةَ الصُّبْحِ مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَلَمَّا صَلَّى بِهِمْ الْفَجْرَ انْصَرَفَ فَتَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حِينَ رَآهُمْ وَقَالَ "أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَيْءٍ"، قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ

---

[1] سنن الترمذي 2394.

[2] فتح الباري بشرح صحيح البخاري لأحمد بن حجر العسقلاني 2257؛ روى الجزء الأول من الحديث البيهقي في دلائل النبوة 416/6 وابن كثير في البداية والنهاية 219/6، وقالوا عنه ضعيف.

[3] مدارج السالكين لابن القيم 11/2.

اللَّهِ، قَالَ "فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ لا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ"[1].

فهذه هي الدنيا وزينتها، لدرجة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أوعانا أنها أخطر من الفقر. والفقر ليس خطيرًا إلا إذا كان فقرًا مُجحفًا، ذلك لأن الله هو الرزاق والوكيل فلا داعي للخوف من الفقر، لأن الله لا يُضيّع مخلوقاته. وقد أخذ تعالى على نفسه –العدل– بأن يرزق من يخلقه، فهذا حق العبد على ربه قد تكرم به علينا {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود 6]، لكن المشكلة تكمن في أن المرء قد يفتقد الرضا.

ثم إن الله لن يُهلك المسلمين عامةً بالجدب والقحط، طبقًا لما عهد الله رسوله (صلى الله عليه وسلم)، فلا داعي للقلق الزائد من قضية رزق المرء ما دام يستعين بالله ويسعى. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "سَأَلْتُ رَبِّي ثَلاثًا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً: سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا"[2] (بِالسَّنَةِ أي الجدب والقحط، ويجب التفرقة بين الهلاك بالقحط وبين العيش في الشدة أو القحط).

والرضا يبلى باللهفة على الدنيا التي تأثيرها كالخمر، وذلك على من سمح لها بالتسلل إلى قلبه وأذلته نفسه برغباتها، فتُسحِرَه الدنيا بزينتها ولا تتركه إلا تائهًا مُبَرمَجًا على الإكثار منها. حينئذ يسعى المرء لتحصيل شهواته دون اكتراث للصواب أو الخطأ، دون مراعاة للحق أو الباطل، ودون احتساب للموت، ودون استعداد لبعث وحساب، فينشغل عن ربه. ولذلك يجب أن نزهد في الدنيا، فالفقر أهون من متاع الدنيا الذي يلهو العبد عن ربه. فالدنيا كالبيضة، من لا يعرفها يظن أنها مُصمطة، ولكن إذا حُمِلَ عليها انكسرت وفنيت وتسببت في فوضى، فتلك هي الدنيا، قشرة جميلة ولكن ما بداخلها وهمٌ هشٌ، لا يمكن الاعتماد عليها.

يقول ابن الجوزي رحمه الله: من تفكر في عواقب الدنيا أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر. ما أعجب أمرك يا من يوقن بأمر ثم ينساه، ويتحقق ضرر حال ثم يغشاه {وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ} [الأحزاب:37]. تغلبك نفسك على ما تظن، ولا تغلبها على ما تستيقن. أعجب العجائب: سرورك بغُرورك، وسَهوك في لهوك عما قد خُبِّئَ لك. تغتر بصحتك وتنسى دنو السقم، وتفرح بعافيتك غافلًا عن قرب الألم. لقد أراك مصرع غيرك مصرعك، وأبدى مضجع سواك –قبل الممات– مضجعك. وقد شغلك نيل لَذَّاتِك عن ذكر خراب ذاتك[3].

---

[1] صحيح البخاري 2924.

[2] صحيح مسلم 5145.

[3] صيد الخاطر لابن الجوزي 4.

ويقول ابن القيم (رحمه الله) في مُعاناة المتشوقين لمتاع الدنيا: ومُحِب الدنيا لا ينفك من ثلاث: هَمٌّ لازمٌ [في طلبها]، وتعبٌ دائمٌ [في تحصيلها والحفاظ عليها]، وحسرةٌ لا تنقضي [على ما يفوته منها]. ثم قال: وأهل الدنيا وعشاقها أعلم بما يُقاسونه من العذاب وأنواع الألم في طلبها[1] (انتهى).

المرء منا قد يرى الرجل ذا المال الوفير ويتمنى أن يكون له مثله، ولكن ما قد لا يدركه كثير منا هو أن هذا الرجل يكون قد عانى واجتهد كثيرًا من أجل حصول ذلك المال، هذا وإن لم يكُن قد ضَحّى بأجزاء من دينه لتحصيله (والذي في أخف الأحوال يكون بانشغاله عن ذكر الله). وهذا العناء يجعله لا يستطيع أن يستمتع بالمال كما يظن أحدنا، إذ كان تكلفة جمع هذا المال باهظًا جدًّا على نفسيته وصحته، حتى إنه لا ينظر للثروة على أنها راحة له وميزة بالدرجة التي نراها نحن.

للتوضيح، إن الجهد المبذول ينتقص من فرحة اقتناء الغاية، بينما تزداد فرحة المرء بنفسه لبلوغ الغاية التي عزم عليها واستطاعته تخطي العقبات. ولكن كلما ازداد الجهد المبذول، انتقصت فرحة اقتناء الغاية أكثر من الزيادة في فرحة بلوغها، فتكون المُحصِّلة هي نقصان الفرحة عند الإتمام. بالمثال، إن الذي يربح مبلغًا كبيرًا من المال كهدية يفرح أكثر بكثير من الذي كد وعانى في تحصيل نفس المبلغ من المال، وهذا لأن الأول يشعر أنه اغتنم وفاز بالمال أكثر مما يشعر به المرء الثاني (والذي يميل إلى الشعور بأنه اكتسب المال عن أنه اغتنمه).

ولكن هذا هو حال الدنيا، تُغري الناظر بمن يقتنيها، وهذا بأن تواري عيوبها عنه حتى يتلهف في طلبها، فإن سعى في طلبها راوَغَته وعذَّبته. فإن كان العناء في الدنيا واقع لا محالة، سواء حرص العبد على تحصيل متاع الدنيا أم خالف نفسه بالإعراض عن المتاع وصبر على التخشن، فالمنطق يُملي أن يكون عناء المرء في إمساك نفسه عما حرَّم الله من متاع الدنيا، إذ بهذا تكون له السلامة من العناء الأكبر في الدنيا والآخرة. كقاعدة: تقديم القليل من العناء تطوعًا، سواء بتجنب المعصية أو بدفع النفس على العمل الصالح، يُوَفِّر على العبد الكثير من العناء في الآخرة جبرًا. أي أن العناء حاصل لا محالة، فعناء مقاومة المعصية أقل بكثير من عناء اصلاح آثارها وتحَمُّل عواقبها. فمثلًا، قد قال الأوزاعي (رحمه الله): من أطال قيام الليل، هوَّن الله عليه وقوف يوم القيامة[2].

ويجب أن نُدرك مكانة الدنيا، حتى نفيق من لهفتنا عليها وننصرف عنها إلى الله. واستيعاب قيمة الدنيا مرتبطٌ بإجابة السؤال: لماذا أعصي الله؟ ءأعصيه لشهوةٍ عندي أريد تلبيتها، لشيءٍ من متاع الدنيا أريد تحصيله ولو بسخط الله؟ المشكلة أني لا أدرك مدى هوان الدنيا التي عصيت ربي من

---

[1] إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان لابن القيم 58/1، 60.

[2] سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي 119/7.

أجلها، فقد جاء فيها عدة أحاديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تجعل المرء يخجل من الأبعاد التي ذهب إليها لتحصيل هذا المتاع الرديء. فلنتناول بعضها:

قد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِي مَالِي، إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفْنَى، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ"[1]. فحقًّا لا يُعتبر أن لك شيئًا من الدنيا حقيقةً إلا ما استهلكته بحيث إنه فني ولا يستطيع أن يستفيد منه أحدٌ سواك (أما ما تستعمله ويستعمله مَن بعدك فإنما أنت شريكٌ فيه وهو ليس خالصًا لك)، أو ما حُسب لك في ميزان عملك الصالح!

وقال أيضًا (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى"[2]. ومرَّ (صلى الله عليه وسلم) بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ وَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ "أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟" فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ "أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟" قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ! فَقَالَ "فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ"[3].

والحديث الذي يُعرّفنا قيمة الدنيا عند الله جاء في قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ"[4]. هذا ونحن نتنافس –بل ومن الناس من يتقاتلون– على الدنيا من أجل نيل أكبر كمّ منها، من أجل جمعها وادّخارها، نحرص عليها وعلى البقاء فيها بالرغم من أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال "لَمْ يَبْقَ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا بَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ"[5]! ومما جمعناه ما قد لا نستفيد منه أبدًا ويستفيد منه غيرنا (مثل المال الذي يموت عنه صاحبه ويُوَرّثه)، فيبقى حمل السؤال والحساب على جَمعِه مع فوات الاستفادة من المادة، فأي داهية تلك؟!

نتعارك على الدنيا وهي ثُفالة، ونحزن عندما تفوتنا، ونستذكرها على الدوام ونعطيها كل اهتمامنا مقابل نسيان ذكر الله، بل وقد نعصي الله من أجل تحصيلها، ثم نتفاخر على بعض بالقدر الذي جمعناه منها، فيا للعجب! ألا أشعر بالسفاهة والتفاهة لفعل ذلك، خصوصًا أنه سيأتي يوم يَدكّ اللهُ الأرض دكًّا فيمحوها وكل ما فيها، ويكون كأنه لم يكن لهذه الأشياء وجود؟

---

[1] صحيح مسلم 5259.

[2] مسند أحمد 18866؛ الحديث فيه انقطاع، وصححه ابن حبان والسيوطي.

[3] صحيح مسلم 5257.

[4] سنن الترمذي 2242.

[5] سنن ابن ماجه 4025.

هذا اليوم ليس ببعيد استدلالًا بما يرويه سيدنا أبو سعيد الخضري (رضي الله عنه): وَجَعَلْنَا نَلْتَفِتُ إِلَى الشَّمْسِ هَلْ بَقِيَ مِنْهَا شَيْءٌ [أي أن الشمس أوشكت على الغروب التام]، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَلَا إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ"[1]. وقال صلى الله عليه وسلم في خُطبة "أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصَرْمٍ وَوَلَّتْ حَذَّاءَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا، وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا، فَانْتَقِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ"[2] (آذَنَتْ أي أعلمت وأخبرت؛ بِصَرْمٍ أي بانقطاع وذهاب؛ حَذَّاءَ أي مُسرعة؛ صُبَابَةٌ أي بقية يسيرة؛ يَتَصَابُّهَا أي يشربها).

وتطبيقيًّا، قد نصح الرسول (صلى الله عليه سلم) عبد الله بن عمرو (رضي الله عنه) حول هذا، إذ يروي: مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصًّا لَنَا، فَقَالَ "مَا هَذَا؟" فَقُلْنَا: قَدْ وَهَى فَنَحْنُ نُصْلِحُهُ، قَالَ "مَا أَرَى الْأَمْرَ إِلَّا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ"[3] (خُصًّا هو البيت الصغير المصنوع من الخشب والقصب؛ وَهَي أي خرب وضغف وتشقق). وهذا فيما يتعلق بتصليح منزلٍ دون ضرورة، وليس يتطرق إلى المبالغة في زخرفة المنزل داخليًّا وخارجيًّا، مستنزفًا المال والوقت والجُهد. فكيف نتلهف على جمع الدنيا، ولماذا نحرص كل هذا الحرص عليها وقد أوشكت على الانقضاء ومفارقتنا؟ يُروى عن سيدنا عيسى عليه السلام أنه قال: من ذا الذي يبني على موج البحر دارًا؟ تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارًا[4].

هذا كله ولن يستطيع أحدٌ منا أن يجمع متاع الدنيا كله عنده. حتى إن افترضنا أن أحدنا استطاع هذا، فلسيدنا عمر (رضي الله عنه) نظرة تبصيرية حول هذه المسألة قائلًا: لو أن الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل واحد ثم جاءه الموت، لكان بمنزلة من رأى في مَنَامِه ما يَسُرَّه ثم استيقظ، فإذا ليس في يده شيء[5].

بل وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الدنيا ما هو أذَمُّ من ذلك، إذ قال "أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إلا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالاهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ"[6]. ومن يتعجب أن الله قد لعن الدنيا وما فيها إلا من يذكر الله وما شابه مما يُحبّه الله (مثل أعمال البر)، أو العالم والمتعلم للعلوم الشرعية، فليتذكر أن الله سيُفني السماوات والأرض يومًا ما. وهذا يدل على هوانها عند لله بما فيها إلا من عمل صالحًا، فكيف نستنكر أن ما سيُفنيه الله قد يكون ملعونًا؟ فتلك هي خلاصة حقيقة

---

[1] سنن الترمذي 2117.

[2] صحيح مسلم 5268، جزء من الرواية.

[3] سنن الترمذي 2257.

[4] جامع العلوم والحكم لأبي الفرج الحنبلي 332.

[5] مدارج السالكين لابن القيم 264/3.

[6] سنن الترمذي 2244.

الدنيا. وقد تم تلخيص الأمر في سورة العصر {وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر 1-3].

ويساعد العبد في الزهد عن الدنيا أن يُبصرها على حقيقتها. قد سُئل أحد الزاهدين: ما الذي زهدك في الدنيا؟ قال: قلة وفائها، وكثرة جفائها، وخِسَّة شُركائها[1]. وهذه رؤية ثاقبة جدًّا للدنيا، أنها قليلًا ما تُلبِّي طلب الساعي لها، وعندما تُجيبه فإنها تبخل في عطائها بحيث لا يتناسب مع مجهود الساعي. وإذا اتَّخذ المرء مُلَّاك الدنيا أصحابًا وجدهم سطحيين وغدَّارين. فلماذا إذًا التذلل لها؟ وقد ضرب ابن القيم (رحمه الله) تشبيهًا للدنيا في كتابه 'الفوائد' قائلًا: الدنيا كامرأة بغيٍّ لا تثبت مع زوج، وإنما تخطب الأزواج ليستحسنوا عليها؛ فلا ترضَ بالدياثة. وقال أحد الواعظين: الحياة مثل السوق الكبير، تتجول فيه وتأخذ ما يطيب لك من المعروض، ولكن تذكر بأن الحساب أمامك وستدفع ثمن كل شيء أخذته. فالتقليل من متاع الدنيا حكمة ووَرَع.

ورؤية مالك بن دينار (رحمه الله) للدنيا تُوجد في قوله: إن الله جعل الدنيا دار مفر والآخرة دار مقر، فخذوا لمَقَرِّكم، وأخرجوا الدنيا من قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم، ففي الدنيا حييتم ولغيرها خلقتم. إنما مثل الدنيا كالسُمّ أكله من لا يعرفه واجتنبه من عرفه، ومثل الدنيا مثل الحية مسّها لين وفي جوفها السم القاتل، يحذرها ذوو العقول ويهوي إليها الصبيان بأيديهم[2].

لكن للأسف، إنما مثل الوضع الحالي الذي يراه القابض على دينه كمثل رجلٍ أمامه كومة طائلة من الذهب وبجانبها كومة طائلة من الخُردة، فيرى الناس يتزاحمون ويتنافسون ويتلهفون على غرف أكبر قدر ممكن من كومة الخردة، وهُم في قمة السعادة بهذا ويشعرون أنهم غنموا، بينما هو يدعوهم بإلحاح أن يأخذوا من كومة الذهب والتي ليس حولها زحام أيضًا، فيسمعونه ويلتفتون إليه ولكنهم لا يزالون يذهبون لأخذ من كومة الخردة. فهذا مَثل حال أغلب الناس بين الدين ومتاع الدنيا، يبذلون الغالي من وقتهم وجهدهم وتفكيرهم في كيفية تحصيل مقتنيات الدنيا، ويكون هذا الأولى لهم، فيكون على حساب التفقه في دينهم والتعبد لله، إلى حد ما نراه في زمننا الآن من نزول الابتلاءات الكبيرة متتالية بسبب تقصيرنا مع الله المتمثل بابتعادنا عن ديننا. ولو أننا أدركنا قيمة هذا الدين لتركنا جمع رفاهيات الدنيا من أجله.

نرى مثلًا حدوث زلازل لم نكن نعهدها في بلادنا، وبدلًا من أن يواظب الناس على الصلوات في المساجد ويتقوا الله بأن يتركوا الربا والغش وغيرهما، فإنهم يستمرون فيما هم فيه (وربما يتركون المنكرات ويأتون المساجد مؤقتًا) ويسعون لإيجاد حلولٍ لعواقب الابتلاء. الحلول تكون مثل بناء

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم 16/2.

[2] صفة الصفوة لابن الجوزي 372/1.

منازل مضادة للزلازل وتعليم الناس الاستخباء أسفل الطاولات عند حدوث زلزال ووضع أجهزة ترَصُّد، فهم في عناء مستمر. يجتهدون في وضع قواعد للتصرف مع الزلازل بدلًا من الاجتهاد في طاعة الله. ولو أنهم تركوا المنكرات وأقبلوا على الله لرُفعت الابتلاءت، ولكنهم يخوضون في عناء البحث عن أفضل الأساليب لمُكافحة آثار الابتلاءات والمُعايشة معهن بدلًا من سلك طريق رفعهن بالكلية –بتقوى الله–.

وكذلك عندما يظهر وباءٌ جديد، يدرسون ويوصون بعض بالإجراءات التي تقيهم من الإصابة بالعدوى مثل لبس الكمامة، وكيفية تطهير الأيدي والأسطح، والأدوية التي يأخذونها عندما يُصابون، مع عدم دراسة الدين وإصلاح سلوكهم في أنهم يُقاومون تطبيق شرع الله. ويُقاس مثل هذا على كل الابتلاءات، فعندما يحدث الغلاء يتعلمون ويسعون في طُرُق المُحافظة على قيمة الأموال وأساليب التوفير، وهكذا. فواقع الحال أنهم يتخصصون في التعامل مع الابتلاءات بينما يتجنبون تنفيذ ما خصّصهم الله له: لعبادته؛ ومن ثمَّ يتفادون رفعهن. فالسؤال المُحيِّر هو: أهم فعلًا يريدون رفع البلاء؟

ويساعد أيضًا في الزهد عن متاع الدنيا تقوية اليقين بالله وبحياة القبر وبالحساب وبالجنة والنار ومثل ذلك، وهذا عن طريق التعلم والتفكر والتقوى. قال ذو النون المصري: اليقين يدعو إلى قصر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يُورِثُ الحكمة، وهي تُورِثُ النظر في العواقب[1].

ومما يُساعد المرء على الزهد هو الوعي بفكر وسلوك بعض الزُّهَّاد، وهذا عن طريق سماع ما يُروى عنهم. فمثلًا، دخل هشام الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال: سَلني حاجةً [أي اطلب مني طلبًا]؛ قال: إني أستحيي من الله أن أسأل في بيته غيره؛ فلما خرجا قال: الآن فسلني حاجةً؛ فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا؛ قال: والله ما سألت الدنيا مَن يملكها، فكيف أسألها مَن لا يملكها؟[2]

من لا يزهد عن الدنيا يُفتتن بها، ومِن أخطر فتن الدنيا للرجال هن النساء، وأعمَّهم للمسلمين فتنة (أي رجالًا ونساءً) هو المال. وهناك حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يشدد فيه على فتنة النساء خاصة قائلًا "فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ"[3].

بالإضافة إلى هذا، فإنه (صلى الله عليه وسلم) استفاض في قوة تأثير النساء حتى إن كان الرجل حكيمًا ثابتًا، قائلًا "مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ"[4]. وهذا

---

[1] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمحمد الفيروزآبادي 397/5.

[2] سير أعلام النبلاء للذهبي 466/4.

[3] صحيح مسلم 4925، جزء من الحديث.

[4] صحيح البخاري 293، جزء من الحديث.

كله يدل على أن الدنيا حلوة دون شك، ولكنها حلاوة زائفة زائلة، وأن النساء قرنت بالدنيا بيانًا لمدى خطورة إغوائهن للرجال إن لم يتقين الله، فيكونن حينئذ أعظم أبواب الفتن. والخلاصة أنه وجب للرجال الاحتياط من الافتتان بهن زيادة، ووجب للنساء أن يتقين الله ولا يتبرجن فيكونن فتنةً للرجال أكثر مما يحسبن.

أما لمن يسعى وراء الدنيا الغدَّارة لتحصيل أكبر قدر ممكنٍ منها، فيجب أن يعلم أنه حتى إن ترَكَته يتمكن منها في تحصيلها، فإنه لن يرضى لأن الله لم يُجبل الإنسان على أن تستكين نفسه مع تحصيل الدنيا، بل تستكين وتبتهج وتحيا بتقربها إلى الله. إضافةً إلى هذا، فإن نفس الإنسان لا تشبع من تحصيل الدنيا، فإنها دائمة الطمع في الاستزادة، كما دلنا الرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لابْتَغَى ثَالِثًا، وَلا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ"[1]. فمن ركض وراء إشباع رغباته سيعيش في عناءٍ، تائهًا في مطاحن الدنيا، فهو خادم لجسده في الحقيقة. يقول ابن القيم (رحمه الله) عن التجريد من حظوظ النفس من الدنيا: يُعتقه ويُحرره من رق الطبيعة والجسم المركب من الماء والطين، إلى رق رب العالمين، فخادم الجسم الشقي بخدمته عبد الماء والطين، كما قيل:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته    فأنت بالروح لا بالجسم إنسان[2]

فلماذا إذًا لا أتحرر بالخروج من مهانة كوني خادمًا لجسدي، ومن مشقة سباق الناس على الدنيا، وأرتقي بالدخول في كوني عبدًا لله؟ إن كان همِّي هو الآخرة حقًّا كما أزعم، فكيف لا أزهد عن الدنيا، خاصةً أن قال فيه أحد المستبصرين (أبو واقد الليثي): تابعنا الأعمال أيُّها أفضل، فلم نجد شيئًا أعون على طلب الآخرة من الزهد في الدنيا[3].

وفي واقعةٍ واعظة (وهي من الروايات المنقولة وليست مرفوعة للرسول صلى الله عليه وسلم)، روي أن سيدنا عيسى (عليه السلام) كان مع صاحب له يسيحان، فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية، فقال سيدنا عيسى لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعامًا من هذه القرية؛ وقام سيدنا عيسى عليه السلام يصلي. فجاء الرجل بثلاثة أرغفة، فأبطأ عليه انصراف سيدنا عيسى فأكل رغيفًا، فانصرف سيدنا عيسى فقال: أين الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلا رغيفين! قال: فمرّا على وجوههما حتى مرّا بظباء، فدعا عيسى عليه السلام ظبيًا منها فذكاه فأكلا منه، ثم قال عيسى عليه السلام للظبي: قم بإذن الله، فإذا هو يشتد. فقال الرجل: سبحان الله! فقال عيسى عليه السلام: بالذي أراك هذه الآية من أكل الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلا رغيفين!

---

[1] صحيح البخاري 5956.

[2] مدارج السالكين لابن القيم 74/3.

[3] المصنف لأبي بكر بن أبو شيبة 174/8.

قال: فمضيا على وجوههما فمرا بنهر عظيم عجاج، فأخذ عيسى عليه السلام بيده فمشيا على الماء حتى جاوزا الماء، فقال الرجل: سبحان الله! فقال عيسى عليه السلام: بالذي أراك هذه الآية من أكل الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلا رغيفين.

فخرجا حتى أتيا قرية عظيمة خربة، وإذا قريب منها ثلاث لبنات من ذهب، فقال الرجل: هذا مال! فقال عيسى عليه السلام: أجل هذا مال، واحدة لي وواحدة لك وواحدة لصاحب الرغيف. فقال الرجل: أنا صاحب الرغيف! فقال عيسى: هي لك كلها! ففارقه، فأقام عندها ليس معه ما يحملها عليه، فمر به ثلاثة نفر فقتلوه وأخذوا الثلاث لبنات، فقال اثنان منهم لواحد: انطلق إلى القرية فأتنا منها بطعام. فذهب فقال أحد الباقيين للآخر: تعال نقتل هذا إذا جاء ونقتسم هذا بيننا! فقال الآخر: نعم. وقال الذي ذهب: أجعل في الطعام سمًّا فأقتلهما وآخذ اللبن! ففعل، فلما جاء قتلاه وأكلا من الطعام الذي جاء به، فماتا. فمر بهم عيسى وهم حولها مطروحون، فقال: هكذا تفعل الدنيا بأهلها[1].

وفي لفتة جانبية من هذه الواقعة، متعلقة بنقطة قد تكلمنا عنها من قبل وهي أن المعصية تجر المعصية وهذا من عقاب الله للمرء، فلعل معصية أن تستدرج معصية أعظم منها. ولذلك كانت النصيحة ضرورية بأنه ينبغي للمرء ترك المعصية مُبكرًا قدر الإمكان، إذ نرى في هذه الواقعة أن المُرافق لسيدنا عيسى عليه السلام بدأ فقط بالكذب. ثم تصعد في عظم معصيته وازداد شرودًا عندما تجاهل ما رآه بعينه من معجزات الله فلم يتعظ، وأصر على الكذب فدخل في إطار التكبر والعناد، وهذا مرض قلبي أسوأ من الكذب. وإذ إنه استوعب أن سيدنا عيسى عليه السلام على اتصال مع الله لما تجرأ على أن يكذب على رسولٍ من الله، لأنه لا فائدة من الكذب على من يصله الخبر من عالِم الغيب.

ثم صعد في فجوره أكثر بانكبابه على الدنيا وتخليه عن رسول الله، فأعرض عن آخرته لتحصيل دنياه، بل واعترف على نفسه فقط عندما أصبح الاعتراف يعود عليه بالاستزادة من متاع الدنيا، فكانت خشيته من الله أهون عنده من فوات الدنيا. وعلى ذلك، كانت عاقبته أنه هلك على تحصيل الدنيا، وعوقب من الله بأنه لم يُحصِّل متاع الدنيا ولا سلامة الآخرة، فأي خسارة أفدح من تلك؟

فكيف يأمن المرء لدنيا قد لعنها الله؟ كيف وقد أخبرنا بها سيدنا ابن عباس (رضي الله عنه) وهو يُفسر قول الله تعالى {وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا} [الكهف: 82] قائلًا: لَوْحٌ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ مَكْتُوبٌ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، عَجَبًا لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ كَيْفَ يَفْرَحُ، وَعَجَبًا لِمَنْ يَعْرِفُ النَّارَ كَيْفَ يَضْحَكُ، وَعَجَبًا

[1] سراج الملوك لأبي بكر محمد الطرطوشي المالكي 17/1 .

لِمَنْ يَعْرِفُ الدُّنْيَا وَتَحْوِيلَهَا بِأَهْلِهَا كَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا، وَعَجَبًا لِمَنْ يُؤْمِنُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ كَيْفَ يَنْصَبُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ، وَعَجَبًا لِمَنْ يُؤْمِنُ بِالْحِسَابِ كَيْفَ يَعْمَلُ الْخَطَايَا؛ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ[1].

ورجوعًا إلى الموضوع الأصلي لهذا الباب، لكي نتعرف على طريقة الزهد عن الدنيا نحتاج إلى توجيه وقدوة نتأسى بها، وهل من قدوة لنا أمثل من الرسول (صلى الله عليه وسلم)؟ فقد كان نهجه ما نصح به سيدنا عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قائلًا "يَا عَبْدَ اللَّهِ، كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ كَأَنَّكَ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ"[2].

ويتبين لنا رؤيته ومنهجه (صلى الله عليه وسلم) مع الدنيا في اختياره "عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، فَقُلْتُ: لَا يَا رَبِّ وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا (أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ)، فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ"[3] (بَطْحَاءَ هي الأرض التي بها حصى وتخلو من العمران). وفي موقف آخر جاء أن جبريل (عليه السلام) جَلَس إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فنظر إلى السماء فإذا مَلَكٌ ينزل، فقال جبريل: إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَ قَبْلَ السَّاعَةِ؛ فلما نزل قال: يَا مُحَمَّدُ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ، قَالَ أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟ قال جبريل: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ. قال (صلى الله عليه وسلم) "بَلْ عَبْدًا رَسُولًا"[4].

حبيبنا يا رسول الله، كم أنت عظيم القدر. وهكذا علمنا رسولنا (صلى الله عليه وسلم)، فمن استطاع أن يزهد عن طلب الدنيا فليفعل، ومن لم يستطع فليجتهد وليُؤدِّ الحق الذي عليه مما يُحَصِّلَه. ولو كان هناك حقٌ لأحدٍ من بني آدم أن يتمتع بالدنيا ويعيش في رخائها، لكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) أولى به، لأنه أكثر مخلوق فضّله الله عن سائر مخلوقاته، وهو أشرف إنسان مشي على الأرض.

ثم لننتبه إلى نقطة أخرى: هل كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعاني في الدنيا كي يكون حال أمتنا الإسلامية كما هو الآن، من ذل وسط الأمم الأخرى وهوان على كل من هب ودب من الدول فتكالبوا علينا، وتخاذل بعضنا لبعض فلا ننصر إخواننا، ويُملَى علينا ما المسموح لنا أن نُطبّقه من ديننا وما لا يُسمَح؟! فقد خذلنا إخواننا لأننا لا نشعر بالترابط معهم فعلًا، ولا نشعر بالترابط معهم حقًّا لأننا ابتعدنا عن ممارسة الإسلام، وامتنعنا عن تحكيمه في جوانب حياتنا، وأحببنا الدنيا وكرهنا الموت.

---

[1] الزهد الكبير للبيهقي 214.

[2] سنن ابن ماجه 4104.

[3] مسند أحمد 21166. حسنه ابن حجر والسيوطي، ولكن قال عنه الألباني والأرناؤوط: ضعيف جدًّا.

[4] مسند أحمد 6863.

لو كنا نأخذ بالإسلام حق الأخذ لكنا مؤمنين راسخين ناصرين لإخواننا، إذ كنا سنتألم كما يتألموا. حينئذ لكان حالنا كما وصف الرسول (صلى الله عليه وسلم) حال المؤمن "إِنَّ الْمُؤْمِنَ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنْ الْجَسَدِ، يَأْلَمُ الْمُؤْمِنُ لأَهْلِ الإِيمَانِ كَمَا يَأْلَمُ الْجَسَدُ لِمَا فِي الرَّأْسِ"[1]. فلو تألمنا حق التألم لما يحدث لإخواننا، ما خذلناهم بتركهم يواجهون أعداء الإسلام وحدهم، ولا اقتصرنا على حل فقط مشكلاتنا الشخصية والحرص على أنفسنا وحدنا دون البذل لعون إخواننا.

فعلى أرض الواقع نجد أن دولة مسلمة لا تنصر دولة مسلمة وهي جارتها فوق ذلك، والمستضعفون المسلمون يستغيثون بجيرانهم من المسلمين ولكن لا حياة لمن تُنادي. فكيف نُصنِّف ذلك الخذلان، خذلان نصرة المسلم أم نصرة الإسلام أم نصرة الجار أم نصرة الإنسان بصفة عامة؟ بل ومنهم من إن تمكن من أحد المجاهدين المطلوبين عند أعداء الله يُسلِّمه لهم، وربما ويتعاونون في التخطيط للقضاء على المُجاهدين.

فلم يكتفوا أنهم تخلوا عن الجهاد بالرغم من أن ذلك ذنبٌ عظيم، ولكن تمادوا بالتآمر على من يسعى للجهاد في سبيل لله. فما يقال في مثل هؤلاء المدَّعون إنهم مسلمون إلا ما قد حكم الله به عليهم {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة 51].

فأين نحن من وصية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ"[2]؟ ومعنى "وَلَا يُسْلِمُهُ" أي لا يتركه مع من يُؤذيه ولا فيما يؤذيه، بل يَنصرُه ويَدفع عنه. وفي رواية أخرى جاء عنه (صلى الله عليه وسلم) "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَخُونُهُ وَلا يَكْذِبُهُ وَلا يَخْذُلُهُ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: عِرْضُهُ وَمَالُهُ وَدَمُهُ"[3]. فحقوق على حقوقٍ قد ضيَّعناها، فيا للعار.

وحال الأمة الإسلامية إنما هو صورة مُكبَّرة لحال أفراد الأمة، لأن حال الأمة هو متوسط أحول الأفراد. هل كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يؤدي رسالته مواجهًا اضطهاد قومه له باللسان والسلاح، ومعانات أُخَر مثل قلة المؤنة أحيانًا لدرجة أنه كما يروي سيدنا عمر (رضي الله عنه): لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي، مَا يَجِدُ دَقَلًا يَمْلَأُ بِهِ بَطْنَهُ[4] (دَقَلًا هو التمر الرديء اليابس)، حتى آخذ هذا الدين وأضيعه بمعصيتي؟ هل سأعترف له يوم القيامة، إذ إن له حق

---

[1] مسند أحمد 21807.

[2] صحيح البخاري 6437.

[3] سنن الترمذي 1850، جزء من الحديث.

[4] صحيح مسلم 5289.

عليَّ بما أن الإسلام قد وصلني وسأُحاول الشُرب من حوضه وأطلب شفاعته، عن وضعي: إني ضيعت الرسالة التي عانيت لإبلاغي إياها؟!

لماذا لا أفيق من الأحلام والأوهام عن الترفه والشهوات إلى الواقع، إلى حقيقة يوم الحساب؟! لماذا لا أُحاسب نفسي فبل أن أحاسب؟ أعجزت عن فعل هذا حتى؟! فإن عجزت، فما كان هناك داعٍ أن يعاني الرسول (صلى الله عليه وسلم) لإبلاغي الرسالة، ولكنه عانى من أجل غيري إذًا، غيري ممن يحافظون على الإسلام بتطبيقه كما ينبغي، ويحملونه فوق رؤوسهم ويدافعون عنه دفاع الأُسُود بنخوة على ممتلكاتهم، ويضحون بحياتهم إن لزم الأمر من أجل تحقيق إرادة الله والحفاظ على ما يُعزِّهم وفيه نجاتهم (الإسلام)....

لكن ينبغي ألا يُفهم الكلام عن الزهد خطأ، فهذه ليست دعوة للمبالغة بالتزهد عن احتياجات الإنسان من الدنيا لإقامة بدنه والحفاظ على هِمَّته، مثل التكسب من الحلال والزواج وترويح النفس بالمتاع المباح وما شابه. هذا وإلا لضعف الجسد أو سئمت النفس مما لا تطيقه، فيتأخر المرء عن عبادة الله أو يَمل من مقاومة العصيان. ولا ينبغي أيضًا أن يبالغ في استيعابه للزهد إلى فعل ما يؤذي الناس، بترك تمشيط شعره وإهمال نظافة ثيابه وترك التطيب (أي التعطر) والسواك مثلًا، فهذا فهمٌ خاطئ للزهد.

إن المنهج الصائب الذي ينبغي للمسلم تطبيقه هو سُنَّة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فكان أزهد الناس عن الدنيا ومع هذا جاء عنه عندما أتى ثلاثة أنفار يسألون عن تعبد الرسول (صلى الله عليه وسلم) فتَقَالُّوهَا (أي وجدوها قليلة واستخفوها) وقالوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟! قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا؛ وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ؛ وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا (وفي رواية لمُسلم: فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ)؛ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ "أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"[1].

إنما المقصد هو تحلي المرء بصفتين مهمتين حول هذه القضية، وهما الرضا والصبر. بالرضا يصبح العبد أكثر تورعًا من الوقوع في معصية الله إذ يرضى بما قسمه الله له من متاع الدنيا، فلا ينشغل ولا يتطلع إلى تحصيل أقاصي متاع الدنيا، والذي قد يكون بالحرام أحيانًا.

أما بالصبر، فلا يتطلع العبد إلى تحصيل ما تشتهيه النفس من زينة الدنيا، خاصة بالحرام، فإنه يُصَبِّر نفسه عنه. وبهذه الطريقة فإنه يعمل بوصية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما

---

[1] صحيح البخاري 4675.

سأله أناس من الأنصار أن يتفضل عليهم مرارًا من خزائنه حتى نفد ما عنده من عطاء، فقال "مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ"[1]. وهذا الحديث يدل على أن الإنسان قد يُجاهد طبعه بالتطبع بصفة ليست فيه حتى تصبح فيه، فقد يجبل المرء نفسه على الصبر حتى يوصف عند الله بالصبور؛ وكذلك الحُلُم والكرم وغيرهم. وبهذا النهج فإن المرء يُطبِّع نفسه على الصفات الحميدة، حتى يُصبحوا سيماته وعفوياته.

قال العلماء إن الصبر يكون في ثلاث أمور: على البلاء، وعلى الطاعة، وعن المعصية. ولكن أيما كان سبب تطلُّب الصبر، فإن لابن الجوزي (رحمه الله) نصيحة فريدة في كيفية تصبير النفس، وهي بتسلية النفس في أثناء تصبرها لتخفيف مشقة الصبر. قال: مر بي حمَّالان جذع ثقيل، وهما يتجاوبان بإنشاد النغم، وكلمات الاستراحة. فأحدهما يصغي إلى ما يقوله الآخر ثم يعيده أو يجيبه بمثله، والآخر همته مثل ذلك.

فرأيت أنهما لو لم يفعلا هذا زادت المشقة عليهما، وثقل الأمر، وكلما فعلا هذا هان الأمر. فتأملت السبب في ذلك، فإذا به تعليق فكر كل واحد منهما بما يقوله الآخر، وطربه به، وإحالة فكره في الجواب بمثل ذلك، فينقطع الطريق، وينسى ثقل المحمول.

فأخذت من هذا إشارة عجيبة، ورأيت الإنسان قد حمل من التكليف أمورًا صعبة، ومن أثقل ما حمل مداراة نفسه، وتكليفها الصبر عما تحب، وعلى ما تكره. فرأيت الصواب قطع طريق الصبر بالتسلية والتلطف للنفس، كما قال الشاعر:

فإن تَشَكَّت فعلّلها المجَرة من ضوء الصباح وعدها بالرّواح ضُحى

ومن هذا ما يحكى عن بشر الحافي رحمة الله عليه: سار ومعه رجل في طريق فعطش صاحبه، فقال له: نشرب من هذه البئر؛ فقال بشر: اصبر إلى البئر الأخرى، فلما وصلا إليها قال له: البئر الأخرى. فما زال يُعلِّله... ثم التفت إليه فقال له: هكذا تنقطع الدنيا.

ومن فهم هذا الأصل علَّل النفس وتلطف بها ووعدها الجميل لتصبر على ما قد حملت، كما كان بعض السلف يقول لنفسه: والله ما أريد بمنعك من هذا الذي تحبين إلا الإشفاق عليك. وقال أبو يزيد رحمة الله عليه: ما زلت أسوق نفسي إلى الله تعالى وهي تبكي حتى سقتها وهي تضحك. واعلم أن مداراة النفس والتلطف بها لازم، وبذلك ينقطع الطريق؛ فهذا رمز إلى الإشارة، وشرحه يطول (انتهى من كتاب صيد الخاطر، فصل: تعليل النفس).

---

[1] صحيح البخاري 1376.

فيا أخي، كن متوكلًا على الله، واستيقن أنه سيرزقك ما تحتاجه، فلا تشغلك الدنيا عن العمل لله، ولا تكن مهمومًا بجمع المال فتنسى الجمع للآخرة. قيل لحاتم الأصم: على ماذا بنيت أمرك في التوكل؟ قال: علمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأنت نفسي، وعلمت أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يأتي بغتة فأنا أُبادره، وعلمت أني لا أخلو من عين الله فأنا مستحٍ منه[1].

وختامًا، لنأخذ بوصية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حول نعيم الدنيا، فقد نصح سيدنا معاذ بن جبل (رضي الله عنه) "إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ، فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ"[2]، فإن أردنا بلوغ الدرجات العُلى بأن نكون من العُبّاد لله (وبلوغ تقوى الله ضمنيًّا)، علينا بالزهد. ثم إن الدنيا بما فيها من متاع لا تُقارن بمتاع الآخرة، بل وما فائدة المتعة إن كانت زائلة وتُورث عقابًا -أو على الأقل مُحاسبةً- عليها؟ يجب أن نستجوب أنفسنا بما ألقاه الله علينا من حقيقة {أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ} [الشعراء 205-207].

## تجنب الإسراف في المباحات، أو حتى ترك بعضها أحيانًا، لتهذيب النفس وتتطبع بالورع

قال ابن القيم (رحمه الله)، في كتاب الجواب الكافي، عن الأسباب المعينة على ترك المعصية: مجانبة الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس، فإن قوة الداعي إلى المعاصي إنما تنشأ من هذه الفضلات (انتهى).

ومن الواضح أن المبالغة في الأشياء المباحة إنما تُمهِّد طريق المعصية للمرء، وذلك من اتجاهين. أولهما هو أن فعل ذلك يُعلي من نشوة المرء بزيادة ويعتاد الجسد على المتعة، فيكون أكثر عرضة للإقبال على المعصية إذ تُسول له نفسه أنه سيُحصِّل منها متعة أكبر، خصوصًا أن السعادة المفرطة تجعل المرء أقل مقاومةً لفكرة المعصية نظرًا لنشوته واغتراره. ثانيهما، إن الإفراط في المباحات يُشغل المرء عن الذكر، فيبتعد عن ربه، فيكون أكثر عرضةً لاقتراحات الشيطان بالمعصية إذ إن وقاية العبد من الشيطان تنخفض كلما ابتعد المرء عن ربه.

والدليل على تلك الظاهرة عامةً هو أن نهج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان زاهدًا حتى عن بعض المباحات من الدنيا، فمثلًا قد أعرض من أن يُجلب له وطاءٌ يجلس عليه لئلا يؤثِّر الحصير على جسده، وقال "مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا"[3]. وعلى دربه سار الصحابة (رضي الله عنهم)، إذ أدركوا أن الإفراط في المباحات يؤثر على

---

[1] سير أعلام النبلاء للذهبي 485/11.

[2] مسند أحمد 21089؛ وصححه الألباني والسيوطي.

[3] سنن الترمذي 2299.

النفس ويجعلها متفلتة. وهذا يتبين في مقولة لسيدنا عمر (رضي الله عنه)، من ضمن المواعظ التي في المقولة، في أثناء مساءلته لسيدنا جابر (رضي الله عنه) عندما أرارد أن يشتري لحما يشتهيه: أَوْ كُلَّمَا اشْتَهَيْتَ شَيْئًا يَا جَابِرُ اشْتَرَيْتَ؟ أَمَا تَخَافُ هَذِهِ الآيَةَ {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا}؟![1]. فترويد النفس يجعل البُعد والإعراض عن المصية أسهل للمرء.

والآية بكاملها التي ذكرها سيدنا عمر هي {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ} [الأحقاف 20]. وهذه الآية في الكفار خاصة ولكن تعُم في المبدأ، كما دل الحوار السابق.

وقال ابن العربي: وهذا عتاب منه له على التوسع بابتياع اللحم والخروج عن جلف الخبز والماء، فإن تعاطى الطيبات من الحلال تستَشْرِهِ لها الطباع وتستَمْرِئها العادة، فإذا فقدتها استسهلت في تحصيلها بالشبهات حتى تقع في الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمارة بالسوء. فأخذ عمر الأمر من أوله وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله، والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه، على المرء أن يأكل ما وجد طيبًا كان أو قفارًا، ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا أتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يعتمد أصلًا، ولا يجعله ديدنا (انتهى).

والمراد من الكلام أن النعم مسؤولية وحمل، يأتي معها تكليف، فالحذر من أن يتحسن حال المرء بالنعمة فينشغل بها عن ربه، أو أكثر من ذلك وهو أن يعصي ربه بها أو من أجل تحصيلها، لأنها حينئذ تكون نقمة له في هيئة نعمة، ونستطيع أن نقول في تلك الحالة أن النعم التي يُرزق بها في الدنيا استنزافٌ لمكافأة العبد في الآخرة. فإن لم ينشغل المرء بها عن الله ولم يعصِ الله بها، فكفى أنها دينٌ عليه وسيُسأل كيف أدَّى حقها يوم القيامة. وقد تكون تلك النعمة في الحقيقة مكرٌ من الله، إذ إنها تكون تعجيلًا لثواب أعمالٍ صالحةٍ فعلها المرء، يُوفَّاها في الدنيا حتى لا يجد ثوابًا في الآخرة (وذلك يُفعل مع الكفار والمنافقين، وربما أيضًا مع ذوي القلوب المعلولة من المسلمين مثل الحسود والساخط والناقم والقاسي والمتكبر).

وقد جاء في موقف مؤثر بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبين سيدنا عمر (رضي الله عنه)، والذي يرويه لنا قائلًا: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ، فَجَلَسْتُ فَإِذَا عَلَيْهِ إِزَارٌ وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، وَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَقَرَظٍ فِي نَاحِيَةٍ فِي الْغُرْفَةِ، وَإِذَا إِهَابٌ مُعَلَّقٌ، فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، فَقَالَ "مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ

[1] تفسير البغوي والقرطبي لسورة الأحقاف الآية 20.

الْخَطَّابِ؟"، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَالِي لا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لا أَرَى فِيهَا إِلا مَا أَرَى، وَذَلِكَ كِسْرَى وَقَيْصَرُ فِي الثِّمَارِ وَالأَنْهَارِ، وَأَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ! قَالَ "يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمْ الدُّنْيَا؟"، قُلْتُ: بَلَى![1] (وقرظ هو ورق شجر يُدبغ به، وإِهَابٌ هو الجلد قبل الدبغ).

وفي موقف مشابه، جاء عن سيدنا عمر: ثُمَّ رَفَعْتُ بَصَرِي فِي بَيْتِهِ فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ فِيهِ شَيْئًا يَرُدُّ الْبَصَرَ غَيْرَ أَهَبَةٍ ثَلَاثَةٍ، فَقُلْتُ: ادْعُ اللَّهَ فَلْيُوَسِّعْ عَلَى أُمَّتِكَ، فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ وُسِّعَ عَلَيْهِمْ وَأُعْطُوا الدُّنْيَا وَهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ؛ وَكَانَ مُتَّكِئًا [صلى الله عليه وسلم] فَقَالَ "أَوَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَغْفِرْ لِي[2] (أَهَبَةٍ هو جلد الماشية قبل الدبغ أو في أثنائه).

فسبحان الله، لو كان أحدٌ أحق بنعيم الدنيا لكان هو الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولكن ليست تلك سُنةَ الله في الأرض للمؤمن، وليس ذلك مقصد الإسلام الذي يحث المرء على وضع نُصب عينيه هدف الآخرة فينشغل بذلك عن الدنيا. فإياي ووضع الدنيا نصب عينيّ كالهدف، لأنها ليست غاية المتقين ومُرادهم، ومن يفعل ذلك يجد نفسه يسعى سعي الدنيويين الذين يتساوى عندهم الحلال والحرام في نظرهم لتحصيل الدنيا، فيرتكبون ما يرتكبون من الآثام. ومن باع دينه ونفسه لتحصيل الدنيا لم يسلم من أن تهلكه الدنيا عاجلًا أم آجلًا، كما حذرنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا: هَمَّ آخِرَتِهِ؛ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ. وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ"[3].

وقد يتساءل المرء: ما الفائدة من ترك مباح أحيانًا مما تشتهيه النفس؟ والجواب هو أن ترك مباح يكسر قوة النفس (الهوى) في الإملاء على المرء ما يفعله، وهو كالتدريب، حتى إذا جاءت اللحظة العملية، وهي مواجهة ما حرَّم الله، يكون المرء مُعَدًّا للتخلي عنه. يُضاف إلى هذا أن ترك المباحات يُخرج التعلق بمتاع الدنيا من قلب العبد، لأنه يُعاين أنه يستطيع العيش دون هذا المتاع. وهذا السلوك ضروريٌّ أكثر إذا كانت النفس تُقبل على الشهوات كثيرًا بينما تُعرض عن الطاعات، فالتخلي عن بعض المباحات بمنزلة التأديب لها أيضًا، وقد أحسن عون بن عبد الله حين قال: إذا عصتك نفسك فيما كَرِهْتَ فلا تُطعها فيما أَحَبَّت، ولا يَغُرَّنَّك ثناء مَن جَهِلَ أمرك[4] (أي لا تفرح بثناء الناس لأنهم لا يعرفون فدائحك وغدراتك). فوق هذا كله، من يترك مباحًا أحيانًا يكون أكثر استنكارًا

---

[1] سنن ابن ماجه 4143.

[2] صحيح البخاري 2288.

[3] سنن ابن ماجه 253.

[4] أدب الدنيا والدين للماوردي 230.

للحرام بقلبه، لأنه إذا كان يمنع نفسه أحيانًا من المباح، فكيف حاله عندما يرى الحرام بعدما قد ترعرع قلبه في الورع؟ لا شك أنه يكون أشد استنكارًا ونفورًا من الحرام ممن سواه من الناس.

وتوضيحًا لهذا الوضع، فإنه يشبه الحكمة من أن الله جعل أمورًا مُستحبة في سُنةَ الرسول (صلى الله عليه وسلم). وقد يتساءل البعض: ما الحكمة من أن هناك أمور مُستحبة فعلها، لا تاركها يأخذ ذنبًا ولكن فاعلها يأخذ أجرًا، فلماذا لم تكن إما فريضةً وإما متعادلة؟ بجانب نقاط أنها تُميز المؤمنين في الدرجات وأنها لم تُفرض كي لا تُثقل على الإنسان، فإن لها حكمة في أنها تحمي الأساسيات أو الفرائض، مثل أن النوافل من الصلوات تُحرز الفرائض الخمس.

وآليات حدوث ذلك هي أن الذي يُحافظ على النوافل، إذا أصابه إجهاد أو وسوسة من الشيطان، قد يُقصِر في النوافل ولكنه لا يُقصِر في الفريضة. ذلك لأن النوافل درعٌ للفرائض، فإذا بَطَشَ الشيطان جاءت ضربته في النوافل دون الفريضة. ولكن إذا لم يكن هناك نوافل فإن ضربة الشيطان تقع على الفرائض مباشرةً، فترى المرء يتكاسل ما بين تخليه عن صلاة الجماعة في المسجد مثلا أو أنه يؤخر الصلاة إلى آخر الوقت.

ومن المنطقي أن الذي يُحافظ على النوافل يستنكر استنكارًا شديدًا المساس أو التقصير في الفريضة. إذا كان هو يجتهد في النوافل، فكيف يكون أنه يتكاسل في الفريضة؟! وتوابع ذلك أن الشيطان إذا أراد أن يؤثر عليه لا يُوسوس له في خذلان الفريضة إذ سيُقابل باستنكار شديد وإعراض من المرء، ولكنه يوسوس له بالتقاعس عن النوافل لأن المرء أكثر عُرضّة لترك النافلة. فالملخص هو أنه إذا ضعُف المرء أمام الشيطان، فإنه يُخفف من النوافل دون التأثر على الفريضة.

فكذلك الحال مع من يترك مباحًا، إما لاتقاء شبهة فيه وإما لكسر النفس وترويضها على الخضوع للعقل الذي يحكم بشرع الله، فهو أكثر فرارًا من المعصية عندما تُقابله. ونسأل أنفسنا، إذا كان هذا العبد يتحفظ عن بعض المباحات أحيانًا، فما بالنا بسهولة الإعراض عن الحرام له؟ الشخص الذي يكون هذا منهجه، يكون وَرِعًا، بل ويكون من أعبد الناس لله على الأرض استدلالًا بحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَأَقِلَّ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ"[1].

حتى في الضحك قد يكون هناك إسراف فيه، مما يفيض بالمرء إلى المعصية، أو على الأقل النقصان من هيبته وأهمية كلامه عندما يعظ شخصًا. يُروى أن رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مرَّ

---

[1] سنن ابن ماجه 4207.

بمجلسٍ وهم يضحكون، فقال "أكثِروا من ذِكرِ هاذمِ اللَّذَّاتِ، فإنَّه ما ذكره أحدٌ في ضيقٍ من العيشِ إلَّا وسِعه، ولا في سِعةٍ إلَّا ضيَّقه عليه"[1]. فينبغي للمؤمن الاعتدال في الضحك.

فيما يختص بالورع وللتوضيح (وهو الكفّ والانقباض عما يُخشى ضرره في الآخرة)، قسَّم الغزالي (رحمه الله) في كتاب "إحياء علوم الدين" الورع إلى أربع درجات في الارتقاء. الدرجة الأولى هي الانصراف عن أي شيء قد حرَّمه الله، أي الاستقامة على منهج الله. والدرجة الثانية هي الورع عن كل شبهة لم يُوجب الفقهاءُ تجنبها لأنهم يُرَخِّصون في تناولها بناء على ظاهر، ولكن يُستحب اجتنابها، وهذا يكون في الأمور المريبة أو المشبوهة على أنها قريبة، أو يُحتمل أن يدخل عليها، مما حرَّمه الله، وقد تداولناه في باب "ترك المشبوه والمريب مبكرًا وسريعًا".

ثم تأتي الدرجة الثالثة، وهي الورع عن بعض الحلال مخافة الوقوع في الحرام، وهو ورع المُتَّقين الذي عرَّفه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله "لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنْ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ الْبَأْسُ"[2]، والذي هو جزء من موضوع هذا الفصل. أما الدرجة الرابعة، فهي الورع عن كل ما ليس لله تعالى، أي أن العبد لا يفعل شيئًا لا تكون نيّته فيها أنه لإرضاء الله أو للتقوّي على ما يُرضي الله.

ولمن يستنكر فكرة ترك بعض المباحات احترازًا من الحرام، أو حتى ترك بعض الطيبات لترويض النفس، فهذا ليس غريبًا عندما يقارن هذا بما يفعله الناس من ترك بعض المباحات خشية ضرر قد يصيب الجسد أو خشية العدول عن المتوسط حتى، مثل الذي يترك الحلوى حتى لا يسمن. جاء في كتاب "أدب الدنيا والدين" للماوردي: قال ابن شبرمة: عجبت لمن يحتمي من الطيبات مخافة الداء، كيف لا يحتمي من المعاصي مخافة النار؟! فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال:

جسمك قد أفنيته بالحمى ... دهرًا من البارد والحار

وكان أولى بك أن تحتمي ... من المعاصي حذر النار

فإذا كان الناس يتركون بعض المباحات إراديًّا واقتناعًا لتحصيل ميزة في الدنيا، فكيف ننكر على من يترك بعض المباحات لتجنب عذاب الآخرة؟

قبل خاتمة هذا الباب، أود أن أذكر مِن أكثر -هذا وإن لم تكن أكثر- المسائل المباحة التي تُمهّد الطريق إلى عصيان الله، ألا وهي كثرة الأكل. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ؛ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ: فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ،

---

[1] الترغيب والترهيب للمنذري 195/4؛ قال عنه: إسناده جيد. الراوي: أنس بن مالك.

[2] سنن ابن ماجه 4205.

وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ"[1] (فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ أي إن كان سيتجاوز هذه القاعدة، فليُقسِّمها تلك الأثلاث ولا يملأ بطنه كله بالأكل). يقول العلماء إن كثرة الأكل تُثير الشهوات الأخرى وتُقعِّس المرء عن الأعمال الصالحة، ومن ثمَّ يُصبح أكثر قابلية للإقبال على المعصية، وهذا الكلام يجده المرء منا صائبًا جدًّا إذا راقب نفسه وتأملها. أفضل منهج للتعامل مع مسألة الطعام هو ألا يأكل العبد إلا إذا جاع، فإذا أكل فلا يأكل إلى أن يملأ معدته.

آخرًا، أذكر حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ؛ أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ"[2] (الْحِمَى هي الأرض المخصوصة، يُمنع الغير من دخولها). فإذا كان الذي يحوم حول الحمى قريب من الوقوع فيها، فما بالنا بمن أخذ تدابير أكثر احترازيةً بوضع بينه وبين تلك الحِمى أراضٍ لا يُحب أن يرعى فيها؟ أوليس مثل هذا يكون أبعد ما يكون عن المعصية؟ وختامًا لهذا الفصل، كفانا نصحًا ما قاله الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ مِنْ السَّرَفِ أَنْ تَأْكُلَ كُلَّ مَا اشْتَهَيْتَ"[3]، وعلى هذا الدرب سار الصالحون، فهذا مالك بن دينار (رحمه الله) قد أبصر حقيقة المسألة، إذا طاف في السوق فرأى الشيء يشتهيه قال لنفسه: اصبري، فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك عليَّ[4].

## قلة الكلام

إن في الحدِّ من الكلام فوائد عدة، منها أن من يتكلم قليلًا يتفكَّر كثيرًا، ومن تفكر كثيرًا أدرك الحقائق والأسباب وخفايا الأمور، فكان ذلك أعون له في تقوى الله (وتقوى الله هي كلمة جامعة للإيمان مع العمل الصالح وترك المنهيات). هذا وأن إمساك اللسان يجعل المرء يتفادى الأعباء عليه يوم القيامة، لأن كل كلمة يقولها تُسجَّل عليه {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق 17–18]. من ثمَّ، قد يسأل الله العبد عن كل كلمة نطقها وما مراده منها، وذلك ما أشار إليه حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "كُلُّ كَلامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لا لَهُ، إلا أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ أَوْ ذِكْرُ اللَّهِ"[5]. وقد ذُكر أنه رُئي أحد كبار أهل العلم

---

[1] سنن الترمذي 2302.
[2] صحيح البخاري 50.
[3] سنن ابن ماجه 3343.
[4] إحياء علوم الدين للغزالي 67/3.
[5] سنن الترمذي 2336.

في المنام فسُئِل عن حاله فقال: أنا موقوف على كلمة قلتها، قلت: ما أحوج الناس إلى غيث؛ فقيل لي: وما يُدريك، أنا أعلم بمصلحة عبادي[1].

كما أن قلة الكلام تُجنِّب المرء قول كلمة لم يتفكر فيها مليًّا، فيندم عليها (في الدنيا أيضًا) بعد أن تكون قد خرجت وفات الأوان، وقد يضطر إلى الاعتذار للتفوه بها، ولكن لن يعود الحال كما لو لم يقلها. وقد تداول الرسول (صلى الله عليه وسلم) هذه القضية عندما سأله رجل أن ينصحه نصيحة موجزة، فقال "إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ، وَلَا تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ، وَأَجْمِعْ الْيَأْسَ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ"[2] (صَلَاةَ مُوَدِّعٍ أي كأنها آخر صلاة تصليها قبل أن تفارق الحياة).

أو قد يقول المرء كلمة تحتاج إلى شرح نيَّته منها كي لا تُفهم خطا، فإذا لم يُفسِّرها ففُهمت على غير وجهها ربما تؤدي إلى مشكلات لم يقصدها القائل. أو قد يقول كلمة لا يضع لها اعتبارًا ولكنها عند الله بالغة في السوء، فتهوي به في أعماق جهنم! قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ؛ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ"[3].

والمُراقِب للواقع يُدرك أن أغلب كلام الناس يكون في سخط الله بدلًا من رضا الله، ففي هذا الوضع يكون الحد من الكلام عامةً أفيد، إذ يُقلِّص من الأخطاء أكثر مما يُقلِّص من الكلام الصالح. هذا خاصةً أن المرء إذا أحصى ما نهى عنه الشرع من الكلام، لما فيه من الضرر بالنفس أو الناس، لوجد أن أبواب الأخطاء كثيرة، إلى حد أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حث على الصمت قائلًا "مَنْ صَمَتَ نَجَا"[4].

وقد ذكر الغزالي (رحمه الله) في كتابه "إحياء علوم الدين" عِدةً من تلك الأبواب تحت عنوان: آفات اللسان، أذكر منها: الكلام في الباطل (مثل المعاصي)، التباهي بالفصاحة، اللعن والفحش والسب والبذاء، الكذب حتى إن كان في المزاح، الإكثار من المزاح، السخرية والاستهزاء، إفشاء الأسرار، الحلف على الكذب، الغيبة (وهي أن يتكلم امرؤ عن شخص غائب بصفة يكره الغائب أن تُذكر عنه)، البهتان (وهي الغيبة على شخص بصفة هي ليست فيه)، النميمة (نقل كلام الناس عن بعضهم البعض)، التملق، مدح شخص حاضر فيغتر، الإخطاء في فحوى الدين (مثل التكلم في الدين بالرأي بدلًا من العلم، أو قول 'أعتمد على الله وعليك' بدلًا من 'أعتمد على الله ثم عليك'، أو الحلف بغير الله)، الكلام فيما لا يُفيد فيضيع وقت المتكلم والناس ويشغلهم عما يفيدهم. فمن تأمل احتمالية

---

[1] الجواب الكافي لابن القيم 160-161.

[2] سنن ابن ماجه 4161.

[3] صحيح البخاري 5997.

[4] سنن الترمذي 2425؛ وقال: هذا حديث غريب.

الوقوع في أحد هذه الأخطاء وغيرها، ويلاحظ كم من كلام الناس يكون في هذه الأمور، يدرك أن أفضل طريقة لتفادي الوقوع في هذه الأخطاء هي بقلة الكلام.

فبالحدّ من الكلام، يتجنب المرء كثيرًا من الأخطاء والأعباء، كما جاء في الحِكَم: من كثُر لَغَطه كثُر غَلَطه؛ خير الكلام ما قَلّ ودَلّ. وينبغي للمؤمن أن يتجنب لغو الناس أيضًا (أي التكلم كثيرًا بما لا يُفيد)، وليس تجنب أن يكون هو لاغيًا فحسب، وبهذا يتجنب الخطأ أكثر وأكثر. أثنى الله تعالى على الذين يُعرضون عن اللغو {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون 1–3]، وأشار إلى أن اللغو هو من الأمور المُثقلة على النفس، بما أن عدم وجوده هو من مُتع الجنة وراحة لأهلها {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} [مريم 62].

حتى إن لم يقع المرء في ذنب، فالإكثار من الكلام يجعله أكثر عرضة في أن يقول كلامًا يتسبب في الخصومة بين شخصين مثلًا، بالرغم من أنه لم يرغب في هذا. المشكلة تتّضح خاصة إذا أفشى سرًّا من أسراره في لحظة قلة انتباه، أو سرًّا من أسرار صديقه وهو لا يعلم أنه سر، فينتشر السر وهو لم يتوقع أنه ينتشر ويلقى عواقب ذلك. هذا وقد قال سيدنا علي (رضي الله عنه): سِرُّكَ أَسِيرُك، فإن تكلمت به صِرتَ أَسِيرَه[1]؛ وقلة الكلام تُقلّص من افشاء الأسرار.

ومن مَضَار كثرة الكلام أنه إذا خلى من ذكر الله فإنه يؤثر على قلب العبد وسلوكه سلبيًّا، كما قال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْ اللَّهِ: الْقَلْبُ الْقَاسِي"[2]، وهذا يفتح أبوابًا إلى العصيان. فإن كان الوضع هكذا، أن أناس اجتمعوا على مجلس ولم يذكروا الله، كان المجلس عليهم حملًا، ويتحسرون على عدم ذكرهم لله يوم القيامة، كما دل الحديثين "مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ"[3] (تِرَةً أي حَسْرَةً وَنَدَامَةً)، "مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا فَتَفَرَّقُوا عَنْ غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ إِلَّا تَفَرَّقُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَجْلِسُ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[4].

وهناك كلمة، سواء ألقى المرء لها بالًا أم لم يُلقِ لها بالًا، مثل الشتمة أو الغيبة أو السخرية أو الاستهزاء أو الاحتقار لغيره، تكون ثقيلة جدًّا عن الله إلى حد أنها تأخذ من أعمال قائلها الصالحة لغيره كتعويض. فكأنما يُصلي أو يصوم أو يتصدق أو ويعمل خيرًا مع الناس ولكنه يهب عمله كاملًا

[1] أدب الدنيا والدين للماوردي 306.

[2] سنن الترمذي 2335.

[3] سنن الترمذي 3302.

[4] مسند أحمد 10405.

للمظلوم، فيذهب الأجر بأسره لغيره، كأن المظلوم هو الذي عمل العمل، إلى أن يقضي حق وزن تلك الكلمة إلى المظلوم. ولعل هذا مُستوى من مُستويات معنى حديث سيدنا محمد (عليه السلام) "رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ"[1]، أي ليس له نصيب من أعمالٍ له إلا التعب، أما الأجر فيذهب لغيره، والله أعلم.

قد جاء عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ"[2] (وَقَذَفَ أي اتِّهام شخص بالباطل أو دون دليل، مثلًا بالزنا). فلنلاحظ أن هناك إشارة إلى أن كلمة اللسان قد تُورط المرء، مثل بالشتم والقذف والغيبة، في أن يُخصم من عمله الصالح، بل ولعل يوضع عليه من معاصٍ غيره. فمن الضروري أن يُسيطر المرء على لسانه، والتقليل من الكلام يُمسك بزمام هذا الأمر.

وكان يخاف الرسول (صلى الله عليه وسلم) على المسلمين ألسنتهم، كما دل الحديث الذي نقله لنا سُفيَان بن عبد اللَّه الثَّقَفِيّ (رضي الله عنه): قُلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ، قَالَ "قُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ؛ ثُمَّ اسْتَقِمْ"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ "هَذَا"[3]. وفي حديث ناصحٍ قال (صلى الله عليه وسلم) "رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ"، ثُمَّ قَالَ "أَلا أُخْبِرُكَ بِمِلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟" قُلْتُ: بَلَى؛ فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ "تَكُفُّ عَلَيْكَ هَذَا"، قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ "ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ إِلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟"[4] (بِمِلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ أي ما يملك به زمام ذلك كله ويحكمهم به). فإذا سيطر العبد على لسانه، يُسِّرَ له التمسك بشرائع الإسلام وإقامة الصلاة والإقبال على الجهاد.

وقال أيضًا (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ"[5] (مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ أي شفتاه، والمقصد هو الفم واللسان؛ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أي الفرج). وتحديدًا أكثر، بين أوزار اللسان وأوزار الفرج، فإن لسان الإنسان هو الذي يجمع عليه ذنوبًا أكثر، كما جاء في حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أكثرُ خطأِ ابنِ آدمَ في لسانِه"[6]. وأدرك سيدنا أبو بكر

---

[1] مسند أحمد 8501.

[2] صحيح مسلم 4678.

[3] سنن الترمذي 2334.

[4] سنن ابن ماجه 3963.

[5] صحيح البخاري 5993.

[6] الترغيب والترهيب للمنذري 25/4؛ قال عنه: إسناده حسن.

(رضي الله عنه) مدى السقطات الذي يجلبه لسانه عليه، فكان يُمسك بلسانه مُعاتبًا له ويقول: هَذَا الَّذِي أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ[1].

إضافة إلى ذلك، فإن استقامة اللسان تحكم سائر أعضاء الجسد على الاستقامة، وذلك من كلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا"[2] (تُكَفِّرُ أي تخضع وتتبع). وبالمثل للتوضيح، فإن القلب إذا نشأ فيه الحسد فأبداه المرء بلسانه فإن ذلك الحسد ينمو في القلب ويظهر في الأفعال، وإذا رغب أن يسرق بيده أو يزني بفرجه ثم أفشى تلك الرغبة بلسانه علنًا لقرنائه أو غازل امرأة فإن تلك الرغبة التي مرتبطة بيده أو فرجه تتوهج، ويُصبح الشخص أكثر هِمّةً وجُرأة على تنفيذها. أما إذا كتم المرء الحسد والشهوة، وأحجم نفسه عن الإعراب عنهما بلسانه، فإن ذلك أدعى أن تخمد تلك الخطرات والرغبات السيئة، فلا تنعوج (تنحرف) الجوارح نتيجة تجسيدهما باللسان، والله أعلم.

وقد يقول قائل: أليس القلب هو القائد لأنه هو المُضغة التي قال عنها الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنها إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله؟ والإجابة هي نعم، هو القلب، ولكن القلب واللسان بهما صلة وطيدة، إذ إن اللسان مرآة للقلب وينضح بما في القلب، وأن يتحكم المرء في لسانه سبيل من السبل لتهذيب ما في قلبه، ولكنه ليس السبيل الوحيد. فالقلب هو الأساس، واللسان هو أداة للتعبير عما في القلب وأداة للتحكم في القلب أيضًا، فكلاهما يؤثر على الآخر (فهو تأثيرٌ متبادل). قال أبو جعفر المنصور: فإن أحدًا لا يُسِّرُ منكم شيئًا إلا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه، وطوالع نظره[3]. فالعلاقة بين اللسان والقلب تُشبه الزر الذي يُشغِّل الحاسب الآلي ويُضيء، فإن الزر يتحكم في الحاسب، ولكن إذا خرب الحاسب فلن يعمل الزر ولن يُضيء وإن ضُغِط عليه. ولعل العلاقة بينهما تتضح أكثر بحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ"[4].

وتبلغ ذروة صعوبة السيطرة على اللسان حين يغضب المرء ويريد أن يُلقي بكلمة انتقامًا لنفسه، ولكن من يُسيطر على لسانه آنذاك أيضًا يكون له من الله أجر أكبر مما يتخيله. قد نصحنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن نتفادى التكلم عند الغضب، فقال "عَلِّمُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَإِذَا

---

[1] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزية 40.

[2] سنن الترمذي 2331.

[3] البداية والنهاية لابن كثير 323/13.

[4] مسند أحمد 12575، ضعفه الأرناؤوط.

غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ"[1]. إن الإنسان لا يكون مُتَّزِنًا عند الغضب، فمن السهل أن يحيد عن العدل والرشد والتنزُّه والفضيلة إذا تكلم، بل يكون أكثر قابلية للظُّلم. إذا كان المرء عندما يغضب لا يكون أهلًا أن يحكم في خلاف بين رَجُلَين كما أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لَا يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ"[2]، فما بالنا عندما يكون المرء هو نفسه خَصمٌ في القضية ثم يتكلم بناء على حُكمِه؟

هناك مبادئ عامة قد وضعها الله لنا حول الغضب وفضل العفو عن الناس {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [البقرة 237، جزء من الآية]، إذ إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يكن يغضب ولا ينتقم لنفسه، وإنما يغضب وينتقم لله إذا انتُهكت حرمات الله، دون أن يحيد عن الحق. وإن الغضب، كما وصفه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، هو "جَمْرَةٌ تُوقَدُ فِي جَوْفِ ابْنِ آدَمَ، أَلَا تَرَوْنَ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ؟"[3] (أَوْدَاجِهِ هي العروق الكبيرة التي في الرقبة). وأوصانا (صلى الله عليه وسلم) أن إذا ثار فينا الغضب لأنفسنا أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ونقترب من الأرض (مثل الجلوس أو حتى الاضطجاع، ليتذكر الإنسان أنه من تراب الأرض حتى لا تستعلي نفسه وتأخذه العزة بالإثم)، ونتوضأ.

وحول قضية اللسان، يتجلى النموذج عن إمساك اللسان خاصةً في العفو. قد قال تعالى {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} [النحل: 126]؛ {لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (148) إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء 148–149]. فالمظلوم له أن يدعو على ظالمه أو يشتكيه أمام السلطان أو الناس ليسترد حقه، أو حتى ينتقم ليأخذ حقه بالضبط (أي دون تعدٍّ أو زيادة)، ولكن إن صبر وغفر وعفا عن الإساءة يكن خيرًا له في الأجر وأبلغ له في المنزلة عند الله. وينبغي التنبيه أن الظالم للمسلمين عامة يجب أن يُزجر ويُتصدى له ولو بالقوة حتى يرتدع، فمبدأ العفو لا ينطبق هنا إذ قد بلغ منزلة أنه يُضعِف الأمة الإسلامية، بل وقد يبلغ منزلة أنه يُحارب الله في عباده المسلمين، فمثل هذا وجب الانتقام منه لله.

وفي الآية {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [الشورى 40] دلالة على أن الذي يسعى للانتقام لنفسه عُرضةً أن يرد مظلمته بمظلمةٍ أكبر، وذلك سبب من الأسباب أن الله فضَّل العفو على الانتقام للنفس. ثم إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

---

[1] مسند أحمد 2029.

[2] صحيح البخاري 6625.

[3] مسند أحمد 10716. ضعفه الأرناؤوط.

قد قال "مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ"[1].

وينبغي الانتباه إلى جملة "وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ"، أي أنه يستطيع أن ينتقم لنفسه ويأخذ حقه ممن ظلمه، ولكنه يعفو بكتم غيظه، وهذا هو العفو مع القدرة. فإن سابَّه أحدٌ مثلًا فإنه قد يغضب ولكن لا يرد السباب. ولعله يعفو ويزيد على هذا بالإحسان على ظالمه، وذلك باستبدال رد سبابه بتذكرته بالله أو نهيه عن المنكر، مثلًا بأن ينصحه بعدم ظُلم الناس ويُذكِّره أن الله ينتقم من الظالم لعباده انتقامًا شديدًا يوم القيامة.

قد أثنى الله عامةً على من يكتم غيظه ويعفو عن الناس فوق ذلك، ووعده تعالى بالمغفرة والجنة، وبالطبع يشمل ذلك إمساك اللسان عن إنفاذ الغيظ بالرد بالإساءة على ظالمه. يقول تبارك وتعالى {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران 133-136].

ولنا في الصحابة (رضي الله عنهم) خير أسوة ومثال، فقد جاء عن أبو هريرة أن رجلًا شَتَمَ أبا بَكر، والنبي صلى الله عليه وسلم جالس، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يَعْجَبُ ويَتَبَسَّم، فلما أكثر [ذاك الرجل في الشتم]، رد عليه [أبو بكر رضي الله عنه] بعض قولِه، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقام. فَلَحِقَهُ أبو بكر فقال: يَا رَسُولَ اللهِ كَانَ يَشْتُمُنِي وَأَنْتَ جَالِسٌ، فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ غَضِبْتَ وَقُمْتَ، قَالَ "إِنَّهُ كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَقْعُدَ مَعَ الشَّيْطَانِ". ثم قال "يَا أَبَا بَكْرٍ، ثَلَاثٌ كُلُّهُنَّ حَقٌّ: مَا مِنْ عَبْدٍ ظُلِمَ بِمَظْلَمَةٍ فَيُغْضِي عَنْهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا نَصْرَهُ، وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ عَطِيَّةٍ يُرِيدُ بِهَا صِلَةً إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ بِهَا كَثْرَةً، وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ يُرِيدُ بِهَا كَثْرَةً إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا قِلَّةً"[2] (فَيُغْضِي أي يتنازل أو يتجاهل؛ صِلَةً أي صلة رحم). فبالرغم أنه يحق لسيدنا أبو بكر الرد على الرجل، فإن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يأمل له ما هو خير من ذلك في المنزلة والأجر، وهو الصبر والعفو وكظم الغيظ.

ولقلة الكلام مميزات أُخَر، مثل أن الرجل الذي لا يتكلم كثيرًا يكون له نصيب أكبر في التأمل فيما حوله مما خلقه الله. هذا ويكون أكثر تفكرًا وتحليلًا لمَوَاقفه مع الناس وكلامهم، فيصبح أكثر

---

[1] سنن ابن ماجه 4176.

[2] مسند أحمد 9251.

قابلية أن يستشف الحقائق ويتخذ القرار الحكيم. ومن المميزات أن قلة الكلام تجعل الناس أكثر إنصاتًا له، إذ يُدركون أنه لا يتكلم إلا في الحاجة وللإفادة.

وميزة أخيرة، ولكنها مهمة، أذكرها من الحد من الكلام هي أنها تُعطي مجالًا للمرء أن يستزيد من ذكر الله، وذلك لأنه لا ينشغل بالتفكير فيما سيقوله ولا بالتكلم، فهو من الأسباب المُعينة على الإكثار من ذكر الله. ثم إذا عزمت على التكلم، راجع ما ستقوله لئلا تقول ما يُغضب الله. فلا تتكلم إلا بما هو صدق وصائب ومُفيد. وبذلك النهج يوشك الله أن يوفقك للعمل الصالح ويغفر لك {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب 70–71]. وليواجه المرء منا نفسه بسؤالٍ صريحٍ: هل يمكن أن يقول شيئًا هو أقيم وأفيد وأثقل في الميزان من ذكر الله؟

على الوجه الآخر، إن الذي يتكلم كثيرًا ينشغل عن ذكر الله فيكون هو الخاسر. بل وربما يكون وضعه أسوأ من ذلك، إذ بكثرة كلامه يُجهد ويُشغِل الناس حوله عن سعيهم، حتى يصيب إصابة سوء بأن يقطع على أحدٍ كان يذكر الله وينسى استكمال الأذكار لاحقًا، فيخسران هما الاثنان بسبب كثرة كلام المرء الأول. والكارثة هي أن الله قد يُحاسبه على التسبب في قطع أذكار أخيه، ويُحمِّله وزر ذلك.

أما الانحدار الأكبر، وهو بالإخفاق في مسك اللسان عن قول ما يُغضب الله، فهو يفيض بالمرء إلى المهالك، إذ إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد حذَّرنا من ذلك. وذلك عندما بكى على أحد الصحابة لمعاناته في المرض، فقال "أَلَا تَسْمَعُونَ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا -وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ- أَوْ يَرْحَمُ، وَإِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ"[1] (بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ أي بالنياح، إذا ارتضى المُتوفى أن يصيح عليه أهله، وليس المقصود البكاء بالدموع). فهل هناك طريقة لتقليص النطق بما يُسخِط الله أفضل من الحد من الكلام عامةً؟

ويتبقى لنا السؤال: إن كان مسك اللسان أقل للمرء في تراكم الذنوب عليه، فكيف يعرف المرء عندما يكون التكلم واجبًا أو مندوبًا لكيلا يأخذ إثمًا على صمته؟ أولًا، ليُعلم أن احتمالية أن يأخذ المرء ذنبًا على كلمة قالها في موضع كان له أن يسكت فيه أعلى بكثير من أن يأخذ ذنبًا على سكوته في موضع كان ينبغي أن يتكلم فيه. ثانيًا، أن القواعد التي ينبغي للمرء أن يتكلم فيها لله تكون محصورة، مثل الرد على المنتقدين لشرع الله ونحوه، ولو بالقيام من مجلسهم {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} [النساء 140].

---

[1] صحيح البخاري 1221.

وبالطبع ينبغي للمرء التكلم لتصحيح باطل أو ظُلم يتم أمامه، أو لقول شهادة حق تجنبًا لفتنة أو مظلمة، ومثل هذا كله يندرج تحت إطار وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهناك أيضا الحث على الرد على من يغتاب أو يبهت (أي يتّهم زورًا) شخص، فقد أوصانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ، رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1]؛ "مَنْ ذَبَّ عَنْ لَحْمِ أَخِيهِ فِي الْغِيبَةِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنْ النَّارِ"[2].

وجاءت وصية أعم من ذلك، تشمل نُصرة المسلم بالدفاع عنه سواء تم الاعتداء عليه بالكلام أو باليد. قال (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَهُ"[3]. وبناء على هذا كله، فإن المؤمن يُمسك لسانه عن الكلام، ولكن يتكلم عند الضرورة بما يُرضي الله فيُثاب عليه، فهذا كمن قال فيه سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "رَحِمَ اللهُ امْرأً تَكلَّمَ فغَنِمَ، أو سَكتَ فسَلِمَ"[4].

وكوصية شاملة حول قضية اللسان، ليس هناك أفضل وأشمل من وصية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ"[5]. ولنلاحظ أنه لم يُقل مثلًا: إن كان سيتكلم بشَرٍّ فليصمت؛ ولكن جاءت الوصية بأن الكلام إن لم يكن خيرًا فليصمت المرء، فهذا أشمل.

أي إن المرء يُوصَى بالصمت ليس فقط إذا كان كلامه سيكون شرًا، بل أيضًا إن لم يأت من ورائه نفعًا أو فائدة، مثل اللغو من الكلام. وهذا ما دل عليه حديث آخر "إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ، وَمَنْعًا وَهَاتِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ؛ وَكَرِهَ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ"[6] (وَمَنْعًا وَهَاتِ أي لا يُعطي الناس من الخير الذي عنده ولكنه يطلب منهم إعطائه ما يُحبه؛ قِيلَ وَقَالَ أي أن المرء ينقل كل ما يسمعه، والأفدح لو كان لم يتحقق من صحة الأخبار التي سمعها ولكنه ينشرها؛ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ تعني كثرة سؤال النّاس أن يتصدقوا عليه، ويحتمل أن يكون المُراد السؤال عن المُشكلات أو

---

[1] سنن الترمذي 1854.

[2] مسند أحمد 26328، ضعفه الأرناؤوط.

[3] سنن أبي داود 4240.

[4] صحيح الجامع للألباني 3492.

[5] صحيح البخاري 5559.

[6] صحيح البخاري 1383.

عما لا حاجة للسائل به، أو كثرة سؤال شخصٍ عن أخباره). فليكن هذا منهجنا، وليراجع المرء كلامه قبل أن يقوله: أفائدته أكبر من ضرره ووقته أم لا؟

## استمرار التواصل مع الله بالتحاور معه

إن العبد ينبغي أن تكون حياته تدور حول ارضاء الله {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام 162]، وجانب من الطريق لتحقيق هذا هو أن يكون متصلًا بربه، لأن الاتصال مع الله يجعل العبد يظل مُركزًا على إرضاء الله. من البديهي أن من يكون دائم التحاور مع الله، أي يروي لله أحواله وما يدور في باله وما يهمّه، يشعر أنه قريب من الله وأن علاقته شخصية مع الله، ومن ثمَّ يصعب عليه جدًا عصيان الله. هل نرى أن من يُلازم ربه سيفارقه بسهولة عندما يُعرض عليه عصيان من يُلازم ويُحب؟ قطعاً لا، لأن عقله (من جهة الوفاء والمروءة والمصداقية) ومشاعرة مرتبطان بخالقه، فيصعب عليه مُخالفة كل هذا لارتكاب معصية، فبالتأكيد ستتقلص معاصيه.

وهذا يُستدل عليه من أن الأنبياء (عليهم السلام) كانوا يتواصلون مع الله كثيرًا، فهذا سيدنا يعقوب (عليه السلام) يمتنع عن الشكوى إلى أحد من الناس –حتى أبنائه– واقتصر قص ما يغُمَّه إلى الله وحده {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [يوسف 86]. أما فيما يتطرق بالأخص إلى موضوع هذا الكتاب، فإن العبد قد يفصح إلى ربه ما دفعه إلى ارتكاب المعصية من باب الإقرار بالذنب، والاعتراف أنه أخطأ، والبواح أنه يجزع ندمًا، والإذعان لله وبيان ضعفه وذلته لنيل المعذرة والمغفرة. أو قد يبوح بما يدور في نفسه وبيان أنه على وشك أن يرتكب معصية لاجئًا إلى ربه ليعينه على تفاديها، وهذا ما فعله سيدنا يوسف (عليه السلام) {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [يوسف 33].

ولكن كي يُفهم المقصد من هذا الباب صحيحًا، ينبغي توضيح أن لم يكن كلامهم مع الله مقتصرًا على الشكوى أو الدعاء فحسب، بل كانوا يحكون إلى الله أحوالهم وأفكارهم بصراحة، فهم يُحبون التواصل مع خالقهم. فهذا سيدنا موسى (عليه السلام) يقول {قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ} [القصص 17] بيانًا لشكره لله، وقال في موضع آخر {قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [طه 84]. وثبت عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه يقول أحيانًا بعد التبليغ "اللَّهُمَّ اشْهَدْ".

فيا أخي، اطرح الأفكار والأسباب والوساوس التي تطرأ إليك على الله مع مُراعاة الأدب في التكلم، فإنه يعلمهن في جميع الأحوال، فلا مانع من اعلانهن له ما دام هدفك الخير، لاسيما أن هذا

قد يجعل المرء يستحيي لشعور قربه من الله (وقُرب الله منه)، أو يرى الخطب في فكره فينزجر عن ارتكاب المعصية. كن مع الله دائمًا مرافقًا له يكن معك، فيقيك الوقوع في المعاصي أيضًا.

تخيل من كان حاله كأنه يرى الله معظم الأوقات، سيصعب عليه أن يُكثر من عصيان الله. وأريد التشديد على أن التلفظ هام، وليس الاعتماد على أن الله يعلم ما يدور في بالنا، فإن الأنبياء كثيراً ما فُرِّج عنهم البلاء بعدما تفوهوا مثل "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" و"أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين". هذا مع العلم أنه قد يُستجاب للعبد دون التفوه تكرمًا من الله، كما دلت الآية {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [البقرة 144]. يُندب النطق بما في بال العبد كي يكون متكلمًا مع الله، وليس حوارًا ذهنيًا. وهذا الباب، التكلم مع الله عامة، أوسع من فقط الدعاء إلى الله والذي سنتكلم عنه بالتفصيل في بابٍ قريبٍ إن شاء الله.

## الرأفة على النفس في فترة إحداث الإصلاح، لاجتناب اليأس الذي يؤدي إلى إحباط الهمّة وترك الإصلاح

إن كان للمرء عدة معاصٍ (ونفس الحال إذا عَمَدَ لفعل عدة أعمال صالحة جديدة، يريد أن يواظب عليها)، فالتحامل عليهن جميعًا في وقت قصير قد يُجهد النفس، خاصةً لو كان المرء اعتادهن وأحبَّهن. يحدث ذلك عن طريق جعل النفس تيأس من النجاح، أو تنفر من المجهود الشاق ونزعها عما تُحب، أو لعدم ارتياحها وعدم تأقلمها للتغيرات الكثيرة والجذرية في نمط حياة المرء، فتترك المجاهدة. والأفضل في هذه الحالة، للذي لا يطيق التغيير الجذري، هو ترتيب المعاصي من أسوئها إلى أقلها ضررًا، ثم تركيز المجهود على أقبحها لمعالجتها، ثم التدرج في اللائحة حتى يُحقق المرء ما خطط له.

ولكن المهم في هذا الأسلوب هو الصدق مع النفس في تحقيق الأهداف بنمط مُنَظَم ومستمر، ويأتي ذلك بتحديد فترة زمنية تقريبية لمعالجة كل معصية. ولا بأس إن استغرقت وقتًا أطول بقليل عما حدده المرء ولكن المهم التقدم والجهد المستمر ولو كان يسيرًا، وهذا أفضل من التقاعس عن هجر المعاصي. وهذا الأسلوب أيضًا أفضل من التعجل في الانتقال فيجد أنه عندما انتقل إلى معالجة المعصية التالية قد عاد لمعصية قد اجتازها. فإذا استعصت معه معصية بعينها وأطالت معه، فلينتقل إلى التي تليها، ثم ليرجع إلى معالجتها في وقت لاحق وعندما يزداد إيمانه بترك معاصٍ أُخَر. ذلك حتى لا يُعطِّل الجدول كله بسبب معصية واحدة. ولا بأس في مواجهة معصيتين أو ثلاثة في نفس الوقت، ما دام المرء يتحمل هذا، وكلٌ منا أعلم بصفاته وقُدُراته.

أما إذا رأيت نفسك أطحت بالجدول الزمني تمامًا، وظللت تتنقل بين ترتيب المعاصي دون معالجة إحداها بصدقٍ، فاعلم أن نفسك تُماطلك. حينئذ شُك فيها وراجع صدق نياتك وأفعالك، وتساءل عن قوة عزيمتك. ولا تنسى المداومة على الاستغفار في كل الأحوال بالإضافة إلى طلب العون من الله، واحرص على عدم تعريض مثابرتك للإخفات بشهواتك أو الإحباط بالعقبات.

ومبدأ السعي في إصلاح النفس برفق وهواد نستدله من عموم مغزى حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ"[1] (يُشَادَّ أي قاواه، وهنا بمعنى التعمق دون رفق؛ بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ أي الخروج أول النهار وآخره؛ الدُّلْجَةِ أي السير أول الليل. الخروج والسير كناية على اغتنام الأوقات التي يكون الجسد فيها نشيطًا كما يغتنم المسافر تلك الأوقات في سفره). وفي حديث آخر (ولكنه ضعيف) جاء عنه (صلى الله عليه وسلم) "إنَّ هذا الدِّينَ متينٌ فأوغِل فيهِ برفقٍ، فإنَّ المُنبَتَّ لا أرضًا قطعَ ولا ظَهرًا أبقى"[2] (المُنبَتَّ أي الذي أثقل على دابته بشدة السير، فلا يصل إلى جهته ولا حافظ على دابته من الهلاك).

وهناك حديث يحث على الرفق في المعاملة عمومًا، وذلك حين كان يُخاطب النبي (صلى الله عليه وسلم) السيدة عائشة (رضي الله عنها) قائلًا "يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ"[3]. فالحديث يحث عامةً على الاتصاف بالرفق في المعاملات، وذلك بلا شك يشمل الرفق بالنفس، مع العلم أن الرفق مع النفس لا يعني عدم محاسبة النفس ولا عدم مُعاقبتها إذا أساءت.

### إذا لم يجدِ معي نفعًا المواعظ عن الوقوع في المعصية، فلأغير مواجهتي للمُشكلة بأن أسأل نفسي: ما الذي يمنعني من الإكثار من المعصية؟!

في كثير من الأحيان تكون رؤية الأمور من منطلق آخر مؤثرةً على المرء بطريقة مختلفة، فتُعلي هِمّته أو تُثير حَمِيَّته على الحق أو تزيده قناعةً فيما ينبغي فعله. وقد تكلمنا أن هذا الأسلوب عامةً مُفيدٌ في التعامل مع الأمور والمشكلات. للتوضيح بالمثال، قد يرى أحدٌ شخصًا يفعل مُنكرًا فلا يَنهى فاعله لما في ذلك من مشقة أو إحراج، ولكن إذا تفكر في تبعات عدم نهيه: أن ذلك المنكر قد ينتشر مع الزمن حتى يطال زوجته أو بناته شخصيًا، فهذا قد يحمله على أن ينهى الفاعل. فتغيير وجهة النظر يُحفزه للسعي والصبر على المشقة، أو قد يُثير غيرته على دينه وعرضه.

---

[1] صحيح البخاري 38.

[2] الأحكام الشرعية الكبرى للبزار 264/3؛ ضعيف الجامع للألباني 2022.

[3] صحيح مسلم 4697.

وذلك الأسلوب في التعامل مع الأوضاع كثيرًا ما يكون مثمرًا إذا طُبق صحيحًا، ومنها حتى عكس المنظور للأمور حتى تثير غيرة المرء أو نخوته. أما ما يتعلق ذلك من هذا المنطلق بموضوع هذا الفصل، كثيرًا ما يُفكر المرء فقط من وجهة أنه يجب أن يتجنب معصية الله، ولكن قليل من يُفكر: هل هناك ما يمنعني من فعل المعصية؟

توضيحًا، الشخص عادة يضع لنفسه حدًّا في الاسترسال في المعاصي عامةً، أو حتى في معصية بعينها. فمنهم من يتوقف عن التدخين عند حد معين لأن جسده يُنهك، ومنهم من يتوقف عن الإكثار من السرقة كي لا ينفضح، ومنهم من يمتنع عن الزنا بالرغم من ارتكابه عدة كبائر لأنه يرى أن هذا فيه إجرام ودناءة بالغة أو فساد كبير في الأرض أو أن مشكلاته لا تُحصى، ومنهم من يتوقف عن الإكثار من معصية مُحددة خوفًا من بلوغ غضب الله عليه ومن ثمَّ جلب بطشه. فمثل هذه النقاط التي تجعل المرء ينتهي عن العصيان بفِطرَته ينبغي له أن يتسنَّد عليها، فإما أن يتفكر فيها ويُبالغ في إثارتها حتى تُساعده في النفور من المعصية نهائيًّا، وإما على الأقل بتذكُّرها كثيرًا فتكون تنغيصًا عليه في الاستمتاع بالمعصية، فإن مع تذكير النفس بالسلبيات والعواقب التي يكرهها المرء احتمالية أن يُعرض عن المعصية ولو مرة.

وكفى إلمامًا بالقضية حوار إبراهيم بن أدهم (رحمه الله) مع رجل جاءه يسأل: يا أبا إسحاق، إني مُسْرف على نفسي فاعرض عليَّ ما يكون لها زاجرًا ومستنقذًا لقلبي، قال: إن قَبِلت خمس خصال وقدرت عليها لم تضرك معصية، ولم توبقك لذة [أي لم تُنكسك أو تُهلكك شهوة]. قال: هات يا أبا إسحاق.

قال: أما الأولى، فإذا أردت أن تعصي الله عز وجل فلا تأكل رزقه.

قال: فمن أين آكل وكل ما في الأرض من رزقه؟

قال له: يا هذا، أفيحسن أن تأكل رزقه وتعصيه؟

قال: لا، هات الثانية.

قال: وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئًا من بلاده.

قال الرجل: هذه أعظم من الأولى! يا هذا، إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن؟

قال: يا هذا، أفيحسن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه؟

قال: لا، هات الثالثة.

قال: إذا أردت أن تعصيه وأنت تحت رزقه وفي بلاده، فانظر موضعًا لا يراك فيه مبارز له فاعْصِه فيه.

قال: يا إبراهيم، كيف هذا وهو مُطَّلع على ما في السرائر؟

قال: يا هذا، أفيحسن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه، وهو يراك ويرى ما تجاهره به؟

قال: لا، هات الرابعة.

قال: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فقل له: أَخِّرْني حتى أتوب توبة نصوحة، وأعمل لله عملًا صالحًا.

قال: لا يقبل مِنِّي!

قال: يا هذا، فأنت إذا لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب، وتعلم أنه إذا جاء لم يكن له تأخير، فكيف ترجو وَجْه الخلاص؟

قال: هات الخامسة.

قال: إذا جاءتك الزبانية يوم القيامة ليأخذونك إلى النار فلا تذهب معهم.

قال: لا يَدَعُونني ولا يقبلون مِنِّي.

قال: فكيف ترجو النجاة إذًا؟

قال له: يا إبراهيم، حسبي حسبي! أنا أستغفر الله وأتوب إليه (ولَزِمَه في العبادة حتى فَرَّق الموت بينهما)[1].

---

[1] كتاب التوابيين لعبد الله بن قدامة 168-169.

وللُقمان الحكيم مقولة بهذا النهج، فهناك أثر (بسندٍ ضعيف) أنه قال لابنه واعظًا: جمعت لك حكمتي في سِتّ كلمات: اعمل للدنيا بمقدار بقائك فيها، واعمل للآخرة بمقدار بقائك فيها، واعمل لله بمقدار حاجتك إليه، واعمل من المعصية بمقدار ما تطيق من العقوبة، ولا تسأل إلا مَن لا يحتاج إلى أحد، وإذا أردت أن تعصي الله فاعصه في مكان لا يراك فيه[1].

على هذا الأساس، قد يكون مناسبًا لبعض الأفراد أن يسألوا أنفسهم: ما الذي يمنعني من الاسترسال في المعاصي؛ وذلك لتجديد وتذكر الأسباب التي تكبح نفسه عن المعصية. إجابتي الشخصية عن سؤالي لنفسي 'ما الذي يمنعني من المعصية' هو: لا شيء، إلا أن الذي رزقني وعافاني وجعلني متمكنًا على المعصية قادرًا على أن يسلب مني أي نعمة شاء، فجأةً ونهائيًا، على أساس اغتراري وجُرأتي بعدما رزقني. إذا أصرَّت نفسي على المعصية، فلأضع في بالي وأنا في المعصية قدرة الله عليَّ في أي لحظة؛ فهل تكون هذه اللحظة، أم التالية، أم هذه؟

## إذا عصيت الله، فإنك تُفرّح عدو الله: الشيطان

إن الذي تحدى ربي قائلًا {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف 16-17] قد لعنه الله. قال تعالى {لَّعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (118) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا} [النساء 118-119]، قد تجرأ على الله بعصيانه، وعانده بتوعد إضلال الناس عن شُكر الله وعبادته، فنشر الفساد من أجل غايات نفسه.

وهو هو الذي أكمن الضغينة والحقد للإنسان، واستحقره كما تبين عندما سأله الله {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [الأعراف 12]. وعمد إلى أذية أولادنا قائلًا {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلًا} [الإسراء 62] (لأَحْتَنِكَنَّ أي لأستأصِلَنّ ولأستولِيَنّ فأُضِلَّنّهم). ولا يزال يعمل دائبًا حتى يقود أكبر عددًا ممكنًا من الإنس إلى الخلود في النار، وذلك عن طريق جعلهم يكفرون بالرحمن الذي خلقهم {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الحشر 16].

بل إذا دققنا للاحظنا أنه طلب الرحمة والرأفة من الله بالتمسكن، وهذا بإبراز ضعفه وفقره وخضوعه لله، ثم عندما نال الرحمة وتمكّن ظهرت وقاحته وفُجره {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ

---

[1] معرفة الصحابة لأبي نعيم، وروي أوله عن سفيان الثوري في الورع لأحمد بن حنبل.

(36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر 36-39]. فما هذا التجرؤ على القوي العظيم المهيمن؟ وما هذا الاستحقار للإنسان الذي يتبين في كلامه، فقد بلغ غروره وعجرفته إلى حد أنه يتكلم مع الله عنا كأننا قطيع من الغنم سيسوقنا إلى مُراده ويُحقق فينا غاياته ليثبت أنه الأفضل. يتكلم وكأن لا عقل لنا وأننا سندعه يُوجِّهنا.

وهو الذي ظل يتآمر ويدفع المشركين على الرسول (صلى الله عليه وسلم) كي يقتلوه بالتعاون، وذلك في عدة مواضع، منها ما ذكره الله يوم واقعة بدر {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال 48]. قال مفسرون إن الشيطان جاء إليهم في هيئة آدمي (وهو سُراقة بن مالك) فغرَّرَهم قائلًا: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم (أي أنه مدد لهم وناصر لهم)، ثم فر عند بداية المعركة.

بل ومن قبل ذلك، حين اجتمع رؤساء كل قبيلة من قريش في دارٍ لهم، يمكرون لقتله (صلى الله عليه وسلم) قبل هجرته من مكة. فقد تمثل إبليس في صورة شيخ جليل من قوم نَجد، وأنه أتى ليُبدي رأيه وينصحهم، فظل يُفنِّد اقتراحهم بحبسه، ثم فنَّد اقتراحهم بإخراجه من بينهم، حتى اقترح أبو جهل أن يبعثوا من كل قبيلة بغلام لقتله كي يتفرق دمه بين القبائل، فلا يستطيع أهله الثأر له. آنذاك، أثنى الشيطان على ذلك المقترح وقال إنه سينجح، إذ كانت تلك نِيَّتِه من قبل دخوله للمجلس: قتل رسول الله (صلى الله عليه وسلم). وعن ذلك جاء قول الله تعالى {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال 30].

وهو هو الذي يظل يسعى إلى هدم الإسلام عن طريق هدم أفراد المجتمع الإسلامي: المسلمين الذين هم لَبِنة الإسلام. يُحقق ذلك بتفتيت الأسرة المسلمة حتى تتشتت وحدة الأمة وتنتشر المُخاصمة والبغضاء في المجتمع، وينشغل المسلم بحمل همومه الشخصية بدلًا من انشغاله بأمور دينه والأمة. بهذا تصبح الأمة ضعيفة فيسهل على أعداء الإسلام القضاء عليها. الشيطان يفعل هذا لما في تفتيت الأسرة من ضرر بالغ لكل عنصر من عناصر الأسرة، فيكون الرجل غير مُحصَن لعله يقع في الزنا، والمرأة لعلها تتزين فتُفتن الرجال، وحتى تنشغل هي في أمور الدنيا (مثل العمل لتحصيل النفقة) ولا تقوى على تربية الأولاد جيدًا. فينشأ الأبناء وبهم اضطرابات تربوية كثيرة، وربما حتى ينقمون على أوضاعهم الحياتية نتيجة انفصال الوالدين، ويُخاصمون أحد الوالدين أو كلاهما، فيتجهون للشهوات والانحراف (مثلًا إلى المخدرات) ليُخففوا عن أنفسهم معاناتهم النفسية.

فهناك حديث رواه لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) يُثبت أن ضرر تشتيت الأسرة من أبلغ الأضرار التي تقع، ومن أفتنها على المجتمع، فتكون الساحة مُمهدة لجر الناس للكبائر والكفر

بسهولة، وهذا بالطبع ما يرغب فيه الشيطان. الحديث هو "إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا؛ فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا؛ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ؛ فَيُدْنِيهِ مِنْهُ (أو قال: فَيَلْتَزِمُهُ) وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ!"[1] (سَرَايَاهُ أي جنوده وأتباعه).

وقد يكون قد لاحظ بعض الأزواج أن الشيطان يأتي في أحلامهم يُبدي لهم من زوجاتهم ما يُبغضهم منهن، يُثير غيرتهم عليهن ويجعلهم يغضبون عليهن. يُصورونهن يعملون أفعالًا ليست من سيماتهن أبدًا، ويُلقي ظنونًا عنهن لا تمط للواقع بصلة إلا قدر شعرة، حتى يُدخل في الرجل الظنون، على أمل أن يبلغ الزوج تصديق تلك الشكوك فيتَّهم أو يتنصت أو يُفتِّش أو غير ذلك. وبالطبع يؤثر الشيطان من الجهة الأخرى على الزوجة كما يؤثر على الزوج ليوقد الفتنة والبغضاء والقسوة بينهما.

فيجب أن تعي أخي، أنه عندما أنا أو أنت نعصي الله، فإن الشيطان يبتهج ويشمت، ويزيد من تحقيق تحديه مع الله أنه سيُغوي عباده تعالى. أفلا يثير ذلك غيرتك على الله أن الذي حاد الله يُحقق تحديه مع ربك ويظهر مُحقًّا عن طريق المكر؟ والأدهى أنه يفعل ذلك على حساب نجاتك، فتكون أنت شريكًا للشيطان في المخاصمة مع الله ولكن بالمُخادعة! أفلا يُثير غضبك من الشيطان؟ فكيف لنا أن نعينه بعصياننا لله؟! ينبغي للمُسلم أن ينصر الله ويتفوق على عدوه.

## الدعاء

إن الأبواب السابقة تداولت خطوات عملية يتخذها العبد للإقلاع عن المعصية، ومعهن تكون هناك خطوة يُفوِّض بها العبد أمره إلى الله، ألا وهي الدعاء. حقيقة الأمر هي أن العبد لا حول له ولا قوة، فلن يستطيع ترك المعصية مهما اجتهد إن لم يشأ الله، ولهذا عليه بالدعاء. ولكن على الصعيد الآخر، الدعاء مع ترك السعي للإقلاع عن المعصية (بعدم بذل مجهود) إنما هو تمنٍّ، يصعب أن يتحقق الدعاء معه. ينبغي أن تكون هناك أدلة ملموسة أن العبد يُحاول الإقلاع عن المعصية، أي أن يكون الدعاء مقترنًا بخطوات عملية لتجنب المعصية حتى يصبح الدعاء صادقًا، وإلا كيف سيكون هناك اختبار للعبد على اجتهاده في تجنب الفتن؟

صميم محور القضية هو أنك لا تريد أن تعصي الله، والله يريد منك ألا تعصيه، من ثمَّ إذا دعوت الله مخلصًا وصادقًا أن يُنَجِّيك ويعينك على تجنب معصيةٍ ما، فما الذي يجعلك تظن أن الله لن يستجيب لك؟ طلب العون من الله في ترك معصية مُحددة هي سُنَّة علمنا إياها الرسول (صلى الله عليه وسلم)، كما دلت على ذلك واقعة الشاب الذي أراد أن يؤذن له في الزنا فلا يكون مُحرَّمًا عليه،

[1] صحيح مسلم 5032.

والتي ذكرناها قريبًا. ففي آخر الواقعة، دعا له نبيّ الرحمة (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ"[1]. (وَحَصِّنْ كلمة تأتي من التحصين، وهو أن يكون محميًّا من الوقوع في الرذائل).

ذاك دليل عيني بالوقائع على أن الدعاء يُفيد المرء في اجتناب المعاصي. وهناك أدلة عامة متعددة على أن الدعاء يُعين المرء في هجر المعاصي، مثل دعوة الملائكة لمن آمن {وَقِهِمُ السّيّئَاتِ وَمَن تَقِ السّيّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [غافر 9]، أي من أن يقعوا في السيئات في الدنيا وتبعات هذا مما يسوءهم في الآخرة.

وجاء في وصية للرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ؛ وَإِذَا خَرَجَ فَلْيُسَلِّمْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"[2]. فالطلب من الله أن يعصمنا من الشيطان يقي المرء من الوقوع في معاصي، إذ إن الشيطان يزج المرء على معصية الله. وللرسول (صلى الله عليه وسلم) عدة أدعية يطلب فيهن الوقاية من السيئات مثل قوله "اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَعْمَالِ وَأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَقِنِي سَيِّئَ الْأَعْمَالِ وَسَيِّئَ الْأَخْلَاقِ، لَا يَقِي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ"[3].

وكان (صلى الله عليه وسلم) يتعوذ من الفتن قائلًا "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ"[4] (فِتْنَةِ الْمَحْيَا هي الفتن التي تُعرض على المرء طول حياته من الشهوات والابتلاءات، وأسوؤها الفتنة عند الموت إذ قد يُقبض المرء وهو مفتون فتكون خاتمته خاتمة سوء). وأرشدنا أن ندعو بهذا الدعاء عند الجماع قائلًا "لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ 'بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا'، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا"[5].

ومما ينبغي للمرء أن يدعو به هو أن يقيه الله شر النفس، ويعصمه منها، ويستعين بالله عليها، وأن يُزَكِّيها له عن السوء، لأن النفس أمَّارة بالسوء. وهناك أدلة على هذا، منها أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يُوصي أن ندعو حينما نُصبح ونُمسي قائلين "اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ

---

[1] مسند أحمد 21185.

[2] سنن ابن ماجه 765.

[3] سنن النسائي 886.

[4] صحيح البخاري 1288.

[5] صحيح البخاري 5909.

وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ"[1].

هنا يليق بسياق الموضوع بيان معلومة مهمة ومحورية، بعدما تكلمنا عن الأدعية المأثورة ودليل نفعها، ألا وهي أسلوب الدعاء. هناك بعض النقاط تُعلي كثيرًا من احتمالية استجابة الدعاء بتحقيقه في الدنيا، بل وربما تكون الاستجابة سريعةً أيضًا (ولكن يجب تفادي استعجال الإجابة أو السخط إذا تأخرت الاستجابة)، يُندب مُراعاتهم في أثناء الدعاء.

هناك عوامل كثيرة يعلمها الناس تُعلي من فرصة تحقيق الدعاء، منها: الدعاء في الأوقات المُستحبة مثل بين الأذان والإقامة أو عند إفطار الصائم أو في جوف الليل، وفي مواضع مُستحبة مثل المسجد الحرام، أو أحوال خاصة مثل إذا كان الناس لاهون حوله أو وهو مظلوم أو وهو ساجد، أو بآداب مُحددة مثل الوضوء ورفع اليدين والثناء على الله ثم الصلاة على الرسول (صلى الله عليه وسلم) قبل الطلب من الله، وفي أسلوب الدعاء مثل التلطف إلى الله باسمه الأعظم. ثم إن هناك نقاطًا شَرطية التَحقق كي يُستجاب الدعاء، مثل أن يتجنب العبد الأكل والشرب واللبس بالحرام. ولكن ليس موضوع الكتاب حصر هذه النقاط، ولا يسع المجال الاستفاضة في بعضها حق الإفاضة حتى، إضافة إلى أن كثيرًا من المسلمين يعلموهن، يُنصح معرفتهن من الكتب المُتخصصة لمن يجهلهن.

أما الآن فالتنبيه سيكون على نقاط قليلة، فاعليتهن بالغة، وقد يجهلهن الكثير. أولًا، أن يكون العبد غير لاهٍ وغير مشغول وهو يدعو، أي ألا يكون غائب الذهن مشغولًا في أفكارٍ أُخر. فإنه ينبغي للعبد وهو يُناجي ربه أن يكون مُخلصًا، صادقًا، راجيًا، خاضعًا لله، خاشعًا، ذليلًا بين يدي ربه، منتبهًا مع ربه يظهر عليه الاهتمام بالأمر؛ وهذا يصعب تحقيقه عندما يكون العبد مشغولًا بأمر آخر. قال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ"[2].

ثانيًا، يُندب أن يكون الدعاء من القلب، يستشعره العبد ويتدبره، بما يفتح الله على العبد من الدعاء، فيكون الدعاء شخصيًّا. ولعل هذا يجعل العبد يُصيغ الدعاء بألفاظ عامية تلقائية، ولكن المهم هو مراعاة الأدب مع الله في اختيار الألفاظ بالطبع.

ثالثًا، من الإحسان: تعظيم الله والثناء عليه بأسمائه وصفاته مما تتعلق بمسألته، مع التوسل لنيل نصيب منهن، ولجلب لطف الله باستغاثته. فإن كان يطلب المغفرة فليُناجي ربه برحمته وعفوه ومغفرته وكرمه وحِلمه وقدرته التامة على تعذيب العبد، وإن كان يطلب النُصرة فليناجي ربه بقوته

---

[1] سنن الترمذي 3452.

[2] سنن الترمذي 3401.

وعدله وعزّته وجبروته ونصرته للمؤمنين وأنه الحق الذي لا يرضى بالظلم. وهنا، للعون على ترك العصيان، قد يناجي ربه بأنه اللطيف الحفيظ الكافي الصمد المجيب الوهاب الستّير الذي يُنجي عباده من المُهلكات ويغيثهم من كُرُباتهم ويُقلِّب القلوب كيفما يشاء.

رابعًا، يُحث للعبد الاعتراف شفهيًّا بخطئه أو بضعفه، وبأن رجاءه متعلق بالله وحده، وبأن مسألة تحقيق مطلبه في يد الله وحده، أو بعجزه على أنه لا حول ولا قوة له إلا بربه، أو أنه يلجأ إلى ربه وحده في الشكوى من الذنب الذي يقع فيه تكرارًا، أو بهذا كله وما على شاكلته. كلما كان الداعي مُحددًا ومستسلمًا كان أفضل، مثل أن يقول "إن لم تُنجِّني أنت لأكونن من الهالكين"، أو "أخطأت بعصيانك بذنب ’كذا‘ بالرغم من إحسانك عليَّ بنعمة ’كذا وكذا‘ مما يغنيني عمّا حرَّمته، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت"، أو "اللهم إني أشكو إليك تمرد نفسي، وقد نفدت مني حيلي في التغلب عليها لترك معصية ’كذا‘، فأعني، فدون عونك لن أستطيع السيطرة عليها". وقد سمعت رجلًا مُسنًّا قد ابيض شعره يدعو بحُرقة وبعفَوية وبصوت عالٍ، في مكانٍ عامٍ قد أصبح مهجورًا بعدما نزل الوباء مؤخرًا، طالبًا النجاة، يُناجي بنحو: سنذهب إلى مَن يا رب؟ ليس لنا أحد سواك!

هذا كله لا يقلل من شأن الأدعية المأثورة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولكن عندما يضاف عليها التضرع بأدعية بصيغة شخصية من العبد، الذي هو تواصل مباشر من العبد إلى الله دون وسيط، فهذا يُعزز من عبودية السائل لله، لأن الدعاء دليل على إيمان العبد بأن الله هو المُجيب القوي القادر المستحق للرجاء والعبادة والتعلق به. قال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ" (أي لُبّ وخُلاصة وروح العبادة)، ثُمَّ قَرَأَ {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[1]. أيضًا، فإن الدعاء بصيغة شخصية أَدَلّ على مدى احتياج العبد لما يطلبه.

هناك عدة أدلة على الكلام السابق، فخير المثال الذي نأخذ ونتعلم منه هو أنبياء الله. جاء في القرآن دعاء سيدنا أيوب (عليه السلام) {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ} [الأنبياء 83-84] – ولنلاحظ أنه لم يُصرِّح بما يريده تحديدًا، إنما اشتكى إلى الله ثم أثنى عليه. وسيدنا يونس (عليه السلام) عندما كان في مأزق (بطن الحوت) {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ} [الأنبياء 87-88] – فإنه لم يطلب النجاة، إنما شهد بتوحيد الله وأثنى عليه مع التسليم، وأقر أنه أخطأ.

---

[1] سنن الترمذي 3170.

وسيدنا زكريا (عليه السلام) {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء 89-90] – فقد ناشد الله بأنه خير الوارثين، مخاطبًا الله بصفة تتناسب مع المسألة المطلوبة. ودعاء سيدنا نوح فيه استجلاب للُطف الله عن طريق الإقرار بخطئه وضعفه وعجزه {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [هود 47]. ودعاء سيدنا يوسف دليل صريح على مشروعية طلب العصمة من معصية محددة {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [يوسف 33] – ففيه نسب النجاة والتوفيق كاملًا إلى الله وحده، مع طلب النجاة من المعصية، والإقرار بالضعف.

ومن سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) هناك عدة أمثلة، فأرشدنا "سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إلا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ"[1] – ففيه توحيد الله والتسليم له تعالى والإقرار بالفضل والحقوق، ثم الاعتراف بحال العبد وخطأه وقلة وفائه، ثم طلب المغفرة مع الإقرار أن المغفرة بيد الله وحده. ويوم غزوة بدر، دعا (صلى الله عليه وسلم) ربه حتى لا يهلك المسلمون المُوَحِّدون، لأن إذا حدث هذا سينتج عنه محو كلمة التوحيد من على وجه الأرض، قائلًا "اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ تَشَأْ لَا تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ"[2] – فقد ناشد الله بعهده أن ينصر رسوله (صلى الله عليه وسلم) وينصر الحق، وناشده بعبوديتهم له.

وفي فتح دعاء الاستخارة جاء "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ"[3]. وكذلك دعاء كشف الهموم والغموم "اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ؛ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي"[4]. وهناك دعاؤه (صلى الله عليه وسلم) "أعوذُ بعزَّتِكَ، لا إلهَ إلَّا أنتَ، أن تضلَّني؛ أنتَ الحيُّ القيُّومُ الَّذي لا يموتُ، والجنُّ والإنسُ يموتونَ"[5]، فيه تعظيم كبير لله.

---

[1] صحيح البخاري 5831.

[2] صحيح البخاري 4497.

[3] صحيح البخاري 1096.

[4] مسند أحمد 4091.

[5] الاعتقاد للبيهقي 85.

وبالطبع لا ننسى دعاءه (صلى الله عليه وسلم) عندما ردّه من كان يدعوهم للإسلام، فناشد "اللَّهمَّ إليكَ أشكو ضَعفَ قوَّتي، وقلَّةَ حيلَتي، وَهَواني علَى النَّاسِ، أنتَ أرحمُ الرَّاحمينَ، أنتَ ربُّ المستضعَفينَ، وأنتَ ربِّي، إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيدٍ يتجَهَّمُني، أَمْ إلى عدُوٍّ ملَّكتَهُ أمري؟ إن لم يَكُن بِكَ غضبٌ عليَّ فلا أبالي، غيرَ أنَّ عافيتَكَ هيَ أوسعُ لي. أعوذُ بنورِ وجهِكَ الَّذي أشرَقت لهُ الظُّلماتُ، وصلُحَ علَيهِ أمرُ الدُّنيا والآخرةِ، أن يحلَّ عليَّ غضبُكَ، أو أن ينزلَ بي سخطُكَ، لَكَ العُتبى حتَّى تَرضى، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بِكَ"[1]. الدعاء فيه استجلابٌ للطف الله، بتعظيم الله وبيان لجوئه لله ومدى ضعفه وعجزه دونه تعالى.

وجاء في القرآن عن بعض المؤمنين {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (193) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} [آل عمران 193]. هؤلاء المؤمنون ناشدوا الله بأنهم استجابوا له بعبادته وحده عندما جاءهم نبيّه إليهم، متمثّلًا في اتّباعه وتقديم تضحيات وتحمل الاضطهادات، فطلبوا أن يستجيب لهم، ليس لشيء من مقتنيات الدنيا، بل للمغفرة وتوفيقهم للصلاح.

أخيرا، أُعيد التشديد على أن هذا الجانب، الدعاء، يجب أن يلازمه بَذل من العبد في ترك المعصية. أما إن لم يجتهد العبد في ترك المعصية، بترك المحاولات والتضحيات، واقتصر على الدعاء فحسب، فهذا هو التمني... فحتى إن استجاب الله له فاستطاع العبد ترك المعصية، فإن أجره لن يكون عظيمًا. لكن على كل حال، للدعاء أسرار كثيرة، ذُكر بعضهن في هذا الفصل وهناك غيرهن أجهلهن، والحمد لله الذي يستجيب لعباده مناشداتهم على أحوالهم المختلفة وصورهم المتنوعة وأطياف صيغ أدعيتهم، فهو أعلم بحال عباده الذين خلقهم ويفعل ما يشاء.

## تمنَّى

أخي القارئ، قد ذكرنا حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا بَدَّلَكَ اللَّهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ"[2]. فهذا وعد من الله، وما بقي كي تَصرف وتغتنم هذا إلا أن تلتزم أنت بجانبك من الصفقة، وهو التنازل عن تلك المعصية. أخي، إذا رأيت نفسك توشك على ارتكاب المعصية وقد عزمت على ذلك، فحاول مع نفسك هذه المحاولة الأخيرة: تمنَّ من الله المكافأة التي

[1] فقه السيرة للألباني 126، قال عنه ضعيف.

[2] مسند أحمد 21996.

ترضاها لنفسك (وليس التمني على الله، فهناك فرق). والمقصد هو أن تتمنى ما الذي تريده من الله مقابل تركك لهذه المعصية، أي ما قدر ونوع المُكافأة المُستحقة من أجل ترك هذه المعصية؟

فإن كانت متعلقة بمكسب من المال فيه حرام، فتخيل ما الذي تتمناه ثم أطلبه من الله، مثل أنك تريد من الله أنه يُعوِّضك لتركك المعصية بسلعة كنت ستشتريها بذلك المال أثمن من قدر ذلك المبلغ الذي كنت ستجنيه. ثق وتأكد أن الله سيهبك إياها أو مثلها في الدنيا أو الآخرة، فلا تعجل كما يعجل الذي نبأنا عنه الرسول (صلى الله عليه وسلم) "يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي"[1].

وإن كانت متعلقة بنظرة إلى امرأة لا تحل لك، فحدد المواصفات التي تهويهن في المرأة ثم تمناها من الله بدلًا من هذه المرأة. وتصرف على أساس يقيني، أي أنك ستنالها لا محالة، فتفكر مثلًا أنك ستظل تنظر إليها بتمعنٍ دون مانع ولا ملامة لأنها زوجتك من الحور العين، تقابلها في اليوم عدة مرات. وإن كانت المعصية متعلقة بمنصب يكون لك فيه جاه ولكن يتطلب منك ظُلم الناس، فتمنى من الله لتخليك عن ذلك المنصب أن يجعل لك من الجاه والسلطة في الجنة على أفواج من الملائكة والخدم، يأتمرون بأمرك ويبحثون عما يرضيك ويتلهفون لإسعادك.

وزد وبالغ في طلبك من الله إلى أن ترى أنك قد غنمت، وتظن أنك قد تماديت في متطلباتك من تلك الصفقة. ولمن يستبعد أن يستجيب الله لمثل تلك الطلبات المُبالَغ فيها على أعمال صالحة هي صغيرة بجانب عظمة الله، لاسيما إن كانت لتجنب معصية الله في الأصل، فليتمعن في الواقعة المُثبَتة التي تتطرق لهذه القضية:

يروي لنا رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) "انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ؛ فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ. وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي، حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنْ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ [وفي رواية مسلم جاء أنها قالت: يَا عَبْدَ اللَّهِ، اتَّقِ

---

[1] صحيح البخاري 5865.

اللَّهَ وَلَا تَفْتَحْ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ]، فَتَحَرَّجْتُ مِنْ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ؛ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا. وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنْ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسْتَهْزِئُ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ؛ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ"[1].

وحول معاني الحديث: أَغْبِقُ هو شرب اللبن آخر النهار؛ فَنَأَى أي بَعُدَ؛ أُرِحْ أي الرجوع قبل زوال الشمس؛ بَرَقَ أي ظهر؛ فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ أي تحركت فظهر منفذ ولكن لا يتسع للخروج منه. أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنْ السِّنِينَ أي أدركها الفقر والشدة في فترة من الفترات؛ وَالرَّقِيقِ هو العبد المملوك لسيده.

أما حول العبر من الواقعة، فقد وقعت معجزة تمناها الرجل الثاني لمعصية تركها لله كانت متشبثة بقلبه أقوى ما يكون التشبث. هذا وبينما كان الرجلان الآخران يناجيان الله بأعمال صالحة محضة قدّموها لله، ولكن هذا الرجل كان يذكر معاصي له في بادي الأمر، منها مراودة المرأة في الباطل بالزنا، ومنها ابتزازها وقهرها بحاجة أحاطتها، ومنها رؤية ما لا يحل له منها عندما أوشك أن يزني بها، ومنها الغدر والإضرار بصلة الرَحِم إذ كانت ابنة لعمّه. ولكن ذاك كله قبل اللحظة الفاصلة، لحظة ما قُبيل دخوله بها مباشرة بينما لا يُوجَد حائل بينه وبينها ولا يمنعه عائق من إتمام الأمر، حتى إذا لم يبقَ شيءٌ لإتمام الأمر وقع التصادم بين رغبته وبين اتقاء الله والخضوع له عندما ذكّرته المرأة.

لكنه عمد إلى نزع نفسه من المعصية المِحورية، وهي الزنا، بالرغم من مدى صعوبة وشدة ذلك على نفسه. وظهر ندمه وتوبته بأن ترك لها ماله بالرغم من عدم أخذ ما أراده منها، وما كان بينه وبين الله لا يعلمه إلا الله. والظاهر من الحديث هو أن الثلاثة نفر كانوا مخلصين مع الله، وإلا لم يكن الله ليُفرّج لكل واحدٍ منهم جزءًا من الصخرة. فعِظَم المعجزة كانت مع عظم ترك المعصية على قلب المرء، ومع قوة إخلاص العبد مع الله. فكلما تكن المعصية متعلقة بقلب المرء، كلما ليزيد في طلب ما يريده من الله كبديل مباح.

ثم ليسأل المرء نفسه، هل هناك جائزة كبيرة على قدر كرم الله؟ هل يُعقل أن الله يبخل على عبده مكافأة، ولو كانت لا تتناسب مع عمل العبد، بعدما أخلص العبد مع الله في ترك المعصية؟ كيف

---

[1] صحيح البخاري 2111.

وخاصةً أن الله لا يكاد ينقص من ملكه شيئًا إذا أعطى كل الناس ما يتمنونه من أملاك، هذا وهو الغني عن كل شيء من الأصل؟ ذلك كما جاء في جزء من الحديث القدسي "يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ"[1].

ألا إن التجارة مع الله رابحة لا محالة، وأرباحها فيَّاضة. ألا إن التجارة مع الله لن تبور، إذ إن السلعة التي يُقدمها غالية، ألا وهي الجنة. ولكن يجب أن تُوطِّد في نفسك أنك لا تدع المعصية كتفضل منك، فإن الله لا يُضَرّ ولا يُنتفع سواء إذا ارتكبت المعصية أو تركتها، بل أنت الذي تنتفع بتجنب وقوع ضرر المعصية على جسدك، وبتبديلك النفيس بالأدنى (اكتساب سلعة الآخرة بالتنازل عن سلعة الدنيا). إنما تُتاجر مع الله بترك المعصية لنيل الوعد المذكور في الحديث النبوي، فهذا الوعد الذي وعدك الله إياه إنما هو تفضل عليك.

وأخيرًا، إنك لا تدري أخي، لعل مع ما تطلبه وتنتظره من مكافأة في الآخرة، أن يجازيك الله في الدنيا أيضًا بمثل ما تخليت عنه، ولكن من الحلال، فليس من شيءٍ يُقيِّد كرم وقدرة الله! فاصبر وتمنَّ أخي، فإنها لا تُنال الجوائز النفيسة إلا بمجاهدة النفس والتضحيات، فبِت محتسبًا الثواب عند الله.

---

[1] صحيح مسلم 4674.